

من الشرق والغرب

نافذة على الفكر العالمي الحر



الشرق والغرب

من الحروب الصليبية الى حرب السويس

الجزء الثاني في عدوان الغرب

بقلم
محمد علي الغتيت



من الشرق والغرب

الغرب والشرق

من الحروب الصليبية إلى حرب السويس

الجزء الثاني

في عدوان الغرب

تأليف

محمد علي الغتيت

بسم الله الرحمن الرحيم

ان التاريخ ليسجل للامة العربية والاسلامية عهودا كانت فيها هذه الأمة ذات وعى قوى يقظ كلما اتيحت لها قيادة رشيدة حكيمة مبصرة مخلصة تعمل على تنمية الوعى القومى بين العرب والمسلمين وتجهد لمسايرة التطور العلمى وتنمية موارد البلاد وتطويرها اقتصاديا وعلميا ، بحيث يتوافر للعرب الى جانب القوة المادية القوة المعنوية ، قوة الايمان والعقيدة .

ان مثل هذه القيادات القوية ، كانت كلما توافرت للامة العربية والاسلامية ، من حين الى آخر ، وسواء أكان ذلك فى عهد الدولةالعربية أم كان فى عهد الدولة العثمانية ـ التمع مجد العرب والمسلمين ، نتيجة لتوافرها وكانت لهم شدة بأسهم وقوتهم الضاربة التى أخافت الغرب فى حينها .

غير أنه لما ركن العرب وركن من بعدهم الاتراك الى نظام الحكم الوراثى ، أصاب العرب والمسلمين من التدهور ما يصيب كل البلاد التى يخضع الحكم فيها لهذا النظام ، وكان ذلك ايذانا باضمحلال دولتهم وأفول مجدهم ، كما كانت الحال ، على هذا المنوال ، بالنسبة لزعامة الدولة العثمانية للمسلمين .

لقد شهد التاريخ تدهور الدولة العربية فى الاندلس ، وتدهور الدولة العثمانية فى الشرق ، وكان الغرب وراء ما حاق بالدولتين ، والى سياسته يرجع القضاء عليهما ، تلك السياسة التى ما برحت تتربص دائما بالعرب والمسلمين والتى كانت مصلحتها تقضى باضعافهم ، ووقف تطورهم وتقدمهم ، كى يتمكن الغرب من دفعهم دائما لمواجهة هذا الخطر ... العرب والاسلام .

تلك هي نظرة الغرب للعرب والمسلمين ، وذلك هو ما اعده الساسة والحكام والقادة في الغرب لمواجهة ما يزعمونه من الخطر العربي والاسلامي . فسياسة الغرب ، على هذه الصورة ، تشكل بدورها خطرا على العرب والمسلمين ما زال قائما منذ قرابة عشرة قرون الى يومنا هذا فهل يمكن القول بأن وعي حكام العرب والمسلمين كان في مستوى هذا الخطر ، أو انه بلغ مستوى وعي الغرب في هذا الشأن ؟ ... لا نحسب أن حكام العرب ، فيما مضى ، قد أعدوا لهذا الخطر عدته ، من تطوير الوعي الوطني في شعوبهم ، ومن نشر العلم بين طبقات الشعب جميعا وعدم الاستئثار به لطبقة دون أخرى ، ومن تبصير ابناء الامة دائما واعدادهم ابدا لمواجهة السياسة الغربية الاستعمارية المتربصة بهم ، وملاقاتها بزاد من الثقافة والمعرفة والقوة ، والاحاطة بمراميها وأهدافها .

لقد كانت العبرة واضحة أمام حكام الامة العربية والاسلامية في ائتلاف الغرب ضد العرب والاسلام وفي قدسية هذا الائتلاف بحيث كان وما زال يجب الخصومات بين دوله ويحجبها ، ويربط بينهما من أجل وحدة الهدف المشترك ضد الامة العربية والاسلامية ... ولكن ، على الرغم من وضوح العظة وصراحة العبرة في هذا الشأن ، فان الحكام العرب التقليديين لم يتعظوا ولم تجنح بهم العبرة الصارخة الى الوحدة والتضامن ، فما انفكوا يتناحرون ويتنابذون ويصارع بعضهم البعض ، في حين أن سياسة الغرب لهم جميعا بالمرصاد تتربص بكل منهم الدوائر .

***

وعلى هذا المنوال ظلت أمور العرب والمسلمين تتردى من سيء الى أسوأ حتى انبعث ، أخيرا ، الوعي القومي في الامة العربية والاسلامية وأصبح لزاما على كل من يتصدى لقضايا العرب أن تكون عدته لذلك ، تثبيت وعيهم القومي الجديد ، وتبصيرهم بموقف الغرب منهم والكشف عن أهداف سياسته ومراميها ووسائلها ، كشفا علميا لا يستهدف الدعاية أو الاثارة ، وانما يستهدف الحقيقة ، ويقوم على أساس وقائع التاريخ الثابتة ، وما يعززها من الوثائق والادلة .

وقد كان هذا سبيلنا الذى التزمناه فيما قدمناه من أجزاء هـــذا المؤلف .



تقصينا فى هذا المؤلف علاقة الغرب بالشرق منذ الحروب الصليبية الى حرب السويس وقسمناه الى ثلاث مراحل ، الاولى مرحلة الصراع بين الشرق والغرب وتمتد من الحروب الصليبية الى عهد محمد عـلى ، والثانية هى المرحلة التى شملت اتجاه الغرب الى العدوان على سائر البلاد العربية والاسلامية وضراوة الاستعمار فى الشرق وبنهاية الحرب العالمية الاولى انهينا هذه المرحلة ، حيث بدأنا المرحلة الثالثة بانبعاث الامة العربية للجهاد فى سبيل حريتها واستقلالها وانهيناها بنهاية هذا المؤلف عنـد حرب السويس .



ولقد أفردنا للمرحلة الاولى جزءا من أجزاء مؤلفنا مازال تحت الطبع ، تناولنا فيه سياسة الغرب وخطواتها الاولى تجاه الشرق للسـيطرة على بلاده فى صورة الحروب الصليبية وكيف أن هذه السياسة راحت تلتهم الدين وتأخذ منه غذاءها ، وعليه تقيم دعايتها للسيطرة على الشرق ، وتنشر روح الكراهية ضد الاسلام فيه ، وتستعدى على المسلمين والعرب سائر أهل الغرب على اختلاف مذاهبهم الدينية وأهدافهم السياسية، وألممنا فيها بأساليب سياسة الاستعمار من غرس بذور الكراهية بين مسيحيى البلاد العربية ومسلميها ، ومن اشاعة المخاوف بين الاقليات ليمهد الغرب الى فرض حمايته للاجانب .

عرضنا لكفاح الغرب ضد قيام الوحدة بين العرب ولا سيما بين مصر وسورية ، وكفاحه حتى لا تقوم للقومية العربية قائمة وحتى لا يتحقق فى الشرق تجمع اسلامى كان يرى الغرب فيه الخطر كل الخطر على سياسته ثم عرضنا فى تلك المرحلة الى عهـد محمد على فوفينا هذه الحقبة من التاريخ حقها وابرزنا سياسة هذا الحاكم التى كان أوضح ما فيها تخاذله

عن النهوض بما كان متاحا له من أسباب الزعامة للعرب والمسلمين وايثاره موقفا يظل فيه تركيا في روحه وتصرفاته الامر الذى حرمه طاقة قوية ادى حرمانه منها الى الضعف والعجز والتسليم فى النهاية للغرب بكل ما أراد بحيث أصبح هو تابعا ذليلا لدوله .

***

وفى الجزء الاول من المرحلة الثانية من مؤلفنا أوضحنا كيف بدأ الاستعمار الغربى زحفه على البلاد العربية والاسلامية ، وكيف كتلت دول الغرب جهودها لتعزل مصر عن سائر البلاد العربية ، وكيف اصطنعت حكام أسرة محمد على وخديويها وسخرتهم لتحقيق أغراضها وأهدافها نظير أن يساند الغرب هؤلاء الحكام ويحمى عروشهم فى بلد عربى هم أجانب عنه . ثم ألممنا بأساليب الغرب لاستغلال مصر وحصوله على العديد من الامتيازات التى كان أخطرها أثرا فى حياة البلاد امتياز قناة السويس وفصلنا جهود دول الغرب متضافرة ومتنافرة فى سبيل هذا الامتياز الخطير والوسائل الخسيسة التى لجأ اليها فرديناند دى لسبس من أجل هذه الغاية ، وكيف كبد شق القناة مصر خسائر فى الارواح والاموال انتهت بالبلاد الى مأساة لن ينساها التاريخ .

***

وتناولنا بالتفصيل ما جلبته الامتيازات الاجنبية على مصر من المظالم وكيف عرضت دماء الاهلين للامتصاص ثم كيف انتهى التدهور المالى للبلاد الى فرض الوصاية الغربية على شئونها المالية بحيث كانت هذه الوصاية تمهيدا لغيرها من سائر الوان السيطرة الغربية التى انتهت بالاحتلال البريطانى العسكرى بمصر . وفيها عالجنا السياسة الانجليزية الفرنسية فى مصر ، متفقة ومختلفة ، متآزرة ومتنافرة ، والممنا بدواعى واسباب اتفاقها حينما اتفقت ، وبالظروف التى عاصرت اختلافها حينما اختلفت ، وكيف سخرت سياسة بريطانيا فرنسا لتحقيق هدفها فى مصر ثم اقصت فرنسا فى النهاية عن غايتها فى هذا البلد ثم كيف انه بلغ من نفوذ بريطانيا على السياسة الفرنسية ان كانت قادرة على أن تنحى عن

الحكم رئيس الوزراء الذى لا يجارى السياسة البريطانية ويعارضها ، كما اسهبنا فى تفصيل الاحداث عندما عرضنا الى مؤتمر الاستانة وعندما عالجنا الرقابة الثنائية فى مصر لنبرز الدهاء فى أساليب السياسة البريطانية التى تميز به كفاحها فى المؤتمر ، وفى الرقابة الثنائية .

وفى هذا الجزء عالجنا الثورة العرابية من ناحية أساليب السياسة البريطانية الفرنسية فى مصر ثم اسيب هذه السياسة تجاه الباب العالى وأوضحنا الظروف والاسباب التى انتهت بهذه الثورة الى عكس ما اراده القائمون بها وأوضحنا كيف فشلت الخطة العسكرية الغربية فى حرب السويس عام ١٩٥٦ مع أن هذه الخطة ذاتها نجحت فى حرب ١٨٨٢ ضد عرابى .



وابرزنا موقف الغرب مفصلا من الامبراطورية العثمانية ، ونظرته اليها كزعيمة للعالم الاسلامى والعربى ، وثقة ساسته بقعود تركيا فى النهاية عن هذه الزعامة ثم نظرته اليها وهى تميل للاضمحلال ، وابقاء السياسة الغربية على الدولة العثمانية فى حالة من الضعف لا تجعل لها فى المحيط الدولى أكثر من دور سجن مقفل على حريات البلاد العربية التابعة لها ، وامتناع الدول الغربية عن الاجهاز على هذه الامبراطورية قبل أن يتم الاتفاق على توزيع ممتلكاتها بينهم ، ثم كيف تم هذا التوزيع فى نهاية الحرب العالمية الاولى حيث تنتهى بنهايتها هذه المرحلة من مؤلفنا



والآن نقدم الجزء الثانى والأخير من المرحلة الثانية فى مؤلفنا . موقف الغرب وسياسته فى افريقيا العربية والاسلامية..وكيف استشرى الاستعمار فى هذه المنطقة من العالم وكيف راح الغرب يعمل على تطويق الاسلام الافريقى بين فكى كماشة رهيبة زاعما أن من حقه أن يستولى على بلادها بقوة السلاح دون اعتبار ـ فى ذلك ـ لاحكام القانون الدولى التى كانت ـ فى رأيه ـ لا تحمى الا شعوب الغرب ولم توضع الا من أجلها ، والممنا بدعوة البابا ليون الثالث عشر الى حملة صليبية يقوم بها

الغرب فى أفريقيا ضد الاسلام ، ويكون المبشرون والمغامرون طلائع هذه الحملة .



ثم تناولنا السودان باعتباره ـ اذ ذاك ـ اكبر وحدة متماسكة فى افريقيا تمتد حدوده من البحر الاحمر والمحيط الهندى حتى شواطىء المحيط الاطلسى .

وفى هذه المرحلة ، نجد بالتفصيل أن محمد على فتح سودان وادى النيل ، دون أن يكون متأثرا فى هذا بغير كونه فاتحا .. ثم نجد بعد ذلك اسماعيل ، وقد سخرته سياسة الغرب لتحقيق أهدافها فى السودان على أوسع صورة ، فبدأ بايعاز من هذه السياسة فى تطبيق سياسة الغزو والعنف واحلال سياسة القوة والتسلط فى السودان محل روابط الاخوة والمسالمة وسنرى كيف أن بريطانيا قد جعلت من اسماعيل مخلب قط يتحرك لمصلحتها لا فى السودان فحسب بل فى افريقيا العربية والاسلامية، وكيف كان نصيب مصر من السودان نظير انفاقها عليه وتحملها الكثير من اعبائه مقصورا على اشباع غرور اسماعيل وتغذية كبريائه بمظاهر الحكم الشكلى وحدها ، بينما كان نصيب بريطانيا من السودان ، هو الحكم الفعلى ، والسيطرة الواقعة ، فباسم مصر كان غوردون وغيره من الحكام البريطانيين يحكمون السودان ولكنه كان حاكما لمصلحة بريطانيا لا لمصلحة مصر ... بل انه سيبدو لنا انه كان حكما ضد مصر اذ كان كثير المساوىء مرهقا للاهلين أشد الارهاق ... وكانت مساوئه جميعا منسوبة بطبيعة الحال الى مصر .. الى مخلب القط .. وعلى هذا قام نجاح سياسة الانجليز فى اظهار المصريين فى السودان فى صورة الحكام الظلمة القساة . فى حين كان المصريون فى السودان بمثابة ستار يعمل أصبع السياسة البريطانية من ورائه ليبعث الفوضى فى السودان ويذيع الفساد فى أرجائه .

وتناولنا فى هذه المرحلة محاربة الغرب لاقتصاديات السودان وأساليبه من أجل القضاء على تجارته ، وما سلكته سياسته بصدد النخاسة فى

السودان واثارته الرأى العام العالمى ضد هذه التجارة ، وكيف استغلت بريطانيا هذه الدعاية لكى تجهز على النشاط التجارى فى السودان • ثم كيف تمت لها هذه الغاية فحرمت تجارة الرقيق وأصبحت سوقها غير قائمة بينما ظل قنصل بريطانيا فى السودان وظل أغلب قناصل الدول الغربية وابناء الغرب فى السودان يمارسون تجارة الرقيق •

وبصفة عامة قد أوضحنا فى هذه المرحلة كيف راح فكا الكماشة الغربية الاستعمارية يتقاربان فى بطء للضغط على الشعوب العربية والاسلامية فى افريقيا •



ثم تناولنا فيها مخاوف بريطانيا من سيطرة روسيا على بلاد آسيا الصغرى ، وتصديها بدافع من مخاوفها لحماية الباب العالى والمحافظة على سلامة أراضيه وبحوثها لعقد مؤتمر من الدول الاوروبيةفىبرلين أصرت بريطانيا فيه على الغاء معاهدة سان استفانو التى وقعت بين روسيا وتركيا عقب هزيمة الثانية فى حربها مع الاولى•• وكيف أن بريطانيا بينما كانت تحاول الغاء هذه المعاهدة قامت بعقد اتفاقية سرية مع تركيا مكنتها نصوصها من الاستيلاء على قبرص حماية للباب العالى من عدوان روسيا •

وسنقرأ فى هذه المرحلة تفصيلا لما وقع فى مؤتمر برلين وكيف ان دول الغرب حددتفى هذا المؤتمر مستقبل افريقيا ومصاير شعوبها فتقاسمها الاستعمار ووزعت بين الدول الاوروبية ، ثم كيف حرصت بريطانيا فى جلساته على أن تسجل لمصر السيادة على مجرى النيل ، وعلى أن تباعد بين اية دولة أوروبية وبين حوض نهر النيل بأكمله ، ثم كيف كانت تمهد بهذا كله لاقامة امبراطورية افريقية تمتد من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح •



ثم عرضنا باسهاب الى تسلل الاستعمار البريطانى الى حوض وادى النيل ، ولاثارته للفتن فى السودان ثم الى ما أعلنه اللورد جرانفيل وزير

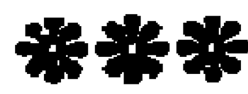
خارجية بريطانيا من حرصه على استقلال السـودان وما تلا ذلك من انسحاب مصر من السودان خضوعا لامر بريطانيا ، وأوضحنا كيف كان اجلاء مصر عن السودان ، احدى مراحل السياسة البريطانية المرسومة في افريقيا .

وسنرى في هذه المرحلة ، كيف انه لما تم لبريطانيا احتلال مصر رأت في هذا فرصة تمكنها من احتلال السودان ، فاعلن وزير خارجيتها بأنه لا أمن لمصر الا اذا رفـرف علمها على الخرطوم ، ثم كيف تنكر الوزير البريطاني للسودانيين الوطنيين منذ تلك اللحظة ، وراح يهاجمهم ويعلن انه طالما كان السودان والنيل في ايديهم ، فلا يمكن ان يستقر الحال أو يسود الهدوء والنظام ، ينـدد بهم ويتهمهم بالتعصب ويدعو الى الثأر منهم لدم القائدين البريطانيين غوردون وهيكس مع أن هـؤلاء السودانيين هم ذاتهم الذين اعترف لهم وزير الخارجية من قبـل بحقهم في الحرية والاستقلال ايام ان كانت سياسة بريطانيا توصي بهذا الاتجاه كما نرى كيف عادت بريطانيا الى السودان باسم مصر ، وكيف حكمته باسم مصر .

وأوضحنا في هذه المرحلة ذلك الخطر الذي واجه بريطانيا والغرب بقيام دولة عربية في قلب افريقيا ترامت حدودها من زنجبار الى مصب نهر الكونغو ، دولة سيطر عليها العرب وشملت فيما شملته ، « كاتانجا » اقليم النحاس ، وكيف كان الغرب يرى في قيامها من الخطر على سياسته ماهو أبعد أثرا وأشد بعثا على الخوف من خطر المنافسة التي كانت قائمة اذ ذاك بين دوله على افريقيا وصراعهم على المغانم فيها . وتضافر جهـود دول الغرب ضد العرب في افريقيا ومساندتها لبلجيكا في حملتها العسكرية ضدهم ، وكيف فقد العرب في جهادهم ضد الغرب وفي معاركهم ضد الاستعمار البلجيكي ما يقرب من سبعين ألف رجل ..

ثم كيف اتيح لفرنسا والحبشة أن تتوسعا في افريقيا على حساب السودان وقد تناولنا ذلك الصراع الذي قام بين بريطانيا وفرنسا للسيطرة على السودان ، وأوردنا دفاع السياسة الفرنسية عن وجهة نظرها في هذا

الصدد ، وتمسكها بالمساواة لبريطانيا فى حقها للقضـــاء على ما أسـمته بالبربرية فى هذه البلاد ، ونعيها على بريطانيااستباحتها لنفسها حـــرية العمـل فى افريقيا وحرمان فرنسا هـذا الحق ، وزعمها بان لهـا فى السودان ذات الحقوق التى تدعيها بريطانيا،ثم شرحنا كيف انتهى الصراع بين الدولتين فى السودان بخضوع فرنسا أمام التهديد البريطانى ،وسردنا كيف ان بريطانيا اجبرت مصر على توقيع اتفاقية السودان التى قـررت الحكم الثنائى من أجل أن تكون بريطانيا صاحبة الحقوق فى السودان ولكى تسخر اقتصادياته لصلحتها فى حين تتحمل مصر الالتزامات دون أن يكون لها حقوق ، وكيف منحت بريطانيا الحبشة مقاطعتى هرروهرس الأسلاميتين ، ثم كيف أمعنت أساليب السياسة البريطانية من أجل فصم عرى الروابط بين أبناء السودان وكيف أولت البعثات التبشيرية فيـــه عنايتها ورعايتها ومساندتها فى مهمتها ، كما تحدثنا عن وجوه الشبه بين ثورة المهدى فى السودان وثورة أحمد عرابى فى مصر .



وفى هذه المرحلة ، يبدو لنا كيف نفذ الغرب خططه فى افريقيا العربية والاسلامية بعد مؤتمر برلين بحيث استولت فرنسا عـلى أراض افريقية تضم اربعين مليونا من السكان وبحيث بلغت تجارة بريطانيا مع مستعمراتها عام ١٨٩٠ ثلثمائة وعشرين مليونا من الجنيهات ، كما يبدو لنا ان نهاية القرن التاسع عشر شهدت وقوع الأراضى العربية والأسلامية فى افريقيا فى قبضة دول الغرب والحبشة ولم يبق من هذه البلاد بعيدا عن ايدى هذه الدول ـ آنئذ ـ غير مراكش وليبيا .



وتناولنا تفرق كلمة القادة فى الشعوب الافريقية بحيث لم يجد الغرب أمامه الا شعوبا وقادة انهكتهم الفوضى والفساد وباعد بينهم التناحر والعداء ، وكيف راح ساسة الغرب يعملون على ابادة العناصر الوطنية فى البلاد ، وعلى تفكك المجتمعات الافريقية ، ونشر الفساد والانحلال فيها ،

فى حين كان هؤلاء الساسة يجدون لغزو افريقيـــا ثقافيا ونشر اللغات الاوروبية ، املا فى قتل الوعى الوطنى ، وليجعلوا من افريقيـــا مصدرا لرخاء الغرب لعدة قرون .

وسنقرأ فى هذه المرحلة ، كيف تحولت نظرة الغرب الى افريقيا فأصبح يراها جزءا متمما لأوروبا لاغنى لها عنه بحيث يقضى انتزاعها من أوروبا الى موتهـــا ، وتقرأ كـــذلك كيف دعا ســـاسة الغـــرب الى ادماج أوروبا وافريقيا ، وكيف اتجهت دعايتهم الى القول بأن وحدة الدين والهدف تحتم على اوروبا ان تقيم اتحادا يضم دولها من اجل ان تتكتل جهودهم لاستثمار افريقيا ولربطها بمصير اوروبا ، وفصلنا كذلك، تكتل الدول الغربية للقضاء على الاسلام فى افريقيا بوصفه العقبة الكؤود فى سبيل أهداف هذه الدول وبوصفه معرقلا لخطط الغرب فى هذا القارة، ولكونه ، ظل صامدا لا يتراجع برغم احتلال الغرب لبلاده وقوة الضغط عليه ..



وافردنا فى هذه المرحلة من المؤلف صفحات لتونس برغم ان احتلال الغرب لها كان سابقا على احتلال مصر ، وفيها يجد القارىء كيف أن تونس كانت مركز اشعاع للثقافة والحضـــارة الاســـلامية منذ الفتح الاسلامى ، وكيف أن تسامحها وجنوحها للمسالمة أطمعا الغرب فيهـــا ، واتجهت اليها سياسته فطبقت فيها ذات الخطط وذات الاساليب التى طبقتها فى مصر ، .. وعرضنا الى ما كان يقوم به عملاء الغرب من الحكـــام واليهـــود والطبقة المستغلة الاقطاعية من العمـــل على عرقلة مشروعات الاصلاح ، وعلى نشر الفوضى فى البلاد ، واشاعة الفساد فيها بحيث تدهورت تونس اقتصاديا ، وانتهى بها الأمر الى المأساة المالية والسياسية التى انتهت باحتلالها ، وتناولنا بالحديث وجوه الشبه والترابط من حيث الاسلوب والوسيلة ثم النتيجة بين سياسة فرنسا فى تونس وســـياسة انجلترا فى مصر ، ونهاية كل من السياستين باحتلال البلد التى استهدفتها .



وقد تناولنا موقف بريطانيا أمام الرأى العام العالمى الذى كان

يطالبها بالجلاء عن مصر ، وتحدثنا عن سياستهـا فى هـذا الصـدد ، وكيف واجهت هذا الاتجـاه فى دول العـالم بفيض من تصريحـات المسئولين الانكليز تؤكد فيه عزمها على الجـلاء عن وادى النيـل ، وقدمنا فى هذا الصدد تصريح جلادستون رئيس الوزراء الذى قال فيه بانه سيحرص دائما على ألا يأخـذ احتلال انكلترا ـ على الرغم منها ـ صفة الدوام ، وانه لايستطيع أن يحدد أجلا لهذا الاحتلال ..

كما فصلنا ، كيف أن هذا الاتجاه الملتوى فى سـياسة بريطانيا بصدد الوعد بالجلاء ، انما كان من أجل أن تجـد بريطانيا الفرصـة فيما بعد لتزعم لنفسها رسالة جديدة فى مصر ، تضطلع من أجلها باعادة النظام فى البلاد ، وحماية الخديو من عدوان رعاياه ، وحماية الشعب من استبداد الخديو ومن عبث الطبقـة الحاكمة ، وحمـاية الفـلاح من المرابين الاجانب والمشارقة وحماية الاجـانب والمشارقة من التعصب الاسلامى ، ثم كيف تزعم لنفسـها رسالة من أجل انقاذ الادارة المصرية من الافاقين ..

ونرى فيها كيف كبدت بريطانيا خزانة الحكومة المصرية نفقات عدوان اسطولها على ميناء الاسكندرية وكيف حملت هـذه الخزانة نفقات الاحتلال والكثير من التعويضات المترتبة على هـذا العـدوان ، وبالجملة يبدو لنا فى هذه المرحلة من مؤلفنا كيف فرضت بريطانيا على مصر أن تدفع هذه ثمن احتـلالها ، كما تناولنـا بالتفصيل أسـاليب السياسة البريطانية بعد احتلالها لمصر ، ومختلف مابذلته من الوسائل الديبلوماسـية وغيرها للتحلل من تعهـداتها المختلفة ومراوغتها لدول أوروبا فى هذا الشأن . ثم كيف عملت من أجل أن تحول نظر هـذه الدول عن موضوع الجلاء عن مصر ، ووسائلها لاستدراج البـاب العالى الى الاعتراف بمشروعية احتلالها لمصر ، واقراره .

وعالجنا عهد كرومر فى مصر واسلوب حكمه للبلاد بحيث ربط مختلف الطبقات الحـاكمة بمصالح بريطانيـا ، وتناولنا ولاءه المفرط للسياسة الاستعمارية ، سياسة « بسط يد السـيد » على البـلاد ،

وكيف طبقها فى مصر ، ثم كيف كانت نظرة كرومر الى المصريين وتقسيمه الشعب الى طـوائف ، لم تكن فى رأيه ، يربطها فى مجموعهـا الولاء لوطن واحد • ثم كيف انتهت مراوغة بريطانيا لدول أوروبا فى مسألة الجلاء عن مصر ، الى وضع العالم فى هذا الصدد أمام سياسة الأمر الواقع •

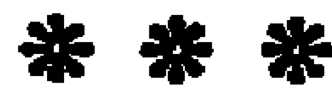
وشرحنا مواقف بريطـانيا من فرنسـا حينما راحت فرنسـا وفرديناند دى لسبس يسعيان من أجل تحييد القنـاة ومن أجل جعل شركة القناة شخصية اعتبارية من أشخاص القانون الدولى العام وبذلك تنسحب عليها الحماية الدولية ، وكيف قاومت بريطانيا هـذا المسعى وعارضت تحييد القناة وأصرت على أنه لاوجه للشبه ، فى هذا الشأن بين قناة السويس وبين أى مجرى مائى آخر ، ورفضت مشروع انشاء لجنة دولية للرقابة على القنـاة كما اعترضت على مبدأ التدخل الدولى ، وعلى مبدأ الضمان الدولى لحرية المرور عبر القناة •• وفى هذا الصدد أوضحنا كيف تمسكت بريطانيا ـ اذ ذاك ـ بحق مصر فى السـيادة على قناتها ، وكيف نادت بمسئولية مصر عن أمن القناة وسـلامتها ، وأصرت على استبعاد الحياد لفظا ومعنى ؛ بل انه ليبدو للقارىء ، فى هذه المرحلة من مؤلفنا ، كيف أن بريطانيا ناصبت العداء كل من طالب بحياد قناة السويس ، وكيف كانت تؤكـد حق مصر المطلق فى كل ماتراه ضروريا للدفاع عن نفسها ولاقرار الامن فى منطقة القناة ••

***

وسنرى كيف أن فرنسا ، التى كانت تصر على الحد من حـرية مصر وغل يدها عن التصرف فى منطقة القناة ، عادت فعـدلت ، أمام مقاومة بريطانيا ، عن اصرارها وسلمت بسيادة مصر على القناة عـلى أن تمارس مصر ذاتها حقوقها فى هذا الشأن دون أن يكون لغيرها الحق فى ذلك سواء بالتنازل من جانب مصر أو بالانابة عنها • وأوضـحنا كيف انتهى الأمر بفرنسا فى النهاية ، الى تسليمها لبريطانيا بوجهـة نظرها فى هذا الصدد ، والاعتراف الكامل لوضع القناة بوصفها جزء

لايتجزأ من مصر وباقرار حق مصر فى السيادة عليها وبأنه لايجـوز أن يكون هناك أى تدخل دولى بصدد قناة السويس ، وقد تحدثنـا كيف تم الاعتراف بسيادة مصر على القناة ، وبحقها المطلق فى كفـالة سلامتها وأمنها كما تم تنظيم المرور لجميع الدول عبر القناة . وذلك كله فى معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ .

على أننا حرصنا فى مؤلفنا على ابراز هذا الجانب فى تاريخ قناة السويس لان قناة السويس مازالت قائمة وستظل قائمة مابقيت مصر ولان ما ابرزناه من أسس يلقى ضوءا قويا على حقيقة موقف فرنسـا وبريطانيا عام ١٩٥٦ عندما قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس ويبين لنا الى أى مدى كان تنكر الدولتين للمبادىء المتفق عليهـا فى معاهدة القسطنطينية .



وعرضنا فى اسهاب الى غزو فرنسا لمراكش ، ورجعنا بهذا الغزو الى أسبابه وبواعثه ، فتحدثنا عما بدا لفرنسا من خطورة مركزمراكش باعتبارها من معاقل الوعى الاسلامى الرئيسية فى افريقيا ، وكيف أن المشكلة المراكشية قد ازداد خطرها فى نظر الغرب الى حد أن أصبحت عنده من المشكلات ذات الاثر فى توازن القوى بين الدول الاوروبية ثم تحدثنا عن التنافس الذى قام حول مراكش بين كل من بريطانيـا وفرنسا وألمانيا واسبانيا ، وكيف كانت الجزائر ، وأمن الجزائر ،ذريعة لفرنسا دائما تبرر بها العدوان على مراكش ، ثم تناولنا تصفية النزاع أخيرا بين بريطانيا وفرنسا باتفاقهما الودى الذى عقداه فيما بينهماعام ١٩٠٤ ، وكيف انهت الدولتان بهذا الاتفاق ما كان قائما بينهما من الصراع الاستعمارى ، فاطلقت انكلترا بموجبه ، يد فرنسا فى مراكش واطلقت هـذه يد بريطانيا فى مصر — ثم فصلنا ماجـاء نتيجة لهذا الاتفـاق الاستعمارى من اعتـداء فرنسـا عـلى مراكش ، وكيف قام رائـد الاستعمار الاول « المارشال ليوتى » بتنظيم احتـلال فرنسا لهـذا البلد .

وسيجد القارىء عند هذا الحد من مؤلفنا صورة مفصلة للدهاء الاستعماري الخبيث ابرزناها فى السياسة التى وضعها الماريشال ليوتى لاقرار الاستعمار الفرنسى فى مراكش . وكيف كانت الاسس التى أقام عليها سياسته الاستعمارية التى تعتبر دستورا للاستعمار الغربى وكيف كان الماريشال ليوتى يبنى سياسته فى مراكش على اقناع المراكشيين بأن الاحتلال الفرنسى لبلادهم وان كان فى صورة الغزو ، الا أن المقصود به رعايتهم وحمايتهم ، والهدف منه أن يعم الخير ويشمل التقدم مراكش باسرها ...

وكيف كان ينصح فرنسا ، ألا تكف عن العمل سياسيا داخل المجتمع المراكشى لتثير فيه الاحقاد وتبذر بذور الفتن بين أوساطه ، ولتستغل مايكون بين الافراد وبين الجماعات من مطامع وشهوات ، أو من عداوة وخصومات ، ثم عرضنا رأى ليوتى فى قيمة العمل السياسى المستعمر فى الشعوب ورفع مستوى هذا العمل الى مستوى العمل العسكرى الذى يعتمد عليه الاستعمار ، ثم الى امعانه فى الاعتمادعلى الوسائل السياسية لاقرار الاستعمار ، الى حد أنه رفع هذه الوسائل الى مستوى أعلى من مستوى الوسائل العسكرية . ثم تحدثنا عن نظريته فى استغلال الجهاز الادارى فى مراكش من أجل تثبيت استعماره وتقوية السلطات المحلية التى يتزعمها شيوخ العشائر الموالين لفرنسا والاعتماد على من وصفهم بضعاف النفوس والضمائر من رجال السلطان وأعوانه ... وعلى أية حال فاننا قد تركنا المارشال ليوتى يتحدث عن فلسفته الاستعمارية فى تلك المرحلة من مؤلفنا ، على الصورة التى سيجدها القارىء .

* * *

وسنجد كيف اتفق الغرب على تمكين ايطاليا من احتلال ليبيا ، وكيف اعتمدت ايطاليا فى هذا الاحتلال على فرنسا وبريطانيا لتؤمنا غزوها لهذا البلد ، ثم شرحنا كيف مهدت ايطاليا الى غزوها للاراضى الليبية بذات الاساليب الاستعمارية المألوفة الممهدة لكل عدوان استعمارى ، وبذات المبررات والمزاعم ، ثم تحدثنا عن وقوف الدول

الغربية فى وجه الباب العالى والاحرار العرب ، حتى لايخف الباب العالى ولا يخف العرب لنجدة أبناء ليبيا والتعاون معهم فى كفاحهم ضد ايطاليا وبينا كيف انه على الرغم من هذا التساند الاستعمارى مع ايطاليا ، فان هناك من أبناء الشعوب العربية من تمكن من التسلل الى حدود ليبيا وبذل مابذل من التضحية الى جانب اخوانه فى ليبيا فى معاركهم ضد ايطاليا ...



وأوضحنا فى هذا المؤلف ، كيف تم للغرب احتلال افريقيا العربية والاسلامية ، وأوضحنا أن ما أصاب الشرق من هذه المحن لم يكن مرده الى افلاس الشرق من المبادىء أو الطاقات الروحية والمثل العليا، ولكن كان مرده حكامه التقليديين .

وسنرى ، كيف تهاونت الدولة العثمانية ، وكيف انه لم يبق لها من القوة سوى مجرد الزعم بانها تستمد سلطانها من الاعتبارات الدينية التى احتفظت بها كوسيلة اخيرة تربطها بالمسلمين وتجمعهم وراءها ... ثم كيف راحت البلاد العربية تسقط فى يد الغرب الواحدة تلو الاخرى ، كما تسقط الثمار بعد ذبول وجفاف دون أن يعنى آل عثمان من أمر العرب والمسلمين الا بأمرين ، امتصاص خيراتهم ، ثم التفاخر بانهم قادة الاسلام ... ورأينا كيف فات السلاطين الاتراك أن الحفاظ على الاستقلال والتمسك بالشرف يقتضيان استعدادا دائما للدفاع عن الكيان ، وفاتهم أن الشعب الذى لايقوى على النهوض والدفاع عن نفسه اذا مادق ناقوس الخطر ، انما هو شعب مقضى عليه بالفناء ، وان الاستعداد للتضحية بالحياة فى سبيل الدفاع عن الحق ، يكفل الحق ... ويكفل الحياة ...

ورأينا كيف أن الشرق كان يفتقر الى زعيم قوى يقف فى وجه آل عثمان ، وفى وجه الغرب ، زعيم يجدد للشرق ، وللاسلام شبابهما ...

ثم رأينا كيف أن أحدا لم يدرك هذه الحقيقة .

ولقد تحدثنا عن سياسة الغرب تجاه العرب والمسلمين ، وامعان ساسته وقادته فى تدبير الخطط للقضاء عليهم ، وتناولنا فى هذاالصدد ماقاله الوزير الفرنسى « هانوتو » فى معرض التنديد بهذا الاتجاه فى سياسة الغرب والتنبيه الى خطورة الدخول فى معركة فاصلة بين الغرب وبين الاسلام ، والاشارة الى استحالة هزيمة الاسلام بالسهولة التى كان الغرب يتصورها واستحالة القضاء على مئات الملايين من المسلمين بجرة قلم أو بطلقة من مدفع ... رأينا كيف راح هانوتو يخاطب الغرب فى هذا الصدد متسائلا فيقول « أتريدون دفع المسلمين الى الوراء وطردهم من أراضيهم ؟ ، وأين المكان الذى أعددتموه لهم ؟ ، ويقول الوزير الفرنسى لساسة الغرب ... انكم حيثما طاردتم الاسلام وجدتموه دائما رابضا على حدودكم ــ وأنه اذا كان المسلمون اليوم غير قادرين على التكتل للدفاع عن وجودهم فان تشتيتهم سيكون مصدرا للخطر ، لانهم اذا ماشتتوا كان فى وسعهم أن يحدثوا الاضطرابات هنا وهناك ، فى قلب أولئك الذين سيطروا عليهم وتحكموا فيهم ...

وعرفنا كيف أدرك الغرب قوة الاسلام على حقيقتها ثم تحدثنا عن أسلوبه فى تحذير المسلمين وتركيزه لجهوده فى الدولة العثمانية ، وكيف أن هذه الدولة ، كانت فى ذات الوقت تسعى لبث الدعوة للجامعة الاسلامية أملا فى أن تجدد بهذه السياسة شباب الدولة العثمانية وتثبت سيطرتها فحين كان العرب ماضين فى سعيهم لبعث القومية العربية وتحقيق الوحدة بينهم جادين من أجل التحرر من سيطرة الدولة العثمانية عليهم ... وعلى هذه الصورة فقد كان واضحا مما قدمناه فى هذا الصدد وفى هذين الاتجاهين التركى والعربى ، انه كانت هناك حدود فاصلة بين سعى الاتراك وهدفهم لتحقيق التجمع الاسلامى ، وسعى الاحرار العرب وهدفهم من أجل بعث القومية العربية ... كما أوضحنا « بالنسبة للمسعيين » أن سياسة الغرب لم تفرق بينهما من حيث النتيجة وان الغرب كان يرى ان الاتجاهين ينتهيان الى تحقيق

هدف واحد من حيث انه يشكل خطرا داهما على سياسته ... ومن أجل ذلك فقد كان الغرب حريصا على القضاء على الحركتين فى أية صورة لهما ...

وتناولنا وسائل الغرب فى كفاحه لكل حركة على حدة وكيف انه كان فى البلاد التى يسيطر عليها يتهم القومية العربية بالتعصب الدينى واثارة الفتنة حينما تدعو الى التحرر من نير استعماره وسيطرته ويعزو اليها اثارة النعرة الدينية ودعوة المسلمين الى التجمع ضد الغرب ، ثم كيف أن الغرب كان ، فى كفاحه لحركة التجمع الاسلامى التى تدعو لها تركيا ، وكيف كانت محاولاته فى سبيل الاجهاز على هذه الدولة ، تقوم على تشجيعه للعرب من أجل المطالبة بحريتهم واستقلالهم .

وسنرى كيف اتجهت سياسة الغرب قبيل الحرب العالمية الاولى الى تشجيع قادة العرب على الدعوة لبعث القومية العربية واحيائها ، وكيف أن القومية العربية التى كانت سياسة الغرب تعنيها ، هى نوع من القومية يستغلها الغرب ويسخرها أداة لمصلحته ولتحقيق أهدافه.. وفى هذا النطاق — وحده — أوضحنا فى هذا المؤلف ، كيف مضى الغرب فى تشجيعه للعرب ودفعهم الى قومية عربية مرسومة ، وكيف كان الغرب ، فى كل هذا — مطمئنا الى أن الخلافات التى لاتنتهى بين الحكام العرب كفيلة باضعاف الأمة العربية دائما ، كما انها تكفل له القدرة على الاجهاز عليهم متى شاء .

ذلك كان موقف الغرب وموقف الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى من الدعوة الى الجامعة الاسلامية والقومية العربية .

* * *

وسنرى ، فى هذا المؤلف ، كيف قيض للغرب النجاح فى اثارة العناصر الوطنية العربية فى أنحاء الدولة العثمانية ضد هذه الدولة ، وفى حملها على التحفز ضدها ، وكيف بدا لتركيا هذا الخطر الذى بات يهددها ، فراحت تعدل من نظمها فى الادارة والحكم أملا فى أن تحتفظ

بولاء المسلمين والعرب بحيث يكون نصيبها فى هذا الولاء أكثر من نصيب القومية العربية فيه ، وكيف أن هذه السياسة لم تجد تركيبة وباءت بالفشل .

ثم تناولنا فى المؤلف نظرة سياسة الغرب الى الخلافة العربية ، وحرص هذه السياسة على ألا يتاح للعرب بعث القومية العربية أو تحقيق وحدتهم أو اندفاعهم نحو تجمع اسلامى جديد فى ظل خلافة عربية ، وتحت زعامة عربية ... وكيف سعى الغرب وعملت سياسته بين العناصر العربية فى سورية ولبنان من أجل أن يباعد بينهم وبين الدعوة الى القومية العربية أو تحقيق التجمع الاسلامى بقيادة عربية ، وفى هذا الشأن اتخذت سياسة الغرب فى سورية ولبنان اسلوب التحذير من عداء عنصرى الامة المسيحيين والعرب وفرقتهما نتيجة للاتجاه الى دعوة القومية العربية أو بعث التجمع الاسلامى زاعمة أن هذا الاتجاه من شأنه أن ينفر المسيحى العربى ويشعره بضعف الرابطة الوطنية بينه وبين العربى المسلم ، محذرة من مغبة القومية العربية والتجمع الاسلامى وخطرهما على اتحاد عنصرى الامة فى وقت تشتد حاجتهما فيه الى الاتحاد والتآزر للعمل من أجل الاستقلال .

***

وقد أوضحنا كيف أن الدولة العثمانية بدأت تتجه الى ألمانيا ، وكيف بعث هذا الاتجاه ، بريطانيا وفرنسا على التحفز لخطر التوسع الألمانى فى الشرق ، ثم كيف كانت قوة أثر هذا التوسع فى سياسة بريطانيا بحيث جب خطره الخطر الروسى الذى كان دائما من العناصر التى تقيم عليها انكلترا سياستها فى الشرق فتضاءل فى سياستها خطر روسيا بظهور خطر ألمانيا ، ورأينا كيف أن بريطانيا راحت تعد عدتها لمواجهة هذا الخطر الجديد فاخذت تعمل على اتمام سيطرتها على الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية وراحت تفاوض امراء وحكام تلك البلاد لينفصلوا عن الدولة العثمانية ، وفى هذا الصدد عرضنا الى امعان السياسة البريطانية فى تنفيذ خطتها الى حد أن بريطانيا عرضت

على رفيق باشا شريف مكة ـ اذ ذاك ـ أن تكون مدينتا مكة والمدينة ملكا خاصا له اذا استجاب للخطة التى أعدتها الحكومة البريطانية لفصل الحجاز عن الدولة العثمانية ...

ثم رأينا كيف اتجهت سياسة الغرب ـ فى ذات الوقت ـ الى تمزيق البلاد العربية ومسخها على صورة دويلات متخاصمة متناحرة وكيف كان ساسة الغرب يدلون بتصريحاتهم المؤيدة لحرية العرب فى تقرير مصيرهم فى ذات الوقت الذى يقف فيه المسيو بوانكاريه رئيس وزراء فرنسا ليعلن بان لفرنسا فى لبنان وسوريا مصالح أساسية تقليدية وان حكومته مصممة على هذه الحقوق وموطدة عزمها على اجبار الآخرين على احترامها والاعتراف بها ، ويعلن كذلك تأييد انكلترا لبلاده فى موقفها هذا ، وعرضنا الى انصراف العرب عن مرمى هذا التصريح حينما اذيع وعن الانتفاع به فى تخطيط سياستهم اذ ذاك ...

وقد سردنا بالتفصيل كيف مضى الغرب فى سياسةالتغرير بالعرب ليباعد بينهم وبين تركيا بعد أن دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا ، وكيف راح ساسة الغرب يعملون على اجتذاب الشعور الاسلامى وتعبئته لمصلحة الحلفاء .. وشرحنا كيف تابر ساسة الغرب على تصريحاتهم المضللة الى الحد الذى اخفى عن العرب العبرة التى كان لابد أن يستخلصوها من سياسة بريطانيا ضد مصر حينما فرضتعليها الحماية واعلنت فيها الاحكام العرفية على أثر دخول تركيا الحرب ، وكيف أن هذا الاجراء البريطانى كان بمثابة الضوء الذى يكشف أمام العالم العربى نوايا الغرب لو لم يخفت هذا الضوء أمام بريق وعود الغرب للعرب وأمام سيل تصريحات ساسته المغررة المضللة .

* * *

وتصدينا الى تآمر الدول الغربية على قضايا العرب وكفاح هذه الدول متساندة ضد قيام دولة عربية أو اسلامية موحدة والى مزاعم

الغرب فى هذا الصدد ، وذهابهم الى أن البلاد العربيـــة غير مهيـأة للاستقلال وغير صالحة للحكم الذاتى ، وتناولنا فى هذا الشأن سياسة الغرب التى كانت اذ ذاك ذات وجهين ، وكيف وجد العرب فى وجهها الظاهر وعودا سخية بالاستقلال والحرية ، فى حين اتجه فى ذات الوقت وجهها الخفى الى ماينافى تلك الوعود فعقدت دول الغرب فيما بينهـا اتفاقية سرية فى سان جان دى مورين قسمت بموجبها بلاد العـرب والدولة العثمانية بين الدول الغربية ، وبذات الوجه الخفى فى سياسة الغرب ، كانت فرنسا وبريطانيا تفاوضان العرب فى الوقت الذى تعقد فيه الدولتان اتفاقية سرية فيما بينهما لاقتسام الشرق العربى ... وفى ذلك كله أوضحنا كيف فات العرب أن يدركوا أهداف سياسة الغرب التى كانت ترمى الى السيطرة التامة على مصادر الثروة فى بلادهم ، على البترول فى العراق والخليج الفارسى ثم على الاراضى الممتدة من البحر الابيض المتوسط حتى الهند ، كما لم يدركوا أن بلادهم يراد بها أن تكون غنيمة حرب للحلفاء .

* * *

وتناولنا موقف الشريف حسين وولديه عبد الله وفيصـــل فأبرزنا موقفهم على حقيقته لا فى صورته الظاهرة ، معتمدين فى ذلك عـلى الوثائق الرسمية التى تقـرؤها فى مكانها بهـذا المؤلف . حيث كان حديثنا عن صلة هؤلاء العرب الثلاثة ببريطانيا وكيف كانوا على علم بحقيقة نوايا الغرب ، وكانوا ضالعين فى التآمر معه على قضايا العرب، ثم كيف اخفوا هم ومن آزرهم من العرب ، عن الأمة العربية ، ماعرفوه من خطط الغرب ، ونواياه الخفية ، وما وضح لهم من ذلك كله عـلى ضـوء ماتسنى لهم معرفتـه من مختلف ما القى من بيانات الغـرب وتصريحات ساسته الخاصة بشئون العرب ، ولا سيما ماتنـــاولته الوثائق الرسمية ومن بينها تقرير لمجلس الشيوخ الفـرنسى نشرته الجـريدة الفرنسية الرسمية يقول : ـ

« كان ممكننا ان نشارك المسلمين هذا الشعور » يعنى الحصول على الاستقلال » الذى يتفق واتجاهات فرنسا ومثلها الانسانية لولا علمنا بما فى الاسلام من روح تعصب ومن النزعات التوسعية ـ فاذا تحقق اعادة تكوين هذه الامبراطورية العربية العظيمة التى ينشدها سائر المسلمين ويتحمسون لها فى قوة ، والتى يبدو خطرها كأكبر ما يهدد تلك الاعمال العظيمة التى قامت بها انكلترا وفرنسا فى مصر والهند والجزائر وتونس وما زال إيجرى اقامتها فى مراكش ..

ثم أثبتنا بالمؤلف ما جاء فى هذا التقرير من القول « بأن واجب فرنسا وانكلترا لا يقتصر على تطوير مصالحهما المادية فى الشرق وحمايتها ، بل أن واجبهما يتعدى ذلك أيضا ، ويعين عليهما مراقبة الحركات السياسية والدينية الخطيرة التى يمكن أن تحرك العالم العربى لتحول دون تفاقم خطر مثل هذه الحركات واتساع نطاقها كى لا تمتد الى سائر البلاد الاسلامية التى تخضع لحكم أى من الدولتين أو لوصايتهما أو تخضع لادارتهما ، فهى بلاد تعتبر ضمن التراث الوطنى لانكلترا وفرنسا ، قد ارتبط بهما مصير الدولتين الى الابد !! ..

وهكذا ، وضع الغرب دستوره الذى لم تحد عنه سياسته فى الشرق العربى الاسلامى ...



وسنرى فى هذا المؤلف كيف أن احرار العرب قد لمحوا ذلك الخطر الذى بات يهدد الامة العربية ، وانه على الرغم من أن هؤلاء الاحرار قد نبهوا أبناء أمتهم الى مايدبره لهم الغرب ، فان سياسة الغرب وجدت من الشريف حسين وولديه عدة ركائز لها واتخذت منهم قناعا عربيا كانت فى حاجة له لتحجب عن العرب ملامحها ووجهها ، كما كانوا للسياسة الغربية بمثابة نقط ارتكاز فى البلاد العربية والاسلامية تدبر فيها وتنساب منها مؤامرات الغرب وخططه ضد العرب ، لدعم استعمار الغرب ومن أجل مقاومة القومية العربية والحيلولة دون أى تجمع عربى واسلامى داخل الشرق أو خارجه ...

وقد فسرنا وتقصينا فى مؤلفنا ، نظرة الغرب على حقيقتها ، للاسلام وللقومية العربية ، ثم كيف انتهى الأمر بالغرب الى وضع سياسة له يطبقها فى سائر الشعوب الاسلامية بغض النظر عن اختلاف القوميات فى أى منها ثم كيف كانت مبادىء هذه السياسة تقوم ـ

أساسا — على مكافحة الوحدة الدينية والوحدة السياسية ، والقضاء عليهما كما كانت قائمة على عزل كل المجتمعات الاسلامية بعضها عن البعض ، كى يتسنى للغرب أن يكون بمأمن من ذلك الخطر الرهيب الذى كان فى رأيه يكمن دائما وراء بعث القومية العربية وما يفضى اليه بعثها من التجمع الاسلامى الذى كانت ترتجف منه سياسة الغرب .

وسنرى فى أبواب هذا المؤلف ، كيف آثر الغرب أن يلتقى فى كفاح ضد حركات وطنية مشتتة متناثرة فى سائر بلاد الشرق ، عن مواجهة حركة القومية العربية ، ثم كيف دأبت سياسته على العمل من أجل أن يختفى شبح القومية العربية الذى يزعج الغرب ، وكيف كانت أساليبه لكى يتوارى التجمع العربى والاسلامى فى الشرق .

وقد استعرضنا نشأة الصهيونية وتقصينا جذورها والأسباب البعيدة التى قامت عليها هذه الحركة ، ومختلف الآراء والنظريات لمفكرى وفلاسفة الصهيونية .

فرأينا فى هذا الصدد كيف قال بعضهم ، بانه لولا مالقيه اليهود من الحرمان من الحرية والمساواة ، ومن الاضطهاد فى الارض ، ما وجدت الصهيونية ثم ينقض آخرون من فلاسفة الصهيونية هذا الرأى ويقولون انه لولا تمتع اليهود بالحرية والمساواة السياسية والحقوق المدنية ما رأت الصهيونية النور ، ثم كيف ذهب بعضهم الى القول بأن الصهيونية انتاج حديث ومرحلة من مراحل التطور الطبيعى للحركة اليهودية فى العالم بحيث بدأ هذا التطور أولا ، بالتكوين المالى ، ثم باحراز الحقوق المدنية والسياسية لليهود ، ثم انتهى الى هذه العقيدة القومية لليهود ، وان اليهود منذ أن شتتوا فى الارض لم تكن لهم كشعب الصفات المميزة للشعوب ، وانما كانوا مجرد أفراد يهود ، ولم يكونوا أبدا شعبا يهوديا ، يحمل كل المقومات والسمات المميزة للشعوب والتى بدونها لايمكن تسمية مجتمع ما شعبا ، مهما كثر عدد أفراده ، ثم كيف يعلل بعض الفلاسفة ذلك الشعور العدائى ضد اليهود ، وكيف يصفونه بأنه رد فعل طبيعى فى شعور أهل البلاد التى

تفوق فيها اليهود ومكنتهم مواهبـــهم من أن يحققوا لانفسهم مســـتوى عاليا فى هذه البلاد فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والعلم والسياسة، ونتيجة لما حصل عليه اليهود من حرية كاملة ... ثم قدمنا تحليلاتناول به بعض الفلاسفة النزعة الغـريزية المـادية فى نفس اليهودى وكيف تسيطر عليه وتوجهه فى كفاحه من أجل المال ، وفى هـذا قال هـؤلاء الفلاسفة ان اليهود اذا ماحوربوا فى أموالهم بالبـلاد ذات النظـام الرأسمالى عمدوا ، توا ، الى تدمير الكيان الاقتصادى للدولة ، وهدم كيانها عليهم وعلى اعدائهم ــ واذا اضطهدوا بطريق آخر ــ فى بلد لايسوده النظام الرأسمالى ، سارعوا الى التحالف مع أعـداء هـذا البلد لذات الغاية ، « هدم كيان البلد » ...

ثم رأينا كيف انتهى فلاسفة العقيدة الصهيونية الى رأى يقـــول بان المشكلة اليهودية لاتحل بالتسامح وان حلها يحتم على المعنيين بهـــا أن يعملوا من أجل أن يرتقوا بها الى مستوى المشكلات العالميـــة التى تفرض نفسها على الدول العظمى فرضا ... ولكى يتمكن اليهود من الحصول على ارض يمارسون عليها سيادتهم ...

وفى هذا الصدد يقول هؤلاء الفلاســفة ، بانه اذا كان الكفاح السياسى ، واذا كانت الحروب قد عجزت عن أن تنقل شعبا من مكان الى مكان ، فان العقيدة وحدها ــ (يعنون العقيـــدة الصهيونية) ، تستطيع أن تحقق هذه المعجزة ، فتنقل الشعب اليهودى من مكان الى آخر ، وان فى استطاعة اليهود بتضامنهم واتحادهم ضد الآخرين ، ان يقيموا دولة لهم ، وأوضحنا كيف انعقد اجماع فلاسفة الصهيونية على تأكيد حاجة اليهود الى صداقة دولة عظمى تقف الى جانبهم وتؤازرهم وفى هذا الشأن ، اتجهت أنظار اليهود ، من أول الامر ، الى بريطانيا ، لتكون هى الدولة التى ترعاهم ...

ثم شرحنـــا فى هـــذا المؤلف كيف اتجهت مطامع الصهيونية الى فلسطين لتجعل منها دولة يهودية تدين بالولاء للغرب ، وتحرس نفـوذه وترعى مصالحه فى الشرق ، ولتكون للغـــرب بمثابة قاعدة ســـياسية

وعسكرية فى هذه المنطقة من العالم ، كما تناولنا اجتماع أول مؤتمر للصهيونية فى مدينــة بازل بسويسرا عام ١٨٨٧ ، وكيف وضح فيــه اتجاه الصهاينة للمطالبة بمستعمرات فى فلسطين .

على أن هذا المؤلف قد سجل آراء واسعى الافق وبعيدى النظر من مفكرى الغرب الذين أدركوا حقيقة أهداف الحــركة الصهيونية ومراميها ومــداها ، ومن بين هؤلاء المفكرين هنرى هازيل الــكاتب الفرنسى الذى كتب عام ١٩٠٤ يقول « اننا نرى وراء هــذه الدعوة « يعنى الصهيونية » ظل موسى ، ذلك القائد الذى جمع بين الخشونة والوحشية والقدرة على المحاجــة ... اننا نلمح وراء هــذه الدعوة شعبا سوف يتمكن من الوصول الى أرض الميعاد ، وسيعمل ، عندئذ على ابادة أهلها ، وتقتيلهم ، وتسخيرهم » ...

وهكذا أوضحنا كيف أن أولى البصيرة من مفكرى الغــرب ، قد فطنوا منذ أكثر من نصف قــرن الى مطامع الصهيونية وأهدافها فلم تخف عليهم مراميها .

* * *

ثم أوضحنا موقف الصهيونية من الدول المتحاربة فى أثناء الحــرب العالمية الاولى وولاء اليهود للدول التى كانوا ينتمون اليها سياسيا ، وكذلك أوضحنا مقدمات وعد بلفور ومساعى ألمانيا لحمل تركيا على اصدار تصريح يمنح اليهود حقوقا فى فلسطين . وتناولنا دور اليهود الامريكيين فى مساندة الصهيونية ، وفى هذا الشأن تحدثنا عن موقف لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا وتقديره لخطورة الدور الذى قام به اليهود فى روسيا لخــدمة ألمانيا فى أثناء الحرب العالمية الاولى والحاق الهزائم بالجيش الروسى ، وتحطيم الجبهة الداخلية فى روســيا ، وزعزعة حماس الشــعب الروسى للحرب ، ليدعم لويد جورج بهذا الدليل تحذيره للحلفاء من خطــر انتقاض اليهود عليهم ولكى يكفل للغرب الامن من وراء مسالمة اليهود .

وسنقرأ فى هذا المؤلف كيف عرضت الصهيونية العالمية خدماتها

على بريطانيا وكيف أبدت استعدادها لتأليف جيش يهودى يستولى على فلسطين منفردا ، وكيف قبلت هـذه الصهيونية حماية بريطانيا للدولة اليهودية المزمع انشاؤها بفلسطين ، ثم كيف اضطلعت بمهمة استدراج الولايات المتحدة وجرها لخوض معارك الحرب العالمية الاولى فى صف بريطانيا •

ثم بدا لنا كيف تفاعلت هذه العوامل فكانت مقدمات انتهت الى حمل بريطانيا على القيام بمفاوضات مع الصهيونية طالب فيها الصهاينة بفلسطين وأعلنوا عزمهم على اقامة دولة يهودية كبرى تمتد من البحر الابيض حتى الفرات ، وأوضحنا فى صدد هذه المفاوضات ما قامت عليه من خداع اذ أن الذى تـولى مفاوضة اليهود كان مارك سايكس وكيل مجلس الوزراء البريطانى وهو ذاته الذى كان يفاوض العرب ، وفى ذات الوقت يعدهم بالحرية والاستقلال ، ويفاوض فرنسا أيضا ويقسم بلاد العرب بينها وبين بريطانيا ، وكيف كان مارك سايكس يقوم بنشاطه هذا فى وقت واحـد ، وكيف انتهت مفاوضته مع اليهود باعلان وعد بلفور •

وقد تناولنا موقف الحلفاء فى هذه الاثناء وكيف انهم كانوا لا يزالون وقتئذ فى حاجة الى تأييد العرب

ثم تناولنا سيطرة الكولونيل لورانس على أمراء البيت الهاشمى وخداعه للعرب وتغريره بهم •

وعرضنا الى جهود الزعيم الصهيونى وايزمان ومفاوضته للامير فيصل ، ثم الى ما دأب عليه وايزمان والصهاينة من التغرير ببعض حكام أو قادة العرب واجتذابهم الى صفهم والى انسياق الامير فيصل فى هذا التيار الى حد ان أباه الشريف حسين لم يكتم شعوره الساخط على مسلك ابنه ونقلنا ما سجله الكابتن ليدل هارت فى هذا الصدد من قول الشريف حسين عن ابنه فيصل بانه لا يتورع عن ان يبيع نفسه نظير صحن من العدس •

وقد وضح فيما قدمناه بمؤلفنا ان امراء البيت الهاشمى وبعض زعماء

العرب كانوا يدركون الحقيقة فى نوايا الغرب ونوايا الصهيونية ولكنهم تجاهلوا ذلك كله ليبرروا لانفسهم المضى فى تأييدهم للغرب ..

* * *

ثم كيف تم للجيش البريطانى احتلال فلسطين ، واشادة المارشال اللنبى فى تلك المناسبة بذكرى الحروب الصليبية . واعلان لويد جورج ان فلسطين قد عادت الى النفوذ المسيحى ، وان الغرب لن يسمح لتلك اليد التى كانت قد سيطرت على فلسطين وابعدتها عن الغرب ، بان تعود للسيطرة عليها مرة اخرى ،وسنرى كيف حرص الغرب دائما على أن تكون فلسطين تحت سيطرته ونفوذه وبعيدة عن يد العرب وكيف اتجهت سياسته الى جعلها سدا يفصل بين العرب فى آسيا والعرب فى افريقيا ، وكيف ان الغرب كان يرى ان فى توطين الصهيونية فى فلسطين ما يؤمن الغرب من خطر تحقيق الوحدة للعرب أو بعث القومية العربية .

ثم رأينا كيف انه كان على الغرب ، بعد أن وضح موقفه من العرب ، أن يحدد موقفه فى فلسطين بالنسبة لليهود .

وانه لما كانت الصهيونية الدولية تحرص على أن تتقاضى ثمن خدماتها للغرب ، وكانت تطمع فى انشاء دولة اسرائيل فقد ابدى الغرب استعداده لتحقيق مطامعها وتأييد غايتها ولم يكن هنالك خلاف بين الغرب واليهود على هدف الصهيونية فى هذا الصدد وانما كان الخلاف بينهم مقصورا على حجم دولة اسرائيل وشكلها ثم على الوقت الملائم لقيامها ، وكان على كل من الغرب والصهيونية أن يفسروا مدلول ما ورد فى تصريح بلفور بشأن « المأوى القومى » ـ أو « الدار القومى » لليهود ، كان على الغرب واليهود أن يتدرجوا فى تفسيرهم لهذه العبارة وان يتركوا للزمن دور التدرج بها حتى تصبح فلسطين دولة يحكمها اليهود لمصلحة اليهود .

* * *

وأوضحنا اتجاه السياسة البريطانية لخدمة اليهود كما أوضحنا ان سرعة استجابة بريطانيا لمطالب اليهود والصهيونية العالمية كانت مرتبطة

بتطور علاقاتها بالعرب وعلى وجه اخص مصر اذ رأت بريطانيا ان تجعل من مطالب الصهيونية العالمية فى فلسطين اداة لتهـــديد العرب ومصر واكراههم على الخضوع لرغبات البريطانيين ، والا اتجهت بريطانيا لمساندة اليهود والحركة الصهيونية ضدهم ، وبهذا كانت مطالب اليهود وسيلة بيد الغرب يساوم بها العرب فى حقوقهم ، ثم رأينا كيف أن سياسة بريطانيا لم تتخل ابدا عن اليهود فى كل الظروف والاحوال •

وأوضحنا كيف ان مؤتمر الصلح عقب الحرب العالمية الاولى ، أفسح صدره للصهيونية العالمية فى الوقت الذى رفض فيه أن يستمع لقضايا الحرية فى مصر والهند وايرلندا وسائر البلاد المستعمرة ، وقضايا التفرقة العنصرية ، مما شجع الصهيونية على أن تقف موقف المهدد وتعلن بانهـا ستفرض وجودها بقوة السلاح ، حيث تستبيح لنفسها عندئذ الانتقام ، كما شجعهم على مطالبة الحلفاء بفلسطين كحق لهم لا كمنحة •• وسنرى كيف استجاب الغرب الى الصهيونية ، ومكنها من الاستقرار بفلسطين والسيطرة على اقتصاديات البلاد وعلى العدالة والشرطة ثم رأينا كيف انه بينما كان العرب يطالبون بضم فلسطين الى سوريا أو منحها الاستقلال التام ، كان الامير فيصل بضغط من بريطانيا ، وبتأييد من صديقه الكولونيل لورانس يقوم بمفاوضة الصهيونية العالمية ويوقع مع الدكتور وايزمان الزعيم الصهيونى اتفاقية اعترف فيها بوعد بلفور وبمطامع الصهيونية •• وعلى هذه الصورة رأينا كيف ربط امراء البيت الهاشمى مصيرهم بمصير الحلفاء • ثم كيف أمعن الامير فيصل فى تأييده لبريطانيا وتأييده للصهيونية فى اقتطاعها فلسطين من الوطن العربى فاستخدم وكالته عن العرب فى تمكين بريطانيا من الحصول على الانتداب على فلسطين مستمدا من هذه الوكالة سنده لاقناع الحلفاء برغبة العرب فى أن يكون لبريطانيا الانتداب على فلسطين ، وبان هـــذه الرغبة بلغت فى نفوس العرب الحد الذى يدعو الى ثورة العرب ضــد الحلفاء اذا لم يستجيبوا اليها •

وقد تناولنا فى هذا الشأن ما سجله لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا على الامير فيصل من حقائق وما أضافه اليها من قبول الامير سرا لتسلل

الصهيونية الى فلسطين ثم كيف انه كان نتيجة لذلك كله ان أقرت عصبة الأمم الانتداب البريطاني على فلسطين بعـــد أن وضعت نصوصه واعدتها المنظمة الصهيونية العالمية ، وتضمنت وثيقة الانتداب تأكيدا لوعد بلفور كما تضمنت الاعتراف بقيام الوكالة اليهودية كسلطة رسمية في فلسطين تمهد لانشاء المأوى القومي لليهود فيها ثم كيف أصبح الوضع الرسمي للعرب أصحاب البلاد في فلسطين مجرد طوائف غير يهودية •

* * *

وقد عالجنا قضية سورية ولبنان ، وكيف رأت فرنسا ان تجعل لنفسها منهما قاعدة استراتيجية لها في الشرق لحماية مصالحها ، وكيف اعترضت فرنسا على انشاء دولة عربية سواء أكانت هذه الدولة تجمع سوريا ولبنان ، أم تقوم في سورية وحدها ، ثم كيف اندفع الامير فيصل في خدمة فرنسـا وبريطانيا فقبل الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، وقبل أن يكون للبنان وضع خاص وذلك كله في سبيل أن ترضى فرنسا به ملكا على سورية ثم كيف ان مخاوف فرنسا القائمة من خطر بعث القومية العربية ومثول هذا الخطر أمامها حملها على تضليل العرب ومخادعة الامير فيصل فراحت تمهد للتصارع الطائفي في سورية ــ وكيف كان همها بعد فصل لبنان عن سورية الاجهاز على الحركة العربية •

وأوضحنا موقف لبنان من هذا كله ، ثم كيف بذلت فرنسا جهودها لعزل لبنان عزلا تاما عن مجموعة البلاد السورية وسائر البلاد العربية ، ولما كان من شأن هذا الانعزال ان يتعرض لبنان حتما للانهيار الاقتصادي نظرا لانه يعتمد في اقتصادياته على سورية وسائر البـــلاد العربية ، كان لزاما على فرنسا ان تعوضه عما سيلحق به من اضرار وتجنبه مخـــاطر الانهيار فأوجدت الظروف التي تجعل من لبنان الوسيط الاقتصـــادي الطبيعي بين سورية وما يحيط بها من بلاد عربية وبين العالم الخارجي فيما وراء البحار ــ وبهذا ارتبط لبنان بهذا الوضع كما ربطت مســتقبله ، وربطت اقتصاده ربطا حتميا وأبديا بهذا الوضع الاقتصادي الاستثنـائي الممتاز الذي خلقته له خلقا حتى يصبح مصير ووضع لبنان مرتبطين أوثق

ارتباط بمصير ووضع الغرب بحيث لو انحرفت سياسة لبنان عن هـذا الوضع يوما ما أو بدلته بوضع آخر تعرض الى هزة اقتصادية عنيفة تثير ضده الطوائف المنتفعة بهذا الوضع وهي طوائف تملك الوسائل والامكانيات التي تمكنهم من الوقوف في وجه أي تبديل أو تغيير ، وتحظى بمؤازرة الغرب ومساندته لها • وبهذا أضافت فرنسا الى الحافز الديني في لبنـان حافزا جديدا في سبيل عزله عن سائر البلاد العربية •

* * *

ثم تعرضنا ، كذلك ، لغزو بريطانيا للعراق ، وكيف كان تصميمها منذ البداية ، على فصل ولاية البصرة عن العراق من أجل حماية البترول في الخليج العربي ولحماية طريق الهند ، ثم الى تعمدها تسجيل هـذا الفصل في المكاتبات المتبادلة بين الشريف حسين والسير هنري ماكماهون حول مصير قضايا العرب ، وكيف ان الشريف حسين استجاب لمطلب السياسة البريطانية في هذا الشأن مقابل تعويض وصفه لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اذ ذاك في مذكراته وفي سخرية لاذعة : فقال : « وهكذا يتجه العرب دائما الى طلب البقشيش •• »

ثم كيف مضت بريطانيا وفرنسا في تفتيت وحدة البلاد العربية ففصلت الموصل عن العراق واختصت فرنسا في اتفاقية سايكس ــ بيكو بالسيطرة السياسية على ولاية الموصل وكيف قام الصراع بين فرنسا وانكلترا حول الموصل ، وبترول الموصل ، حتى انتهى هذا الصراع بتسوية تمت بين فرنسا وبريطانيا على حساب العرب ، اذ قبلت فرنسا التخلي عن الموصل لبريطانيا مقابل أن تسلم بريطانيا لفرنسا ربع دخل بترول الموصل ، وتسلم بريطانيا بسيطرة فرنسا على سورية • ثم كيف واجهت بريطانيا وقتئذ الشعب العراقي الثائر ، ففرضت عليه فيصل ملكا ، ثم فرضت عليه معاهدة تحل محل صك الانتداب ، وفي هـذا السبيل هددت بريطانيا شعب العراق بفصل ولاية البصرة عن بلاده وضمها الى الهند ، وبتحريك الاقليات في العراق لاثارة الفتن واشاعة الفوضى في البلاد •

وتعرضنا لموقف تركيا من العرب فى نهاية الحرب العالمية الاولى ، وكيف نجح الغرب فى الاجهاز على الدولة العثمانية وهزيمة المانيا وابعاد روسيا عن الشرق ، ثم كيف اتيح له أن ينفرد وحده بالسيطرة على الشرق، ليكون فيه السجان الجديد للقومية العربية •

وأوضحنا كيف ان الاسلام علم الاتراك أصول الحكم ، فى حين حارب الاتراك العرب وحرموهم اى تطور تقدمى خـــلاق ، ثم كيف ان الغرب اطمأن فى نهاية الحرب العالمية الاولى الى افتقار الشرق للزعيم القوى حتى قامت تركيا الحديثة واتجهت الى العالم الاسلامى والى روســـيا السوفيتية لتستمد منهما العون للوقوف فى وجه الغرب وكيف كان اقبـال المسلمين على تركيا لنجدتها باعثا للمطامع التركية القديمة فى السيطرة على العرب من جديد ، كما كان مفزعا لبريطانيا مثيرا لمخاوفها من قيام دولة اسلامية جديدة تتلقى ميراث الدولة العثمانية ، ثم كيف ان بريطانيا ركزت جهودها للقضاء على حركة البعث التركى قضاء حاسما سريعا ، وان تركيا مضت فى كفاحها مستعينة بالتأييد الاسلامى والعون الروسى ، الى أن كتب لها النجاح الذى ما ان تحقق لها حتى عاودتها نعرة الدولة العثمانية وتعاليها على العرب ، ورأينا كيف ان بريطانيا راحت تعمل فى ذات الوقت ، من أجل القضاء على حركة البعث العثمانية أو تحويلها عن الاتجاه الاسلامى ، وقد بدا لنا كيف كشفت المحاكمة التى جرت فى أنقرة اثر محاولة اغتيال مصطفى كمال ، عن بعد سياسة بريطانيا عن اتجاه تركيا الحديثة ، حينما وقف مصطفى الصغير رجل المخابرات البريطانية والمتهم فى هذه القضية ، يقول : « ان بريطانيا على استعداد لتسوية كل ما بين الاتراك وبين الحلفاء من خلافات ومشـكلات ، وذلـك متى وثقت بريطانيا من استعداد العناصر التركية للعدول عن بعث الحركة الاسـلامية والرجوع عن اثارة الكفاح الاسلامى فى مصر وفى سورية والعــراق وافغانستان والهند ، اى فى الاراضى الاسلامية كافة ••• وقال ، انه طالما كان الاتراك يرفضون اعتزال المجتمع الاسلامى خارج تركيا ، فان الصراع سيبقى على أشده ، وبلا رحمة ، بين تركيا وبين الحلفاء ••• ذلك لأن بريطانيا تريد أن تكفل

وتؤمن لنفسها السيطرة التامة على السياسة الاسلامية في الشرق •• وانها وطنت سياستها على مواصلة الكفاح الدائب العنيف ضد أي رجل وضد أية جماعة أو اية سلطة تحاول حرمان بريطانيا من تسلطها ومن وصايتها على العرب والمسلمين » •

وقال ، ان المسألة في هذا الصدد بالنسبة لبريطانيا تعتبر مسألة حياة أو موت ، وان هذا الذى أقوله هو وحده التفسير الصحيح للسر الذي من أجله تلاحق بريطانيا كل حركة ثورية وطنية تنبعث في أي بلد في الشرق لتحاربها متى كانت هذه الحركة قادرة على اثارة الوعى والتضامن الاسلامي، وهذا هو التفسير السليم لذلك الحقد القاتل الذى تضمره بريطانيا دائما لكل من يتزعم مثل هذه الحركات في الشرق » •

واني لاقرر بأن بريطانيا لن يهدأ لها بال الا بعد أن يتم لها القضاء على الزعماء وعلى الحركات » •

* * *

ورأينا كيف ان الاتراك على الرغم من أنهم وعوا هذا الدرس الا انهم ظلوا يصانعون العالم العربى والاسلامى بسبب حاجتهم اذ ذاك الى مساندته المادية والمعنوية فى كفاحهم ضد اليونان وبريطانيا واعتمـــادهم على العون السوفيتى وانه لما تم لتركيا الاتفاق مع الحلفاء واجه العرب فى نهاية الامر انانية وغطرسة وجشع السياســـة التركية اذ بادرت تركيا فور اتفاقها مع الغرب بالتصدى لحركة استقلال الشعوب العربية ، وطالبت بضم الموصل وكردستان الى الدولة التركية الحديثة واقتطاعهما من البلاد العربيـــة ورأينا انه لما بدا لتركيا أخيرا أنه قد أصبح من المتعذر عليها تسخير العرب والمسلمين والانتفـــاع بالصبغة الاسلامية للدولة الجديدة فانها اندفعت فى اتهامها للعـــرب والمسلمين بانهم كانوا العامل الاساسى فى انهيـــار الدولة العثمانية ثم اعلنوها منذ ذلك الوقت حربا على العرب والاسلام ، بعد ان يئس الاتراك من السيطرة من جديد على العرب والاسلام •

* * *

وتعرضنا لنظام الانتداب الذى وضع للبلاد العربية التى تخلصت من

الحكم العثماني بعد الحرب العالمية الاولى ، وكيف ان الغرب بدلا من أن يلتزم نصوص الانتداب ويجعل منه اداة لتمكين العرب من تحقيق استقلالهم جعل من الانتداب اداة للسيطرة على العرب ...

ورأينا كيف أن الجنرال الفرنسى الاستعمارى جورو حينما دخل دمشق ، يقف أمام قبر صلاح الدين ليقول لهذا البطل العظيم وهو ثاو فى قبره : « ان الصليبيين قد عادوا » ثم عرضنا الى نظرة « جورو » للانتداب حينما وقف فى أول اجتماع للمجلس الادارى اللبنانى الكبير يشرح مهمة الدولة الغربية فى البلد العربى الواقع تحت الانتداب ، ويقول : « ان على هذه الدولة ، وعلى هذا المرشد أن يحمى الشرق من خطر الدعوات التى تهدف الى بعث القومية العربية والتجمع الاسلامى ، هاتان الحركتان اللتان هما على تمام الاستعداد فى أى وقت للانضمام الى روسيا السوفيتية التى مابرحت ترقب عن كثب الثورة العربية كيما تنقض على الغرب ، وان الغرب ليخل برسالته فى حماية مصالحه فى آسيا وافريقيا ، اذا لم يفرض لنفسه السيطرة على الشرق وما لم يحل دون تضامن مصر وسورية وفلسطين ولبنان والعراق والجزيرة العربية وتركيا ، فان هذا التضامن ، لو انه وقع لاثار بطبيعته الدعوة بين المسلمين جهادا وكفاحا يهددان امبراطورية الغرب الاسلامية فى افريقية وفى آسيا » ..

* * *

ثم تعرضنا الى شرق الاردن ، تلك المنطقة التى أوضح الصليبيون أهميتها الاستراتيجية كمركز لتهديد سورية وشبه الجزيرة العربية والعراق وسيناء وكيف حرصت بريطانيا فى اتفاقية سايكس - بيكو على أن تظل هذه المنطقة خاضعة لسلطانها فلا تسمح بضمها لا لمصر ، ولا لسورية ، ولا للعراق ، ولا للحجاز ، ولا لفلسطين ذاتها .. وكيف ان بريطانيا رأت ان تجعل من هذه الاراضى الفقيرة امارة يعين عليها وضعها الجغرافى والاقتصادى وتعين عليها ظروفها السياسية وبحكم عجز مواردها ان تبقى فى حاجة دائمة الى العون الاجنبى ،وكيف أن بريطانيا حرصت كل الحرص على الابقاء على هذه الدولة التى أقامتها واعترفت باستقلالها لتحمى مصالحها ،

فى الشرق بأكمله ، ولتفيد من وضعها الاستراتيجى لتهديد سائر البلاد العربية ولحماية مصالحها فى بترول الخليج الفارسى وفى آسيا ، وكيف ان بريطانيا حرصت على الدفاع عن وضع شرقى الاردن ، وقاومت كل محاولة للمساس به وناوأت الكافة فى سبيل الدفاع عنه ... وأوضحنا المهمة التى عهدت بها بريطانيا للامير عبد الله فى شرق الاردن وكيف حددت له مسلكه ورسمت له سياسته ازاء العرب ، وكيف جعلت بريطانيا من الامير عبد الله اداة لتأمين مصالحها وللسيطرة على العناصر الوطنية فى فلسطين .

* * *

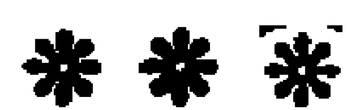
وتناولنا بعد ذلك موقف بريطانيا من مصر بعد الاحتلال والدور الذى لعبه اللورد كرومر فى تثبيت هذا الاحتلال وتسخير اقتصاديات البلاد لخدمة بريطانيا ومواجهة الحركة الوطنية فى مصر وكيف رأت بريطانيا ان تثبت احتلالها لمصر بتصفية ما كان بينها وبين فرنسا من منازعات وقد تمت تسوية ذلك كله فى الاتفاق الودى الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٠٤ وبموجبه أطلقت يد بريطانيا فى مصر واطلقت يد فرنسا فى مراكش ، كما سلمت بريطانيا لفرنسا بالعديد من الامتيازات فى مصر وكان من بينها احتكار صناعة السكر والاشراف على الآثار ثم أوضحنا موقف بريطانيا من الامتيازات الاجنبية فى مصر وكيف حاولت ان تركز فى يدها مسئولية ممارسة هذه الامتيازات بوصفها وكيلة فى ذلك عن سائر الدول الاجنبية ثم كيف فشلت بريطانيا فى سعيها هذا .

وتعرضنا لموقف بريطانيا من الحركة الوطنية فى مصر ورأى كرومر وكولفن فى الثورة العرابية بعد الاحتلال وتصدى الامام الشيخ محمد عبده للاحتلال وتعرضنا للحركة الوطنية الفتية ضد الاحتلال البريطانى فى مصر وشرحنا كيف عمل كرومر على صبغ الادارة المصرية بالصبغة البريطانية .

وتناولنا بعد ذلك امعان كرومر فى تجاهل حقوق وعواطف المصريين وبطشه بالحركة الوطنية الى أن وقعت حادثة دنشواى ثم الى تصدى مصطفى كامل وتحديه لكرومر وبريطانيا وتنحية كرومر عن منصبه . وكيف ان

بريطانيا غيرت الاشخاص وغيرت الاساليب ولكنها لم تبدل من سياستها ، ثم كيف انها مضت في العمل على اضعاف الحركة الوطنية فى مصر حتى قامت الحـــرب العالمية الاولى وفرضت حمايتها على مصر واعلنت الاحكام العرفية على البلاد •

ثم استعرضنا بعد ذلك الحركة الوطنية فى مصر فى نهاية الحرب العالمية الاولى وموقف الوفد المصرى فيهـــا ، كما رأينا أن نجمل موقف الاستعمار من سائر الحركات الوطنية في الشرق بعد الحرب العالمية الاولى وموقف العرب والشرق من الاستعمار الغربى حتى نتيح بذلك تعـــرف أساليب الاستعمار ووسائله ونمهد للمرحلة الثالثة من مؤلفنا هذا •



ونود قبل ان نفرغ من هذا التمهيد ان نشير الى ان سياسة الغرب قد تصدت على الدوام للتجمع الاسلامى ونظرت اليه باعتباره حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهلها أو اغفال خطرها كما حرصت سياسة الغرب على اقحـــام موضوع التجمع الاسلامى واثارته كلما بدا لها أن تتصدى للقومية العربية• وما كان ذلك الا لأن ساسة الغرب كانوا على يقين من أن بعث القوميـــة العربية ينتهى حتما الى تحقيق التجمع الاسلامى ان عاجلا وان آجلا •• ولهذا فقد كان الارتباط قويا بين الظاهرتين بين الحركتين •• ولهذا أيضا كان الغرب يخشى بعث القومية العربية باعتبارها السبب الجوهرى لقيـــام التجمع الاسلامى على أساس عربى • الأمر الذى يرى الغرب فيه أكبر خطر يمكن أن تتعرض له سياسته ••

ومن ثم فقد كانت هذه المخاوف ما برحت تساور ساسة الغرب ، فحرصوا فى وعودهم التى بذلوها لزعماء العرب خلال الحرب العالمية الاولى لاستمالتهم الى صفوف الحلفاء ، على ألا تحقق هذه الوعود للعرب ما يبعث على مخاوف الغرب ••• فانصبت وعودهم على تحقيق وحـــدة عربية سياسية يرعاها الغرب ويوجهها ويستخدمها لمصـــلحته وعلى أن تتمثل روابط هذه الوحدة فى الصلة التى تقوم بين الحكام العرب بعضهم بالبعض الآخر •• فان هذه الوحدة العربية الســـياسية لم تكن فى نظر

الغرب لتشكل اذا تحققت خطرا على سياسته بل أنها تسخر لخدمة هـذه السياسة ،و من أجل هذا فقد وعد بها الغرب ولكنه لم يف ، فى حين انه لم يدخر جهدا فى مقاومته لبعث القومية العربية كحركة ذاتية وقوة دافعة يجرف تيارها كل ما يعوق نهوض العرب وتحركهم وتستنهض عزائمهم وتلهب شعورهم ، وتذكرهم بامجادهم ويكون بمثابة انطلاقة قوية للامة العربية فى سبيل اضطلاعها بدورها الذى يفرضه عليها التاريخ ..

لقد فطن ساسة الغرب وقادته الى مقومات القومية العربية ، والى بواعثها ، والى التربة التى تصلح لنموها ، والظروف التى تنبعث فيها درسوا ذلك كله ليحولوا دون قيام هذا الخطر ، وانتهت دراسة هؤلاء الساسة الى أن بعث القومية العربية ذاتيا ، لا يقوم الا متى توافر للمجتمع العربى العديد من الامكانيات ، التى حصرها الغرب فى : ـ

أولا ـ وعى عميق يتأصل فى الامة العربية ويجعل من القومية فى نظر العربى ، عقيدة ، ورسالة .

ثانيا ـ طاقات من الدراسة تحقق للعرب من الكفاية العلمية ما يمكنهم من متابعة التطور الاقتصادى والاجتماعى .

ثالثا ـ تنمية موارد البلاد العربية وتطوير صناعتها ، بالقدر الذى يحقق لها ـ على الاقل ـ الاكتفاء الذاتى فى مجالى الزراعة والصناعة ، ويكفل للامة العربية القدرة على الدفاع عن وجودها وعلى مواجهة الاعباء التى يفرضها عليها وضعها السياسى فى المجال الدولى .

هذه كانت العناصر التى كان لابد للغرب ـ حسبما رسمته سياسته ـ أن يجهد ويكافح من أجل ألا تتوافر لبلد عــربى حتى يأمن خطر بعث القومية العربية ... ومن أجل هذا فقد كان لزاما على الغرب ـ وهــذه سياسته وغايته ـ ان يسيطر تماما على بلاد الامة العربية حتى يتمكن من الحيلولة دون بلوغها هذه الامكانيات ، وحتى يخنق القومية العربية ويرجىء بعثهـــا الى أبعد مدى ممكن ، ولكى يدفع الى الوراء كل احتمال لاتجاه المسلمين عامة ، والعرب منهم خاصة ، الى تحقيق أى تجمع ، وبهذا يتسنى

للغرب أن يأمن ، ولأطول فترة ممكنة ، الخطرين ، القــومية العربية ، والتجمع الاسلامى •• وقد نجحت سياسة الغرب فى نهاية الحرب العالمية الاولى ، فى تحقيق هذا الهدف ، وتمت له السيطرة على جميع البلاد العربية وكفل ولاء حكامها له ، وطوى الزمن دعوة القــومية العربية ، وسكتت الاصوات التى كانت تنادى بها •• واختفى طيف القومية العربية كدعوة ، اختفى من التاريخ منذ ذلك الحين بحيث لانجد لها أثرا يملى على المؤرخ حديثه عنهــا ، الا حينما نجدها فى نهاية المرحلة الثالثة من مؤلفنا فنولى القومية العربية والتجمع الاسلامى حقهما من البحث والتحليل ولابد من الاشارة الى أن الحديث عن التجمع الاسلامى يعتبر مسألة بالغة الدقة من حيث الاسس التى يجب أن يقوم عليها البحث وخطره من حيث النتائج المترتبة عليها ولا يجوز التعرض لها الا عن علم ومعرفة ووعى عميق لذلك كله •••

الفصل الأول

الغرب وافريقيا العربية الاسلامية

« الملك العربى افريق بن قيس ـ العرب وافريقيا ـ الاسلام يحقق الوحدة الكاملة »
« بين أبناء شمالى افريقيا ـ زوال سلطان الغرب المسيحى ـ الفتح العثمانى يفرض »
« سلطان الباب العالى السياسى ـ مصر همزة الوصل بين الشرق العربى وافريقيا »
« العربية والاسلامية ـ الغرب يواجه الخطر الروسى من جانب والدولة العثمانية »
« وخطر بعث القومية العربية فى الشرق وفى افريقيا من جانب آخر ـ اطراد قوة »
« مصر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر يزعج الغرب ـ المؤرخ «دريو» يقول »
« ان فرنسا رفعت الصليب الاول فوق اراضى افريقيا الاسلامية ويعنى « الجزائر » »
« الغرب يعمل على تطويق الاسلام الافريقى بين فكى كماشة رهيبة ـ الغرب يقول »
« أن من حقه الاستيلاء على افريقيا العربية والاسلامية بقوة السلاح دون اعتبار »
« لاحكام القانون الدولى ـ الخطر الدائم فى وجه الغرب ـ ساسة الغرب ورجال »
« الدين بقيادة البابا ليون الثالث عشر يدعون الى جملة صليبية ضد الاسلام فى »
« افريقيا ـ المغامرون والمبشرون هم جنود الطليعة . »

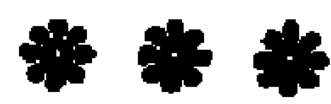
يقول مؤرخو الغرب ان القارة الافريقية سميت باسم الملك العربى أفريق بن قيس ، وأن شعوب شمالى افريقيا والسودان والصحراء الكبرى من المحيط الهندى والبحر الاحمر الى المحيط الاطلسى من أصل عربى، تحققت لهم وحدة الجنس منذ أقدم العصور ، ثم فتحت روما الشرق ومصر وشمالى افريقيا ، ثم جاءت من بعدها المسيحية وأصبحت دين أغلبية هذه الأمة ، الى أن جاء الفتح الاسلامى فزال سلطان الغرب عن افريقيا ، وسادها الاسلام لتجانس أهلها مع الفاتحين ، فرحبوا بهم لانهم جميعا يرجعون الى أصل واحد وجمعتهم لغة واحدة .

جاء الاسلام ليحقق الوحدة الكاملة بينهم ، وبذلك زال سلطان الغرب المسيحى عن شمالى افريقيا ، وزالت كل اثاره وأصبح هذا الجزء من افريقيا عربيا اسلاميا .

ولما جاء الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٦ ، لم يفرض للباب العالى

فى افريقيا الشمالية سلطانا غير السلطان السياسى ، فى حين بقيت وحدة الجنس واللغة والدين تفرض نفسها على أبناء هذا الجزء من افريقيا الذى تعرض دائما لهجوم الغرب على الرغم من وقوعه تحت سيادة الباب العالى، فتوالت وتعاقبت على بلدانه حملات فرنسا واسبانيا والبرتغل والدانمرك .

وكان الغرب يدرك أن مصر هى همزة الوصل بين هذا الجزء من افريقيا وبين سائر الشرق ومن ثم فقد تركز اتجاهه فى مصر التى اعتبرها أقوى حاجز فى سبيل زحفه لاقتناص افريقيا ووقوعها فى قبضته .



ولابد من استعراض حالة الشرق فى اوائل القرن التاسع عشر ، لكى يتسنى لنا أن ندرك ونفهم الدور الذى لعبه الاستعمار الغربى بعد ذلك فى افريقيا العربية الاسلامية .

لقد كان الغرب يواجه من ناحية الدولة العثمانية ومعها خطر بعث القومية العربية والتجمع الاسلامى بصورة جديدة كما كان يواجه من ناحية أخرى الخطر الروسى واحتمال زحفه الى الشرق .

غير أن أوروبا على الرغم من تنافسها على تركة الدولة العثمانية حينما بلغ بها التدهور حالة الاحتضار ، رأت دولها جميعا أن تبقى على هذهالدولة فلا تقوم بتصفيتها ، ـ ولم يكن هذا الابقاء على الدولة العثمانية يرجع الا لسببين .

الاول ـ ان الاتفاق على توزيع التركة ....تركة(الرجل المريض) لم يكن قد تم بعد .

والثانى ـ وهو الاهم كان الخوف من الخطر الروسى واحتمال سيطرته على الشرق بأسره .... فقد رأى الغرب أن فى المحافظة على كيان الدولة العثمانية ما يبعد الخطر الروسى ويحد من قوة اندفاع تيار هذا الخطر نحو الشرق كما وأن تركيا كانت فى الوقت نفسه حائلا دونتحقيق نهضة العرب وتحررهم ـ دون بعث القومية العربية وقيام دولة عربية

كبرى ، الا أن ظهور « محمد علي » على رأس دولة جديد أنشأها تمتد من البحر الابيض المتوسط الى منابع النيل شمالى سورية والعـــراق ثم اتجاه العرب في كل مكان الى هذا الحاكم ـ ذلك كله كان من شأنه ان يعجل ويجسم مخاوف الغرب من الاخطار التى قد يتعرض لها ،لالسبب اطراد قوة مصر وعظمتها في ذاتها ، ولكن ، لما سيترتب على قوتها وعظمتهــا من بعث القومية العربية واندفاع العرب والمسلمين وراءها لتحقيق الوحدة بينهم • ويقول المؤرخ دريو •••

« انه كان من شأن ذلك ان تألفت جبهة متماسكة لا يمكن اختراقها » امتدت من ايران حتى المحيط الاطلسي ، جبهة سببت قلقا لا مزيد عليه لأوروبا واذا كانت انجلترا تعارض وتقاوم السلطان السياسي والعسكرى لمصر فان فرنسا برغم تأييدها الظاهر « لمحمد على » لم تنس انها كانت مهد الحملات الصليبية ضد الاسلام ، وأنه كان لزاما عليها ان تستمر في أداء هذه الرسالة فتقوم برفع الصليب الأول فوق أراضي أفريقيا الاسلامية ولم يكن غزو فرنسا للجزائر الا مقدمة لحركة واسعة كانت ترمى الى تطويق الاسلام الافريقى من الشمال ومن الجنوب وحبسه بين فكى كماشـــة رهيبة • هذا الاسلام الذى غزا افريقيا من البحر الابيض المتوســـط الى الكنغو والزمبيز والذى انتشر على سطح القارة الافريقية على وجـــه التقريب •• » ويمضي دريو فيقول :

« لقد كان لزاما على الغرب أن يحاصر الاســلام من كل جـــانب وان يقضى على الجهود التى كان يبذلها الاسلام لاقامة العقبات أمام غزو أوروبا المسيحية لافريقيا » •

ويقول مؤرخو الغـــرب انه كان من حق أوروبا أن تســـتولى على الأراضى الافريقية التى سيطر عليها الاسلام بقوة السلاح ، دون أن تلتقى أوروبا بالا ترغبات شعوبها وأن هذا العمل وان كان يعتبر خرقا لاحــكام القانون الدولى بما للشعوب من حق في الحرية الا أن هذه الاعتبارات جميعا لا يعتد بها الا بين الدول المسيحية أما في أفريقيا الاسلامية فان هذا العمل عمل مشروع وعادل وعمل انسانى في تطبيقه لأن الغرب بهذا يكفل لهذه الشعوب الخلاص ـ كما زعم ـ (من استبداد الاسلام) الذى سيطر عليها لاكثر من الف سنة واسترداد تلك البلاد تحت حكم الغرب الذى ورث روما وأعاد شعوبها الى احضان المسيحية ••

وان حملة الغرب من هذه الناحية انما هى تجديد للحملات الصليبية ، فالصراع على هذه المناطق كان صراعا بين الجنسين العربى الذى سيطر عليها وبين الجنس الأوروبى الذى يريد أن يستخلصها وقد أعلن ساسة الغرب ضرورة تضافر جهود الشعوب الأوربية وتركيز أنظارها لا على الاراضى المقدسة فحسب كما حدث فى الحملات الصليبية الأولى بل على افريقيـــا

للقضاء على الوجود الاسلامي فيها ـ كيما يحول دون الخطـــــر الكامن في الأمة العربية الاسلامية وهو خطر دائم يمكن أن يتبلور ويتحقق في كل لحظة متى تم بعث القومية العربية من جديد وتحقيق التجمع الاسلامي في آسيا وأفريقيا ، وكانت مصر في رأى الغرب هي مصدر هذا الخطـــر ، لسببين : ـ

الأول ـ أنها صالحة دائما وعلى استعداد دائم لتكون العنصر الفعال الأساسي لبعث القومية العربية متى توافرت لها زعامة عربية صحيحة تحقق لها الاستقلال وتصونه وتحقق نبوءة نابليون بونابرت باندفاعها في حركة كبرى لبعث القومية العربية وتحقيق الوحدة بين العرب التي لا مناص منها لتحقيق التجمع الاسلامي فيما بعد •

والثاني ـ انها كانت في رأى الغرب مفتاح افريقيا وسبيلها لاكتشافها والسيطرة عليها • فمصر كانت بالنسبة للغرب تشكل أكثر من خطـــر باعتبارها نقطة الارتكاز التي تتجه اليها دائما كل حركة عربية واسلامية في الشرق وفي أفريقية •

لقد رأى الغرب كل هذه الأخطار ولمحها في عهد محمد على ولكن محمد على تخاذل وارتمى تحت أقدام الغرب وأقدام انكلترا بصفة خاصة وفي المرحلة الأخيرة من حكمه بادرت فرنسا باحتلال الجزائر واعتبرت انتصارها في الجزائر يعني تحطيما لجانب من الحاجز الاسلامي الذي كان يحول دون غزو الغرب لأفريقياالشمالية • ولماكانالجزائريون قداستمروا في مقاومة الاحتلال الفرنسي لبلادهم ، فقـــد راحت فرنســـا تبذل كل ماتستطيع من جهد للقضاء على هذه المقاومة ، حتى اذا ماتم لها الانتصار على قوات الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٣ هللت أوروبا لانتصار فرنساالتيراحت تتلقى التهاني من سائر الدول الأوروبية باعتبار فرنسا أول دولة غربية ، انتزعت بصفة نهائية ، أراض ذات أهميةجوهرية بالنسبة للاسلام وللجنس العربي •

***

وقد تساند غزو فرنسا للجزائر مع تطوير الاستعمار ووضع أسسه العلمية ومن ثم فقد شرع فلاسفة أوربا ينادون : ـ

« بأن على الغرب أن يخضع افريقيا العربية الاسلامية الى سلطانه • الى قوانينه ، الى مبادئه والى لغته » •

كما راح رجال الدين فى أوروبا يناشدون أبناءها التطوع فى حملة صليبية سلمية للاستيطان فى سائر أنحاء أفريقيا حتى يكونوا جنودالطليعة للزحف الغربى المسيحى •

كما أخذ البابا « ليون الثالث عشر » يعيد الدور الذى قام به البابا أوريان الثانى الذى دعا للحملة الصليبية الأولى والذى طالب فى رسالة منه الحكومات الفرنسية والايطالية بتوجيه حملة صليبية جديدة ضد الاسلام فى أفريقيا كما طالب المسيحيين بأن يكون من بينهم من ينهض بالدور الذى قام به بطرس الناسك وأمثاله لتزعم حركة التسلل الدينى داخل أفريقيا •

ناشد البابا الدول الغربية بأن تضع حدا للمنافسة القائمة فيما بينها حول السيطرة على افريقيا وأن تواجه البلاد الاسلامية بسياسة وأسلوب موحدين حتى تعجل أوروبا بالسيطرة على افريقيا العربية الاسلامية •

***

وقد اتضح للغرب أن الاسلام قد انتشر فى أفريقيا عن طريق العرب الذين توغلوا فيها لنقل تجارتها الى الشرق والى موانى البحر الأبيض المتوسط ، على أن العرب لم يكن لهم مبشرون انقطعوا للدعوة للدين الاسلامى بين أهل أفريقيا ولكن الأفريقيين هم الذين اعتنقوا الدين الاسلامى طوعا واختيارا •• كما لم يكن للعرب جندى واحد فى تلك الأراضى •

وقد بدأ الغرب حملته ضد العرب والاسلام فى أفريقيا بارسال جنود له من طراز جديد يهيئون له القواعد التى يرتكز عليها عندما يغزون أفريقيا وليكونوا جنود الطليعة للحملة الاستعمارية الكبرى التى يعدها الاستعمار الغربى •

وفى هذا الصدد اتفق ساسة الغرب ورجال المال ورجال الدين على أن تكون الأسبقية للبعثات التبشيرية الدينية والتى أجمعت الدول الغربية

على رعايتها بصرف النظر عن الوضع السياسى والدينى لهذه الجمعيـــات فى بلادها الأصلية ، فأصبحت البعثات التبشيرية هى الأساس الأول الذى اعتمد عليه الاستعمار ليمهد لتوغله فى أفريقيا ولقد استعان الغرب بفئة من المغامرين زودهم بالمال والوسائل المختلفة ليقتحموا مجاهل أفريقيا البـكر وليعودوا اليه بأدق المعلومات عن أفريقيا وهكذا بدأت فيها حركة الاكتشاف الغربى .

ولكن الغرب أدرك أنه من المتعذر عليه تحقيق أهدافه فى سـهولة ويسر ولا سيما لما تبين أن أفريقيا مختلفة كل الاختلاف عن القارة الامريكية التى لم يلق الغرب فيها الا عددا قليلا من الهنود الحمر يعيشون عيشـــة بدائية ..

أدرك الغرب هذه الحقيقة ..

فأجل زحفه الى قلب أفريقيا وركز جهوده للاسـتيلاء على جزء من الساحل الغربى الأفريقى والأراضى المتاخمة له والتى كان يسهل له الدفاع عنها من المحيط الاطلسى كما اتجه الى ساحل المحيط الهنـــدى والبحر الأحمر والسودان .

الفصل الثاني

سودان وادي النيل بين مصر وبريطانيا

« تبعية البلاد العربية والاسلامية فى افريقيا للباب العالى كانت رمزية »
« ـ السودان اكبر وحدة متماسكة فى افريقيا ـ حدوده الطبيعية ـ محمد علي وفتح »
« سودان وادى النيل ـ حالة السودان حتى عام ١٨٦٦ ، اسماعيل بعد حصوله على »
« فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ ، اسماعيل يبدأ بايعاز من الغرب تطبيق سياسة الغزو »
« واحلال القوة محل المسالمة والاخوة ، لكى يفرض سلطانه وحكمه الفعلي على سودان »
« وادى النيل ـ اسماعيل يقنع بمظهر الحكم ومصر تضطلع بأعباء السودان ونفقاته »
« ولبريطانيا حكم السودان ـ جوردون يحكم السودان باسم مصر ولحساب بريطانيا »
« ـ بريطانيا ترهق السودان وتنجح فى ابراز حكام مصر فى صورة الحكام الظالمين ـ »
« بريطانيا تفسد أحوال السودان وتنشر الفوضى فى كافة ارجائه ـ بريطانيا تعمل على »
« القضاء على التجارة الداخلية للحد من تدعيم نفوذ العرب ـ الغرب والنخاسة ـ بريطانيا »
« تسخر اسماعيل لتنفيذ سياستها ـ اسماعيل يمكن بريطانيا من السيطرة على »
« موانى الصومال والسودان وارتريا ـ قناصل الدول وابناء الغرب يمارسون »
« تجارة الرقيق بنشاط ملحوظ ـ فكا الكماشة الغربية يتقاربان فى بطء للضغط »
« والسيطرة على الشعوب العربية والاسلامية فى افريقيا . »

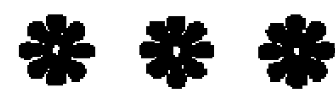
لقد تمسك الباب العالى بتبعية البلاد الاسلامية الأفريقية وولاء سكانها لخليفة المسلمين فبقيت هذه التبعية ، ولكنها كانت مجرد رمز دون أن تحول بين تلك البلاد وبين التمتع بالاستقلال الواقعى ، وكان السودان أكبر وحدة سياسية متماسكة ممتدة من البحر الأحمر والمحيط الهندى شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ثم الى الكونغو جنوبا وصحارى النوبة وليبيا والجزائر ومراكش شمالا ـ وانتظمت جماعات عربية واسلامية داخل هذه الوحدة وحظيت باستقلال حقيقى خلال قرون عدة من الزمن ، بل لقد قامت بينها حركة اسلامية شاملة فى سبيل جمع شمل المسلمين والعرب فى هذه المناطق جميعها فى أمبراطورية اسلامية كبرى ، كما كانت هذه المجتمعات ترتبط والبلاد الاسلامية الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى علاقات طيبة وتتبادل واياها مختلف السلع والمنتجات ، وقد دامت الحال بينها على هذه الوتيرة حتى استولى محمد على على السلطة فى مصر فوجه

حملة الى السودان ليقضى على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا قد لجئوا الى مديرية دنقلة فاتخذ محمد على من مطاردتهم فى دنقلة ذريعة لفتح السودان ، وكانت الحملة مكونة من جيشين يقود أحدهما ابنه اسماعيل الذى لقى حتفه في السودان ..

وقد امتد سلطان محمد على على جانب من السودان كان يشمل وقتئذ كل المنطقة من جنوبى النوبة حتى بحيرة البرت نيانزا ومن الحبشة شرقا الى دولة الدالاى الاسلامية غربا كما امتد سلطانه الى ولاية هرر بأكملها وارتريا والصومال حتى حدود زنجبار .

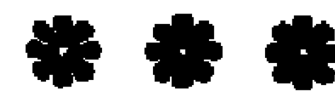
وفى ١٣ من فبراير سنة ١٨٤١ ، حصل محمد على على فرمان من الباب العالى يمنحه ولاية مقاطعات دارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر .

وقد ظلت الأوضاع فى هذه المناطق على حالها ودون أن تتعرض لأى اضطراب منذ فتح محمد على الى عهد اسماعيل .



وفى ٢٧ من مايو سنة ١٨٦٦ حصل اسماعيل على فرمان من الباب العالى يمنح مصر الولاية على سواكن ومصوع ويجعلها جزءا لايتجزأ من الأراضى الخاضعة لولاية مصر ، كما كفل الفرمان احترام الدول الأجنبية لهذه الحقوق .

وبهذا بدأ اسماعيل يتجه بايعاز وبتوجيه من الغرب الى سياسة فى السودان تهدف الى الغزو والى احلال القوة محل المسالمة والأخوة لكى يفرض سلطانه الفعلى المباشر على سائر هذه المناطق .



كان اسماعيل يعمل من أجل انشاء أمبراطورية أفريقية يقوم عليها نفوذه وسلطانه ، وكانت بريطانيا تعمل على تسخير اسماعيل لتنفيذسياستها ازاء أفريقيا العربية الاسلامية ولتجعله في هذا « مخلب القط » دون أن

يفيد من ذلك كله فى السودان سوى مجرد الشكل الظاهر من حكم مصر لهذا البلد وما يضيفه هذا الوضع على الخديو من مظهر يرضى غروره ويشبع كبرياءه ، فى حين يكون لبريطانيا السلطان الفعلى فى حكم السودان حكما تضطلع مصر وحدها بأعبائه ونفقـاته دون أن تخسر بريطانيـا من ذلك شيئا •

وقد عهد اسماعيل الى « صمويل بيكر » القيام بتنظيم سـلطانه عـلى السودان ثم ولى « غوردون » الاشراف على مديرية خط الاستواء وسـلم قيادة الجيوش المصرية فى السودان الى الانكليز وتولى الانكليز والاجانب حكم السودان ـ فعلا ـ وباسم مصر •

* * *

وقد كتب صمويل بيكر يصف حالة السودان وقتئذ ، أى عند تقلده لوظيفته هناك فقال :

« ان أى زائر للسودان يستطيع أن يرتاد تلك المناطق وكأنه يجتاز أحياء لندن وقت غروب الشمس » •

كما وصف صمويل بيكر شعب السودان بأنه شعب مسـالم طيب بفطرته ••

ورأى بيكر وأعوانه من الحكام الانكليز أن يمكنوا البعثات التبشيرية من التسلل الى جنوبى السودان ، وراح يتحدث ـ اذ ذاك ـ عن قيام حركة اسلامية واسعة النطاق فى السودان ويبدى مخاوفه من أن تتهيـأ لهـذه الحركة مستقبلا أسباب القوة والنمو •

ولما استقال صمويل بيكر وتولى غردون قيـادة الحملة المصرية فى السودان اقترح هذا على الحكومة الانكليزية أن تطالب بمناطق نفوذ لها فى السودان ، غير أن بريطانيا رأت اذ ذاك أن الوقت غير مناسب لتنفيذ هـذا الاقتراح ورفضته • فمضى غردون يحكم السودان باسم اسماعيل وباسم

مصر ولكن لحساب بريطانيا ، وعلى هذا النهج ذاته سار جميع حكام السودان من الانكليز الذين استعان بهم اسماعيل •

وفي سنة ١٨٧٤ امتـــد حكم مصر في السودان الى أوغـندا فوقع سلطانها معاهدة اعترف فيها بحماية مصر لبلاده •

وبينما كان أهل المناطق التي انبسط عليها حـكم مصر ، تتطلع الى العدالة ـ والى الحرية الشاملة في ظل مصر ـ البلد الاســلامي العربي ـ كان الانكليز يتخذون من حكم مصر وباسم مصر ، شعارا من ورائه يرهقون أهل السودان بالضرائب الباهظة ، ويغرون العديد من الأوروبيين والعاملين في خدمة الحكومة المصرية في السودان باضطهاد أبناء هذه البـلاد بأوامر ونظم واجراءات يصدرونها ويضعونها ، ثم يتولى تنفيذها ـ دائما ـ المصريون وبهذا فقد كان ينصب سخط السودانيين على المصريين وحـــدهم الذين أبرزهم الانكليز في صورة الحكام الظالمين ••

وهكذا مضى الحكام الانكليز في تنفيذ سياستهم لافساد أحوال السودان ونشر الفوضى في أرجائه بكافة الوسائل •

* * *

لقد استهدفت بريطانيا القضاء على التجارة الداخلية في الســـودان حتى يتم بذلك اضعاف هذه البلاد الى الحد الذي يقضي على ســائر مظاهر النشاط فيه ومن بينها وأهمها الحركة الاسلامية العربيــة التي كانت هدفا لسهام السياسة الغربية ، وكان استهداف الغرب للتجارة الداخلية يرجع الى أن القائمين بهذه التجارة في السودان كانوا جميعا من العرب والمسلمين، الأمر الذي من شأنه أن يجعل من القضاء على موارد أرزاقهم قضاء عـلى الحركة الاسلامية ، وقد اشترك في تدبير هذه الخطة مع بريطانيا رجال المال والسياسة في فرنسا ، ورجال الكنيسة ، ولما كانت تجارة الرقيق ، من أهم الأسواق التي يعتمد عليها في السودان هؤلاء التجار من عرب ومسلمين فقد استهدف الغرب أول ما استهدف تحريم هذا النوع من التجارة بدافع خفي هو دافع القضاء على اقتصاديات السودان •• أما الدافع الانساني الذي

كان يحرم هذه التجارة ، فلم يكن له في الواقع وجود أصلا فى سياسة الغرب ، وانما كان مجرد سند ظاهر .

وقبل أن يتم الاتفاق دوليا على تحريم الرق ، كان قد تم الاتفاق بين بريطانيا وبين الخديواسماعيل على منع هذه التجارة وتنفيذا لما اتفق عليه أصدر اسماعيل فى ٢٣ من أغسطس سنة ١٨٧٧ أمرا بمنع وتحريم تجارة الرقيق .

وقد قال الخديو فى هذا الأمر « انمن أعز أمانيه أن يتعاون مع الدولة الفخيمة الانكليزية ، فى سبيل انجاز هذا الأمر بوساطتها ، لوضع تحريم الرقيق تحت رابطة قوية مؤسسة على أحكام قويمة ، تكون كفيلة بحسم ماعساه أن يقع من مشكلات فى تنفيذ هذا الأمر مستقبلا » .

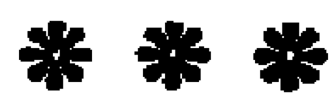
كما رأى اسماعيل أن يوقع مع بريطانيا اتفاقية تتضمن الاجراءات والوسائل التى يتعين اتخاذها لتنفيذ هذا القرار ، وتوضح المعاملة التى يخضع لها كل مخالف المقرار .

وقد وقع هذه الاتفاقية نيابة عن مصرناظرخارجيتها ، ووقعها نيابة عن بريطانيا المستر فيفيان (Vivian) القنصل العام الانكليزى فى ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٧ .

* * *

لقد كان سعى بريطانيا لتحريم تجارة الرقيق فى السودان احدى المراحل التى رسمتها فى سبيل تطبيق سياستها الأفريقية من أجل اثارة الاضطرابات والفتنة داخل المجموعة العربية الاسلامية وقد استندت فى ذات الوقت الى الاتفاقية التى عقدتها مع اسماعيل لتحصل على قواعد على الساحل الصومالى الذى كان - وقتئذ - يخضع للسيادة المصرية ، ولكى تتمكن بريطانيا من تحقيق هذا الهدف ، استدرجت اسماعيل لعقد اتفاق معها تعترف فيه بريطانيا بسلطان مصر على ساحل الصومال مقابل اعتراف اسماعيل وقبوله بأن يكون لبريطانيا امتيازات خاصة فى مينائى بلهار وبربره وتعهد بأن لايمنح فى الميناء أى احتكاروالتزام لأى فرد أو لأيةدولةأخرى

وأن يكون لرعايا بريطانيا ولتجارتها معاملة خاصة بوصفها الدول الممتازة في جميع البلاد التي تدخل تحت سيطرة الحكومة المصرية ، وكذلك تعهد اسماعيل بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عمن يخلفه في الحكم بألا يمنح أي جزء كان من البلاد التي تدخل في حوزة حكومته بطريق الوراثة الى أية دولة من الدول الأجنبية . وأن يكون لبريطانيا الحق في تعيين مأموري القنصليات بسائر المدن والموانى الخاضعة لسلطان مصر بحيث يتمتع من تعينهم بجميع الامتيازات والمزايا والاعفاءات التي حددتها - اذ ذاك - بريطانيا كما خول لها الحق في الاشراف على تحريم تجارة الرقيق ومراقبة سائر شواطىء البلاد الخاضعة لسلطان مصر وخول السفن الانكليزية الحق في التفتيش والبحث والضبط شريطة أن يبقى من يضبط تحت اذن الحكومة البريطانية وفي هذا الشأن احتاطت بريطانيا لرعاياها ، في اتفاقها مع اسماعيل ، فضمنت الاتفاق نصا يقضي بأنه في حالة مايكون تاجر الرقيق من رعايا بريطانيا فأنه لايكون للحكومة المصرية سبيل عليه وانما يقتصر دورها في مثل هذه الحالة على ابلاغ القنصل البريطاني المختص وتسليم التاجر البريطاني الى القنصل ليتخذ هو الاجراءات اللازمة .



وهكذا قبل اسماعيل أن يمكن بريطانيا من السيطرة على موانى الصومال وموانى السودان وأريتريا فسهل لها اثارة الفتن والتمهيد لفصل الصومال وأرتريا والسودان عن مصر ، لا من أجل تحرير هذه البلاد ، بل لتستولي هي عليها .

ويقول المؤرخ هانز «Hanz Rezner»

« انه بالرغم من تحريم تجارة الرقيق فان الموظفين السابقين في القنصليات الأجنبية من فرنسيين وبريطانيين كانوا متكالبين على الاتجار بالرقيق علنا ، وعلى رءوس الاشهاد ، بل أكثر من هذا ، فان جون باتريك (John Patrik) قنصل بريطانيا بالخرطوم كان غارقا في تجارة الرقيق وكان يروج لها كما كان يعاونه في ذلك عدد كبير من الوسطاء والعملاء الأجانب » .

وهكذا سيطرت بريطانيا على السواحل الافريقية العربية والاسلامية من الشرق ، كما سيطرت كل من فرنسا واسبانيا على الساحل الغربي ، وبذلك وقعت أفريقيا العربية الاسلامية بين فكي كماشة يتقاربان - في بطء - من الغرب الى الشرق لتضغطا على هذه المجموعة من الشعوب وليسيطر عليها الغرب .

* * *

وكانت بريطانيا تضع خطتها بصبر وهدوء ، ثم تتربص وتنتظر الوقت المناسب لتنفيذها لأنها كانت تهدف الى انشاء امبراطورية أفريقية تمتد من القاهرة الى رأس الرجاء الصالح غير أنها كانت تواجه عقبات من بينها معاهدة لندن التي كانت قد عقدت في ١٣ من فبراير سنة ١٨٤١ والتي تعهدت بمقتضاها كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا باحترام سيادة مصر على السودان بما في ذلك « سواكن » و «مصوع» ، وكان لزاما على بريطانيا أن تدخل في تقديرها موقف مختلف الدول الأوروبية من سياستها التوسعية في أفريقيا .

الفصل الثالث

مؤتمر برلين

« معاهدة سان استيفانو بين روسيا وتركيا تمكن بريطانيا من اثارة الوضع فى »
« افريقيا والشرق ـ رسالة سالسبورى وزير الخارجية ـ بريطانيا تحرص على الا »
« تمتد الاراضى الروسية الى قلب الشرق الادنى ـ خطر قيام دولة قوية للصقالبة ـ »
« خطر السيطرة الروسية على بلاد آسيا الصغرى ، بريطانيا تدافع عن الباب العالى »
« وتوضح بواعث حرصها على سلامة اراضيه ـ حرصها على تجنيب الباب العالى »
« الوقوع تحت سيطرة دولة اخرى ـ بريطانيا تدعو الدول الاوروبية الى مؤتمر »
« يعقد فى برلين وتصر على بطلان معاهدة سان استفانو وفى ذات الوقت تعقد معاهدة »
« سرية لمصلحتها مع روسيا ، وفى غفلة من سائر الدول الاوروبية ومن روسيا تعقد »
« مع الباب العالى اتفاقا سريا فى ٤ من يونيو ١٨٧٨ فى اثناء انعقاد مؤتمر برلين ، »
« بريطانيا بموجب هذا الاتفاق تستولى على قبرص لحماية الباب العالى من روسيا »
« فى حالة عدوانها عليه ـ خداع بريطانيا للغرب وزعمها أن دفاعها عن سلامة »
« الاراضى العثمانية ضد العدوان الروسى للغرب ولسائر رعايا الباب العالى عامة »
« والمسيحيين منهم خاصة ـ الغرب يحدد مستقبل افريقيا ويقسمها سياسيا بين »
« الدول الاوروبية الاستعمارية ـ بريطانيا تصر فى المؤتمر على استبعاد جميع »
« الدول الاوروبية عن حوض نهر النيل وتسجل سيادة مصر على مجرى النيل »
« باكمله وعلى سواكن ومصوع وتؤكد عدم شرعية احتلال هذه المناطق وتنفى اية »
« مقارنة بين نهر النيل وبين اى نهر آخر ـ بريطانيا تمهد لاقامة امبراطورية افريقية »
« تمتد من القاهرة الى راس الرجاء الصالح . »



لقد هيأت نتيجة الحرب التى وقعت بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٧٨ الفرصة التى كانت ترقبها بريطانيا لتثير الوضع فى أفريقيا بأسرها ولتحاول الوصول الى اتفاق بين سائر الدول العظمى الأوروبية بشأن مستقبلها .

فقد انتهت هذه الحرب بهزيمة تركيا واضطرت الى توقيع معاهدة صلح بينها وبين روسيا عرفت بمعاهدة « سان استفانو » وقد حصلت روسيا بموجبها على مزايا ومكاسب اقليمية فى أوروبا وآسيا على حساب الدولة العثمانية كان أخطرها من وجهة النظر البريطانية تنازل الباب العالى لروسيا عن مقاطعات « قارص » و« اردهان » و « باطوم » و « بيازيد » مع

الأراضي الممتدة حتى جبال سونجا نيلي وقد أزعجت هذه المغانم الروسية ساسة الغرب فبادر عندئذ « الماركيز سالسبوري » وزير خارجية بريطانيا ـ اذ ذاك ـ بتوجيه رسالة الى سفراء بريطانيا في الخارج في أول ابريل سنة ١٨٧٨ جاء فيها مايلي : ـ

« ان بريطانيا ترى أن ماتم الاتفاق عليه في هذه المعاهدة يعتبر تعديلا للمعاهدات الأوروبية كما أنه اجحاف بمصلحة أوروبا ، ومن ثم فلايمكن الاعتراف بها مالم توافق الدول التي وقعت على معاهدة باريس عليها » .

ثم يمضي فيقول : ـ

« ان الشروط الاقليمية التي تضمنتها هـذه المعاهدة فيهـا ظلم لتركيا .. »

ونظرا لأن بريطانيا كانت حريصة كل الحرص على أن لاتمتد الاراضي الروسية الى قلب الشرق الأدنى فقد رأى لورد سالسبوري (Salisbury) أنه لابد من عقد مؤتمر تعرض عليه شروط معاهدة الصلح هذه ليقر فيها المؤتمر مايراه ويرفض منها مايشاء .

* * *

كما رأى أن تبلغ المعاهدة بنصوصها الى سائر الدول الأوروبية قبل دعوتها الى المؤتمر الذي يعقد في مدينة برلين لمناقشة المعاهدة بحرية تامة للاتفاق على مايجب عمله ازاءها !! ..

غير أن روسيا وقد تلقت دعوة الى المؤتمر أجابت على الدعوة مؤكدة احتفاظها لنفسها بحرية العمل والتصرف ازاء موقف انجلترا ، كما أكدت حقها في قبول أو رفض القرارات التي ينتهي اليها هذا المؤتمر .

ويصف اللورد سالسبوري هذا الموقف الروسي فيقول : ـ

« انه يأسف لموقف روسيا لأنه اما أن تكون الشروط التي تضمنتها معاهدة « سان استفانو » ملائمة كلها للدول الأوروبية وهو أمر لايمكن الجزم به الآن واما ألا تكون ملائمة ، وفي هذه الحالة يكون لروسيا حق

الاختيار بين رفض وقبول ذلك ، استنادا الى معاهدة ١٨٥٦ التى كانت روسيا من بين موقعيها والتى نصت على أنه لايجوز لدولة أن تنفصل من معاهدة أو تغير من شروطها الا بالاتفاق مع سائر الدول التى وقعتها .

ومضى وزير الخارجية يقول : ـ

« ان الحكومة البريطانيـــة ترى أنه لابد من بحث آثار معـــاهدة سان استفانو على مصالح الدول الأوروبية ولا سيما ان هذه المعاهدة ترمى الى انشاء مملكة قوية للصقالبة تحت القيادة الروسية يكون لها شـــأن عظيم فى ميادين السياسة والتجارة مما يؤدى مستقبلا الى ادخال جمـــوع كثيرة من الروم تحت السيطرة الروسية ، ويؤدى الى بسط سلطان روسيا الى ماوراء حدودها » .

ومضى يقول : ـ

« ترى بريطانيا ان توسيع حدود روسيا وحيازتهـــا للأراضى التى اقتطعتها من الباب العالى فى آسيا الصغرى ووضع يدها على مرسى باطوم ، ذلك كله ، ترى أنه من شأنه أن تقع هذه المناطق تحت تسلط روسيا بحيث ينقاد أهلها فى سهولة الى سياستها ، فضلا عن أن تجارة أوروبا التى تمر من طرابيزون فى طريقها الى ايران تصبح تحت رحمة روسيا نظرا لوقوع الكردستان تحت سيطرتها . »

ثم يمضى لورد سالسبورى فيقول : ـ

« ان هذه الشروط تهدر حق الباب العالى فى التمتع باستقلاله ، ولما كانت سلطة الباب العالى تمتد الى مواقع تهم بريطانيا الى حد كبير، وتتحكم فى البواغيز فيما بين بحر ايجة وبحر قزوين وفى خليـــج فارس وعـلى سواحل الشرق وفى خليج السويس بحيث يتسنى له فتح واغلاق هـــذه البواغيز متى شاء ، فان بريطانيا لاتقبل لمثل هذه الدولة التى فى يدها هـذا السلطان أن تكون هدفا للاعنات والتســـلط من جانب دولة أخرى حتى لاينتهى أمرها بضياع استقلالها وحريتها فى العمل والتصرف ، بل وبمحوها من الوجود » .

وفي الوقت الذى ثارت فيه بريطانيا من أجل مصالح الباب العـــالى وراحت تدعو الى عقد مؤتمر فى مدينة « برلين » يجمـــع ســـائر الدول الأوروبية وتصر على بطلان هذه المعاهدة التى تحقق لروســـيا مزايا على حساب الدول الأوروبية ، فان بريطانيا مع هذا كله ، وقعت فى ٣ من مايو سنة ١٨٧٨ اتفاقا خاصا بينها وبين روسيا يكفل لبريطانيا حقا خاصا سلمت به روسيا ، والتزمت بمقتضاه أن تشير بريطانيا مستقبلا فى كل ما يتعلق بوضع الولايات التى يسكنها المسيحيون أو الولايات المسيحية ٠ التى تقع تحت سلطان الباب العالى ، ومن ناحية أخرى تسللت بريطانيا ، وفى غفلة من سائر الدول الأوروبية ومن بينها روسيا وعقدت مع الباب العالى اتفاقا فى ٤ من يونيو سنة ١٨٧٨ فى أثناء انعقاد مؤتمر برلين وبموجب هـــذا الاتفاق استولت بريطانيا على جزيرة قبرص ٠

وقد جاء فى الاتفاق البريطانى التركى فى نصه العربى المعتمدوقتئذ مايلى : ـ

« لما كان كل من ملكة بريطانيا وايرلندا المتحدة وامبراطورة الهند وجناب السلطان المعظم يتصفان بمقاصدهما الودية من أجل توثيق العلاقة الحبية القائمة الآن بين البلدين جزما بعقد معاهدة دفاعية لتأمين الاراضى فى آسيا التى تخص الحضرة العلية السلطانية وبناء على هذه الغاية انتخبا وعينا المرخصين الآتى بيانهما : ـ « عينت ملكة مملكة بريطانيا وايرلندا المتحدة وامبراطورة الهند حضرة الانورابل « أوستين هنرى ليارد » سفيرها الاعلى لدى الباب العالى وعينت الحضرة العلية السلطانية حضرة دولتلو صفوت باشا ناظر الخارجية للدولة العلية ـ « وبعد أن أظهر كل منهما المحررات المرخصة لهما فى اجراء هذه المصلحة ووجدت مطابقة للأصول اتفقا على المواد الآتية : ـ

١ ـ اذا استولت روسيا على بوطوم او اردهان او قارص او احداها وأرادت بعد ذلك أن تستولى على بعض الاراضى الكائنة فى آسيا التابعـة للحضرة السلطانية كما تقرر أمرها فى المعاهدة الصلحية البـــاتة ، فان

بريطانيا تتعهد بأن تتحد مع الحضرة العلية السلطانية لحماية تلك الاراضى بقوة السلاح وفى مقابل ذلك تعد الحضرة السلطانية بريطانيا بأن تجرى فى ممالكها الاصلاحات اللازمة التى سيحصل الاتفاق بعد هذا بينهما على كيفية اجرائها وأن تحمى المسيحيين وغيرهم من رعاياها القاطنين فى بلادها والى أن يتم تمكين بريطانيا من اتخاذ الوسائل والتدابير اللازمة لاجراء ما تعهد به السلطان المعظم فقد قبل السلطان أن تستولى على جزيرة قبرص وتدير أمورها •

٢ ـ امضاء هذه المعاهدة من طرف الدولتين المذكورتين يكون بعد تاريخ امضاء هذا بشهر واحد او أقل اذا امكن وقد صار امضاء هـــذه المعاهدة وختمها فى قسطنطينية فى الرابع من شهر جون الافرنجى من سنة ١٨٧٨ • •

الامضا • هـ • ليارد
« صفوت »

وهكذا تم لبريطانيا تأمين مصالحها فى جنوبى أوروبا الشرقية وفى آسيا الصغرى عند عقد مؤتمر برلين ورتبت لنفسها فى قبرص قاعدةيمكن ان تثبت منها على بلاد الشرق العربى وتهدده تهديدا دائما كما حرصـــت فى الوقت نفسه على أن تسجل فى المعاهدة حقها فى الدفاع عن ســـلامة اراضى الدولة العثمانية ضد العدوان الروسى وفى ذات الوقت حرصـت على اشعار الغرب بأن لقيامها بهذه المسئولية مقابلا يعود بالنفع على ســائر رعايا الباب العالى عامة والمسيحيين منهم خاصة •••

وما ان وصلت الى الدول الاوروبية المجتمعة فى مؤتمر برلين هذه الاتفاقية حتى ثارت ثائرتها وادركت ما تقضى بة الضرورة الملحـــــة من التعجيل بالاتفاق على مستقبل افريقيا وتقسيمها سياسيا بين الدول الاوروبية الاستعمارية •••

الا أن بريطانيا من أجل ان تستبعد فى اثناء المؤتمر جميـــع الدول الاوروبية عن حوض نهر النيل بأسره ، كانت حريصة فى كل منـاسبة

ـ على ان تسجل وتؤكد سيادة مصر على مجارى النيل وسواكن ومصوع كما أن البروتوكول الثالث نص على عدم جواز احتــلال هــذه الاراضى ونص « على أن نهر النيل الذى لايجتـاز اراضى اكثر من دولة لايمكن مقارنته بنهرى الكونجو والنيجر »

وهكذا مهدت بريطانيا لسياستها المرســومة فى الشرق بأسره فى مصر وفى السودان وفى شرقى افريقيا لان هدف بريطــانيا كان وقتئذ اقامة امبراطورية افريقية تمتد من القاهرة الى أقصى جنوبى افريقيا الى « رأس الرجاء الصالح » .

الفصل الرابع

بريطانيا تخرج مصر من السودان ومن قلب افريقيا

« الاستعمار البريطاني يتسلل وراء التوسع المصري ـ رجال الطرق يتزعمون »
« الحركات التحررية الافريقية ـ بريطانيا تأمر مصر بالانسحاب من السودان ـ »
« وزير خارجية بريطانيا يعلن حرصها على استقلال السودان ـ جوردون البريطاني »
« يتولى مهمة سحب القوات المصرية ـ بريطانيا ترفض قيام ادارة منظمة لتستلم »
« مقاليد الحكم ـ بريطانيا ترفض مفاوضة المهدي وتصر على ابعاد مصر ـ بريطانيا »
« تضحي بجوردون ـ جلاء مصر عن السودان مرحلة من مراحل السياسة البريطانية »
« في افريقيا ـ بريطانيا تستولي على زيلع وسواكن وتلزم مصر بالجلاء عن مديرية خط »
« الاستواء ـ مؤامرة ستانلي وموقف امين باشا ـ بريطانيا تتفق مع المانيا على »
« حساب مصر والسودان . »

***

لم تكن بريطانيا تواجه وقتئذ غير مصر التي عملت على دفعها للتوسع حتى أوغندا وبهذا تمكن الاستعمار البريطاني من التسلل لا الى أوغندا فحسب ، بل والى جميع المناطق والاراضي التي يقطنها العرب والمسلمون والتي سيطرت عليها مصر ، ومن وراء هذه السيطرة تسلل الاستعمار البريطاني …

وراحت بريطانيا ترقب الحركة التحررية التي انبعثت في ارجاء السودان بسبب ما تبين للوطنيين من الخطر الاستعماري الذي يهدد بلادهم من البحر الاحمر الى حدود تشاد ، فحدود السنغال ، وهذه كلها بلاد اسلامية بحتة …..

وكان على رأس هذه الحركة الاستقلالية التحررية رجال الطرق الصوفية في تلك الانحاء وقد استجابت حشود المسلمين في سائر انحاء افريقيا العربية الاسلامية الى هذا النداء وتولى « محمد احمد المهدى » قيادة هذه الحشود ويقول مؤرخو الغرب …

« ان النداء الذي وجهه المهدى قد استجاب اليه سكان افريقيا من

ميناء دكار على المحيط الاطلسى الى ميناء جيبوتى على البحـــر الاحمر والمحيط الهندى ... ويقولون ان هذه الدعوة كانت بمثـابة نداء لكى يحمل الاسلام الافريقى السلاح فى وجه الغرب .

* * *

لقد كانت سياسة بريطانيا ترمى الى كسب اكبر ما يمكن من المزايا على حساب مصر وعلى حساب السودان ، وقد هيأت لها ثورة المهـــدى الفرصة لتحقيق هذه السياسة ، ومن أجل ذلك ، فقد امتنعت حـــكومة بريطانيا بذل أية معونة لمصر من أجل الدفاع عن الوضع فى السودان بل انها حالت دون قيام مصر بهذا الدفاع .

وتحقيقا لهذه السياسة طلبت بريطانيا فى ٤ من يناير سنة ١٨٨٤ الى اللورد كرومر أن يبلغ شريف باشا نصيحتها المشهورة ، التى قالت :-

« على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينـــة من ان المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى اتبـــاع السياسة التى تراها ، والتى يتعين على كل وزير ومدير أن يسير وفقـــا لها ، والا فلزاما عليه ان يتخلى عن منصبه ... »

وعندئذ ادرك شريف باشا انه لامفر من أحد الأمرين ، الاذعان او الاستقالة ، وآثر الاستقالة .

وراحت بريطانيا تمعن فى تضليل العالم ومخادعة السودانيين فاعلن لورد جرانفيل وزير الخارجية فى ٢٤ من يناير سنة ١٨٨٤ « بأن حكومة صاحبة الجلالة الملكة ترى أنها لا تستطيع أن تكفل للسودان ادارة عادلة . منصفة .. ولهذا وبحكم المنطق قررت أن تمكن شعب السودان من التمتع بالاستقلال .. والا تتحمل مسئولية حكم السودان أو التدخـــل فى شئونه ... !!

وفى ١١ من مايو سنة ١٨٨٤ ، تحدث باسم الحكومة البريطـانية متحدث رسمى أمام مجلس العموم ، فاعلن أن الحكومة لاتهدف بأى حال

من الاحوال الى غزو السودان الذى يكافح سكانه فى سبيل قضية عادلة ٠٠ فى سبيل حريتهم ٠٠٠ !!

***

وعلى هذا المنوال راحت بريطانيا تقف فى وجه أية محاولة ترمى الى اقامة أى نظام للحكم فى السودان ٠٠٠ وكانت اوامر بريطـانيا هى جلاء مصر عن السودان ٠٠٠٠

وأذعن توفيق وحكومته للاوامر وعهـــد الى جوردون الانجليزى بمهمة التنفيذ ، لقد كانت المهمة التى عهد بها الى جوردون فى السودان ان تنحصر فى العمل على تنفيذ امر الحكومة البريطانية لمصر بالجلاء عن السودان ٠٠٠ ولقد حرصت الحكومة البريطانيـــة وقتئذ على أن يلتزم جوردون فى السودان بتنفيذ تعليماتها ، غير أن جوردون ، بعد أن تبين حقيقة الحال فى السودان ، رأى أنه من الانسب لمصلحة بريطانيا ان تسلم مقاليد الحكم الى اولئكم السلاطين الذين يتزعمون القبائل والعشائر هناك ٠

وكان على غردون ــ اذ ذاك ــ أن يواجه دعوة المهدى وأنصاره ممن كانوا ينادون بتحقيق وحدة السودان ــ وقد كتب غردون الى لورد جرانفيل مستفسرا عمن يسلم له السودان بعد التخلى عن حكمه ، فتلقى منه فى ٢٣ من مارس سنة ١٨٨٤ رسالة عن طريق اللورد كرومر يقول فيها : ــ

أرجو أن تكونوا قد أكدتم الى الجنرال غوردون ان الهدف الاساسى فى مهمته هو تحقيق الجلاء عن السودان ــ لا يحق له ان يناقش هـــذا القرار ولا أن يعدل عنه أيا كانت الأسباب ، وليس من شأنه أن يطيل مدة بقاء القوات المصرية بالسودان بغية فى مساندة أولئك الذين سيترك لهم المسئولية فى تصرف أمور البلاد ٠ »

ولكن جوردون على الرغم من هذا اراد ان ينبه لورد كرومر الى خطورة هذا الجلاء دون أن تحل محل الادارة المصرية ادارة فعالة قوية تتولى شئون الحكم فعلا ، فبعث برسالة الى لورد كرومر يقول له فيها :ــ

« انى كلفت باتمام الجلاء عن السودان ، لا التخلى عنه » ٠

ولكن لورد كرومر ذكر جوردون بان الحكومة الانكليزية قد ارسلته الى السودان ليمثلها ولينفذ سياستها وان عليه أن يقوم بما صدر اليه من اوامر .

وقد أدرك غوردون برغم حرصه على مصالح حكومته وطاعته لاوامرها ان الجلاء عن السودان . على هذه الصورة يعرضه والضباط الانجليز وسائر الاجانب القاطنين بالسودان كما يعرض الموظفين والجنود المصريين الى أسوأ العواقب ، وحرصا منه على سلامة أرواح الجميع رأى على الرغم منه ان يذكر حكومته بان تحريم تجارة الرقيق كان من عوامل الفتنة ، كما كان باعثا على السخط .

وجدير بالذكر ان ذلك القرار اتخذه الخديو اسماعيل بتحريض من بريطانيا التى كانت تدرك وتقدر وقتئذ ما سوف يترتب عليه من نتائج، الا ان جوردون بالرغم من تشيعه لسياسة بلاده كان يدرك هول الكارثة التى تهدد الارواح ، فحاول العمل على انقاذها فى ذات الوقت الذى كان يخدم فيه مصالح بريطانيا . فكتب الى حكومته يقول : ـ

« ليس من العدالة فى شىء أن يهمل تعويض أولئكم الذين سينالهم ضرر من جراء تنفيذ تحريم تجارة الرقيق وذكر الحكومة الانكليزية بأنها حينما ألغت الرق فى الهند دفعت عشرين مليونا من الجنيهات تعويضا لمن أوذوا بهذا الاجراء .. وأكد أن « تنفيذ هذا القرار دون مقابل أوتعويض كان من أهم البواعث على اثارةالفتنة » وكان جوردون يرمى الىأن مصر هى التى تدفع تلك التعويضات كيما تيسر له وللقوات المحاربة وللموظفين المدنيين والأجانب مغادرة السودان وبذلك تحقق انكلترا خطتها دون أن تزهق أرواح عشرات الآلاف من الأبرياء ، ولكن بريطانيا رفضت رأى « جوردون » وعندئذ أرسل هذا الى « كرومر » يستشيره فى مفاتحة المهدى بشأن اضطراب الحالة فى السودان ويتباحث معه فى هذا الصدد بغية الوصول الى اتفاق على حل الموقف فأبرق اليه لورد كرومر يقول :

« انى ارجو ان تؤكدوا بانه مهما كانت الاسباب فانكم لن تضعوا انفسكم فى قبضة المهدى .. ان الامر ليخرج عن نطاق المسائل الشخصية وان تصرفكم سيترتب عليه اشد الأخطار السياسية » ...!!

وامام اصرار الحكومة البريطانية على ابعاد المصريين عن السودان عاد « جوردون » فاقترح أن يتم ابعاد المصريين وأن يستعان بجنود مسلمين غير مصريين أيا كانت بعد ذلك جنسيتهم ليستخدموا من أجل تهدئة الفتنة القائمة في السودان ، ولكن لورد كرومر أرسل الى جوردون يبلغه رفض الحكومة البريطانية رفضا باتا الاستعانة بأية قوات اسلامية ويؤكد له أن مهمته في السودان مهمة سلمية تنحصر في سحب الجنود المصريين والاداريين المصريين وجميع العناصر المصرية من السودان وذلك كما زعم لتهدئة النفوس الثائرة فيه ثم أراد جوردون أن يستعين في الحكم بالزبير باشا الذى كان اذ ذاك معتقلا في القاهرة وحاول أن يقنع الحكومة البريطانية بوجهة نظره وألح في ذلك كثيرا ولكن اللورد جرانفيل نبه اللورد كرومر الى استحالة تنفيذ هذا الطلب ..

فأرسل جوردون رسالة يأس لحكومته يقول فيها : ـ

« انه مالم تعملوا على تنفيذ اقتراحي ومالم ننشىء ادارة تحل محل المصريين فسوف لا نجد أمامنا فرصة لاتمام الجلاء ... »

ولقد عارضت الحكومة البريطانية وقتئذ في مجلس العموم ، معارضة تامة في تسليم الحكم للعناصر الوطنية في السودان ، كما عارضت تعيين الزبير باشا حاكما عاما للسودان ، وأعلنت انها تفضل وقوع جوردون ومن معه تحت الحصار في السودان ، على تعيين زبير باشا حاكما للسودان ، أو تسليم الحكم للعناصر الوطنية ! ..

وهكذا استهانت بريطانيا بحياة جوردون وعرضتها للموت في سبيل اقصاء المصريين عن السودان واجلائهم عنه لتتمكن هي من تنفيذ سياستها في هذا البلد ، ولم يكن الجلاء عن السودان عند البريطانيين يرمى الى تحقيق استقلاله ، وانما كان المقصود منه ، تنفيذ مرحلة من مراحل السياسة البريطانية في أفريقيا ..

* * *

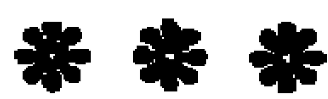
وبعد أن تم جلاء مصر عن السودان أخذت بريطانيا في تثبيت قواعدها في أوغندا وفي وادى حلفا وسواكن وزيلع وفي جنوبي مديرية

خط الاستواء ـ لقد بدأت بريطانيا تعد العدة للاستيلاء على مديرية خط الاستواء ذاتها لأنها كانت تؤلف جزءا رئيسيا فى خطتها الاستعمارية بأفريقيا وكان يتولى حكمها باسم مصر أمين باشا وهو اسرائيلى اعتنق الدين المسيحى وكان فى خدمة الحكومة المصرية وقتئذ .. وكانت بريطانيا فى حاجة لمن يتقدم للاستيلاء على هذه المديرية واجلاء أمين باشا والقوات المصرية عنها ، فأوعزت الى الحكومة المصرية أن تستعين بخدمات ستانلى (Stan ley) لينقذ أمين باشا والحامية المصرية ، ولكن «ستانلى» وقد كان من أجراء وزارة المستعمرات البريطانية كانت مهمته الأساسية اجلاء أمين ومن معه عن مديرية خط الاستواء لا انقاذه وانقاذهم ..

وقد اعتمدت بريطانيا فى القضاء على الوجود المصرى بمديرية خط الاستواء على القواعد التى أعدتها البعثات التبشيرية فى أوغندا وفى الكونغو ..

وقد قام القس « ماك كاى » المشرف على البعثات التبشيرية وباشراف القنصل البريطانى فى زنجبار ، باعداد العدة لاتمام استيلاء بريطانيا على مديرية خط الاستواء .. وكان ذلك كله بتوجيه من وزارة الخارجية البريطانية ، وباشراف لورد كرومر .

وقد استغلت بريطانيا فى الخطة التى دبرتها تصريحا لأمين باشا ،فى مكاتباته لبعض اخصائه ، قال فيه انه فى حالة ما اذا عجز عن الدفاع عن موقعه فى مديرية خط الاستواء فأنه قد يفكر فى تسليم هذه المديرية ـ كوديعة ـ فى يد بريطانيا أو يد أية دولة عظمى أخرى ترتضى أن تحتفظ بها لمصر حتى يفصل فى أمر السودان .. فبادر اللورد ايديسلى (jddes leigh) الذى كان وزيرا للخارجية وقتئذ ، وغنم هذا الاستعداد فى أمين باشا وزود « ستانلى » بالوثيقة التى تضمنت تصريح أمين باشا فى هذا الصدد ..



ولقد تحمست بريطانيا وقتئذ لانقاذ أمين باشا وسرعان ماتألفت لجنة

لجمع التبرعات من أجل هذا الغرض ، ويمكن أن ندرك الغاية الاستعمارية الاستغلالية البريطانية فى هذه المناطق ، اذا عرفنا ماهية هذه اللجنة ،ومن هو مؤلفها والداعى لها .. لقد كان مؤسس هذه اللجنة هو سير وليـــام ماكينون ((W. Mackinnon)) وهو ذاته مؤسس الشركة البريطانيـة لشرقى أفريقيا ، التى كانت تمهد لاستغلال مافى هذه المناطق من ثروات معدنية وتجارية وهى التى مهدت فيما بعد لاستيلاء بريطانيا على كل المناطق الممتدة ، بين الساحل الشرقى لافريقيا والنيل .. ولم يكن هذا بخاف على المصريين من رجال السياسة والفكر وقتئذ ..

ولقد ووجه ستانلى بهذه الحقائق وبهذه الوثيقة ولكنه بالرغم من ذلك كان من الجرأة بحيث صرح لمراسل جريدة الديلى نيوز فى القاهرة فى ٢٦ من يناير سنة١٨٨٧قائلا بأنه « **لا يعمل لمصلحة بريطانيا وبأنه لاهو ولا بريطانيا يستهدفان حرمان مصر من مديرية خط الاســـتواء ، وانما يقوم هو بمهمته بدافع من عاطفته الانسانية ! ..**

وحيال هذا التبجح فى تغيير الحقائق وفى الكذب ، لم يرالكولونيــل شايبه لونج بدا من مواجهة ستانلى بمقال نشره فى ٢٧ من يناير سنة١٨٨٧ بصحيفة البوسفور التى كانت تصدر فى القاهرة قال فيه :

« ان سلسلة الاغتصابات المتصلة الحلقات والتى وقعت ضد الأراضى المصرية منذ ســـنة ١٨٨٢ كان فيها التحذير الـــكافى لمصر كى تأخذ بجانب الحيطة والحرص من هذه البعثة التى تزعم انهــا تعمل على انقاذ أمين باشا ، مع أنه ـ حاليا ـ فى أمن وصـــحة ، وبعيدا عن كل خطر ، انى أنشر هذه الحقيقة رجاء أن أوجه نظر الخديو الى أن بعثة « ستانلى » عميل الحكومة البريطانية لا هدف لها الا ان تسلخ من مصر تلك المناطق الجنوبية فى مديرية خط الاستواء وفى حوض النيـــل الأعلى .. وانى لأحتج بكل شدة ، ضد هذا الغصب المتعمد .. »

ثم عاد شايبه لونج فى ١٥ من مارس سنة ١٨٨٧ فنشر بيانا اتهم فيه بريطانيا بأنها تستخدم أموال مصر لطرد أمين باشا من مديرية خط الاستواء لتمهد لنفسها الاستيلاء عليها كمرحلة من مراحلها السياسية من أجل اقامة امبراطوريتها الافريقية .

ولقد ذهب « ستانلي » الى مديرية خط الاستواء عن طريق زنجبار والتقى بأمين باشا ، وحاول اقناعه بالتخلي عن المديرية والعودة الى القاهرة غير أن أمين باشا رفض الاستجابة الى هذا العرض وعاد « ستانلي » فعرض عليه ضم هذه المديرية الى الكونغو على أن يبقى أمين باشا حاكما لها لمصلحة « ملك بلجيكا » ، نظير منحة عاجلة قيمتها ثلثمائة الف من الفرنكات علاوة على مرتب سنوى قدره ٣٧٫٠٠٠ فرنك ، كما عرض « ستانلي » على أمين باشا في ذات الوقت عرضا ثالثا ، وهو العمل فى خدمة الشركة البريطانية التي كانت وقتئذ تعمل فى أفريقيا ويرأسها ماك كينون نظير راتب قدره ٣٧٫٥٠٠ فرنك ..

ولكن أمين باشا رفض عروض ستانلي الثلاثة ، وكان رده عليه أن قال « انى هنا أقوم بواجبى نحو مصر ، وطالما بقيت هنا فان هذه المديريات ستظل ملكا لمصر ، وسأبقى فى مكانى وعلى رأسها حتى أجلو عنها وعندئذ فلن تكون ملكا لأحد ، ولا أستطيع أن أغير ولائى لمصر بعد أن خدمتها ثلاثين سنة خلت .. أما هؤلاء الذين تعرض على الآن أن أقوم بخدمتهم فانى لم أعرفهم ولم أرهم ، أبدا .. »

وعندئذ ، أبرز ستانلي الى أمين باشا تلك الرسالة التي كان أمين قد أرسلها فى سنة ١٨٨٦ الى سير جون كيرك (Gohn Kirk) والتي ضمنها احتمال تسليمه مديرية خط الاستواء لأية دولة كوديعة فى يدها .. وكان يقصد ستانلي بابراز هذه الرسالة تذكير أمين باشا بما سبق أن ارتآه هو ذاته بشأن هذه المديرية ، واقناعه بأن الموقف كان من جانبه ، وبحكم رسالته مقدرا الاحتمال متفقا مع العرض الذى يعرضه عليه ستانلي ..

أراد ستانلي أن يذكر أمين باشا بأنه سبق أن فكر فى أن يعهد الى دولة ما حكم هذه البلاد وأن يتخلى هو عنها ..

ولكن أمين باشا أصر على موقفه .

واذا يئس « ستانلي » من اجلاء « أمين باشا » بتلك الوسائل السلمية التى عرضها من رشوة وغيرها اتجه ستانلي الى تنفيذ ما لديه

من تعليمات وزارة الخارجية الصادرة اليه الاستيلاء على مديرية خط الاستواء وطرد أمين باشا منها .

ومن ثم ، فقد أعد خطته لذلك فزعم فى ٥ من ابريل سنة ١٨٨٩ أن هناك محاولة مدبرة ضده للاستيلاء على أسلحته وعلى هذا الأساس بادرهو بالاستيلاء على كل ماكان لدى القوات المصرية من ذخائر وأسلحة .. وقد فوجىء أمين باشا بهـذا الاجراء واحتج على تصرف سـتانلى الذى قابل الاحتجاج بمحاصرة معسكر أمين باشا وأمره بالرحيل فورا ، وفى حراسة قوة تعينه على التسلل من البلاد .. ولما رفض أمين باشا الخضوع الى أوامر ستانلى أمر هذا أعوانه بالقبض على أمين باشـا ومن معـه من المصريين واستخدم القوة فى اكراههم وأردى أحد المصريين قتيلا ..



وهكذا فعل ستانلى بأمين باشا الذى كانت مهمته انقاذه .. هكذا نفذ ستانلى تعليمات الخديو لحساب بريطانيا .

ومنذ أن تمت لبريطانيا السيطرة على هذه المناطق لم تتوقف منافسـة ألمانيا لها ، حيث كانت تجاورها مستعمراتها ، مما مكن لها من الوقوف فى وجه المطامع البريطانية الاستعمارية فى هذه المنطقة من العالم ، الأمر الذى اضطرت بريطانيا حياله ، الى مفاوضة المانيا حول الأوضاع فى هذه المناطق الأفريقية ، وقد انتهت مفاوضة الدولتين الى عقد اتفاق بينهما فى أول يوليو سنة ١٨٩٠ ، وقد ظل هذا الاتفاق خافيا على الدول الأوروبية جميعهـا ، ونصت المادة الأولى من هذا الاتفاق على أن أفريقيا الشرقية البريطانية تمتد حتى حدود مصر شمالا وغربا الى حدود دولة الكونغو المسـتقلة والخط المتفق عليه لحوض أعالى النيل ..

وهكذا حصلت بريطانيا على الاعتراف بسلطانهـا على مناطق وبلاد كانت من الوجهة القانونية فى حوزة مصر .

ومن ثم بادرت بريطانيا اذ ذاك بتلوين تلك المناطق فى الخرائط باللون الأحمر الذى يرمز الى مستعمراتها .

الفصل الخامس

بريطانيا تعود الى السودان

« بريطانيا تواجه مطامع فرنسا وايطاليا فى افريقيا وتعلن أن لا هدوء طالما كان »
« السودان والنيل فى يد أولئكم المتعصبين ــ بريطانيا تنادى بغزو السودان لتثار »
« لقوادها هكس (Hicks) وجوردون (Gordon) بريطانيا تسخر مصر لتحقيق »
« اغراضها ــ وزير الخارجية البريطانية يعلن انه لا امن لمصر الا اذا رفرف العلم »
« المصرى على الخرطوم ــ بريطانيا تحكم السودان باسم مصر . »

* * *

فرضت بريطانيا على مصر الانسحاب من السودان وفرضت على مصر أن تجعل حدودها عند الشلال الثانى شمالى حلفا وبهذا فصلت مصر عن السودان ..

وحرصت بريطانيا على ارضاء المانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا والحبشة فيما وقعته من اتفاقيات سنفصلها فى الباب التالى .

وبالرغم من هذا كله كانت بريطانيا تخشى توسع هذه الدول ومنافستها لها فى أعالى النيل وفى السودان .

وقد سعت بريطانيا لارضاء ايطاليا على حساب مصر فمكنتها من الاستيلاء على ارتريا والصومال .. ولكنها بهذا مهدت لاثارة أطماعها فى تكوين امبراطورية ايطالية افريقية ، وقد أفضى التعاون بين بريطانيا وايطاليا ضد حركة التحرير السودانية الى التحام الجيش الأيطالى بالدراويش فى معركة انتهت بهزيمة الدراويش فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٣ فى أجوردا وباحتلال ايطاليا لكسلا فى ٧ يوليو سنة ١٨٩٤ ، وبالرغم من الاتفاقات التى عقدتها بريطانيا مع ايطاليا فى سنة ١٨٩١ وفى سنة ١٨٩٥ والتى تنازلت بريطانيا بموجبها عن أراض لم تكن تملك التنازل عنها لأنها لم تكن

يوما من الأيام في يدها أو حوزتها ، فان ايطاليا لم ترض بما نالته ،وكانت تطمع في الاستيلاء على الحبشة بأكملها والتوغل في السودان .

وهكذا أضحت بريطانيا تواجه مطامع الدول الأوروبية في أفريقيا ، وأصبح الخوف يساورها من منافسة الغرب في تلك المنطقة ولا سيما خوفها من هذه المنافسة على مستقبل السودان الذي لم يكن في وسعها أن تستولى عليه باسمها ولهذا فقد شرعت بريطانيا في التمهيد لاسترداد السودان فأخذت تعلن : « بأن مصر لايمكن أن تهدأ طالما كان السودان والنيل في يد أولئكم المتعصبين ، وأنه مامن حل يحقق الأمن لمصر الا استعادة السودان واحتلاله تدريجيا ! »

وهكذا نرى هذه السياسة البريطانية التي كانت عقب احتلال بريطانيا لمصر تتجه الى التخلي عن السودان متدرجة في هذا الاتجاه بما فصلناه من الوسائل والأسباب والتي كانت تستهدف بذلك الحاق الهزائم بالجيش المصري لتنهار قواه المعنوية ، ولتشغل الشعب المصري عن احتلال بلاده .. هكذا نرى هذه السياسة البريطانية التي أمرت بانسحاب القوات المصرية من السودان تنادي بضرورة غزو السودان لتثأر لقوادها هكس وجوردون وغيرهم الذين ضحت بحياتهم على الصورة التي أسلفناها دون أن تأبه بهم تعود لتقاضي ثمن حياتهم ، تعود في الوقت المناسب لاحتلال السودان بحجة الثأر لأبنائها الذين أريقت على أرضه دماؤهم ولتسترد اعتبارها كدولة عظمى ..

* * *

على أن هذه النعرة ، وهذه الشهامة والبسالة ظلت مختفية في صدر بريطانيا طيلة الفترة التي كانت فيها الثورة المهدية في عنفوانها وفي قوتها وصلابتها ، حتى اذا مابدأت تلك الثورة تتداعى وتتفكك ، وحتى اذا مابدا عليها الوهن والضعف ، ظهرت هذه الحمية والشجاعة وتأهبت بريطانيا للانقضاض على السودان ، ولكن ــ لا بقوات بريطانية بل بقوات الجيش المصري .

وكانت بريطانيا مطمئنة ــ تماما ــ الى نجاح خطتها في تسخير الجيش

المصرى لتحقيق أغراضها فى السودان لمصلحتها ، اعتمادا على خضوع الخديو توفيق لسياستها ولأوامر المعتمد البريطاني اللورد كرومر ..

واذا ادركت بريطانيا ، ان الفرصة قد سنحت لبدء هذه الحملة ارسل اللورد سالسبورى صيحته المشهورة ، ليعلن انه لن يتحقق امن لمصر الا اذا رفرف العلم المصرى من جديد على الخرطوم ....

وكانت هذه الصيحة ايذانا ببدء الحملة المصرية البريطانية لاسترداد السودان .. وقد اعتبر السودان فى حيازة مصر من الوجهة الرسمية منذ عام ١٨٩٨ ولكنها كانت حيازة صورية اسمية فالسودان كان فعلا فى قبضة بريطانيا وتحت رقابتها المباشرة وغاية الأمر أن بريطانيا كانت ترى ـ اذ ذاك ـ أنه لابد لها من الاستعانة باسم مصر وبالعلم المصرى ، ريثما يتم لقواتها تثبيت أقدامها فى قلب أفريقيا ، والى أن يأتى اليوم الذى يسمح لها بالانفراد بالعمل لحسابها الخاص وبالمجاهرة بوجودها فى تلك المناطق ..

* * *

ولما عادت بريطانيا الى السودان بعد أن كانت السيطرة قد تمت لهامن قبل على مصر رأت أن الفرصة سانحة لها لكى تغيرسياستهانحودولالغرب فى أفريقيا ، نحو جارتها فى النفوذ هناك ، نحو فرنسا وايطاليا وألمانياءتلك الدول التى كانت السياسة البريطانية تجاملها من قبل فعقدت معها كل ماعقدت من اتفاقيات بدافع العمل على ترضية هذه الدول ومداراتها مادامت السيطرة البريطانية لم تكن قد تمت بعد على مصر ، هذا البلد العربى الاسلامى الذى كانت بريطانيا تعرف جيدا قوة أثره وعمق الصلة بينهوبين الشعوب الأفريقية جميعا كما كانت ترى فى مصر الشقيقةالكبرى لكل دولة أفريقية ..

الفصل السادس

الصراع بين الغرب على السودان

« الحبشة تسعى للتوسع على حساب السودان ـ فرنسا تطمع فى شطر »
« السودان وعزل مصر عن منابع النيل ـ بريطانيا تواجه فرنسا فى فاشوده ـ بريطانيا »
« تعلن بانها لاتقبل بحال ما بان يكون لاية دولة غيرها احتلال ارض تقع فى حوض »
« وادى النيل ـ بريطانيا تواجه فرنسا بحقوق مصر ـ فرنسا تقول ان واجبها »
« وواجب بريطانيا هو دفع البربرية ـ فرنسا تقول كيف تزعم بريطانيا لنفسها »
« حرية العمل وتحرم فرنسا هذه الحرية ـ فرنسا تقول ان لها فى السودان ذات »
« الحقوق التى تزعمها بريطانيا ـ فرنسا تخضع للتهديد البريطانى .»

ان التحالف الذى قام بين الدول الغربية لمواجهة الحركة العربية الاسلامية فى السودان وفى الكونغو لم يمنع ماكان يجرى من مساومات استعمارية بين هذه الدول وكانت بطبيعة الحال ،مساومات على حساب شعوب أفريقيا ومن بينها الحبشة تلك الدولة المسيحية التى يعتبرها الغرب قاعدة من قواعده الدفاعية ضد الحركات العربية والاسلامية فى افريقيا عامة وخاصة السودان وبلاد الصومال وارتريا .

وقعت بريطانيا اتفاقية مع ايطاليا تبيح لهذه الأخيرة فيها الاستيلاء على الحبشة واستنادا الى هذه المعاهدة شرعت ايطاليا فى غزو الحبشة ، ولكنها منيت بالهزيمة فى موقعة عدوة ، وفى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٦ وقعت معاهدة اعترفت فيها باستقلال الحبشة التام ، وقبلت أن ينحصر احتلالها فى تلك الأراضى التى مكنتها بريطانيا وفرنسا من احتلالها ، على حساب مصر والسودان ..

وفى ذات الوقت تمكنت فرنسا برضاء وتأييد بريطانيا من الاستيلاء على جانب من الشاطئ الصومالى . .

لم ينس امبراطور الحبشة لبريطانيا موقفها من العدوان الايطالى على

بلاده وتأييدها له • فشرع يعد مع فرنسا خطة ترمي الى توسع الحبشة على حساب السودان العربي الاسلامي وتمكين فرنسا في ذات الوقت من شطر السودان وعزل مصر عن منابع النيل ، وايقاف بريطانيا في زحفها بأفريقيا •• لقد كانت خطة واسعة ، غير أنها كانت فوق طاقة فرنسا ومجاوزة لامكانياتها ، على الرغم من تأييد الحبشة لها كما أن ادراك بريطانيا لهذا المخطط الاستعماري الفرنسي الواسع في افريقيا ، كان من أهم الأسباب لتعجيل بريطانيا باستعادة السودان واسترداده فلما تم لها ذلك ،بدأت تواجه الزحف الفرنسي الاستعماري ولم يكن لها من سند وقتئذ سوى ما أرادته بريطانيا لمصر من حقوق في السودان • •

* * *

ففي الأول من مايو سنة ١٨٩٧ اتجهت قوات فرنسية من مدينة برازفيل بقيادة القومندان « مارشان » (Marchand) وتوغلت في السودان •• وبدأت فرنسا المطالبة بحقوق زعمتها لنفسها على شاطىء بحيرة تشاد الشمالي والشرقي ، فقابلت هذا الزحف الفرنسي بمذكرة وجهتها الى المسيو هانوتو (Hanotaux) وزير خارجية فرنسا في ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٠٧ ، جاء فيها ما يلي : —

« ليس لدى حكومة صاحبة الجلالة مانعا من التسليم لفرنسا بماتدعيه لنفسها من حقوق شريطة أن تتم تسوية الأمور الأخرى المعلقة بين الحكومتين ••

« غير أن الحكومة البريطانية يهمها جدا ، أن تنبه فرنسا الى أنه يتعذر على بريطانيا اغفال ماسيتسنى لفرنسا من وراء تملكها لهذه الاراضي ، اذ أن ذلك سيمكنها مستقبلا من فتح طريق الى وادى النيل ، على انه لابد لفرنسا ، ولسائر الدول العظمى الاوروبية أن تدرك تماما ، ان حكومة صاحبة الجلالة لايمكن ان تقبل بحال ما أن يكون لأية دولة أخرى غير بريطانيا أى حق تستند اليه في احتلالها لأية أرض تقع في حوض وادى النيل ••• وأن وجهة النظر هذه ، قد حرصت الحكومة البريطانية على ايضاحها أمام البرلمان » فاعلنها سير ادوارد جراى (Edward Grey) وكذلك أبلغت في حينها الى الحكومة الفرنسية ••• وان حكومة صاحبة الجلالة لتعود فتؤكد من جديد تاييدها التام لجميع ما القى في هذا الشأن من بيانات في مختلف عهود الحكومات السابقة ••»

ولقد مضى القومندان مارشان فى حملته وتجاهلت حكومة فرنسا مزاعم الحكومة البريطانية وادعائها .. فلم تجد بريطانيا لديها ذريعة تقف بها فى وجه الحملة الفرنسية الا حقوق مصر فى السودان وسيادتها عليه .. ولهذا أرسل اللورد سالسبورى (Salisbury) الى مسيو ديلكاسيه (Delcassé) رئيس وزراء فرنسا فى ٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ بمذكرة قال فيها :

« ان الخطر لجسيم ، وان الحكومة البريطانية لايسعها أن تسمح أو أن تقر الاغراض التى تستهدفها حملة القومندان مارشان فى فاشوده ... ان مصر لايمكن أن تتنازل عما لها من حقوق فى هذه البلاد التى كانت فى الماضى خاضعة لسيادة السلطان ، ثم أصبحت ملكاً لمصر .... »

وقد رد المسيو « ديلكاسيه » على هذه المذكرة برسالة استهلها بتهنئة بريطانيا بانتصار قواتها فى السودان مؤكدا ان انتصارها هذا ، انما يعتبر من وجهة نظر الغرب هزيمة للبربرية ، ودفعها الى الوراء ، مما يعد انتصارا للحضارة .. »

ثم استطرد ديلكاسيه فقال فى رسالته .. انه كان يثق بأن الحكومة البريطانية تشاطر فرنسا شعورها بالنسبة لهذا الكفاح المشترك الذى يقوم به البعض من أبناء فرنسا الذين يدفعون بالبربرية الى الوراء خدمة لقضية الحضارة .. »

« واننا لنجهل ـ حاليا ـ المكان الذى يوجد به القومندان مارشان وبغض النظر عن المكان الذى يكون قد اضطرته الى احتلاله ضرورة حماية ممتلكات فرنسا الأفريقية من خطر الدراويش ،فان فرنسا ترى أنه ليس من حق الجنرال كتشنر ولا من حق القومندان مارشان أن يحاولا استنتاج الآثار السياسية للحملات التى يتوليان قيادتها لأن المرجع فى تقدير ذلك، هو الحكومتان المعنيتان ، ولايمكن البت فيه محليا ـ واذا كان من مقتضى استيلاء القوات المصرية البريطانية على الخرطوم ، أن يتم القتال بين قوات الحملتين ، فانه لاشك لدينا فى أن النية الطيبة التى يحملها كل من الفريقين

تجاه الآخر ومايجمع بينهما من رابطة الكفاح المشترك ضد البربرية ولمصلحة الحضارة لكفيل بأن يهيئ لهما أسباب التفاهم ...

غير أن بريطانيا لم تأخذ بوجهة النظر الفرنسية مما حمل المسيو ديلكاسيه على أن يعود فى ٢٠ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ فيبعث برسالة أخرى الى الحكومة البريطانية يقول فيها مايلى : ــ

« أتعتقدون بأننى فى حاجة لأن أذكركم بأنه فى الوقت الذى تقدمت فيه القوات الفرنسية فى السودان كانت مصر قد فقدت السودان منذ أمد بعيد ... ولقد كان هذا هو شعور الحكومة البريطانية الأكيد ، الشعور الذى استندت اليه الحكومة فى غزو مديرية خط الاستواء المصرية لمصلحتها ، دون تردد .... ثم كيف يتأتى لانكلترا ان تزعم لنفسها حرية العمل فى الوقت الذى تحاول فيه حرماننا من الحرية نفسها ؟؟؟

ثم يستطرد ديلكاسيه فيقول :

« لايخفى على الحكومة البريطانية انه اذا ما اضطررنا الى دراسة الوضع من زاوية نظر اخرى ، ففى الامكان ان نقول بأن لنا فى فاشودة وفى أى مكان آخر وصلت اليه قواتنا فى أعالى النيل وفى السودان ذات الحقوق التى تزعمها بريطانيا لنفسها فى الخرطوم ، وفى أى جزء من السودان احتلته قواتها ... وليس بكاف لتكسب بريطانيا لنفسها حقوقا أو أوضاعا ، أن تزعم بأن لها أسانيد لا يمكن أن تكون هى ذاتها أسانيد لنا ، فان ماتتمسك به بريطانيا فى هذا الصدد يمكن أن نتمسك به ، ومهما زعمت بأنها تتصرف فى السودان بموافقة وباقرار الحكومة المصرية ، أو بوصفها وكيلة عن هذه الحكومة ، اذ انه لكى يكون لهذه المزاعم أثر من الناحية الدولية ، فانه يتعين ، أن يتم احتلال السودان لا باسم خديو مصر ، ولكن باسم الباب العالى وبتفويض صريح منه لأنه صاحب السيادة على الخديو ، وسيد الامبراطورية العثمانية ، تلك الامبراطورية التى كفلت بريطانيا سلامة أراضيها ، وفى مثل هذه الحالة يكون لزاما على بريطانيا أن تبرر صدور هذه الوكالة لها من سلطان تركيا ــ لكى تزعم بأن وضعنا فى أعالى النيل يختلف عن وضعها من الناحية القانونية . »

* * *

وقد تجاهلت انكلترا وجهة النظر الفرنسية ، ومضت فى تحديها لسياسة فرنسا ، ففى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٩٩ ، وقف المستر ريتشى (Ricci) **وزير الداخلية البريطانية يعلن « بانه ليس فى نية بريطانيا اذلال فرنسا ، ولكننا ايضا لانقبل ان تذلنا فرنسا ، ولا نرضى أن تقف**

فرنسا حائلا دون تنفيذ مشروعاتنا لربط مدينة راس الرجاء بالقاهرة » .

وهكذا وقفت فرنسا وبريطانيا وجها لوجه كل منهما متمسكة بتنفيذ سياستها ووقف الرأى العام فى مصر يشهد بداية التحرش بين الدولتين اذ كان الكل يدرك أنه لو أمكن أن ينتهى الموقف بين بريطانيا وفرنسا بالصدام والحرب ، لكان فى ذلك القضاء المبرم على الاستعمار فى افريقيا .. وشرعت بريطانيا فى اعداد أسطولها وفى ذات الوقت بدأت فى مفاوضات بينها وبين فرنسا قام بها المسيو ديلكاسيه واللورد سالسبورى كل عن بلده .. ولكن « ديلكاسيه » أدرك « تماما » ان مالدى فرنسا من امكانيات هو دون مافى يد بريطانيا الأمر الذى من شأنه ألا يمكن بلاده من الوقوف والصمود فى وجه بريطانيا .. ومن ثم فقد رأى الخضوع للأمر الواقع ، وأصدر أوامره الى « حملة مارشان » بالانسحاب من فاشودة فى ديسمبر سنة ١٨٩٨ والعودة الى أوروبا عن طريق الحبشة وجيبوتى .

غير أن القومندان مارشان ، أصر على أن يثأر من بريطانيا ويمتهن كرامتها فرفض أن يعترف بالعلم البريطانى فى السودان وأصر على الاعتراف بالعلم المصرى وحده ، والتسليم له بالأراضى التى انسحب منها ..

الفصل السابع

بريطانيا تنفرد بالسودان وادي النيل

« بريطانيا تسعى للحصول على سند يضفي على وضعها في السودان ظل المشروعية ـ اتفاقية السودان ـ الحكم الثنائي ـ بريطانيا تنفرد بالحقوق ومصر تتحمل الالتزامات ـ بريطانيا تسخر اقتصاديات السودان لمصلحتها ـ بريطانيا تمنح الحبشة مقاطعتي هرر وهرش الاسلاميتين ـ بريطانيا بعد ان فصلت مابين مصر والسودان تعمل على فصل مابين ابناء السودان ـ نشاط البعثات التبشيرية عصر ثورة المهدى وثورة عرابى . »

ان ماوقع فى مدينة فاشودة ، واصرار القومندان « مارشان » على عدم الاعتراف لبريطانيا بأى حق فى السودان كان كافيا لتبصير بريطانيا بضرورة الاسراع فى الحصول على سند يضفى على وضعها فى السودان ظل المشروعية .. وقد رأت أن يتم ذلك باتفاقية تعقدها مع مصر ثم تعود فتحتج بها ، ضد مصر فى المقامات الدولية . ومن ثم يتسنى لها مستقبلا أن تواجه بتلك الاتفاقية ، أية محاولة للتسلل الأجنبى من غيرها من الدول فى السودان ..

وهكذا نرى السياسة البريطانية فى الوقت الذى أنكرت فيه على مصر أى حق فى عقد المعاهدات الدولية ولم تعترف بأهليتها لمثل هذا التعاقد الدولى ، تعود فتعين على مصر أن ترتبط معها باتفاقية دولية تكسبها وضعا دوليا تعتد به أمام العالم وترتب لها حقا تستند اليه فى السودان .

وتم لبريطانيا ما أرادت ، ففى ١٩ من يناير سنة ١٨٩٩ ، وقع كل من « اللورد كرومر » بوصفه ممثلا لبريطانيا و« بطرس باشا غالى » بوصفه ممثلا للحكومة المصرية اتفاقية تنظم ادارة السودان وقد سجلت هذه الاتفاقية من حيث الشكل الرسمى مشاركة بريطانيا لمصر فى حكم السودان تأسيسا على مازعمته لنفسها من الحقوق بحكم فتحها للبلاد واستنادا لما تضمنته الاتفاقية من مشاركة بريطانيا لمصر فى وضع النظام الادارى والقانونى ،

وفى القيام بتنفيذ ذلك وتوسيع نطاقه انفردت بريطانيا بشئون السودان وتدبير أموره وحدها ووفقا لما تراه .. وتهواه .

وتأمينا لهذه الحقوق التى زعمتها بريطانيا ، قضت المادة الثانية من الاتفاقية بضرورة استعمال العلم البريطانى بجانب العلم المصرى وقضت المادة الثالثة على اسناد الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب بالحاكم العام للسودان يكون تعيينه بأمر خديوى عال وبناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يجوز فصله من وظيفته الا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

وهكذا أنشأت بريطانيا نظام الحكم الثنائى يتولى فيه الحاكم العام البريطانى السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، كما نصت المادة الخامسة على أنه لايسرى على السودان أو على أجزاء منه من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا الا مايصدر به منها منشور من الحاكم العام .

* * *

وهكذا أصبح السودان منذ سنة ١٨٩٩ منفصلا عن مصرانفصالا تاما من النواحى السياسية والادارية والعسكرية مع أن مصر هى التى تحملت جميع أعباء السودان فى تلك النواحى الثلاث .

وأصبح الحاكم العام البريطانى يتمتع بسلطات فى السودان لم تمنح لولاة وخديويى مصر على الاطلاق ولم تحصل ملكة انجلترا على نظيرها فى بلادها ذاتها .

هكذا يجرى أسلوب الاستعمار الذى يعمل دائما على اطلاق يد رجاله ويزودهم بسلطات لا حد لها لتسخير خيراد البلاد ومواردها لخدمة الامبراطورية .

ومن ثم راحت بريطانيا تستمتع فى السودان بكل المزايا السياسية والاقتصادية دون أن تتحمل مقابل ذلك أى عبء مالى ، عدا مبلغ ثمانمائة

الف جنيه ، كانت أقرضتها لمصر ، حينما رفضت لجنة صـــندوق الدين ، بايعاز من القوميسير الفرنسى السماح للحكومة المصرية بسحب هذا المبلغ لانفاقه في شئون السودان على أن بريطانيا استردت قرضها هذا فيما بعد .

كذلك لم تسهم بريطانيا فى الناحية العسكرية بالنسبة للسودان . الا فى موقعة عطبرة ـ سنة ١٨٩٨ ، قبل سقوط مدينة الخرطوم ..

وقد استغلت بريطانيا مركزها فى السودان واستغلت السلطة المطلقة للحاكم العام البريطانى فيه ، فسخرت اقتصاديات السودان بأكمله لمصلحة بريطانيا ومنحت الامتيازات الواســعة فى أراضى الســودان للشركات البريطانية لاستغلالها فى زراعة القطن .

وبينما كانت السياسة البريطانية ماضية فى استغلالها السودان على هذه الصورة كانت فى ذات الوقت ماضية فى بث عوامل الفرقة بين السودانيين وبين اخوانهم المصريين ، لا تكف عن ايغار صدور أبنـــاء السودان على أبناء مصر ، املا فى اقامة حاجز من الكراهية يعلو ويقــوى مع الزمن ، ويحول بين ائتلاف ووحدة البلدين الشقيقين يوما ما ، ومن وراء هذه الدعاية البريطانية ، كانت مصر ماضية فى تحملها لأعبـاتها المالية نحو السودان ، جادة فى بذل كل مايصلح شئونه .... كان هذا البذل ، وكانت هذه التضحيات هى كل نصيب مصر من المشـاركة فى حكم السودان ، اما نصيب بريطانيا فقـد كان جنى الأرباح والاستغلال فى أفظع صوره ... وكان نصيب بريطانيا فى حكم السودان ، هو الأخذ لا العطاء ، أخذت من السودان كل شىء ولم تعطه شـــيئا ، فى حين ان مصر أعطت السودان دائما ولم تاخذ منه أبدا ... ، لقد اخذت بريطانيا من السودان كل شىء ... أخذت اراضى كان يتعين ان تضم اليــه ، فاهدتها الى الحبشة ثمنا لولائها لبريطانيا وتشمل تلك الأراضى منطقتى « هرر وهواشى الاسلاميتين » ، اللتين كانت مصر تسيطر عليهما وكان من المتعين ومن المفروض ان تضما الى الســودان لتصبحا جزءا لا يتجزأ منه ....

وبجانب هـــذا كله لم يفت بريطانيا العمـــل على تمكين البعثات التبشيرية من المضى فى مهمتها والعمل على القضاء على ماكان بين ابنـــاء السودان انفسهم من وحدة فى العقيدة والروابط ... لتفصل بين أبناء الوطن الواحد بعد ان فصلت ما بين السودان ومصر ...

***

وهكذا انتهى مصير ثورتين متقاربتى الوقوع ، ضمنهما التاريخ فى صفحات متجاورة .. « الثورة العرابية فى مصر وثورة المهدى فى السودان»

وعلى الرغم من سمو قصد قادة هاتين الثورتين ، وعلى الرغم من أن هدفهما كان استخلاص البلاد من قبضة النفوذ الأجنبى والتحرر من الاستعمار البريطانى فى مختلف صوره فقد أفضت الثورتان الى تمكين الاستعمار البريطانى من الاندفاع والاستقرار فى مصر ، وفى السودان .

وما كانت هاتان الثورتان لتفشلا أو لينتهى أمرهما الى العكس من هدفها ، لو أن قادتهما كانوا يدركون تماما وسائل خصميهما ويقدرون جيدا ذلك المدى البعيد لتضامن الدول الغربية ضد القومية العربية والاسلام ، ادراكا وتقديرا ، يمكنان قادة الثورتين من اعداد العدة لمجابهة وسائل الاستعمار الغربى فى شتى صورها بما تقتضيه من التحوط والحذر ، وعدم الثقة بمواثيق الغرب وبعهوده أو الاطمئنان للصورة الظاهرة الزائفة من وجه السياسة الغربية في الشرق، ثم تفهم المناورات الاستعمارية وأهدافها الحقيقية .... الا أن فشل الثورتين على الصورة التى أشرنا اليها ، قد تحول فيما بعد الى غذاء لنجاح ثورة عام ١٩٥٢ اذ كان فشل ثورتى عرابى والمهدى ومصيرهما بمثابة تجربة أفاد منها ووعيها هؤلاء الذين حملوا لواء هذه الثورة فى مصر ضد الاستعمار الغربى وضد الاحتلال البريطانى وضد الاعوان والعملاء أينما وجدوا .

الفصل الثامن
الغرب والكونغو العربى

« بريطانيا تقول ان قيام دولة عربية اسلامية فى قلب افريقيا من زنجبار الى »
« مصب الكونغو اشد خطرا على الغرب من المنافسة القائمة بين دوله على افريقيا »
« ـ العرب يسيطرون على الشطر الاكبر من الكونغو « وكاتنجا اقليم النحاس » ـ »
« الغرب يعاون بلجيكا فى حملتها العسكرية ضد العرب ـ العرب يفقدون ٧٠٫٠٠٠ »
« رجل فى جهادهم ضد الغرب . »

لما تم لبريطانيا ماأرادت واطمأنت تماما الى سيطرتها على مصر ونجاح خططها في السودان ، وبدأت تتطلع وهى مرتاحة البال الى مركزها فى أفريقيا ، كان لابد لها من أن تغير سياستها تجاه جاراتها الغربية هناك وبدأت ترى في هذه الدول منافسا خطيرا لها ، على أن بريطانيا لم تلهها هذه المنافسة عن توجيه نظر فرنسا وايطاليا والمانيا فى أفريقيا الى خطر قيام دولة عربية اسلامية فى قلب أفريقيا وتلوح لهم بذلك الخطر الذى يمكن أن يشطر أفريقيا نصفين ، نصف يشمل الشعوب الافريقية فى البلاد الممتدة من زنجبار الى الكونغو الى أعالى النيل الى السودان الى الصحراء الكبرى فشمالى افريقيا ..

... وذلك كان فى نظر الدول الغربية المتنافسة فى السودان أشد خطرا عليهم من تلك المنافسة الاستعمارية التى كانت قائمة اذ ذاك بينهم فى افريقيا ...

كانت الدولة العربية الاسلامية التى تهدد الغرب فى قلب افريقياهى الدولة التى شرع العرب فى اقامتها من زنجبار الى مصب نهر الكونغو منذ أوائل سنة ١٨٨٩ وكان عام ١٨٩٢ هو النقطة الفاصلة فى الكفاح بين الغرب وتلك القوة العربية الاسلامية الزاحفة من الشرق الى قلب افريقيا ..

لقد كان الغرب يسعى ليفرض سيطرته على الكونغو ، مستندا

فى محاولته هذه الى قواعده على المحيط الاطلسى ، وكان العرب يزحفون على هذه المنطقة من الساحل الشرقى لافريقيا ، وكان الصراع بين القوتين لابد أن ينتهى بسيطرة احداهمـــا على هذه البـــلاد ، وكان عمـــاد حركة العرب فى زنجبار ، هم أولئكم التجار الذين كانت علاقتهم وثيقـة وموطدة بزعماء القبائل فى وسط افريقيا فى حين عمل الغرب ولا سـيما البلجيكيين والفرنسيين على وقف تغلغل هؤلاء التجار العرب فى وســط أفريقيا ، ليحل محلهم التجار الاوربيون بمعونة « البعثات التبشيرية » التى كان الغرب قد دفع بها الى قلب أفريقيا •

وقد رأى الغرب أن يبدأ كفاحه ضد العرب بالقضاء على نشــاطهم التجارى •• وكان « ســتانلى » أول من نبه الغرب الى خطورة نشـــاط العرب فى قلب أفريقيا وفى الكونغو ، كمـــا كان يرى لبلجيكا أن تركز جهودها فى الكفاح ضد العرب •• ومن أجل هذا فقدأعدت بلجيكاخطتها للقضاء على قاعدة العرب فى اقليم مانياما ((Manyama)) المتاخم لاقليم النحاس « كاتنجا » التى شرعت القوات العربية فى غزوها عام ١٨٨٦ •



وكان الغرب يدرك خطورة استيلاء العرب على هذا الاقليم بالذات لما فيه من ثروات معدنية فقد دفعت أوروبا بلجيكا الى توجيه حملة عسكرية ساهمت فيها بريطانيا بمتطوعين من ابنائها ، وقد حاربت هذه الحملة المزودة باحدث الأسلحة العرب وطاردتهم داخل اقليمى مانياما (Manyama) ومالیلا (Mallila) هذان الاقليمان اللذان كانا قبل زحف الغرب عليهما فى حالة ازدهار فى ظل الحكم العربى •

وكان يقود العرب فى كفاحهم ضد بلجيكا والغرب وقتئذ الشيخ « حامد بن محمد بن جونا »

وكان الغربيون يطلقون عليه لقب « تيبوتيب » (Tippo-Tib) وقد كان هذا الزعيم يمتاز بقوة الشكيمة كما كان مرهوب الجانب من سائر الغربيين الذين ارتادوا افريقيا ولا سيما بعد أن نجح فى اقامة جبهة متحدة

من المسلمين امتدت من ساحل المحيط الهندى الى أعماق الكونغو فلم يكن، والحالة هذه ـ لحامد بن محمد أن ينجو من مؤامرات وكفاح الغرب الذى كان يتوجس خيفة من أن تنتهى زعـــامة هذا الزعيم باقامة دولة محمدية خطيرة كتلك التى كان يحاول اذ ذاك المهدى اقامتها • ويقول القائد « سيدنى لنجفورد هند «Sydney Langford Hinde» أحد قواد حملة الغرب فى مؤلفه « سقوط عرب الكونغو » •

« ان المعركة بين الغرب والمسلمين لم تعد مجرد معركة من أجل تجارة العاج والمنتجات الافريقية بل انها أصبحت معركة لدرء خطر توحيد جهود (تيبوتيب) والمهدى والتقاء حركتيهما الاسلاميتين ، للسيطرة على حوض النيل والكونغو بأكملهما ، بحيث تقوم دولة اسلامية تكون بمثابة سد كبير ـ عبر افريقيا من المحيط الهندى حتى المحيط الاطلسى » •

وقد ظل القتال بين القوات الغربية والقوات العربية والاسلامية فى الكونغو ووسط افريقيا ، الى أن انتهى باقصاء القوات العربية والاسلامية عن الكونغو فى عام ١٨٩٤ •

ويقول هنا القائد الانكليزى ، ان العرب فقدوا فى معاركهم هذه نيفا وسبعين الف رجل •• وهكذا سقطت فى نهاية القرن التاسع عشر قلعة من قلاع العرب والمسلمين فى قلب افريقيا تضافرت ضدها جهود وقوات الغرب ••

سقطت فى الوقت الذى عمل فيه الغرب على القضاء على تلك الدولة الاسلامية التى اقامها المهدى فى السودان •

الفصل التاسع
الغرب والحبشة

« الاحباش اقلية في بلادهم ـ الحبشة والمسيحية ـ الحبشة والاسلام ـ مساعي الغرب ـ »
« السيطرة على الحبشة منذ القرن الخامس عشر ـ البرتغال تحالف الحبشة ضد »
« العرب ـ الحبشة تنفصل عن كنيسة الاسكندرية وتبايع روما ـ الاحباش يحالفون »
« العرب ويهزمون الغرب ـ عودة الحبشة الى احضان الكنيسة القبطية ـ فرنسا »
« تنوب عن الغرب في التسلل الى الحبشة ـ ملك عربي يحكم الحبشة ـ هلع »
« الغرب ومؤازرته لخصوم العرب ـ منليك يعادي العرب ـ الغرب يكشف عن موقفه »
« من الحبشة بعد عزل مصر عن افريقيا ـ الغرب يسلم بالحماية الايطالية على »
« الحبشة ـ ثورة منليك ـ موقعة عدوه ـ الغرب ينظم علاقته بالحبشة ويربطها »
« بعجلة السياسة الغربية ـ تنافس بريطانيا وفرنسا ـ الغرب يحقق للحبشة مزايا »
« اقليمية على حساب السودان والصومال وارتريا ـ الحبشة تسلم للغرب بحقوق »
« سياسية واقتصادية واقليمية في بلادها ـ الغرب يعزل الامبراطور ليدج ياسو »
« وينصب الرأس تفري « هيلا سلاسي » وليا للعهد ـ حرص الغرب على جعل »
« الحبشة في صفه ضد العرب ـ الغرب يتنكر للحبشة كلما هددت مصالحه ـ قتل »
« الامبراطور « تيودورس » ـ معاهدة عام ١٩٠٢ بين بريطانيا والحبشة . »

***

استعرضنا بالاجمال فيما تقدم من أبواب الدور الذى لعبته الحبشة فى مساندة السياسة الغربية ومؤازرتها فى افريقيا العربية والاسلامية •

ونظرا لما كان لهذا الدور من خطورة الأثر ، فقد كان لزاما علينا أن نعود الى أصل والى أسباب العلائق التى ربطت الحبشة بعجلة السياسة الغربية فى افريقيا ـ وبهذا ندرك لون المؤثرات التى حددت للحبشة دورها هذا ، ومرد هذه المؤثرات الى بواعثها وجذورها البعيدة والقريبة ونتفهم ظروفها الزمنية ، لنربط بين سياسة الحبشة الخارجية وبين علاقة الحبشة بالغرب منذ ان قامت هذه العلاقة •

***

ولقد لعبت الحبشة دورا هاما فى تاريخ الشرق العربى والاسلامى وكان الغرب يعتبرها مجتمعا مسيحيا صغيرا يعيش وسط مجتمع كبير من المسلمين والعرب ـ وهذا الاعتبار كان سببا فى حرص الغرب على

جعل الحبشة قاعدة يقفز منها متى حان الوقت الى قلب افريقيا ليلتف عن طريقها وراء الحاجز العربى الاسلامى ...

وأنه لمن الصعوبة بمكان فصل تاريخ الحبشة ذاتها عن تاريخ بلاد الصومال وأرتريا ، وعن تاريخ السودان ـ ففيما عدا القلة التى نزحت الى تلك البلاد من مناطق خط الاستواء وما وراءها جنوبا نجد أن غالبية أهلها من أصل عربى ، فالدناقلة والصوماليون والارتيريون ينتمون الى أصل عربى ، أما الأحباش ، وهم أقل هذه الاجناس عددا بين تلك المجتمعات الكبيرة ، فانهم يعتبرون أنفسهم أصلا من الجنس السامى .

ويقول « مارسيل كوهين » الاستاذ بجامعة باريس فى بحث له عن الحبشة : « ان الابجدية الأمهرية مشتقة من أبجدية جنوبى الجزيرة العربية ، وان اللغات السائدة فى الحبشة والصومال وأرتيريا والسودان ، هى اللغة العربية واللغات المشتقة منها ، ثم من اللهجات المتوارثة عن اللغات القديمة التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية وفى مصر من قديم الازل » .



على أن الصلة بين هذه المجموعة من البلاد الافريقية وبين الشرق لم تنقطع منذ العصور الاولى فى التاريخ ... وتعتقد الاسرة المالكة فى الحبشة انها انحدرت من صلب سليمان الحكيم والملكة بلقيس ملكة سبأ ـ وهذه العقيدة تقوم على أسطورة تستخدمها الاسرة المالكة سندا لها فى تدعيم حقها فى عرش الحبشة كما أنها المحور الذى لا تزال سياسة الحبشة تدور حوله . ومع هذا لا يوجد أثر يذكر للديانة اليهودية فى هذا البلد ، بل ان الدين المسيحى ، بعد أن دخل الحبشة فى عام ٨٠ م واستقر فى بعض المناطق حول مدينة أكسوم لم يلق أى سند من حكام الحبشة الا فى عهد الملك الحبشى « ابرهة » فى القرن الرابع الميلادى حينما اعتنق هذا الملك الدين المسيحى وعمل على نشر تعاليمه ومن ثم سارعت الكنيسة المرقسية القبطية الى رعاية المسيحيين الاحباش وأتبعت كنيستهم للكنيسة المسيحية المرقسية فى مصر ..

وفى عام ٧٨٧م انعقد فى مدينة ((نيقيه)) بآسيا الصغرى مؤتمر الكنائس وأيد هذه التبعية ، كما قرر أنه لايجوز للكنيسة الحبشية أن تستقل بسبب أو آخر عن الكنيسة القبطية فى الاسكندرية .

* * *

وفى صدر الاسلام كانت لملوك الاحباش مواقفهم الودية من المسلمين، ولقد حرص الملك الحبشى « اشامه » الذى عاصر عهد الرسالة على توثيق أواصر الود والصداقة بين بلاده وبين المسلمين وحرص المسلمون على مهادنة ومسالمة الاحباش حتى بعد أن توغل الاسلام فى أرتيريا والصومال والسودان والحبشة وانتشر فيها وقامت للمسلمين امارات فى سائر انحاء تلك البلاد وأقام العرب سبع ممالك فى هذه المناطق شملت بعض مقاطعات أمهرة وانحصر حكم ملك الحبشة فى ثلاث مناطق ضيقة محدودة ..

* * *

ولقد توجس الغرب خيفة من خطورة سيطرة العرب وانتشار الاسلام فى تلك المناطق فبعث البابا « أوجين الرابع » فى عام ١٤٤٢م برسله الى يعقوب ملك الاحباش يدعوه الى اعتناق المذهب الكاثوليكى والارتداد عن المذهب القبطى الارثوذكسى والانفصال عن كنيسة الاسكندرية ..

وهكذا بدأ الغرب حملته لعزل ملوك الاحباش عن المجتمع العربى والاسلامى بفصل مسيحى الاحباش عن الكنيسة القبطية المصرية وتحويل ولائهم الى روما والى الغرب ...

وقد استجاب الملك يعقوب الى دعوة الغرب فانفصل عن الكنيسة المصرية وأصبح مدينا الى الكنيسة الغربية بالولاء والتبعية ، وظل الغرب يواصل جهوده فى هذا الاتجاه ، وكانت البرتغال ترقب الخليج العربى والبحر الاحمر وتقاوم كل توسع فيما وراء مياهها ، وتركز نظرها بنوع خاص على الحبشة ، فأوفدت فى عام ١٥١٥ بعثة سياسية برئاسة من يدعى «الفاريز» الذى تولى مفاوضة ملك الحبشة لعقد حلف بينهما لمحاربة العرب، ونجحت هذه المفاوضات فى استدراج الملك لبنادنجل (Lebna Dengel) الذى بعث الى عمانويل ملك البرتغال برسالة يدعو الى تجنيد حملة صليبية جديدة تضم الاحباش لمحاربة العرب وطردهم من فلسطين

ومن جميع البلاد التى يحكمونها ، وقد نشر نص هذه الرسالة المؤرخان « جونس » و « مونرو » فى مؤلفهما عن تاريخ الحبشة ... وقد ارتضى ملك الحبشة وقتئذ ان يتنازل للبرتغاليين عن قواعد فى أراضيه يستندون اليها فى حربهم للعرب .

وقد رأت البرتغال أن تسارع بتأييد الحبشة وتجنيدها لمحاربة العرب ولا سيما أن السلطان سليم التركى كان قد احتل مصر وأخضع الحجاز لسلطان الدولة العثمانية فى عام ١٥١٦ ، وكان من الواضح أنه لن يمر زمن طويل قبل أن يتجه الفتح العثمانى الى ساحل البحر الاحمر الافريقى الامر الذى كان يزعج البرتغاليين أشد الازعاج ، لذلك ركزت الكنيسة الكاثوليكية جهودها لتثبيت أقدامها فى الحبشة وحملت الملك داود ملك الاحباش فى عام ١٥٣٣ م على الالتجاء الى البابا « كليمان السابع » فاستجاب الملك داود وأعلن ولاءه ، وخضوعه هو وسائر رجال الكنيسة الحبشية لسلطة الكنيسة الغربية ، وبهذا أتيح للبابا أن يبعث القسس والاساقفة اليسوعيين ليسيطروا على الكنيسة الحبشية ، كما ان البرتغاليين واجهوا الزحف التركى على اليمن سنة ١٥٣٨ فأنزلوا قواتهم فى مصوع عام ١٥٤١م بقيادة « كريستوف دى جاما » ابن المستكشف « فاسكو دى جاما » لكى تنضم هذه القوات الى القوات الحبشية وتواجه الخطر العربى والتركى ، ولكن هذه القوات جميعا فشلت واحتل الاتراك مصوع ، كما انتصر العرب على الاحباش فى مختلف المعارك بقيادة الامير العربى « نور بن مجاهد » الذى جعل من هرر عاصمة لملكه الى أن توفى عام ١٥٦٨ م . وساد الاسلام معظم تلك البلاد وازداد تدفق العرب من شبه الجزيرة العربية عليها .



على أن الغرب لم ينصرف عن تنفيذ مخططه السياسى بين الاحباش المسيحيين برغم الهزائم التى منيت بها سياسته ، وضاعفت كنيسة روما من جهودها فى هذا الصدد ، ولا سيما الآباء اليسوعيين الذين رأوا فى الحبشة قاعدة صالحة للعمل ضد العرب .

غير أن البرتغاليين والقسس والاساقفة اليسوعيين كانوا قد أمعنوا فى الاساءة للاحباش ، وأخذوا يعاملونهم معاملة السادة للعبيد ، لا معاملة الند للند ، مما أوغر صدور الاحباش واشعرهم بمرارة الوضع المـــزرى الذى وضعهم فيه الغرب ، ومن ثم اشتد ساعد خصوم الغرب وبدأ أنصـــار الكنيسة القبطية المصرية يقاومون النفوذ الغربى فى الحبشة الى أن تقلص هذا النفوذ ثم تلاشى تماما فى عام ١٦٣٣ حيث تم طرد جميع المبشرين والقساوسة التابعين لكنيسة روما من الاراضى الحبشية ، وعقد الاحباش حلفا مع حكام المدن الساحلية العرب لمنع دخول أى غربى البلاد الحبشية ومقاومة تسلل أبناء الغرب الى الحبشة عن طريق المدن الساحلية . ولقد رأى المبشرون اليسوعيون أن ينتقموا من بازيليوس ملك الاحباش وقتئذ باثارة الفتنـــة فى رعيته فزعموا كذبا ، أنه ارتد عن المســـيحية واعتنق الاسلام .

وأمام نفور الاحباش من القساوسة اليسوعيين ومن البرتغال ، رأت الكنيسة أن تستبدل فى الحبشة نفوذ البرتغال بالنفوذ الفرنسى ، وابعاد اليسوعيين عن البلاد بسبب صلفهم وعجرفتهم وسوء معاملتهم للاحباش ، وقد كانت خطة فرنسا للوصول الى هذه الغاية والتسلل الى الحبشة تقوم على استخدام بعض الفرنسيين المقيمين فى مصر لهذا الغرض ، يعاون هؤلاء الفرنسيين بعض المشارقة ، وقد كان بين المبعوثين الفرنسيين الى الحبشة المســـــيو دى رول (De Roule) قنصل فرنسا فى دمياط ، ولكنه فشل كما فشل اسلافه ولقى مصرعه على يد الاحباش .

ويقول المؤرخ البريطانى بروس (Bruce) أن الحبشة وان كانت قد اختارت لنفسها العزلة فى تلك الحقبة الزمنية فان البعثات التبشيرية المختلفة حولتها الى ميدان تتصارع فيه ، وكان الغرب يدرك خطورة المركز الاستراتيجى للحبشة ، ومدى ما يمكن أن توجهه هذه البلاد من اخطـار تهدد الغرب اذا ما يسيطر العرب عليها ولا سيما بعد أن تولى ملك الحبشة الرأس « على » فى أواخر القرن الثامن عشر وبعد أن بدأ نجم مصر يتألق فى أوائل القرن التاسع عشر وبدأ نفوذها يمتد الى قلب افريقيا ، مما أشعر

الغرب بازدياد الخطر على أمله فى السيطرة على هذا الجزء من افريقيا ، فاتجهت سياسته الى مساندة ومؤازرة خصوم العرب ومساندة أعداء الداعين الى التعايش السلمى بين العرب والاحباش ..

وقد وجدت السياسة الغربية ضالتها فى الرأس « كاسا » الذى كان الوهم يصور له ان القدر قد اختاره ليطرد العرب ويمحو سلطانهم ويغزو فلسطين ويجلس على عرش سليمان الحكيم ... وقد تعاون مع «كاسا» البريطانيان بلودن (Plowden) وزميله جون بيل (John Bell) مبعوثا بالمرستون فى الحبشة ، وكان بلودن مندوب بالمرستون فى بلاط الرأس « على » .. وقد حدث أنه حينما تمكن الرأس كاسا من قهر الرأس على ، أن انضم هذان البريطانيان الى كاسا وراحا يؤيدانه ويعاونانه فى تنفيذ سياسته التى كانت تستهدف ، قبل كل شىء تحطيم سلطان العرب والقضاء على من يحجم منهم عن التحول الى المسيحية..

وفى هذا الصراع قتل « جون بيل » فى احدى المعارك عام ١٨٦٠ ، وعندئذ حاول زميله بلودن مغادرة الحبشة ، غير أنه فشل فى أثناء هذه المحاولة وكان مصرعه داخل المناطق التى يسيطر عليها العرب ، وقد بعثت الملكة فيكتوريا برسالة الى الرأس « كاسا » حملها اليه الكابتن كمرون (Cameron) تشكر « كاسا » فيها لانقاذه جثمان بلودن بعد مصرعه

فاجاب كاسا على رسالة الملكة قائلا انه لن يهدأ له بال حتى يقضى على الاتراك والمصريين ويسحقهم ...

ثم بعث كاسا برسالة بصفته ملكا مسيحيا يستنجد فيها الملكة فكتوريا ونابليون الثالث ويفخر بأنه ثأر لمصرع بلودن فقتل ١٥٠٠ رجل من أبناء القبيلة التى اعتبرها مسئولة عن مصرع « بلودن » .. على أن موقف كاسا هذا لم يجنبه المصير الذى أعدته له السياسة البريطانية ، ولم يشفع له فى هذا الصدد تأييده للغرب .

هكذا كان الرأس كاسا الذى أصبح امبراطورا على الحبشة تحت اسم تيودوروس ، وهكذا كان موقف الغرب من العرب فى الحبشة والصومال وأرتيريا ، كما أن مصر كانت هدفا للعداء السافر لا عن جانب الاحباش والغرب فحسب ، بل ومن أولئكم البريطانيين الذين استعان بهم الخديوى اسماعيل لتولى مصالح مصر فى هذه المناطق .

ويقول الميجور هانتر باشا (Hunter Pacha) ان تولى العرب وظائف كحكام الاقاليم الخاضعة لمصر فى تلك المناطق – يعنى ارتيرية والصومال وبعض مناطق الحبشة – من شأنه ان يثبت اقدام مصر ويساعد على دخول جميع سكان تلك المناطق فى الاسلام ، مما يتعذر معه زعزعة النفوذ العربى والاسلامى فى تلك المناطق ومن ثم يتعذر التخلص من النفوذ المصرى فيها ....

ويروى مؤرخو الغرب ان جوردون باشا كان يشاطر الميجور هنتر هذا الرأى ، ولذلك فقد كان جوردون حريصا على عزل جميع الحكام العرب من وظائفهم فى هذه البلاد واسناد الوظائف الى اجانب .

ولقد راحت سياسة الغرب ترعى الحبشة وتعاونها على الوقوف فى وجه النفوذ العربى الى أن تمكن الغرب أو تمكنت بريطانيا بالذات من احتلال مصر والقضاء على خطرها كدولة عربية فى افريقيا وتسنى لبريطانيا ان تبعد مصر عن السودان وان تقطع علاقته بها على أثر الثورة المصرية .

وحينئذ اتجهت سياسة الغرب الى تعديل موقفه من الحبشة تعديلا يحد من سلطانها المطلق ويحولها الى تابع لنفوذه ولسياسته ، بعد أن استنفذت الحبشة الاغراض التى سخرت من أجل تحقيقها ..

وقد انتهت المساومات بين الدول الغربية على اقرار انفراد ايطاليا بالحبشة ، وتنفيذا لهذه السياسة أملت ايطاليا على الحبشة فى ٢ من مايو سنة ١٨٨٩ معاهدة صداقة وتجارة نصت المادة السابعة عشر منها على أن الحبشة تقبل الاستعانة بالحكومة الايطالية لتبرم عن طريقها كل الاتفاقيات التى تنظم علاقاتها ومصالحها بسائر الدول والحكومات ، فكانت هذه المعاهدة بمثابة فرض الحماية الايطالية على الحبشة وتجريد هذه من كل مظاهر السيادة الدولية .

ولما أفاق الامبراطور منليك من هذا الفخ الذى وقع فيه بادر فى ١٢ من فبراير سنة ١٨٩٣ الى نقض هذه المعاهدات مما أغضب ايطاليا فتحركت جيوشها من ارتيريا التى كانت قد احتلها بموافقة بريطانيا وعلى حساب حق مصر .

وشرعت هذه الجيوش فى غزو الحبشة غير أن هذه الحملة الايطالية انتهت بهزيمة منكرة انزلها الاحباش بالجيوش الايطالية فى موقعة عدوه

عام ١٨٩٦ ، واستردت الحبشة استقلالها وحريتها فى ذات العام •

* * *

وقد حرص الغـــرب بعد هذه الهزيمة على ألا تتجه الحبشـــة اتجاها عدائيا ضد مصالحه ومن ثم اتجه الى تنظيم علاقته بها تنظيما تطمئن اليه الحبشة من ناحية ومن ناحية أخرى يربطها الى عجلة الغرب •

وتحقيقا لهذه الغاية بادرت بريطانيا فى ١٤ من مايو سنة ١٨٩٧ الى عقد معاهدة صداقة مع الحبشة كما عقدت معها فرنسا معاهدة فى ٢٥ من مارس سنة ١٨٩٧ تؤيد مابين الدولتين من تحالف وتعاون فى الشئون الافريقية وتنظم العـــلاقة بينهما فى الأراضى التى احتلتها فرنســـا فى الصومال •

وهكذا راحت بريطانيا من جانب وفرنسا من جانب آخـــر تسعيان لتوجيه سياسة الحبشة الخارجية فى مرحـــلة دقيقـــة من مراحل تاريخ افريقيا العربية والاسلامية وكانت بريطانيا قد أعدت العــــدة لاعادة فتح السودان ، كما كانت فرنسا تطمع فى توجيه سياسة الحبشة للوقوف فى وجه المطامع البريطانية فى افريقيا • وقد حـــاولت كل من الدولتين أن تسخر الحبشة من أجل تحقيق سياستها • غير أن الذى يعنينا ابرازه هو أن فرنسا وانجلترا كانتا تعتبران الحبشة دولة موالية للغرب ، بل دولة تستمد وجودها من حماية الغرب لها • وعلى الرغم مما كان بين الدولتين من المنافسة حول مطامعهما فى افريقيا فقد اتفقت كل منهما على ارضـــاء الحبشة وكان هذا الارضاء على حساب السودان وارتيريا والصومال • وقد وقعتا معاهدات فى ســـنوات ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، لتحققا للحبشة مزايا اقليمية ، وذلك بعد أن تم اجلاء المصريين عن تلك البلاد •

وفى الوقت الذى كانت هاتان الدولتان تسعيان لارضـــاء الحبشة ومنحها مزايا اقليمية كانتا تسعيان لدى ايطاليا لعقد اتفاق انكليزى فرنسى ايطالى مشترك تم توقيعه فى ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ وكفل للدول الثـــلاث

حقوقا في الحبشة كما نظم العلاقة بينها في البلاد الخاضعة لكل منهما والمتاخمة للحبشة ، وفي هذا الاتفاق حصلت بريطانيا على اعتراف من فرنسا وايطاليا بوضع خاص لبريطانيا فيما يتعلق بتنظيم حوض نهر النيل الواقع في الأراضي الحبشية ، وحصلت ايطاليا على اعتراف فرنساوبريطانيا بما لايطاليا من مصالح في الحبشة ولا سيما في الاراضي المتصلة بأرتيريا والصومال بما في هذا منطقة « البنادير » والمناطق الحرام الواقعة في الصومال ، وكذلك حصلت فرنسا في هذا الاتفاق على تأمين مصالحها الخاصة في الحبشة وبلاد الصومال وتأمين حقها في الانفراد بانشاء خط حديدي يصل ميناء جيبوتي باديس أبابا عاصمة الحبشة كما اتفقت الدول الثلاث على التضامن في القيام برقابة شديدة من أجل الحيلولة دون وصول الأسلحة للقبائل المعادية للحبشة ..

وظلت الحبشة تتمتع بهذه الرعاية الغربية الى أن توفي الامبراطور منليك في عام ١٩١٣ — بعد أن أوصى بالعرش لابن ابنته « ليدج ياسو » غير أن الامبراطورة « تايتو » أرملة « منليك » عارضت هذاالاختياروكانت حجتها في ذلك أن جد « ليدج ياسو » لأبيه مسلم وراحت تؤلب أنصارها على هذا الاختيار وعلى رأسهم الأب « متيوس » .

ورشحت للعرش ابن شقيقها الرأس « جوكسا » زوج ابنة الامبراطور « منليك » ، وظل الصراع بين « ليدج ياسو » والامبراطورة مستمرا دون أن تنجح الامبرطورة في تنفيذ غرضها فلجأت الى الحكومة البريطانية لتحصل على تأييدها لموقفها ضد «ليدج ياسو» مقابل الاعتراف المطلق بوضع الحبشة تحت الحماية البريطانية الكاملة ،ولكن بريطانيا اعتذرت عن قبول هذا العرض اكتفاء بمراقبة تطور الاحداث في الحبشة — ولا سيما مراقبة نشاط السياسة الالمانية الذي بدأ يبدو في الحبشة بصورة ظاهرة تعين على بريطانيا التنبه والمراقبة .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى وتبينت بريطانيا وفرنسا عدم انقياد الامبراطور « ليدج ياسو » لسياستهما انحازتا الى خصومه واستجابتا الى مطالب أعدائه فسعيا لدى الأسقف « متيوس » من أجل أن يعلن حرمان

الامبراطور «ليدج ياسو» من الكنيسة وعزله من الملك بتهمة الرجوع الى الاسلام دين أجداده •• وفى ذات الرسالة التى وجهها الأسقف فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩١٦ تلك الرسالة التى قرر فيها حرمان الامبراطور وعزله ، أعلن الأسقف تولية الأميرة زادويتو العرش وهى ابنة منليك وزوجة الرأس جوجا ، ونصب الرأس « تفرى » (هيلا سلاسى) وليا للعهد ، متجاهلا زوج الامبراطورة الجديدة •

***

وهكذا نجحت مؤامرة بريطانيا وفرنسا فى اقصاء ليدج ياسـو عن العرش وتوليـة الأميرة زادويتـو ، ومن ثم تمـكين الرأس « تفرى » (هيلاسلاسى) من الحكم باسم هذه الامبراطورة •

* * *

مما تقدم ، تبدو حقائق يجمل بنا أن نعرفها عن الحبشـة وارتباطها بالغرب ، والشرق ـ فيبدو ـ أن مصلحة الحبشة ذاتها لم تكن يوما ماهدف السياسة الغربية ولا سيما بريطانيا ، وانما كان هدف هذه السياسـة دائما هو كسب ولاء حكام الحبشة للغرب ، واجتذابهم فى صـفه للوقوف فى وجه العرب ، واية ذلك ، أننا رأينا كيف أن الغرب كان لا يزال يصانع الحبشة ويجاملها حتى اذا تضاربت مصالحه يوما ما بمصالحها ، تنكر لهـا ووقف ضدها فى صرامة وعنف وسام شعبها الخسف والهوان وأذاقه أشد ماتلقى الشعوب من قسوة الاستعمار ، ولعلنا نجد الدليل على ذلك فيما لقيه الامبراطور « تيودورس » امبراطور الحبشة من الغرب حينما وجهت اليه بريطانيا حملة عسكرية تأديبية بقيادة السير روبرت نابير (Robert Napier) لتقتص منه بسبب المظالم التى عزى اليـه ارتكابها ضـد بعض الرعايا البريطانيين فى الحبشة ، وكان القصاص فى هذه الحملة من العنف الى حد أن لقى الامبراطور مصرعـه فى العـاشر من ابريل سـنة ١٨٦٨ •• ثم يبدو لنا كيف كان هم بريطانيا وجل غايتهـا من الحبشـة هو تأمين مصالحها فيها ، ويمكن التماس المثل الواضح فى هذا الصدد ، من المعاهدة

التى عقدتها بريطانيا مع الحبشة فى عام ١٩٠٢وبموجبها حصلت بريطانيا على حق مطلق لها فى مد أى خط حديدى عبر الأراضى الحبشية بوصف أن هذا الاجراء هو جزء من مشروع الخط الحديدى المزمع انشاؤه اذ ذاك ليربط القاهرة برأس الرجاء الصالح •• وهنا وبهذه المناسبة لانجد مناصا من أن نسجل على بريطانيا تجنبها ذكر ما لمصر من حقوق فى مياه النيل وتنظيم مجراه وعدم الاشارة ، مجرد الاشارة ، الى هذه الحقوق وتجاهلها اطلاقا فى تلك المعاهدة التى قيدت بها الحبشة وكبلتها فى التزامات مباشرة لمصلحة بريطانيا • التزامات من شأنها ان تغل يد الحبشة ، بحيث لا يمكنها أن تتصرف أى تصرف يتعلق بمياه النيل أو باقامة أية انشاءات من شأنها أن تتحكم فى تصريف مياهه ، أو حجزها عبر النيل الأزرق وبحيرة تسانا ، والسوباط ••

ولقد كانت بريطانيا وقتئذ تتحدث فى هذا الشأن أعنى فى موضوع تلك المعاهدة بصفتها الشخصية وباسم السودان ، دون الاشارة الى مصر •• وهكذا تم لبريطانيا فى تلك المعاهدة ان تقيد الحبشة بقيود وأن تجعل لنفسها فى ذات الوقت كامل السيطرة والتسلط والسلطان على مياه النيل المنحدرة من الحبشة بحيث كانت هذه السيطرة لبريطانيا بمثابة سلاح تلوح وتهدد به مصر عند الاقتضاء ، كما كانت سلعة تساوم بها مصر كلما عن لها أن تساومها •

هذه كانت ، ومازالت ، سياسة الغرب تجاه الحبشة ، على الصورة التى سنفصلها فى المرحلة التالية من مؤلفنا •

الفصل العاشر

خطط الغرب في أفريقيا العربية الإسلامية بعد مؤتمر برلين

« بروتوكول مؤتمر برلين يعترف بسيادة مصر على حوض النيل بأكمله وعدم »
« جواز استيلاء أية دولة أوروبية عليه ـ بريطانيا ترقب وتنتظر الاحداث لتنفذ »
« خططها لانشاء امبراطورية افريقية ـ فرنسا تعمل بمعاونة البعثات التبشيرية ـ دور »
« الكاردينال « دى لافيجرى » ـ فرنسا تستولى على أ راض تضم ٤٠ ملونا من »
« السكان ـ تجارة بريطانيا مع مستعمراتها عام ١٨٩٠ بلغت ٣٢٠ مليون جنيه ـ »
« بريطانيا تساند الاستعمار البلجيكى ـ ايطاليا تحلم بامبراطورية افريقية ـ الغرب »
« يواجه شعوبا وقادة متفرقين ـ السياسة الغربية تعمل لاذابة العناصر الوطنية »
« وتفكيك المجتمعات الافريقية ونشر روح الفساد والانحلال والفرقة والتناحر ـ »
« الغرب ينشر لغته ويغزو افريقيا ثقافيا لقتل الوعى الوطنى ـ الغرب يعتبر افريقيا »
« جزءا متمما لاوروبا وانتزاعها يؤدى الى موت أوروبا ـ المطالبة بادماج أوروبا »
« وافريقيا ـ وحدة الدين والاهداف تحتم على أوروبا اقامة اتحاد يضمها لاستثمار »
« افريقيا وربطها بمصير أوروبا ـ الاسلام عقبة فى تنفيذ خطط الغرب ـ الاسلام »
« لم يتراجع برغم الاحتلال والضغط الغربى ـ الغرب يعمل على اخضاع الدول »
« العربية المستقلة لسلطانه وحرمان كافة الشعوب العربية من العلم والنشاط »
« الاقتصادى وعلى قطع صلتهم بتاريخهم ـ قانون « كريمييه » ـ الغرب والطرق »
« الصوفية ـ دول الغرب والحبشة تستولى على الدول العربية والاسلامية فى »
« افريقيا عدا مراكش وليبيا ـ ١٩٠٤ العام الفاصل فى تحديد مصير افريقيا . »

حرصت بريطانيا في مؤتمر برلين على أن تضمن البروتوكول الثالث منه نصا يحظر استيلاء أية دولة أوربية على حوض نهر النيل ، وبهذا أتيح لبريطانيا أن تنفذ سياستها التى كانت تقوم وتشتد على عنصر الترقب والتربص والانتظار الى أن يحين الوقت لتنفيذ الخطة بنجاح ، لأن السودان كان فريسة ضخمة لايمكن أن تلتهمها بريطانيا دون أن تثير اعتراضات الغرب والباب العالى ومصر ، ولقد كانت بريطانيا تمهد لانشاء امبراطوريتها فى أفريقيا ، غير أن السياسة البريطانية مع هذا كانت فى الوقت الذى أخرجت فيه مصر من السودان ، حريصة على أن تستبقى لمصر حقوقها فيه ، فلم تلزمها بالتخلى والتنازل عن هذه الحقوق فى الوقت الذى ألزمت قواتها وحكامها بالانسحاب من السودان والتخلى عن وجودهم فيه ، لذلك

حرصت بريطانيا فى كل ماعقدته من اتفاقيات فيما بعد ، مع ألمانيا وايطاليا وفرنسا على أن ينص صراحة فى تلك الاتفاقيات على أن حقوق مصر فى الأراضى السودانية حقوق ثابتة وانها تعتبر حقوقاموقوفةحتى يتاح للحكومة المصرية أن تسترد ادارتها المباشرة •• على أن بريطانيا مع كل هذا لم تشأ أن تعود مصر منفردة الى السودان •

ولم تقف فرنسا مكتوفة اليدين ، أمام سياسة بريطانيا فى السودان ، بل انها انبرت ليكون لها دورها ومكانها ، فى حملة الاقتناص الاستعمارى الواسعة التى وجهتها الدول الأوروبية ـ اذ ذاك ـ الى أفريقيا العربية الاسلامية ولا سيما وأن الكاردينال لافيجيرى (Lavigerie) الذى تزعم الحركة الاستعمارية التبشيرية فى أفريقيا والذى يعتبر الرائد الأول للاستعمار الفرنسى فى هذه القارة ، كان قد بعث برجاله المعروفين بالآباء البيض ((Pères Blancs)) الى أوغندا منذ عام ١٨٧٩ وقد تمكن من الحصول على اقرار من سلطان أوغندا بقبوله الحماية الفرنسية •

وقد بعث بريطانيا أيضا بعثات تبشيرية كما قامت بلجيكا من جانبها بايفاد مثل هذه البعثات وهكذا بلغت المنافسة بين هذه الدول أشدها فى أوغندا الى أن تمكنت بريطانيا عن طريق الأسقف البريطانى المهيمن على حركة التبشير فيها من الحصول على وثيقة نصت على قبول أوغندا للحماية البريطانية •

وبهذا تمكنت بريطانيا من تأمين استعمارها فى أفريقية ، ولكى يزداد استعمارها تأمينا عقدت مع فرنسا اتفاقا فى ٥ من أغسطس سنة ١٨٩٠ ، ارتضت بريطانيا بموجبه أن تفرض فرنسا حمايتها على جزيرة مدغشقر وأن تمتد ممتلكاتها فى قلب الصحراء وفى حوض نهر النيجر وبحيرة تشاد الى الحدود التى يتفق عليها فيما بعد ••

وعلى هذه الصورة تم لفرنسا فيما بين عامى ١٨٨١ و ١٨٩٠ الاستيلاء على تونس والتوسع فى أعالى السنغال والنيجر وشمالى الكونغو وغربى السودان حتى النيجر الأوسط ، كما تم لبريطانيا الاستيلاء على مصر

والنيجر الأدنى وأواسط مجرى نهر الزمبيزى وشمالى زنجبار وأوغندا .

ولقد تحقق لفرنســا توسع فى اراضى بلغت مســاحتها فى عام ١٨٨٨ سبعة ملايين من الكيلومترات المربعة تضم ٤٠ مليونا من السكان فى حين أن عدد سكان المستعمرات الفرنسية لم يكن يجاوز فى عام ١٨٨٠ مقدار خمسة ملايين ، ولكى ندرك أهمية الفوائد الاقتصــادية التى عادت على كل من فرنسا وبريطانيا من توسعهما الاستعمارى حتى سنة ١٨٩٠ نقول • ان تجــارة فرنسا الخــارجية مع مستعمراتها بلغت ٥٠ مليونا من الجنيهات ســنويا ، كما بلغت تجــارة بريطانيا الخارجيــة مع مستعمراتها ٢٢٠ مليونا من الجنيهات سنويا ، وعلى ضوء هذه الارقام يمكن تقدير الثروة التى استطاع الاستعماران الفـرنسى والبريطـانى الحصول عليها ليحقق الاذدهار والرفاهية لابنائه ـ من عرق ومن دماء وأرواح وحقوق أبناء تلك المستعمرات التى كان يتشدق الاســتعمار برعايته وحمايته لها •

بينما كان هذا السباق بين الدول الاستعمارية عـلى أشــده وكانت المساومات بينها فى ذروتها كانت انكلترا تحرص دائما أبدا على ابعاد جميع الدول الأوروبية عن مجال نشاطها وأطماعها فلم تنس فى كل ماعقدته من معاهدات واتفاقيات فى الفترة التى استقل فيها السودان أن تشير فى نصوص المعاهدات الى أن أراضى السودان تعتبر أراضى مصرية وأن كل مساس بها لايمكن أن يضيع ما لمصر فيها من حقوق تعتبر « مجمــدة » حتى تتمكن الحكومة المصرية من استعادة ادارتها •



وقد ساندت بريطانيا الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا وساعدته فى تكوين مستعمرة الكونغو ولم يكن هدفها من ايجاد هذه المســتعمرة هو مصلحة بلجيكا ، وانما كان هدفها ايجاد دولة تكون بمثابة حاجز يحول دون تسرب فرنسا أو سواها من الدول الأوروبية العظمى الى قلب افريقية من الشمال الى الجنوب ودون تسرب الحركة العربية الاسلامية من الشرق الى الغرب •

كما عملت بريطانيا على تأمين مستقبلها فى افريقية بثمن دفعتــه الى ايطاليا وكان هذا الثمن تمزيق أراضى السودان وتمكين ايطاليا من الاستيلاء على ميناء مصوع فى عام ١٨٨٥ لذلك وقعت اتفاقين مع ايطاليا •• أحـدهما

في عام ١٨٩١ والآخر في عام ١٨٩٥ واعترفت بموجبها لأيطاليا بملكيتها لأراض عربية واسلامية لم يكن لواحدة من الدولتين أي سند قانوني لامتلاكها أو التصرف فيها ، ولكن ايطاليا على الرغم من ذلك لم تقنع بهذا الذي سلمت به لها بريطانيا بل زادت مطامعها الاقليمية واتجهت سياستها الى تكوين امبراطورية افريقية .. وكان احتلال ايطاليا لمديرية كسلا أول مرحلة لها في سبيل تحقيق حلمها ، كما كان عدوانها على الحبشة مرحلة أخرى من مراحل هذه السياسة وقد بقيت الامبراطورية الايطالية في افريقية حلما يداعب خيال الايطاليين طيلة سنوات الثلث الأول من القرن العشرين .



وهكذا استقر الغرب في افريقية العربية الاسلامية ، لايواجه فيها الا شعوبا وقادة متفرقين وأمما أنهكتها الفوضى والفساد وأرهقتها الفرقة والتناحر مما جعل الغرب مطمئنا الى وجوده وبقائه في افريقية ، وفي ظل هذا الاستقرار تمكنت سياسة الغرب من أن تفعل أفاعيلها بين الشعوب الافريقية في بسط وتؤدة واحكام من أجل اذابة العناصر الوطنية والسيطرة على الافريقيين كافة .

وفي هذا السبيل لم يلجأ الغرب الى وسائل العنف من أجل تفكيك المجتمعات الافريقية ، لم يتصد لحرية العقائد والأديان لهؤلاء الذين أصبح مسيطرا عليهم ولكنه عمل على أن يقر في عقائدهم ويرسخ في أذهانهم أن للغرب « رسالة » من أجل السلام يحملها لهم على حين أخذ في الوقت نفسه ينشر بين الشعوب الافريقية روح الفساد والانحلال ، في صور مدنية غربية زائفة ، راح الغرب ينشر لغته بين أبناء افريقية ، ويغزو البلاد غزوا ثقافيا ويوجه التفكير فيها لمصلحته - ويعمل على تفتيت القوى الوطنية ، وقتل الوعي الوطني في أبناء البلاد جميعا ، لقد اتجهت سياسة الغرب هذه الوجهة منذ أن استقر للغرب الأمر في افريقية ، وبهذه السياسة كان يعمل من أجل أن يجعل من القارة الافريقية قوة للغرب ، لا لافريقية ويستمد

من القارة السوداء مايكفل له ولأبنائه الرخاء والأمن والأستقرار لعدة قرون ..

وقد كان الغرب ، يشعر بان افريقية تمس قلب اوروبا وان انتزاعها يفضي - حتما الى موت آوروبا بل ان من بين هؤلاء الكتاب والمفكرين من أخذ يدعو الى اقامة وحدة بين أوروبا وافريقية ، ومن بينهم من ذهب فى الرأى الى ابعد من هذا المدى فراح يبشر بادماج أوروبا وافريقية فى وحدة اقتصادية سياسية لامفر منها ، اذ ان الضرورة هى التى ستفرضها آكثر مما يمليها مجرد الاختيار الحر .

وقد كان هناك من يقول : ان وحدة الثقافة الاوروبية ووحدة الاهداف بين الدول الاوروبية ووحدة الدين المسيحى التى تجمع هذه الدول ، كل ذلك يعين على دول آوروبا على أن تقيم فيما بينها اتحادا او على الأقل تعقد اتفاقا من شأنه أن يفضي الى قيام وحدة أوروبية قوية تشمل دول أوروبا بأسرها وتربط بها افريقية فى مصير واحد ..



ولم تكن أوروبا ترى أمامها عقبة - بعد أن استقرت على هذاالاتجاه منذ انعقاد مؤتمر برلين ، سوى ذلك العدو اللدود ، الاسلام ، ذلك الدين الذى انتشرت دعوته حتى بلغت قلب افريقية ، وكان يسود الكونغو بأسره وقد كان ذلك على الرغم مما أصاب الحركات الوطنية فى البلاد الاسلامية، فى تونس ومصر والسودان ،

وفى ذلك كان ساسة اوروبا يقولون : انه على الرغم من احتلال الغرب لأفريقية فانهم لم يلاحظوا أن الاسلام قد تراجع فى أى مكان بالمناطق المحتلة فى هذه القارة ، بل ان اعتناق الفرد الواحد من ابناء افريقية للدين المسيحى على أى مذهب منمذاهبه يقابله دائما ، اعتناق آلاف من الافريقيين للاسلام ، وبذلك يلوذون بالمعسكر المعادى للغرب ، بدلا من المعسكر الذى يعده لهم الغرب .

ومن أجل هذا فقد كان ساسة الغرب يرون أن الاسلام ماض فى سبيله لاقامة افريقية الاسلامية المعادية له والتى متى تم قيامها وقفت مختالة جبارة فى وجهه وأصبحت حائلا قويا دون تحقيق أغراضه ، مما جعل الاسلام فى نظر الغرب العدو الرئيسى لسياسته فى افريقية ، ومما كان من شأنه أن ينعقد اجماع ساسة الغرب على التضامن والتكاتف لاقامة افريقية المسيحية سواء أكانت بروتستانتية أو كاثوليكية اذ الغرض كله - هو أن تسودها المسيحية فحسب ، لأن الصراع ضدالاسلام كان يستلزم منأوروبا

أن تخضع لسلطاتها الدول الأسلامية المستقلة أوالتى كانت تتمتع بأى نوع من أنواع الحكم الذاتى •• وكان هذا الصراع يعين على أوروباان تقوم بحملتها للقضاء على الدين الاسلامى بين الشعوب الافريقية ، تلك الحملة التى كانت تحمل فى ظاهرها طابع العطف والرعاية من جانب الغرب لهذه الشعوب •• وكانت فرنسا تحمل لواء الدعوة الى تناسى الفوارق الدينية بين دول أوربا جميعها والى تضامن الجميع من مسيحيين بروتستانت أو كاثوليك أو من يهود واتحاد الجميع فى جبهة واحدة فى افريقية تشن على الاســـلام فيها حربا جديدة صليبية يهودية ، حربا لا يشهر فيها سيف ، ولا تستخدم فيها غير أسلحة التضليل والدعاية المتسللة البطيئة الهادئة ، وحرمـــــان الشعوب المتمسكة بعقيدتها الاسلامية فى افريقية أى بصيص من نور العلم والمعرفة والحيلولة بينهم وبين أى نشاط اجتماعى أو اقتصــــادى ، وغزو عقولهم وأفكارهم بكل ما يوهنها حتى يمكن أن تنقطع صلة هــذه الشعوب بتاريخها وحتى يمكن أن تختفى من أمام عيونهم أمجادهم القديمة ، وتختفى مثلهم ، ولا يبقى فى نفوسهم أثر من تراث يربطهم بقوميتهم أو بعقيدتهم حتى لايكون فى رءوسهـــم من المعرفة والثقافة مايربطهم بحاضر قوى أو يطمعهم فى مستقبل أقوى •

وكان ذلك كله فى رأى سياسة الغرب بمثـــابة المرحلة التى يتيسر بعدها حتما أو التى من طبيعتها أن تنتهى بهذه الشـــعوب الاســـلامية الى الاندماج والذوبان تلقائيا ـ فى المجتمع الغربى ، دون ما عنف ولا قسر لتحقيق هذا الاندماج الذى يراد به فناء وسحق الاسلام •

وذلك الغرض الذى مضت سياسة الغرب تعمل على تحقيقه فى دأب وفى تسلل ودون ضجة ودون أن تترك أية فرصة فى الاعلان عن احترامها للعقيدة الاسلامية وتقديرها لما فيها من سمو المعانى •

وفى الوقت الذى كانت تؤكد فيه فرنسا انها لاتبغى الا تطوير الاسلام بما يحقق له الثبات والتجاوب مع الزمن ، عمدت الى اصـــدار قانون « كريميه » الذى منح الجنسية الفرنســـية لكل مســـيحى او يهودى من ابناء شمال افريقية ، وساواتهم بالفــرنســـيين فى جميـــع الحقوق وحرم هذا الحق على المسلمين فى هذه البلاد . وكانت فرنسا

تهدف بهذا القانون الى اكراه المسلمين الافريقيين على التخلى عن دينهم بدافع من حرصهم على مصالحهم المادية ولكن استمساك مسلمى شمالى افريقية بعقائدهم كان اقوى من الاغراء المادى واقوى من هـذا القانون فآثروا التضحية والكفاح عن الرضوخ لاساليب السياسة الغربية .

***

لقد كان ساسة الغرب لايفتئون يعلنون أنهم على موعد مع ذلك اليوم الذى يشاهدون فيه تلك القلعة الحصينة الشامخة التى شادها الاسلام فى افريقية تسقط وتنهار وتصبح أثرا بعد عين ، وأنهم سيصبرون انتظارا لهذا اليوم ـ وقد اقتضاهم الصبر والانتظار قرنا بأكمله .

كما دعا هؤلاء الساسة العناصر المتعطشة للكفاح الاستمارى ليكونوا جنودا فى المعركة ضد الاسلام على أن يتولى قيادة المعركة المبشرون من جميع الطوائف المسيحية ـ هؤلاء المبشرون الذين كانوا الرواد الحقيقيين للاستعمار وجنود الطليعة للغرب فى الشرق ..

***

ولقد اهتم ساسة الغرب وقواده وحكام المستعمرات ورجال الدين والمفكرون بدراسة الطرق الصوفية المنتشرة فى افريقية الغربية والاسلامية حيث يسود الاستعمار الغربى ، وكتبوا عنها وتصدوا لهـا فى مقالاتهـم ومؤلفاتهم بالوصف والتفنيد ، فتناولت أقلامهم طرق القدرية والخلوتية والشاذلية والعيسوية والشيخية والتيجانية والرحمانيـة والسنوسيـة . ووضعوا المخططات لمقاومتها ، وأفاضوا فى شرح خطرها على مستقبل الاستعمار الغربى اذا ماتركت تمارس نشاطها فى افريقية بأسرها ..

يقول المؤرخ شمولدرز (Schmolders) ان الصوفية فى الاسلام ليست طائفة دينية أو نظرية فلسفية خاصة بعيدة عن تعاليم الاسلام ولكنها سبيل للوصول الى النقاء ولبلوغ مرتبة من الصفاء تمكن الروح من الاقتراب من الخالق سبحانه وتعالى .. وعلى هذه الصورة كان للصوفية الاسلامية نظير فى الأديان التى تقدس الصلة بين الخالق والمخلوق وأن أبرز صفات المتصوفة هى التجرد من الماديات ومن متع الحياة الدنيا ، والتزام التأمل فى قدرة الله وصفاته ..

ويقول الأسقف روكيت ((Rouquette)) فى مؤلفه عن الجمعيات السرية فى الاسلام ، ان الصوفية تهدف الى امتصاص اتباعها فى تأمل سيرة الرسول والاتجاه الى الله •

ويستطرد الأسقف فيقول فى هذا الصدد « ان الطرق الصوفية جعلت من المسلم ذى الثياب البالية التى تعيش عليها الحشرات تنهش جسمه والذى يتسم وجهه بسمات الحرمان والألم ، قوة تقف من الغربى موقف الكبرياء والتحدي ، فلم يحن هامته ولم يطأطيء رأسه •• بل انه حينما يلتقى بالغربى الذى تتمثل فيه الحضارة ويتمثل فيه الثراء لا يفسح له الطريق ، وأكثر من هذا فانه لولا قوة السلاح التى يستند اليها الغربى لما أمكن حمايته من بطش مثل هذا المسلم ••

ويستطرد الأسقف روكيت فيقول : «ان الدعوة التى يقوم بها رجال الطرق الصوفية تشكل الخطر الحقيقى على مصالح الغرب فى البلاد التى يسيطر عليها الغرب فى آسيا وافريقية •• »

ويشاطر روكيت رأيه هذا المؤرخ رين (Rinn) •

وفي مؤلفه المنشور في عام ١٨٩٩ ، يقول هذا الأسقف « انه عندما تحين الساعة وينتفض أبناء شمال افريقية ويهبون فى ثورة ضد الاستعمار الفرنسى ، فان فرنسا لن تواجه مجرد عصابات غير منظمة ، بل انها ستجد نفسها أمام مئات الألوف من المجاهدين الأشداء الشجعان المؤمنين المستميتين في القتال والذين يستمدون طاقتهم الجبارة من تعاليم رجال الطرق الصوفية ••

وفي هذا الشأن يستطرد الاسقف قائلا « ان أحد رجال الطرق الصوفية قال له في سياق حديث له معه ، ان الفرنسيين لا يجدون اليوم من يقف امامهم ، ولكن عندما ينفجر البارود سيكون الله معنا وسنخرج الفرنسيين من شمالى افريقية ••

ثم يقول المؤلف فى مؤلفه المشار اليه ، انه ما لم يدرك الغرب خطر رجال الطرق الصوفية ، هذا الخطر الذى نبه اليه من قبل الكردينال « دى لافيجرى » فليس بمستبعد على رجال الطرق الصوفية أن يمضوا فى تغذية روح المقاومة بين الأهليين حتى نجد أعظم مستعمراتنا تفلت من أيدينا وتنتزع

منا وهكذا شن الغرب على الطرق الصوفية حملة مستمرة ليقضى عليها ويحرر العربى من تلك العقيدة التى تلقى فى روعه أن الدفاع عن الوطن العربى ومقاومة المستعمر والاستشهاد فى هـــذا السبيل ركن من أركان الدين ..



وهكذا شهدت نهاية القرن التاسع عشر الدعوة لاتحاد أوروباجميعا، ضد العروبة ، تلك الدعوة التى كان أول من بادر بتلبيتها والاستجابة لها بريطانيا وفرنسا فقامت الدولتان بانهاء ماكان بينهما من تنافس ، وكانت الاتفـــاقية التى وقعهـــا فى ٨ من ابريل ســـنة ١٩٠٤ لورد لاندسون (Landsdone) عن انجلترا والمسيو « جول كامبون » (Jules Cambon) عن فرنسا ـ كانت هذه الاتفاقية ثمرة لهذه الدعوة .. كما كانت متممـــة لمؤامرة الغرب على افريقية ، التى حددت معالمها فى مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ ، وما تلاه من اتفاقيات ..

وقد نظمت اتفاقية سنة ١٩٠٤ ، فيما نظمت من عـلاقات بريطانيـــا وفرنسا ، علاقاتهما بالنســـبة لمراكش ولمصر ، فتعهدت بريطانيابمساندة فرنسا فى مراكش وتعهدت فرنسا بعدم التصدى للسياسة البريطانية فى مصر ..

كما قامت بريطانيا وفرنسا بتوقيع معاهدة مع ايطاليا تحدد فيهامصير ليبيا ..

وهكذا كان عام ١٩٠٤ ، العام الفاصل فى تحديد مصير افريقيـــة ولا سيما مصر ومراكش وليبيا ، وكذلك فى اطلاق أيدى الدول الغربية فى افريقية ..

وتم وضع يد فرنسا وبريطانيا وايطاليا والحبشـــة على مصر وتونس والجزائر والسودان وارتيريا وبلاد الصومال وهرر وافريقيا الغربيةالعربية الاسلامية وتمت للغرب السيطرة على افريقية العربية والاسلامية ولم يبق من شعوبها بلد بعيد عن سيطرته وقتئذ الا مراكش وليبيا ..

الفصل الحادي عشر

غـزو تونس

«دولة قرطاجنة ـ الفتح الاسلامى ـ تونس والـــكردينال «دى لافيجيرى» رائد»
«الاستعمار الفرنسى ـ تونس مركز اشعاع الثقافة والحضارة الاسلامية ـ حرص»
«تونس على تجنب الصراع مع الغرب فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون ـ تونس تحرص»
«على صداقة فرنسا وايطاليا ـ تسامح تونس يطمع الغرب فيها ـ الغرب يطبق فى تونس»
«ذات الخطط التى طبقها فى مصر ـ عملاء الغرب يعرقلون الاصلاح وينشرون الفوضى»
«والفساد ـ عملاء الغرب كانوا الباى واليهود والطبقة المستغلة الاقطاعية ـ دور»
«سماحة اليهودى فيما حل بتونس من كوارث ـ صور من العبث بمالية البلاد ـ تدهور»
«الاحوال الاقتصادية ـ ثورة الشعب ـ دور المستر وود عميل بريطانيا فى قيام الثورة»
«ضد القوات المصرية فى سوريا ولبنان ـ «وود» يعمل لمصلحة بلاده فى تونس ـ المزايا»
«التى حصل عليها اليهود والاجانب فى تونس فى دستور ١٨٥٧ ـ فرنسا وايطاليا تدفعان»
« البلاد الى هاوية الفقر والافلاس لتقع المأساة المالية والسياسية التى دبرها الغرب »
«الغرب يطالب بانشاء لجنة دولية للرقابة على شئون تونس المالية ـ التنافس بين فرنسا»
«وايطاليا ـ الصراع بين الدول الغربية داخل لجنة الرقابة الدولية ـ موقف ايطاليا»
«كان هو موقف بريطانيا ـ فرنسا تعمل على الانفراد بالسيطرة على تونس ـ ايطاليا»
«تطالب بتوزيع البلاد العربية فى شمال افريقية بينها وبين اسبانيا وفرنسا ـ اثر استيلاء»
«بريطانيا على قبرص فى مصير تونس ـ بريطانيا والمانيا تقبلان اطلاق يد فرنسا فى تونس»
«ايطاليا تنافس فرنسا ـ المساومات بين الدولتين حول ليبيا والبانيا ـ تصريح سفير»
«فرنسا فى لندن ـ فرنسا تعجل بالاستيلاء على تونس ـ الغزو الفرنسى ـ فرنسا تملى»
«شروطها على تونس ـ تغلغل فرنسا فى سائر فروع الادارة التونسية وسيطرتها على»
«النشاط الاقتصادى واقصائها للتونسيين من اى عمل ـ حذر فرنسا فى مراحل الاحتلال»
« الاولى ـ والرابطة والتلازم والتشابه بين أساليب بريطانيا فى مصر واساليب فرنسا فى»
«تونس ـ كفاح الشعب التونسى» .

يقول مؤرخو الغرب وفى مقدمتهم تيسو ((Tissot)) ومرسييه (Mercier) وريديجوى (Ridgeway) ان سكان شمالى افريقيا يمتون الى جنسين اختلطا منذ أمد بعيد وأن أحد هذين الجنسين انحدر الى شمال افريقية من الغرب والثانى من جنوب الصحراء الكبرى ومن مصر ومن الشرق وشبه الجزيرة العربية ولم ينج شمال افريقية من عدوان الغرب فقد ثبت أن جحافل من الجنس الأشقر الذى كان يقطن شمال أوروبا غزت شمالى افريقية وأيدت الآثار المصرية وجود هذه العناصر قبل الأسرة التاسعة

عشرة ، وقد استوطن هؤلاء الغزاة ساحل شمالى افريقية ولاسيما الساحلين الليبى والتونسى .

وقد درج قدماء المصريين على اطلاق اسم ليبو على الشعوب القاطنة فيما وراء الصحراء الغربية ومنها اشتق اسم ليبى على القادم منها . ويقول المؤرخ هيرودت ، وقد ذابت هذه الأجناس بعضها فى بعض واختلطت حضاراتهم بالشعوب القاطنة على الساحل الشرقى للبحرالأبيض المتوسط حتى شمالى سوريا .

ويسجل التاريخ زحف الشرق الى شمالى افريقية ـ ويقطن أبناؤه على طول الساحل الليبى والتونسى ـ وكان الفينيقيون أبرز هذه العناصر اذ استقروا فى معظم المدن الساحلية المعروفة حاليا فى ليبيا وتونس ، وتقول بعض الروايات أن أول ملك شرقى حكم تلك البقاع ومكن لسيطرة الجنس العربى بصفة نهائية هو شداد بن عاد وتقول رواية أخرى انه كان الملك العربى « أفريقي » الذى ينسبه بعض المؤرخين الى اليمن وينسبه بعضهم الى سورية ـ والى هؤلاء العرب سواء كانوا من النازحين من اليمن أو من جنوبى الصحراء أو من الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ينتمى الجنس العربى الأصيل الذى استوطن شمالى افريقية من أقصى جنوبى مراكش غربا الى مصر شرقا .

ولقد ازدهرت البلاد وقامت بها حضارات كانت أبرزها حضارة قرطاجنة التى شملت ساحل أفريقية بأسره من ليبيا الى طنجة وكان استئثار أبناء قرطاجنة بالتجارة وكان ثراؤها وازدهارها سببا فى استرعاء أنظار الطامعين فيها من أمراء المغرب وليبيا ذاتها وهم الذين كثيرا ما تمردوا على سلطانها وحاولوا القضاء عليها أكثر من مرة غير أن روما وحدها هى التى استطاعت القضاء على قرطاجنة بعد حروب دارت رحاها أكثر من قرن وقد ظلت السيطرة الرومانية على الساحل الافريقى حتى عام ٤١٥م حينما غزا الواندال ((Vandales)) ساحل شمالى افريقية

وبقيت لهم السيطرة حتى عام ٥٣١م اذ استعادت بيزنطة سلطان الامبراطورية الرومانية على تلك البلاد ـ غير أن هذه السيطرة بقيت سيطرة اسمية أكثر منها فعلية لأن مقاومة أهل المغرب لأى نفوذ أجنبى سواء أكان نفوذا رومانيا أم واندليا أم بيزنطيا لم تخمد أو تهن وقد منيت روما على أيدى أبناء المغرب بهزائم سجلها التاريخ • ويقول مؤرخو الامبراطورية الرومانية فى معرض حديثهم عن أبناء شمالى افريقية ان هؤلاء العرب كانوا فى حروبهم عنوانا للشجاعة وان الهزائم لم تشع اليأس فى قلوبهم مهما كانت هزيمتهم ساحقة بل سرعان ماكانوا يتحولون عقب الهزيمة الى محاربين تمتلىء قلوبهم حماسا وعنادا واصرارا على مواصلة القتال ، كما أن الخيانة لم توجد فى صفوفهم •

ومن ثم فلم يكن من سبيل الى الاعتماد على الخيانة كسلاح ضدهم يمكن خصمهم من السيطرة عليهم • وفى العهد الذى انتشرت فيه المسيحية كان أبناء المغرب أشد تمسكا بوحدانية الله ورفضوا الأخذ بمبدأ الثالوثية وثاروا على سلطان روما والكنيسة ونادوا بالمساواة التامة بين الناس وامتدت ثورتهم حتى شملت ليبيا وبرقة وعرفت فى التاريخ باسم ثورة Les Donatistes الدوناست نسبة الى الأسقف دوناست وكانت ثورتهم هذه هى القاضية على نفوذ روما وسلطانها وسيطرتها فى شمالى افريقية •

ولما استعادت بيزنطة هذه السيطرة أرادت أن تصرف أبناء شمالى افريقية عن عقيدتهم فتصدى لها أهل المغرب ولم تعرف شمالى افريقية الهدوء والسلام طيلة الأعوام التى سيطرت فيها بيزنطة (ويسجل ابن خلدون حالة البلاد فى ذلك العهد فيقول : ان الرؤساء والأمراء من أبناء البلاد كانوا هم الحكام الحقيقيين للبلاد وحماتها من بطش وعدوان الرومان والفرنجة والروم ••)

هكذا كان شمالى افريقية عند الفتح الاسلامى ، كان شعبا بعضه انحدر من شمالى الشرق العربى وبعضه وافد من جنوبيه وبعضه نزح من مصر ، شعب يتدين بآله واحد ويؤمن بالمساواة ، شعب شديد التمسك بحريته وباستقلاله •

ويقول المؤرخ بيكوت (V. Piquet) ان دخول أهل شمالى افريقية فى الاسلام بهذه الصورة المذهلة لم يكن أمرا مستغربا لأنهم كانوا مسيحيين بحكم الفتح وعندما استقلوا خرجوا على الكنيسة ونسوا مع الاستقلال الدين المسيحى واستقلوا بالاسلام مع الفتح العربى لما وجدوه فيه من وضوح وبساطة ..

وهكذا فتح العرب برقة والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى وفى هذا الأخير قامت الدولة الادريسية وأنشأ مؤسسها الأمير ادريس مدينة فاس فى عام ٨٠٨ م .

ولم تنج بلاد المغرب من الحروب الداخلية والفتن التى شتتت شمل العرب وقامت المنافسة العنيفة بين أمراء الفاطميين والأوروبيين فى شمالى افريقيا وأمراء بنى أمية فى الأندلس الى أن دالت دولة العرب بالأندلس وسقطت مصر فى يد الأتراك واتجه الزحف العثمانى الى ليبيا والمغرب الأوسط ،ولكنه توقف عند حدود المغرب الأقصى فلم يمتد الى هذه المنطقة سلطان الحكم العثمانى ، بل بقيت فى حكم الأشراف من سلالة (على)متمتعة باستقلالها .

وكانت تونس أبرز بلاد المغرب الأوسط وكان لها منذ أقدم العصور مكان ممتاز فى حضارة البحر الأبيض المتوسط وقد امتد نفوذها الى صقلية وسردينيا وجنوبى ايطاليا وكورسيكا والمغرب بأسره .. وأول حاكم مسلم لتونس كان عقبة بن نافع وهو الذى قام ببناء مدينة القيروان وجعل منها عاصمة للبلاد فى سنة ٦٧٠ م .

ولقد دام الصراع بين العرب وبيزنطة قرابة ثلاثين عاما حتى عهد عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان بقيادة الجيوش العربية فتمكن هذا القائد من القضاء على الروم وخلفائهم واستولى على قرطاجنة وشيد مدينة تونس عام ٨٨ هـ واعتنق البربر الاسلام .

وقد وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز جهده لنشر الاسلام بين عرب أفريقية فجعل القيروان مركزا من مراكز الاشعاع الاسلامى فى المغرب

وفي الصحراء الأفريقية وأنشأ جامع الزيتونة ونشر تعليم اللغة العربيـــة في سائر البـــلاد عن طريق ماكان معروفا (بالكتاتيب) وفي ظل الدولة الاسلامية تابعت تونس تطورها ونهضتها وتكونت شخصيتها وحضارتها ، فأنشئت معاهد لدراسة الطب والرياضيات وسائر العلوم ومنها نبغ فلاسفة وعلماء وفنانون وأدباء تفخر بهم العروبة والاسلام ويعتبر انتاجهـــم في مختلف الميادين الفنية والعلمية من أعظم مايعتز به العرب والمسلمون .. فمن تونس نبغ القاضي أسد بن الفرات والقاضي سمنون والطبيب أحمدبن الجزار .. وابن‌خلدون وابن عرفه وابن أشرف وابن داسق وكلها أسماء يعرفها الغرب ، ويشيد بذكراها .

وقد تعاقب على الحكم في تونس الاغالبة فالفاطميون وامتد سلطانهاالى جزر كريت وكورسيكا وسردينيا وفي عهد الدولة الصنهاجية نزحت اليها من صعيد مصر قبائل بني هلال وبني سليم ورباح وتعرضت تونس‌لغزوات النورمان ((Normands)) الذين انتزعوا جزيرةصقليةبعد أن سيطرت عليها تونس قرابة ثلاثة قرون .. ولم ينقـــذ تونس من غزوات الغرب الا عبد المؤمن بن على مؤسس الدولة الموحدية في المغرب‌الأقصى‌وقدحقق عبد المؤمن الوحدة بين بلاد المغرب والأندلس .

وفي عهد الدولة الحفصية التي خلفت الدولة الموحـــدية استطاع أبو زكريا مؤسس الدولة أن يحافظ على الوحدة بين طرابلس والجزائر ومراكش وكذلك نهج نهجه خليفته المستنصر .

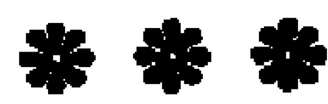
ويقول الكاردينـــال دي لافيجيري ((Lavigerie)) أكبر رائد للتبشير والاستعمار الفرنسي في افريقية ان المسلمين بعـد أن جعلوا من تونس قاعدة لعملياتهم استمروا في محاربة الغرب حتى شرع الملك لويس التاسع في سنة ١٢٧٠ م وسنة ٦٦٩ هـ في غزو تونس ويمضي الكردينال فيقول : « ان الملك لويس التاسع لقي منيتـــه على أبواب تونس وفشلت حملته فشلا كان في رأى الغرب كارثة ـ ويزعم الكردينال أن فرنســـا استمدت من هذه الكارثة ســـندا لها فيما زعمتـــه لنفسها من حقوق في تونس .

وقد أخذ الغرب من ذلك الحين يتطلع من جديد الى تونس ـ وكان تنافس أمراء بنى حفص وتكالبهم على الحكم والسلطان ، وكانت الخلافات الناشبة بين أمراء العرب كان ذلك كله من العوامل المشجعة للغرب فى مطامعه وتطلعه ، ولهذا فان الاسبان بعد أن تمكنوا من طرد العرب من الأندلس استطاعوا احتلال سواحل تونس .. ثم بدأ الأتراك ينافسون الاسبان من أجل السيطرة على البلاد ، فلجأ الامير الحسن الحفصى الى اسبانيا طالبا حمايتها الحكمه فى مدينة تونس غير أن الأتراك تمكنوا من غزوها وضمها للامبراطورية العثمانية عام ٩٨١ هـ .

غير أن الاحتلال العثمانى لتونس لم يطمس شخصية هذا البلد ، ولم يحل دون اقامة العلاقات المباشرة بينها وبين أوربا ، فعقدت تونس المعاهدات مع فرنسا ، واسبانيا والدانيمرك والولايات المتحدة الامريكية .

ومما ساعد حركة التطور فى تونس أن الروابط التى كانت تربطها بالدولة العثمانية لم تزد على كونها روابط روحية مستمدة من وحدة الدين وعاطفة الولاء لخليفة المسلمين ، أكثر من كونها مستمدة من السيادة العسكرية العثمانية وقوة الاحتلال ..

وعلى مر الزمن اندمج العنصر التركى فى العنصر العربى ، واستقر الحكم للعرب .



ولقد مضت تونس تتطلع الى المستقبل فى ثقة وتتصرف بجهودها الى تطوير شئونها وأنظمتها فى جو من السلم والتسامح والصداقة ازاء جميع الشعوب الغربية ولا سيما فرنسا وايطاليا ، وتمشيا مع سياسة الود نحو الغرب التى اتبعتها تونس ، امتنعت عن اعلان الحرب على فرنسا عندما شرع نابليون فى غزو مصر ومحاربة الباب العالى ، ولما تم لنابليون احتلال مصر وشرع فى غزو سورية ، رأت تونس اذ ذاك أن يكون موقفها من فرنسا غير متصف بالعداء السافر ، فاكتفت بقطع علاقتها السياسية بفرنسا .

وكان من شأن قطع العلاقات أن استغلت البلاد الايطالية ذلك الظرف

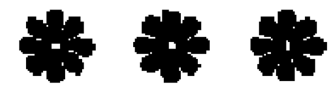
ونظمت عملية هجرة واسعة قام بها الايطاليـــون الى تونس • ثم تبعتهـم الارساليات التبشيرية التى مالبثت أن استوطنت أكثر مدن تونس وأقامت المدارس والكنائس وتغلغلت في جميـع الطبقـات ولم يكن من المنتظر أن تقف تونس من الغرب موقفا أكثر تسامحا من الموقف الذى وقفته ،ولكن موقف التسامح ذاته كان عنصرا أساسيا فى توجيـــه مطامع الغرب وعمـله على السيطرة على تونس وبسط نفوذه عليها وهى سياسة شرع الغرب فى تطبيقها فى البلاد العربية التى كانت خاضعة للبـــاب العالى وكانت تتمتع بالاستقلال الذاتى ولاسيما مصر وتونس •

لقد شرع الغرب في التمهيد لتدخله في تونس عنـــدما قررت دوله المجتمعة في مؤتمر اكس لاشبيل (Aix la Chapelle) فى عام ١٨١٨ م أن توجه انذارا نهائيا الى تونس تطالبها فيه بالكف عن حماية سفن القراصنة التى كانت ـ اذ ذاك ـ تهدد سفن الدول الغربية • وقد وقع الداى حسين معاهدة مع فرنسا فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٣٠ ، سلم فيها للفرنسيين بحرية التجارة داخل البلاد كما منح الفرنسيين الحق فى تعيين قناصل فى مختلف المدن ، وكذلك نزل عن مختلف الاتاوات والضرائب التى كانت تجبى من الأجانب •

ولقد كانت هذه المعاهدة مقدمة لانهيار الاقتصاد التونسى كما كانت بمثابة البداية لتسلل السيطرة الفرنسية فى شمالى أفريقية ، وأفرط الداى حسين في مجاملته لفرنسا الى حد ان كان موقفه منها فى أثناء غزوها للجزائر موقف المتفرج •• بل ان ايلى فيتودس ((Phitoudes)) قد سجل فى رسالته عن الدولة التونسية ، ان الداى (حسين) قد رحب بالتخلص من خطر الجزائر عليه ، بعد احتلال فرنسا لها وأكثر من هـذا غزوها ، فان الداى سلم لفرنسا بالحق فى متابعة مايجرى بالبلاد لتحمى غزوها ـ ولكى تحول دون تجمع العناصر المعادية لها ، وحتى لاتتمكن هـذه العناصر من اتخاذ تونس قاعدة لها •

وكانت الدول الغربية ولاسيما فرنسا وانكلترا وايطاليا متضامنة من

حيث المبدأ الذى كان يستهدف القضاء على كيان تونس والسيطرة عليها ، وبالرغم مما كان قائما بين هذه الدول من تنافس وصراع من حيث النتيجة النهائية والى من سيئول اليه من بينهم أمر تونس وينفرد بالاستيلاء عليها ـ فان الدول الغربية كانت مجمعة فيما بينها على تطبيق سياستها وأسلوبها لاضعاف تونس واستدراجها الى ذلك الطريق الذى ينتهى بها ـ حتما الى الخضوع للغرب •



طبق الغرب فى تونس الأساليب التى كان يطبقها فعلا فى مصر •• ففى الوقت الذى كان الغرب يدفع فيه الحكام للعمل على تنفيذ المشروعات الاصلاحية بالبلاد والقيام بحركة تعمير • بقصد تطوير البلاد بحيث تساير التقدم والنمو فى الغرب •

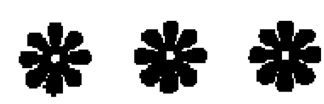
كان الغرب عن طريق عملائه يعمل على تحريض الشعب على المطالبة بالاصلاحات الدستورية ، فكان موقف الغرب ازاء الباى وازاء شعب تونس موقف من يتجه الى حق يراد به باطل ، لأن الغرب لم يكن يهدف فى الواقع الى الحركة الاصلاحية والتعميرية ، ولا الى منح الشعب حقوقه الدستورية ، وانما كان يهدف الى اشاعة الفوضى فى الوقت الذى كان عملاؤه يعملون من أجل عرقلة الاصلاح فى شتى صوره ، بل كان هدف هؤلاء العملاء وعلى رأسهم الوزراء والحكام ورجال الأعمال من يهود وأجانب ، والطبقة الاقطاعية من أبناء البلاد ، كانت جهود كل هؤلاء منصرفة الى دفع الباى الى تسخير موارد البلاد من أجل اشباع شهواته وتجاهل أية حركة اصلاحية أو تعميرية فى البلاد ، وكان الهدف الواضح من ذلك كله هو التمهيد للمأساة المالية التى كان من المحتم أن تتلوها المأساة العسكرية واحتلال البلاد ••

كان من أهداف السياسة الغربية حمل الباى على الاستدانة من الدول الغربية واستدراجه الى قبول الوصاية المالية الغربية التى ستنتهى حتما الى وصاية سياسية على حين كانت المساومات بين الدول الغربية حول مصير تونس النهائى والدولة الغربية التى تنفرد بالاستيلاء عليها •

ولقد عاون الغرب فى تنفيذ سياسته فى تونس الخازنهدار الذى تولى رياسة الوزارة فى تونس من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٣ ، ثم اليهودى « نسيم سمامة » الذى اشرف على ادارة شئون تونس المالية وكان فى ذات الوقت من رجال المال فى تلك البلاد ..

ولم يشذ عن خدمة الاستعمار الغربى ممن تولوا الحكم فى تونس فى القرن التاسع عشر حتى تم احتلالها الا قلة معدودة لم يتح لها البقاء فى الحكم طويلا ، ولقد جمع هؤلاء ثروات طائلة جزاء خدمتهم للاستعمار وعبثهم بمصالح بلادهم بحيث كانوا يدفعونها الى الفقر والافلاس .

ولقد حفلت الوثائق الرسـمية البريطانية فى المكاتبات التى كان يتبادلها القنصل العام البريطانى « رينشارد وود » «Richard Wood» مع وزارة خارجية بريطانيا بالادلة الدامغة على هذا العبث الذى كان يجرى فى تونس ، ومن بين الأمثلة ، على هدا العبث أن الخازنهدار واعوانه ولا سيما احد أبناء المشرق ويدعى « دهاك » «Dahak» دن موظفـا عاديا بالحكومة بأجر لا يتجاوز الثلاثين جنيها كل شهر . وقد تمكن من جمع ثروة بلغت ثلثمائة الف جنيه فى فترة محدودة من الزمن وهناك ايطالى يدعى ماربورجو (Morpurgo) تولى الوساطة فى قرض لتونس قيمته ٥ ملايين فرنك حصل منها لنفسه على ثلاثة ملايين من الفرنكات ..



على هذه الصورة كانت تحـكم تونس ، فبينما كان الداى وأعوانه وعملاؤه الذين كانوا يخدمون الغرب وينفذون خططه يعملون فى الوقت نفسه على اشباع شهوات الباى .. كانت أحوال تونس الاقتصادية فى تدهور مستمر فكان القحط قد أصاب أخصب مناطقها ، وهاجر أهلوها وتركوا الأرض تبور ، وتخلوا عنها تجنبا لدفع الضرائب الباهظة للباى وأعوانه برغم بوار الاراضى .. وتحولت الطبقـة الحاكمة واتباعها الى عصابات تفرض الاتاوات على التجار والعاملين فى البلاد .. ولم تكن تلك الصورة التى انتهت اليها حال تونس الا صورة من الخطة الغربية التى

كانت تستهدف اشاعة الفوضى والفساد لأثارة الشعب التونسى ضد حكامه ولقد ثار هذا الشعب فعلا ، وكانت هى الثورة التى يتحينها الغرب ليتقدم الى الباى بمطالبه السياسية ، تلك المطالب التى كانت فى ظاهرها اقــرار وتثبيت حقوق الشعب التونسى ..

* * *

وقد تزعم القنصل العام البريطانى هذه الحركة ، ورأى ان يسدى النصح للباى ويقدم له العون الغربى لتجنب انفجار الرأى العام التونسى والاطاحة بسلطان الباى .. وفى الوقت نفسه عمد الغرب الى تهديد الباى بمظاهرة بحرية فى مياه تونس وانتهى الأمر بالباى الى اعلان النظـام الدستورى فى تونس بموجب القوانين التى أصدرها فى ٩ من سبتمبر سنة ١٨٥٧ ... ولقد منحت هذه القوانين شعب تونس دستورا حد من سلطان الباى وحدد المسئولة الوزارية وسمى بعهد الأمان لأنه أمن أبناء تونس على أرواحهم وأموالهم وقرر مبدأ المسئولية الوزارية امام مجلس أعلى يكون بمثابة مجلس نيابى ، كما نص هذا الدستور على ضرورة موافقة المجلس على جميع المسائل التى تمس الأوضاع المقررة بهـــذه القوانين ... كان هذا هـــو ظاهر المزايا التى حققها شعب تونس من الوجهة الدستورية ولكن الوضع الحقيقى والأثر الحقيقى لهذه القوانين كان فى تنظيم وضع اليهود المقيمين فى تونس وكذلك وضع الأجانب فيها، فانه الى سبتمبر سنة ١٨٥٧ . لم يكن معترفا لليهود أو الاجانب بذات الحقوق التى لابناء البلاد .

وبموجب هذا الدستور رفعت جميع القيود التى كانت تحد من نشاط اليهود ومنحوا جميع المزايا التى مكنتهم فيما بعد من السيطرة عـلى شئون البلاد ، وقد شارك الاجانب اليهود فى هذه الحقوق ، فأصبح من حقهم مزاولة الاعمال الصناعية والمالية والتجارية كافة وتمـلك الارض فى سائر أنحاء الدولة .

لقد قيل للباى ولأبناء تونس عند اقرار هذه القوانين بأنها سترفع

تونس الى مستوى الدول الغربية المتحضرة على أن ما قيل لم يكن الا خداعا ، فان الغرب لم يكن يبغى من وراء هذه القـوانين سوى التمهيد للوجود « الغربى » القانونى والواقعى ، أملا فى أن يتدخل مستقبلا على أوسع صوره مستندا الى أسباب مشروعه .

وما أن طبقت هذه القوانين حتى شرعت الدول الغربية فى المطالبة لرعاياها بامتيازات اقتصادية ، وبدأت فرنسا بالحصول عـلى امتياز مـد الخطوط التلغرافية فى سائر انحاء تونس واستغلالها .

ولم يكن الغرب ليرضى بعد أن حصل على اقرار حق رعاياه فى التملك وممارسة النشاط التجارى والاقتصادى فى البلاد ، لم يـكن ليرضى ان تكون هناك مساواة بين رعاياه وبين ابناء البلاد ذاتهم ، بين التونسيين ... فتنكر الغرب لما جاء فى هذه القوانين من حيث اقرارها لمساواة الأجنبى فى الحقوق بابناء البلاد وخضوعه للقضـاء الوطنى ، وبادرت فرنسا بالمطالبة بالغاء الدسـتور ، كما تنكرت له ايطاليا ، وفى الوقت نفسه عمل الغرب على اثارة الشعب التونسى بجميع الوسائل ضـد نظام الحكم القائم ، وكان من شان هذا كله دفع البلاد الى هوية الفقر والافلاس تمهيدا لوقع المأساة المالية التى دأب الغرب على تدبير فصولها .



ان المأساة المالية التى وقعت فى تونس لا تختلف كثيرا عن المأساة المالية التى وقعت فى مصر ، لقد كان وزراء الباى شركاء فى تدبير تلك المأساة وكان على راسهم اليهودى « نسيم سمامة » المهيمن على شئون تونس المالية ، لقد كانت موارد تونس المالية محدودة ، فوجهها « نسيم سمامة » الى الاقتراض من الغرب ، وكانت بيوت « أوبنهايم ، وسايكس فينجايم زوأميل ايولانجير » تلك البيوت المالية التى كانت تعمل على تصيد الخديو اسماعيل هى ذات البيوت التى كانت ترقب تونس وتعمل على تصيدها وكانت تونس فريسة طيبة سهلة ، فعقد اليهودى « نسيم سمامة » قرضا مع تلك البيوت بلغت قيمته الاسمية ٣٥ مليون فرنك لم يصل تونس فعلا من

هذا القرض الا خمسة ملايين فرنك ، و٦٤٠ الف فرنك ... أما الفرق بين القيمتين ويبلغ تسعة وعشرين مليونا و ٣٦٠ ألف فرنك فقد دخل جيوب السماسرة والعملاء ، تماما كما وقع فى مصر ..

وهكذا كان الغرب يرضى الحكام والعملاء وفى الوقت نفسه يدفع ابناء الشعب على التذمر والعصيان والثورة .. أى أن الغرب كان يعمل على خلق حالة من الفوضى والاضطراب ليمهد لتدخله .. اذن الغرب يدرك أن الحكام واعوانهم لا مناص لهم من الاستزادة من الاقتراض من اجل وقف تيار التذمر ولمواجهة اعباء الدولة الضرورية ، وفعلا عادت تونس الى الاقتراض من جديد ، فعقدت مع البيوت المالية الفرنسية قرضا بلغت قيمته الاسمية ٢٠ مليونا من الفرنكات ، ذهب منه الى يد الحكام والاعوان والعملاء ١٧ مليون فرنك ونصف المليون ، ولم يدخل فى خزينة الدولة سوى مليونين ونصف المليون منها ... لكن هذه القروض لم تمنح لتونس دون ضمان ، فقد خصصت تونس بالوفاء بها حصيلة الجمارك ، ثم توالت فصول المأساة فعجزت تونس عن الوفاء بالفوائد ومن ثم عجزت عن اداء الأقساط وكان أبناء الغرب ممن يعملون فى تونس وأصابوا ثروة واسعة من خيراتها ، ومن استغلالهم لحالة الفوضى التى كانت تسودها يرقبون تدهور الحال ليقتسموا الغنيمة وليفيدوا من الظروف التى كانت تتعثر فيها البلاد ...فمدوا الحكومة التونسية بأموال بلغت قيمتها الاسمية ٤٠ مليون فرنك ، وبفائدة ١٢٪ سنويا ويعلم الله ما وصل من هذه الأموال فعلا الى خزانة الدولة ، وما بدده الحكام واستولوا عليه ..



وهكذا دفعت تونس الى الهاوية المالية ، وكان على الغرب أن يتحين الفرصة ليتدخل سياسيا بحجة حماية أرباب الديون من رعاياه ... الاسلوب الذى طبق فى مصر ... وتدخل الغرب للمطالبة بانشاء لجنة دولية للرقابة على شئون تونس المالية ... لجنة أجمعت فرنسا وايطاليا وبريطانيا على المطالبة بها . برغم ما كان بين هذه الدول من تنافس وسعى للانفراد بالسيطرة على تونس ..

أتفقت الدول الثلاث عن المطالبة بهذه اللجنة وعملت فرنسا فى الوقت الذى كانت تساير فيه بريطانيا وايطاليا ، عملت على اقناع الباى بأن تنفرد فرنسا بشئون الرقابة المالية على تونس •

ولقد احتجت بريطانيا وايطاليا على مسلك فرنسا وانتهى الأمر بانشاء اللجنة الدولية للرقابة المالية على شئون تونس وكانت تؤلف من فرنسا وايطاليا وبريطانيا ، وصدر بتشكيلها مرسوم من الباى فى يوليو سنة ١٨٦٩ وظلت تباشر نشاطها وان كانت فرنسا قد أساءها عدم انفرادها وحدها بالاشراف على شئون تونس بحكم جوارها للجزائر ولأن أغلبية حملة سندات القروض التونسية من الفرنسيين •

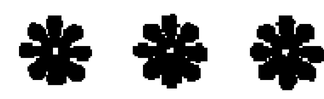
وكانت ايطاليا من جانبها غير مرتاحة لمحاولات فرنسا من أجل الاستئثار بشئون تونس اذ كانت ترى فى ذلك تمهيدا لاحتلالها لهذا البلد مستقبلا ••

أما أعضاء هذه اللجنة فكانوا يتلقون التوجيهات والاوامر من معتمدى الدول الغربية الثلاث وقد أمكن للدول الغربية أن توجه سياسة تونس عن طريق هذه اللجنة ، كما كانت هذه الدول تفعل فى مصر بوساطة المراقبين الماليين الفرنسى والبريطانى •

على أن هذه اللجنة الدولية فى تونس ، لم يكن يعنيها من أمور البلاد ، الا كل ما يتصل بحقوق الاجانب وكل ما يكفل لنفوذهم التغلغل فى البلاد والسيطرة عليها اقتصاديا ، وقد أصبحت فى عين أبناء تونس الرمز الحى على طغيان وسيطرة الغرب على مصير البلاد وتمكين سياسته الاستغلالية من مواردها على الصورة التى تؤدى الى افقار البلاد واضعافها بحيث تصبح غنيمة باردة يستولى عليها الغرب دون عناء •

وبينما كانت هذه السياسة الغربية تجرى فى تونس كان عملاء الغرب من الاجانب وعلى رأسهم المعتمدون السياسيون يعملون على أن يقروا فى روع الشعب التونسى ان الدول الغربية توليه عطفها ورعايتها وتعنى بمصلحته •

وقد بدت بوادر الصراع بين الدول الغربية الثلاث فى لجنة الرقابة المالية الدولية ، وخارج هذه اللجنة ... صراع بين ايطاليا التى كانت أكثر الدول الغربية نفوذا هناك بسبب كبر عدد جاليتها فى هذه البلاد .. مما دعا حكومة روما الى ترديد الحديث عن استعادة امجاد الرومان ، وعن احتلال قرطاجنة من جديد . بل ان الامر بلغ بعملاء ايطاليا أن اتخذوا لانفسهم فى تونس مظهر السادة .



وفى الوقت الذى كانت فرنسا وبريطانيا تتنافسان من أجل السيطرة على مصر كانت فرنسا تنافس كلا من ايطاليا وبريطانيا فى تونس .

وقد بدا من هذه المنافسات ، أن الدول الغربية الثلاث بعد أن كانت متفقة فيما بينها على مقدمات هذه السياسة ، عادت فاختلفت على النتائج .

اذ أخذت بريطانيا تعارض احتلال ايطاليا لتونس كما كانت تخشى ان يتاح ذلك الاحتلال لفرنسا ايضا .. كانت بريطانيا تحرص على ان تبقى الاوضاع القائمة فى تونس على ما هى عليه لا من أجل مصلحة التونسيين بل لان وضع تونس الجغرافى والاستراتيجى من شانه أن يجعل منها مفتاحا رئيسيا لحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ومن ثم تمكن الدولة التى تسيطر على تونس من تهديد طرق بريطانيا البحرية الى الهند ولهذا عينت المستر « ريتشارد وود » (Richard Wood) ذلك الرجل الذى دبر الثورة فى سوريا ولبنان فى سنة ١٨٤٠ قنصلا عاما لها فى تونس وقد ظل المستر « وود » فى منصبه هذا أكثر من ربع قرن ركز خلاله كل جهوده لاقناع التونسيين بأن بريطانيا لا تبغى احتلال تونس ، على العكس من فرنسا وايطاليا وبذلك استطاع أن يقنع الباى بأفضلية التعاون مع المؤسسات المالية البريطانية التى لا مطامع لها فى بلاده ، بدلا من المؤسسات المالية الايطالية والفرنسية التى تهدف الى احتلال بلاده ... ونتيجة لهذه السياسة عقدت بريطانيا فى سنة ١٨٧٥ معاهدة مع تونس كفلت حرية توظيف رءوس الأموال البريطانية فى تونس دون قيد أو شرط .

كذلك اتخـــذت بريطانيا لنفسها موقف الحامى لتونس من مطامع فرنسا وايطاليا ، فانذرت فرنسا بأنها اذا اقدمت على اى عدوان على تلك البلاد فانما تكون قد خلقت في الشرق بأكمله وضعا ينطوى على صعوبات وأخطار يحرص العالم الغربى على تجنبها •

وطبيعي أن موقف بريطانيا فى هذا الصدد لم يكن ليرضى فرنسا التى كانت ترى فى احتلال تونس امتدادا طبيعيا لسيطرتها على الجزائر ••• وقد كان لهزيمة فرنسا فى حربها مع المانيا سنة ١٨٧٠ ما قد يبعث على الاعتقاد فى أن مطامع فرنسا فى تونس قد تلاشت أو أن تنفيذها ـ على الأقل ـ قد أرجىء الى امد بعيد ، ولكن الأمر لم يكن كذلك لان ما بذلته فرنسا من جهود عن طريق البعثات التبشـــيرية والتعليمية التى كانت قد انتشرت فى أنحاء تونس وذلك النفوذ الذى حصل عليه أبناء فرنسا فى تونس من التجار وارباب المال كل ذلك قد مكن لفرنسا من أن تستعيد مكانتها فى تونس فى فترة وجيزة •

وقد بعثت الى تونس بأحد أبنائها الاكفاء من رجال السلك السياسى، وكان يدعى « روستان » ليعمل على تثبيت النفوذ الفرنسى واستعادة مكانة فرنسا بالرغم مما صادفته فرنسا من المتاعب فى سبيل قمع الثورة الجزائرية سنة ١٨٧١ •

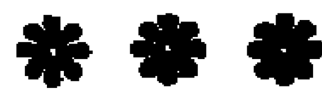
أما ايطاليا فقد رأت أن يتم توزيع البلاد العربية فى شمال افريقية بين فرنسا واسبانيا وايطاليا ، فتختص أسبانيا بمـــراكش وتــكتفى فرنسا بالجزائر وتحتل ايطاليا تونس ، لانه كان فى رأى ايطاليا ان احتلال اية دولة غربية لتونس يهدد الاراضى الايطالية تهديدا مباشرا اذ لم تكن تلك الاراضى تبعد عن تونس لأكثر من بضع مئات من الأميال ••

وقد تطورت الامور وأصبحت فرنسا ترى ألا يتعرض مؤتمر برلين حينما انعقد فى سنة ١٨٧٨ الى قضايا سوريا وفلسطين ومصر وتونس ، الا أن نجـــاح بريطانيا فى انتزاع قبرص من تركيـــا بحجة الدفاع عن الامبراطورية العثمانية والمحافظة على سلامة اراضيها من مطامع روســـيا

أثار ثائرة الدول العظمى الأوروبية ولا سيما أن هذا المؤتمر كان اذ ذاك منعقدا ... وقد رأى المؤتمر في تصرف بريطانيا مخالفة صريحة لميثاق النزاهة المبرم بينها بالنسبة لمصير الدولة العثمانية كما اعتبر سلوك بريطانيا تناقضا واضحا لما زعمته في كل مناسبة من نفور واضح واحتجاج منها على المعاهدات المنفردة التي كانت الدول الاوروبية تحول عقدها مع الباب العالى من وراء ظهر المجتمع الاوروبى ولكن بريطانيا كانت في هذه الخطوة قد اعدت عدتها لمواجهه سخط دول اوروبا على تصرفها هذا ـ فعندما أعلن المسيو وادنجتون (Waddington) الى لورد سالسبورى (Salisbury) في مؤتمر برلين بان اتفاقية قبرص تعين على فرنسا الانسحاب من المؤتمر أبدى لورد سالسبورى ، وبسمارك (Bismarck) استعدادهما وباسم حكومتيها ، لأن يقبلا ان تطلق فرنسا يدها في تونس وتعهدا في الوقت نفسه بعدم ادخال أى تعديل في بلاد الشرق دون مشورة الحكومة الفرنسية وان في استطاعة فرنسا ان تفعل ما تشاء في تونس واضافا القول بأنه من غير المعقول ان تترك قرطاجنة في أيدى البرابرة .

وكما كان لبريطانيا مصلحة تعين عليها التخلص من اعتراض فرنسا لاحتلال القوات البريطانية لقبرص ، فانه كان لالمانيا أيضا مصلحة واضحة في ارضاء فرنسا بعد أن منيت فرنسا بهزيمة سنة ١٨٧٠ واقتطعت منها المانيا الالزاس واللورين ، وفي هذا السبيل كانت الضحية تونس ، كانت سلعة الترضية وكانت التعويض لفرنسا عما لحقها من ضرر على يد المانيا ، ثم عما فوتتها عليها بريطانيا من فرصة التوسع .

ومن ثم فقد شرعت فرنسا في التمهيد لاحتلال تونس ، وكان « روستان » القنصل العام الفرنسي هو الذى تولى هذا التمهيد ، فبدأ ببحث امكانيات احتلال دولته لتونس ومدى استجابة الباى لفرض الحماية الفرنسية على بلاده ، وراح يدرس ما يقضى هذا الاحتلال باعداده من الجنود وذلك كله بتكليف من الحكومة الفرنسية .



واذا كان قد تم وضع حد للمنافسة بين بريطانيا وفرنسا على احتلال

تونس ، فقبلت بريطانيا ان تنفرد فرنسا بذلك ، فأن الأمر بالنسبة لايطاليا لم يكن على هذه الصورة فانحصرت هذه المنافسة بين فرنسا وايطاليا ، وقد امتد هذا الصراع بين الدولتين وازداد عنفا ووقع بسببه أكثر من تصادم بين البلدين ، ولما كانت فرنسا تدرك مدى المتاعب التى ستصادفها بسبب المنافسة الايطالية فانها عملت على أن تكسب بريطانيا فى صفها ، وذلك بأن تسخرها للسعى فى حمل تركيا على التنازل عن ليبيا لايطاليا تعويضا لها وكيما يعرفها ذلك عن منافستها لها فى تونس .. ولكن بريطانيا لم تستجب الى رغبة فرنسا فى هذا الشأن ، مما حمل فرنسا على رسم خطة جديدة بالنسبة لهذا الموقف فأخذت تحاول التهدئة من مخاوف ايطاليا ، وأكدت لها أنها لن تتجه الى احتلال تونس قبل أن تشاور ايطاليا ، وفى الوقت نفسه أشعرت ايطاليا بأن اقدامها على احتلال تونس من شأنه أن يثير بينها وبين فرنسا نزاعا مسلحا .

ومع كل هذا فقد أبدت فرنسا استعدادها للدخول مع ايطاليا فى مساومة لتعويضها عن غزو تونس ... وقد كانت السلعة فى هذه المساومة ... البانيا ، أو ليبيا وكان بسمارك من مؤيدى منح ايطاليا ليبيا ، كما اعترض على استيلاء أية دولة أوروبية على البانيا .

وقد واجهت ايطاليا الموقف باثارة الوضع المتعلق بمزاعمها الاقليمية فى الحدود بينها وبين فرنسا من جهة وباثارة الوضع القائم فى مصر وبالمطالبة لنفسها بالمشاركة فى اعمال الرقابة الثنائية ومساواتها بما لفرنسا وبريطانيا من حقوق وامتيازات فى مصر ، وفى الوقت نفسه أخذت تسعى لكسب عون بريطانيا لها ضد فرنسا ، كذلك أعلنت الحكومة الايطالية رفضها أى ادعاء من جانب فرنسا يرمى الى منحها امتياز سياسى لها فى تونس .

وقد قابلت فرنسا ذلك الاتجاه فى سياسة ايطاليا باعلان لاتجاه سياستها ـ أكدت فيه من جانبها انها ترفض اى نفوذ أجنبى يعترض الاوضاع القائمة فى تونس ، اذ أنها تعتبر تونس امتدادا طبيعيا للجزائر ، وان اى نفوذ أجنبى غير فرنسى ، من شأنه ان يحد من حرية فرنسا فى العمل ، لا فى الجزائر فحسب بل فى شمال افريقية باسرها » ومن اجل

هنا فإن فرنسا حريصة على ان يظل باى تونس « ملتزما سياسة موالية لفرنسا .. »

هكذا كان الموقف فى نهاية عام ١٨٧٨ ، وكان واضحا أن الصراع السياسى بين فرنسا وايطاليا لابد أن ينتهى الى تصادم بين الدولتين .

وقد بدت حدة التنافس بين فرنسا وايطاليا فى محاولة كل منهما الحصول على امتياز لمد خطوط السكك الحديدية والامتيازات الاخرى فى مجال الاستغلال الزراعى وانتهى التنافس على الخطوط الحديدية بفوز مؤسسة ايطالية بهذا الامتياز الذى كان فى رأى ايطاليا نصرا سياسيا وكسبا وطنيا .. مما حمل المسيو « دى فريسينيه » رئيس وزراء فرنسا اذ ذاك على أن يدلى بتصريح قال فيه :

« ان فرنسا ترتضى قيام التنافس بين الفرنسيين والايطاليين كافراد ولكنها لاترتضى بحال ما أن تنافس الحكومة الايطالية والحكومة الفرنسية فى تونس » ..

وبعد ان انتهى الامر بين الدولتين فى صراعهما الى هذا الحد اتجهت سياستهما الى العمل على تخفيف حدة الصراع بينهما وظل حالهما على هذه الصورة حتى سنة ١٨٨١ ، وفى الوقت نفسه كانت الجالية الايطالية فى تونس تعمل على تثبيت مكاسبها وتعزيز مكانتها انتظارا لليوم الذى يتم فيه لايطاليا السيطرة على تونس ، ولم يفت ايطاليا ان تساير السياسة البريطانية لتتخذ منها حليفة لها ضد فرنسا ، كما كان طبيعيا ، أن تتجه فرنسا الى ألمانيا عدوتها بالأمس ، لتستمد منها العون ضد ايطاليا ، وبريطانيا .

وفى هذا الشأن كتب المسيو شالميل لاكور ,qC,allemel Lacour" سفير فرنسا فى لندن يقول :

ان الحكومة الانكليزية هى خصمنا فى تونس سواء أكان ذلك مجاملة منها لايطاليا التى سلكت بالنسبة لبريطانيا مسلك الخضوع والتملق والخنوع . أم كان لطبيعة موقف بريطانيا العدائى منا بسبب حقدها وغيرتها من فرنسا . وهذه حقيقة لاتغيب الا عمن حرم نعمة البصر .!

ولقد أصبحت مشكلة تونس بالنسبة لفرنسا مشكلة متصلة بالكرامة الوطنية وبالنفوذ السياسى ، وبالكيان والوجود الاستعمارى فى سائر انحاء العالم ، مما رأت فرنسا معه أن لابد لها من أن تعمل من أجل حماية

مصالحها .. لابد أن تعمل للقضاء على محاولات ايطاليا ومساعيها في تونس ، على وجه السرعة حتى لا تعرض مستقبل الجزائر للخطر ..

وقد مضى ساسة فرنسا يعلنون ان في الامتناع عن الاستيلاء على تونس بالرغم من معارضة ايطاليا تعريض لمكانة فرنسا كلها للخطر ، بل ان ذلك يمكن ايطاليا من احتلال مكانة فرنسا والاستيلاء على امبراطورية فرنسا الافريقية وهي نتيجة تؤيدها بريطانيا وتعطف عليها ..

ومن ثم فقد أصبح متعينا على فرنسا أن تبادر الى غزو تونس مستندة في ذلك الى ما يدبره لهذا ساستها وقادتها من خطط ومسوغات تواجه بها الرأى العام العالمي .

ومن أجل هذا ، فقد رأت وزارة جول فيرى (Jules Ferry) ضرورة التعجيل باحتلال تونس ، وكان لابد لفرنسا لتغطية حملة الغزو أن تزعم بأن ما ستقدم عليه من اعمال حربية لا يعدو أن يكون مجرد اجراء بوليسي لحماية حدود الجزائر وفي ٤ من أبريل سنة ١٨٨١ أقر البرلمان الفرنسي اعتمادا قدره خمسة ملايين ونصف المليون من الفرنكات لتمويل حملة الغزو التي أطلقت عليها فرنسا اذ ذاك « الحملة البوليسية على الحدود الجزائرية التونسية » .

وفي ٢٤ من أبريل سنة ١٨٨١ شرعت قوات فرنسية في اجتياز حدود تونس واستمرت في زحفها الى أن بلغت « الباردو » حيث كان يقيم باى تونس ، وفي الوقت نفسه أنزل الاسطول الفرنسي ثمانية آلاف من رجاله في بنزرت ، وفي ١٢ من مايو سنة ١٨٨١ توجه قنصل فرنسا في الساعة الرابعة بعد الظهر بصحبة الجنرال برارت (Breart) قائد الحملة الى قصر الباى ، وقدم الجنرال الى الباى معاهدة تم اعدادها في باريس وترك للباى مهلة قدرها ٢٤ ساعة لكي يوقع المعاهدة ولكن الفزع استولى على الباى ، فوقع هذه المعاهدة بعد مضى ساعتين لا ٢٤ ساعة وقد عرفت هذه المعاهدة (بمعاهدة الباردو) .

وجاء في نصوص هذه المعاهدة ، أنه قد تم توقيعها بين دولتين

تحرصان على تثبيت وتوثيق العلاقات القائمة بينهما على الصداقة وحسن الجوار ، وأنه بمقتضاها قبل الباى أن تقوم السلطات العسكرية الفرنسية باحتلال جميع المواقع التى تراها ضرورية لاعادة النظام والأمن على طول الحدود بين تونس والجزائر وساحل تونس ، كما نصت المعاهدة على انتهاء هذا الاحتلال عندما تتفق السلطات العسكرية والفرنسية والتونسية على أنه فى وسع الادارة المحلية كفالة النظام والأمن وتصدرت نصوص المعاهدة الى تنظيم شئون الحكم فى تونس ، فنصت على أن يمثل فرنسا لدى حكومة الباى مقيم عام يكون مسئولا عن تنفيذ المعاهدة كما يكون الوسيط بين الحكومة الفرنسية والسلطات التونسية فى جميع الشئون المشتركة بين الدولتين ، ونصت على أن تتولى فرنسا حماية المصالح التونسية خارج البلاد ، وفى الوقت نفسه قضت بحرمان تونس من حقها فى عقد المعاهدات أو الاتصال بسائر الدول الاجنبية قبل حصولها على موافقة سابقة من الحكومة الفرنسية .

ولقد أوضح جول فيرى (Jules Ferry) موقف فرنسا من تونس اذ قال :

« أن فرنسا فى حاجة الى ضمانات دائمة ثابتة لكفالة أمنها ، وسنطلب هذه الضمانات من باى تونس . اننا لا نرمى الى الاستيلاء على أراضيه أو المساس بعرشه كما أنه ليس فى نية فرنسا أى اتجاه لضم بلاده أو غزوها ولكن على حكومة الباى أن تتركنا نستولى على أراضيه وان نقيم عليها الوسائل الضرورية لحمايتنا » .

* * *

وهكذا فى الوقت الذى تدعى فيه فرنسا عزوفها عن الغزو والسيطرة تطلب الى باى تونس أن يخلى بينها وبين أراضيه لتستولى عليها .

وكان من شأن هذه المعاهدة .. ومن شأن ما اتخذته فرنسا فى البلاد التونسية ان جعلت من المقيم العام الفرنسى السلطة الفعلية الوحيدة فى تونس ، لانه كان بحكم وظيفته رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية ووزيرا للخارجية ، ولم تكتف فرنسا بهذا ، بل عمدت الى وضع ابنائها

رؤساء للمصالح كافة وتغلغلت يدها فى سائر فروع الادارة والنشـــاط الاقتصادى ، ولم تترك للتونسيين مكانا فيها ..

رأى الباب العالى وهو صاحب السيادة أن يحتج على احتلال فرنسا لتونس فوجه هذا الاحتجاج الى الدول التى وقعت معاهدة برلين على أساس أن ماتم من غزو من جانب الفرنسيين يمس وحـــدة كيان الامبراطورية العثمانية وكان من الطبيعى أن يهمل هذا الاحتجاج لان الدول التى وجه اليها هى الدول التى أباحت لفرنسا الحق فى احتلال تونس .. وعلى هذا فلم يكن أمام الباب العالى سوى الخضوع للأمر الواقع ولكنه رفض أن يعترف رسميا بفرض الحماية الفرنسية على تونس .

لقد شرعت فرنسا فى المرحلة الأولى من مراحل الاحتـلال التى امتدتفيما بين عام ١٨٨١ فى تطبيق سياستها بحذر وبحرص لأنها كانت تسعى الى تدعيم مركزها السياسى والحربى لكى تؤمن ســيطرتها على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى .. شرعت فرنسا فى القضاء عـلى كل مقاومة من جانب العناصر التونسية الوطنية داخل البلاد فاستولت على صفاقس ورأت أن تعجل باستعمار البلاد دون أن تعرض نفسها فى الوقت نفسه لمخاطر جدية ، ولما اطمأنت لنجاح سياستها فرضت عـلى باى تونس معاهدة جديدة عقدت فى سنة ١٨٨٣ عرفت بمعاهدة « المرسى » ، وقدتم لفرنسا عقدها بعد أن تم لبريطانيا احتلال مصر .. وأقدمت فرنســا على فرض هذه المعاهدة ، وهى اذ ذاك مطمئنة أنها لن تلقى أية معارضــة من جانب بريطانيا ، ولهذا فقد تضمن نص تلك المعاهدة تسليم تونس تسليما كاملا بسيطرة فرنسا عليها وقبولها وصايتها وتنازلها عمـا كانت تتمتـع به اسميا من استقلال ذاتى فى ادارة شئونها الداخلية ..

وشرعت فرنسا فى تطبيق الأساليب والوسائل التى لجأت اليهابريطانيا فى معاملة مصر .. تذرعت كلتـــا الدولتين بالحجج لمواجهـــة معارضى سياستهما سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها ، وهكذا أصبح ممثلالدولة الغربية فى الدولة التى احتلتها صاحب السلطان الفعلى ولكن دول الغرب

درجت على الزعم بأن هذه السلطة لايمارسها ممثلوهم الا فى نطاق الحكمة والرعاية التامة لمصالح الشعب ولاتمـــم أوجه الاصـــلاح الادارى والمالى والقضائى الذى لا يمكن أن يقوم حكم صالح بدونها ••أما هذا الحكم الصالح الذى كانت تسعى اليه فرنسا فى تونس فكان تطبيقه الواقعى ايجـاز حظر كامل شامل على التونسيين ، حظر لايمكنهـم من الوصـــول الى مراكز المسئولية الادارية لتصريف شئون بلادهم ••

وهكذا تنكرت فرنسا لأبسط المبادىء التى ضمنتها المعــاهدات التى وقعتها مع تونس ذاتها وتنكرت فرنسا لأبسط المبادىء الأولية فى القانون الدولى العام بالنسبة لحقوق الدول فى علاقتها ببعضها ••

❋ ❋ ❋

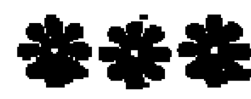
لم تكن هذه الا بداية المأساة التى أصبح لزاما على الشعب التونسى أن يعيشها طوال احتلال فرنسا لبلاده •• كان على الشعب التونسى أن يقاوم فرنسا بالكفاح والجهاد لم يعتره اليأس ، بل ظل فى كفاحه دون أن يفقـد الأمل لأنه كان يعرف أنه ليس وحيدا فى محنته وان له أشقاء فى الجزائر يتحملون ذات الآلام ، ولكن ايمانهم العميق فى أن نسمات الحرية ستهب عليهم يوما وستتحول الى عاصفة تجتاح القوى الاســـتعمارية وتحطمها ، وانتظارا لذلك اليوم ظلت تونس تقاوم وتكافح ••

❋ ❋ ❋

والآن وقد تصدينا للسياسة الفرنسية فى تونس واحتلال فرنسا لها، وفصلنا ذلك كله فقد بقى أن نعالج سياسة بريطانيا وأساليبها حيال جلائها عن مصر ، وذلك باعتبار أن سياسة الدولتين فى هذا الشأن كانت جزءا من الخطة المرسومة لسياسة الغرب فى أفريقيا عامة ، وفى افريقية العربيــة والاسلامية بصفة خاصة •

الفصل الثاني عشر
بريطانيا والجلاء عن مصر

«بريطانيا تعلن وتكرر عزمها على الجلاء عن وادى النيـــل ـ جلادستون يعلن بانه»
«سيحرص جيدا على الا يصطبغ احتلال بريطانيا لمصر بصبغة الدوام على الرغم منهــــا»
«ويقول لا نستطيع أن نحدد أجلا .. ـ بريطانيا تزعم ان لها بمصر رسالة جديدة فى اعادة»
«النظام وحماية الخديو من عدوان رعاياه وحماية الشعب من استبداد الخديو ومن عبث»
«الطبقة الحاكمة وحماية الفلاح من المرابين الاجانب والشارقة وحماية الاوروبيين والمشارقة»
«من التعصب الاسلامى وانقاذ الادارة المصرية من الافاقين الاجانب ثم اعداد البـــلاد»
«للحكم الذاتى والتدرج نحو الاستقلال ـ بريطانيا تحمل مصر اربعة ملايين وربع المليون»
«من الجنيهات تعويضات لضحايا ضرب ميناء الاسكندرية ـ الاحتلال يكبد مصر خمســة»
«ملايين جنيه ـ تصريح جرانفيل فى ١٦ من يونيو ١٨٨٤ ـ الشروع البريطانى لاعلان حياد»
«مصر وحرية المرور فى قناة السويس ـ بريطانيا تستغل اول خلاف يقع بين الـــدول»
«الاوروبية للتحلل من مختلف تعهداتها المتعلقة بالجلاء ـ تحويل نظر الدول عن الجلاء عن»
«مصر وتوجيه العالم الى متاعب مصر المالية ـ مؤتمر لندن عام ١٨٨٤ ـ موقف الدول»
«من اتفاقية ٥ من مارس عام ١٨٨٥ ـ اثارة حرية المرور فى قناة السويس ـ مفاوضــات»
«درمند ولف فى عام ١٨٨٥ ـ دى فريسنيه يعود للحكم فى فرنسا ويؤيد الباب العــالى»
«مذكرة مختار باشا المندوب السامى العثمانى الى السير درمند وولف ـ رد الســـير»
«درمند وولف ـ بريطانيا تطلب اعتبار وادى حلفا حدا فاصلا بين مصر والســودان ـ»
«درمند وولف يعرض على الباب العالى اتفاقية جديدة تعترف بتحييد مصر وبقاء جيش»
«الاحتلال البريطانى بها ـ ثورة الرأى العام التركى والدول الاوروبية على الاتفاقية تجبر»
«السلطان على رفض التصديق عليها ـ بريطانيا تعود وتنفى كون احتلالها لمصر احتــلالا»
«غير محدود وتمضى فى تبديد مخاوف اوروبا ومخاوف المصريين ولكنها تستبعد مناقشــة»
«موضوع الاحتلال حتى اعلان الحماية على مصر ـ لورد كرومر يصرح بأن الجلاء يعرض»
«مصر لاخطار جدية ويعمل على ربط مختلف الطبقات الحاكمة بمصالح بريطانيا» سكاون»
«بلنت يحذر المصريين اخيرا من خطر السياسية البريطانية ومن اهدافها ولكن بعد فوات»
«الاوان ـ بريطانيا تعمل على اضعاف مصر اقتصاديا ـ الاستقلال والحرية من الخصائص»
«التى وهبهــا الله للشـــعوب اذ ولدوا احرارا وخلقــوا ليعيشــوا أحرارا ـ المصريين»
«لايستسلمون لقائد غاصب» .



منذ أن احتلت بريطانيا مصر لم تكف عن اعلان عزمها على الجلاء عن وادى النيل فى أقرب أجل ممكن وقد صرح المستر (غلادستون) (Gladstone) فى مجلس العموم بأن الجنود البريطانيين لن يبقــوا فى وادى النيل يوما واحدا أكثر مما تقتضيه الضرورة وفى ١٨ من أغسطس سنة ١٨٨٣

صرح قائلا : « بأننا لم نذهب الى مصر لأغراض شخصية وان رغبتنا الوحيدة هي تعجيل الاصلاح في مصر وحتى اذا ماتم لها ذلك الاصلاح رحلنا ! »

وفي ٩ من أغسطس سنة ١٨٨٣ ألقى المستر جلادستون رئيس الوزراء البريطاني في مجلس العموم خطابا جاء فيه مايلي : ـ

« يوجد لدى جانب من الرأى العام شك فيما يتعلق بنية البعض التي تتجه الى جعل احتلال مصر احتلالا دائما وادماجها في الامبراطورية، وأننا لنعترض كل الاعتراض على مثل هذا الزعم ، ولن نعمل مطلقا على تحقيقه .. اننا نعارض نظرية الضم ونعارض كل مايشبه الضم من قريب أو بعيد .. اننا نعارض كل أسلوب يكون من شأنه أن تنبت في الأذهان مثل هذه الآمال كما نعترض على مثل هذه الآراء باسم مصالح بريطانيا وباسم واجبنا نحو مصر ، وباسم التعهدات الدقيقة والعلنية التي صدرت منا في أدق الظروف والتي كان من شأنها كسب ثقة الرأى العام في أوروبا ، وذلك خلال أو طوال المفاوضات الدقيقة الصعبة التي جرت حول مصر والتي من شأنها أن تجعل كلمتنا أكثر تقديسا وأستطيع أن أقول انه كان من شأنها أن أضفت على مختلف تصريحاتنا قدسية فوق قدسية .. اننا نشعر جيدا كذلك بأن احتلالنا الطويل الذي يجاوز الحدود ينتهي بالأمر الى الضم ، ولذلك سنهدف الى الحرص جيدا على ألا يصطبغ احتلالنا لمصر بصبغة الدوام على الرغم منا »

وبعد هذه المقدمة ، قال المستر جلادستون : «

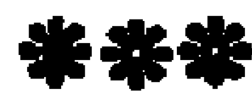
« ومع هذا فنحن لانستطيع تحديد اجل معين ... كما لا نستطيع التعهد بتحديد مثل هذا الاجل مستقبلا .. ولكننا لن نبخل ولن نتخلى عن اى اجراء يكون من شأنه التعجيل بسحب قواتنا بصفة نهائية من مصر بأسرع ما يمكن ، ولكن هذا الانسحاب سيكون مقرونا بذات الشروط التي عددها لورد جرانفيل (Granville) اى اعادة استتباب النظام ، واعادة تنظيم ووضع الانظمة التي تكفل الابقاء على سلطة الخديو ..

لقد اعترض سير نورث كوت (North Cott) علينا وتحدث كما لو كان في عزمنا البقاء في مصر حتى يتم لنا وضع انظمة تشرف

قية دولة من نسج الخيال ، ولكن هذا ليس قصدنا ، ولاستعمال تعبير خارج نقول باننا نريد أن ندفع مصر الى الطريق المستقيم ، واننا نجحنا في اقرار النظام فيها، وفي بناء قوة مدنية وعسكرية قادرة على المحافظة على مابنيناه وذلك بوجود رجل على عرش مصر نثق في عدالتـه وفي عواطفه الانسانية ووجود ادارة تحسن تطبيق العدالة بوضعها في أيد مختصة وتحت اشراف مستنير، وبالجملة اذا تحقق قيام بداية معقولة لانظمة دستورية تتضمن — على الاقل — بذورا تبشر بالحرية.. عندئذ سوف نعتبر انفسنا اننا ادينا واجبنا في مصر .... »



وهكذا بدأت معالم السياسة البريطانية في مصر تتضح أكثر فأكثر .. عادوا ليثبتوا سلطة الخديو ، ثم زعموا لأنفسهم رسالة جديدة هي اعادة النظام ، وما من شأنه حماية سلطة الخديو ، من عدوان رعاياه ثم حمـاية المصريين أي حماية الشعب المصري من استبداد الخديو ومن عبث الطبقـة الحاكمة — حماية الفلاح المصري من استغلال كبار الملاك حماية الفـــلاح المصري من المرابين الأجانب والمشارقة وحماية الأوروبيين والمشـــارقة من التعصب الاسلامي .. حماية الادارة المصرية بأسرها من الأفاقين الأجانب والمستغلين الذين يسعون للحصول على المزايا والامتيازات بجميع الوسائل والسبل ، وبشكل عام ، فان مهمة بريطانيا تطورت وأصبح القصـــد من الاحتلال هو اعداد البلاد للحكم الذاتي والتدرج به نحو الاستقلال ..



ستجاهر بريطانيا بهذه الرسالة رسالة الحضارة التي تزعمها لنفسها في مصر ستواجه بها سائر الدول الأوروبية ، ستستعين بها لتهدئة مخاوف الدول العظمى ، ستواجه بها الباب العالي ، وستنتهز جميع الظروف والمناسـبات لتثبت للجميع — على الأقل من حيث الشكل — أنه مازال لهم صـــوت في الموضوع وبأن مالهم من حقوق ومصالح مصـــون ومعترف به من جانب بريطانيا ..

ستبادر بريطانيا في سنة ١٨٨٤ وتعلن اكتشافها فجأة أن مواردمصر

المالية فى حالة خطر وأن ماليتها مهددة بالافلاس نظرا لما قضى به من الزام مصر بدفع أربعة ملايين و ٢٥٠ ألف جنيه ذهبا كتعويضات لضحايا ضرب ميناء الاسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى ، بالاضافة الى النفقات التى تحملتها مصر فى حملة السودان وبلغت وقتئذ مليونا ونصف المليون تقريبا من الجنيهات الذهبية ، ثم يضاف الى ذلك كله العجز الذى كان نتيجة للنفقات الاستثنائية التىأنفقتهاالخزانةالمصريةخلال حركة المقاومة وماأعقبها بعد الاحتلال من سيطرة البريطانيين على موارد مصر المالية .. كان على مصر أن تدبر عندئذ مايقرب من تسعة ملايين من الجنيهات الذهبيةلتصفية ماعليها من التزامات عاجلة .. فرأت بريطانيا - أن توجه الدعوة لسائر الدول لمؤتمر يعقد لدراسة أحوال مصر المالية ، وكانت هذه مناسبةتتحينها فرنسا لاكراه بريطانيا على تحديد الطابع القانونى لوجودها فى مصر .

وقد رأى لورد جرانفيل ((Granville)) أن يواجه المحاولة الفرنسية بتصريح أدلى به فى ١٦ من يونية سنة ١٨٨٤ جاء فيه مايلى :-

« توجد بعض المصاعب من حيث تحديد تاريخ معين للجلاء عن مصر ، فضلا عما سوف يترتب على ذلك من تحديد تاريخ مقدما من ان يتبين عند التطبيق اما ان يكون هذا التاريخ أبعد مما يجب أو أقرب لما سنتخذه من اجراءات تكفل لمصر فى المستقبل حكما صالحا جديدا».

ثم مضى لورد جرانفيل يقول : « الا أن حكومة صاحبة الجلالة الملكة ، رغبة منها فى استبعاد كل شك - يجرح سياستها فى هذا الشان وبالاحالة الى التصريحات التى صدرت من فرنسا ، فانها تعلن تعهدها بالجلاء عن مصر فى بداية عام ١٨٨٨ ، بشرط أن تجمع الدول بانه لن يترتب على هذا الجلاء أى اخلال بالأمن والسلام فى مصر » .

ومضى « جرانفيل » يقول فى تصريحه ان الحكومة البريطانية على استعداد بأن تعرض على الدول اقتراحا يتضمن مد وظائف صندوق الدين العمومى فى السنة التالية لتعديل قانون التصفية ومن شأن هذا التعديل وجوب استشارة صندوق الدين ومنحه حق الاعتراض على النفقات التى يترتب عليها زيادة الميزانية عن الحد المقرر فيما عدا الحالات الاستثنائية التى تكون خطرا على السلام والأمن والتى تعتبر من حالات القوة القاهرة

كما تتعهد الحكومة البريطانية بأن تعرض على الدول الغربية وعلى الباب العالى فى نهاية مدة الاحتلال او قبل نهاية هذه المدة مشروعا « بتحييد مصر طبقا للمبادىء المعمول بها فى بلجيكا ، كما انها ستتقدم باقتراحات فيما يتعلق بقناة السويس مطابقة للمبادىء التى اعلنتها فى مذكرتها الصادرة فى ٣ من يناير سنة ١٨٨٣ والقصد من هذه الاقتراحات ضمان حرية المرور فى قناة السويس ودعم حيادها دائما وفى الظروف والاحوال كافة .

وقد رأى مسيو « وادنجتون » ((Waddington)) وزير خارجية فرنسا أن يسجل على بريطانيا تصريحات لورد جرانفيل ، فبعث برسالة فى ١٧ من يونيو يقول فيها .

« ان الحكومة الفرنسية تلقت — بكل سرور — اعلان بريطانيا لمشروعى « حياد مصر وحرية المرور فى قناة السويس » وهى تسجل هذا عليها » .

وانى أقرر باسم الجمهورية الفرنسية قبول مختلف المقترحات التى تضمنتها مذكرة الحكومة البريطانية فى ١٦ من الجارى والمتضمنة المبادىء التى تم عليها الاتفاق بيننا ، وختاما يسرنى أن أتبين روح الاعتدال والعواطف الودية التى سادت مفاوضاتنا ، كما وأن حكومة الجمهورية الفرنسية ، لعلى يقين من أن الاتفاق الذى تم نتيجةلهذهالمفاوضات،سيكون من شأنه تعزيز وتوثيق الروابط التى تربط بلدينا .. »

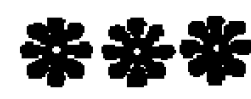
***

وقد استغلت بريطانيا أول خلاف وقع بين الدول الأوروبية للتحرر من مختلف تصريحاتها المتعلقة بجلائها عن مصر فلم تعد تذكر أو تشير الى هذا الجلاء الا فى المناسبات التى تدعو لتهدئة الخواطر فى فرنسا وفى سائر الدول الأوروبية .. وظلت بريطانيا تماطل الدول فى هذا الشأن كما أخذت تحول أنظار الدول عن الجلاء عسكريا عن مصر ، بلغت أنظار هذه الدول الى مشكلات مصر المالية وتركيز اهتمام العالم الأوروبى فى هذا النوع من متاعب مصر .. اذ كان من بين أهداف السياسة البريطانيةاغراق مصر فى المشكلات المالية وارهاقها تحت هذه الأعباء وكان من شأن ذلك التعويض الكبير الذى قدرته اللجنة التى شكلت اذ ذاك لتقدير الأضرار المترتبة على ضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى مضافا اليها

الأعباء التى تحملتها مصر فى سبيل مقـــاومة وباء الكوليرا الذى وفدت جرثومته الى مصر مع البواخر التى حملت الجنود البريطانيين من الهند ، ثم نفقات حملة الســـودان • كل ذلك أثقل كاهل الخزانة المصرية وفى الوقت نفسه أتاح لبريطانيا الفرصة لتحول أنظار الدول الأوروبيـــة عن المشكلة السياسية فى مصر ••

لذلك وجهت دعوة لعقد مؤتمر دولى لسائر الدول الأوربية لبحث مشكلات مصر المالية وقد انعقد هذا المؤتمر فى لندن فى الفترة مابين ٢٨ من يونيو و ٢ من أغسطس سنة ١٨٨٤ •

ومن الطبيعى أن هذا المؤتمر لم ينته الى أية نتيجة حتى يكون ذلك متفقا والخطة البريطانية واستمرت المفاوضات تجرى بين مختـــلف دول أوروبا فى أثناء سنة ١٨٨٥ ثم انتهت بقبول هذه الدول اصدار قرض جديد قيمته تسعة ملايين جنيه استرلينى لتسوية ما استجد على مصر من الديون والأعباء •



ولكن الدول لم تقف مكتوفة اليدين أمام المحاولات البريطانية فانتهزت مناسبة هذه المفاوضات لتثير حقها فى التدخل بصفة جماعيـــة فى الشئون المصرية ، وذلك التدخل بحكم ضمان هذه الدول للقرض الجـديد الذى أنشأ صلة وتداخلا بين القســـط المحدود للقرض وبين الضريبـــة التى خصصت لسداده ـ كما تضمنت شروط هذا القرض الزام مصر بأن تجعل نفقاتها العامة فى حدود نسبية وفى نطاق الضرورة القصـــوى التى تتمشى وما على مصر من أعباء بالقياس الى مايتوافر لها من موارد •

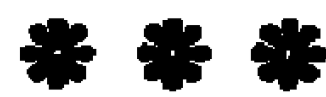
وهكذا ، زادت أعباء مصر فى سنة واحدة بما يجاوز مجموع دخل الحكومة المصرية السنوى وكان ذلك مناسبة لكى تزيد بريطانيا من ضغطها المالى والسياسى على مصر بما يتفق وتحقيق أغراض السياسة التى انتوتهـا بريطانيا تجاه مصر •

وقد تمت هذه الاتفاقية فى ١٥ من مارس سنة ١٨٨٥ وأصرت الدول

الأوروبية على أن يتم الاتفاق بينهما على اصدار تصريح سياسي تعمدت هذه الدول ألا يتضمن أية اشارة الى وجود الجنود البريطانيين فى مصر، وعلى أن يتضمن التصريح مايلى : ـ

« حيث ان الدول الأوروبية قررت ضرورة قيام مفاوضات عاجلة تهدف الى اقرار النظام النهائي الذى يكفل فى جميع الأوقات لسائر الدول حرية استخدام قناة السويس بموجب وثيقة تعاقدية فمن المتفق عليه بين الحكومات السبع الممثلة فى هذا التصريح أن لجنة مشكلة من مندوبين تعينهم هذه الحكومات ستجتمع فى باريس فى ٣٠ من مارس سنة ١٨٨٥ لكى تعد وتحرر هذه الوثيقة طبقا للأسس التى تضمنتها رسالة الحكومة البريطانية فى ٣٠ من يناير سنة ١٨٨٣ ، كما وأن لخديو مصر أن يبعث بمندوب يحضر هذه اللجنة على ألا يكون له غير صوت استشارى ، وسوف يعرض المشروع الذى تعده اللجنة على سائر الحكومات السبع والتى يتعين عليها أن تسعى للحصول على موافقة جميع الدول على المشروع .. »

وأمام اصرار الدول على تحديد مركز بريطانيا السياسى والعسكرى فى مصر ، رأت بريطانيا أن هذا الاصرار يضعف من مركزها فى مصر ، وفى نظر القانون الدولى العام ، ولذلك فقد مضت الحكومة البريطانية فى تهدئة الرأى العام الأوروبى وكذلك الشعب المصرى وذلك باصدار تصريحاتها المتتالية التى تبرئها من كل نية خاصة ترمى الى بقائها فى مصر الى مالا نهاية ..



على أن بريطانيا رأت فى الوقت نفسه أن تقوم بمسعى لدى الباب العالى لتحول احتلالها لمصر والذى كان أمرا واقعا ، الى احتلال مشروع ومن أجل هذا وقعت بريطانيا فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٨٨٥ اتفاقية تضمنت فى المادة الأولى قبول الباب العالى قيام كل من الدولتين بايفاد مندوب سام الى مصر كما حددت المادة الثانية مهمة المندوب السامى العثمانى فقصرتها على بحث أنسب الوسائل لتهدئة السودان بالطرق السلمية

كما نصت على قيام المندوب السامى العثمانى بالاشتراك مع خـديو مصر بابلاغ المندوب السامى البريطانى جميع مايجرى من مباحثـات فى هذا الشأن •

ونصت على عدم اعتماد وتنفيذ مايتم الاتفاق عليه من اجراءات دون موافقة المندوب السامى البريطانى عليها ـ سلفا •

ونصت المادة الثالثة على قيام المندوبين السامين للدولتين باعادة تنظيم الجيش المصرى بالاتفاق مع الخديو •

ونصت المادة الرابعة على أن يعاود المندوبان الساميان ، بالاتفاق مـع الخديو ، دراسة جميع فروع الادارة المصرية ويدخلا التعديلات الضرورية فى نطاق الفرمانات الامبراطورية ونصت المادة السادسة من هذه الاتفاقية على قيام الباب العالى وبريطانيا بالتشاور فى عقد اتفاقيـة تنظم انسحاب القوات البريطانية من مصر فى أجل معقول بعد الاطلاع على ماسـيقدمه المندوبان الساميان من تقارير •

وكانت بريطانيا ترمى من وراء هذه الاتفاقية الى اختلاس موافقة ضمنية من الباب العالى بوصفه الدولة صاحبة السيادة على مصر ، على قيام الاحتلال البريطانى فى مصر وجعله عملا مشروعا ، وتنفيذا لهذه الاتفاقية عين الباب العالى مختار باشا مندوبا ساميا له فى مصر وأوفده اليها ، وقد اعتبر مختار باشا أن مهمته الأولى هى العمل على جـلاء القوات البريطانيـة عن مصر وبمجرد وصوله الى مصر صرح بهذا الى الخديو توفيق ••

كان المسيو دى فريسينيه قد عاد الى رئاسة الوزارة الفرنسية وكان يأمل فى تصحيح الاخطاء التى كان قد وقع فيها سنة ١٨٨٢ والتى مكنت بريطانيا من الانفراد باحتلال مصر ومن أجل هذا فقد ركز دى فريسينيه جهوده لتأييد موقف الباب العالى موضحا المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر فى أقرب وقت ، وتبعا لهذا كانت المهمة الأولى لمختار باشا عند وصوله مصر هى العمل على المطالبة باعادة تنظيم الجيش المصرى ، فبادر فور وصوله بتقديم مذكرة ضمنها المقترحات التالية : ـ

أولا ـ إعادة تكوين الجيش المصرى وجعل تعداد قواته ستة عشر ألف جندى من المصريين فضلا عن تنظيم قوات البوليس ورفع عددها الى ستة آلاف وسبعمائة رجل •

ثانيا ـ التمسك بالوحدة بين مصر والسودان وبقاء القوات المصرية فى مديرية دنقلا فى السودان •

ثالثا ـ ضرورة قيام قيادة اسلامية على رأس القوات المصرية بدلا من القيادة البريطانية •

رابعا ـ لمواجهة النفقات المترتبة على هذه الأعباء الجديدة يجب اعفاء مصر من نفقات قوات الاحتلال البريطانية والتى كانت تبلغ مائتى ألف جنيه سنويا ، لكى يتسنى لها القيام بالاعباء التى تلقيها عليها هذه المقترحات •

خامسا ـ ضرورة ابعاد البريطانيين عن الأعمال العسكرية الجارية بالسودان ، لما فى وجود العناصر البريطانية من اثارة طبيعية للعواطف الوطنية السودانية خلافا لما يكون عليه الأمر فى حالة مايكون المصريون فى هذه المناصب العسكرية •

* * *

وما أن تسلم السير « درمند وولف » (Drummond Wolf) المندوب السامى البريطانى الذى قم بالمفوضات مع الباب العالى هذه المذكرة وتبين ماتضمنته من مقترحات ولا سيما ماكان خاصا بتقوية وتدعيم القوات العسكرية المصرية وابعاد البريطانيين عن مراكز القيادة فيها ، وتركها للمصريين حتى يتحقق التفاهم والسلام بينهم وبين العناصر الوطنية السودانية ، حتى أدرك الأخطار التى تتعرض لها الخطط التى دبرتها بريطانيا فى صبر وعناية ، ولذلك كان من الطبيعى ألا يستجيب الى هذه المطالب وقد ساندته حكومته فى هذا الموقف ـ ولا سيما بعد فشلها فى الحصول من الباب العالى على أى اعتراف ، حتى ولو كان اعترافا ضمنيا بمشروعية احتلالها مصر ••

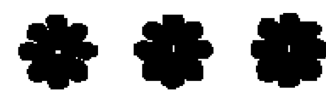
ولكن سير درمند وولف رأى بالرغم من ذلك أن يمضى فى تنفيذ الخطة البريطانية فعاد فى مارس سنة ١٨٨٦ وطالب باعتبار وادى حلفا حدا فاصلا بين مصر والسودان وبانسحاب القوات المصرية الى داخل هـذه المنطقة على أن ترابط القوات البريطانية فى أسوان لحمايتها من عـدوان القوات المهدية .. كما رأت الحكومة البريطانية أن تجارى المندوب السامى التركى فى طلب زيادة القوات المسلحة المصرية ورفع عددها الى اثنى عشر ألف جندى على شريطة أن يتولى جميع المراكز القيادية فيها ضباط بريطانيون وعلى رأسهم السردار البريطانى وعلى أن تعترف مصر بوادى حلفا كحد فاصل بين مصر والسودان وأن تستمر فى تحمل نفقات القوات البريطانية المحتلة .

وبينما كانت بريطانيا دائبة على رفض كل اقتراح وكل طلب للمندوب السامى التركى ، كانت تعمل دائما على اشعار الرأى العـام المصرى بأن جميع ماكانت تتخذه فى مصر انما يتم دائما بموافقة واقرار الباب العـالى الذى يمثله المندوب السامى التركى تمثيلا صورته لجميع الناس على صورة تجعل مركزه يتساوى ومركز المندوب السامى البريطانى .

ذلك كان موقف الحكومة البريطانية من اتفاقية سنة ١٨٨٥ الا أنهـا امعانا منها فى تضليل الباب العالى وسائر الدول العظمى الأوروبية مضت فى اصدار التصريحات المتتالية دفاعا عن سياستها .

غير أنه ازاء اصرار الباب العالى والدول العظمى الأوروبية التى كانت تلح فى المطالبة بتحديد موعد لجلاء القوات البريطانيـة عن مصر رأت بريطانيا أن توفد سير درمند وولف من جديد الى الاستانة ليسعى للحصول من الباب العالى على وثيقة ذات طابع دولى تجعل احتلالها لمصر أمرا مشروعا ولكى تصل الى تحقيق هذا الغرض لجأت بريطانيا الى أسـلوبها المألوف فى المفاوضات السياسية ، فاقترحت فى أول الأمر « تحييد » مصر ولا نقول حياد مصر وفقا للمعنى المتعارف عليه دوليا ولكن بريطانيا خلقت صـورة خاصة من الحياد تظل بموجبها مصر خاضعة لسيادة الباب العالى على حين

يكون لبريطانيا عليها ، ما للباب العالى من حقوق ، وسعت الى عقد اتفاقية تتضمن اعتراف الباب العالى بالحالة الاستثنائية القائمة فى مصر والسودان وضرورة بقاء القوات البريطانية فى مصر لحماية حدودها ولتحقيق الأمن الداخلى فى البلاد . كما تنص على تسليم الباب العالى لبريطانيا بابقاءماتشاء من قوات فى مصر وباستمرارها فى الاشراف على الجيش المصرى ، اتفاقية تبيح لبريطانيا البقاء فى مصر وتحرم فى الوقت نفســـه على جميع الدول التدخل فى شئون مصر ، بزعم « حيادها » .



وقد كانت المفاوضات التى سبقت الاتفاقية تجرى فى الحـــدود التى رسمتها بريطانيا والتى انتهت بعقدها وتضمنت نصوصـــها المبادىء المشار اليها وارتضت بريطانيا تحديد مدة الاحتلال بثلاث سنوات مالم يطرأ خطر داخلى أو خارجى يدعو الى ابقاء القوات البريطانيةلحماية مصر - ورخص الباب العالى لبريطانيا فى العودة الى احتلال مصر ، بعد الجـلاء اذا هددها خطر خارجى أو قامت بها اضطرابات داخلية تهدد أمنها ، أو عند وقوع عصيان أو تمرد من الحكومة المصرية على الباب العالى ، أو قيام حالة تخل بها مصر بتعهداتها الدولية ، ونصت الاتفاقية على احترامحقوق الباب العالى كافة وعلى أن يكون قيام بريطانيا بهذه الاعباء نيابة عن سلطان تركيابوصفه صاحب السيادة على مصر ولحسابه .

واحتراما لأحكام « الحياد » حرمت الاتفاقية على سائر الدول انزال قوات عسكرية فى مصر . وقد وقعت الاتفاقية فى ٢٢ من مايو سنة١٨٨٧ وما أن عرف مضمونهاحتى ثارت ثورة العناصر التركيةالحريصة علىسلامة الأراضى الاسلامية ، وعلى الاحتفاظ بسلطان الباب العالى عليها كما بادرت فرنسا وروسيا بالاعتراض عليها وأدت هذه العوامل مجتمعة الى فشـــل الخطة البريطانية بعد أن تكشفت حقيقة الاغراض التى ترمى اليها .

ولما كان التصديق النهائى على هذه الاتفاقية لم يتم بعد ، فقد أجبر السلطان على العدول عنها والامتناع عن التصديق عليها ، وأعلن هـــذا الرفض الى بريطانيا فى ١٥ من يوليو سنة ١٨٨٧ .

وبالرغم من كل هذه المحاولات ظلت بريطانيا تدفع ماوجه اليها من اتهامات حول عزمها على احتلال مصر نهائيا وعدم الجلاء عنها ..

ومضى ساستها يؤكدون هذا الزعم ففى ١٠ من يونيو سنة ١٨٨٧ أعلن لورد سالسبورى (Salis Bury) فى مجلس اللوردات مايلى : —

لم يكن فى أستطاعتنا ، بل اننا لانملك ان نفرض حمايتنا على مصر ، لان حكومة صاحبة الجلالة اعلنت احتجاجها الرسمى على مثل هذا التفكير وتبرئها منه .

لقد أصر المستجوب على الطابع الالزامى لهذا العهد من جانبنا ، وانه ليطيب لنا ان يسجل باننا مازلنا نقدس هذا الالتزام الذى سيبقى دائما ماثلا فى اذهاننا ..... ولا شك ان وجودنا فى مصر الذى لم يكن له مسوغ قانونى او اتفاقى كان يسبب تشكك السلطان فى نوايانا وهو مانعتقد انه لا محل للشك فينا

ووقف لورد سالسبورى يدفع الاتهامات الموجهة لبريطانيا بصدد عزمها على ضم مصر للامبراطورية فأعلن فى ١٢ من أغسطس سنة ١٨٨٩ فى مجلس اللوردات مايلى : —

عندما يطلب منا ان نتحول من حراس الى ملاك وان نستقر فى مصر بصفة نهائية يتعين على ان أعلن بأن هذا الرأى لا يقيم وزنا للطابع المقدس للتعهدات التى التزمت بها حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة والتى يتعين علينا احترامها .... اننا فى هذا المقام لاننظر الى ما هو مناسب أو الى ماهو مربح ، ولكننا نلتزم السلوك الذى يقيدنا بتصريحاتنا والقانون الاوربى .

وفى ١٣ من مايو سنة ١٨٩٣ صرح مستر جلادستون (Gladstone) فى مجلس العموم قائلا : —

« انى لا أكتم شعورى بان احتلالنا مصر يبدو باهظا وعسيرا وبان إحتلا لمصر والبقاء فيها بصفة دائمة يتعارض مع سياستنا التقليدية ويصبح دليلاً على سوء نيتنا تجاه الباب العالى ، فضلا عن تعارض ذلك كله لكل ما تم من اتفاقيات من سائر الدول الاوربية ،لست ذلك الانسان الذى سوف يكتشف التزاما نستند اليه لكى تخل بتعهدات تم اقرارها من جانبنا بحرية تامة ، ولكن يوجد شىء لا نستطيع

الاقدام عليه دون الاخلال بشرفنا ، وهو أن نتنكر الكلمة التى اعطيناها والتى يستبعد بموجبها كل احتمـــال لاحتلال غير محدود أو محاولة تفسير هذه الكلمة بطريقة نتخلص بها من كلمتنا اعتمادا على اعذار تســتند الى اعتبارات جانبية التتحرر من العهد العلنى الذى ارتبطنا به ... »

* * *

وهكذا مضت بريطانيا فى تصريحاتها لتطمئن أوروبا وتبدد مخاوفها ومخاوف المصريين كما راحت فى الوقت نفسه تعمل على اســـتبعاد كل مناقشة خاصة بموضوع احتلالها مصر ، تثيرها الدول الأوروبية العظمى ، لأنها كانت حريصة على استرداد حريتها للعمل فى مصر ولذلك امتنعت عن اعادة المفاوضة بل أنها أغلقت باب المفاوضات فى وجه الدول الأوروبيــة وحالت دون اثارة موضوع احتلالها لمصر أو اثارة مستقبل مصر بأسره ، ولكنها ظلت تردد دائما بأن احتلالها مصر موقوت وأن جلاءها عنها سيتم حتما فور تحقق الشروط التى كانت تبدل وتعدل فيها على حين تمضى فى سياستها وتواجه الرأى العام العالمى ، بأنه حتى لو أرادت هى أن تحــدد أجلا معلوما لهذا الجلاء لتعذر عليها ذلك لارتباطه بتوافر شروط يتعــذر توقيتها وتعيين الوقت الذى تتم فيه .

وقد التزمت بريطانيا هذه الخطة السيسية ومضت فى ذلك الأسلوب الملتوى طيلة سنوات الاحتلال حتى أعلنت الحماية على مصر ، ومن ثم فلم تعــد فى حاجة الى الزعم بأن سلطـان الخديو قد توطد وبأنه قد أعيـــد السلام والأمن فى مصر ، لأن الأمر قد تعدى ذلك ، اذ أصبح لزاما على مصر لكى تطالب بالجلاء ، أن تقيم الدليل على وجود ادارة صالحة تعترف بريطانيا من جانبها بثبات هذه الادارة وسلامتها وذلك أمر يتعذر التحقق منه الا بعد الاشراف على شئون مصر الى أطول مدى ممكن .

ويقول لورد « كرومر » ((Churchill)) فى تقــاريره عن حالة مصر مايلى : —

لم أكن من المناصرين لمبدأ احتلال بريطانيا لمصر ، ولو تبين لى فى هذه اللحظة أن الجلاء عن مصر لايعتبر اجراء يترتب عليه تعريض مصر

لاخطار يتعين على كل حكومة صالحة تجنبها لما ترددت فى الاشــــارة على حكومتى باتمام الجلاء ، ولكنى مقتنع بان فى الجلاء عن مصر ما يعرضها لاخطار جديه ، ولذلك اراني عاجزاً عن ان اوصى بهذا الجلاء

وهكذا ابتدع لورد كرومر نغمة جديدة تقول بأن الجلاء قبل الأوان من شأنه أن يبدد النتائج الطيبة التى حصلت عليها مصر فى ظل الاشراف البريطانى على شئونها ..

وهكذا تمادت بريطانيا فى التماس الاسباب واختلاق الحجج لتسوغ احتلالها مصر لمدة غير محدودة .. ومضت فى تحقيق أهدافها وفى تنفيذ سياستها بالخديعة تارة وبالقوة أخرى ، فحينما كانت تضفى على نظام الاحتلال طابعا أقل خشونة وقسوة فتحمل المصريين على الاعتقاد بأنها تسعى لاقامة أنظمة حرة فى مصر ، وعندما يتمسك المصريون بهذه الوعود ويطالبونها بهذه الأنظمة تلجأ الى الخديو وتستعين به ليقف فى وجه المصريين .. كل ما سعت اليه بريطانيا داخليا فى مصر لتمــكن لاحتـــلالها الذى قام على ربط مختلف الطبقات الحاكمة بمصالحها والمضى فى التزام موقف الصمود وعدم التزحزح فيما يتعلق بأهدافها الاستعمارية حماية لمصالحها .

***

وهكذا ابتدع لورد كرومر نغمة جديدة تقول بأن الجلاء قبل الأوان ويلفرد سكاون بلونت (Sir Wilfred Scawen Blunt) صديق ومستشـــار عرابى باشا خلال الثورة بد من توجيه رسالة الى المواطنين المصريين قال لهم فيها : ــ

« انى فى تلك الظروف الجديدة ، وهى الظروف التى جعلت الرأى العام البريطانى يعتقد أن وادى النيل ملك لبريطانيا وأنه يتعين عليها المحافظة عليه ، ليس لدى الا نصيحة واحدة أسديها اليكم ، مع ما يتـــوافر لى من الشعور الوطنى العظيم نحو بلادى وان كنت أكره سياستها العدوانية فى الشرق ان كنت أشعر بألم عندما أقف من بلادى موقف المعارضة ولــكن واجبى نحوكم يفرض على هذا النصح لكم ، لذلك فانى أقول لكم ــ فى

صراحة ـ بأن مستقبل حركتكم الوطنية سيتسم بعدم التبصر الى حد الاسفاف اذا لم تتخذنا هذه الحركة أعداء لها ، اذا لم يتبين بأن بريطانيا فقدت كل شعور باحترام التزاماتها نحوكم واحترام وعودها التى تخلت عنها ، واذا لم تدرك هذه الحركة أنه لم يعد ينتظرها شيء أكثر من سياسة العنف والقوة والعدوان الذى يهدف الى ضمكم الينا وتجريدكم ماديا مما تملكون ، الرغبة فى تجريدكم من أملاككم وتحطيم روحكم المعنوية كما هو حادث فى سائر بلاد الهند وسائر البلاد التى شاء نحس طالعها أن تخضع لنا .

« احذرونا فنحن لانريد لكم خيرا ، لن يكون لكم دستور ولاحرية صحافة ولا حرية تعليم ولا حرية شخصية .. ان هدفنا طالما بقينا فى مصر هو استغلال بلادكم لمصلحة صناعتنا القطنية فى مانشستر واستخدامنا لأموالكم من أجل تنمية وتطوير امبراطوريتنا الافريقية فى السودان والتوسع والتمادى بلا حياء منا ودون استشارتكم وعند الاقتضاء استعمال القوة لتسخير امكانياتكم لمصلحة الجماعة البريطانية اليهودية فى بلادكم ، ثم تسليمكم مكتوفى الأيدى والأرجل الى جميع أصحاب المطامع الاقتصادية .. لم يعد لكم عذر اذا خدعتم بعد فى نوايانا ، فقد أوضحتها لكم ، فلا تستسلموا للعبودية والذل ولاتعرضوا بلادكم للدمار والخراب .. احرصوا على أن يكون فى بلادكم معارضة صريحة مستمرة شجاعة دائما وفى كل يوم ، اتحدوا فى سبيل المطالبة بانهاء وضعنا غير القانونى فى بلادكم كى نسحب جنودنا وينتهى احتلالنا لكم .. انكم بهذا لستم معتدين ، فنحن أجانب فى بلادكم ، ومن حقكم أن تطالبوا بجلائنا ، وأنكم لن تخسروا فى هذا السبيل أكثر مما خسرتم .. وانما أمامكم أن تكسبوا كل شيء .. أذكروا دائما ، وذكرونا ، وذكروا العالم وبجميع الوسائل ، بأن بريطانيا ليس من حقها قانونا أن تتصرف كسيدة فى بلادكم ، انكم لستم فى حاجة لنا ، لا كحماة لكم ، ولا كمستشارين ولا كاداريين .. لاتتركوا لنا السبيل الى أى عذر لكى نثبت للعالم العكس لوجهة نظركم ، اظهروا لنا عداءكم ، لا بثورات سابقة لأوانها لا تفيدكم فى شيء .. ولكن بتلك الوسائل

السلمية التى تلجأ اليها الشعوب أمام الأجنبى لتثبت له عدم رغبتهـــا فى التعاون معه .. بالمقاطعة الاقتصادية والرسمية وعدم الاختلاط به ، ان لديكم جالية أجنبية كبيرة غير بريطانية ، فوطدوا علاقتكم بها ، وتعاملوا معها ، صالحوا العالم كله ، ولكن لا تصالحونا ، اذ لا جدوى من ذلك، وكل جهد يبذل فى مصلحتنا ، جهد ضـــائع ليس وراءه طائل .. ان كل نداء توجهونه لاشعارنا بالعدالة والشرف والانسانية هو فى ذاته مسعى مضحك ونداء لن يجلب لكم غير احتقارنا .. ليس أمامكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا هى أن تثبتوا لنا بأن احتلالنا لبلادكم انما هو بالنسبة لنا سلسلة من الصعاب والمتاعب تتزايد يوما بعد يوم ومضايقات دائمة فى حالة السلم ، ثم هو خطر داهم مروع فى حالة الحرب .

وعند مايبدو للرأى العام البريطانى أن الثمن الذى يدفعه لاحتلال بلادكم أبهظ بكثير مما يجنيه هذا الاحتلال .. عندئذ فقط سنغادر بلادكم ونجلو عنها ، ولن يتم الجلاء قبل هذا الاقتناع أبدا ..

وهكذا يتحدث « سير ويلفرد سكاون بلونت » (Scawen Blunt) الى المصريين ، ولكن بعد أن تمكنت بريطانيا من احتلال البلاد ووطدت فيها أقدامها ، وثبتت مصالحها فى مصر ، وأصبح من العسير على المصريين أن يقاوموا الحراب البريطانية .. وهى نصيحة جاءت متأخرة ، ولم يكن ذلك يخفى على سير «ويلفرد سكاون بلونت» وقت أن كان يعمل مستشارا سياسيا ، وصديقا مخلصا لأحمد عرابى فى مختلف المراحل التى مرت بها مصر قبل العدوان وبعده .



لقد انتهت السياسة البريطانية الى هذه المرحلة الحاسمة التى وضحت فيها نواياها .

لقد بلغت سياسة بريطانيا هذه المرحلة بعد اعتدائها على مصر دون أن يكون لها من سند للابقاء على هذه السياسة الا القوة المادية التى كانت تشهرها فى وجه المصريين ، وماكانت تحيكه من مؤامرات داخل البـلاد وفى الوقت نفسه كانت تعمل على اضعاف مصر اقتصاديا تحت الأعباء المالية

التى استطاعت فرضها على البلاد بحكم سيطرتها عليها .. لقد خفتت الأصوات ولم يعد هناك من يبدى كلمة لمصلحة مصر والمصريين ، ومضت بريطانيا فى تنفيذ سياستها وكان « معتمدها » فى مصر هو سيد مصر ، وكانت كل محاولة من جانب المصريين لرفع رءوسهم والمطالبة بحقوقهم ،وحتى لقيام حكومة مستقلة محليا ، ترعى مصالح الشعب كانت حتى مجرد هذه الاحتمالات ، تسحق بلا رحمة ولا شفقة .

ولكن الاستقلال والحرية من الخصائص التى وهبها الله للشعوب اذ ولدوا أحرارا وخلقوا ليعيشوا أحرارا .. أكان من الممكن لأبناء مصر أن يتخلوا عن هذه العقيدة والأمل ؟ ، أكان من الممكن أن يظلوا مستسلمين لغاز غاصب ؟ ..

لم يعد لمصر جيش ، ولا أسطول ليجبر الغازى على الجلاء ، لم يكن أمامها الا الأمل فى المستقبل ، ثم ما يعده لها القدر على مر الزمن ، لقد سقطت مصر وسقطت قبلها الجزائر وتونس . ثم مراكش وليبيا ، وازداد عدد ضحايا عدوان الاستعمار الغربى من البلاد العربية والاسلامية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لقد كان احتلال بريطانيا مصر بداية الفتح العاجل للاستعمار الغربى فى افريقيا .

ومضى فى حملته على الصورة التى سنفصلها فى هذا المؤلف .

الفصل الثالث عشر
حرية المرور عبر قناة السويس

« فرنسا وشركة قناة السويس تطالبان بتحييد القناة ـ فرنسا تطالب بان »
« تكون حقوق مصر في القناة لمصر ذاتها والا يمارسها نيابة عنها سواها ـ الفيلسوف »
« الفرنسي ليروا بوليبه يعارض حياد القناة ويطالب بوضع دولي لشركة القناة »
« الفرنسية لتصبح الشركة من اشخاص القانون الدولي العام وتنسحب عليها »
« الحماية الدولية ـ فرديناند دي لسبس يعترف بانه كان يساير عرابي لاقناعه »
« بعدم الاعتداء على القناة ويصرح بانه كان اعد عدته للانقلاب على عرابي والدفاع »
« عن القناة في الوقت المناسب ـ فرنسا تصرح بان المصلحة الاساسية لها في مصر هي »
« قناة السويس ـ جول فيري رئيس وزراء فرنسا يدعو بريطانيا للتفاوض من اجل »
« حرية المرور في قناة السويس ـ مفاوضات عام ١٨٨٥ ـ فرنسا تطلب استبعاد »
« القناة من المناقشات الدولية ـ هل القناة ممر مائي محايد أم قناة خاضعة لسيادة »
« وسلطان مصر وللملاحة الدولية حرية المرور عبر قناة السويس ـ بريطانيا تنبه الى »
« الفرق بين الممرات الطبيعية والممرات الصناعية ـ بريطانيا تصر على أنه لا يجوز »
« أن تثقل الممرات التي تصل بحرين وتجرى في بلد مستقل بحقوق أو اتفاقات دولية »
« تثبت حق المرور والحق الذي يقرر في قناة السويس هو حق اتفاقي وليس مستمدا »
« من مبادىء القانون الدولي ولا وجه للمقارنة بين قناة السويس وبين اى ممر بحرى »
« آخر ـ بريطانيا ترفض انشاء لجنة دولية للرقابة على قناة السويس قياسا على نهر »
« الطونة ـ رد المانيا ـ فرنسا تثير مبدأ التدخل الدولي ومبدأ الضمان الدولي »
« لحرية المرور عبر قناة السويس ـ بريطانيا لا تقبل الاتفاق وتحتفظ بحريتها في »
« العمل طوال احتلالها لمصر ـ دي فريسينيه يعود الى رئاسة الوزارة ويعرض مشروعا »
« جديدا ـ فرنسا تعمل على تقييد حرية مصر وسيادتها في منطقة القناة ـ اعتراض »
« بريطانيا ـ رد دي فريسينيه وحرصه على فصل القناة ذاتها عن مصر ومنحها نظاما »
« ذاتيا لاقرار حيادها ـ بريطانيا ترفض وتتمسك بحقوق السيادة التي لمصر على »
« القناة ـ كفالة امن القناة مسئولية مصرية ـ المسيو فلورنس الذي خلف دي »
« فريسينيه يستبعد الاشارة الى الحياد ـ لا حياد لقناة السويس لا بحكم القانون »
« الدولي ولا بحكم القانون البحرى ـ بريطانيا تصر على استبعاد الحياد لفظا ومعنى »
« وتناصب العداء كل من يطالب بحياد قناة السويس ـ وتصر على حق مصر المطلق »
« في اتخاذ ما تراه ضروريا للدفاع عن نفسها ولاقرار الأمن بمنطقة القناة ـ الاتفاقية »
« تنظم استعمال القناة للمرور دون المساس بالسيادة المصرية ـ بريطانيا تدافع عن »
« حقوق مصر لأنها كانت تمارس ما لمصر من حقوق » .

لقد أصبح احتلال بريطانيا لمصر أمرا واقعا ، ولم يعد يعنى العالم من شئون مصر سوى قناة السويس وحرية المرور عبرها .. كانت شركة قناة

السويس ومعها فرنسا تطالب بتحييد قناة السويس . اذ هنـــاك فارق بين حرية المرور وبين الحياد ، كما وان الحكومة الفرنســية مؤيدة من شركة قناة السويس أثارت اعتراضا على ماكان للحكومة المصرية من حقوق خاصة في القناة وأبدت دفعا ضد مايحتمل أن يحدث من تنازل الحكومة المصرية لدولة أخرى أجنبية لما لها من حقوق سياسية أو حقوق سيادة على القناة . ورأت شركة قناة السويس مؤيدة من الحكومة الفرنسية أن هذه الحقوق يجب أن تكون لمصر ذاتها وبصفتها الشخصية ولا يجوز لمصر أن تتنازل عنها لغيرها أو أن تكل لغيرها مباشرة هذه الحقوق بالنيابة عنها ... وهكذا انحصرت مشكلة قناة السويس في وجهتي النظر التاليتين :

الأولى : حياد قناة السويس .

الثانية : وهي حرية المرور عبر القناة ثم ما لمصر من حقوق على قناة السويس ، وهل هذه الحقوق لمصر وهل هي حقوق شخصية لذات مصر ؟ ولا يجوز أن يمارسها نيابة عنها سواها أم انه يجوز لمصر بصفتهـا الدولة صاحبة السيادة أن تلجأ بكل حرية الى طلب المعونة والمساعدة من كائن من كان ليشاركها في تحمل المسئولية وممارسة هذه الحقوق ؟ ..

تلك كانت المسائل التي يتناولها البحث بمعرفة الخبراء القانونيين في مختلف وزارات الخارجية الأوروبية .

كان موقف الشركة معززا بتأييد الحكومة الفرنسية المطلق هو تأييد حياد قناة السويس ، وما أن ظهرت هذه الدعوى وتبين هذا الموقف بادر العــالم الاقتصـادي والفيلسوف الفرنسي لروا بوليـــو (Leroy Beaulieu) بالاعتراض بشدة على هذا الادعاء قائلا :

« انه من اليسير أن نزعم بأنه من المتعين تحييد قناة السويس ولكن لمثل هذا الحل أكثر من صعوبة اذ يتعين علينا ألا ننسى أن هناك في سائر أنحاء العالم برازخ سيتم شقها في يوم من الأيام وأن النظام الذى ندعو الى تطبيقه في قناة السويس سيكون السابقة التي يحتذى بها لكل ما سيشق من قنوات مستقبلا » .

« لقد عمد الخبراء القانونيون الذين بحثوا الأمر الى اجراء المقارنة بين البحر الأسود وبين البوسفور وبين قناة السويس للمطالبة بتطبيق مبدأ الحياد ولكن فات هؤلاء الخبراء بأن الأمثلة التي وقع عليها اختيارهم هي أمثلة سيئة بل أمثلة تعارض كل منطق ، ان أهمية قناة السويس ، وهي أهمية عسكرية أولا ، كافية لاستحالة جعل هذا الحياد حقيقة واقعة ومجردة في حالة الحرب وان كان ذلك ممكنا نظريا في حالة السلم لأنه ما من دولة ستقبل بقاء القناة في حالة حياد اذا قامت الحرب !! .. »

واستطرد لروا بوليو

فاقترح صيغة جديدة ترضي فرنسا وشركة قناة السويس وتكون بالنسبة لهما في الوقت نفسه بديلا وتعويضا لفرنسا ومقابلا لاحتلال بريطانيا مصر اقترح « لروا بوليه » أن تعمل فرنسا على تقرير وضع دولي لشركة قناة السويس باقرار استقلالها الذاتي أي قيام كيان ذاتي لشركة قناة السويس . وبذلك تصبح الشركة من أشخاص القانون الدولي العام ، فمتى تم ذلك يصبح للشركة وضع ونظام يتعين على مصر وعلى سائر الدول الأوروبية احترامه ، بل أكثر من ذلك تصبح الشركة تحت حماية دولية وبهذا يزول ما لمصر من حقوق السيادة على الشركة ويزول عن الشركة في الوقت نفسه خطر السيادة البريطانية ، لأن الشركة عندئذ تكون شركة ذات طابع دولي ومن أشخاص القانون الدولي العام »

* * *

ولقد بادر دي لسبس بتأييد هذه الدعوة وتأييد هذه النظرية وجهر بأنه بفضل السياسة التي اتبعها ازاء عرابي ، وهي السياسة التي كانت موضع انتقاد من جانب البريطانيين وقتئذ وغيرهم هي التي مكنته من انقاذ القناة .. ويمضي دي لسبس فيقول بأنه في الوقت الذي كان يساير فيه عرابي لاقناعه بعدم الاعتداء على القناة لأن القناة طريق ملاحي محايد فانه كان قد أعد عدته للانقلاب على عرابي والدفاع عن القناة في الوقت المناسب ..

شرع دي لسبس في دعايته وشرعت فرنسا في المطالبة بتحييد قناة السويس وفي المطالبة بصبغ الشركة بالطابع الدولي ، أعلن جول فيري (Jules Ferry) رئيس وزراء فرنسا في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، بأن المصلحة الأساسية لفرنسا في مصر هي قناة السويس كما أن مسيو دي

كليمنسو رئيس وزرائها السابق صرح فى مجلس الشيوخ الفرنسى فى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٨٤ بأن النقطة الوحيدة التى تملك فرنسا أن تعمل فيها دون أن تحتاج لمشاورة سائر الدول الأوروبية هى قناة السويس ، ثم أضاف أنه ما من أحد يمكنه الاعتراض على ذلك لسبب بسيط هو أن القناة طريق حر مفتوح للملاحة لسائر الدول لأن الأراضى التى تقع فيها هذه القناة هى أراض محايدة ..

رأت فرنسا أن تعمل فى هذا الميدان مستندة فى ذلك الى وجـــود شركة فرنسية تتولى ادارة المرفق وتشرف عليه .

وفى ٥ من يناير سنة ١٨٨٥ وجه جول فيرى رئيس الوزراء الفرنسى ووزير خارجية فرنسا فى الوقت نفسه كتابا دوريا الى ممثلى فرنســا فى برلين وبطرسبرج وروما والآستانة يقول فيه :

« من بين المسائل الهامة يأتى فى المرتبة الأولى وضع النظام النهائى الذى يكفل فى سائر الأوقات ولسائر الدول ضمان حرية المرور عبر قناة السويس وأن هذه المسألة الدولية الكبرى يجب أن نتناولها من الآن عن طريق مؤتمر يعقد أو أية وسيلة يتفق عليها .

ثم بادر لورد جرانفيل (Granville) بتوجيه مذكرة الى السفير البريطانى فى باريس فى ٢١ من يناير سنة ١٨٨٥ قال فيها :

« فيما يتعلق باقتراحات الحكومة الفرنســـية الأخيرة فنحن ننضم انضماما تاما لوجهة نظرها بالنسبة لحرية قناة الســـويس ونرحب ترحيبا كاملا ببلوغ اتفاق فى هذا الشأن بموجب معاهدة يتم الاتفاق عليها » .

* * *

وفى ٢١ من مارس سنة ١٨٨٥ تم الاتفاق بين سائر الدول الأوروبية على تشكيل لجنة تجتمع فى باريس فى ٣٠ من مارس لتمهد ولتعقد اتفاقا يكفل ويضمن حرية استعمال قناة السويس .

ولقد رأس المسيو « جول فيرى » رئيس الوزارة الفرنسية أعمال

هذه اللجنة وقال : « لقد دعيتم لوضع القناة بعيدة عن المنافسات العنيفة وغير المنتجة والتى منها شواهد كثيرة فى التاريخ .. دعيتم لاخضاع القناة الى قواعد قانونية دقيقة ، بحيث تجنبونها تلك الحركة الشاملة والتى تسير بلا هوادة وهدفها التوسع الاستعمارى الذى يستوعب فى الوقت الحاضر نشاط سائر الدول الاوروبية » .

ويلاحظ بأن المشروعت الأولى التى فرضت على المؤتمر للبحث تضمنت : اما اعتبار القناة كممر مائى محايد ، أو عبارة أخرى تقول بحرية المرور عبر قناة السويس !!

وفى جلسة ١١ من مايو سنة ١٨٨٥ سجل سير جوليان بونسيفورت (Julian Paunceforte) ممثل بريطانيا فى اللجنة التصريح التالى :

« لقد حرص مندوب النمسا عند مناقشة المادة الرابعة من المشروع على تأكيد المقارنة القائمة بين قناة السويس والمضايق التى تضم بحرين ، وابراز أوجه الشبه بينهما واستند فى ذلك الى المراجع والفتاوى الصادرة من السادة آزونى (Azuni) وكالفو (Calvo) ودى كيسى (Decussy) وذلك فى مقام اثبات حق حرية المرور عبر القناة .. وممثل بريطانيا العظمى يوجه النظر الى أن هؤلاء الشراح انما تناولت فتاواهم وآراؤهم الممرات الطبيعية لا الممرات الصناعية التى تماثل قناة السويس أو قناة كاليدونيال (Caledonian) التى أنشئت بفعل الانسان لا بفعل الطبيعة ، وعلى أراضى دولة مستقلة ولا يجوز بحال من الأحوال أن تشق مثل هذه الممرات التى تجرى فى بلد مستقل ، بالرغم من وصلها لبحرين ، بحقوق ارتفاق دولية تثبت حق المرور . أما فيما يتعلق بقناة السويس فان حق الارتفاق الذى يقرر ، هو حق ارتفاق اتفاقى وليس حقاً مستمداً من مبادىء القانون الدولى ، وتبعاً لذلك فانه لا وجه للمقارنة بين قناة السويس وبين أى ممر بحرى .. !! »

كما رفض سير جوليان بونسفورت (Paunceforte) انشاء لجنة دولية للرقابة على قناة السويس قياساً على اللجنة التى شكلت للرقابة على نهر

الطونة ... لا لسبب الا أنه لا وجه للمقارنة بين قناة السويس ونهـــر الطونة ...

ولكن المندوب الألمانى فى المؤتمر حاول تسويغ انشاء لجنة الرقابة على القناة قائلا :

« ان شركة قناة السويس ليست الا مجرد شركة خاصة وأن مالها من نفوذ مستمد من شخصية رئيسها ليس الا ، ومن المحتمل أن تتعرض مستقبلا لتعديلات فيما يتعلق بنظامها كما وأن مدة الامتياز الممنوح محدودة ولأنه ما دمنا بصدد الاعداد لمعاهدة فلا أقل من أن نتوسع وننظر لا الى الحاضر فحسب بل ننظر الى المستقبل وما قد يتضمنه من احتمالات ».

وقد رد سير جوليان بونسفورت المندوب البريطانى قائلا :

بأنه وان كانت شركة قناة السويس شركة مساهمة الا انها شركة اكتسبت من الخبرة والكفاية ما جعلها من أقوى الشركات التى تقوم فى أوربا الآن . ولا وجه للمقارنة بين هذه الشركة والشركات الأخرى ، ولا وجه للتشكك فى قدرتها على النهوض بأعبائها ، ولذلك فهـو لا يرى أى أساس للمطالبة بانشاء لجنة المراقبة الدولية على قناة السويس .. ! !

أما فيما يتعلق بنهاية الامتياز وما قد تتعرض له الشركة فان المندوب البريطانى رأى أنه يتعين استبعاد بحث هذا الجانب وأنه لا محل لاشغال بال المؤتمر اذ ذاك .. وطالب بالاكتفـــاء فى المعاهدة بوضع المبـــادىء الاساسية التى لا تقبل التبديل أو التغيير وأن يترك للاجيال المقبلة ادخال ما يظهر الزمن ضرورة ادخاله من التعديلات ولكن المندوب الالمانى ، عاد ، ليقول : « بأنه لا يطلب تدخل الدول فى شئون قناة السويس ولكنه يريد أن ينبه المؤتمر الى أن شركة قناة السويس شركة خاصة ، وبوضعها هذا من الجائز حلها فى أى وقت من الاوقات لاعتبارها أمام القانون شركة خاصة ، واستند فى هذا الى ما صرح به دى لسبس أمام اللجنة الفرعية التى شكلت لبحث وضع قناة السويس بأن عمال الشركة لا يملكون أية قوة سياسية وأنهم خاضعون للسلطات المصرية ولا يملكون الاستعانة بغيرها

•••• ثم تساءل عما يكون عليه وضع الدول أمام شركة خاصعة لسلطان دولة معينة !!

وعندئذ انتقل النقاش الى الضمانات التى يمكن توفيرها لكفالة حريةالمرور في القنـــاة ، وهنا نهض السير تشارلس ريفرر ولسون (Rivers Wilson المنـــدوب البريطـــانى الثانى فى المؤتمـــر ، وأعلن أن مثل هـــذا البحث سيستدرج المؤتمر الى مناقشة الوضع السياسى ويحول اللجنة الى مؤتمر سياسى •••• وهو ما يجاوز المهمة التى عهد اليها بها •• وأن بريطانيا ترفض اطلاقا أية اشارة أو تدخل من سائر الدول لمناقشة سلطة الدولة صاحبة السيادة أى مصر ، على قناة السويس •

وفى الوقت نفسه رأت فرنسا أن تثير وتعرض على المؤتمرات مبدأ التدخل الدولى ومبدأ الضمان الدولى لحرية المرور عبر قناة السويس •

لم ينته المؤتمر الى رأى فى هذا الشأن ولكن بريطانيا أعدت مشروع اتفاق وأعلنت أنها على استعداد لقبوله مع اضافة التحفظ الذى كان يحد من مفعول هذا الاتفاق ، ويقضى بعدم تقييد بريطانيا بأحكام هذا الاتفاق اذا تبين تعارضها مع الوضع الانتقالى والاستثنائى الذى توجد فيه مصر حاليا ويكون فيه حد من حريتها وفى العمل طوال مدة احتلال قواتها لمصر •

وعقب ابلاغ المؤتمر بهذا التحفظ أجلت اجتماعات المؤتمر لأجل غير مسمى •

***

حل المسيو دى فريسنيه محل المسيو جول فيرى فى رئاسة الوزارة الفرنسية وأرسل فى ٢٢ من يونيو سنة ١٨٨٥ رسالة الى الدول الاوروبية العظمى طالبا اليها أن تبدى وجهة نظرها فى أفضل الوسائل التى تؤدى الى عقد اتفاق نهائى حول قناة السويس وقد رأت هذه الدول انه من الأنسب أن تصل فرنسا وبريطانيا معا الى اتفـــاق معين يعرض فيما بعد على سائر الدول الاوروبية للموافقة عليه ••• فرأت فرنسا أن تعرض مشروعا يحقق ــ وفقا لوجهة نظرها ــ حرية المرور فى قناة السويس وبمقتضى هذا المشروع

يحرم خديو مصر من حق الالتجاء الى حلفاء له للدفاع عن مصر حتى داخل منطقة قناة السويس ..

وقد اعترضت بريطانيا فورا على المشروع الفرنسى المقدم من المسيو دى فريسنيه مما اضطر هذا الاخير الى أن يوضح سياسة فرنسا فى هذا الصدد فى مذكرة جاء فيها ما يلى :

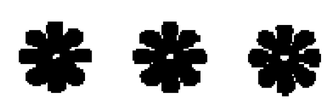
« أولا ، ان ملاحظات بريطانيا الاساسية تتركز حول العبارة التى تقول « بموجب قواته الخاصة » ثم فى العبارة التى تقول «فى منطقة القناة» وكلتا العبارتين تضمنهما المشروع المقدم من فرنسا للتوفيق بين وجهتى النظر الفرنسية والبريطانية .. ويبدو لى أن ملاحظات بريطانيا ، هى ملاحظات مقصود منها التحرى والاستعلام أكثر مما تقصد الى التثبيت أو التيقن .. ولهذا يتعين علينا تحديد الهدف الذى يرمى مشروعنا الى تحقيقه ، وهذا الهدف لا يحرم السلطان أو الخديو من الالتجاء الى مساعدة حليف لهما، ومن ثم تقييد ممارستهما لحقوقهما كحاكم مستقل فيما يتعلق بالدفاع عن مصر ، ليس المقصود فى المشروع المقدم أن يشمل هذا القيد مصر بأسرها ولكنه يشمل منطقة قناة السويس فقط ، وهو ما وضح صراحة باضافة العبارة « منطقة القنال » .

ثانيا ، من المتفق عليه أن من حق السلطان أو الخديو فى حالة قيام حرب أو تمرد أن يلتجىء للدفاع عن باقى مصر الى قوات أى حليف لهما .. ولكن الحظر الوارد على ممارستهما لهذا الحق مقصور على منطقة القنال ... واذا قيل بأن هذا القيد الضيق النطاق يعتبر اخلالا خطيرا بحق السيادة المطلق للدولة ، فأننا نرد على ذلك القول بأن معاهدة نوقشت وأعدت فى أوروبا لحرية المرور بمرفق قناة السويس من حقها أن ترتب مثل هذه النتيجة ، فان تحييد القناة والمنطقة التى تقع فيها هو عبارة عن تقييد سيادة الحكومتين المصرية والعثمانية على منطقة القناة فلا موجب اذن للتوقف عند هذه الملاحظة وهذه الصورة يمكن أن تقع فى مصر ، لافى هذه الحالة فقط ولكن فى ظروف واحوال متعددة أخرى لا مجال لذكرها .

ثالثا ، ان حرية وأمن القناة يمكن أن تهدد بحرب بحرية تقع بين هذه أو تلك من الدول الموقعة على هذه المعاهدة أو بفعل واحدة منها ، وهذه الحالة الأخيرة هي التي تشير اليها بريطانيا في ذيل مذكرتها ، !!

ويقول دى فريسينيه : « انى أتساءل ، كيف يمكن أن يكون مثل هذا الاحتمال محل اهتمام وتفكير الموقعين على مشروع المعاهدة التى تنص أولى موادها على الآتى : ـ

« تلتزم الدول الموقعة على هذه المعاهدة بعدم المساس بحرية استعمال قناة السويس فى حالة الحرب وفى حالة السلم على السواء •• وأنه بقصد تأمين حرية الملاحة فى زمن الحرب اجتمعت اللجنة الدولية فى باريس وأعدت عددا من المواد يكفل الاحتياطات الدقيقة الواجب اتخاذها فى مثل هذه الحال ومن أجل هذا الغرض ••• ومن أجل هذا فان حكومتى لا تقبل أن يكون فى وسع السلطان أو فى وسع الخديو الاستعانة بموجب المادة الاولى من المعاهدة بحلفاء غير معينين وفى ظروف محدودة للدفاع عن القناة ضد اخطار نعتبرها خيالية ••• واحد من أمرين فاما أن تنفذ المعاهدة باخلاص من جميع الدول وعندئذ فلا موجب للقلق من خطر يهدد القناة يقوم من جانب احدى هذه الدول ، أو أن هذه المعاهدة لن تنفذ باخلاص وعندئذ ستصبح مجرد قصاصة ورق لا قيمة لها » ••



وهكذا حرص المسيو دى فريسينيه على فصل موضوع القناة ، والقناة ذاتها عن مصر ، وأراد أن يمنحها نظاما ذاتيا لاقرار حيادها لأنه وفقا لنظر دى فريسينيه وفرنسا ، فأن حياد القناة الحقيقى يبعدها عن خطر استيلاء بريطانيا عليها يوما ما بصفة نهائية •• وهكذا بدا واضحا بأن النزاع فى حقيقته محصور بين بريطانيا التى تريد أن تستند الى ما لمصر من حقوق السيادة لكى تراقب القناة فى كل الاوقات ، وبين فرنسا التى كانت تخشى سيطرة بريطانيا على القناة ، من ناحية ، كما كانت تريد أن تحد من سيادة مصر على القناة من ناحية أخرى •

الا ان بريطانيا اصرت وبكل عناد على موقفها ورفضت التسليم بحياد قناة السويس ، ولكى تؤكد موقفها واستبعاد كل شك قدمت مشروعا مضادا للاتفاقية يتضمن الاضافة التالية : ـ

« ان هذه الاتفاقية لايعتد بها امام أى اجراء يقتضيه الدفاع عن مصر وكفالة امن القناة .

وعلى هذا النحو ، سجلت بريطانيا ان كفالة امن القنـاة بوصفها طريقا ملاحيا ، هى مسئولية مصرية بحته ، وأن الاجراءات التى يستلزمها الدفاع عن مصر وممارسة مصر لما لها من حقوق السيادة على القناة وملحقاته هو امر يترك لتقدير وسلطان الحكومة المصرية المطلق ...

لم تعترض فرنسا على ما قررته بريطانيا من حيث ممارسة مصر لهذه الحقوق ، ولكنهـا رأت أن ترفض لأى حليف تستعين به مصر الحق فى ممارسة هذه الحقوق،وكان هدفها الواضح هو استبعاد بريطانيا والاعتراض على بقاء القوات المسلحة البريطانية فى منطقة القناة دون الاعتراض على أن تكون هذه القوات مصرية ، فكان اعتراض فرنسا على وجود القوات البريطانية هو بسبب احتمال أن تصبح هذه القوات البريطانية مصدر خطر يهدد فرنسا وسائر الدول الاوروبية .

وبعد تبادل مختلف وجهات النظر بين الوزارتين الفرنسية والبريطانية حول هذا الموضوع ، بعث لورد سالسبورى فى ٢١ من أكتوبر سنة ١٨٨٧ بمشروع اتفاق حول حرية استعمال قناة السويس متضمنا هذا التحفظ .. « عندما أقدم هذه المقترحات التى قبلت وأصبحت موضوع المعاهدة الحالية أرى من واجبى أن أؤكد العبارات التى تضمنها التحفظ المقـدم من سير جولين لونسفوردعند ختام جلسات اللجنة التى عقدت فى سنة ١٨٨٥ ـ وهى تحفظات لم تلق معارضة من أى جانب ، وكان من شأن هذا التحفظ كما ذكرنا أن يكون تطبيق نصوص هذه المعاهدة ، غير مقيد لبريطانيا طالما كان متعارضا مع الوضع المؤقت والاستثنائى الذى توجد فيه مصر حاليا ، والتى يكون من شأنها تقييد حرية تصرف حكومة صاحبة الجلالة الملكة طول مدة احتلال القوات البريطانية لمصر !! ..

***

ووافق المسيو فلورنس (Fleurens) رئيس الوزراء الفرنسى الذى

حل محل المسيو دى فريسينيه على الاقتراح البريطانى وأخطر الدول بأن اتفاقا قد تم على سائر مواد المشروع بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية وتبعا لذلك أصبح فى مقدوره أن يعرض على سائر الدول التى مثلت فى لجنة سنة ١٨٨٥ المشروع الذى أسفر عن الاتفاق المشار اليه ..

ومضى مسيو فلورنس فى بيانه وحرص على تجنب الاشارة الى عبارة « حياد القناة » واكتفى بأن ضمن دعوته للدول الرغبة فى « أن تقوم هذه الدول بدراسة المشروع والموافقة عليه ، كما كان يرجو متى تبين لها أنه مطابق للمبادىء الاساسية التى استرشدت بها اللجنة التى عقدت فى باريس فى أعمالها اذ ذاك والذى طابعه تحقيق الهدف من كل هذه الاعمال . وهو حرية الملاحة فى قناة السويس !!

تعمد رئيس الوزراء الفرنسى تجنب الاشارة من قرب أو بعد الى عبارة « الحياد » وقد استبعد من النص كلمة « الحياد » عن قصد ، ولان من شأن هذا التعبير اثارة المبادىء التى سبق لبريطانيا الاعتراض عليها استنادا الى رفض الباب العالى ومصر لها .

ويلاحظ أن المادة الأولى من الاتفاقية نصت على أن قناة السويس البحرية ستظل دائما حرة ومفتوحة .

ونصت المادة الرابعة على أن قناة السويس البحرية تظل مفتوحة كممر حر ... ولكن الشركة وفرنسا رأت أن تستعينا بفريق من الشراح فى القانون الدولى لكى تستنبطا من هذه النصوص « مبادىء حياد » لا هو حياد صريح ، أو « حياد من نوع خاص » لا يستند الى أحكام القانون الدولى بل يستند الى أحكام القانون البحرى ، وعن هذا الطريق أرادت الشركة وفرنسا التدرج الى اقرار الحياد الكامل وهو حياد يصطدم بالمبادىء المقررة للقانون الدولى العام وبالحقوق والأوضاع المقررة فى هذا القانون للدول صاحبة السيادة وفى هذه الصورة الحقوق المقررة لمصر والتى حرصت الاتفاقية على النص عليها صراحة ، ولقد كان لبريطانيا مصلحة اساسية فى استبعاد الحياد فى لفظه وفى معناه ، فيما يتعلق بقناة السويس ، بل أنها

ناصبت العداء كل من نادى أو طالب بحياد قناة السويس ، وأصرت على أن القناة قطعة من مصر وأن هذه صاحبة السيادة المطلقة على القناة ، وقد أكدت الاتفاقية هذا المعنى باقرارها حق مصر المطلق فى اتخاذ جميع الاجراءات التى تراها ضرورية للدفاع عن نفسها فى حفظ الامن فى البلاد المصرية .

وخلاصة ما تقدم أن بريطانيا أرادت أن تسجل فى هذه الاتفاقية أن حماية القناة وحماية استعمال القناة هى مسئولية مصر المطلقة التى لا معقب عليها ، ولم يكن موقف بريطانيا وقتذ ليرضى فرنسا أو الشركة ، وأمام اصرار بريطانيا على استبعاد الحياد من حيث التعبير ، ومن حيث المعنى ، رأت فرنسا والشركة أن تتحايلا على الوضع لابتكار تكييف جديد لوضع القناة فقيل بأن اعتراف الاتفاقية بما لسائر الدول من حق استعمال القنــاة بحرية يرتب لهذه الدول حق ارتفاق ذا طابع دولى ، ولكن هذا الادعاء كان من السهل الاعتراض عليه بسبب كون القناة جـــزءا لا يتجزأ من الاراضى المصرية ويؤدى للملاحة العالمية ذات الخدمات التى تؤديها الموانى التى تستعملها سائر الدول (ويمكن أن يضاف الى ما تقدم وربما أدته فيما بعد المطارات فى أراضى دولة ما ..)

وانتهى الصراع بين فرنسا وبريطانيا حول ما اذا كانت القناة محايدة أو انها مثقلة بحق ارتفاق ذى طابع دولى وذلك بأنه تعذر على الفرنسيين وعلى غيرهم ممن نادوا بالحياد أو بقيام حق ارتفاق دولى أن يطبقوا ذات الحقوق على الموانىء (والمطارات) بل ان بريطانيا أمعنت فى اعتراضهـا على هذه المزاعم وقررت أنه لا ينشأ لأية دولة حق ارتفاق من أى نوع كان ، لان كل ما عقد من اتفاقيات انما عقد لينظم الاستعمال دون المساس بحقوق السيادة للدول التى تقع الموانى أو القنوات (أو المطارات) فيهـا ... وكل ما رأت بريطانيا أن تغيره من موقفها الذى أصرت عليه طوال احتلالها لمصر ووجود قواتها بها . هو ما أدخلته على معاهدة عام ١٩٣٦ من القول بأن القناة طريق مواصلات عالمى بين مختلف أجزاء الامبراطورية البريطانية .. وفى سنة ١٩٥٤ أضافت الى ذلك بأن للقناة أهمية اقتصادية

وتجارية واستراتيجية دولية ، مع اعترافها الصريح بأنها جزء لا يتجزأ من مصر ، ولم يفت الجانب المصرى هذا كله عند قبوله النصوص فى الماضى مع حرصه على أن يسجل بأن الموانى البحرية والجوية فى ذاتها تحمل أيضا طابع الاهمية العالمية والدولية للملاحة والتجارة والاقتصاد العالمى والدولى •• وفارق شاسع بين اقرار الحياد وما يترتب عليه من نتائج وكون ميناء أو مطار له أهمية دولية أو عالمية ولم يفت البريطانيون فى جميع المراحل التى كانت لهم فى أثنائها الكلمة فى مصر أن يجاهروا بأن القناة جزء من مصر لا يتجزأ ، وحرصوا على التزام هذه الحدود لعلمهم بأن أى تسليم يخرج عن هذا المعنى من شأنه أن يستغل ضدهم بوصفهم انهم هم الذين يمارسون ما لمصر من حقوق فى البلاد •

***

انتهى الصراع بين بريطانيا وبين فرنسا وسائر الدول بالتسليم المطلق بأن مصر هى صاحبة الحق فى السيادة على القناة وبأن القناة جزء لا يتجزأ من أراضيها وبأن مصر وحدها هى صاحبة الحق فى اتخاذ الاجراءات للدفاع عن القناة كافة •

وبتوقيع اتفاقية القسطنطينية فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٨ سوى موضوع قناة السويس وتركت مصر لتواجه بريطانيا وحدها بعد أن اطمأنت الدول الأوروبية الى تسوية موضوع القناة الا أن فرنسا على الرغم من توقيع هذه الاتفاقية دأبت على مناوأة السياسة البريطانية فى مصر والتزمت سياستها المناوئة واقامة العراقيل أمام بريطانيا ، الى أن انتهى الأمر بينهما بتوقيع الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ ، هذا الاتفاق الذى مهد لفرنسا غزو مراكش •

الفصل الرابع عشر

غزو مراكش

« مراكش مركز الوعى الاسلامى الافريقى ــ الغــرب لا يسمح لدولة من دوله »
« بالاستئثار بالمغرب ــ عزل طنجة عن مراكش ــ اسبانيا ومراكش ــ حملة «أودونيل» »
« ((O'Donnel)) ــ شمال افريقية ملاذ الامبراطورية الفرنسية ــ الصراع بين »
« دول الغرب ــ معاهدة «الامارينا» ــ تصريح وادنجتون ــ الجـزائر ذريعة فرنســا »
« للتسلل الى مراكش ــ التنافس بين بريطانيا وفرنسا والمانيا ــ دلكاسييه يوضح »
« موقف فرنسا ــ اتفاقيــة عام ١٩٠٤ ــ نصيب اسبانيا ــ بريطانيا تحمى جبــل »
« طارق ــ المانيا تهدد ــ مؤتمــر الجزيراس ــ مراكش تسعى الى تدويل قضيتها ــ »
« الصراع بين المانيا وفرنسا ــ فرنســا تحتل مراكش عسكريا عام ١٩١١ ــ المظاهرة »
« البحرية الالمانية فى اغادير ــ فرنسا تعرض الحماية على مراكش ــ المارشال «ليوتى» »
« يعمل على تخدير الشــعب المراكشى ويجعل العمل السياسى فى مســتوى العمل »
« العســكرى ــ «ليوتى» يبحث عن الاعداء والعملاء ويعمل على حرمان العنــاصر »
« الوطنية من اهم المقومات ــ «ليوتى» يحكم مراكش عن طريق الشيوخ والرؤســاء »
« ويجعل منهم ســتارا ليكونوا له بمثابة العين والاذن ــ « ليوتى » يربط مصالح »
« الاستعمار بالاقطاع ورأس المال ويرسم الخطة الاســتعمارية رسما كاملا ودقيقا ــ »
« طراز من العملاء » .

كان ساسة الغرب يرقبون تطور الامور فى الشرق وكان الخطر الذى تلمحه أعين هؤلاء الساسة وتخشاه فى القرن الثامن عشر يتمثل فى مصر من الناحية العسكرية ، باعتبارها الدولة العربية الوحيدة التى يمكن أن يتجمع العرب حولها ولأنها أكثر الدول العربية صلاحية لتحمل عبء الزعامة السياسية والعسكرية ، كما كان المغرب ولا سيما مراكش تمثل مثل هذا الخطر فى عين ساسة الغرب ، ولكن من الناحية الدينية والروحية ، وذلك نظرا لان المغرب كان المركز الروحى للطرق الصوفية ــ ولا سيما الطريقتين التيجانية ــ والقدرية اللتين كانتا منتشرتين فى افريقية على أوسع نطاق ..

وكان الغرب يرى كما ذكرنا أن هذه الطرق الدينية هى السر فى قوة تماسك المغرب والمسلمين فى شمال افريقية والصحراء الكبرى وغربى

ووسط افريقية ويرى انها قديرة على ربط الشعوب فى وحدة الجنس واللغة والدين برباط أقوى من رباط الوطنية ووحدتهـــا التى لاتستند لغير الحدود الجغرافية والسياسية ، وكان واضحا أن مكانة حكام المغرب ولا سيما سلطان مراكش تقوم على الزعامة الدينية وتستند الى نسب الحاكم لأهل بيت رسول الله عليه الســلام ، أكثر مما تقوم هـــذه المكانة على الاعتبارات السياسية •

وبينما كانت دول الغرب تتطلع الى المغرب ، كانت أعين هذه الدول أيضا تراقب بعضها البعض ، وكانت كل دولة تتجسس على نوايا الدولة الأخرى بالنسبة للمغرب حيث تقع فى أراضيه « طنجة » وهى باب من أبواب البحر الابيض المتوسط يمكن لأية دولة تسيطر على المغـرب اغلاقه فى وجه سائر الدول وهو وضع لم تكن لتسمح دول الغرب لأى منهـا بالاستئثار به دون سائر الدول •

لذلك فقد أجمعت الدول العظمى على أن تجعل من الأراضى المتاخمة لمضيق جبل طارق قضية مستقلة عن قضية مراكش ذاتها فتجنبها الصراع الدولى حولها ••

لقد كانت السياسة الاسبانية تتخذ من وقوع بلادها تحت حكم العرب سبعة قرون ، سندا لها فى السيطرة على المغرب ، فقد ذهب رأى ساستها الى القول بأن سيطرة العرب وحكمهم لاسبانيا سبعمائة عام ، لم يكن ممكنا لو لم تكن الاراضى الاسبانية امتدادا طبيعيا لبلاد المغرب •• ومن ثم ، فانه بعد طرد آخر ملوك العرب من الاندلس ، حاولت اسبانيا أكثر من مرة غزو المغرب واستولت على بعض الجزر وبعض المدن لتجعل منها رأس جسر لعمليات الغزو فيما بعد •

ولقد دعا الساسة فى اسبانيا فى عام ١٨٥٩ الى تحقيق هدنة سياسية بين جميع الاحزاب وأعدوا لهذه الدعوة حملة دعائية واسعة بغية تكوين جبهة متحدة من جميع الاحزاب تمهيدا لغزو مراكش وفى ظل هذه الجبهة

قام الجنرال أودونيل (O'Donael) بقيادة الحملة التي استولت على مدينة « تطوان » ..

وعلى الرغم من ان الظـــروف السياسـية كانت جديرة أن تحمل أسبانيا بعد أن فقدت الكثير من مستعمراتها على الاتجاه الى غزو مراكش وبعد استيلاء فرنسا على الجزائر ، الا أن عجزها المادى أمام الدول العظمى أكرهها على العدول عن مشروعاتها الاستعمارية وعلى الاكتفاء بما تمنحها اياه تلك الدول .



أما فرنسا فانها بعد غزو الجزائر رأت أنه لا مناص من التوسع ، شرقا بالاستيلاء على تونس ، وقد حققت هذا الهدف فى عام ١٨٨١ ، ثم التوسع غربا ، بالاستيلاء على مراكش ، ليتسنى لها تـكوين امبرطورية تسيطر على شمال افريقيا وتتحكم فى الساحل الجنوبى للبحـر الأبيض المتوسط ، وبهذا تكفل لنفسها مستقبلا سياسـيا ، وتؤمن مسـتقبل امبراطوريتها بهذا الحصن الذى يمكن أن تلوذ به اذا ما قضى على أطراف امبراطوريتها فى بعض أنحاء العالم ..

ولقد وقفت بريطانيا ترقب هذا الصراع عن كثب لتدبر سياستها نحو تحقيق أهدافها ، فقد كانت تطمع فى غزو مصر وابعاد فرنسا عن تونس ومراكش ، وابعاد اسبانيا عن مراكش ، ومن أجل هذا فقد بادر الوزير البريطانى لورد جون راسل (Lord John Russel) الى وقف زحف الجيوش الاسبانية على طنجة عام ١٨٦٠ م وأمعن فى تهديد اسبانيا . فكان الصراع بين الدول العظمى فى تلك الحقبة ، على أشده وكانت فرنسا تخشى عـلى خططها فى شمال افريقية ، ومن ثم فقد اتجهت سياستها الى العمل على تثبيت نفوذها داخل مراكش ذاتها ، وذلك عن طريق ولاء بعض الزعماء المحليين لها ، كما عمـدت الى طمأنة الدول العظمى وازالة مخاوفها من تسلل فرنسا المحتمل الى مراكش فأخذت تصريحاتها تتوالى وكلها تؤكد حرص فرنسا على كفالة حرية المرور عبر مضيق جبل طارق ، وحرصها على فتح أبواب المغرب للتجارة العالمية دون أى عائق ..

لقد كانت فرنسا تخشى منافسة أية دولة لها فى مراكش تعتقد ان مثل هذا المنافسة تضعف نفوذها ـ حتما ـ فى شمال افريقية بأسره • ومن أجل ذلك فقد كانت على استعداد في كل وقت لأن تدفع ثمن انفرادها بالسيطرة على تلك البلاد •• ولقد جعلت من احتلالها للجزائر ذريعة للتدخل فى شئون تونس ومراكش ، بل انها عملت فى أول الأمر على فصلها عن الجزائر • وبفضل جهود ماتيودى لسبس (Mathieu de Lesseps) والد فرديناند دى لسبس تمكنت فرنسا من توقيع معاهدة مع تونس في الثامن من أغسطس عـام ١٨٣٠ تبيح لقـوات فرنسا مطاردة الوطنيين الجزائريين داخل حدود تونس • متوغلة داخل أراضيها •• ولقد كانت هذه المعاهدة سند فرنسا حينما شرعت فى احتلال تونس عام ١٨٨١ •

وحدث أن سلكت فرنسا المسلك نفسه وطبقت الاسلوب نفسه فى مراكش ، فعقدت معها المعاهدة المعروفة بمعاهدة « لامارينا » وبمقتضاها خول لفرنسا الحق فى مطاردة الوطنيين الجزائريين داخل مراكش كما عقدت فى عام ١٨٠٤ معاهدة مع مراكش لتعيين الحدود بين الجزائر ومراكش•

ولقد دأبت فرنسا على السعى لتعديل الحدود بما يتفق ومصلحتها، غير أنه حينما رغب الحاكم العام للجزائر فى اجراء هذا التعديل بحيث تصبح الحدود واضحة لا غموض فيها اعترض رئيس الوزراء الفـرنسى المسيو وادنجتون (Waddington) على مطلب الحاكم العام • وأسس اعتراضه على القول بأن الغموض فى الحدود يفسر دائما لمصلحة الجانب الاقوى ، وضد مصلحة الجانب الضعيف ، ومن أجل هذا فان فرنسا حرصت عـلى الابقاء دائما على موضوع النزاع على الحدود بينها وبين مراكش ، بحيث يبقى نزاعا قائما تستغله كلما عن لها ان تتدخل فى شئون مراكش •

وأشد ما كان يزعج فرنسا ويؤرقها ، تلك المقاومة الباسلة المستمدة من الوعى الاسلامى فى شمالى افريقية ، ذلك الوعى الذى تركز فى مراكش بعد احتلال فرنسا للجزائر وتونس • والذى طالما هدد كل مشروعات السياسة الفرنسية فى افريقية بأسرها •

كانت سياسة فرنسا تحتم عليها ـ لكن تؤمن استعمارها فى الجزائر وفى تونس أن تقضى عـلى مراكز الدعوة الاســـلامية المنبعثة من أعماق الصحراء الكبرى فتسحق هذه المراكز وتدمرها ـ وكان كل همها ـ عندما غزت الجزائر ان تحول دون تحقيق مطامع سائر الدول الأوروبية فى شمالى أفريقية • وأن تسعى من ناحية أخرى لاقامة علاقات من الـــود والصداقة بينها وبين سلاطين مراكش • كما راحت تعمل فى الوقت نفسه على تنمية العلاقات التى تربط بها خصوم السلاطين وتوثق بينهـــا وبين منافسيهم •



وهكذا أصبح على حكـــام مراكش أن يأخذوا فى اعتبارهم وهم يصرفون أمور بلدهم ، تلك المؤامرات التى تحيط بهم والتى تدبرها فرنسا من ناحية ، وتدبرها من الناحية الثانية الدول الاوروبية العظمى بسبب تنافسها على مراكش ذاتها ، فكان على هؤلاء الحكام المراكشيين أن يواجهوا أعداء فى الداخل فى الوقت الذى يواجهون فيه أعداء فى الخارج ـ وكانت الدول العظمى تدرك أنه لا مناص من أن يتقرر مصير مراكش ان عاجلا أو آجلا ، وأن هذا المصير رهن باتفاق هذه الدول على نصيب كل منها فى الغنيمة ••• ولذلك راحت كل دولة تعمل على أن تحقق لنفسها أقصى ما يمكن من المزايا فى هذا البلد •• ومن أجل هذا ، فانه ما أن أذيع فى أكتوبر سنة ١٨٨٧ أن السلطان مولاى الحسن فى حالة احتضـار ، حتى تسابقت أساطيل الدول الاوروبية ، مندفعة الى ميـــاه « طنجة » ـ استعداد لاقتسام مراكش ولكى تحول دون انفراد واحدة منها بالاستيلاء على هذا البلد ••• وقد كانت المنافسة على أشدها من أجل السيطرة على مراكش بين كل من فرنسا واسبانيا وبريطانيا والمانيا • • •

الا أن الامر كان أبعد مدى وأعمق اثرا من مسالة التنافس فى ذاته فاثارة مستقبل مراكش كانت تستتبع ـ حتما ـ اثارة مشكلة التوازن بين الدول الاوربية فى البحر الابيض المتوسط وفى المضايق وجبل طارق وطنجة ، وفى قناة السويس وتلك كانت مشكلات تحرص بريطانيا ـ اذ ذاك ـ على اسـتبعاد مناقشتها او اثارتها ، تجنبـــا لانفجارها ومن ثم فقد عملت على تاجيل البت فى المشكلة المراكشية

حتى لاتجر اثارتها الى اثارة الوضع فى مصر ، على حين لم تكن بريطانيا قد اتفقت بعد مع سائر الدول على مستقبل هذا الوضع كما لم تكن دول اوروبا قد ارتضت سيطرة بريطانيا على مصر ، ولم تكن قد اتفقت بعد ، على تنظيم وضع قناة السويس ، وما من شك في أن هـذه كلها كانت مشكلات معلقة تحتم عليهـا أن تصانع الدول العظمى الى أن يتم لها تحقيق سياستها المرسومة .

ولما تم عقد اتفاقية القسطنطينية وأقرت جميع الدول الاوروبية الامر الواقع فى مصر رأت بريطانيا أن توجه جانبا من نشاطها الى مراكش ، فحاولت عقد معاهدة معها في سـنة ١٨٩٢ لتحصل بموجبهـا على مزايا عسكرية وتجارية ، غير أن فرنسا وقفت لبريطانيا بالمرصاد وتمكنت من احباط محاولاتها وبدلا من أن يعقد سلطان مراكش معاهدة مع بريطانيا عقدها مع فرنسا ، وذلك بفضل المساعى التى بذلها الكـونت دوبينى (D'Aubigné) المبعوث الفرنسى الخاص لدى السلطان ... وبمقتضى هذه المعاهدة اختصت مراكش فرنسا بمعاملة جمركية استثنائية ، كما قبلت تعديل الحدود بينها وبين الجزائر تعديلا كان من شأن نصوصه أن مكنت لفرنسا مستقبلا من استغلالها أسوأ استغلال وأضرت بمصلحة البلاد .

وفى الوقت نفسه مضت فرنسا فى تطبيق سياسة التسلل البطىء داخل مراكش دون أن تقتحمها اقتحاما يكون من شـأنه ازعـاج الدول الاروبية العظمى واثارة مخاوفها من السياسة الفرنسيـة ولـذلك دأبت على أن تتذرع دائما ، فى هذا التسلل الاستعمارى بحجة المحافظة على الامن فى الجزائر وقمع الحركات الثورية والقضاء على قواعد الثوار فى مراكش ومطاردة الثوار الجزائريين داخل البلد .



وبهذه الحجة احتلت فرنسا فى سنة ١٩٠١ الواحات الجنوبية التى كانت فى قبضة القوات الجزائرية المناضلة ضد فرنسا وعرضت فى الوقت نفسه على السلطان عبد العزيز سلطان مراكش معاونتها له فى مكافحـة ما أسمته فرنسا بعناصر الفوضى ، التى وصفتها بأنها الفوضى التى تسىء الى ملكه وتعرض للخطر علاقات حسن الجوار بين مراكش والجزائر ، ومقابل هذا التعاون المفروض غصبا ، طالبت فرنسا بأن تكون لها الأفضلية على سائر

الدول الاوروبية تأسيســا على كونها بما تملكه من وسائل ومصــالح فى استطاعتها اما أن تكون أكثر الدول خطـرا على مراكش واما أن تــكون أصدقها واخلصها فى حماية مصالح مراكش ورعايتها والمحافظة على وحدة أراضيها .

* * *

ولقد رأت ألمانيا أن تستوضح من فرنسا موقفها وتعرف حقيقة أهدافها من مراكش ، فعهدت بهذا الى رادولان (Radolin) السفير الالمانى فى باريس ، ولما قابل السفير المسيو ديلكاسيه رئيس وزراء فرنسا فى ٢٣يونيو سنة ١٩٠١ ، واستوضحه ما أشيع عن سعى فرنسا لفرض حمايتها عـلى مراكش أجاب ديلكاسيه قائلا :

« اذا كان المقصود من كلمة الحماية هو أن يكون لفرنسا وهى سيدة الجزائر وسيدة تونس وضع خاص فى مراكش فان ذلك لا يحتــاج الى أى ايضاح ... »

ولقد مضى ديلكاسيه فى تنفيذ السياسة الفرنسية وعمل على أن تحصل فرنسا من مراكش على اقرار تسلم فيه بحماية فرنسا لها .

وكانت وسيلته الوحيدة فى ذلك الوسيلة التى اتبعتها السيـاســة الفرنسية فى تونس .. ولقد رأت فرنسا أن تتدخل عسكريا وأن تتسرب بجيوشيها الى الاراضى المراكشية زاعمة أنهــا تؤمن الحدود بين الجــزائر ومراكش ، وتعمل على اعادة النظــام الى هذا البلد وعلى تحقيق الأمن للبلدين معا .

وفى الوقت نفسه أوعزت فرنسا الى رجال المال فيها والى البنوك لكى تمهد للتسلل الاقتصادى الفرنسى .

* * *

وهكذا وبعد أن دبرت فرنسا خطتها للاستيلاء على مراكش بادر مسيو « ديلكاسيه » فى سنة ١٩٠٤ فطالب بريطانيا بالاعتراف بحق فرنسا ــ نظرا لاتصال حدودها بمراكش ــ فى أن يكون لها كامل الحرية فى

صيانة الامن واقراره والعمل على تحقيق النظام فى مراكش كما يكون لها الحق فى معاونة السلطان للقيام بجميع الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تدعو اليها حاجة البلاد ، وقد سلمت بريطانيا بهذه المطالب لفرنسا وكان ذلك اعترافا منها بالمعاونة الفرنسية المفروضة فرضا وقسرا على مراكش ، وكذلك سلمت بريطانيا بأحقيـة فرنسا فى المشاركة فى جميع شئون مراكش والسيطرة عليها وعلى جميع أراضيها ، وعلى هذه الصورة تمكنت فرنسا ـ بالاتفاق مع بريطانيا ـ من خلق وضع خاص لها فى مراكش ، وضع لم يكن نتيجة غزو بقوة السلاح ـ ولم يكن يستند الى نظام الحماية المعترف به دوليا ـ وانما كان بمثابة عملية تسرب سلمى ، عن طريقها تحققت لفرنسا المزايا التى طمعت فيها دون أن تثير وضع مراكش ، دوليا .

واذا كانت بريطانيا قد استجابت لطلب فرنسا وعقدت معهـا هذا الاتفاق فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ وهو ماعرف بالاتفاق الودى ، الا ان بريطانيا لم تكن لترضى بوجود فرنسا على أبواب البحر الابيض المتوسط تجاه جبل طارق .

ومن أجل هذا فقد حرصت على أن تضمن اتفاقيتها مع فرنسا نصا فى المادة الثامنة منها يقضى بان تتعهد فرنسا باحترام الحقـوق والمصالح الاسبانيـة التى تعين أن يكون لاسبانيا الحق فى ملكيـة الاراضى الممتدة على السـاحل المراكشى الواقع على البحـر الابيض المتوسط .

وبالاضافة الى هذا التعهد قبلت فرنسا بموجب اتفاقية ظلت محفوظة ضمن الوثائق السرية ولم يعرف أمرها الا فى سنة ١٩٦١ ، قبلت أن تتنازل لاسبانيا تنازلا كاملا عن جانب من الدولة المراكشية اذا ماتقرر تقسيم مراكش وقد علقت على هذا الاتفاق « الوصية على عرش اسبانيا ، فقالت ان اتفاق الغرب على مراكش ماهو الا امتداد للوصية التى اوصت بها ملكة اسبانيا أيام طرد العرب من الاندلس ».

وهكذا تمكنت بريطانيا من ارضاء فرنسا وفى الوقت نفسه أمنت مصالحها فى البحر الأبيض المتوسط اذ أبعـدت فرنسـا عن السـاحل المراكشى الواقع فى اتجاه جبل طارق ، وسلمته لاسبانيا ترضية لها .

❋ ❋ ❋

لقد كان من شأن الاتفاقيات التى عقدتها فرنسا مع بريطانيا عام ١٩٠٤ أن أطلقت يد فرنسا فى مراكش لتستولى عليها ، دون أن تخشى ـ على

الأقل - بريطانيا وتعرضها لها في هذا الصدد ، ولذلك شرعت فرنسا في اتخاذ اجراءات اكثر وضوحا واكثر ايجابية لتحقيق مطامعها بمراكش - ولم تكن الدول الاوروبية على علم بمضمون تلك الاتفاقيات .

ومن أجل هذا ، فقد أبدت فرنسا ، بالتواطؤ مع بريطانيا الحرص على سلامة أراضي مراكش ، كما زعمت للرأي العام الاوروبي أنها الدولة صاحبة الامتياز الاول عند تصفية المملكة المراكشية .

وهكذا مضت السياسة الفرنسية في اتجاه مزدوج انطوى على الخبث والدهاء ، فأخفت مشروعاتها التي أعدتها للاستيلاء على مراكش فلم يشعر بها السلطان ولا العالم الاوروبي عدا المانيا - وحدها - فقد كانت على بينة مما تدبره بريطانيا وفرنسا في هذا الشأن ، ولذلك فان المانيا وقفت في وجه المشروعات الفرنسية والبريطانية وأعلنت ان ما انتهى اليه الاتفاق بين هاتين الدولتين بالنسبة لمصير مراكش يعتبر اهانة موجهة الى سلطان مراكش ، وموجهة الى رؤساء الدول الاوروبية ولا سيما الامبراطور غليوم الثاني امبراطور ألمانيا الذي صرح - علنا - في طنجة في ٣١ من مارس سنة ١٩٠٤ .

« بأنه سيسخر كل مالديه من قوات مادية ليبقى سلطان مراكش ملكا على بلد مستقل مفتوح الابواب للمنافسة السلمية بين جميع الدول دون ان تتمكن دولة ما من الانفراد فيه بامتياز أو باحتكار أو اقتطاع جزء من اراضيه أو احداث ما يضر بالمصالح الالمانية . »

كما أعلن ان المانيا قادرة على الدفاع عن مصالحها ، وحذر سلطان مراكش من قبول الاصلاحات التي كانت فرنسا تسعى لاحداثها في بلاده ومما يترتب عليها من التزامات مالية ولا سيما أن المقصود من وراء هذه الاصلاحات ليس هو خير البلاد ، ولكن المقصود هو استدراج مراكش لتحمل اعباء والتزامات لاتقوى على القيام بها مستقبلا ، وتؤدي في النهاية الى تدمير البلاد وتحطيم كيانها .

وجدير بالذكر أن امبراطور المانيا - اذ ذاك - كان يصف نفسه «بأنه

صديق الاسلام » ولم تكتف المانيا بموقفها هذا ، بل راحت تثير المسألة فى المحافل الدولية وأعدت مذكرة طالبت فيها الدول الاوربية بعقد مؤتمر يضم فرنسا وبريطانيا بمناقشة الوضع الدولى لمراكش ، علنا .... وقد تجوب سلطان مراكش مع مساعى المانيا فوجه من ناحيته مذكرة فى ٣٠ من مايو سنة ١٩٠٥ يعزز فيها مذكرة المانيا المؤرخة فى ١٢ من ابريل سنة ١٩٠٥ وطالب السلطان باشتراك سائر الدول العظمى فى مناقشة الوضع الدولى لمراكش ومستقبلها فى هذا الشأن .

***

ولقد رأت فرنسا في موقف السلطان استفزازا وتحديا صريحين، ولكنها ، في الوقت نفسه ، اتجهت الى مساومة المانيا ، وانتهت هذه المساومة بقبول الدعوة لعقد المؤتمر مع تسليم المانيا بان مصالح فرنسا ووضعها الخاص الناشيء عن استيلائها وغزوها للجزائر ولجانب من اراضى الامبراطورية الشريفية ـ كل ذلك يجعل لها وضعا خاصا واجب الاحترام ـ فيما يتعلق بالعلاقات الخاصة التى نشأت بين مراكش والجزائر وفرنسا بوصفها مصالح قائمة بين دولتين متجاورتين ، ولما لفرنسا من مصلحة خاصة فى استتباب الامن والنظام فى مراكش ....

وبهذا تسنى لفرنسا أن تنجح فى فرض وضعها الخاص فى مراكش على سائر الدول واجتمع المؤتمر فى ميناء « الجزيرة » فى ١٥ من يناير سنة ١٩٠٦ واستمرت جلساته حتى ٧ ابريل من ذات السنة واشتركت فى اعماله دول المانيا والنمسا وبلجيكا واسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وهولاندا والبرتغال وروسيا والسويد ومراكش . ثم انتهى الى قرارات تضمنت تسليم جميع الدول بسيادة السلطان على مراكش وبوحدة الاراضى المراكشية ، وكفالة الحرية الاقتصادية بين سائر الدول دون أن يكون لاحدها اية أفضلية على غيرها ... على أن دول المؤتمر لم تعتبر قراراته بمثابة معاهدة بين مراكش من جانب وسائر الدول الاوروبية من جانب آخر وانما اعتبرتها معاهدة يلتزم بها موقعوها بلا

استثناء .... ومؤدى ذلك أن تلتزم كل دولة من جانبها باحترام ماتضمنته هذه القرارات من نصوص وتتقيد بما جاء فيها من أحكام .

الا أنه برغم صراحة هذا النص فقد زعمت فرنسا ، فيما بعد ، أنها في حل من أحكام قرارات المؤتمر مستندة في ذلك الى حجتين :

الحجة الأولى ، هي ما زعمته بانه لا يحق لمراكش الاستناد الى ماتضمنته هذه القرارات من ضمانات مالم تسلم لمجموعة الدول الاوربية بحقها في اجراء الأصلاحات الادارية والمالية الضرورية في البلاد المراكشية لكفالة الأمن والرفاهية وتحقيق أمن فرنسا الخاص على طول الحدود الجزائرية ، وهي شروط لامفر من تحقيقها لمصلحة السلم العالمي .

أما الحجة الثنية فهي ما ادعته من أنها لم تقبل المشاركة في أعمال المؤتمر الا بعد أن استثنيت من الخضوع لقراراته ، حقوق فرنسا البوليسية على طول الحدود بين مراكش والجزائر ، ولانه بناء على ذلك يكون لفرنسا الحق في مراقبة هذه الحدود وتتبع العصابات التي تستند الى قواعد في مراكش ومقاومة تهريب الاسلحة ، وكل ذلك يعتبر من الشئون الخاصة بالجزائر ومراكش دون أن يكون لاية دولة من الدول حق التدخل فيها، لان التدخل في مثل هذه الحالة ، يكون مساسا بما لفرنسا ولمراكش من حقوق ومصالح خاصة لاصلة لها بالاوضاع الدولية لمراكش ..

* * *

وعلى ضوء هذه السياسة الفرنسية ، نرى ، أنه بينما كانت مراكش تسعى من أجل تدويل قضيتها ، وحماية نفسها من المطامع الفرنسية ، كانت فرنسا تعمل على اثارة جميع العقبات التي من شأنها أن تضعف سلطة السلطان وتحد من ولايته على رعاياه وفي هذا الصدد طالبت فرنسا بأن يكون لها الحق في الاشتراك فعلا — في شئون مراكش الادارية ولا سيما الشئون البوليسية والاقتصادية بحيث تتم لها السيطرة على أعمال البنوك والجمارك .

وهكذا وضحت سياسة فرنسا التي ترمى الى أن تلحق مراكش

بتونس ليصبح البلدان ضمن الممتلكات الفرنسية فى شمالى افريقية ...
ولم يقف فى وجه المحاولات الفرنسية غير المانيـــا التى على الرغم من موقفها ضد فرنسا فان هذه . بالاتفاق مع اسبانيا تمكنت من الحصول على تصريح يخولها تولى أعمال البوليس فى ثمانية موان مراكشـــية ، كما استطاعت أن تحصل لنفسها على ثلاث حصص من أربع عشرة حصة فى بنك الدولة الذى كان مقره باريس وعلى أن يمثلها فى مجلس ادارة البنك عدد من الأعضاء يناسب الحصص المملوكة لها ، لذلك رخص لها فى ان تتولى بمفردها تسوية المسائل المتعلقة بالحدود القـــائمة بين مراكش والجزائر كافة ..



ظفرت فرنسا بموافقة الدول الأوروبية وبرغم معارضة المانيا فقد تم لها الاعتراف بهذه السيطرة ، ولكنها كانت سيطرة فى حدود الاتفاقيات السرية المعقودة بين فرنسا وبريطانيا .

وتمكنت السياسة الفرنسية ، من التغلب على السياسة الأوروبية التى كانت ترمى الى تدويل مراكش ، أو على الأقل كانت ترمى الى مشاركة دول اوروبا لفرنسا فى الحقل الاقتصادى بمراكش ، وانتهى الامر بانفراد فرنسا واسبانيا بجميع شئون هذا البلد وتمكنت فى الوقت نفسه من استبعاد تدخل الدول الأجنبية فيها :

ولكن ، على الرغم من الفشل الذى منيت به المانيا فى موقفهـا من مراكش حاولت انتهـــاج سياسة جديدة مع فرنســـا ، سياسة تتناول ، مستقبل افريقية ، عرضت فيها على فرنســا ان تشـترك الدولتان بمختلف امكانياتهما وبجهود رعاياهما لتحقيق حلف اقتصـادى من اجل التعاون التام بينهما فى الشئون المالية والتجارية والصناعية على ان يبدأ هذا التعاون ، فى مراكش كتجربة .

غير ان فرنسا لم تستجب لدعوة المانيا كما لم تستجب لمثل هذه الدعوة من أية دولة من الدول ، وأعلنت أنها لن تستمع الى أى عرض الا اذا أعلنت المانيا رسميا ــ تخليها عن كل مطمع فى مراكش ــ وبهذا رفضت فرنسا عرض التعاون الالمانى فى الوقت الذى كانت فيه اوروبا فى أشـد

الحاجة الى قيام تفاهم بين فرنسا وألمانيا من أجل مستقبل السلام فى أوروبا ، ونظرا لأن العرض الألمانى كان فى رأى الكثـيرين خطـوة الى الامام فى سبيل ازالة ما كان بين الدولتين من جفوة وخصومات ، وقد قيل وقتئذ أنه لو قبلت فرنسا عرض ألمانيا لكان من شـأن ذلك تجنيب أوروبا ويلات الحرب العالمية الاولى ، ولما اشتعلت نار هذه الحرب ، ولكن فرنسا لم تر فى ألمانيا غير منافس خطير وعدو قوى ، لذلك كان همها أن تتخلص من جميع منافسى واعداء سياستها فى مراكش ، وعملت على أن تضع أوروبا امام الأمر الواقع ....



ومن أجل ذلك أخذت تعمل على خلق حالة من الفوضى والاضطراب داخل مراكش لكى تتذرع بها لتدخلها العسكرى فى تلك البلاد .... وركزت جهودها بعـد مؤتمر « الجزيراس » لـكى تحول دون تحقيق اى وجه من وجوه الاصلاح حتى لايعرقل هذا الاصلاح الخطة الفرنسية التى تهدف الى ايجاد مسوغ للتدخل ...

وقد أعلن المعتمد الفرنسى فى مراكش ان الاضطرابات تزداد فى هذا البلد وتغرق الأداة الحكومية فى خضم من الارتباك والفوضى ، مما سيترتب عليه ــ حتما ــ احلال السيطرة الاجنبية محل الحكم الوطنى .

ومما يذكر ان المسيو « اتيين » ((Etienne)) وزير الداخلية الفرنسية قام بتنظيم جماعة عرفت بجماعة « نورث افريكا » (North Africa) أى جماعة « شمال افريقيا » ، وكانت مهمة هذه الجماعة تمويل وتغذية الاضطرابات الداخلية فى مراكش وخلق حالة من الفوضى تيسر لفرنسا أن تخلق المسوغ لتدخلها العسكرى .... ولكى تنفى فرنسا الشبهة فى هذا ، عن نفسها ، راحت الدعاية الفرنسية توجه أقطع الاتهامات الى المانيا كما راحت بريطانيا تعززها فى هذا السبيل الدعائى ...

ولكن المنافع التى يمكن الحصول عليها من وراء الجـريمة ، هى وحدها التى تسير دائما الى المجرم وتحدد مكانه .. ولهذا كان لابد أن

تتساءل من هي الدولة التي حصلت على المزايا والمنافع والنتائج الطيبة في مراكش أليست هي فرنسا .. فرنسا التي أثارت الاضطرابات في مدينة اولجا على الحدود الجزائرية المراكشية وانتهزت قيـــام حالة من التوتر في سنة ١٩٠٧ فاحتلت المنطقة باكملها .... وبعثت بعملائها من مثيري الاضطرابات ، الى موريتانيا والى ضواحي (طنجة) فقاموا بالاضطرابات التي كانت الذريعة التي تذرعت بها فرنسا لاحتلال المنطقـــــة بأسرها بالاشتراك مع أسبانيا ...

وفي يونيو سنة ١٩٠٧ ، قام عملاء فرنسا باثارة اضطرابات وفتن في الدار البيضاء انتهت بمصرع تسعة من العمال الأوروبيين .... وكان هذا الصدام حجة فرنسا التي استندت اليها في اتهام الحكومة المراكشية وتحميلها مسئولية ما وقع وطالبت بعزل هذه الحكومة ، وفي سبيل تأييد عملها الدبلوماسي لجأت الى القوة ... ففي ٥ أغسطس سنة ١٩٠٧قصفت مدافع الأسطول الفرنسي الدار البيضاء ، وانزلت قوة عسكرية تحت قيادة الجنرالين « دريد » (Dozide) و « دماد » (D'Amade) واعلنت الحكومة الفرنسية وقتئذ ، أن الجيش الفرنسي قد توســـع في عملياته الحربية داخل الاراضي المراكشية مخالفا في ذلك تعليمـــــات الحكومة .... ولكن هذا التوسع الذي زعمت حكومة فرنسا أنه كان على غير رغبتها كان متفقا في الزمن ، مع اندلاع ثورة في مراكش يقـــودها مولاي « حفيض » شقيق السلطان وانتهت بهزيمة السلطان الذي لم يجد امامه سوى الالتجاء الى الجيش الفرنسي لحمــــايته وكان ذلك في ١٩ أغسطس سنة ١٩٠٧ ... وبسبب هذه الثورة وما ترتب عليهـــا من استسلام السلطان وطلبه للحماية الفرنسية ، اصبح الوجـــود الفرنسي أمرا واقعا .

***

وأمام هذا التطور في الاحداث لم تستطع ألمانيا الســكوت وعادت ، فأثارت من جديد مسألة التفاهم الاقتصادي بينها وبين فرنسا ورأت فرنسا من جانبها ، ونزولا على الظروف القائمة أن تساير المانيا ، مسايرة شكلية،

فعقدت معها اتفاقا فى ٩ من فبراير سنة ١٩٠٨ اعترفت بموجبه المانيا بما لفرنسا من مصالح سياسية خاصة فى مراكش - وبارتباط هذه المصالح ارتباطا وثيقا بتثبيت النظام وتحقيق السلم الداخلى فى تلك البـــلاد وفى مقابل هذا الاعتراف قبلت فرنسا ان تقـــوم شركة من أبناء الدولتين بالعمل فى جميع الصفقات التى يمكن عقدها لمصلحة الشركة ....

وقد أرادت فرنسا بهذا الاتفاق أن تبدد مخاوف ألمانيا من سياستها ، وأن تغريها بالكسب المادى غير أن حقيقة الأمر هى أن فرنسا كانت تستهدف التحرر من كل ضغط للسياسة الالمانية ، وكانت نيتها منطـــوية على عدم تمكين الالمان من مشاركة الفرنسيين فى نشاطهم الاقتصادى بمراكش .

وبهذا قويت .... قبضة فرنسا على مراكش وأصبح السلطان خاضعا خضوعا تاما لها ..

بل ان بقاءه على عرشه كان رهنا بمشيئة فرنسا ... ومضت فرنسا فى اثارة الاضطرابات والثورات الداخليـــة حتى أكره السلطان على طلب العون العسكرى منها فى ابريل سنة ١٩١١ وكانت هى تترقب هـــذه الدعـــوة لكى تدخل مراكش فاتحة وغازية تحت ستار التأييد لعرش السلطان وحمايته ، وقد دخلت الجيوش الفرنسية مراكش لا لتثبت السلطان على عرشه بل لتحتل البلاد .

***

وأمام هذه التطورات اثارت ألمانيا وضع فرنسا - من جديد - فى مراكش وكان من شأن هذا الموقف الذى وقفته المانيا أن ترددت فرنسا فى الاجهاز على مراكش اجهازا كاملا .... الا أنه امام قوة اندفاع تيـــار الاحداث رأت ألمانيا أن تقوم بمظاهرة بحرية لردع فرنسا ووقف مطامعها عند حد ، فبعثت بقوات بحرية الى ميناء أغادير ....

وقد فزعت أوروبا من هذه المظاهرة ، وهبت بريطانيا للوقوف الى جانب فرنسا .. ولكن فرنســا رات امام مايحيط بموقفهـــا من مخاطر ان تذعن ولو مؤقتا لمطالب المانيافعقدت اتفاقية فى ٤ من نوفمبر سنة ١٩١١ تضمنت اعتراف فرنسا بتوسع المانيا فى الاراضى الافريقية مقابل موافقة المانيـــا لفرنسا على ان تطلق يـــدها فى مراكش وعلى ان تكون لها حرية العمل فيها .

وفي ٣٠ من مارس سنة ١٩١٢ أكره سلطان مراكش على توقيع اتفاقية تعلن الحماية على بلاده وفي ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٣ انضمت اسبانيا الى هذه المعاهدة .

وهكذا تم لفرنسا من الوجهة السياسية السيطرة على مراكش وان كانت هذه من الوجهة الفعلية لم تخضع أو تخنع لان سيطرة فرنسا عليها كانت بداية الكفاح المرير بين المراكشيين وفرنسا .. وأصبح الفرنسى هو العدو الذى يقدس المراكشى كفاحه ويستهدف طرده من بلاده .

فمنذ توقيع معاهدة الحماية ادرك الشعب المراكشى أن فرنسا هى خصمه الوحيد وأن الفرنسيين هم اعداؤه الألداء ، وحرص ابناء مراكش على تركيز مقاومتهم وكفاحهم ضد الفرنسيين دون سائر الاجانب .ولقد هزت معاهدة الحماية مراكش بأسرها ... فثارت فيها العناصر الوطنية جميعها ... مما اضطر فرنسا الى الالتجاء للاستعمارى الفرنسى الأول « ليوتى » (Lyautey) لكى يخضع مراكش لسلطاتها عسكريا وسياسيا .. وقد كان هدف الماريشال « ليوتى » عندما قبل هذه المهمة أن يسخر كل قوى فرنسا فى مراكش ليجعل من العدوان الفرنسى اجراء قصد منه الرعاية والتهدئة والخير والبركة لمراكش ... كان هدفه العمل على تخدير الشعب المراكشى وتبديد مخاوفه ليهضم الحماية التى فرضتها عليه فرنسا .... كان هدف ليوتى اظهار فرنسا بمظهر الدولة الحريصة الراعية لحقوق المراكشيين وحمايتهم من الاستبداد والاستغلال ، وهى ذات الخطة التى انتهجها فى مصر « لورد كرومر » ....

كان فى رأى « ليوتى » انه لزاما على فرنسا أن تجعل عملها السياسى فى مستوى العمل العسكرى بل أكثر من هذا كان يقول أن العمل العسكرى الهدف منه تفجير مراكز المقاومة ، أما من الناحية السياسية فان على فرنسا ان تبذل جميع جهودها داخل المجتمع المراكشى لاثارة الاحقاد والفتن فى أوساطه ولتستغل مايكون بينهم من خصومات ومنافسات وخلافات داخلية ، تستغل ذلك كله لمصلحة سياستها وعليها أن تركز جهودها فى أول الامر على المترددين من أبناء مراكش ... وان تستغل المطامع والشهوات الشخصية ، وان تعيد التنظيم الادارى فى مراكش عن طريق تقوية السلطة المحلية التى يتزعمها رؤساء وشيوخ العشائر والقبائل ... كان الماريشال ليوتى يقول فى تعليماته التى يصدرها لمعاونيه ، « عليكم أن تدلونى على أولئكم الاشخاص الذين يصلحون لتمثيل مصالح السلطان أولئكم الاشخاص

الذين يختلفون – حتما – باختلاف القبائل والذين يتعين علينا أن نجعل منهم العناصر التي تتعاون معنا للتأثير على العناصر الوطنية ».. كان يحرص على تذكير معاونيه بان الطابع الظاهر لجميع تصرفاتهم يجب أن يكون في نطاق الولاء للسلطان ، وبهذا يحرمون العناصر الوطنية من أهم مقومات دعايتهم ضد فرنسا ...

يقول ليوتي اننا سنحكم مراكش عن طريق الشيوخ والرؤساء وبهذا تسقط حجة خصومنا أو اتهامهم لنا باننا نحكم البلاد حكما مباشرا ... ويمضي ليوتي فيقول :

« علينا أن نكسب ولاء القبائل لعملائنا ، لنجعلهم يسيرون في ركابنا لنربط مصالحهم بمصالحنا علينا أن نجعلهم طرفا معنا في قضية واحدة ... وبهذا فقط نتمكن من القضاء على العناصر الوطنية .. « ويقول « ليوتي » ان المستعمر في أشد الحاجة دائما الى ستار من الوطنيين ستار يحجبه عن الانظار ويكون له بمثابة العين والاذن ، ويكفل له الامن .. فاذا لم يتوافر له هذا الستار فلن يتمكن من الحياة في أمن واستقرار » .

***

أما عن الوسائل التي كان يدبرها ليوتي لتطبيق سياسته في مراكش ، فهي الاستعانة ببعض الضباط لاثارة الاحقاد والفتن ولشراء الذمم ولكسب الأنصار ، ولم يكن يفيدهم بأي وضع ولا بأي نظام كما كان يضع الاموال الطائلة تحت تصرفهم ودون حساب أو رقابة . وكان ينصح اليهم بالعمل على كسب عناصر تكون ذات صلة بالقوات الوطنية لكي يستعينوا بهم على معرفة تحركات هذه القوى ويحثهم على استخدام من يجلبون لفرنسا ثقة الوطنيين ، وبذلك يكون لفرنسا اعين وعملاء في كل مكان وبين كل مجموعة من الاهلين .

بعث ليوتي بتعليماته الى الجنرال « جورو » الذي أدى دورا هاما في فتح سوريا بعد الحرب العالمية الاولى ، بعث اليه بتعليمات يقول فيها « اذا تعذر عليكم في مناطق عملكم أن تقيموا صلات ذات أثر ونفوذ وفاعلية مع كبار الرؤساء والشيوخ ، فعليكم أن تعملوا على قيام اتصال مباشر بينكم وبين أفراد الشعب ، عليكم أن تقوموا شخصيا بالدعاية وتتصلوا بتلك الزمر المتعددة من صغار الاعيان والملاك والتجار لتكسبوهم في صفكم ... وان هذه الوسيلة طويلة المدى وتتطلب جهدا كبيرا ولكنها ذات أثر باق لانه بحكم الصلة الوثيقة وما يترتب عليها من ارتباط المصالح وتشابكها ولاسيما اذا ماكنتم ستعهدون الى هذه الطائفة بالاعمال التموينية والتجارية ، فان الامر سينتهي بربط مصالح هذه الفئات بمصالحنا ، وتقضي تدريجيا على شعور هذه البيئات بالعداء نحونا ... أما في المناطق التي تتمكن رؤساء القبائل والعشائر فيها ، فلابد من تثبيت هذه الصلة ، وانه من السهل علينا أن نكسب ود وولاء عدد محدود من أصحاب المكانة والنفوذ ونعمل على ارضائهم لنضمن ولاء واخلاص كل اتباعهم والموالين

لهم ... ان هـــذا الاجراء الاخير لا يحتـــاج الى جهد كبير وينتهى الى نتيجة اسرع من حيث الظاهر ، وبراقة فى الوقت نفسه الا انه اسلوب غير مأمون العاقبة ، لانه يباعد بيننا وبين سائر افراد الشعب ولايكفل اتصالنا بعامة الناس وغالبيتهم ، وتكـــون او يكونون بمعزل عنـــا ، فيستمر فى عدائه لنا واذا مابدا منه خضوع لنا فلايكون الاخضوعا زائفا امتثالا لاوامر زعيمه او رئيسه ، لاخضوعا نتيجـــة لارتبـــاط فى مصلحة مشتركة ، او نتيجة لفائدة معينة دعت اليها حاجته ».

ثم يسترسل الماريشال « ليوتى » فيقول ... « اننى لا اتردد فى اختيار الاسلوب الذى يمكننا من التفاهم مع كبار الزعماء ورؤساء القبائل والعشائر لان ذلك الاسلوب اكثر مطابقة لوسائل الحمايةولانه اكثر مرونة واقل نفقات ويتطلب عددا اقل من الموظفين ومن العملاء ويتطلب وقتا اقل ويحقق بالاضـــافة الى هذا كله احترام تقاليد وعادات البلاد من حيث الشكل ، لانه يبعدها عن التدخل المباشر .

***

وينتقد الماريشال « ليوتى » ماكانت تجرى عليه سياسة فرنسا من محاولة فرض اشخاص بالذات على السلطان او على الشـــعب ، فيقول « ان من اكبر الاخطاء أن تحـــاولوا فرض أشخاص وخلق مكانة لهم بخلع الالقاب عليهم وبمنحهم التكريم الشكلى فىالوقت الذىتقتضى فيه المصلحة أن نجعل من أصحاب المكانة والنفوذ اتباعا لنا عن طريق ربط مصالحهم بمصالحنا ...

ثم يمضى ليوتى فى رسم سياسته الاستعمارية فيقول بانمصلحة فرنسا ليست مقصورة على كسب زعماء القبائل ورؤساء العشائر بل وفى كسب السلطان ذاته بربط مصلحته بمصالح الاســتعمار وجعله جزءا من سياستنا بدلا من ان يكون منفصلا عنها ...

***

لقد رسم « ليوتى » الخطوط الرئيسية للسياسة الفرنسية الاستعمارية وكان يهدف من وراء هذا كله الى القضاء على مقاومة المراكشيين ، ولكن كان لزاما عليه أن يعترف بالامر الواقع ويسلم بقوة وجدية وخطـــورة المقاومة التى كانت تلقاها فرنسا من العناصر الوطنية .

يقول الماريشال « ليوتى » ان الصعوبات التى كانت تواجهنـــا كانت تزداد خطورة يوما بعـــد يوم كان لزاما علينـــا ان نواجه العدو خارج المدن ، كما كان علينا ان نكبح جماح العناصر الوطنية داخـــل المدن . كانت الطبقات الغنية ذات المصالح على استعداد للارتباط بنـــا ولكن جموع الشعب كانت دائما على استعداد للتعـــاون مع العناصر الوطنية ومهاجمتنا ... لقد كان هذا الخطر قائما نشعر به بصفـــة مستمرة ــ كان علينا ان نراقب جنود السلطان ، كان علينا ان نراقب

العناصر الوطنية ثم نراقب الشعب المراكشي ، كان علينا ان نراقب قصر السلطان والسلطان الذى كان دائما مصدر اكبر خطـر علينا ، وكان على استعداد دائم لان يتخذ ضدنا اسوا القــرارات ، كما كان مستعدا للتنازل عن العرش كي يتخلص من سيطرتنا » وهو اجراء لو أنه تم لخلق لفرنسا اعقد المشكلات .... وكان في استطاعته انيهرب دون أن يتنازل عن عرشه ، ومن اجل هذا فقد كان لزاما علينا انبذل الجهد لتسكين خواطره وللابقاء على سلطته ولو الى حين ....

ويمضى الماريشال « ليوتى » في عرض مالقيته فرنسا من عقبات في سبيل استعمار مراكش والاستيلاء عليها ، ويصف الثورة التي قادها «حبه» عندما أعلن الحرب المقدسة ضد الاستعمار الفرنسي فيقــول « ان تآمر مولاى حفيض في الحركة الثورية التى قام بها حبه لأمر مؤكد .. لقد كنا نشك في تآمرهما ، ولذلك اقترحت بان توجه الدعوة لمولاى حفيض ليزور فرنسا على أن تستبقيه السلطات الفرنســية فى باريس دون أن تسمح له بالعودة الى مراكش ويقول الماريشال ليــوتى فى مذكراته في مقام آخر »

((يتعين على فرنسا ان تذكر انه منذ وقعت معاهدة الحمـاية فقــد وجدت مراكشين ... مـراكش التى نحتلها والتى لاتستطيع مقاومتنا عسكريا ويحكمها ((المخزن)) بلا قوات وبلا نقود ..ومراكش اخرى تتكون من العناصر الوطنية التي يهزها من اعماقهــا التعصب والتى تملك الوسائل المادية لمقاومتنا والتى تستطيع ان تقف في وجهنا بتأثير عوامل لاسيطرة لنا عليها ، لقد وجدت امامى بلدا وشعبا تبلغ مقاومته اربعة اضعاف تلك المقاومة التى لقيناهــا فى الجـزائر ... مقاومة اكثر تعصبا ، واقوى تمسكا واحسن تسلحا تســاندها الدعاية الاجنبية ... انى اعلم أن الحــــالة في أوروبا لاتسمح لى بالتوسع فى عمليــاتى ، ولكنى اطلب من فرنسا أن تعاوننى بالمال الذى ســوف يعوضنى عن الرجال فى انجاز مهمتى فى مراكش)) ..

***

ان الماريشال «ليوتى» يطلب المال ليشترى العملاء وليــدفع ثمن الخيانة والغدر .... ولكن بالرغم من القوة بالرغم من الخيانة ، بالرغم من المال ، فقد مضت حركة المقاومة في طريقها .... ان « ليوتى » يعترف بوجود هذه المقاومة ، ويخشى خطرها ويكتب فى هذا يقول فى خوف ..!

« لقد ذكر لى سى محمد المكي شريف الوزان الذى انعمنــا عليه

بالاوسمة في ١٤ من يونيو والذى كان افضل العملاء السياسيين لعمليات الجنرال « غورو » والذى تعتبره فرنسا من أخلص عملائها. ذكر أن الحالة في مراكش سيئة ، وكل المظاهر فيها تدعو الى القلق وان قبائل مراكش تتاهب دائما القتال ، فهى تبكر بضم محصولاتها واختزان اقواتها في الجبال ... ان التفاهم يسود جميع العناصر الوطنية من الشمال الى الشرق الى الجنوب .. وان جميع العناصر الوطنية بالرغم مما قد يقع بينها من خلاف تجمع على ثلاثة أمور . الاول العمل على اثارة الشعور الوطني ضد الاحتلال الفرنسى بالنيل من مكانة فرنسا وكرامتها ، والثانى العمل على ايجاد عناصر محرضة مسلحة تنشر بين مختلف العناصر المراكشية كراهية الفرنسيين وعلى ايجاد خلايا دائمة ومنظمة داخل كل مجموعة ثورية ، والامر الثالث ، هو العمل على كسب حكومة المخزن والسلطان الى جانب الحركة الوطنية !! وقد قال لى عميل فرنسا سى محمد المكى !! انكم أيها الفرنسيون لن تكونوا قوة كافية لمواجهة هذا التهديد المستمر بالرغم مما أصاب العناصر الوطنية من ضربات وما سيصيبها منها في المستقبل ويقول بأن العناصر الوطنية تؤمن بان لقدرتكم العسكرية حدودا ، ومهما ارسلتم من قوات فان في مقدورهم أن ينهكوا قواكم ، فانهم سيستطيعون بمضى الزمن واعتمادا على تفاعل الاحداث وعلى طول الاجهاد التنكيل بكم بصفة دائمة وتكبيدكم الخسائر الفادحة أما ماتصاب به هذه العناصر الوطنية من الخسائر فان في استطاعتها أن تجددها بصفة دائمة يعززهم في ذلك ايمانهم بأنهم يجاهدون في سبيل وطنهم وعقيدتهم ويمضى الخائن العميل فيشير على فرنسا بالاجراءات السياسية والعسكرية التى يمكنها أن تواجه بها الحركة الوطنية

***

وهكذا ، لم تعدم فرنسا في البلاد التى احتلتها مثل تلك العناصر التى دأبت على التنكيل بالحركات الوطنية ومد الاجنبى الغاصب الغازى بما يمكنه من القضاء على المقاومة الوطنية .

غير أن ذلك كله لم يكن ليرد عجلة الزمن الى الوراء ويحول دون انبعاث الحركات الوطنية لتجرف في سبيلها كل عدوان على حرية الشعوب وحقها في الاستقلال ..

وبوقوع مراكش في قبضة الاحتلال ، لم يكن باقيا في افريقيـة العربية والاسلامية بلد بعيد عن متناول الاستعمار الغربى ، الا ليبيا ..

الفصل الخامس عشر

غــــزو ليبــيا

« مطامع ايطاليا فى افريقية ـ الغرب يعطى ايطاليا ليبيا ـ «جيوفانى جيليوتى» رئيس وزراء ايطاليا يوضح الموقف الدولى وقتئذ ـ موقف ايطاليا من الباب العالى ـ ايطاليا تستعين بالعملاء فى الشرق ـ ايطاليا تمهد سياسيا لحملة الغزو ـ الباب العالى يعرض على ايطاليا مزايا فى العراق ـ «جيولوتى» يحدد موقف ايطاليـا ـ نصيحة وزير الخارجية البريطانية ـ نصيحة وزير الخارجية البريطانية نصيحـة روسيا ـ موقف المانيا والنمسا ومستقبل الحلف الثلاثى ـ الحملة العسكرية ـ ايطاليا تتجنب الاشتباك فى معارك بحرية على ساحل الاناضول ـ توقيت الغزو ـ الانذار النهائى ـ الغزو ـ بريطانيا تطالب الباب العـالى بالتسليم المطلق بسيادة ايطاليا على ليبيا ـ وساطة روسيا ـ ايطاليا تعمل على توسيع رقعة القتال لتعقد الموقف ـ نجاح الخطة الايطالية ـ جهاد العرب ـ استسلام الباب العالى ـ غزو ليبيا من مقدمات الحرب العالمية الأولى ـ الموقف الدولى بعد الغزو الايطالى . »

قضى مؤتمر برلين على ايطاليا بالتخلى عن مطامعها فى تونس لمصلحة فرنسا كما قضى الاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا فى سنة ١٩٠٤ على حلم ايطاليا بامبراطورية عظمى فى افريقية تضم الحبشـــة والاراضى السودانية الممتدة من البحر الاحمر والمحيط الهنـــدى حتى الصحراء الكبرى وبحيرة تشاد تلك المناطق التى كانت ايطاليا تحلم بضمها الى ارتيريا والصومال وقد رأت هذه الدولة ان تقنع بما تركته لها الدول العظمى من أسلابها فى الامبراطورية العثمانية ولا سيما بعـد الاتفاقيات التى عقدت بين فرنسا والمانيا وبين فرنسا واسبانيا عقب الاتفاق الودى ، والتى بموجبها قررت الدول الاوروبية مصير القارة الافريقيـــة عامة ، وحددت مصير شمال افريقية بأسره بما فى ذلك مصر ومراكش ، وقد اعترفت كل هذه الاتفاقيات لايطاليا بحقوق ومصالح تمتاز بها ايطاليا على سائر الدول الاوروبية فى برقة وطرابلس ومن ثم فى ليبيـــا التى كانت خاضعة اذ ذاك للامبراطورية العثمانية •

وكان على ايطاليا من جانبها ان تقنع وان تكتفى بهذه الغنيمة الى حين،

ثم راحت تمهد للاستيلاء على ليبيا تنفيذا لما قضت به الاتفاقيات التى أشرنا اليها ، ومن ثم فقد انطلقت تعمل فى ميدان السياسة الدولية ٠٠٠٠ وكان عليها ان تعمل فى حذر ، وحرص وفى سرية تامة تتلاءم وسرية نصوص الاتفاقيات ٠

وكانت المانيا ، وهى طرف من اطراف هذه الاتفاقيات فى شبه‌تحالف مع الباب العالى ، بل انه ليمكن القول بأن المانيا فى اثنـــــاء تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الدولة العثمانية كانت تتولى حمايتها ٠٠

ويقول السنيور جيوفانى ((Giovanni Guiliotti رئيس مجلس الوزراء الايطالى وقتئــذ فى مذكراته « لقد كنت أدرك خطورة مشكلة القارة الافريقية ولا سميا الجزء الواقع منهـــا على البحر الأبيض المتوسط وادرك ما كانت تحتمه الضرورة من اشتراك ايطاليا فى كل حل لتقرير مصير هذه المنطقة ، وكنت من الناقمين على ذلك المصير الذى انتهت اليه تونس ومن الناقمين على سياسة الحكومة الايطالية التى أقصتها عن مشاركة بريطانيا فيما اتخذته من أعمال ضد احتلالها لمصر ، الا أن هذه الاحداث انتهت الى تسليم فرنسا وبريطانيا لايطاليا بأحقيتهافى ليبيا مقابل تنازلنا عن أى مطمع فى مصر أو مراكش » ٠

ويمضى رئيس الوزراء الايطالى فيقول « اننا لم نكتف برضاء فرنسا وبريطانيا أو المانيا واسبانيا بل رأينا انه لابد من الحصول على موافقـــة روسيا ، وقد حصلنا ، فعلا ، عند زيارة قيصر روسيا الى ايطاليا ، على اقرار صريح لما سيكون لنا من وضع خاص متميز فى ليبيا ٠٠٠٠

ولقد رأت ايطاليا ، تأكيدا لهذا الوضع المرتقب أن تعدل المـــــادة التاسعة من الحلف الثلاثى الذى كان قائما بينها وبين النمسا والمانيافحصلت من الدولتين على اقرار صريح بتجردهما من كل غرض يرمى الى مزاحمة ايطاليا حالا ومستقبلا فى ليبيا ٠

كما نص الاقرار صراحة على ان هذا الاتجاه من جانب الدولتـين

دون مقابل أو عوض بأى حال من الاحوال يمكن ان تطالبا به ايطاليا مستقبلا ....

ولقد كان على ايطاليا ، وقد أمنت موقفها ومصالحها من جانب الدول الاوروبية ان تواجه الموقف المحتمل بينها وبين الباب العالى ولاسيمااحتمال نشوب حرب بينهما تمكن ايطاليا من الاستيلاء ، فعلا على ليبيا ـ كان لابد لايطاليا قبل ان تخوض غمار الحرب ، أن تعد وتمهد للمعركة السياسية بينها وبين الباب العالى ....

ويقول رئيس الوزراء الايطالى فى مذكراته انه كان علينا أن نمهد لاحتلالنا بتهيئة رأى عام موال لنا فى ليبيا ، وباستغلال ما كان ناشبا من خلاف بين السلطات التركية وبين الشيوخ والرؤساء المحليين فى ليبيا .

ويقول رئيس الوزراء بأنه ، قام شخصيا بتنظيم تلك الحملةالسياسية التى اختار لها العديد من ابناء المشرق وكان معهم السيد محمد على علوى الذى كان من أنشط العملاء فى خدمة ايطاليا كما كان فى الوقت نفسه على صلة وثيقة بالزعماء السنوسيين ....

ويستطرد رئيس الوزراء فيقول انه كان حريصا كل الحرص على كسب تأييد وولاء الكثيرين من العناصر التى كانت موضع ثقة السنوسى والتى كانت تخالط السنوسيين وتمتزج بهم فى مصر أو فى ليبيا .

وتقول المذكرات ، « لقد كان ظهور الحركة الوطنية التركية التى تزعمها الشباب من الاسباب التى دعمت اصرارنا على احتلال ليبيا عسكريا وعدم الاكتفاء بمجرد مزايا وامتيازات اقتصادية وقضائية كاملة ـ تحمى مصالح ايطاليا وتجنبنا فى ليبيا حالا ومستقبلا ، وتجنب الايطاليين أية منافسة اجنبية وتضمن لهم الاستقرار الكامل والسيطرة على البلاد .

ويقول رئيس الوزراء « اننا حينما حاولنا تطبيق وتنفيذ هذه السياسة فوجئنا بالباب العالى يعرض علينا هذه المزايا وتلك الامتيازات ، ولكنه يعرضها لا لنتمتع بها فى ليبيا ولكن فى العراق حيث كان الصراع هناك على أشده بين المانيا وبريطانيا ومعنى هذا ان السياسة التركية كانت تهدف

الى أن تلقى بايطاليا في ذلك الصراع الاوروبي الذى كنا حريصين أشد الحرص على تجنبه حتى أننا انتهجنا سياسة الاكتفاء بليبيا تحاشيا لاية منافسة أو مزاحمة مع سائر الدول الاوروبية على أسلاب هذه الدول من الامبراطورية العثمانية •

ثم يصرح رئيس الوزراء الايطالى فى مذكراته بأن موقف ايطاليا في ليبيا وقتئذ كان شبيها بموقف دائن ارتهن له عقارا يفيد منه فلا مناص له من اختيار أحد أمرين ـ فاما أن يطالب بدينه ويستولى على ضمانه ، واما ان يتخلى عنه ، وكانت مشكلتهما هي الاسلوب الذى يصلح لان تسلكه ايطاليا كان من الأوفق أن تواجه الموقف بصراحة وتستند الى ما عقد من اتفاقيات سرية وتجاهر بها وتشرع بمقتضى ذلك فى احتلال ليبيا أم ان عليها ان تتلمس المسوغات السياسية التى بمتقاضاها يحق لها اتخاذ الاعمال العسكرية المقررة دون ان تصطبغ تلك الاعمال بطابع العدوان •••• ذلك هو السؤال الذى طرحه رئيس الوزراء الايطالى على زملائه وقتئذ ••• وتقول المذكرات « لقد كان علينا أن نعزل المشكلة الليبية عن سائر المشكلات الكبرى التى كانت تواجه العالم الاوروبى وقتئذ كما كان على ايطاليا ان تواجه مختلف المشكلات العسكرية المحتملة لان « تركيا الفتاة » كانت قد شرعت ، فعلا فى تعزيز تسليح الدولة العثمانية وعلى الرغم من أن هذه الدولة كانت تفتقر فعلا الى اسطول قوى يمكنه التصدى للقوات الغازية الا انه كان من المحتمل ان تتمكن من ارسال حملات عسكرية برية تعزز بها حامياتها فى ليبيا ، فتقيم بذلك صعوبات جسيمة امام عمليات انزال جنودنا فى حملة الغزو المبيتة •

ويقول رئيس الوزراء ان ما كنا نعده من الاجراءات لغزو ليبيا ، لم يخف على الدولة العثمانية • ولذلك شرع الباب العالى فى مضايقتنا فى مشروعاتنا الاقتصادية فى ليبيا ، وقد اتخذت ذلك كله ذريعة ضد الباب العالى من أجل شن حملة ضده فى الصحافة الايطالية وكان الغرض من هذه الحملة تهيئة الرأى العام العالمى لحملة الغزو المنتظر •

لقد كان على ايطاليا ان تمهد لحملة الغزو بالحصول سلفا على موافقة

الدول الاوروبية العظمى فشرعت في مفاتحة بريطانيا باعتبارها اكثر الدول اهتماما بمستقبل الدولة العثمانية ، ولما عرض السفير الايطالى المركيز امبريالى ، الامر على سير ادوار جراى وزير الخارجية البريطانية أفهمه هذا الاخير بأنه لابد ان نستند في عدواننا الى اعتداء الباب العالى على الحقوق المقررة لايطاليا ـ ولا بد من الاعلان عما ينتويه الباب العالى من ايقاع الضرر بمصالح ايطاليا ـ الاقتصادية ، وتعزيز ذلك الاعلان بالادلة حتى يتسنى للحكومة البريطانية الدفاع عن موقفها حينما تعلن تأييدها ومباركتها للحملة الايطالية والدفاع عنها في مجلس العموم البريطانى ..

ويقول رئيس الوزراء الايطالى ان الحكومة البريطانية أبلغته وقتئذ بأنه ما من حل للموقف سوى ذلك الحل الذى ازمعت ايطاليا الاقدام عليه .

وفي الوقت الذى كانت تقف فيه بريطانيا من ايطاليا هذا الموقف المنطوى على التواطؤ والتأييد ، رأى الباب العالى ان يستنجد بالحكومه البريطانية لكى تتدخل لدى ايطاليا تدخلا يخفف من غلوائها ، ويحد من مطامعها ولمنعها من القيام بعمل عدوانى ضد الباب العالى ، ولكن سير ادوارد جراى وزير خارجية بريطانيا صرح لسفير الباب العالى بأن مشكلة ليبيا مشكلة تخص ايطاليا وتركيا وحدهما ، وليس في نية الحكومة البريطانية ان تتدخل بأى شكل من الاشكال حتى لو انتهى الامر باقدام ايطاليا على احتلال برقة وطرابلس ....

وقامت ايطاليا بمسعى لدى الحكومة الفرنسية وحصلت من الوزارة الفرنسية على تأييد مطلق غير مشروط للعدوان الذى كانت قد بيتت عليه نيتها ، كما اتصلت في الوقت نفسه بالحكومة الروسية وذكرتها بذلك الاتفاق الذى عقده القيصر في سنة ١٩١٧ والذى اعترف فيه بأحقية ايطاليا في استغلال ليبيا .

وفي مذكراته يقول رئيس الوزراء .

ان الحكومة الروسية قد أجابته يومئذ بالموافقة وشفعت موافقتها

برجائها فى ألا يجاوز عمل ايطاليا احتلال طرابلس ، وذلك حتى لايكره توسعها الدول الاوروبية على التدخل فى اراضى - الدولة العثمانية فى أوروبا والبلقان ....



ويمضى رئيس الوزراء الايطالى فيقول ان الامر وان كان قد تم بهذا اليسر والسهولة مع فرنسا وبريطانيا فان الموقف كان مختلفا بالنسبة للنمسا وألمانيا ، اذ أن الدولتين كانتا تهدفان الى ضم الباب العالى الى تحالف يجمعهما وايطاليا وكان مشروع الغزو الايطالى من شأنه أن يعرقل تلك المساعى ويهدد مستقبل هذا الحلف ، وكان السفير الالمانى فى الآستانة البارون دى مارشال (De Marshall) يتابع الموقف بدقة ويسعى جاهدا لايجاد حل سلمى للموقف . وقد صرح للسفير الايطالى دى مرتينو (De Martino) أن اقدام ايطاليا على غزو ليبيا يؤثر على الوضع فى البلقان بحيث ينتهى الأمر الى تحريك المسألة الشرقية برمتها مما يعرض مستقبل الحلف الثلاثى بين ايطاليا والنمسا والمانيا الى الخطر .

ويعلق رئيس الوزراء فى مذكراته على هذا الاتجاه فيقول « ان حاطرأ من فتور بعد ذلك على هذا الحلف يرجع الى الحملة الليبية » .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن الدول الغربية من جانبها ، عملت على زعزعة اركان هذا الحلف لماكان لها من مصلحة ظاهرة فى هدمه .

وقد زعمت الصحافة الايطالية وقتئذ فى حملتها الدعائية التى قامت بها أن هناك مفاوضات تجرى بين الباب العالى وبين المانيا لعقد معاهدة من مقتضاها ان يسلم الباب العالى ليبيا لشركة المانية تتولى استثمار مصادر الثروة فيها للمصالح المشتركة بين المانيا والباب العالى وقالت هذه الصحافة أن الذى يتولى تلك المفاوضات هو البارون دى ماريشال السفير الالمانى الذى كان فى حقيقة الأمر ، يحاول ارجاء الحملة الايطالية على ليبيا ويحذر من مغبة القيام بها ومن أثرها فى الحلف الثلاثى المعقود بين المانيا

والنمسا وايطاليا وما تجره الحملة من المتاعب بالنسبة للمشكلة البلقـانية والمسألة الشرقية •



هكذا مضت ايطاليا فى تنفيذ سياستها العدوانية ضد ليبيا فبدأساستها فى تأمين حملتهم عن طريق الحصول ـ سلفا ـ على تأييد فرنسا وبريطانيا وروسيا ـ ثم أشعرت النمسا والمانيا بعزمها الاكيد على اتمام هذا الغزو ـ •••• كل ذلك كان يجرى فى الاشهر السابقة على الخامس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩١١ ، وهو اليوم الذى وجهت فيه ايطاليا انذارها النهائى الى الباب العالى وكان هذا الانذار هو نهاية المقدمات السـياسية للحملة العسكرية وتلك المقدمات التى استطاعت بها ايطاليا أن تحجب عن الباب العالى ما كانت تقوم به من استعدادات عسكرية شاملة لحملة الغزو التى كانت قد بدأت فى اعدادها قبل وقت طويل •

ويقول رئيس الوزراء الايطالى بأنه كلف الجنرال بوليو (Pollio) باعداد هذه الحملة بحيث يراعى فى اعدادها ان الجيش الايطالى سيواجه الأمة العربية التى تتميز فى القتال بالروح العالية وصلابة العود والعناد ، ولا سيما فى الاراضى الصحراوية وفى ليبيا المزودة بالسلاح وأن يأخذفى اعتباره قدرة العرب فى الصحراء على سرعة التنقل •

ويمضى رئيس الوزراء الايطالى فيقول •••• كان علينا ونحن نعد لهذه الحملة العسكرية أن تتجنب الاشتباك مع الاسطول العثمانى والقوات العثمانية فى الجزء الجنوبى من البحر الابيض المتوسط ولا سـيما فى منطقة الجزر المتاخمة لسواحل الاناضول حتى لانثير ثائرة الدول الأوروبية ومخاوفها من حملة عسكرية فى الأراضى العثمانية ذاتها وتستطرد المذكرات فتقول ، لقد كان علينا قبل الشروع فى حملة الغزو أن نؤمن حيـاة الايطاليين والاجانب المقيمين فى ليبيا وأن نحول دون وصول الأسلحةاليها فى فترة الاعداد للحملة •

ثم يستطرد رئيس الوزراء فيقول فى مذكراته •• ولما تم اعدادحملة

الغزو كان علينا ان نحدد التاريخ المناسب لها بحيث يكون هذا التاريخ مرتبطا بمصير المفاوضات التى كانت تجرى وقتئذ بين المانيا وفرنسا والتى انتهت فيما بعد بعقد اتفاق بين الدولتين فى ٢٣ من سبتمبر سـنة ١٩١١ .... ويقول « انه كان حتما علينا ان نعجل بالاعمال العسكرية حتى لانفاجأ بموقف من تلك الدولتين نتيجة لما يكون قد انتهتا اليه من اتفاق سرى محتمل بينهما من شأنه أن يؤدى الى الوقوف فى وجه ايطاليا ...

ويستطرد فيقول فى مذكراته « ولقد قررت العمـــل فورا ورأيت انه لابد من توجيه انذار نهائى للباب العالى يقطع عليه الطريق ويحول دون الدخول فى مناقشات قد تؤدى الى ضياع الوقت وذلك ما كنا نعمل على تجنبه بأى ثمن .... »

***

وفعلا شرعت ايطاليا فى اتخاذ الخطوات التمهيدية لتسويغ وتغطية عدوانها المبيت فوجهت فى ٢١ من سبتمبر ســـنة ١٩١١ مذكرة الى حقى باشا الصدر الأعظم طلبت فيها الى الباب العالى الاعتراف رسميا بحـــق ايطاليا فى الانفراد بامتيازات فى طرابلس دون سائر الدول ، والاعتراف لها فى هذه المنطقة بالأولوية فى كل شيء .

وعلى الرغم من أن هذا الاجراء المتحدى كان كفيا لتبصير البـــاب العالى وتنبيهه الى الخطر الداهم فان حقى باشا الصدر الاعظم لم يفعل اكثر من ان أعلن أن المانيا ستتولى تسوية النزاع بين الباب العالى وايطاليا ، ثم اذاع نبأ اعتزامه السفر للاستشفاء فى مدينة « ماريان باد » ....

وقد عاد الباب العالى فطلب الى ايطاليا ان تحدد مطالبها بحجة انه لم يتبين على وجه الدقة ما تضمنته المذكرة الايطالية من مطالب ....

ويقول رئيس الوزراء الايطالى انه كان يتوقع هذا الرد ، وأنه كان قد أعد انذاره النهائى فما أن تلقى الرد حتى بادر بتوجيه انذاره الاخير للباب العالى فى ٢٥ من سبتمبر بوساطة المسيو دى ماتينو فما كان من ايطاليا الا أن وجهت فى ٢٥ سبتمبر عن طريق المسيو دى مرتينو de M[illegible]

القائم بالأعمال الايطالية فى الآستانة انذارا نهائيا للباب العالى قالت فيه « انه ما لم تستجب الحكومة العثمانية للمطالب الايطالية كاملة فى ظرف ٢٤ ساعة فستشرع ايطاليا فى احتلال طرابلس وبرقة عسكريا وقد تضمن الانذار خمسة مطالب •

أولا ـ سحب الجيوش العثمانية من طرابلس وبنغازى ، ودرنة •

ثانيا : انشاء قوة بوليسية فى طرابلس تحت قيادة ايطالية تكون مسئولة عن الأمن والسلام •

ثالثا : تسليم الجمارك فى طرابلس الى موظفين ايطاليين •

رابعا : عدم تعيين الولاة فى طرابلس الا بعد تصديق ايطاليا على تعيينهم •

خامسا : منح ايطاليا امتيازات اقتصادية ومالية كاملة فى طرابلس ••• وعلى الجملة فقد كانت المطالب التى يتضمنها الانذار لا تعدو أن تكون وضع اليد الكامل على ليبيا بمعرفة ايطاليا ، بحيث لاتترك للباب العالى الا مجرد السيادة الرمزية والتى كان هذا يحرص عليها •••• أى تطبيق السياسة التى ابتدعها الغرب لتمزيق أوصال الامبراطورية العثمانية مع الاحتفاظ لها بسيادة رمزية •

***

وفى الساعة الثامنة من صباح ٢٩ من سبتمبر أجاب الباب العالى على الانذار الايطالى برفض ما طلبته الحكومة الايطالية •••• وقال الباب العالى فى رده بأنه كان دائما حريصا على احترام المعاهدات ورعايةالمصالح الايطالية ، كما وانه على استعداد للدخول فى مفاوضات مع ايطاليا لتحقيق مصالحها الاقتصادية فى ليبيا ، واذا رأت الحكومة الايطالية ، على الرغم من ذلك أن ترفض هذا العرض وتمضى فى استعدادها لغزو ليبيا عسكريا فان الحكومة العثمانية ـ تعلن انها ـ بدورها ـ على استعداد لتأدية واجبها وأنها تحمل ايطاليا مسئولية ما قد يحدث من أعمال •••• وفى ذات الليلة أبلغت ايطاليا الباب العالى بأن الأجل المحدود قد انقضى دون أن يصلها رد

مرض ودون أن تتحقق مطالبها ، وبذلك اصبح لزاما على الحكومة الايطالية أن تعالج الأمر بيدها وتعمل على حماية ما لها من حقوق ومصالح وتدافع عن كرامة وشرف ايطاليا بجميع الوسائل التى تملكها ، ومضت المذكرة الايطالية تقول ، ان ما سيقع من أحداث لايمكن اعتباره الا الاثر الضرورى أو النتيجة الضرورية وان كانت مؤلمة ، لموقف السلطان التركى .... ثم انتهت المذكرة الى القول بأن موقف الباب العالى ازاء ايطاليا من شأنه أن يقضى على ما بين الدولتين من صلات الود والصداقة ويقضى على السلام الذى كان يرفرف على علاقة الدولتين وانه لكل هذا فان ايطاليا تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الباب العالى .



وقبل ان يسلم هذا الانذار النهائى الى الاستانة ، كان الاسطول الايطالى قد ابحر من موانيه وذلك فى التاسع والعشرين من سبتمبر ليربض أمام ميناء طرابلس ، وقد وجه الاسطول انذارا نهائيا للمدينة لكى تستسلم ، ولما رفضت شرع فى ضربها بمدافع الاسطول فى ٣٠ من سبتمبر .

وفى ٧ من اكتوبر انزل الاسطول الجنود الايطاليين فى طرابلس واحتلوها ....

وقد كانت ايطاليا حريصة كل الحرص على أن يمتد احتلالها العسكرى للمنطقة المتاخمة للحدود المصرية حتى تقضى على أى مطلب لمصر مستقبلا فى هذه الأراضى التى لم تكن الحدود الفاصلة بينها وبين مصر فقد تم الاتفاق عليها بصورة قاطعة معينة وواضحة .

كان احتلال ايطاليا لهذه المناطق يؤمن الجيوش الايطالية من معاونة المصريين لاخوانهم فى ليبيا بالمتطوعين وبالسلاح .

أما عن الباب العالى ، فان البحر كان فاصلا بينه وبين ليبيا ، ولم يجرؤ الاسطول التركى على المغامرة والتصدى للاسطول الايطالى فكان الباب العالى فى حالة عجز كامل عن نجدة الوطنيين فى ليبيا ولكنه كان يصر على

اعلان الحرب والمضى فيها الى النهاية ضد ايطاليا • فعلى من كان يعتمد اذن الباب العالى •••• ؟

لم يكن يعتمد الا على أبناء ليبيا انفسهم ليدافعوا عن حقه هو ، فى السيطرة عليهم •• كان الباب العالى يعتمد على الاسلام الافريقى ، كان يعتمد على الطائفة السنوسية لتدعو الى الجهاد فى سائر انحاء افريقية الاسلامية لمواجهة العدوان الايطالى •••• وفعلا بدأ المتطوعون المسلمون يفدون على ليبيا من جميع انحاء افريقية •••• شرع ابناء العروبة فى محاربة الايطاليين فى ليبيا ، وكان ما بأيدى العرب من أسلحة يجعل من المتعذر عليهم التصدى لمعركة فاصلة ضد الجيوش الايطالية ، ولذلك فانهم نظموا حركة مقاومة متفرقة فى جميع انحاء الاراضى الليبية •••• وقد مكنتهم هذه المقاومة من شل حركة مائة الف من الجنود الايطاليين ، فبالرغم من هذا العدد الكبير فان الجيش الايطالى لم يجرؤ على التوغل فى داخل ليبيا •

***

هكذا ظل أبناء ليبيا والمتطوعون العرب مسيطرين على داخل ليبيا سيطرة كاملة على الرغم من استمرار القوات الايطالية فى قتالهم ، وكان لزاما على ايطاليا ان تعمل على حسم الموقف سياسيا وعسكريا ••••

ويقول رئيس الوزراء الايطالى ، ان الغرب لم يكن يميل الى اطالة فترة اعمالنا العسكرية خشية اثارة القوى الاسلامية المختلفة وتحركها لمساندة ابناء ليبيا ومؤازرة الباب العالى وهو خطر أشارت اليه المانيا •

ثم يعود فيقول بأنه اراد أن يطمئن ، سلفا لموقف بريطانيا بأنه لما فوتح سير ادوارد جراى (Sir Edward Grey) وزير الخارجية البريطانية فى الأمر صرح بأن بريطانيا لن تقبل أية وساطة لنهو النزاع بين الباب العالى وايطاليا ووقف الاعمال الحربية الا بالتسليم المطلق من جانب الباب العالى بسيادة ايطاليا التامة على برقة وطرابلس أى على ليبيا بأسرها ••••

وقد رأت روسيا من جانبها ان تحاول حسم الموقف حسما لايكون الباب العالى طرفا فيه فاقترحت على الدول العظمى اصدار تصريح يتضمن أعتراف هذه الدول بسيادة ايطاليا على ليبيا والسعى لدى الباب العالى لقبول عقد هدنة يسحب بمقتضاها قواته من ليبيا مقابل تعويض مادى تدفعه ايطاليا ، كما انه لايلزم بالاعتراف رسميا بالسيادة الايطالية على ليبيا ....

ولكن الدول الغربية لم تقبل هذا الحل وكذلك لم تقبله فرنسا .

ولما كانت ايطاليا تواجه فى ليبيا مقاومة صلبة تضطرها الى السعى من أجل حل سريع للموقف فانها عمدت الى وضع مخطط لاجبار الدول الأوروبية على الاعتراف العاجل بالأمر الواقع وتنفيذا لهذه الخطة قامت بنقل عملياتها العسكرية الى جزر الأرشيل بزعم أن اتجاهها هذا يرمى الى وقف حركة تهريب الأسلحة وتسلل المتطوعين العرب على ساحل الأناضول وساحل سوريا وفلسطين حتى تحول دون وصول الأسلحة والمتطوعين الى المجاهدين فى برقة .

ويقول رئيس الوزارة الايطالية انه لكى تزيد السياسة الايطالية من تعقيد الموقف ، شرعت فى القيام بعمليات بحرية ضد الدولة العثمانية ، فى البحر الأحمر ، وفى الوقت نفسه راحت تحرض اليمن على الانفصال عن الدولة العثمانية وقبول الحماية الايطالية ! ..

كانت ايطاليا تقوم بهذه المناورات ولم تجاوز سيطرتها فى ليبيا الجانب الساحلى الذى كانت تستطيع الدفاع عنه بحماية الأسطول ..

نجحت ايطاليا بمعاونة الدول الغربية فى حمل الباب العالى على الدخول فى مفاوضات لتقرير مصير ليبيا ..

ولم يبق امام أبناء ليبيا الا الاستماتة فى مقاومة العدوان الايطالى على بلادهم . وكان عماد هذه المقاومة الدعوة الى الجهاد التى حمل لواءها الزعماء السنوسيون واستجاب لها العرب فى آسيا وافريقيا ، فراح المتطوعون يفدون على ليبيا من جميع أنحاء العالم العربى ولا سيما مصر برغم ما أقامه آنئذ لورد كتشنر من عقبات وما بذله من جهود كبيرة للحيلولة دون

مساعدة مصر لليبيا ، غير أن الأسلحة التى كانت بأيدى العرب لم تكن تسمح لهم بخوض معارك فاصلة ضد الجيوش الايطالية ، ومن أجل ذلك اضطر العرب الى تنظيم حركة مقاومة متفرقة فى الاراضى الليبية ، وقد استطاعوا بهذه الخطة شل حركة جيش قوامه مائة الف من الجنود الايطاليين ، فلم يجرؤ قائد الجيوش الايطالية بهذا العدد الكبير على التوغل فى ليبيـــا •• وهكذا ظل أبناء ليبيا والمتطوعون العرب يسيطرون على داخل ليبيا سيطرة كاملة ، ولكنهم لم يستطيعوا طرد الغازى المعتدى لأن الباب العالى انتهى به الأمر الى توقيع معاهدة صلح مع ايطاليا فى ١٦ من أكتوبر سنة ١٩١٢ اعترف فيها باستقلال ليبيا الذاتى وانفصالها من الدولة العثمانيـــة وذلك لتمكين ايطاليا من اعلان ضمها الى امبراطوريتها الناشئة ••

وفى ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ أعلنت ايطاليا خضـــوع ليبيـا الى السيادة الايطالية ، وبادرت روسيا بالاعتراف بهذه السيادة ثم تلتها النمسا وألمانيا وبريطانيا ففرنسا •

ولأول مرة فى تاريخ ايطاليا الحديث أنشأت الحكومة الايطالية أول وزارة للمستعمرات لتولى شئون تلك الامبراطورية التى مضت ايطاليا فى اقامتها بافريقية •

وعلى هذه الصورة سقط فى قبضة الغرب آخر بلد عربى على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفقد أبناؤه حريتهم واستقلالهم •

***

ولقد شاء القدر أن تتوالى الاحداث العالمية فى أعقاب الغزو الايطالى لليبيا فاندلعت فى أثر هذا الغزو نار الحرب البلقانية وتكهرب جو السياسة الدولية وأصبح مشحونا بالعديد من الاحتمالات والاحداث •

وفى سبيل الدفاع عن غزو ايطاليا لليبيا واستبعاد هذا الغزو من بين المشكلات أو المقدمات التى كانت الحرب العالمية نتيجة لها ، يقول « جيوفانى جيوليتى » (G. Gulliotti) رئيس وزراء ايطاليا : ــ

« ان خصوم ايطاليا من ساسة الدول الأخرى يحملونها مســئولية

اشعال نار الحرب العالمية الأولى وحجتهم فى هذا هى أن حملة ليبيا كانت أولى الحلقات التى ألقت بأوروبا كلها فى أتون هذه الحرب مع أن هـــذه الحملة قد أعدت ودبرت بناء على اتفاق دولى سابق ومع أنه تم التمهيد لها سياسيا كما هيىء لها الرأى العام العالمى كله ولم يقع الغزو الا فى الفترة المناسبة التى حددت حتى أنه ليمكن القول بأن الحملة على ليبيا كانت حلقة قائمة بذاتها ومنفصلة تماما عن سلسلة المشـكلات الأخرى التى أدت الى وقوع الحرب العالمية •• وعلى أية حال فانه اذا سلمنا جدلا بوجهة نظر من يرون أن حملتنا على ليبيا كانت من بين مقدمات الحرب العالمية الأولى، فانه مع هذا لايمكن الزعم بأنها كانت الحلقة الوحيدة فى سلسلة المشكلات التى جرت على العالم هذه الحرب ، هذه المشكلات الكثيرة التى خلقها الصراع بين الدول الأوروبية من أجل التوسع » •

ويقول ساسة فرنسا ، ان حملة ليبيا على الصورة التى تمت بها كانت صورة من صور الأساليب السياسية البريطانية الفريدة فى براعتها • فقـد كان تأييد بريطانيا لايطاليا فى هذه الحملة يرجع الى مارسمته السياســة البريطانية لتحقيق الأغراض التالية : ــ

أولا ــ وضع ليبيا تحت سيطرة دولة أخرى غير فرنسا ، لتكون ليبيا بمثابة فاصل بين مصر وبين تونس والجزائر ومراكش وهى مناطق كان وقوعها تحت نفوذ سلطان فرنسا أمرا مسلما به •

ثانيا ــ كانت ايطاليا دائما فى نظر السياسة البريطانية المنافس الطبيعى لفرنسا فى البحر الأبيض المتوسط وفى افريقيا ، ولا سيما أن ايطاليا لم تكن نسيت آلام ومرارة الصراع الذى قام بينها وبين فرنسا حول السيطرة على تونس والذى انتهى باقصاء ايطاليا عن تونس وسيطرة فرنسا على ذلك البلد وطبيعى كان فى استمرار التباعد والتنافس بين فرنســـا وايطاليا مايؤمن بريطانية من احتمال تحالف الدولتين ضدها وتهديد مصــالحها فى البحر الأبيض المتوسط والشرق •

ثالثا ــ ان بريطانيا بتأييدها لايطاليا نجحت فى توجيه ضربة قاصمة

للحلف الذى كان منعقدا بين ايطاليا والنمسا والمانيا ، لأن المانيا كانت تتزعم هذا الحلف وكان لها رأى خاص فيما يتعلق بوضع ايطاليا فى ليبيا ، مؤداه أن تكتفى ايطاليا بمزايا اقتصادية فى الأراضى الليبية جميعها ، دون بتر ليبيا وفصلها من الدولة العثمانية التى كانت المانيا تسعى وقتئذ لتحل محل بريطانيا فى محاباتها ورعاية مصالحها وابعادها عن النفوذ البريطانى ، فأفسدت بريطانيا على ألمانيا خطتها وغايتها فى هذا الشأن ، وفى الوقت نفسه باعدت بينها وبين حليفتها ايطاليا ، وأصابت العلاقات بينهما بجفوة أخذت تزداد مع الزمن ..

وهذه العوامل المختلفة فى جملتها تعتبر من أهم مقدمات الحرب العالمية الأولى كما أنها تفسر تباطؤ ايطاليا فى الانضمام الى جانب حليفتها ألمانيا حينما دارت رحى هذه الحرب وتلكؤها فى ذلك ، بل ان هذه العوامل تفسر انضمام ايطاليا الى جانب الحلفاء فى غضون سنى هذه الحرب .

ومن هنا صح مايعزوه بعض الساسة لايطاليا من أن حملتها على ليبيا كانت من أهم مقدمات الحرب العالمية الأولى .

الفصل السادس عشر
موقف الغرب وتركيا

قبيل الحرب العالمية الاولى
من الجامعة الاسلامية والقومية العربية

« آفة الدولة العثمانية ـ تركيـــا تستمد سلطانها من الدين لتجمع شمل »
« المسلمين وراءها ـ تركيا لم تدرك مقومات البقاء ـ افتقار الشرق الى زعيم قوى ـ »
« تركيا تقف فى وجه حرية العرب وبعث قوميتهم ـ امراء العرب ينبهون الى خطر »
« الغرب ويكشفون خططه ضد القومية العربية ووحـــدة العرب ـ هانوتو الوزير »
« الفرنسى يحذر الغرب ـ الغرب يدرك حقيقـــة قوة الاسلام ويعمل على تخـــدير »
« المسلمين ـ الغرب والاجهاز على الدولة العثمانية ـ الغرب يرى فى الدعوة للجامعة »
« الاسلامية تجديدا لشباب الدولة العثمانية وتثبيتا لسيطرتها ـ سعى العـــرب »
« لبعث القومية العربية وتحقيق الوحدة بينهم والتحرر من سيطرة الباب العـالى ـ »
« الحدود الفاصلة بين الجامعة الاسلامية التى تطالب بها تركيا والقومية العربية ـ »
« الغرب لا يقبل هذا الراى لانه يرى ان الحركتين تنتهيان الى هدف واحد يشكل »
« خطرا داهما عليه ـ الغرب يتبين فشل حركة الجامعة الاســلامية بزعامة تركيـــا »
« ولا ينسى خطر بعث القومية العربية ـ الغرب يشجع القومية العربية كاداةلسياسته »
« ويعلم أن مابين العرب من خلاف وتنافس كفيل باضعاف العـــرب دائما ـ الغـــرب »
« يستغل دعوة تركيا للجامعة الاسلامية لاثارة العرب ضدها ـ تركيا الفتاة والعرب ـ »
« الغرب يهدد وحدة الاراضى السورية من أجل وقف بعث القومية العربية وتحقيق »
« التجمع الاسلامى . » .

***

استطاع الغرب أن يحتل افريقية العربية والاسلامية .. احتـــل مصر .. احتل السودان .. احتل افريقية الغربية ، ومراكش ، والجزائر وتونس .. ثم ليبيا .. وأصبح هذا الاحتلال حقيقة واقعة نتيجة لعدوان مسلح قامت به الدول الغربية بالرغم من جميع ما وقعته من مواثيق ومارتبطت به من عهود فى مؤتمرات باريس وبرلين ولندن .. تلك المؤتمرات التى سجلت محاضرها عهود الغرب وتأكيداته من أجل المحـافظة على سلامة الدولة العثمانية ،والاعتراف بسيادتها على الأراضى الخاضعة لها .. نقض

الغرب مواثيقه وتنكر لتعهداته التى التزم بهافى مؤتمر لاهاى ، والتى كانت قد نصت على تجنب الالتجاء الى الوسائل المسلحة لفض مايقوم بين الدول من المنازعات وتجنب العدوان ، والالتجاء فى حالة الخلاف الى الوساطة والتحكيم لحل جميع المشكلات ولتفادى اشعال نار الحرب .

فهل كان الشرق يواجه افلاسا فى مبادىء القانون الدولى العام ؟؟ ..

أم أن آفة الشرق والدولة العثمانية كانت فى حكومات أضعفها تفاعل الفساد والرشوة طوال قرون عدة ؟ حكومات أضعفها التبذير فى أموال شعوبه والسرقة والرشوة التى عمت سائر الطبقات الحاكمة ، حكومات ظلت تتهاوى يوما بعد يوم ، ولم يكن لها من قوة سوى الزعم بأنها تستمد سلطانها من الاعتبارات الدينية التى احتفظت بها كسلاح أخير لجمع شمل المسلمين وراءها ، تلك كانت الدولة العثمانية ..

أما البلاد التى كانت خاضعة لها ، فقد انفصلت عنها وسقطت ، كما تسقط الثمار بعد تمام نضجها ، سقطت تلك البلاد فى يد كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا واسبانيا .

لقد قام الغرب بعمليات غصب ـ حيث كان للقوة وللسلاح الكلمة العليا فى تلك الاراضى التى أهملها آل عثمان ((ولم يكن يعنيهم منها الا امتصاص خيراتها والتفاخر بانهم ((قادة الاسلام)) ، فى الوقت الذى عاملوا فيه العرب معاملة العبيد ـ لم يدرك ((آل عثمان)) أن الشعب الذى يريد أن يحافظ على شرفه واستقلاله ، لابد أن يكون دائما على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسه ، لم يدرك آل عثمان أن الشعب الذى لايقوى على النهوض والدفاع عن كيانه عندما يدق ناقوس الخطر ، شعب مقضى عليه بالفناء ، وانه لابد للشعب من أجل البقاء أن يكون على استعداد ليس للدفاع فحسب بل لان يموت فى سبيل هذا الدفاع ، لانه ما من انسان يكسب حقه فى الحياة دون أن يكون مستعدا للتضحية بحياته ...

ومن ناحية أخرى فان الشرق كان يفتقر الى ذلك الزعيم القوى .. الزعيم المتجرد الناهض يستطيع أن يقبض بيديه على زمام الأمور ويحقق للبلاد ، كما قال نابليون بونابرت ، الحكم الصالح ـ كان الشرق فى حاجة الى الزعيم الذى يجدد شباب الشرق والاسلام .

الذى يستطيع أن يحقق للشرق جيشا قويا يسهر على مصلحة العالم الاسلامى ويدفع عنه العدوان الغربى .. ولكن الدولة العثمانية كانت أبعد ماتكون عن ادراك هذه الحقائق . والنهوض بهذا العبء ، هذه الدولة التى حرصت على القضاء على كل حركة تقدمية أو تحررية ، وعلى القضاء على كل نهضة فى البلاد العربية ، فلم يكن هناك رأى عام مستنير موجه تستطيع الدولة أن تستند اليه فيما يواجهها من أزمات ومواقف .

***

لما تم للغرب احتلال أراضى العرب والمسلمين راح يوجه سياسته توجيها آخر وكان فى استطاعته أن يحقق أولى انتصاراته فى هذه الحملة الصليبية الجديدة لأن الطريق قد مهد أمامه ليستمر فى كفاحه وليقضى على الخطر العربى والاسلامى قضاء مبرما لا قيامة له من بعده ، ولم تخف هذه النوايا العدوانية فى سياسة الغرب على أولئك الأحرار من الكتاب والمؤرخين والمفكرين ، لقد وقفوا فى وجه الغرب لينبهوا ساسته الى مغبة هذه السياسة .. لقد وقف ج . هانوتو (G. Hanataux) أحد الوزراء الفرنسيين يقول :

« هل ستمضى أوروبا مرة أخرى لتوجه حملة جديدة ضد الكفار .... ؟؟؟ على أوربا أن تمعن فى التفكير ، فانها اذا شرعت فى حملتها هذه . فستمهد بهذا الى صراع عالمى ... الى حرب ابادة تغرس فى نفوس سكان حوض البحر الابيض المتوسط ، بل فى العالم بأسره بذور الحقد والكراهية والعداء ... ان على أوروبا أن تضع يدها التى رفعتها للاعتداء ... وعليها أن تفتح اذنيها لاصوات من نصحوها بالمسالمة ... وانى لمن بين هؤلاء » ولقد أعلنت رأيى منذ وقت قريب لقد عملت وتصرفت وبحثت ، ومازلت أبحث وانى لأومن بالعمل من أجل احلال السلام فى علاقة الغرب بالشرق ... انكم تتحدثون عن معركة فاصلة بين الغرب والاسلام ، فهل ضمنتم هزيمة الاسلام بهذه السهولة . انى لاراه مستحيلا ، ذلك المستقبل الذى يعده الغرب للاسلام ، لانه ليس من اليسير أن يقضى الغرب على مائة مليون من الانفس بجرة قلم ، أو بطلقة مدفع ... أتريدون دفع المسلمين الى الوراء وطردهم من أراضيهم .. ؟؟ وأين المكان الذى ستخصصونه لهم . ؟؟ فى آسيا الصغرى .. فى آسيا الوسطى التى نزعت السكك الحديدية التى أنشأتموها فى عبورها حيث تحتاجون الى الايدى العاملة أو فى افريقية التى تحتشدون أنتم فيها ، فلم يبق بارضها شبر واحد لم تستولوا عليه ؟ أين اذن ، ندفع بالمسلمين ... الى الهند ؟؟ الى الصين ؟؟ ... الا ترون انكم حيثما طاردتم الاسلام وجدتموه رابضا

على حدودكم ؟؟؟ ثم تدركوا أن العالم قد ضاق أمامكم ... لايوجد امام الغرب سوى مسالة الاسلام والمسلمين ، لانه اذا كانت شواطىء البحر الابيض المتوسط تضم مائة مليون من المسلمين فان هناك أيضا غيرهم عدد من المسلمين فى انحاء العالم يبلغ مائتين وخمسين مليون مسلم واذا لم يكونوا اليوم متجمعين ، .. غير قادرين على التكتل للدفاع عن وجودهم فان فى تشتيتهم مصدرا للخطر لانهم اذا شتتوا فسيكون فى وسعهم احداث الاضطرابات الخطيرة فى قلب أولئكم الذين سيطروا عليهم وتحكموا فيهم ... »

***

لم يكن الغرب يجهل أن الاسلام قوة فى ذاته لاتعتمد على سلطان أو قوة أخرى غيرها قوة فى ذاتها قادرة على الهاب شعور أتباعه الذين لاينقصهم التجرد والشجاعة والايمان ، وهى صفات روحية تتضاءل أمامها القوة المادية المستمدة من السلاح والصراع ، تلك القوى التى كان يعتمد عليها الغرب فى فرض سيادته .. لقد كان فى استطاعة الغرب أن يسيطر ولكن الى حين لأنه كان مهددا فى كل مكان .

لقد حاول الغرب أن يرغم العرب والمسلمين على الخضوع والاستسلام ، وتمكن من الحصول على فتوى من بعض علماء المسلمين ومن بعض من زعموا لانفسهم تمثيل المسلمين ، تلك الفتوى التى طبعتها الحكمة الفرنسية ووزعتها فى سائر الاراضى الاسلامية التى كانت تحكمها وكانت فتواهم تقول « بانه عندما يواجه شعب اسلامى غزو الكفار أراضيه بعد أن قاومهم جهد الطاقة طوال المدة التى كان مازال محتفظا بامله فى التغلب على غزاته فانه عندما يتبين ذلك الشعب المسلم بان الاستمرار فى الحرب لايمكن ان يجلب لبلاده الا الفقر والدمار والموت للمسلمين دون أن يكون هناك امل فى الانتصار ، كان عليه أن يقبل ـ مؤقتا ـ السيادة الاجنبية ، ريثما يعينه الله على التخلص منها على شريطة أن يعترف له غالبوه بالحق فى ممارسة شعائره الدينية وان يحترموا تقاليده المرعية وان يكفلوا صيانة عرضه فى بناته ونسائه »

لقد عمد الاستعمار الغربى الى اذاعة هذه الفتوى بجميع الوسائل ليسهل عن طريقها على المسلمين الاستسلام والرضوخ فى جميع البلاد .

الاستسلام فى مراكش ، فى الجزائر ، فى ليبيا ، فى تونس .

***

ولكن الصراع بين المجاهدين العرب والاستعمار الغربى لم يتوقف، لأن الغرب قد احتل الأراضى ولكنه لم يخضع الشعوب ولم يكسب رعايا جددا وكان الغرب يأمل القضاء عليهم ولكنه كان يدرك أن ذلك لن يتم

الا عندما يجهز أولا على الدولة العثمانية • ذلك الرجل المريض ••الذى كان يترنح تحت الضربات التى كانت تكال له يوما بعد يوم •

وأصبح لزاما على الغرب بعد أن تم له احتلال الأراضى التى كانت خضعة للسيادة العثمانية فى افريقيا أن يضع مستقبل الدولة العثمانية فى آسيا على بساط البحث ، كان لابد له من أن يفصل فى « تركتها » ، ولكن أكان من الممكن التوفيق بين مطامع الدول الغربية فى هذه التركة ؟ أكان من الممكن الحد من هذه المطامع والشهوات وتوجيهها توجيها معتدلا يوفق بين غاياتها ؟ أكان من الممكن تحديد ذلك الوقت الذى يتم فيه تمزيق أوصال الدولة العثمانية وبذلك يتم للغرب تصفية الاسلام الآسيوى والافريقى ؟ والى أى الوسائل كان متعينا على الغرب الالتجاء اليها ليحقق ذلك ••أكان يكفى أن يظهر الغرب ماله من قوة ؟ أكان من الممكن أن تنفرد بهذا الاجراء دولة أوروبية أو مجموعة معينة من دول أوروبا •• أكان من الممكن أن يتفق الغرب وروسيا على تسوية لمشكلة المضايق ولتحقيق التوازن فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، واقتسام البلاد الآسيوية والافريقية •• كل هذه مسائل كانت تفتح أوسع الأبواب للتنافس والتصادم بين الدول الأوروبية ، تصادم فى المصالح وفى السعى وراء النفوذ لم يكن من سبيل لحل مشكلاتها الا بعد مساومات وبعد التنازل عن حقوق لاتملكها دول الغرب وانما كان ذلك على حساب الغير ••

***

لقد أعدت الدول الأوروبية نفسها لذلك اليوم الذى يتم فيه تصفية الدولة العثمانية ، ولكنها تركت للاحداث تحديد ذلك اليوم ، وكان من شأن هذا الوضع اطلاق العنان لمطامع الدول الكبرى لتنافس بعضها البعض ، وكان من شأنه أيضا أن تألفت كتلتان من الدول العظمى •• لقد شرعت هذه الدول فى التسابق الى التسلح من أجل الاستيلاء على خيرات العالم فتألفت منها كما قلنا كتلتان ، الأولى التى عرفت بدول الاتفاق الثلاثى والثانية بالحلف الثلاثى ، وهكذا انقسمت أوروبا الى معسكرين كل منهما كان يواجه الآخر فكيف كان موقف الباب العالى من ذلك كله ؟

يتعين علينا أن نلقى نظرة شاملة على ما كان عليه العالم العربى اذ ذاك — فى آسيا — وعلاقاته بالباب العالى والدول العظمى الغربية وأن نعرض لقضيتى القومية العربية والحركة الاسلامية ، كما كان يفهمها الغرب وكما كان يفهمها الباب العالى •

لقد أوضحنا ذلك ، الخطأ الجسيم الذى وقع فيه الباب العالى عندما استهدف وحدة المسلمين لمصلحة سلطان تركيا بوصفه خليفة المسلمين •• فقد كان هدف تركيا هو تسخير الاسلام لخدمة السيطرة والسلطان العثمانى على سائر العرب والمسلمين •

لقد أوضحنا أثر هذه السياسة على الأمة العربية التى رأت فى الدعوة التى كان ينادى بها الباب العالى لوحدة الاسلام والمسلمين وسيلة من وسائل تقوية الامبراطورية العثمانية المترنحة ، وسيلة لتجديد شبابها وتعزيز قوتها التي أوشكت على الانهيار وكذلك لتثبيت السيطرة التركية على مجموع الشعوب الاسلامية فى سائر أنحاء الأرض وفى الوقت الذى كانت تسعى فيه تركيا لفرض هذه النظرية على العالم العربى ، كان العالم العربى يسعى الى بعث القومية العربية وتحقيق الوحدة العربية ، وهى دعوة وجدت صدى فى نفوس العرب ، لما تبينوه من ضعف وتخاذل الباب العالى وتدهور كيانه وتجاهله لحقوقهم ولمبادىء الاسلام •• وشرع أبناء العروبة فى دعوتهم للاتحاد تلك الدعوة التى شملت العربى مسلما كان أو مسيحيا ، دعوتهم التى طالبت بالاتحاد لتحقيق تحررهم من الباب العالى أولا ، واستقلالهم عنه •

***

لقد أراد الباب العالى بصرف النظر عن شعور الشعب التركى وقتئذ أن يجعل موقفه من العرب موقفا بين جنسين ، بين مبدأين متقابلين ، تركيا تطالب بسيادتها المادية والمعنوية على الاسلام والعرب يصرون على التخلص والتحرر من السيطرة التركية أو حركة شاملة للعالم العربى بأسره الذى يسير وراء لواء القومية العربية سعيا وراء تحقيق وحدته ... اذن فقد كانت هناك حدود واضحة فاصلة بين الدعوة الى الجامعة الاسلامية التى طالبت بها تركيا وبين الدعوة الى بعث القومية العربية وهى حركة طالب بها العرب كوسيلة أو كمرحلة من مراحل بعث القومية العربية وتحقيق استقلال العرب

السياسي ، تمهيدا لحركة أخرى تستند اليها وتأتي بعدها وتهم سائر العرب والمسلمين .

***

ولكن هذا الفرق الاساسي بين الحركتين وبين الدعوتين لم يقبله الغرب ، فلم يشأ أن يفرق بينهما جميعاً لانهما ــ في رأي الغرب كانتا من حيث النتيجة تنتهيان الى هدف واحد يشكل خطرا داهما على الغرب لايمكنه التخلص منه الا بالقضاء عليه في أية صورة كان عليها فقد كان الغرب عندما يواجه القومية العربية التي تنـــادي بتحرير العرب واستقلالهم في الاراضي التي يسيطر عليها في افريقيـــة يتهم العرب بالتعصب الديني ، وبمحاولة اثارة النعرة الدينية بين المسلمين لكي يتجمعوا ضد الغرب . وفي الوقت نفسه ترى الغرب عندما يمهد للاجهاز على الباب العالي يشجع القومية العربية في الشرق الاوسط وفي شبه الجزيرة العربية في المرحلة التي كان يهم الغرب في أثنـائها كسب العرب الى جانبه في تلك البلاد .. كان الغرب على ثقـــة بان حركة الجامعة الاسلامية كما صورها سلاطين تركيا مآلها الى الفشل ، ولكنـــه كان يخشى بعث القومية العربية اذا ماتجددت وعظم شانهـــا وتجمعت تحت قيادة موحدة لاشك يعرف أنها عندئذ تكون قادرة على أن تعيد أمجادها قادرة على تكوين دولة عربية عظمى تكون اشد خطورة على الغرب من الامبراطورية العثمانية وقد رأى الغرب انه اذا كان محمد علي قد فشل فان فشله لا يحول دون نجاح غيره من بعده ... واذا كان محمد علي قد تخلى عن الفرصة التي أتيحت له فانه ليس ببعيد أن يتصدى رجل قوي يسير بالعرب ويوجههـــم التوجيه الذي يرفـــع من شانهم ويحقق لهم آمالهم ...

فاذن كان لزاما على الغرب أن يسخر القومية العربية ويستغلها كأداة لسياسته .. وفي هذا النطاق وحده يشجع الغرب هذا النوع الذي يطلق عليه القومية العربية ــ يشجعه وهو مطمئن الى أن مابين العرب من خلافات وتنافس كفيل باضعاف العرب بصفة دائمة وكفيل بتمكينه دائما من الاجهاز عليهم متى شاء .

كان الغرب يدرك أن الدعوة الى الجامعة الاسلامية التي كان يعتقـد الاتراك أو التي كان يعتقد سلاطين تركيا انها ستمكن للجنس التركي من السيطرة على مجموع العالم الاسلامي والعربي . كان الغرب يدرك أن من شأن هذه الدعوة اثارة الشعوب العربية والاسلامية ونفورها ونفور قادتهـا من الباب العالي ، لأن العرب والمسلمين حيثما كانوا لن يكونوا الا تابعين أذلاء لأولئكم السادة في الاستانة .. رأى الغرب أن يوجه دعايته ضـــد هذه الحركة الى قادة وأمراء وحكام العرب لاثارة الكراهية في السيطرة

التركية والعمل على مقاومتها فى كل مكان •• وعمل ساسته على تحويل قادة العرب وحكامهم الى حلفاء للغرب يتولاهم بعنايته ورعايته ويدورون فى فلكه ، وكانت بريطانيا أكثر الدول الغربية حرصا على تطبيق هـــذه السياسة لأن الدولة العثمانية كانت فى طريقها الى آسيا والى الهنـــد ولأن دولة عظمى أوروبية شرعت تهـــدد مصالح بريطانيا فى هـــذا الجزء من العالم هى « المانيا » •

كما اتجه الغرب الى العناصر الوطنية العربية فى سائر أنحاء الدولة العثمانية يحاول التقرب منها ••

وقد لمح الباب العالى هذا الخطر الداهم وأدرك انه لامناص لهمن ان يدخل تعديلات جوهرية على نظام الحكم القائم فى الدولة العثمانية والولايات العربية التابعة لها حتى يتسنى له الاحتفاظ لنفســـه بولاء المسلمين العرب بحيث يكون هذا الولاء له ، اشد منه للقومية العربية •

ومن أجل هذا فقد أعلن الباب العالى المساواة بين ســائر رعاياه من أتراك وعرب مساواة فى جميع الحقوق وفى جميع ميادين النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى وأعلن ضمان العدالة وتكافؤ الفرص بينهم جميعا دون تمييز جنسى أو بين دين وآخر ••

غير أن هذه المبادىء التى نادى بها الباب العالى لم تجاوز نطاق القول، وقد شاركت العناصر الوطنية التركية الفتيـــة العرب فى شـــعورهم •• شاركتهم فى ثورتهم على الأوضاع القائمة فى الدولة العثمانية فى نضالهم وكفاحهم فى سبيل اقامة حكم دستورى تمثل فيه جميع العناصر التى تتألف منها الدولة العثمانية تمثيلا صادقا واقامة حكم يقضى على عناصر الطغيــان والاستبداد والفوضى والفساد •

ولقد قام الاتراك يشاركهم بعض الأحرار من العرب بتأسيس جمعية « تركيا الفتاة » التى كان هدفها احياء مجد الخلافة العثمانية داخل اطار التعاون مع العرب ، ومن ثم كان الهدف اقامة دولة جديدة على أســـاس دستورى يكفل لرعاياها المساواة التامة فى الحقوق والواجبات ، لافرق فيها بين تركى وعربى وبين مسلم ومسيحى ، وانما يؤلف بين الجميع رعوية

واحدة هى الرعوية العثمانية ، فالكل عثمانيــون .. وتلك كانت أهداف « جمعية الاتحاد والترقى » ..

***

ولقد آمن العرب بهذا الاتجاه وأسسوا الجمعيات السياسية لتأييد هذه الحركة .

وقد نجحت ثورة تركيا الفتاة وحققت اصلاحات دستورية اعترفت بما للعرب من حقوق ازاء الأتراك ، ومنح العرب الحق فى مشاركة الاتراك تحمل الأعباء السياسية كما منحوا الحكم المحلى الاقليمى على أســـاس لا مركزية الدولة .. وبرز العرب فى كل المناصب التى تولوها ولا سيما فى عضوية المجلس النيابى العثمانى الذى بلغ عددهم فيه ٦٥ نائبا عربيا .

***

ولكن سرعان ما بادر الاتحاديون الى مناهضـــة العرب وعملوا على اقصائهم عن الوظائف الكبيرة والمراكز ذات المسئولية فى ســـائر البلاد العربية وقصر هذه وتلك على الأتراك ..

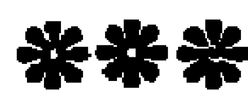
وهكذا عادت تركيا الفتاة لتقف فى وجه نهضـــة العرب التحررية والفكرية والعلمية وبعث القومية العربية .. أى الموقف التقليـدى الذى وقفته دائما الدولة العثمانية من العرب ..

وعلى الرغم من وضوح نوايا الأتراك السيئة فان بعض العرب قد عز عليهم أن يخيب الأمل الذى عقده الأحرار من أبناء العرب لاحياء مجد الدولة الاسلامية حتى وان كانت دولة عثمانية ومن أجل ذلك فقد وطنوا العزم على المضى فى اتجاههم حتى تتضح لهم حقيقة مقاصد الأتراك وتبدو نواياهم نحو العرب ولما بدت هذه النوايا معلنة استحالة أى تفاهم أوتعامل بينهم وبين الأتراك عمد العرب الى تأليف الأحزاب والجمعيات العربيـــة التى راحت تطالب بنظام الحكم اللامركزى كما عقـــدوا شتى المؤتمرات وأوضحوا فيها ان الأمة العربية تؤلف أهم عناصر الدولة العثمانية وانهـا

أمة متحدة وموحدة فى لغتها وعاداتها وان لها على هذا الأساس مطالب خاصة هي : ـ التمتع بحقوقها السياسية تمتعا كاملا والاشتراك الفعلى فى الادارة المركزية بالدولة العثمانية كما طالب العرب فى هذه المؤتمرات بانشاء ادارة عربية لامركزية فى كل ولاية عربية وبالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية .

وفى عام ١٩١٣ اتجهت الحكومة التركية الى معالجة الموقف جزئيا فسلمت تسليما ظاهريا الحقوق التى يطالب بها العرب غير أن تركيا لم تكن نيتها فى هذا الصدد منطوية على تنفيذ ماسلمت به

ولقد فطن أولو البصيرة من ساسة الأتراك الى مغبة هذه السياسة فكتبوا يقولون انه اذا أريد أن يعيش العرب من مسلمين وغير مسلمين مع الترك اخوة فى ظل العلم العثمانى فعلى الأتراك أن يقوموا ما اعوج من أمرهم ويصلحوا مافسد من ماضيهم فى معاملة العرب . وطالب أصحاب هذا الرأى اشراك العرب فى الحكم معهم بحيث يتمتعون بالمساواة التامة للأتراك فى عضوية « مجلس المبعوثان » وفى شتى وظائف الدوائر الحكومية كبيرها وصغيرها طبقا لأحكام الدستور .



وبالرغم من وضوح أطماع الغرب فى بلاد العرب واتجاه سياسته فيها الى التفريق بين الأتراك والعرب فان تركيا لم تدرك جسامة الخطر الذى تتعرض له بسبب اتجاه سياستها الى مناهضة آمال العرب وحرمانهم حقوقهم المشروعة التى يطالبون بها ـ وقد بلغ من حمق هذه السياسة ان اتجهت تركيا الى الامعان فى ايلام العرب وتحدى شعورهم فى شخص أحد أبناء العروبة الذين امتازوا بجهادهم وكفاحهم ضد الاستعمار الغربى من الضباط العرب الأحرار ، وعلى رأسهم البطل عزيز المصرى اذ أصدرت الحكومة التركية أوامرها بالقبض عليه فى ٩ من فبراير سنة ١٩١٤ وحاكمته فى أول ابريل عام ١٩١٤ ، وكانت التهمة الموجهة اليه هى محاولة بعث الفكرة العربية بين الأهلين فى طرابلس الغرب والسعى

من أجل اقامة دولة عربية مستقلة .. هذه كانت جريمة هذا المجـــاهد العربى ، التى رأت تركيا أن تحـــاكمه من أجلها • وهذه كانت سياسة تركيا ازاء العرب ••

وعندئذ أدرك العرب أنه أصبح لزاما عليهم أن يتحولوا عن الدولة العثمانية وأن يعملوا على الانفصال عنها نهائيا بعد أن تبينوا خدعة الأتراك لهم وبعد أن اقتنعوا بفساد الدعوة الى حـــكم ذاتى عربى فى اطار الدولة العثمانية ووضح لأولى البصيرة من قادة الحركة الوطنية العربية أن خلافة آل عثمان والحكم التركى لم تعد تعمل من أجل المســـلمين بل ان الدولة العثمانية بأسرها أصبحت تتحرك بتوجيه من الغرب •• أصبحت أداة فى يد الاستعمار ذلك العدو الذى يراقب خطر تفاقم الحركة الهادفة الى بعث القومية العربية والذى رأى حيال عجز الباب العالى عن السيطرة على هذه القومية ، أن تدور سياسته حولها لتعمل على دفعها صوب الوجهة التى يفيد منها الغرب وتتفق ومصلحته ولم تكن هذه الوجهة غير تشجيع العرب على المطالبة باستقلالهم السياسى ولكن أى نوع من الاستقلال ذلك الذى أراده الغرب للعرب ؟ •• هل كان الغرب يرجو أن يتاح للعرب بعث القوميـــة لعربية وتحقيق الوحدة السياسية الشاملة بينهم ؟ أو كان يرضيه أن يتم نهم شىء من هذا ؟

أكان معقولا أن يفسح الغرب الطريق أمام اندفاع العرب نحوتجمع اسلامى جديد فى خلافة عربية ؟

***

لقد حدد الغرب وقتئذ موقفه من العرب ورسم لنفسه سياسة ذات شقين ، قام الشق الأول منها على دفع الباب العالى ، فى قوةوعنادالىالوقوف فى وجه مطالب العرب ، وبهذا وقع الباب العالى فى الفخ الذى نصـــبه له الغرب اذ أنه برفضه للمطالب العربية ، عزز مكانة الغرب فى البلادالعربية وألهب ضده حماس الوطنيين فيها

أما الشق الثانى من السياسة الغـــربية فكان قائما على تنفير العرب من كل اتجاه يرمى الى بعث القومية العربية او الى التجمع الاسلامى بزعامة وقيادة عربيتين •

وقد سعى الغرب لدى بعض عناصر الأمــــة العــربية ولا سيما فى سوريا ولبنان لاقامة مراكز لهم فى الدول العربية وتحت رعايتها وحددت لهذه المراكز برنامجا سياسيا يقوم على اساس الدعوة لوحدة الاهداف بين عنصرى الامة العربيــة من مسلمين ومسيحيين واجماعهمـا على الاستقلال ... والابتعاد عن الدعوة الى بعث القومية العربية او تحقيق تجمع اسلامى بقيادة عربية بزعم أنها دعوة من شأنها أن تنفــر العنصر المسيحى العربى فتتعرض وحدة العرب الى الخطر على حين أنهم اشـــد مايكونون حاجة الى هذه الوحدة فى نضالهم ضد الدولة العثمانية ... وقد ادت فرنسا دورا خبيثا فى هذه المرحلة من مراحل جهاد العــرب وكفاحهم فاتخذت مخاوف العرب مما يمس وحدة البــلاد الســورية الشاملة لبنان وفلسطين وسوريا والاردن فى وضعهما الحالى ، اتخذت هذه المخاوف وسيلة لتهديدهم وابعادهم عن الدعـــــوة الى بعث القومية العربية وتحقيق التجمع الاسلامى .



هكذا كان حال الدولة العثمانية وكان موقفها من القومية العربيــة والجامعة الاسلامية وهكذا تمكنت الدول الغربية من تطبيق السياسة التى رسمتها ازاء الأتراك والعرب معا .

وبهذه السياسة مضى الغرب فى مخادعة العناصر الوطنية العربيــة ببريق قومية عربية ووحدة عربية زائفتين ، مما سنفصله فيما بعد .

الفصل السابع عشر
الغرب والدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى

« الخطر الالمانى على الباب العالى يفوق الخطر الروسى ــ الباب العالى يتجه الى المانيا »
« بريطانيا تقف فى وجه المانيا ــ بريطانيا تسيطر على الخليج العربى والجنوب »
« العربى ــ فرنسا لا تقف جامدة امام تطور الاحداث وتطالب بحقوق وامتيازات »
« واحتكارات ــ تطلع العرب الى الدول الاوروبية العظمى ــ بريطانيا تفرض »
« سياستها على الحجاز وتعمل على فصله عن الدولة العثمانية ومحاولتها رشوة »
« الحاكم ومنحه بلاد العرب ملكا خاصا له ولذريته ــ سعيها لاقامة خلافة جديدة »
« فى مكة ــ اطماع بريطانيا تتجه الى اليمن ــ تصارع بريطانيا والمانيا وفرنسا على »
« سوريا والعراق ــ الغرب يسعى الى تمزيق بلاد العرب دويلات كل منها تقف من »
« الاخرى موقف التنافس والعداء والخصومة ــ الغرب يعمل على التغرير بزعماء وقادة »
« العرب ــ «بواتكاريه» يحدد سياسة فرنسا ــ العرب لم يدركوا مغزى السياسة »
« الغربية . »

لم تعد بريطانيا تواجه خطر الدولة العثمانية ولم يعد للخطر الروسى ذلك الاعتبار الكبير الذى كانت بريطانيا تراه لأن خطر التوسع الالمانى بدا لها أشد وأكثر وضوحا .. بدأت بريطانيا تدرك ذلك وعلى أساسه راحت ترسم سياستها ، وفى الوقت الذى بدأ فيه الباب العالى يدرك أن تأييد فرنسا وبريطانيا له لم ينتج عنه غير استيلاء الدولتين على قبرص ، على تونس ، على مصر ، على ليبيا ثم على الامارات العربية فى الخليج العربى وفى البحر الأحمر وفى الوقت الذى أدرك فيه الباب العالى أن الدولتين الغربيتين قد سيطرتا على اقتصاده سيطرة تامة ثمنا لحمايته من مطامع روسيا .. بدأ الباب العالى يتجه بنظره الى تلك الدولة الأوروبية العظمى التى شرعت فى توجيه اهتمامها خارج حدودها ، دولة قادرة على مواجهة الروس ، قادرة على وقف الزحف الفرنسى البريطانى .. قادرة على الأخذ بيد الباب العالى فى مواجهة خصومه . ولم تكن هذه الدولة سوى المانيا .. ولم تكن المانيا لتنتظر هذه الدعوة الا بكل ترحيب اذ كانت لها دوافع سياسية واقتصادية

تدفعها الى كسب ود الباب العالى ، نظرا لازعامها الزحف نحو الشرق ومنافسة بريطانيا وفرنسا فيه •

ولقد كانت أولى خطوات المانيا ، فى هذا الصدد ، حصولهاعلى امتياز من خط السكة الحديد الى بغداد ، فما أن حصلت المانيا على ذلك الامتياز الذى عرف باسم بغداد باهن (Baghdad Bahn) حتى شرعت بريطانيا فى اعلان حمايتها على الكويت وشرعت فى اتخاذ اجراءات دفاعيــة عــلى طول الخليج الفارسى الذى اعتبرته الامتداد الطبيعى للمحيط الهندى •• وبدأ الكفاح بين المانيا وبريطانيا من أجل السيطرة على العراق،بدأالكفاح بين الدولتين ولم ينته الا بعدول المانيا عن تنفيذ ذلك الجزء من الخط الممتد من بغداد الى الخليج الفارسى •• ثم بعدول المانيا عن امتياز استغلال مينـــاء البصرة •• وبعدولها عن الامتياز الذى قد صار ممنوحا لها لانشاء ميناءعلى الخليج الفارسى • كان موقعه سيحدد فيما بعد •

لم تقنع بريطانيا بانسحاب المانيا ، ولكن ماتم حمل بريطانيـــا على التعجيل بالعمل لحماية نفسها فبادرت بالاستيلاء على منطقة شـــط العرب وأكرهت الباب العالى على التسليم بما عقـــدته من معاهدات مع مختلف المشايخ فى الامارات العـــربية بالكويت والبحرين وعمان ، والتى تم بموجبها وضع هذه الولايات تحت الحماية البريطانية ••

***

لقد انتهت المحاولة التى بذلها الباب العالى للاستعانة بألمانيا الى تمكين بريطانيا من السيطرة التامة على الخليج الفارسى والجنوب العربى ، أما فرنسا فلم يكن فى وسعها أن تقف جامدة أمام تطور الاحداث ، فقدانتهزت فرصة مطالبة الأتراك بزيادة الرسوم الجمركية ورسوم « الباتنتا » داخل الدولة العثمانية وبادرت بتقديم طلبات الى الباب العالى منها اعتراف الباب العـــالى بالجنسية الفرنسية لسائر أبناء تونس ومراكش ، كما طالبتـــه بالاعتراف والتسليم لها باحتكارات لانشاء طرق حديديةفى لبنان وسوريا،وباحتكارها لاستغلال موانىء بيروت وطرابلس ويافا وحيفا ولم تقف المانيا وروســيا

مكتوفى اليدين أمام هذا الغزو ، فطالبنا بنصيب من تلك الاسلاب التى كانت توزع على الدول الأوروبية العظمى .

وهكذا وقف الباب العالى قبيل الحرب العالمية الأولى حائرا ، عاجزا عن الحركة بعد أن قضت عليه الرشوة والفساد اللذين كانا يسودان حكمه فى الداخل ، كانت جميع الظروف مهيأة اذن أمام الغرب ولاسيما بريطانيا لكى تعمل دعوتها لتحريك العالم العربى وكسبه فى صفها .. ومن الغريب أن تنعكس آثار المنافسة التى كانت قائمة بين الدول الأوروبية العظمى على العالم العربى فى كفاحه من أجل استرداد حريته ، فان زعماءه وقادته ادراكا منهم لضعفهم أو لعجزهم راحوا يستمدون العون والتأييد من الدول الأوروبية العظمى التى كانت تتفق مصالحها والمصالح الشخصية لأولئكم القادة .



وهكذا امتد تنافس الدول الأوروبية العظمى لا الى توزيع أسلاب الامبراطورية العثمانية فحسب بل امتد الى فرض حمايتها للعالم العربى ..

ولقد حاولت بريطانيا بادىء ذى بدء أن تؤمن من سيطرتها ورقابتها على الحجاز والاراضى المقدسة الاسلامية ، فكلفت قنصلها فى جدة بتوجيه رسالة الى شريف مكة وقتئذ جاء فيها ما يلى : —

« ان من بين أولئك الامراء المسلمين الذين حكموا فى افريقية أربعة يعيشون الآن فى حالة فقر مدقع ، وأن حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا لعلى استعداد أن تمكن واحدا منهم من السلطان والمناداة به خليفة للمسلمين ، واذا وافقت عظمتكم على ذلك فان الحكومة البريطانية لاترى فى تنفيذ هذه الخطة صعوبة ما .. ولكنه بما ان عظمتكم واحد من سلالة النبى عليه السلام والتى ينظر اليها المسلمون باعتبارها ملجأ لهم ، فمن المتعين أن تبادروا باصدار فتوى تسجلون فيها اعترافكم بهذا الوضع الذى تطالب به بريطانيا ، وأن الحكومة البريطانية على استعداد لأن تخصص لفخامتكم

ولذريتكم اكبر جانب من دخل هذه الخلافة الجديدة • وفضلا عن هذا فان ملكية مكة والمدينة ستكون ملكا خاصا لعظمتكم وتتمتع باستقلال حقيقى دون سائر الأراضى الاسلامية واذا ما حاولت تركيا عند تنفيذ هذه الخطة مهاجمتكم أو حاولت ذلك أية قوة أخرى فان الحكومة البريطانية تتعهد بتأييدكم بكل وسائلها الدبلوماسية • ثم عند الاقتضاء بقوة السلاح !! •

***

أورد هذه الوثيقة الفيكونت دى لاجونكيير (de la Jonquière) فى مؤلفه عن تاريخ الامبراطورية العثمانية ليدلل بها على الأساليب التى لجأت اليها بريطانيا فى استهواء قادة العرب والمسلمين فى الشرق فماذا عرضت بريطانيا على شريف مكة •• عرضت عليه أن يخون بلاده وأن يكون شريكا لها فى تنصيب أمير افريقى يعانى الفقر ليكون خليفة للمسلمين وزعيما دينيا ومدنيا للاسلام خليفة مأجورا لدى البريطانيين يعمل لخدمة بريطانيا وماذا عرضت بريطانيا ثمنا لهذه الخيـــانة •• ؟؟ وهذه الفتـــوى التى طالبت بصدورها فتوى تؤيد الجريمة والخيانة .. عرضت بريطانيا المال والحماية والتكريم المادى ، وهى عناصر كافية لارضاء شهوات ذلك الفريق من القادة الذين لا يحرصون الا على متاع الدنيا ••

ولقد كانت بريطانيا على علم تام بنفسية هذه الفئة من القادة لانها فى عرضها اعتبرت المزايا التى سمحت بهـا مـزايا شخصية تنتقل من الحاكم الى ذريته فيصبح بها مالكا لاراضى تلك البلاد التى يسيطر عليها ويتعلق مصيره حالا ومستقبلا بتلك المعونة التى مكنته من ذلك ،فيتحول الى خادم وعبد لها •

وهكذا رسمت بريطانيا سياستها بالنسبة لبعض قادة وزعمـاء الشرق العربى الذين دانوا للغرب ولبريطانيا ببقائهم وبوجودهم •

لقد جارى شريف مكة وقتئذ بريطانيا فى مسعاها ولكنه لم يتمكن من تنفيذ رغبتها لأنه كان يخشى انتفاضة الباب العـــالى فلم يجرؤ على مشاركة بريطانيا فى خطتها ، وكان لزاما على بريطانيا أن تنتظر تطـور الاحداث الدولية لتحاول من جديد خلق تلك المناسبة فى ظرف أكثر أمنا لها ولعملائها وعن طريق وجوه جديدة تبذل لها ذات الوعود وتمنيهـــا بذات الأمانى •

شرعت بريطانيا من قاعدتها فى عدن فى تشجيع مطامع حكام اليمن فى غزو الولايات الجنوبية من الجزيرة العربية •

وهكذا قضى على الباب العالى الذى تضاءل نفوذه يوما بعد يوم بالانسحاب تدريجيا من شبه الجزيرة العربية ، لا لتعود شبه الجزيرة الى مجموعة الدول العربية ، بل لتضع بريطانيا يدها عليها ولتبسط سلطانها على تلك الاراضى الممتدة من عدن الى الخليج الفارسى •

وقد وجهت بريطانيا بعد ذلك نظرها الى اليمن ولكنها لم تجرؤ على غزوها لأنها كانت تخشى بأس اليمنيين وقدرتهم على القتال فى الجبال ، وهى معارك يتقنها أهل اليمن وكانت ستكره بريطانيا على تجنيد قوات ضخمة كانت تعتقد أنه سيقضى عليها فى نهاية الأمر لا بالعمليات الحربية وحدها ، ولكن بالأمراض والجوع ، كذلك لم تكن بريطانيا تجرؤ على غزو الحجاز والسيطرة عليه سيطرة مكشوفة لأن الأراضى والاماكن التى يقدسها المسلمون فى سائر أنحاء الارض ولكنها كانت تأمل فى السيطرة على الحجاز عن طريق شريف يعمل لحسابها •



وكانت سوريا والعراق محل التصارع السياسى البريطانى والفرنسى والألمانى ، كل دولة من هذه الدول تسعى للسيطرة على سوريا والعراق •• وقد عملت الدول الغربية على اثارة الاتجاهات الفردية الانعزالية فى سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية ، فأخذ عملاء الغرب يستغلون شعور الاستياء الذى كان يسود أهل تلك البلاد ليدفعوا مختلف العناصر على التمسك باعتبارات الجنس حتى يمكن للدول الغربية أن تبنى على هذه الاعتبارات مطالبتها لتحقيق رغبات هذه الشعوب وكان من شأن تحقيق ذلك تجزئة الامبراطورية العثمانية الى دويلات كل منها تقف من الأخرى موقف العداء والخصومة برغم ما كان يربطهم من وحدة الدين واللغة والجنس ••• عمدت الدول الغربية الى اغراء تلك الجماعات بالمطالبة بالاستقلال ، وعملت على كسب ولاء تلك الجماعات بدافع رغبتهم فى

الحصول على حريتهم واستقلالهم ، ولكن الغرب لم يكن ليبغى أن يحقق لهم شيئا من ذلك ، وانما كان يبغى تأمين ولائهم له طمعا فى تحقيق أمل لا يلبث أن يثبت المستقبل أنه سراب لا شيء وراءه .

***

لقد تخيلوا أن الغرب يقف منهم موقف المنقذ وأنه سيكون لهم الملجأ الأمين حيث يجد أبناء تلك البلاد المجاهدون الرعاية والعناية ، وقد كان الغرب يشجعهم على بذل المزيد من النشاط فى سبيل تأكيد دعايته .. كان يمدهم بالعون المادى والادبى ، ولم يكن الغرب فى نظرهم الا ذلك المنقذ الذى يعمل على تحرير الشعوب المضطهدة المسلوبة الحقوق ـ وقد فات هذه العناصر الوطنية أن الغرب الذى يمنيهم بالوعود ويزعم أنه محررهم من الظلم والعدوان هو الغرب الذى سيطر على مصر ، وتونس ، وليبيا ، ومراكش ، وسيطر على سائر البلاد العربية والاسلامية فى افريقية .. ان تاريخ علاقات الغرب بالعرب والمسلمين فى افريقية من الخليج الفارسى الى عدن الى جنوب الجزيرة العربية ، كان ممكنا أن تكون صورته ماثلة أمام أعينهم ، لولا أن الدعاية الغربية أعمتهم..لم يكن يعلق بأذهانهم الا المبادىء الرنانة عن الحرية وتقرير المصير .. كان هدفهم فى تحرير بلادهم بمعاونة الغرب لهم يشعرهم بأنهم مدينون للغرب بفضل يسوغ فى نظرهم تضحية جانب من حقوقهم ومن سيادتهم ... كانوا يأملون تأسيسا على ما بذله الغرب لهم من وعود ، ان الغرب سيشاركهم نهضتهم ولم يدر بخلدهم أنه يعد لهم أسوأ مصير ..

وفى الوقت الذى كان فيه الاحرار من أبناء سوريا ولبنان يقفون بجانب فرنسا ، وقف المسيو بونكاريه (Poincaré) رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها يخطب فى مجلس الشيوخ ويقول : ـ

« ان لنا فى لبنان وفى سوريا مصالح أساسية تقليدية ، واننا لنزمع اجبار الآخرين على احترامها انى سعيد بأن أؤكد لكم بأن تلك الدعاية التى زعمت بان هناك خلافا بيننا وبين الحكومة البريطانية فى هذا الشأن لا تستند الى أى أساس ، ان الحكومة البريطانية قد صرحت لنا بأنه ليس

لها مطامع فى تلك البلاد وأنها لا تزمع التصرف ولا تضمر أية نية سياسية ازاء مصالحنا هناك .... اننا فى الوقت الذى نبدى فيه حرصنا على الابقاء على الامبراطورية العثمانية فى آسـيا لنعلن اننـا لن نتخلى عن أى من تقاليدنا وحقوقنا فلن نتخلى عن أولئك الأصدقاء الذين يدينون لنا بالولاء ولن نقبل المساس بمصلحتهم »

لقد أعلنت فرنسا هذا التصريح قبل الحرب العالمية الاولى ، أعلنت حرصها على الدفاع عن مصالحها ، وسجلت على بريطانيا تجردها من أى هدف خاص فى سوريا ولبنان ، وكان بوسع الوطنيين العرب أن يدركوا مغزى ومدى هذا التصريح الفرنسي ومرماه الحقيقى . فلم يكن هـدف فرنسا هو الدفاع عن العناصر الوطنية في سوريا ولبنان ومساندتها لهم ، ولكن هدفها كان الدفاع عن المصالح الفرنسية .

الفصل الثامن عشر
العرب وتصريحات الغرب
فى الحرب العالمية الأولى

« سلطان تركيا يعلن الجهاد المقدس ضد بريطانيـــا وفرنسا وروسيا لانقـــاذ »
« المسلمين ــ العرب لن يفرطوا فى حقوقهم من اجل المانيا وتركيا ــ الغرب يحـاول »
« تحويل الشعور الاسلامى لمصلحته ــ ما اتخذته بريطانيا من اجراءات ضد مصر كان »
« بمثابة الضوء الذى يكشف به العالم العربى حقيقة نوايا الغرب ولكن تصريحات »
« الغرب تحجب عنه الحقائق فتخدعه وتحول دون ادراكه لعمق السياسة الغربية ــ »
« تصريحات ساسة الغرب لاهدافهم من الحرب ــ البعض من ساسة الغرب ينبه الى »
« الخــــدعة الكامنة وراء هذه التصريحـــات ويطالب تأكيدا بعدم الالتجـــاء الى »
« الدبلوماسية السرية وانه لا سبيل لسيادة غربية تفرض على الشــــعوب ــ الغرب »
« يتبرأ من الغزو المستتر والمؤامرات التوسعية ومن التغرير بالشعوب للســـيطرة »
« عليها ــ الغرب الديمقراطى يلعن انه نصير لجميع الشعوب المغلوبة على امرها . »

عندما دخلت تركيا ، الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا ، حاولت اثارة الحماس الاسلامى فى سائر الشعوب العربية والاسلامية ، فأعلن السلطان فى بيان وجهه الى القوات الحربية فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ أن تركيا أكرهت على حمل السلاح لأن ملايين المسلمين يخضعون لظلم واستبداد بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وأنها من أجل هذا تعلن ضد هــذه الدول جهادا مقدسا يتوقف على نجاحه مستقبل المسلمين ورفاهيتهم .

وقال السلطان فى بيانه : « اننا نأمل بعون الله وتأييده الانتصار فى المعركة التى بدأناها بالاتحاد والتحالف مع المانيا والنمسا للقضاء على أعداء الاسلام »

وقد كان جديرا بالمسلمين وقتئذ أن يتساءلوا عما يكون عليه موقف دولتى ألمانيا والنمسا من العالم الاسلامى اذا انتصرتا على فرنسا وبريطانيا؟؟ .. وعلى الرغم من بيان السلطان فأن المستنيرين من العرب كانوا يرون أن تجربة الحكم التركى كانت مريرة وأنها باءت بالفشل ، وأنه يتعذر

على العرب أن يفرطوا فى حقوقهم من اجل مصلحة تركيا ـ فما الحال اذا كان التفريط من أجل مصلحة المانيا والنمسا » ـ

ولكن بالرغم مما كان يختلج فى نفوس المستنيرين من العرب فانهم كانوا يدركون أن الدعوة المنبثقة من الشعور الاسلامى ـ ومخاطبة العاطفة الاسلامية فى مختلف الشعوب لابد أن تترك أثرها فى الجماعات، ولذلك فقد حرص الغرب من جانبه على تحويل الشعور الاسلامى من أجل أن يقف الى جانبه بدلا من أن يتجه الى تركيا والمانيا والنمسا ويساندهما ـ وهكذا أصبح متعينا على الحلفاء الغربيين منذ بدء الحرب العالمية أن يحددوا سياستهم ازاء الشرق العربى والعالم الاسلامى ، فان خوض تركيا غمار الحرب الى جانب المانيا مكن بريطانيا من القضاء على السيادة الأسمية التى كان يتمتع بها سلطان تركيا على مصر ، ولكن بريطانيا اذ قضت على هذه السيادة التركية لم تعترف بحق الشعب المصرى فى الحرية والاستقلال ، بل أنها عزلت الخديو عباس الثانى ، ووضعت مصر تحت الحماية البريطانية •

***

ولقد كان ممكنا أن يكون ما اتخذته بريطانيا ضد مصر بمثابة ضوء يكشف به العالم العربى والاسلامى حقيقة نوايا الغرب ازاءه ولكن ذلك مع الاسف ـ لم يتيسر للعرب والمسلمين ، فلم يدركوا كنه وعمق السياسة الغربية نحوهم ، لأن الدول الغربية المتحالفة كانت قد أسرفت فى تصريحاتها المطمئنة المهدئة لخواطر العرب بالنسبة لأهداف الدول من الحرب •

واننا لنذكر على سبيل المثال ، لا الاحاطة ، بعض التصريحات التى صدرت من قادة الدول الغربية وزعمائها وقتئذ ••

فقد أصدر المسيو بوانكاريه (Poincaré) رئيس جمهورية فرنسا ـ اذ ذاك ـ تصريحا قال فيه : ـ

« فى الوقت الذى تنضم فيه ايطاليا لمشاركتنا فى طريق المجد الذى

يرسمه لها القدر فان فرنسا ترحب بالمعنى العظيم الذى يرمز اليه اتحاد الدولتين الشقيقتين للدفاع مرة أخرى عن الحضارة المشتركة ومن أجل تحرير سائر الشعوب المغلوبة على أمرها ..

كذلك أعلن المسيو ارستيد بريان (Aristide Briand) رئيس مجلس الوزراء أن فرنسا فى هذه الحروب بطلة ونصيرة للحرية فى العالم ، اذ ان الحرية مرتبطة بشرفها والدفاع عنها وثيق الصلة بمجدها ، وقال ان فرنسا لتقف والسيف بيدها تكافح من أجل الحضارة ومن أجل استقلال الشعوب وتحريرها ... »

كما أعلن المستر اسكويث (Asquith) رئيس وزراء بريطانيا العظمى تصريحا قال فيه : « اننا لم نمتشق السيف طيشا أو رعونة ... ولذلك فلن نعيده الى قرابه الا بعد أن نقر احترام حقوق الشعوب الصغيرة ونبدأ بتقرير استقلالها على أسس لا يمكن أن يمسها أحد . »

أما الرئيس ولسن (Wilson) فقد أعلن ، فى هذا الشأن (ليس لأية دولة الحق فى أن تتصرف فى السيادة على الشعوب فترفع عن الشعب ، أى شعب ، سيادة دولة كانت مفروضة عليه ، لتضع مكانها سيادة دولة أخرى ، كما لو كانت الشعوب سلعا) .

ثم عاد الرئيس « ولسن » فكرر هذا المعنى فى تصريح قال فيه : « ان أمريكا تقاتل من جديد من أجل حرية الشعوب نفسها ومن أجل تطورها الحر ، وأنه لذلك يتعين أن تكون التسويات التى تنتهى بها الحرب ملتزمة هذه المبادىء باعتبارها الهدف الاساسى الذى من أجله حارب الغرب وأن الشرط الاساسى لتحقيق السلم مستقبلا هو أن تطمئن جميع الشعوب الى أنه لا يجوز أن يحكم شعب برغم ارادته أو أن تفرض حكومة سلطانها على شعب لا يعترف بها » وقال « ولسن » « انظروا ماذا حدث فى الالزاس واللورين منذ ٤٠ عاما ان أمامكم المثل البارز لم يتعين علينا تجنبه حتى لا نقع فيه ولكى نقيم سلما دائما » .

ولقد رأت فرنسا أن تؤكد لروسيا في سنة ١٩١٧ أهدافهـــا من الحرب ، فأصدرت حكومتها تصريحا قالت فيه : ـ

« ان فرنسا لا تفكر مطلقا فى أن تحكم أى شعب ينتمى الى أية جنسية ولو كان من اعدائها اليوم ، وأنها مصرة على القضاء على ذلك الطغيان الذى أرهق العالم حتى اليوم ووضع حد لنهايته ، وانزال العقاب بأولئكم الذين أجرموا فى حق الشعوب وفرضوا عليها هذه الحروب العدوانية ... ولتدع فرنسا لاعدائها تلك الروح العدوانية التى اتجهت الى الغزو والتوسع والطموح فى أملاك الغير ، هؤلاء الاعداء الذين يتصرفون بهذا الروح العدائى للانسانية سواء فى حالة السلم أو فى حالة الحرب ... ان فرنسا لا تزعم ابدا لنفسها أى حق فى أية أرض من الاراضى تنتزعها من أصحابها الشرعيين ، واذا كانت روســـيا قد أعلنت اعادة بولندا فى حدودها القديمة ، فان فرنسا لتحيى وترحب بهذا الاعلان الذى يعبر ،فى ناحية من نواحى أوروبا عن تلك الاهداف التى تسعى فرنسا الى تحقيقها لتحرير الشعوب التى ترسف فى القيود والتى قضى عليها أن تكون تابعة لغيرها ، عبر التاريخ ... ان فرنسا لتنتظر نهاية الحرب لكى تنتصر الحرية والعدالة ولكى يتحقق للشعوب المغلوبة على أمرها ، حقها فى الحــرية والاستقلال ، حقها فى الاحتفاظ بما لها من حضارة ومكانة فى التاريخ . وان على فرنسا مهمة القضـــاء على العـــدوان الجرمانى الذى يهدف الى تسخير الشعوب المتخلفة فى ميدان الحضارة والتقدم والقضاء على استقلالها والسيطرة عليها ... ان فرنسا تقاوم هذا كله ولا هدف لها الا تحرير الشعوب ... »

وفى ٢٦ من يوليو سنة ١٩١٧ أدلى المستر اسكويث (Asquith) رئيس وزراء بريطانيا بتصريح قال فيه : « ان الحلفاء لا يحاربون الا من أجل الحرية ، ولا شيء سوى الحرية .. وقال ان بريطانيا العظمى لا تحارب من أجل أن تغير خريطة العالم وانما هدفها الاساسى الذى تسعى اليه هو احترام رغبات وحقوق الشعوب .. »

كذلك عاد الرئيس ولسن (Wilson) فأكد فى رسالة بعث بها الى

البابا : « أن الامريكيين يقدرون أن السلم الذى سيفرض فى نهاية الحرب سيؤسس على احترام حقوق الشعوب سواء منهـا الشعوب الصغـيرة أو الكبيرة حتى يتاح لها جميعا الحرية الكاملة والأمن المستقر دون أن ينازعهم أحد فى حقوقهم هذه وأولها الحق فى أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها»

وفى ٦ من سبتمبر سنة ١٩١٧ اذاع المسيو ريبو (Ribot) رئيس وزراء فرنسا اعلانا جاء فيه : « انه اذا سئلت فرنسا ، لماذا تستمر فى كفاحها وفى تحمل التضحيات فى هذه الحرب التى جرت على فرنسا من المتاعب والآلام ما جرت كان جوابنا على ذلك هو أن فرنسا لاتحارب من أجـل الاستيلاء على أراض أو اخضاع شعب من الشعوب وانما تحارب من أجل المحافظة على استقلالها واسترداد ما اغتصبته منها المانيا عنوة وكرها .. »



وبالرغم من هذه التصريحات جميعا ، فإن بعض ساسة فرنسا خشى أن تكون التصريحات مجرد خدعة أريد بها خـداع الاحرار كى ينتهى الأمر بالحلفاء الى عقد معاهدات سرية .. ومن أجل ذلك فان هؤلاء الساسة المتخوفين ، قالوا : « انه من المهم أن تؤكد حكومات الحلفاء أنها لن تلجأ الى الدبلوماسية السرية وأن تؤكد أنه لاسبيل لسيادة تفرض على الشعوب وانما هناك سياسة واضحة تتبع ازاء الشعوب جميعا .. »

وفى هذا الصدد ، قال المسيو أولار Oular عضو مجلس الشيوخ الفرنسى : « انه من حق الشعب الفرنسى الذى يرزح تحت ضغط الآلام والتضحيات والذى يبذل دمه فى خطوط القتال أن يعرف على وجه التعيين وبكل وضوح وتأكيد تلك الاهداف التى تسعى اليها فرنسا فى هذه الحرب ... نعم انه من الواضح أن طرد القوات الغازية وتحرير أرض الوطن هدف من بين أهدافنا ، غير أن الفرنسيين اذا كانوا يعلمـون ذلك فانهم يخشون فى الوقت نفسه أن تعمل الدبلوماسية السرية عملها ،فينتهى الأمر الى أن تتحول هذه الحرب الى غزوات مستترة أو مكشوفة والى مؤامرات توسعية واتفاقيات تهدر فيها العدالة والحرية التى تتشدق بهـا

الآن والتى قد تكون اتخذت كوسيلة لاخفاء أهدافنا والتغرير بالشعوب لتحقيق شهوة السيطرة عليها واستعبادها .. »

وازاء تحدى هذا النائب الفرنسي الواضـــح ، وقف رئيس وزراء فرنسا يعلن أن فرنسا لا تســـعى لضم أية أراض وانما تريد استرداد الألزاس واللورين ....

ثم يتساءل رئيس الوزراء قائلا : الذى يجرؤ على اتهام فرنســـا بالسعى الى التوسع انما يحاول محـــاولة دنيئـــة لايمكن أن ينخدع بها انسان ، ولا سيما تلك الجماعات الديمقراطية التى يحاولون الفصل بينها وبيننا ... ان الديمقراطية الفرنسية نصيرة لجميع الشعوب المغلوبة على أمرها .. واننى لأخاطبها ، وأخاطب المانيا ذاتهـــا ، فان على أولئكم الذين يشاهدون هذه الحرب أو يشتركون فيها ، أن يدركوا ان الشعب الفرنسى وحكومته حريصان على تحقيق مبادىء العدالة واحترام حقوق الشعوب، وان كان من العسير على أعدائنا أن يدركوا المدى الذى تتمتع به فرنسا من صفات الشهامة والمروءة .. »

الفصل التاسع عشر
تآمر الحلفاء على قضايا العرب

« الغرب يزعم بأن البلاد العربية غير صالحة للتمتع بالاستقلال وليست أهلا »
«للتمتع بالحكم الذاتي ـ الغرب يعارض قيام دولة اسلامية ويرى وجوب خضوع »
« العرب للوصاية ـ بريطانيا تريد السيطرة التامة على مصادر البترول فى العراق »
« والخليج الفارسى وعلى الأراضى الممتدة من البحر الأبيض الى الهند ـ الغرب »
« يحرص على اثارة شعور العرب ضد تركيا وألمانيا على حين يعمل على اخفاء خططه »
« المعادية لأماني العرب ـ ألمانيا توعز الى تركيا لمفاوضة العرب وعقد صلح بينهم ـ »
« بريطانيا توعز الى الشريف حسين وزعماء العرب برفض التفاوض ـ دول الغرب »
« تعقد اتفاقا سريا لاقتسام الدولة العثمانية والسيطرة على العرب اتفاقية «سان »
« جان دى موريين » السرية ـ حكومة روسيا الشيوعية تذيع سر الاتفاقية وما تلاها »
« من اتفاقيات سرية بين الحلفاء حول مصير الشرق العربى ـ الغرب يعيد النظر فى »
« الموقف ـ الجيوش البريطانية تعجل بتقدمها فى فلسطين ـ الخلاف بين دول الحلفاء »
« على اقتسام الدولة العثمانية ـ موقف ايطاليا ـ فرنسا تمضى فى خداع العرب ـ »
« حقيقة موقف الغرب ـ فرنسا تعتبر سوريا غنيمة حرب ـ اسراف الحلفاء فى »
« التصريحات لتهدئة الرأى العام العالمى ـ حرص الحلفاء على عقد اتفاق يحدد »
« المصير النهائى للبلاد العربية والاسلامية فى آسيا وافريقية . »

كان مفهوما للدول المتحالفة أن البلاد العربية الخاضعة ـ اذ ذاك ـ للحكم العثمانى ليست أهلا لان تتمتع بالحكم الذاتى ، ومن باب أولى غير صالحة للتمتع بالاستقلال ، وزعموا أن قيام أية دولة اسلامية مستقلة من شأنه أن يثير العداء الكامن بين العناصر الاسلامية والمسيحية ، ولذلك استقر رأى الغرب على مناهضة أية حركة وأية دعوة لقيام دولة اسلامية حتى يتجنب الغرب ـ بهذا ـ الاحتكاك الطائفى ، كذلك كان الغرب يرى أنه لابد من اخضاع الدول العربية ، لوصاية الدول الغربية لكى يتحقق بهذه الوصاية لتلك البلاد ، النمو والتطور الاقتصادى ولكى تسودها العدالة الاجتماعية والأمن والنظام ..

ولقد أعاد الغرب ترديد تلك الحجج والمسوغات التى طالما رددها من قبل ليحقق أطماعه فى مصر وأطمعه فى تونس ، وفى مراكش ،

وليبيا والجزائر وهي حجج ومسوغات ، كانت سنده الاساسي والوحيد لتغطية أهدافه الاستعمارية في تلك البلاد .. الا أن بريطانيا كانت ــ نظرا لما تهيأ لها من فرض حمايتها على مصر ، ونظرا لما نالته من امتيازات بترولية عظيمة في ايران والعراق ، كانت تحرص كل الحرص على السيطرة على جميع الاراضي الممتدة من البحر الابيض المتوسط الى الهند ــ كانت بريطانيا حريصة على السيطرة على جميع مصادر البترول في العراق ، في الخليج الفارسي وفي سوريا وايران ، ولم تكن مطامعها خافية على فرنسا وروسيا وايطاليا ومن ثم فلم يسع هذه الدول أن تقف ــ من بريطانيا ــ موقف المتفرج ــ هذا على أن دول الغرب في جملتها لم يكن هدفها من الاسراف في وعودها للعرب هو تحقيق هذه الوعود ، وانما كان الهدف هو مجرد الحصول على تأييد العرب في أثناء الحرب . وكان الهدف هو أن يحل الغرب سيادته محل سيادة الباب العالي وحليفته المانيا التي كانت تساند تركيا ، ولكن سياسة الغرب لم تعلن هدفها هذا وحرصت على اثارة الشعور العربي ضد الاتراك والالمان ، وراحت تكشف مطامع المانيا في الشرق وتلوح للعرب بخطر استعمار الماني جديد يهدد بغزو الشعوب الصغيرة ولا يمكن النجاة منه الا على يد الدول الغربية ..

***

لقد كان الغرب يضمر أسوأ النوايا للعالم العربي والاسلامي ، فشرع وحلفاؤه في التآمر على مستقبل الشرق وتلفيق الاتهامات ضد المانيا ، لقد رأت الدول الغربية أنها الوارثة الشرعية للدولة العثمانية وأن لها الحق في اقتسامها وفقا لمصالحها ... ولم تكن مطامع الغرب في هذا الصدد ، مجرد أمنيات ، بل كانت عملا واجراءات ومذكرات سرية تبودلت بين دوله واتفاقات غير علنية عقدت ــ بعد مفاوضات ومداولات وبحوث أحيطت بالكتمان وتمت في سرية ..

ولقد أدركت ألمانيا ما كان يجري من مفاوضات بين دول الحلفاء وروسيا حول تقسيم العالم الاسلامي والعربي ، فأوعزت الى الحكومة

التركية أن تعرض على العرب صلحا منفردا ، ولـكن سرعان ما تدخلت فرنسا وبريطانيا وأوعزتا ـ بدورهما ـ الى زعماء العرب الثائرين وقتئذ أن يرفضوا أية مفاوضة في هذا الشأن مع تركيا ..

وفي الوقت الذي حرضت فيه الدولتان العرب على رفض التفاهم مع تركيا انتهت المفاوضات التي كانت تجرى بين الحلفاء الغربيين الى وضع أسس لاتفاق رؤى عرضه على مؤتمر يضم رؤساء وزراء تلك الدول وينعقد في مدينة « سان جان دى مورين » ...

واستمرت أعمال هذا المؤتمر من ١٩ من فبراير الى ٤ من مارس سنة ١٩١٥ ولأهمية ما دار فيه من مباحثات وما انتهى اليه من قرارات حرص كل من المستر لويد جورج (Lloyd George) رئيس الوزارة البريطانية والمسيو ريبو (Ribot) رئيس الوزارة الفرنسية على حضوره ومتابعة أعماله وانتهى الاتفاق بين الدول المتحالفة على الآتى : ـ

الاعتراف لايطاليا ـ بالحق فى السيطرة على الاناضول وولايات ازمير وقونيه وأطنه ، ولروسيا بالسيطرة على ارمنيبا وعلى جانب من الاناضول ، ولفرنسا على سوريا ولبريطانيا على فلسطين والجزيرة العربية والعراق .

وفى مقابل تسليم ايطاليا باستيلاء فرنسا على سوريا وبريطانيا على فلسطين والعراق تعهدت الدول المتحالفة ان تعوض ايطاليا بأراض تقتطعها من افريقية .

***

الا أنه بعد أن تم توقيع هذا الاتفاق وقعت أحداث خطيرة فى الحرب العالمية الاولى فقامت الثورة في روسيا وأعلنت الحكومة الشيوعية بأنها متنازلة عن جميع المزايا الاقليمية التى قبل الحلفاء منحها لهـا بموجب الاتفاقيات السرية كما وأن جيوش الدول الغربية هزمت القوات التركية وتقدمت الى قلب فلسطين ... وعندئذ أصبح متعينا على الدول الغربية أن تعيد النظر فيما عقدته من اتفاقيات بشأن مستقبل الشرق العـربى والاسلامى ، ولا سيما بعد أن تحررت من الالتزامات التى كانت مرتبطة بها نحو روسيا فأعلنت دول الغرب وقتئذ أنه في وسعها الابقاء على دولة

تركيا فى نطاق ضيق ، يشمل تلك البلاد التى كان من المزمع اقتطاعها منها لمصلحة روسيا ، على أنه كان من المتفق عليه اقتطاع سائر البلاد العربية نظرا لما ثبت من عجز تركيا عن تدبير شئون الحكم فى هـــذه البـلاد ..

ولكن الاتفاق تم على أن الدولة العثمانية التى سيحتفظ لها بنوع من السيادة ستقسم هى ذاتها الى مناطق نفوذ لكى يمكن اصلاح حال البلاد وانقاذها من حياة التخلف والفساد والرشوة التى كانت سائدة فى العهد السابق ولتجنب تسرب أى نفوذ أجنبى وللحيلولة دون قيام الخلافات الطائفية المألوفة فيها .

وقد رأت بريطانيا أن تعجل بتقدم جيوشها فى فلسطين لتضع حلفاءها من الدول الغربية أمام الامر الواقع عند موضع التسوية النهائية ولكن الدول الغربية كانت لها بالمرصاد فأصرت على أن تشارك القوات البريطانية، قوات ايطالية وفرنسية فى توغلها بفلسطين من أجل الحيلولة دون انفراد بريطانيا بهذا البلد مستقبلا ...



على أن الاتفاق الذى عقد فى « سان جان دى مورين » لم يـكن ليرضى ايطاليا وهى لم تقبل خوض الحرب فى جانب الحلفاء الا بعــد مساومات مشينة ، طبقا لما وضح فى رسالة من المسيو بوان كاريه (Poincaré) رئيس جمهورية فرنسا الى قيصر روسيا فى ٢١ من ابريل سنة ١٩١٥ ، التى تشير الى أن ايطاليا ما فتئت تصر على المزيد من مطالبها التوسعية على حساب البلاد العربية والبلاد السلافية ...

ورأت ايطاليا أن تشهر فى وجه بريطانيا وفرنسا الاتفـــاق الذى عقدته بلندن فى ٢٦ من ابريل سنة ١٩١٥ والذى قبلت فيه الدولتان أن تحصل ايطاليا على مقابل لكل توسع استعمارى يتحقق لأى منهما لفرنسا أو لبريطانيا وعلى أساس من المساواة والمثل .. وتأسيسا على هذه الاتفاقية واستنادا اليها أعلنت الحكومة الايطالية مطالبتها باليمن بأكمله وبمدينة

« الطائف » ، وبجزء من « عدن » مستندة في ذلك الى أسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية واستراتيجية •

ثم عادت ايطاليا في نوفمبر سنة ١٩١٦ ، فأعلنت أنها تكتفي باقتطاع جزء من آسيا الصغرى ، وجانب من الاراضى اليمنية وآخر من الصحراء الكبرى حتى بحيرة تشاد والحبشة بأكملها ثمنا لما تؤديه للحلفاء من خدمات •



وفي الوقت الذي كان الحلفاء قد وضعوا اتفاقات سرية فيما بينهم تؤكد حقيقة نواياهم الاستعمارية وقف المسيو ريبو (Ribo) رئيس الوزراء الفرنسي في البرلمان والقى كلمة قال فيها ما يلى : –

« أليس من حقنا أن نتأثر ونفزع اذا نسبت لنا نية فرض سلم ينتهي بتحقيق غزوات وتوسع لمصلحتنا ؟؟ •• انني أعلن أن فرنسا لا تريد السيطرة على أي جنس أو على أي شعب حتى لو كانوا من أعداء هذه البلاد ، انها تطالب بالحرية لسائر بلاد العالم ، وتطالب باستقلال جميع الشعوب •• ان فرنسا يوم النصر ستناشد العالم التمسك بالعدالة والتخلى عن شهوة الانتقام •• ان هذا هو شعور الدولتين الديمقراطيتين العظيمتين •• وأن هدفهما الذي تسعيان من أعماقهما الى تحقيقه هو السلم الدائم ، لكي يختفي هذا الكابوس المفزع الذي يرهق العالم ، ويشغل تفكيره ، ولن نتمكن من تحقيق حلمنا في السلام الا اذا أسس السلام على مبادىء العدالة وحق الشعوب في الاستقلال والحرية وتقرير المصير •• ان فرنسا لا ترغب في السيطرة على أي شعب ، ولا على أية جنسية ، انها ترغب في القضاء على سيطرة الدول على غيرها من الشعوب بل انها أكثر من هذا تزمع محاكمة أولئكم الذين اعتدوا على حريات الشعوب واستقلالها •• ان فرنسا تترك الرغبة في التوسع والغزو والسيطرة الى اعدائها فهي لن تنتزع أية أراض لتحرم أصحابها الحقيقيين من حقهم في الاستقلال والحرية ، ان فرنسا لتنتظر الانتصار في الحرب لكي ترفع – عاليا – علم الشعوب المغلوبة

على أمرها وحقها فى استرداد حريتها وتحقيق استقلالهـــا !! ولقد وافق البرلمان الفرنسى على قرار باجماع أعضائه يحدد موقف فرنسا •• وجاء فى هذا القرار : « ان فرنسا بعيدة عن كل فكرة أو هدف ترميـان الى الغزو والسيطرة على الشعوب الاجنبية ، وأنها تعتمد على الجهود التى يقوم بهـا جيشها والجيوش المتحالفة معها لهزيمة القوة العسكرية الروســية لكى نحصل على ضمان لسلم دائم يحقق الاستقلال لجميع الشـعوب كبيرها وصغيرها فتنتظم جميعها فى منظمة تعد الاجراءات من الآن لقيامها وتسمى « بعصبة الأمم » ••



ولكن هل كانت الدول الغربية تزمع ـ حقا ـ تطبيق هذا التصريح، على الشرق العربى والاسلامى ، أمانها كانت تنظر الى هـــذا الشرق على أنه غنيمة حرب ؟؟ وهنا نعود ونتساءل مرة أخرى هل كان ممكنا أن يسمح الغرب باقامة دولة عربية موحدة ؟ هل كان ممكنا أن يسمح الغرب ببعث القومية العربية واحياء مجد العرب والمسلمين ؟ أكان الغرب يهـدف الى تقسيم البلاد العربية الى دول مستقلة استقلالا حقيقيا يمكنها متى شاءت وفى أى يوم من الأيام من التجمع من جديد ، لتكون قوة عربية يحسب لهـــا الغرب حسابها ••• ؟؟

لقد نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية تقريرا أعدته لجنـــة من مجلس البرلمان الفرنسى ، جاء فيه ما يلى : ـ

« ان اللجنة ترى أنه لا صفة الآن لمجلس البرلمان فى أن تعلن فرنسا موقفها ازاء ما تطالب به الشعوب العربية فى آسيا الصغرى من حرية واستقلال وحكم ذاتى •• ان الوقت غير مناسب لمناقشة هذا الأمر والبت فيه •• وترى احالة الأمر الى رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجيـــة ووجهت نظرهما فى الوقت نفسه الى خطورة عقد أية اتفاقات سرية تتناول مصاير البلاد العربية لان هذا مما يجب البت فيه أمام المؤتمر الذى سيقرر مصير السلام ويفصل نهائيا فى مستقبل الشعوب المغلوبة على أمرها »

ولكن السلطات الفرنسية شرعت فى تهيئة الرأى العـام الفرنسى لما عقد من الاتفاقيات السرية الخاصة بتقسيم البلاد العربية والشرق بأسره .. وفى هذا السبيل وضعت الحكومة الفرنسية كتابا تضمن وجهة نظرها بالنسبة لسوريا .. وقد جاء فى هذا الكتاب : ـ

.. ان سوريا يجب ان تعتبر ضمن غنائم الحرب التى يتعين ان تكون لفرنسا اسوة بالممتلكات الالمانية فى افريقية .... كمـا اوعـزت الحكومة الفرنسية الى الغرف التجارية فى ليون ومرسيليا وفى سـائر المدن الرئيسية الفرنسية لكى تطالب هذه الغرف بضم سوريا ضـما كاملا الى الممتلكات الفرنسية على ان يحكمها حاكم عام ويسيطر عليهـا موظفون فرنسيون .

الفصل العشرون

شرف الغرب

اتفاقية ماكماهون ــ حسين
اتفاقية سايكس ــ بيكو

« بريطانيا على بينة من موقف الشريف حسين ــ كتشنر والأمير عبد الله ــ الشريف »
« حسين يخشى التورط ــ العناصر الوطنية تحدد موقف العرب من الصراع »
« الدولى ــ مطلب العرب الحرية والاستقلال ــ بروتوكول دمشق وتخطيط الدولة »
« العربية المستقلة ــ ادنى شروط يقبلها العرب فى مفاوضتهم للحلفاء ــ الشريف »
« حسين يندب عن العرب فى مفاوضة بريطانيا ــ المراسلات المتبادلة بين الشريف »
« حسين والسير «ماكماهون» ــ موقف بريطانيا من العراق وفلسطين ــ هدف بريطانيا »
« والحلفاء منها ــ قيمة اتفاقية «ماكماهون : حسين» ــ اتفاقية «سايكس ــ بيكو» ــ »
« بريطانيا وفرنسا تقرران مصير الشرق العربى وتقتسمانه بينهما فى الوقت الذى »
« تفاوض فيه بريطانيا العرب ــ مضمون الاتفاقية ــ روسيا الشيوعية تذيع سرها فى »
« عام ١٩١٧ ــ فرنسا تتجاهل اتفاقية «ماكماهون ــ حسين» وتتنصل من كل عهد »
« للعرب . »

كانت بريطانيا على بينة من حقيقة موقف الشريف حسين ومدى استجابته لسياستها قبل اعلان الحرب العالمية الاولى •• ولقد حرص لورد كتشنر Ktichener على دوام الصلة بينه وبين الامير عبد الله وقد جرت بينهما مفاوضات لتتبين بريطانيا منها ما عساه أن يكون عليه موقف العرب اذا ما دخلت تركيا الحرب الى جانب أعداء بريطانيا ، وقد أكد الأمير عبد الله لكتشنر ان العرب لن يحاربوا بريطانيا ولن ينضموا الى تركيا اذا حاربت الحلفاء •• ولما أعلنت الحرب بعث لورد كتشنر يذكر الامير عبد الله ووالده الشريف حسين بتعهدهما هذا ، وفى الوقت نفسه يؤكد لهما باسم الحلفاء اعتراف بريطانيا وحلفائها باستقلال الحجاز .

وقد استجاب الشريف حسين الى دعوة اللورد وتهرب من الاستجابة ــ اذ ذاك ــ لالحاح تركيا عليه من أجل أن يعلن ــ رسميا ــ من مكة المكرمة تأييده لها فى حربها ضد الدول المتحالفة ، ويذيع على العالم

الاسلامى بيانا يناشده فيه الوقوف فى وجه دول الغرب الاستعمارية ، وقد حاول الشريف حسين جس نبض العناصر الوطنية العربية للتعرف على حقيقة نواياها وموقفها من الصراع القائم بين الدول الغربية من جانب وألمانيا وتركيا وحلفائهما من جانب آخر ، فقابلت مختلف الاوساط العربية موقف الشريف حسين بقرار تم الاتفاق بينها جميعا عليه .

يقول : « بأنه لما كان من شأن دخول تركيا الحرب تعريض البلاد العربية المرتبطة بها الى أخطار جسيمة ، فقد أصبح متعينا على العرب أن يكتلوا جهودهم من آجل تحررهم واستقلالهم . واذا ما تبين آن الدول الاوروبية لها مطامع استعمارية فى هذه البلاد فان واجب العرب يقضى بانضمامهم الى تركيا والوقوف فى وجه أى تسلل أجنبى الى البلاد العربية .. »



وأمام هذا الاصرار من العناصر الوطنية العربية رأى الحلفاء أنه لابد لهم من مجاراة هذه العناصر ومن أجل هذا طلب اليهم الحلفاء أن يحددوا مطالبهم فأعدوا بروتوكولا تضمن شروط العرب لتأييد قضية الحلفاء — وقد تم اعداد هذا البروتوكول فى مدينة دمشق ، وتضمن تخطيطا للدولة العربية المستقلة التى كان متعينا أن تشمل حدودها من الشمال خطا يبدأ من مدينة مرسين الى أطنه حتى الدرجة ٣٧ على خط العرض ، ثم يتجه الى بيرجيك وأورفافماردين ومديات وجزيرة ابن عمر فعمارية حتى الخليج الفارسى ، وفى الجنوب يحد هذه الدولة المحيط الهندى ماعدا محمية عدن التى اعترفت اذ ذاك العناصر الوطنية العربية بحق بريطانيا فى السيطرة عليها ، ثم غربا بالبحر الاحمر وساحل البحر الابيض الى مدينة مرسين ، كما تضمن البروتوكول ضرورة الغاء الامتيازات الاجنبية التى كان يتمتع بها الاجانب فى أنحاء الدولة العثمانية .

كذلك قبل العرب بموجب هذا البروتوكول توقيع معاهدة تحالف بين الدولة العربية الجديدة . وبريطانيا العظمى على أن تقبل هذا الدولة — سلفا — منح بريطانيا بعض المزايا الاقتصادية ..

تلك هى كانت شروط العناصر الوطنية العربية للوقوف فى صف الحلفاء فى الحرب العالمية الاولى ، ضد المانيا وتركيا .

وقد رأت العناصر التى وقعت هذه الوثيقة فى دمشق أن توضح للامير فيصل بن الشريف حسين بأن هذه هى ادنى الشروط التى يمكن أن يقبلها العرب فى أية مفاوضة تجرى بينهم وبين الحلفاء ، ووكلوا الى شريف مكة القيام بها .

وتأسيسا على هذا العهد ، شرع الشريف حسين فى المفاوضة مع الحلفاء عن طريق السير آرثر مكماهون (A. Mac Mahon) المندوب السامى لبريطانيا فى القاهرة فبعث فى ١٤ من يوليو سنة ١٩١٥ بمذكرة الى « مكماهون » ارفق بها رسالة استهلها بعبارات أكد فيها ميل الشعب العربى الى بريطانيا بحكم المصالح المشتركة ، وطمأن « مكماهون » من هذه الناحية كما طلب اليه أن يفسح السبيل أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة الى مكة والمدينة بعد أن أوقف ارسالها قبل عام ...

وكان يحمل رسالة الشريف حسين ومذكرته رسول خاص ممن يثق بهم ، ومن أجل هذا فقد اقترح على « مكماهون » أن يسهل مهمة الرسول مستقبلا ببطاقة يعطيه اياها تمكنه من التردد عليه برسالات حسين عند الاقتضاء .

أما المذكرة فقد ذكر فيها حسين ، أنه لما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجغرافى ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من الحكومة البريطانية فان الشعب العربى يرى أنه من المناسب أن يسأل حكومة بريطانيا هل ترى أن تعترف بوساطة مندوبيها أو ممثليها باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ وأطنة حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا .. ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا . باستثناء عدن من ذلك فتبقى كما هى ـ ثم من البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سيناء

غربا .. وعلى أن توافق بريطانيا أيضا على اعلان خليفة عربى على المسلمين

وعرض فى المذكرة أن تعترف حكومته الشريفية العربية بأفضلية بريطانيا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية ، وأن تتعاون الحكومتان البريطانية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أيا منهما ، وعلى أن يكون هذا التعاون دفاعيا ، فاذا أريد أن يشمل التعاون الهجوم والاعتداء على الغير اجتمع الطرفان للاتفاق على شروطه ، والا جاز الوقوف على الحياد .

وفى نهاية المذكرة احتفظ حسين لنفسه بحرية العمل كما يشاء ، ما لم يتلق الجواب خلال ثلاثين يوما ..

ولعل مايوضح سيسة بريطانيا ودهاءها أن تنقل ذات العبارات التى استهل بها « مكماهون » رسالته ردا على رسالة الشريف حسين فقد جاء كما يلى : « الى السيد الحسيب النسيب سلالة الاشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين » .

وبعد أن أثنى « مكماهون » على استعداد العرب لمعونة بريطانيا أكد ان مصالحهم هى مصالح البريطانيين ، وأن ملك بريطانيا يرحب باسترداد « الخلافة » الى يد عربى صميم من فرع الدوحة النبوية المباركة ، وأشار مكماهون الى مسألة الحدود والتخوم فقال : ان المفاوضة فيها سابقة لأوانها وتعتبر اهدارا للوقت دون طائل مادامت رحى الحـــرب مازالت دائرة ، ولان الاحتلال التركى الفعلى ما زال قائما فى تلك المنـــاطق التى يراد الخوض فى تفاصيل حدودها وتخومها ولا سيما أنه ترامى الى علمنا ماحز فى أنفسنا من اهمال العرب القاطنين فى تلك المناطق للفرصة الثمينة المتاحة لهم ، فبدلا من أن يساعدونا مدوا ايديهم لمساعدة الالمان والاتراك الظلمة المتعسفين .

واختتم مكماهون رسالته مبديا استعداده لأن ترسل مصر الحبوب

والصدقات المقـــررة الى ما وصفه مكماهون بساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام •

كذلك اشارت الرسالة ، الى أن مكماهون اتخذ كل الترتيبات اللازمة لمساعدة رسول « الشريف حسين » في رحلاته وتردده لتسـليم الرسائل بينهما •



وكما نرى ، كان واضحا أن مكماهون تجنب شي رده هذا الاشارة بتعبير واضح الى الحدود المقترحة في رسالة الشريف حســـين ، الامر -ي حمل هذا الاخير على أن يعود في ٩ من سبتمبر سنة ١٩١٥ فيبعث الى مكماهون برسالة ابدى فيها شعوره بما وصفــه بالبرودة والتردد في الكتاب الذي تلقاه من « مكماهون » فيما يتعلق بالحدود التى طالب بها حسين للبلاد العربية وقال : ان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد تتمكن من ارضائه ومفاوضته بعد الحرب وهي مطلب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود ومن ثم فهو يرى أنه لابد من بحث موضوعها قبل كل شيء والاتفاق عليه مع الدولة التي يثق بها هذا الشعب كل الثقة ويعلق عليها كل الامال وهي بريطانيا العظمى •

وقال الشريف حسين في رسالته : ان العرب لم يطلبوا في تلك الحدود ـ مناطق يقطنها شعب أجنبي ، ووصف أهل تلك الحدود بأنهم ـ وان اختلفت ألقابهم وتباينت الكلمات التى تطلق عليهم ـ عرب جميعا •• ثم عاد فأكد ثباته على الاخلاص لبريطانيا وتفضيله لها على الجميع •

ولم ينف حسين في رسالته أو يؤيد ما زعمه « مكماهون » من أن هناك فريقا من الشعب العربي لايزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصــالح الاتراك ، ولكنه أشار في الرسالة الى هذا بفرض وقوعه فانه لم يـكن ليبرر البرودة والتردد اللذين شعر بهما في كتاب مكماهون فيما يتعلق بموضوع الحدود ، وأن هؤلاء المناصرين لتركيا هم والشعب العربي بأكمله ينتظرون بفارغ الصبر البت منكم في قضية حدود بلادهم وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى ••

ثم طلب حسين الى مكماهون فى رسالته هذه أن يدله على الطريق التى يجب أن يسلكها والتى تكون موافقة لسياسة بريطانيـــا فى هــذا الموضوع ٠

وعرج الشريف حسين فى رسالته على وضع فرنسا فى بيروت ، فأكد « لمكماهون » أنه سيطلب من بريطانيا فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما تركه ، الآن ، لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، وقال : ان خطته هذه ، آمن على مصالح بريطانيا من خطة بريطانيا على مصالح العرب وأن وجود هؤلاء الجيران يعنى فرنسا ـ سيقلق ـ مستقبلا ـ العرب كما يقلق بريطانيا وقال ان الشعب البيروتى لا يرضى أبدا بهذا الابتعاد والانزواء ، وانه قد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة من شأنها أن تخلق متاعب جديدة وأكد أنه لايمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صـــغيرة من تلك المنطقة ٠

ومرة أخرى عاد الشريف حسين يؤكد فى رسالته لمكماهون اخلاصه وولاءه وحرصه على تعهداته لبريطانيا ويستشهد بما عرفه عنه فى هـــذا الصدد ، مستر ستورز Storrs منذ عامين ٠

وفى ختام رسالته قال الشريف حسين ، انه ينتظر الفرصة المناسبة والتى أضحت قريبة لكى يتمكن هو ومن يتفق معه فى الرأى ، من العمل ضد تركيا ـ ودون أن يكون فى هذا ما يعرضهم لنقد أو لوم ٠

***

ويبدو فى هذه الرسالة كيف أن الشريف حسين يرى أن الخطـة التى يرجو أن يطبقها أو ينفذها تكفل للمصالح البريطانية امنا ، لاتكفـل مثله لمصالح العرب الخطة التى وعدت بريطانيا بتطبيقها فى هذاالصدد. وقد كان لهذا الرأى الذى رآه الشريفحسين فى رسالته ، مغزى معين. وفى هذا الصدد يقول السير أوبر هربرت Aubry Herbert الذى سجل هذه الاحداث :

« ان هذا التصريح صـدر من الشريف حسين فى الوقت الذى اجمع فيه القادة السياسيون والعسكريون على ضرورة الحصول على التأييد العربى لقضية الحلفاء على وجه السرعة وبصورة اجماعية حتى لاتتعرض قضية الحلفاء للهزيمة فى الشرق » ٠

ومن أجـل ذلك فقـد بادر السير « آرثر مكماهون » فأرسل فى

٢٦ من أكتوبر سنة ١٩١٥ الى الشريف حسين اعتذر فيها عما أخـــذه « حسين » عليه فى رسالته من المآخذ الخاصة بموضوع الحدود ، وقال : انه لما تبين له اهتمام الشريف حسين بهذا الموضوع باعتباره مسألة حيوية فقـد بادر بابلاغ حكومته رغبة حسين ، وتلقى منهـــا تصريحا بشـــأن الحدود العربية وأنه بدوره يبلغها اليه نيابة عن حكومته ولا يشك فى أحقيتها بالقبول والرضا ..

وقد أرفق برسالته صورة للتعديل الذى توافق عليه حكومته لحدود البلاد العربية . وقد استثنت هذه التصريحات من الحـدود ، المطلوبة ، ولايتى مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام التى فى الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماة وحلب بدعوى أن هذه المناطق ليست عربية محضة .

وقال « مكماهون » فى رسالته ان الاقاليم التى تضمها تلك الحدود هى التى تتصرف بريطانيا فيها بمطلق حريتها دون أن تمس مصـــالح حليفتها فرنسا ، فانه مع مراعاة التعديلات المرسلة اليكم فبريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب فيها وتؤيد هذا الاستقلال فى جميع الاقاليم الداخلة فى الحدود التى يطلبها شريف مكة ، كما أنها تضمن سلامة الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجى .

وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العرب بنصائحها وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة لتلك الاقاليم المختلفة . وقالت الرسالة : ان المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وأن الموظفين والمستشارين اللازمين لتشكيل هيئـة ادارية قويمة يكونون من البريطانيين ...

واستطرد مكماهون فقال فى رسالته ان ولايتى بغـداد والبصرة يعترف العرب بأن مركز ومصالح بريطانيا العظمى فيهما يستلزم اتخاذ تدابير ادارية خاصة من اجل وقاية هذه الاقاليم من الاعتـداء الأجنبى وزيادة خير سكانها وحماية المصالح الاقتصادية المتبادلة بينهـا وبين بريطانيا .

وقبل أن يختتم مكماهون رسالته ، عاد فحبذ هـــذه التصريحات الصادرة من حكومته وقال : انها تنفى الشك فى عطف بريطانيا على رغبات

العرب ، وانها تؤدى الى عقد محالفة دائما ثابتة بينها وبين العرب تقضى فى سرعة ، الى طرد الاتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نيرهم الذى أثقل كاهلهم السنين الطوال •



وقد رد الشريف حسين فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٥ على رسالة « مكماهون » هذه برسالة ناقش فيها تصريحات بريطانيا الخاصة بحدود البلاد العربية فقال : ــ

انه تسهيلا للوفاق وتجنبا للنزاع مع بريطانيا التى يرى فيها الكثير من المزايا والصفات الممتازة ، فانه يتخلى عن الالحاح من أجل ادخال ولايات مرسين واطنه فى اقسام المملكة العربية ، أما ولايتا حلب وبيروت وسواحلهما فهما عربيتان تماما ، ولافرق فى ابنائهما بين العربى المسلم والعربى المسيحى فانهما الى جد واحد ، كما أن الولايات العراقية من أجزاء المملكة العربية المحضة بل هى مقر حكومتها منذ عهود الخلفاء ومن أجل هذا فلا يمكن أن نرضى الامة العربية ونرضخها اذا مافرطنا فى هذه الولايات التى تربطهم بها اقوى الروابط •••

غير ان الشريف حسين رأى فى رسالته أن يوفق بين وجهتى نظره ونظر بريطانيا فى شأن الولايات العراقية ، فقال فى ذلك : أنه لماكان من أهم مافى هذا هو صيانة تلك الحقوق المزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهرة الفرد ، فيمكننا الرضا بترك الجهات التى هى الآن تحت الاشغال البريطانية الى مدة يسيره ••• وأن يدفع للمملكة العربية فى مدة ذلك المقدار المناسب من المال كضرورة لكل مملكة حديثة الوجود •

وعرض الشريف حسين فى رسالته الى رغبة ماكماهون فى اسراع العرب بالقيام بحركتهم ضد تركيا ، فقال : ان الاسراع فى هذه الحركة ينطوى على فوائد بقدر ما ينطوى على مضار وأن هناك ما يجب أن يدخل فى الاعتبار عند التفكير فى القيام بها هناك ما يتعرض له القائمون بها من لوم المسلمين واتهامهم بالعصيان ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تساءل الشريف حسين عما يكون عليه موقف العرب فى حالة مناوأتهم لتركيا اذا ما ضعفت قوى الحلفاء أمام تماسك تركيا والمانيا ــ وماذا عسى أن تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها بالنسبة للعرب اذا ما وقع ذلك ، ونوه الشريف حسين بضرورة العمل على اشراك العرب فى عقد الصلح

الذى تنتهى به الحرب وقال : ان العرب اشـــتركوا فيها بصـــورة غير رسمية •

وقبل أن يختتم الشريف حسين رسالته أكد لمكماهون ، أنه اذا ما اقتنع العرب بأن حليفتهم بريطانيا لن تتخلى عنهم عند مؤتمر الصلح فى نهاية الحرب ولن تتركهم يواجهون وحدهم ألمانيا وتركيا فان العرب متى اطمأنوا لهذا ، أصبح من رأيهم أن المبادرة الى دخول الحرب حالا ، تعتبر فى مصلحة الامة العربية •

وفى ١٤ من ديسمبر سنة ١٩١٥ رد السير مكماهون على الشريف حسين برسالة ، أبدى فيها سروره بنزول حسين على رغبة بريطانيا فى اخراج ولايتى مرسين وأطنة من حدود البلاد العربية ،وأعلن عن ارتياحه لما جاء فى رسالة حسين من استعداد العـــرب لاحتـرام جميع معاهدات بريطانيا من رؤساء العرب الآخرين والاعتراف بها ، ولم يفت مكماهون أن ينوه فى رسالته بأن هذا الاعتراف يعلم منه بطبيعة الحال أنه يشمل جميع البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية والتى لا تستطيع بريطانيا نقض أى منها •

وقالت رسالة مكماهون : ان حكومة بريطانيا قد فهمت كل ما كتبه الشريف حسين بشأن ولايتى حلب وبـيروت وسجلت ذلك كله عندها بعناية ، غير أنه لما كانت مصالح حليفتها فرنسا تتصل بهذا الموضوع ، فقد رئى أن الامر يحتاج الى نظر دقيق ، وسنخابركم فى هذا الشأن مـــرة أخرى •

وقال مكماهون ان مصالح بريطانيا فى ولاية بغـــداد تتطلب ادارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على أن صيانة هذه المصالح تستلزم نظرا أدق واكبر مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التى تجرى بها هـــذه المفاوضات • ثم طالب «مكماهون» (حسين) بالعمل الدائب على جمع كلمة الشعوب العربية على الكف عن مساعدة الاتراك والالمان •• على أن يساعدوا الحلفاء ، وقال ان حكومته فوضته فى أن يؤكد للعرب بأن بريطانيا لا تنوى

ابرام أى صلح ما لم يكن من بين شروطه حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك .

واختتم مكماهون رسالته ، قائلا : هذا عربون لصدق نيتنا ولاجل مساعدتكم فى مجهوداتكم من أجل تحقيق غايتنا المشتركة ، فانى مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه .

***

وفى الاول من يناير سنة ١٩١٦ بعث الشريف حسين برسالة الى مكماهون يؤكد له فيها أنه يمثل رغبات العرب فى كل ما تقدم به من المطالب ويعبر عن رأيهم ويبدى ارتياحه لعلمه من رسالتى مكماهون اليه بأن مكماهون أدرك وعرف هذه الصفة فى موقفه من هذه المطالب .

ثم عرض الشريف فى رسالته الى ماتضمنته الرسائل السابقة بشأن العراق والتعويض عن شغلها ، اعنى بقاءها فى يد بريطانيا — وكان عرضه هنا من الناحية المادية للتعويض فترك تقدير مبلغ التعويض الى بريطانيا — والى ما اسماه فى رسالته حكمة بريطانيا ونصفتها ..

والمح حسين فى الرسالة الى انصرافه عن التمسك بالمناطق التى يحرج تمسكه بها بريطانيا أمام فرنسا ، ويمس الحلف القائم بين الدولتين ، وذلك كى يدلل حسين على مدى تضحيته فى سبيل بريطانيا ... الا أنه نبه مكماهون الى أن تغاضيه لفرنسا عن بيروت وسواحلها لن يبقى الا ريثما تضع الحرب أوزارها ، وحينئذ سيطالب بريطانيا بما تغاضى عنه لفرنسا .

وقبل أن يختتم الشريف حسين رسالته قال : من اعتماد لكل جوارحى اعتماد يرثه الحى منا بعد الميت ، بتصريحاتكم التى ختمتم بها رقيمكم (رسالتكم) الموقرة .

ويبدو أنه كان هناك أيضا رسائل شفوية يحملها رسول الشريف حسين الى السير آرثر مكماهون مع ما يحمل من رسائل الشريف المحررة الى مكماهون ، يكفى رد مكماهون على هذه الرسالة فى ٣٠ من يناير سنة ١٩١٦ قال بالنص :

« تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ من صفر بوساطة رسولكم الموثوق به ، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية » .

وبعد أن أثنى مكماهون فى رسالته على جهود واخلاص الشريف حسين • عرض الى مسألة ولاية بغداد وتقدير المبلغ المطلوب كتعويض عن شغلها ، فقال : ان هذا الموضوع سيبحث باهتمام وعناية كبيرتين عندما تتم هزيمة الأعداء •• وشكر مكماهون للشريف حسين حرصه على تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف فرنسا وبريطانيا بنبش موضوع الجهات الشمالية وقال : انه سجل لحسين هذه الرغبة المشكورة كتابة •

وفى ختام رسالته قال مكماهون : « لقد سررنا جدا للحركة التى تقومون بها لاقناع الشعب بضرورة الانضمام لنا والكف عن مساعدة اعدائنا ونترك لفطنتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه » •



وقد بعث الشريف حسين الى « سير آرثر مكماهون » برسالة فى الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ يكرر ابلاغه لمكماهون بأنه بعث بأحد أنجاله الى الشام ليقوم على ما يقتضى عمله هناك ، وقد شرح حسين فى رسالته تقريرا مفصلا تلقاه من ابنه هذا يوضح تعسف الحكومة هناك الى الحد الذى لم يبق من الاشخاص من يمكن الاعتماد عليهم فى القيام بأية حركة تطلب سوى الجند ، وقلة آخرين من غير الجنود ، ويقول التقرير ان ابن حسين ينتظر وصول القوات المعلن قدومها من مواقع مختلفة ، أخصها من أهالى البلاد وما جاورهم من الاقطار العربية كحلب وجنوبى الموصل ، والتى يشاع بأن عددهم يزيد على مائة ألف •

وأشار الشريف حسين فى رسالته الى أنه أرسل ابنه الكبير الى المدينة المنورة على رأس قوة كافية ليكون عونا وسندا لاخيه الذى فى الشام وليقابل كل الاحتمالات ومن بينها الاستيلاء على الخط الحديدى ••

وقال حسين ان هذا الاجراء هو الخطوة الاولى فى سبيل التمهيد للحركة الاساسية •• وانه اتخذها تحت ستار المحافظة على داخلية البلاد وأمنها ••

كما كان واضحا فى عبارات الرسالة ، ان ما سبق من المعلومات انما أرسله حسين ردا على استفسار تلقاه عنها من مكماهون •

ثم عرضت الرسالة لما هو مطلوب من المــــال والمؤن والذخائر لتموين الحركة التى يعد للقيام بها فى الوقت المناسب •

فطالب حسين بارسال خمسين الف جنيه ذهبا ، على وجه السرعة، كما طلب أن يخزن فى بورسودان لحساب هـــذه الحركة عند قيامها عشرون الف كيس من الأرز وخمسة عشر الفا من اكياس الدقيق وثلاثة آلاف كيس من الشعير ومائة وخمسون كيسا من البن ومثلها من السكر وكميات من الذخائر والبنادق ومختلف الاسلحة التى عينتهـا وحددتها الرسالة ••

وانتهى فى رسالته الى مطالبة الحكومة البريطانية بقبول هذه النفقات الحربية ، وبموجب المستندات التى تقدم اليها عن بيان الوجوه التى انفقت فيهـــا •



وقد تلقى الشريف حسين ردا على رسالته هذه من مكماهون مؤرخا فى ١٠ من يناير سنة ١٩١٦ أبدى فى مطلعه سروره بالتدابير الفعلية التى ينوى الشريف اتخاذها ، وقال مكماهون انها تدابير موافقة فى الاحوال الحاضرة •• وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا توافق عليها ••

ثم استطرد مكماهون فى رسالته قائلا : « ويسرنى أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم • وأن كل شىء رغبتم فى الاسراع فيه وفى ارساله ــ مرسل مع رسولكم حامل هذا ، والاشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة •• »

ولا ينبغى للمؤرخ أن يمر بهذا التعبــير الملتوى أو المــزدوج فى رسالة « مكماهون » دون أن يتوقف بعض الوقت ليوضح ــ على ضـــوء ما عومل به العرب بعد انتصار الحلفاء ــ القصـــد الذى أراده مكماهون من هذا الاسلوب التعبيرى الذى تلاعب فيه باللفظ وبالمعنى جميعا • كيما يلقى فى روع الشريف حسين أن استجابة بريطانيا لمطالبه منصبة ضمنا على المطالب السياسية والاقليمية للعــرب ، على حين أن مكماهون احتفظ

لحكومته في صياغة العبارة بما يمكنه ـ عند الاقتضاء ـ من الزعم بأن استجابة المطالب فيها منصبة على ما جاء في الرسالة الاخيرة للشريف حسين على المؤن والعتاد والمال والدقيق والارز والبن .. وما الى ذلك كله مما طلب حسين موافاته به .

ويبدو أن الكثرة من مؤرخي الغرب ، قد أغفلوا التصدى الى هذه الرسالة بالذات فلم يشيروا اليها بين ما أشاروا اليه من بقية الوثائق المتبادلة بين مكماهون والشريف حسين حتى يتجنبوا اثارة موضوعها ومناقشاته ، مما قد يتيح للعرب الفرصة للتمسك بها لتأييد مطالبهم .

ونعود الى الحديث عن بقية رسالة مكماهون ، فنجده ينبه الشريف (حسين) في بقية سطورها الى أن أوامر قد صدرت لاتخاذ التدابير الفعالة في بعض المناطق التى تعسكر فيها الجنود الاتراك على سواحل البلاد العربية ، وأنه روعى في هذه التدابير أن يفرق القائمون بها بين الاتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الابرياء القاطنين بتلك الجهات والذين وصفتهم الرسالة بأنهم موضع عطف بريطانيا .

وقال « مكماهون » انه ينبه ، الشريف (حسين) الى هذه الاوامر التى صدرت مشددة لكى يكون على بينة من الاسباب التى دعت اليها ، وحتى لا يكون تنفيذها مدعاة لسوء التأويل ولكى لا تفسر تفسيرا يسيء الى علاقة بريطانيا بالعرب بسبب ضرب البوارج البريطانية لهذه المناطق العربية ..

وطلب مكماهون الى الشريف حسين موافاته بأدق الانباء حول ماأشيع من قيام أعداء الحلفاء ببث الالغام في مياه البحر الاحمر لنسف البوارج والسفن البريطانية فيه ، كما طلب اليه العمل بكل ما لديه من النفوذ من أجل التأثير على من يدعى ابن الرشيد الذى اشيع أنه باع عددا كبيرا من الجمال للاتراك ، وليحمله على الكف عن ذلك وأشار « مكماهون » على الشريف حسين ، أن يتخذ الترتيبات مع العربان القاطنين بين سورية وبين ابن الرشيد ، ليقوموا بالاستيلاء على الجمال التى يمكن أن يبيعها

للاتراك ـ وذلك اذا أخفق الشريف في اقناعه بالعدول عن مسلكه •

وفي ختام الرسالة ، أنهى « مكماهون » الى الشريف حسين نبأ اقبال العربان الذين كانوا يعملون ضد بريطانيا بقيادة أحمد السنوسى وعودتهم الى الولاء للبريطانيين ، وتوافدهم جماعات التماسا للعفو والتودد •



ومن سطور هذه الرسالة ، يبدو جليا كيف سخر مكماهون الشريف حسين للقيام بدور وضع به الشريف في وضع المرشد ليعمل في خدمة بريطانيا في الحرب العالمية الاولى •

وعلى الجملة فانه على الرغم من هذا الوضع الذى أرادته بريطانيا لشريف حسين ومن تسخيرها العرب لخدمتها ،فان مجموعة هذه الرسائل المتبادلة تعادل تماما ما للمعاهدات الدولية من قيمة قانونية وترتب ذات الآثار التى تترتب على المحالفات المعقودة بين الدول ، لان هذه الرسائل تضمنت شروطا تم الاتفاق عليها بين الجانبين المتعاونين وان كان هذا الاتفاق قد جاء مجزأ وعلى شكل مراسلات رسمية •

وبعد أن تلقى الشريف حسين الرسالة الاخيرة طالبته بريطانيا باصدار بيان يستنكر فيه موقف الاتراك ويدعو المسلمين عامة للجهاد المقدس ضد المانيا وحلفائها ، تأسيسا على مفهوم استجابة الحكومةالبريطانية لمطالب العرب •

وقد استجاب الشريف حسين لدعوة الحلفاء ووجه نداء الى سائر المسلمين يحثهم فيه على محاربة الاتراك ، ويعلن انضمام العرب الى جانب الحلفاء •



ولكن هل كان في اعتبار الدول الغربية المتحالفة ، انها مرتبطة ارتباطا قانونيا ملزما بموجب تلك الرسائل والمكاتبات المتبادلة بين بريطانيا وبين الشريف حسين ، أو ان هذه الرسائل والمكاتبات التى وقعتها من

العرب ، كانت في اعتبارها ونظرها لا تعدو أن تكون قصاصات من الورق لا وزن لها .. ؟؟

ان الجواب على هذا ، ليبدو جليا ، اذا استعرضنا تصرفات بريطانيا وفرنسا حيال ما التزمتاه في تلك الرسائل ، لقد كشفت روسيا في سنة ١٩١٧ فيما كشفته من أسرار وحقائق خافية على الرأى العـــام العالمى الاتفاقية التى تم عقدها بين كل من فرنسا وبريطانيـــا وعرفت باتفاقية : سايكس ــ بيكو .

وتبين منها أنه في الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات بين سير « ماكماهون » المندوب السامى البريطانى فى القاهرة والمتحدث باســـم حكومته وبين الشريف حسين ، كانت هنـــاك مفاوضات سرية تدور بين فرنسا وبريطانيا تنفيذا لاتفاقيات سان جان دى مورين السرية السابق الاشارة اليها ، لتقرير مصير الشرق دون أى اعتبار أو أقل تقدير لوجود العرب أصحاب الشأن فى تلك المنطقة ..

ولقد تولى هذه المفاوضات عن الجانب الفرنسى المسيو جورج بيكو، وعن الجانب البريطانى سير مارك سايكس **Mark Sykes** وبدأت المفاوضات فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٥ وانتهت بعقد اتفاقية بين الدولتين عرفت بمعاهدة « سايكس ــ بيكو » السرية ..

وقد الحقت بوثائقها خريطة توضح البلاد العربية ، ورمز فيها الى المناطق بأحرف معينة ، وبألوان مختلفة ، كيما تسهل الاشارة فى نصوص الاتفاقية ، الى مناطق النفوذ : فكان الحرف (أ) فى هذه الخريطة يرمز الى داخلية سوريا والحرف (ب) يرمز الى داخلية العراق ...

أما شقة سورية الداخلية على الخريــطة فقد لونت باللون الازرق وعرفت فى الاتفاقية بالمنطقة الزرقاء ، كذلك لونت شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس باللون الاحمر ، ولونت منطقة فلسطين باللون الأسمر ، وعرفت المنطقتان فى نصوص المعاهدة بلونيهما ...

أما الاتفاقية ــ ذاتها ــ فقد نصت عــلى استعداد الدولتين لأن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة ، أو حلف دول عربية برياسة رئيس عربى

في داخلية سورية وفي داخل العراق وعلى أن يكون لفرنسا في سورية ولبريطانيا في العراق حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية وتنفرد الدولتان كل في منطقتها بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية ٠

كما اباحت الاتفاقية لفرنسا انشاء ما ترغب فيه من شكل الحكم مباشرة او بالوساطة أو من المراقبة في شقة سورية الساحلية ، واباحت لبريطانيا مثل ذلك في شقة العراق الساحلية من بغـــداد حتى خليج فارس ، وكذلك من اتفاق الدولتين أو احداهما من الحكومة أو حلف الحكومات العربية ٠

ونصت المادة الثالثة من الاتفاقية على انشاء ادارة دولية في فلسطين يعين شكلها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة وقد تبادلت كل من بريطانيا وفرنسا المنافع فيما بينهما في نصوص ، هذه الاتفاقية فحصلت بريطانيا على ميناءى حيفا وعكا ، وضمنت لفرنسا مقدارا محدودا من ماء دجلة والفرات في سورية للعراق ، نظير ان تعهدت بريطانيا من جانبها بألا تفاوض دولة أخرى للنزول عن قبرص الا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدما ، كذلك كفلت الاتفاقية معاملة خاصة لبريطانيا في ميناء الاسكندرونة فجعلته ميناء حرا لتجارتها واباحت لها جميع التسهيلات في هذا الصدد ، نظير كفالة مثل هذه الحقوق لفرنسا في ميناء حيفا ، وكذلك لمســـتعمرات فرنسا ، وللبلاد التي تحت الحماية الفرنسية في هذا الميناء ٠

ونصت المادة التاسعة من الاتفاقية على انه لايجوز لاية من الدولتين أن تجرى مفاوضة في أي وقت للنزول عن حقوقها ولا يجوز لها أن تعطى مالها من الحقوق في المنطقة التي تحت يدها دولة اخرى عدا الدولة أو حلف الدول العربية ــ بدون اتفاق سابق من كلتا الدولتين ٠

وقالت المادة العاشرة : ان بريطانيا وفرنسا بصفتهما حاميتين للدولة العربية قد اتفقتا على ألا تمتلكا ، ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارا في شبه الجزيرة العربية ، أو تنشيء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل

البحر الابيض الشرقى ، على أن هذا لا يمنع تصحيحا قد تدعو اليه الحاجة فى حدود عدن بسبب عداء الترك الاخير .

وقد نصت المادة السادسة من الاتفاقية على أنه لاتمد سـكة بغداد الحديدية فى المنطقة (أ) الى ما بعد الموصل جنوبا ولا فى المنطقة (ب) الى ما بعد سامرا شمالا حتى يتم انشاء خط حديدى يصل بغـداد بحلب مارا بوادي الفرات ، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين كما أباحت المادة السابعة لبريطانيا العظمى أن تنشىء وتدير خطا حديديا يصل حيفا بالمنطقة (ب) وتكون بريطانيا المالكة لهذا الخط ، ويكون لها عدا ذلك حق دائم فى نقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط ، الذى اعتبر بنص الاتفاقية أداة لتسهيل اتصال حيفا ببغداد .

كما أن طرفى المعاهدة اتفقا على أنه عند تعذر انشاء الخط الحديدى فى المنطقة السمراء لصعوبات فنية ، أو لزيادة الاعباء المالية اللازمة لادارته، فان فرنسا مستعدة والحالة هذه ـ لان تسمح بمرور فى طريق بربوره ـ ام قيس ـ ملقى ـ ايدار ـ غسطا ـ مغادير ـ قبل أن يصل الى المنطقة .

وقد تعرضت الاتفاقية ، الى تعريفة الجمارك التركية فنصت عـلى سريان هذه التعريفة لمدة عشرين سنة فى جميع جهـات المنطقتين الزرقاء والحمراء ، والمنطقة (أ) و (ب) دون أى تغيير فى القيمة أو فى القـواعد السارية عليها الا باتفاق سابق بين الحكومتين .

وبالنسبة لتعيين حدود الدولة ، أو حلف الدول العربيـة نص فى المادة الحادية عشرة من المعاهدة على أن تستمر المفاوضات فى هذا الشـأن مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها .

ولم تنس الدولتان موضوع تسليح البلاد العربية فاتفقتا فى المادة الاخيرة من هذه الاتفاقية على أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمـة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية .

وقد كتب رئيس الوزراء الفرنسى رسالة الى الحكومة البريطانية بناء على طلب منها ، قال فيها :

« قبل أن أتلقى ردكم على كتابى المؤرخ فى ٩ من الشهر الحالى بصدد انشاء دولة عربية ، قبل هذا ، ابديتم رغبتكم فى أن أؤكد لكم

بقاء كل ما لبريطانيا من الحقوق المتعلقة بالملاحة وكذلك ضمان الامتيازات التى حصلت عليها مؤسساتها التعليمية والاجتماعية والطبية البريطانية فى المناطق التى ستئول الى الحماية الفرنسية ، او المناطق التى ستصبح فرنسية والتى سينشأ فى داخلها دولة عربية وتسيطر عليها المصالح الفرنسية ، ان هذه الحقوق البريطانية كلها ستكون فى تلك المناطق محل الاحترام وستبقى كما هى ومن ثم فلابد أن تسلم بريطانيا بالحقوق نفسها لفرنسا فى المناطق التى ستصبح بريطانية ..

وقد أيد رئيس وزراء فرنسا هذه الحقوق ، باستثناء حقوق الامتيازات ، ونظام الامتيازات الذى كان قائما فى عهد الدولة العثمانية ، فقد أورد فى رسالته نصا على احتفاظ فرنسا بحقها فى عدم الابقاء على هذا النظام .

وقد أجاب سير ادوارد جراى (Edward Gray) فى ١٦ مايو ، بعد أن تلقى هذه الرسالة ، بالموافقة ، وباقرار الاتفاقية التى تم عقدها ، والتى عرفت منذ ذلك التاريخ باتفاقية سايكس ـ بيكو .

***

واذا رجعنا الى ما سطره المؤرخون الذين عاصروا هذه الأحداث نجد أن بينهم من زعم أن فرنسا اقدمت على مفاوضتها مع بريطانيا بشأن مصير الشرق ووقعت هذه الاتفاقية وهى تجهل ـ تماما ـ تلك المفاوضات التى كانت تجرى وقتئذ بين الشريف حسين وسير هنرى ماكماهون .. ولقد ذهب بعض من دونوا وثائق القضية الفلسطينية هذا الزعم ... ولكننا على ضوء الوثائق الرسمية لانستطيع أن نقرر وجهة النظر هذه لعدة أسباب من بينها أن المسيو ريمون بوانكاريه الذى كان وقتئذ رئيسا للجمهورية الفرنسية قال فى مذكراته : انه أقر المفاوضات التى كانت بريطانيا تجريها مع شريف مكة ، بل أكثر من هذا بعث بوانكاريه ببعثة الى الحجاز وقال تأييدا لهذا الاجراء ما يأتى :

« اننا أرسلنا هذه البعثة الى شريف مكة لان الحكومة الفرنسية كانت تستهدف مجموعة العوامل المرتبطة بتوجيه دفة الحرب وقتئذ ، وكذلك لما لنا من مصالح فى الشرق وفى افريقية ، فقد كان من شأن الثورة التى قام بها العرب فى تلك الفترة أن ضعفت قوة تركيا العسكرية وتزعزعت

مكانتها بين العرب فكانت لنا ـ اذن ، مصلحة فى أن نشجع ونحـــذر الشريف ـ وأن نزوده ونمده بتأييدنا وأن نمنحه المعونات ••• ومن ناحية أخرى فان الشريف كان ـ وقتئذ من الشخصيات الاسلامية الكبيرة وكان لزاما علينا أن نخطب وده ـ ونفيد باستعداده الطيب ، ونحول هذا الاستعداد لنفعنا !!

ولكن أهم ما فى الموقف هو أن فرنسا كانت تستطيع فى كل وقت أن تزعم جهلها بهذه المحادثات وبما تم الاتفاق عليه وتأسيسا على ذلــك كان فى استطاعتها دائما أن تتنكر لموقف بريطانيا العظمى عندما يأتى أوان التنفيذ وكان يحق لها التمسك بما تم الاتفاق عليه فى اتفاقية سايكس ـ بيكو باعتبارها وحدها الملزمة لها ، ولم يكن فى ابقاء هذه الاتفاقية الاخيرة سرا محفوظا بين الدولتين ـ ما يحول دون تمسك فرنسا بها دائمـــا أبدا ، والزعم بأنها كانت حسنة النية عند عقدها وبجهلها لما قامت به بريطانيا من مفاوضات مع العرب •

***

ولكن اذا جاز هـــنا بالنســبة لفرنســا ، فهل يجوز بالنســبة لبريطانيا ؟ ثم ما الدفاع الذى كانت تستطيع أن تقوم به لتبرر قيامها بأجراء محادثتين ومفاوضتين فى وقت واحد انتهتا بعقــد اتفاقيتين تتعارض كل منهما مع الاخرى كل المعارضة مما لا يمكن تفسيره الا بأن بريطانيا العظمى عمدت ـ فى صراحة ـ وباتفاق مع فرنسا الى اعتبار ما تم عقده من الاتفاق مع العرب ، مجرد وعد قابل للتغيير والتعديل والالغاء ، عند الاقتضاء وذلك بسبب بسيط وبديهى ، وهو ان المستفيدين بهذا الاتفاق ليسوا فى مركز يسمح لهم بالمطالبة بتنفيذه بقوة السلاح••

الفصل الحادي والعشرون

الغرب يكشف عن موقفه من القومية العربية والاسلام

« القومية العربية والاســـلام ، المعنيان اللذان سخرهما الغرب لمصلحته في »
« الحرب ـ بيان الجنرال مود على العراقيين ـ زعم بريطانيا بانهـــا تعمل لتحقيق »
« الوحدة بين العرب واشادتها بامجادهم القديمة ـ اسباب اتجاه بعض احرار العرب »
« الى فرنسا ـ مؤامرة فرنسا على الوحدة العربية وبثها بذور الفرقة والعداء بين العربى »
« المسلم ، والعربى المسيحى ـ الاحرار من العرب المسيحيين يكشفون المؤامرة ويدركون »
« خطرها وخبثها ـ دعوة ايليا ابو ماضي من اجل اتحاد عنصرى الامة العربية مسلمين »
« ومسيحيين ـ فرنسا تكشف القناع عن اطماعها في سورية ولبنان وتهاجم القومـية »
« العربية ، والدولة العربية وتجهر برغبتها في الســيطرة على فلسطين ـ استنكار »
« انصار العرب من الفرنسيين لاهداف السياسة الفرنسية في الشرق ـ مخـاوف »
« مجلس الشيوخ الفرنسى من قيام امبراطورية عربية كبيرة وينبـه الى خطرها على »
« بريطانيا وفرنسا في افريقية وآسيا ـ المجلس لا يرى في مطالب العرب الا تعبيرا عن »
« راى قلة لم يشترك فيه منهم المسيحيون ولا اليهود ـ عملاء الغرب يحولون مفهوم »
« القومية العربية والتجمع الاسلامى املا في اتحاد الحركتين مع الحضارة الغربية ـ »
« زعم بريطانيا وفرنسا بانهما دولتان اســلاميتان ـ استنكار العرب لموقف الغرب »
« واصرارهم على استقلالهم ووحدتهم ـ الغرب يكافح القومية العربيـــة بتاييده »
« للصهيونية العالمية واقامته نقطة ارتكاز لها في الشرق ـ انصراف العرب عن هـذه »
« الحقائق وبذلهم العون للغرب في الحرب العالمية الاولى ـ الغرب المنتصر يفـرض »
« سلطانه على البلاد العربية والاســلامية ـ مشروع سياسة الغرب لجعل الاســلام »
« بمثابة جسم بلا روح ـ وعزل المجتمعات الاسلامية بعضها عن بعض ـ الســيطرة »
« على الأراضى الاسلامية في راى الغرب لا تقضى على خطر الاسلام كعقيدة تربط مسلمى »
« العالم اجمع ـ السامية والطورانية والآرية كانت دعاية الغرب لعزل مسلمى تركيا »
« وايران والهند وشرقى آسيا عن العرب ـ صرف المسلمين عن التطلع لخلافة دينية »
« واحدة يلتفون حولها . »

دعت حاجة بريطانيا وفرنسا لتأييد العرب الى كتمانهما أمر سايكس ـ بيكو ... بل ان الدول الغربية مضت في اسرافها بكل جرأة في بذل الوعـــود والتصريحات لتغذية كبرياء العرب والهاب حماسهم ، وراحت تذكرهم بأمجادهم ، وتحرك أملهم في اقامة دولة عربية كبيرة ...

لقد عمد الحلفاء ، اذ ذاك ، الى بعث فكرة القومية العربية والوحدة

العربية على أمل أن يسخروها لمصلحتهم ، فاذاعت الحكومة البريطانية نداء نشرته في سائر أنحاء العالم عدا فرنسا التى رفضت حكومتها نشره أو تداوله في أراضيها وأراضى مستعمراتها ....

وقد جاء في هذا البيان ما يلى : ـ

« ان الاحقاد والمنازعات القديمة التى كانت قائمة بين القبائل وبين مختلف المجتمعات الدينية فى طريقها الى الزوال وسيحل محلها بين العرب شعور بالاخاء يدعو الى الوحدة ، شعور لم يسبق أن ساد مجتمعات العرب ... ولقد أعلن شعب الحجاز استقلاله وثار على العدوان الغاشم الذى وقع على اخوانه في سورية واخوانه في أمريكا الجنوبية ان للعرب أخوة من المسيحين والمسلمين العرب أقصتهم الفاقة وأبعدهم الفقر عن بلادهم الاصلية ، ولقد برهن هؤلاء الاخوة على انهم ند للاوروبيين فى الناحيتين الثقافية والاخلاقية فظهر نشاطهم الفائق فى امريكا فى جميع فروع الصناعة وفى ميادين الاعمال الحرة »

ان أولئكم الذين يسعون لانشاء دولة « عربستان » Arabistan الحرة المستقلة ، لهم ما يبرر أملهم فى أن تكون شجاعة العرب فى الحجاز ، وقوتهم الثقافية فى الولايات المتحدة ، أساساً جوهرياً لاقامة دولة عربية فى آسيا تتوافر لها كل عناصر النجاح ، وتدعم مركز العرب فى الجزيرة العربية وفى سورية والعراق وتزيد من قدرتهم على استعادة مجدهم القديم ...

***

وفى الوقت نفسه أذاع الجنرال ستانلى مود (S. Maude) رسالة على أهل العراق فى مارس سنة ١٩١٧ قال فيها : ـ

ان الحكومة البريطانية لاتريد أن تفرض عليكم نظام حكم أجنبى ، وأن كل ما تهدف اليه هو أن تحقق لكم آمالكم وتعاليمكم ، لكى يعود الى شعب بغداد مجده فيستمتع بما يتوافر له من تراث ونظم تتفق وشريعته المقدسة ومثله العليا ....

لقد طرد العرب فى الحجاز ، الاتراك والالمان الذين حكموهم حكما

تعسفيا وأقام العرب الشريف (حسين) رئيسا لهم ، يحكمهم في نطاق من الاستقلال والحرية ، وهو حليف للشعوب التي تحارب الاتراك والالمان، وكذلك كان الامر بالنسبة لاشراف العرب الذين يحكمون الكويت ونجد لقد أزهقت أرواح الكثيرين من أشراف العرب في سبيل الدفاع عن حرية العرب وسقطوا ضحايا لهؤلاء الاجانب الذين كانوا يحكمونهم « هؤلاء الاتراك » .. وان حكومة بريطانيا العظمى وحلفاءها من الدول الكبرى قد اعتزمت الا يذهب هؤلاء الضحايا وتلك التضحيات التي قام بها العرب سدى ودون طائل ، فقد صممنا وصمم معنا حلفاؤنا على آن نعيد للجنس العربي مجده وعظمته بين سائر شعوب الارض .

وعلى أن نعمل من أجل أن تتحد الامة العربية لتحقيق هذه الغايات في اطار من التفاهم والتعاون .

.... اذكروا يأهل بغداد ، أنكم خلال ستة وعشرين جيلا خضعتم لحكم المستبد الاجنبي الذي غرس بينكم الخصومات كي يفيد من تنازع العرب ، وثقوا أن بريطانيا العظمى وحلفاءها ينفرون من مثل هذه السياسة ومن اجل ذلك فقد تلقيت من حكومتي أمرا لكي أدعوكم الى الاشتراك في الاشراف على شئونكم المدنية وادارتها بوساطة ممثليكم وبالتعاون مع الممثلين السياسيين لبريطانيا العظمى المرافقين للجيش البريطاني حتى يمكن أن تتحدوا مع ابناء جنسكم في الشمال وفي الجنوب وفي الغرب وتحققوا الأهداف العظيمة للعرب .

***

كذلك نشرت جريدة التيمس اللندنية في ٣٠ من مارس سنة ١٩١٧ مقالا ذكرت فيه العرب بأمجادهم التالدة ، وبعصر الخلفاء العظيم ، وأشارت الى أسباب انهيار الدولة العثمانية والى مساوىء عهدها والى المظالم التي عاصرت حكمها ..

وقالت التيمس ، في مقالها هذا : ان الشعوب العربية ، قدمت فيما مضى وما زالت الى اليوم تقدم البراهين على قوة حيويتها وعظمتها وأن ابناء

سوريا من مسلمين ومسيحيين ممن رحلوا الى الولايات المتحدة وعاشوا هناك بين ثمانيين مليونا من سكان تلك البلاد ، هؤلاء العــرب ــ وان لم يكونوا هناك الا بمثابة قطرة في خضم كبير واسع ــ تمكنت هذه القطرة من أن تطفو على سطح البحر الكبير ، فبرز العرب هناك وأخذوا مكانتهم الرفيعة في ميادين الطب والقانون ، والمال والصحافة ومنهم من عادوا الى بلادهم في ثراء واسع بفضل كفاحهم وانتاجهم ، وفي مصر يحتل العرب اسمى المناصب وعلى طول ساحل البحر الابيض المتوسط نجد شعب العرب يفيض انتعاشا وحيوية

... على ان العــــرب في الوقت الحاضر وعلى الرغم من تشتتهم ــ يسعون للتفاهم والتجمع فماذا يكون موقفنا بالنسبة لهم ؟ هل نعاملهم كجنس ادني ، أو نعاملهم معاملة الجنس الابيض ... اننا اذا عاملناهم باعتبار ما كان ، تعين علينا ان ندرك ان العرب في طريقهم لتكوين دولة عظيمة في العالم ، وان علينا ان نمدهم بالعون في هــــذا السبيل وان نخلصهم من الطغيان الطوراني ، وهذا خير لنا وأجدى علينا من كــل اتجاه يرمى الى استعمار العرب والتحكم فيهم ...

***

واذا كانت بريطانيا العظمى قد عمدت الى نشر هذا البيان واذاعته من قبيل الدعاية فحسب فان فرنسا قد امتنعت كما قلنا عن اذاعته بل منعــت نشره في بلادها فلماذا وقفت فرنسا هذا الموقف ؟ .

.. ان الجواب عن هذا السؤال واضح .. فقد كان بعض المفكرين من أبناء الأمة العربية ممن تلقوا ثقافة فرنسية يرون في فرنسا الدولة التي تتبنى وترعى الحركات التحررية اذ كانت من وجهة نظرهم ــ الدولة التي عنها صدر في العالم أول اعلان لحقوق الانسان ... وهي الدولة التي كانت تتصدى للاخذ بيد الشعوب المغلوبة على أمرها ولمناصرة قضاياها ، وكانت أملهم الكبير في التخلص من نير الاستعمار .... لقد علق بأذهان الاحرار العرب ذلك التصريح الذي أفضى به الوزير الفرنسي مســيو جبريل هانوتو (Gabriel Hanotaux) والذي قال فيه : ــ

« ان اى توسع استعماري تدعيه فرنسا في الولايات التركيــة بآسية سيدمر السيـــاسة الفرنسية ، ومن شأنه ان يبدد اعمالنــا

ويشتت قواتنا ويعرضنا لعداء لا طاقة لنا به ، وكل ذلك دون مقابل تحصل عليه بلادنا ... لقد سبق لفرنسا ان وضعت قدميها على شواطىء هذه البلاد الامر الذى كان ينتهى بها ـ دائما ـ الى الانسحاب بعد أن تكابد أفدح الخسائر واذا ما انهارت تركيا ، بات طبيعيا ، وعدلا بأن تسترد الشعوب العربية التي تقيم في هذه البلاد حقوقها المسلوبة ، وفى مثل هذه الحال ستصبح تلك الشعوب من عملائنا لا من اتباعنا ، وتتعامل معنا لا تخضع لنا .

كما وثق المستنيرون والمفكرون من ابناء العرب فيما صرح به المسيو ريبو (Ribot) رئيس وزراء فرنسا ، حينما قال فى ٦ من سبتمبر سنة ١٩١٧ ما يلى : ـ

« اذا طولبت فرنسا بايضاح الاسباب التى من أجلها تحملت ما تحملت من عذاب وآلام وما أصابها من تقتيل وتدمير ، فان جواب فرنسا عن ذلك ، هو أنها تكافح لا من أجل كسب أراض أو من أجل التسلط على الشعوب الأخرى بالقوة الغاشمة ، وانما تحارب من أجل استرداد ما لها من حقوق انتزعت منها بقوة السلاح ..

كيف نجرؤ على المناداة بالسلم ، وكيف ندعو العالم الى صلح قائم على حق كل شعب فى حكم نفسه بنفسه ، اذا كان هدفنا وغايتنا انزال الظلم بالشعوب الاخرى ... ؟

***

وعلى الرغم من سوابق فرنسا فى تونس والجزائر ومراكش ، وفى كل بلد آخر قدر له ان تتسلط عليه فرنسا ، فقد كان العرب يتوهمون أن الحرب ستلد فرنسا جديدة ، فرنسا التى صورها لهم اساتذة البعثة العلمانية الفرنسية ـ وزينها لهم اساتذة الجامعات الفرنسيون ، فرنسا المحررة التى ستنهض وتساعد الشعوب على نيل استقلالها ، كان العرب يظنون أن فرنسا الاستعمارية ، زائلة ـ حتما ـ مع نهاية الحرب حيث تولد فرنسا الجديدة ....

اجل كان العرب يعتقدون هذا ، ويتجاهلون تلك الاصوات التى كانت ترتفع فى الحكومة الفرنسية وفى مختلف الاوساط الغربية محذرة الغرب من خطر الاسلام وخطر القومية العربية ..

.... تجاهل العرب ، موقف المسيو آتين فلاندا Etienne Flandin احد رؤساء وزراء فرنسا فى البرلمان الفرنسى ، ليحذر البرلمان وليعلن ان شعور الوحدة بين الجنس العربى يتأكد بقوة لا مزيد عليها ، وان هذه الحركة التى من شأنها تجديد الاسلام تنبعث فى دمشق ، لان سورية هى القلب النابض للدعوة العربية الاسلامية ..

فهل كانت فرنسا ودول الغرب تنظر الى الاسلام باعتباره عنصرا يعاون على تحقيق السلم واقراره فى العالم أو كان الغرب يعتبر الاسلام والعرب أشد اعدائه خطرا ؟ ..

اننا اذا ما نظرنا الى ما تم عقده بين الحلفاء من اتفاقيات فى سان جان دى موريين أو اذا رجعنا الى نصوص اتفاقية سايكس ـ بيكو ، كنا فى غنى عن الرد على هذا السؤال .. ان جانبا كبيرا من سورية قد اختصت به فرنسا ، واذا كانت فرنسا فى الماضى قد جرت على أن تفرق فى المعاملة بين اللبنانيين والسوريين فقد أصبح لزاما عليها بعد هذا أن تعيد النظر فى سياستها بعد أن واجهها خطر قيام وحدة بين العرب تجمع المسلم والمسيحى ... كانت فرنسا أمام خطر بعث القومية العربية ، وكان لزاما عليها اذن أن تقضى على هذا الخطر .. وأن تعمل على بث الفرقة بين المسيحيين والمسلمين ، وأن تحيى الجراح القديمة فى هذا الصدد ، كان لزاما عليها أن تذيع وتعلن أنها الحامية للمسيحيين فى الشرق .

***

وقد وجدت سياستها هذه ـ مع الاسف ـ مؤيدين لها بين بعض العناصر من ابناء الشرق سبق أن لجئوا الى فرنسا هربا من ظلم وبطش الاتراك ... ولم تجز هذه المحاولات على العناصر اليقظة من العرب .. كما ادرك جانب من الساسة الغربيين خطر هذه النزعات وقتئذ لان الغرب كان فى أشد الحاجة الى معونة العرب فى حربه ضد المانيا ولذلك فلم يكن بمستغرب أن تقف بعض العناصر العربية فى وجه هذا التيار الجديد وتعلن على لسان السيد ايليا ابو ماضى الذى خاطب العرب فى جريدة « الفتاة » التى كان يصدرها فى نيويورك قائلا : ـ

« أنتم اليوم ، لستم بمسيحيين ولا بمسلمين ولا بدروز ولا بيهود ولا

سوريين ولا بلبنانيين انتم اليوم مغلوبون على أمركم يحكمكم أجانب عن بلادكم .. ضعفاء في سائر البلاد الاجنبية ويسيطر عليكم حكم الزمن وحكم الاتراك ، لماذا ترتفع اصوات لتقول : نحن سوريون ، ونحن لبنانيون . ؟ الستم جميعا ابناء وطن واحد لايفصلكم بحرولا قناة ولا جبال شاهقة تحول دون اتصالكم ؟ لماذا تقولون نحن مسيحيون ، ونحن مسلمون أليس في كل شعب وفي كل جيش أبناء أمة واحدة ينتمون الى طوائف دينية مختلفة » .

... ثم عاد ايليا ابو ماضي ، فكتب ... في مجلته يقول : اننا نأسف لأن من بين اخواننا من اتبع في هذا الكفاح العالمي سلوكا لا يتفق مع مشاعر ومصالح الشعب السوري .. اننا نتبين في صحف معينة اتجاهات للدفاع عن مطالب هذه أو تلك من الدول دون أن يقام أي اعتبار لشعور أو حقوق الشعب السوري .. اننا لن نجد مدافعا واحدا عنا اذا لم نتحد للدفاع عن مصالحنا بأنفسنا ، ان لكل شعب أن يطالب باستقلاله وصيانة حقوقه .... فلماذا لانتحد نحن معشر السوريين في وحدة تجمع المسيحي والمسلم والدرزي ، لنطالب باستقلالنا .. ؟ ان كلمة الاستقلال على لسان السوريين واللبنانيين ولكن كلا منهم يترجمها وفقا لهواه . ويدفع بلاده للوقوع تحت سيطرة الدولة التي يبادلها العواطف وذلك مسلك نعتبره ان لم يكن خيانة فلا أقل من أن يكون ضعفا ، ان جميع اللبنانيين يدركون بأنه مالم يتم للبنان الاستقلال فلن يعود اليه واحد ممن هاجروا منه ، لان الانسان الذي ألف الاستقلال لن يقبل أن يعود ليعيش في ظل متسلط أجنبي مهما اتصف بالعدالة والشفقة والرحمة ، اننا لنأمل أن يتحد أبناء سورية للدفاع عن حقوقهم ومصالحهم في هذه الازمة التي يجتازها العالم .... »

***

كان ايليا أبو ماضي ينادي ويناشد أبناء سورية للاتحاد وشاركه في هذه الدعوة الكثيرون من العرب المخلصين لان نوايا فرنسا كانت قد بدأت تتضح شيئا فشيئا ... اذ أعلن ساسة فرنسا وصحافتها أن لفرنسا أماني

فى سورية وأن تقاليد فرنسا تعين عليها أن تستجيب للنداء الموجه اليهـا ، ووقف وزير خارجية فرنسا فأعلن ، أن لفرنسا حقوقا فى الامبراطورية العثمانية لايمكن أن يتنازعها فيها احد ولابد من الدفاع عنها ، وأن هذه الحقوق فى سورية وفى لبنان وفى فلسطين وفى فينيقيا .. انها حقـــوق تستند الى التاريخ ، والى معاهدات واتفاقيات وعقود ، كما تستند أيضا الى أمانى ورغبات شعوب هذه المنطقة التى تعتبر عميلة لنا منذ قديم الزمن ان فرنسا ستتمسك بكل قوة لابراز حقوقها واعمالها ... »

ولقد شرعت الصحافة التى تعمل بايعاز من وزارة الخارجية الفرنسية فى مهاجمة القومية العربية .. شرعت فى مهاجمة الدولة العـربية التى كانت فى دور الاعداد مهاجمة مكشوفة ... لقد كان عندئذ فى وســـع الوطنيين من أبناء العرب أن يدركوا أن كفاحهم الى جانب فرنسا وبريطانيا من أجل استقلال العالم العربى أصبح مقضيا عليه .... كما كان ممكنا ان يدركوا الاخطار التى كانت تنتظرهم .

كان الامر بالنسبة لفرنسا هو مستقبل سياستها الاستعمارية فى سورية ولبنان ، أو بالنسبة لبريطانيا العظمى مستقبل سياستها الاستعمارية فىفلسطين والاردن والعراق ... لقد كانت خطة الغرب ترمى الى اتباع مسلك الغزاة الفاتحين ازاء الشرق ، لامسلك المحررين ، ليصبح الشرق ملكا لهم يصنعون به ما يشاءون .



وكان الغرب ينتظر لحظة الاستيلاء على الشرق ليفتح لابنـائه الباب واسعا لكى يسيطر على ما فيه من خيرات ولكى يسيطر اقتصـاديا واداريا على الشرق قاطبة ..

ولقد شرع الحلفاء فعلا فى تكتيل جماعات اقتصادية لاستغلال الشرق .. وشرعت هذه الجماعات فى البحث عن عملاء لها من ابنـاء الشرق ، وبدأ ت فرنسا تدرس المزايا التى ستعود عليها فى المنطقة التى آلت اليهـا بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وراحت الصحف الفرنسية تمهد للاستنال

فرنسا من خيرات سورية ، فقالت ان سورية ستعوض فرنسا بانتاجها عما كانت فرنسا تستورده من الشرق الاقصى ، وبثمن تدفعـــه بالدولارات وبأضعاف مضاعفة لما ستدفعه لمنتجات سورية ..

ولقد قامت غرف فرنسا التجارية بتكوين لجان خاصة بزعم الدفاع عن مصالح الشعب الفرنسي ووجهت الى الحكومة الفرنسية مذكرة توضح فيها أهمية سيطرة فرنسا على الشرق العربى وجاء فى هذه المذكرة :

(ان استيلاء فرنسا على هذه البلاد يمكننا من الحصـــول فورا على ١١ ٪ مليون طن من الحبوب ، سنويا أما عن البترول الـذى يمكن أن يضارع انتاج رومانيا فسيتوافر لنا على حين أننا لا نملك الآن منه شيئا على انه لن تقوم لاية دولة عظيمة قائمة مالم يتوافر لها البترول ، ويتعذر على أية دولة الاحتفاظ بأسطول أو جيش لمجاراة سائر الدول بغير البترول .. اذا استولينا على الشرق العربى سنحصل على القطن والصـــوف اللذين نشتريهما بكل صعوبة من بريطانيا او من امريكا بشروط مدمرة لاقتصادنا).

ولقد أوضحت فرنسا عندئذ أن سورية المعنية لاتشمل فقط لبنـان أو سورية التى وردت فى اتفاقية سايكس - بيكو ولكنها تشمل أيضـــا فلسطين ، فوقف المســـيو فلاندان (Flandin) الوزير الفرنسى يعلن ، أن لاحدود طبيعية تفصل بين فلسطين وسورية لانفلسطين ليست الا امتدادا لجنوبى سورية ، ومن ناحية الجنس لايمكن التفرقة بين أبناء سورية وأبناء فلسطين ففى فلســطين وسورية نجد الســكان واللغة والمصالح واحدة كلها متشابكة ، متفقة ..



وهكذا فى الوقت الذى كان يتطلع فيه العرب الى الغرب كان الغرب لا يخفى ما يبيته من النوايا للعرب ، كان المستقبل اذن مليئا بالكوارث التى تهدد مستقبل العرب ... اذ بدأ الغرب يجاهر بخطر القومية العربية ، وخطر التجمع الاسلامى ، وخطر اقامة دولة عربية كبـيرة ، بدأ الغرب يحرك الخلافات القديمة بين المسلم والمسيحى ... وازاء كل هذه الحركات

وأى بعض الساسة الذين كانوا يعطفون على القضية العربيــة أن يتقدموا بعريضة الى البرلمان الفرنسى بجلسيه فى ٦ من يوليو سنة ١٩١٧ يستذكرون فيها ما صدر من تصريحات المســئولين الفرنسيين ، وما بدا من اتجاهات الصحافة الفرنسية ، مما يتعارض مع أماني ، وآمال العرب فى آسيا وفى الشرق وأوضحوا أن شعوب هذه البلاد عازمة على مقـاومة كل مشروع لوضع بلادهم تحت حماية الحلفاء أو ضمها اليهم والسيطرة عليها ، وأنها مصرة على التمسك باستقلالها والدفاع عنها .

وقد بحث الامر فى مجلس الشيوخ الفرنسى الذى أعد تقريرا نشر في الجريدة الرسمية الفرنسية فى ٣١ من ديسمبر سنة ١٩١٧ ، جاء فيه ما يلى : ــ

« لايمكننا أن ننكر ما تضمنته العريضة ، وما ذكر على لسان زعماء العرب من تصريحات واضحة قاطعة مستمدة من حماسهم الوطنى وجدير بالذكر أن من شأن هذه التصريحات أن تنبه ساستنا ووزراءنا على التأنى عندما يفكرون فى ضم سورية وفلسطين الى فرنسا باعتبار ذلك احدى نتائج انتهاء الحرب الحالية لمصلحتنا .

ان هذه المطالب يبدو أن تحقيقها للعرب مازال بعيدا كما أنها فى الوقت نفسه لا تبعث على طمأنينتنا ، وذلك لانها بانتصـــــار الحركة الاسلامية وبتكوين دولة عربية عظيمة من جديد ثم يمضى التقرير فيقول .

« ان ما يتقدم به العرب لا يعدو أن يكون تعبيرا عن رأى قلة من العرب ثم تثقيفها وتشبعت بالروح التحررية ، ولكن هل هذا يعنى أن هذه القلة تعبر تعبيرا صادقا عن شعور وأمانى الشعوب العربية كافة ولا سيما العناصر المسيحية واليهود فى آسيا الصغرى .. اننا نشك اذا أخذنا فى الاعتبار أن أغلبية هذه الشعوب مازالت تعانى من اســتبداد الاتراك ، وما زالت حتى اليوم صامتة وأن الذى يتحدث الآن هم طائفة من الصحفيين والمحـــامين والاطباء والاساتذة أى النخبة التى تعتبر اكثر تحركا فى الجماعات السورية والفلسطينية واللبنانية المقيمة فى فرنسا وبريطانيا وفى مصر وأمريكا ...

الا يعبر هؤلاء عن تلك المبادىء والآراء المتعلقة بالاستقلال والحرية التي تمتعوا بهـــا في الديمقراطيات الكبرى التي آوتهم ، أم أنهم يعبرون عن شعور وأماني بلادهم الاصلية التي ينتمون اليها ... »

ومع هذا فان ما يتقدم لنا من آراء ومطالب لايصدر الا عن الوطنيين العرب المسلمين فما عسى أن يكون رأى المسيحيين واليهود في ســـورية وفلسطين وآسيا الصغرى الذين يمثلون ما يقرب من ثلث سكان هـــذه المناطق ؟

ثم يمضي التقرير فيسجل أن المسيحيين واليهود والعرب كانوا الى وقت قريب يقف بعضهم من بعض موقف العداء . بسبب أسلوب الحكم التركي ، ولما افادوه من الفرقة بين هذه الطوائف ، ويقال ان الوحدة قد تمت بينهم منذ الدستور الذي أعلنوه والتزموه فزال ماكان بينهم من عداوة ويقدمون كدليل على صحة هذا التصريح الصادر من شريف مكة والذي يتضمن على ــ حد قولهم ــ الحرية التامة للعقيدة .. »

ثم يستطرد التقرير فيقول :

« اننا ندرك أن العرب المسلمين في هذه البلاد يهدفون الى الاستقلال الذاتي ويعملون من اجل الحصول على استقلالهم الوطني ... اننا نعلم ان الكثير من الصحافة الناطقة باللغة العربية في العالمين تقوم بحملة حمـاسية مؤيدة لهذا الاتجاه اننا ندرك ان المسلمين يرحبون ببعث الاســـلام الذي بات وشيك التحرر من سلطان تركيا ....

كان ممكنا أن نشارك المسلمين في هـــذا الشـــعور الذي يتفق مع اتجاهاتنا التحررية ومثلنا الانسانية لولا علمنا بما في الاسلام من تعصب وطاقة توسعية ، واذا تم اعادة تكوين هذه الامبراطورية العربية العظيمة التي ينشدها بكل حماس وحرارة سائر المسلمين ، والتي يتضح خطرها لجميع المستيرين كأكبر ما يهدد الاعمال العظيمة التي قامت بها بريطانيا وفرنسا في مصر والهند والجزائر وتونس والجاري تنفيـذها في مراكش .. ان

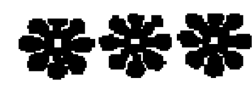
الوقت لم يحن بعد لدراسة هذه المشكلة الجسيمة المهددة والتى يعتبر حلها مغلفا بغلاف من الظلام ••

ويستطرد التقرير فيقول •

« كان لزاما علينا ان نلقى ضوءا على بعض الاعتراضات الموجهة لتلك الحملة الحماسية فى سبيل استغلال سورية وفلسطين والبلاد الاخرى فى آسيا الصغرى ••• هنـــــالك اعتراضات أخرى وصعوبات أخرى خلاف الخطر الاسلامي .. فليس على فرنسا وبريطانيا واجب لحماية وتطوير مـا لهما من مصالح مادية فى الشرق فحسب . اذ أن عليهما أيضا واجبا يدعوهما الى مراقبة الحركات السياسية والدينية الكبرى التى يمكن ان تحرك العالم العربى ، ان عليهما أن يمنعا امتداد هذه الحركات الى سائر البلاد الاسلامية التى تخضع لحكمهما او لوصايتهما أو لادارتهما ، وهى بلاد تعتبر ضمن تراث فرنسا وبريطانيا الوطنى ، والتى ارتبط بكل منهما مصيرها الى الابد •• اننا دفعنا » الى تقديم هذا العرض السريع لانه ترتب على انشاء دولة عربية فى الحجاز ولما سيترتب على تجريد تركيا من أملاكها فى آســـيا الصغرى ما يفيد بطبيعة الحال ، وضع المسألة الشرقية ، ولهذا نرى أن حل هذه المسألة يجب أن يؤجل انتظارا لتلك الساعة التى يستطاع فيهـــا دراستها دراسة كاملة والتوفيق بين مختلف المصالح التى تواجه بعضـها البعض » •

انه لمن الخطر أن نقبل اعلان استقلال وحرية سوريا وفلســطين ، وهذه الخطورة تنطبق على كل ما يتم من اتفاقيات سرية تتناول مستقبل هذه البلاد عن طريق تقسيمها أو توزيعها كمناطق ، للنفوذ ، وأن الحل سوف يأتى فى وقته ، وسيكون النتيجة الطبيعية لتطور الاحداث والظروف ،ويجب أن نلتزم فى حلها قواعد العدالة وحقوق الشعوب ، ولكن قبل أى اعتبار آخر نلتزم الحرص على كفالة السلام فى العالم ، والى أن يتم ذلك فاننـا ندعو العرب فى آسيا الصغرى ، والمتبنين لقضيتهم الى الاطمئنان والهـــدوء ••• اننا سنستمع الى مطالبهم ولن نضحى بحقوقهم ، ولهـم فى قرارات

مجلس النواب الفرنسى فى ٤ و ٦ من يوليو ، وما صدر من تصريحات رسمية من رئيس مجلس الوزراء ومن الرئيس ولسن التى تضمنتها من الرسالات التى تمت اذاعتها ما يبشر باحلال قواعد القانون الدولى العام الجديد والضمير العالمى محل الأوضاع السابقة » .



ثم انتهى التقرير الى القول بأنه ليس من حق البرلمان الفرنسى أن يبدى رأيا فى حرية واستقلال العرب وحكمهم لانفسهم فى آسيا الصغرى ، بزعم أن الوقت غير مناسب للفصل فى هذا الشأن الخطير .. وقرر البرلمان احالة المسألة الى رئيس الوزراء ووزير الخارجية مع استرعاء نظرهما الى ماينطوى عليه عقد الاتفاقات السرية من اخطار ، اذا ما تناولت تقرير مصير البلاد العربية اذ أن هذا الامر يجب عرضه على مؤتمر الصلح الذى سيقرر شروط الصلح ويحرر بصفة نهائية الشعوب المغلوبة على أمرها .



ان هذه الوثيقة جديرة بكل العناية ليس من حيث النتيجة التى انتهت اليها وهى نتيجة افلاطونية لا تقدم ولا تؤخر ، ولكن من حيث الاستعراض الصريح الواضح لمختلف العناصر التى استندت اليها سياسة الغرب ازاء الشرق ، وهى العناصر التى تكيف فى الوقت نفسه موقفه تجاه الشرق .

فاذا كانت اللجنة البرلمانية قد وجهت نظر رئيس مجلس الوزراء الفرنسى ووزير الخارجية للاخطاء المترتبة على عقد اتفاقيات سرية تتناول مصير البلاد العربية ، واذا كانت قد أكدت للعرب أن مطالبهم ستكون محل رعاية وأن حقوقهم لن يضحى بها ، فانما كانت هذه اللجنة تثير فى الوقت نفسه المقدمات التى تحتم على الغرب الوقوف فى وجه العرب والمسلمين وحرمانهم من مطالبهم كما كانت توضح المقدمات التى تكيف سياسة الغرب ..

ونظرا لأهمية ما جاء فى هذا التقرير نعود لنبرز فقرته ذات الاهمية الفاصلة والتى تقول اللجنة فيها انها لولا خوفها وعلمها بما ينطوى عليه الاسلام من خفايا وتعصب وطاقة توسعية ، ولما سوف

يترتب على اعادة تكوين هذه الامبراطورية العربية العظيمة التي ينشدها العرب ... لولا وضوح هذا الامر بوصفه أكبر خطر يهدد الغرب في سائر البلاد العربية والاسلامية ...

وان مصالح فرنسا وبريطانيا في الشرق لا تقف عند الناحية المادية ، اذ ان عليهما واجبا يحتم عليهما أن تراقبا الحركات السياسية والدينية الكبرى التي يمكن أن تحرك العالم العربي لتحولا دون امتدادها الى سائر البلاد الاسلامية التي يسيطر الغرب عليها ...

.... فهل كان من الممكن أن نطالب البرلمان الفرنسي أن يكون اكثر هذا صراحة ووضوحا في الاعلان عن رأيه هذا .. ؟ ألم يوضح البرلمان الفرنسي في صراحة مفهومية الغرب للمشكلات الكبرى التي يواجهها والتي تكيف سياسته تجاه العالم العربي والاسلامي في الماضي وفي الحاضر والمستقبل ..؟ ان النتيجة التي يمكن الوصول اليها تشير الى أن تكييف الغرب لعلاقته بالشرق يتوقف ــ دائما ــ على التعريف الذي ينتهي اليه الشرق لمدلول القومية العربية والتجمع الاسلامي ومفهوم العرب لهما .



لقد اعلن الحلفاء أنهم على استعداد لتأييد ومساندة بعث القومية العربية وتحقيق التجمع الاسلامي في اطار يتفق مع مصلحة الغرب ،وتولى عملاء الغرب تحديد مدلول ومفهوم القومية العربية والتجمع الاسلامي .. فماذا كان هذا المدلول ؟ لقد قيل للعرب وقتئذ أن يلتزموا حدود «السياسة المسالمة المعقولة » ، والتي وضعت داخل اطار يبعد عن حركة القومية والتجمع الاسلامي من مصر وليبيا وتونس ومراكش وافريقية الاسلامية بأسرها .. ولم تذكر الجزائر ، لأن فرنسا كانت وقتئذ تعتبرها جزءا منها ..

ولقد قيل : ان الحركة العربية الاسلامية يجب أن تنحصر في شبه الجزيرة العربية وتتركز في الحجاز باعتباره يضم البلاد المقدسة للمسلمين فيتمتع بالاستقلال ، اما سائر الاراضي التي يتم فصلها عن تركيا فتفرض عليها وصاية وسلطان بريطانيا وفرنسا ، وان الدولتين ترعيان مصالحها وتكون منها مكان الوجه المعلم وبهذا تتحد الحركة العربية، والحركة الاسلامية مع الحضارة الغربية وتصبح اداتها لتطوير العالم الآسيوي ، وتحت رعاية الدول الغربية تتمكن الامم العربية والاسلامية من تحقيق امنها ورفاهيتها وازدهارها ...

وهكذا بدلا من الامل في قومية عربية وتجمع اسلامي خطير يقدم الغرب المسلمين والعرب املا سريع التحقيق من شأنه اسعاد العرب تشترك فيه فرنسا وبريطانيا كعضوين اساسيين وبوصفهما دولتين عربيتين اسلاميتين ... !

***

ولقد قابلت الهيئات الوطنية العربية هذا الاقتراح بالرفض البات الحاسم ، وسارعت باصدار بيان جاء فيه .

« نعم اننا نعلن على رءوس الاشهاد اننا نحن العرب في فلسطين وفي سورية وفي كل مكان . نريد أن تنشيء ولايات متحدة عربية اننا نسعى لاقامة دولة شبيهة بالولايات المتحدة الامريكية ، ولتصبح بلادنا حرة ومستقلة ، لاتتكون الا من جنس واحد ، ولا يتألف منها الا شعب واحد لقد كان تمزيقنا وتشتيت شملنا مصدرا لجميع المشكلات التي مازال حلها حتى اليوم متعذرا علينا ... وأن الغرب يسعى الى تقسيم الاسرة الواحدة وتفتيتها .. واننا نأمل بعث الاسرة العربية الكبرى قوية سليمة وسط هذا الصراع الهائل الجبار الذي خاضته وكلفها ، كما كلف سائر الامم التي تناضل في سبيل الحق والحرية دماء زكية ... »

كما رأت العناصر الوطنية أن تحذر فرنسا موقفها العدائي للعالم العربي فبعثوا الى حكومتها برسالة قالوا فيها : ــ

« اتعلمون مدى الطاقات التي استيقظت في الشرق والارادة التي ستثبت وجودها ، وشعور الغضب الذي بدأ يزمجر في الشرق ؟ هل يمكن أن تكون كل تضحياتنا التي بذلناها وكفاحنا الذي تجشمناه هل يمكن أن يكون ذلك كله من أجل شيء غير حريتنا .. احذروا هذا الخطأ » .

« لاتشتركوا في هذه الجريمة ... افهمونا جيدا ، سنحترم كل ما لفرنسا من مصالح ، واكثر مما تصور فرنسا ، ساعدونا في نضالنا من اجل استقلالنا ، فان مستقبل السلام في الشرق يتوقف على تحقيق الاستقلال للعرب .. ان بلادنا لن تقبل التفتيت والتجزئة ، اننا نسعى لتكون أمة واذا اقتضى الامر أن نموت من أجل هذه الغاية فان حياتنا فداء لمبادئنا .. » .

وهكذا اعلنها المجاهدون قولة واضحة ، أكدوا فيها للحلفاء ، أن وقوف العرب الى جانبهم في الحرب العالمية الاولى ، وتضحياتهم الكثيرة التي بذلوها ــ كل ذلك لم يكن من أجل أن يستبدلوا بالحكم التركي حكما آخر ، وانما كان من اجل تحقيق الاستقلال التام والحرية بكل معانيها لبلادهم ، وأنهم لم يكونوا ينظرون الى الحلفاء الا نظرة المناصرين الذين يعملون على تحريرهم ...



على ان هذا الموقف الذى وقفه العرب من اجل حريتهم واستقلالهم لم يفاجىء الحلفاء فقد كانوا يقدرون ذلك ويتوقعونه ، ولذلك كانت تصرفاتهم بالنسبة للعرب منذ بدء الحرب تقطع بما كانوا يبيتونه من النوايا للعرب مستقبلا فان موقف العرب واحراجهم للغرب ، اكره فرنسا وبريطانيا على التعجل فى كشف سياستهما تجاه العرب وليس بعجيب اذا استعرضنا تاريخ علاقة الغرب بالشرق ان نجد هذا الموقف يتكرر كلما آكره الغرب على مواجهة الشدة فى مختلف مواقفه السياسية .... ولقد عمل الغرب على استدراج العرب لكى ينكل بهم، ومن أجل هذا ، وازاء موقف العرب وتمسكهم بحقوقهم واندفاعهم الوطنى لم يكن بمستغرب من بريطانيا أن تعمل على بعث الحركة الصهيونية العالمية ، وأن تهيىء لها الظروف لتلعب دورها فى مصير الشرق .

.... واعتمدت بريطانيا على حسين شريف مكة وملك الحجاز ، وعلى ولديه عبد الله وفيصل لتنفيذ سياستها تجاه العرب ....

وهكذا وجدت بريطانيا لسياستها فى الشرق نقط ارتكاز ووجدت لوجهها قناعا عربيا يحجب ملامحه ومن نقط ارتكازها ، رأحت سياستها ومؤامراتها تحاك وتندفع وفيها افرخت خططها الاستعمارية لتحقق مآرب الغرب ومن وراء قناعها العربى ، اخذت بريطانيا توجه وتملى وترسم للعرب الخطط التى تنتهى ــ حتما ــ الى دعم استعمارها والى مقاومة القومية العربية والتجمع الاسلامى فى الشرق .

اما فرنسا فقد اندفعت بكل قوتها لتحتل سورية ولبنان احتلالا تاما .



راعينا فيما تقدم أن يكون حديثنا صورة كاملة لما مرت به القومية العربية والتجمع الاسلامى من احداث عبر التاريخ دون أن نبدى وجهة نظر لنا فى هذا الشأن وانما ابرزنا دائما مفهوم القومية العربية والتجمع

الاسلامي عند الغرب ولا سيما نظـــرة ساسته لسائر الشعوب العـــربية والاسلامية

واوضحنا كيف أن اغلب زعماء العرب والمسلمين في كل مكان تعاموا عن هذه الحقيقة الواضحة ، ونكلوا عن الافادة منها ، بل جاروا ودفعـوا العرب والمسلمين الى بذل العون للحلفاء ، دون أن يحرصوا في ذلك على أرواحهم وحقوقهم ، مما كان من شأنه أن انتصر الغرب على المانيا وحلفائها، كما فرض سلطانه على العرب والمسلمين حلفائه بالامس وتمت له السيطرة على بلادهم جميعا فلم يبق بلد عربي واسلامي بمنأى عن نفـــوذ الغرب وسلطانه ، مما حتم عليه أن يعد سياسة خاصة يواجه بها مختلف المجتمعات الاسلامية ولا سيما العربية منها ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

قلنا : ان الغرب لا يفرق ،حينما يتصدى للمجتمع العربي والاسلامي، بين الدين والسياسة ، لان الاســـلام كان في رأي الغرب ومنذ الحروب الصليبية هو الاطار الذي يحوي شتى المظاهر التي تعـــين صراع الغرب المسيحي وكفاحه ضد الاسلام .

ولسنا في حاجة للتدليل على ان الدين الاسلامي ، شأنه شأن سائر الاديان يقوم على عقيدة وشريعة .... فالعقيدة تربط المتدين بالله ،والشريعة قواعد تنظيم سلوكه واخلاقه ومعاملاته ، وهي لايمكن أن تؤدي الى صراع بينه وبين الاديان الاخرى ... واذا رجعنا الى عهد الدولة الاسلاميـــة الكبرى ، لا نجد ماينافض العدالة في معاملة هذه الدولة لغير المسلمين من أفرادها ولا ما يجافي الحق في نظرة حكامها لسائر المحكومين على مختلف أديانهم ، والآن فان المسألة في واقع الامر لم تكن عداء دينيا يضمره الشرق للاديان الاخرى ، وانما كانت عداء الغرب للشرق في ذاته ، عداء للاسلام بوصفه دين الشرق .

لذلك تصدى الغرب في نهاية الحرب العالمية الاولى لعلاج موقفه من الاسلام وانتهى في هذا الى القول بأن المشكلة الاســـلامية ماثلة دائما في اذهان قادته وساسته وقد اتفق هؤلاء جميعا على ان بعث القومية العربية كان

مستطاعا قبل الحرب العالمية الاولى لو أنه قدر للعرب أن يحققوا استقلالهم عن الدولة العثمانية ويحققوا الوحدة فيما بينهم .

ومن ناحية أخرى كان ساسة الغرب يرون أن هناك احتمالا لتحقيق التجمع الاسلامي بعد الحرب العالمية الاولى نتيجة لحركة اسلامية أكبر ، تقودها تركيا بوصفها دولة فتية جديدة ، وفى الحالتين ، يكون ممكنا أن يتحقق للمسلمين فى ظل دولتهم الكبرى حقوق متساوية ، على غرار الدول الاسلامية التى ازدهر فيها الاسلام ، وتألق مجده الا انه لم تتهيأ للمسلمين واحدة من هاتين الوسيلتين من أجل تحقيق تجمعهم من جديد .... لم يستقلوا عن تركيا ، قبل الحرب ، ولم تتح لهم بعد الحرب تركيا فتية تتولى قيادة البلاد الاسلامية .



ثم قال ساسة الغرب ، ان هنالك احتمالا للتجمع الاسلامي على أساس حركة اسلامية تقوم بها الدول العربية اذا مكنها الغرب من الاستقلال والتحرر من الحكم العثمانى تتجه الى بعث القومية العربية أولا ويقولون : انه كان لزاما على الغرب أن يعد العدة لمواجهة كل هذه الاحتمالات ومن أجل هذا فلم يفرق الغرب فى نظرته للعربى والمسلمين، بين القومية والدين وكان ساسة الغرب يرون أنه لكى يتمكن من القضاء على خطر الاسلام ، فلابد له من السيطرة على أراضيه اولا - وقبل كل شىء ، وانه متى تم له التسلط على مختلف المجتمعات الاسلامية ، عربا أو غير عرب ، استطاع ان يشل طاقة الاسلام ويعطلها ، بحيث يصبح الاسلام مجرد جسم يفتقر الى الاجهزة والاعضاء الجوهرية التى تكفل له الحياة جسما خاليا من مركز يوجه ويقود اجهزته المختلفة ، ليس به جهازعصبى يحس وينقل الانفعالات الى مختلف اعضائه ... وعلى هذه الصورة يصبح الاسلام من الناحية السياسية مجرد مجتمع غير قادر على الحركة .... يصبح مجرد جسم لاحياة فيه ...

والغرب على الرغم من هذا كله كان يتوجس خيفة على سياسته من

الاسلام ؛ ويرى أن الاسلام كعقيدة يغذيها ايمان المسلمين فى كل بقعة من بقاع الارض مازال له خطره مادام أن التضامن بين المسلمين باقيا حيثما كانوا وأنى وجدوا ، ذلك التضامن الذى كان الغرب يرى أن أثره لايمكن التفادى منه من الناحية الروحية والعاطفية حتى لو سيطر الغرب على البلاد العربية والاسلامية . فان اثره من الناحية الروحية والعاطفية ـ يبقيان دائما وفى كل حالة ، ويساعدهما على سعة الانتشار فى العالم الاسلامى ، تطور وسائل المواصلات ووسائل الدعاية والنشر ، فيحركان شعور المسلمين ، وتأسيسا على هذه النظرية ، رأى ساسة الغرب أنه لاتكفى اتقاء هذا الخطر أن يقضى على الاسلام كقوة سياسية وانما لابد لاتقـائه من المساعدة بين المسلمين ، وعزل مجتمعاتهم بعضها عن البعض ، للحيلولة دون التبـادل الثقافى فيما بين هذه المجتمعات مما يرفع الوعى فيها ، ويزيد من مستواها العلمى ، بحيث يصبح المسلم فيها أشد خطرا على سياسة الغرب .

ذلك أن الغرب يدين بالرأى القائل بأن المسلم ، يظل مسلما بالغـا ما بلغ علمه وثقافته ، بل ان خطره يزداد بازدياد دراسـته وعلمه ، اذ يتجه فى مثل هذه الحال ـ الى العمل من أجل احياء قـوميته ويتطلع الى اخوانه فى الدين فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وبأن المسلمين ـ بحكم ما ورثوه من تعاليم الاسلام وما تلقوه من نظمه ، مندفعون تلقـائيا فى سبيل تحقيق الارتباط والتضامن فيما بينهم فى مختلف الصور الثقـافية والسياسية والاقتصادية ، كلما هيأت لهم الظروف ذلك ، أو سمحت به الفرص ، وفى صدد هذا التآلف بين المسلمين ، يقول ساسة الغرب ان الدين الاسلامى جواز سفر يتيح لحامله المسلم قسـطا وافرا من الرعاية والامتيازات ، أينما حل وفى كل بلد اسـلامى من المحيط الاطلسى الى أقصى بلاد الصين حيث ينتشر الاسلام ..

ولهذا لم يغب عن أعين ساسة الغرب شبح خطر بعث القومية العربية والحركة الاسلامية ، فى تلك البلاد الاسلامية ، اذا تسنى لها التطـور العلمى والاقتصادى ، ولم يحد هؤلاء الساسة عن رأيهم فى اخضاع هـذه

البلاد ، حتى يحولوا دون هذا التطور الذي يقضي حتما ـ الى بعث الوعى القومي والديني فيها .



من أجل هذا كله ، التقت هذه الآراء جميعها على وضع سياسة اسلامية يطبقها الغرب فى سائر الشعوب الاسلامية بغض النظر عن مختلف القوميات فيها ... سياسة تقوم ـ اساسا ـ على مكافحة الوحدة الدينية والسياسية والقضاء عليها ، وعلى ازالة جميع الروابط التى تربط بين مختلف الجماعات الاسلامية ، وعزلها بعضها عن بعض حتى لو كانت تحت حكم دولة غربية واحدة .

وقد كانت وسائل الغرب لتنفيذ هذه السياسة وسائل متعددة ، منها .

أولا ـ عزل تركيا وايران ومسلمى الهند عن بقية العالم الاسلامى ، وكانت دعاية الغرب فى هذا الشأن تعتمد على كون مسلمى الهند وايران، من الجنس الآرى ، وهو الاصل الذى انحدر منه الجنس الاوروبى ،وكون الاتراك من الجنس التورانى .

على حين ينتمى العرب الى الجنس السامى ، كما كان من بين اساليب التطبيق لسياسة العنصر ، أن يقر دعاة الغرب فى روع الاتراك بانه بسبب هذا الفارق فى الاصل ، فانه اذا قدر للعرب ان يقيموا دولة عظيمة كان الاتراك ومن اليهم من الاجناس غير العربية فى هذه الدولة العربية مجرد اقليات لا وزن لها .

ثالثا ـ الحيلولة دون تبادل الثقافات الدينية بين مختلف البلاد العربية الدينية ، لصرف المسلمين عن التطلع الى خلافة دينية واحدة كان ممكنا ان تحل محل الخلافة العثمانية .

ثالثا ـ الحيلولة دون تبادل الثقافات الدينية بين مختلف البلاد العربية والاسلامية واعاقة نمو هذه الحركات داخل كل بلد عربى .

رابعا ـ مقاومة خطر رجال الطرق الصوفية نظرا لكونهم قوة روحية ذات أثر خطير فى مختلف الاوساط العربية والاسلامية ، وهم فى مأمن

من رقابة السلطات الخاضعة للاستعمار ، وتشجيع النعرات المختلفة داخل كل بلد عربى واسلامى لتفريق الكلمة فيه • وكذلك تشجيع البعثـــات التبشيرية وتوفير كل الامكانيات لها للتوسع فى نشاطها الدينى والثقـــافى والاجتماعى فى كل ركن من أركان البلاد العربية والاسلامية •

وعلى هذه الصورة أمن الغرب نفسه من الاخطار التى تهدد مستقبله فى سائر بلاد العرب والمسلمين •

وهكذا انتهى مصير الشرق بعد الحرب العالمية الاولى وبعد أن بذل الشرق ما بذل وضحى ما ضحى لينتصر الغرب فى النهاية •

اما الغرب فقد قابل هذا الصنيع من العرب والمسلمين بأن ســـلب حريتهم واعتدى على بلادهم وانقلب عليهم طاغية مستبدا ناقضا للعهد خائنا للمواثيق ••

هكذا نجح الغرب فى وقف اندفاع التيار العربى والاسلامى الى بعث القومية العربية وتحقيق التجمع الاسلامى ، وأكره العرب والمسلمين على التحول عن هذين الهـــدفين حتى تم للدول الغربية ســلبهم حريتهم واستقلالهم •

وهكذا آثر الغرب لنفسه مواجهة الحركات الوطنية المشتتة فى سائر البلاد العربية والاسلامية عن مواجهة ذلك الخطر الرهيب الكامن وراء بعث القومية العربية وما قد يترتب عليه من تحقيق التجمع الاسلامى ••

وبهذا فقد اختفى طيف •• القومية العـــربية •• وراء هذا الحجاب الذى أسدلته سياسة الغرب على المجتمع الغربى والاسلامى وظل متواريا لاكثر من ربع قرن من الزمن •

الفصل الثاني والعشرون

الصهيونية

« تصريح بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ – مأوى قومى لليهود فى فلسطين – الغرب »
« يرعى استقرار اليهود فى فلسطين – الصهيونية – البعض يقول : انه لولا اضطهاد »
« اليهود وحرمانهم الحرية والمساواة ما وجـدت الصيونية – البعض يرى أنه لولا »
« تمتع اليهود بالحرية السياسية وبالحقوق المدنية ما رأت الصهيونية النور – نظرية »
« «هاباتى» – الصهيونية انتاج حديث ومرحلة من مراحل تطور الحركة اليهودية فى »
« العالم – اليهود سعوا أولا وراء المال ثم الحقوق والعقائد – نظرية «سلفادور» – لم »
« يكن لليهود الصفات المميزة للشعوب – ولاء اليهود نوعه ومداه – نظرية «هرتزل» – »
« وجود اليهود يثير الاضطهاد حتما – الحركة المناهضة للساميـة وأثرها – تحرر »
« اليهود وأثره – اليهود يستخدمون امكانياتهم الطبيعية لتحقيق مكانة اقتصـادية »
« واجتماعية وعلمية وسياسية – رد الفعل – صعوبة القضاء على الشعور العـادى »
« لليهود – اضطهاد اليهود فى البلاد الراسمالية يدفعهم الى الأحزاب الفوضوية – اذا »
« حوربوا فى اموالهم عمدوا الى تدمير الكيان الاقتصادى للدولة عليهم وعلى أعدائهم – »
« المشكلة اليهودية لا تحل بالتسامح – ضرورة جعلها مشكلة عالمية . فرضها فرضا على »
« الدول العظمى – ضرورة حصول اليهود على أرض ليمارسوا عليها سيادتهم – العقيدة »
« تنقل الشعوب من مكان الى مكان – الرجال يقيمون الدول بتضامنهم واتحادهم – »
« حاجة اليهود الى دولة عظيمة تقف بجانبهم – دور بريطانيا – الصهيونية . »

فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ بعث اللـــورد بلفور الى اللورد روتشـــيلد (Rotchild) نائب رئيس الاتحـــاد الصهيونى البريطانى بالكتاب التالى :

يسرنى بعد أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جـلالة الملك التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود الصهيونية ، وقد عرض التصريح على الوزارة وأقرته ، واليكم التصريح .

« ان حكومة جلالة الملك ترعى بعين العطف موضوع تأسيس مأوى قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية على أن يكون مفهوما أن ذلك لن يكون من شأنه تغيير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمـة الآن فى فلسطين أو تغيير

الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى .



وبعد مرور شهر على اصدار هـــذا التصريح أعلن لورد روبرت سيــيل (Robert Cecil) وكيل وزارة الخارجية البريطانية الآتى : ــ

« أن أملنا هوأن تصبح البلاد العربية للعرب وأرض يهوذا لليهود . »

وفى ١٠ من فبراير سنة ١٩١٨ صرح المسيو ستيفان بيشون (Stephan) وزير خارجية فرنسا للمسيو سوكولوف (Sokolov) مندوب المنظمـــات الصهيونية بما يأتى .

« ان الاتفاق تام بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية حول ما يتعلق باستقرار اليهود فى فلسطين . »

وفى ٧ من مايو سنة ١٩١٨ أعلنت ايطاليا انضمامها الى تصريح بلفور

وفى ٣١ من أغسطس سنة ١٩١٨ ، أعلن الرئيس ولسون انضمامه الى هذا التصريح ، ولعل هذا التصريح ، هو الحدث الحاسم فى تاريخ فلسطين ، لأنه مصدر ومبعث كل مانزل بها من احداث منذ أن صدر الى يومنا هذا ..

ولكى ندرك مدى خطورة هذا التصريح ، لابد من الالمام بالظروف التى انبنى عليها ، والتى انتهت باصداره ، وسنقصر جهدنا فى الموضوع ، بهذا المؤلف ، على العناصر الاساسية دون سواها ، أما الحديث الوافى عن الصهيونية ، والمشكلة اليهودية والمشكلة الفلسطينية ذاتها ، فان ذلك كله قد اعتزمنا أن نعد له دراسة مستفيضة فى مؤلف خاص .



الصهيونية

يذهب بعض الكتاب الى رد الأسباب العميقة لقيام الحركة الصهيونية

لما تعانيه اليهود خلال القرون الكثيرة من الاضطهاد ؛ ويقولون أنه لو تمتع اليهود في كل مكان بالمساواة والحرية التي يتمتعون بها في البـــلاد التي تطبق التشريعات الحديثة ، وانه لولم تفرق سائر البلاد بين الجنس اليهودي والاجناس الاخرى ، لما رأت العقائد والنظريات الصهيونية النور ....

وذهب بعض الكتاب الى حد انكار وجود المشكلة اليهودية وتساءلوا : هل هناك ـ في الواقع ـ مشكلة يهودية ؟ .. ثم أليس في هذا السؤال ما يتضمن الاقرار ـ سلفا ـ بتلك النظرية التي تريد أن تجعل من الرجال والنساء الذين ينتمون الى أصل يهودي أو يدينون بشريعة موسى فئـــة خاصة .. ؟ أليس في التمسك بهذا الزعم مجاراة لاولئكم الذين يحذرون السامية أو يؤيدون النظرية الوطنيـــة اليهودية التي تعتبر هذه الطائفة في مجموعها شعبا واحدا ، وتطالب بأن يكون لها دولة قائمة بذاتها ..

وهكذا يذهب أولئكم الكتاب الى القـــول « بأنه لو قامت في الدول الحديثة مبادىء الحياد فيما يتعلق بالنواحي الدينية ، واذا تمت الوحـدة الدينية بين سائر ابناء الوطن الواحد واندمج اليهود في المجتمعات الوطنية ما وجدت المشكلة اليهودية .. »

أن أغلب هؤلاء الكتاب ليسوا من اليهود ، ولذلك لم يكن بمستغرب أن يتصدى للرد عليهم زعماء الحركة الصهيونية والمبشرون بها ، فيقولون انه بفضل تحرر اليهود وتمتعهم بسائر الحقوق المدنية ، قامت الحـركة الصهيونية وولدت .. ويشرح هذا القول الاستاذ باروخ هاباني Habani في مؤلفه « تحرير اليهود » فيقول :

« ان الصهيونية تعتبر من ناحية ، رد فعل لتلك المرحلة التي اتسمت بتحرر اليهود في فرنسا والمانيا تحررا يكاد يكون تاما »

وقد اعترض هذا المؤلف بشدة على النظريات التي أبديت حول اثارة المشكلة اليهودية ، فقال ان قيام الحركة الصهيونية كان النتيجـة الطبيعية التي لا مفر منها لتمتع اليهود بحريتهم واندماجهم في الأوساط الوطنية .. حقا .. ان الحركة الصهيونية تستمد جذورها العميقة من مبادىء تاريخ بني

أسرائيل العميق ولكن الصهيونية بفضل تنظيمها ووسائلها فى العمل والتربية والدعاية والعقلية التى كونها فلاسفة هذه الدعوة ، انتاج حديث بكل معنى الكلمة ، ولم يكن الوصول اليها ممكنا قبل ان تتحقق لليهود الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفى ظل تحررهم الكامل ، فتحرير الجماعات اليهودية المشتتة والمنقسمة على نفسها من أجل الكفاح فى سبيل الرزق المحدود ، وقبل ان تنال حقها فى التحرر والاندماج ،كان محصورا فى حصولها على هذا الحق ، ولما تم لها الحصول عليه كان عنصرا هاما فى شعور اليهود بالاعتداد وبضرورة السعى الى تحقيق وحدتهم المعنوية والعقائدية . »

« لقد كانت مرحلة تحرير اليهود ومنحهم سائر الحقوق مرحلة أساسية كان من آثارها قيام الحركة الصهيونية الاساسية ، كما أفضت الى طمع اليهود فى مزايا خاصة ، فما ان تم لهم مطمعهم فى التحرر حتى أداروا ظهرهم لهذا المطمع واتجهوا الى جديد من المطامع » .



وفى هذا كتب المؤرخ اليهودى سلفادور يقول :

« ان الشعوب بمجرد أن تحصل على نوع من الحيئاة المميزة لها ، وترتفع عن مستوى وضعها السابق تصبح فى الواقع شعوبا ولا شعوب ،اذ أنه لايكفى قيام شعب ، مجرد تجمع عدد من الناس بالغا ما بلغ قدره وانما لكى يكون هناك شعب يجب أن تتوافر له الصفات المميزة للشعوب من حيث التسمية ومن حيث التشريع الذى يحكمه ، واللغة التى ينطق بها . »

« والشعب اليهودى ظل على مر الازمنة مجموعة من افراد مشتتين فى الارض تقرب بينهم أحداث التاريخ ..

« فلم يكن شعبا بالمعنى الاصيل لهذه الكلمة ، وبقيت حياته على هذه الصورة ، حتى فى أرض فلسطين ذاتها . »

« وقد راض اليهود أنفسهم،على أن يولوا حكام الدول التى ينتمون اليها نصف ولائهم وعلى أن يتجردوا من هذا النصف ويبدلوه عداء وصراعا

ضد هؤلاء الحكام ، اذا ما بدر منهم ما يمس مصلحة اليهود أو يتعارض مع وعيهم القومي ، وكان هذا الاتجاه في نفس اليهود هو السبب الوحيد في احتفاظهم بكياتهم وبقائهم دون أن يبيدوا ، وذلك كان المعجزة ، اذ أن أثر هذا الوعي عند اليهود كان أقوى كثيرا من أثر تجمعهم على أرض تشملهم جميعا وداخل حدود مادية وفي تاريخ اسرائيل من الادلة ما يقطع بأن في استطاعة أي شعب أن يحتفظ بقوميته وبوطنه وأن ينقلهما معه حينما ذهب والى أي بلد يحل به ... وأن اليهودي ينقل وطنه معه دائما داخل نعل حذائه .. »

ثم يقول سلفادور : انه « كان لزاما على اليهود أن يحتفظوابشخصيتهم التي تستند الى الجنس والدين لكي يظلوا شعبا . »

« كان عليهم في الوقت الذي يتمتعون فيه بأي بلد في العالم بسائر حقوق ابناء هذا البلد أن يحتفظوا بمزايا تحقق لهم نوعا من الاستقلال الاجتماعي في اطار يشعرهم بذاتية ينفردون بها عن سائر المواطنين في البلد الذي يعيشون فيه ـ كان لزاما على اتباع شريعة موسى أن يحتفظوا في كل مكان من الارض بتقاليدهم وعاداتهم وشريعتهم ، وان حرصهم هذا قدجنب شريعة موسى الزوال والفناء ، واذا كانت تعاليم الدين اليهودي قداستطاعت أن تقاوم الزمن وأحداثه ، فقد كان لتعاليم التلمود اكبر فضل في ذلك لانها كانت الحاجز الواقي من ويلات الزمن . »



ويقول « تيودور هرتزل » أحد كبار الصهيونين ودعاة الدولة اليهودية في كتابه « الدولة اليهودية » مستعرضا قضية اليهود والعقيدة الصهيونية واهدافها :

« ان المشكلة اليهودية قائمة ، ومن السخف أن تنكر ذلك .. فهذه المشكلة تقوم وتوجد حيثما يعش اليهود مهما يقل عددهم ، وهي اذا خلا منها مكان استوردها وجلبها معهم اليهود المهاجرون اليه .. »

« اننا معشر اليهود نتجه ـ بطبيعة الحال ـ الى البلاد التي لانلقى فيها

اضطهادا ، غير أن مجرد وجودنا في بلد ما يثير ضدنا الأضطهاد حتما ـ ومن اجل هذه المشكلة ، لجأ العالم الى وســـيلتين : الاولى كانت الحركة المناهضة للسامية ، والاخرى كانت تحرير اليهود ومساواتهم بالاخرين في الحقوق ... ولكن الواقع أثبت فشل الوسيلتين ، فمناهضة الساميـــة عززت انفصالية اليهود والهبت شعورهم واحساسهم بانعزال جنســـهم ، وتحريرهم ومساواتهم بالآخرين ، مكنهم من استخدام امكانياتهم الطبيعية مما ترتب عليه مبالغتهم في وصف ما وصلوا اليه من مكانة اقتصادية ... ان التنافس الاجتماعى مضى فى مصلحة اليهود فى فروع هامة من فروع النشاط كالتجارة والمال والاعمال الحرة ، وقد كان من شأن هذا الوضع اثارة حركات جديدة لمناهضة الجنس السامى ، وهكذا سار اليهود فيحلقة مفرغة لا يمكنهم الخلاص منها ـ ولم يحل الزواج المختلط الذى تم بين المسيحيين واليهود هذه المشكلة ، وان كان يعتبر شرطا اســـاسيا لتحقيق الاندماج الشامل بين اليهود والمسيحيين واذابة الفوارق الدينية بينهمـــا ، وانتمائهم اخيرا ، الى جنسية واحدة . »

وقد قال هرتزل انه «حتى لو تم تعميم الزواجالمختلط فانه منالمتعذر أن نقضى على الشعور المعادى لليهود لان ذلك لنيحول دون تمكن اليهود من الحصول على النفوذ الاجتماعى الذى يناسب ما يتمتعون به من مكانة اقتصادية واذا كان النفوذ الحالى لليهود يثير هذا الغضب واليأس ، فماذا يكون مصير اليهود وماذا عسى أن يتعرضوا له فى هذا الصـــدد ، لو ازداد نفوذهم وسلطانهم .. »

ويمضى هرتزل فيقول :

« على ان الشعور المعادى للسامية حيثما وجـد مقضى عليـه بالعجز واليأس والقنوط ، فان العدو لن يتغلب علينـا باضـطهادنا ويستحيل عليه ـ وفقا للأوضاع القائمة ـ ان يتخذ ضدنا أى اجـراء يمكن ان ينال منا ـ واذا اراد البعض أن ينتزع من اليهود ما يتمتعون به من المساواة فى الحقوق فى البلاد التى يتمتعون فيها بذلك ، كان من شأن هذا الاجراء ان يندفع اليهود أغنياء وفقراء الى الاحـزاب الفوضوية واذا وجد اتجاه لمحاربة اليهود فى ثرواتهم أفضى هذا حتما الىاضطراب يزلزل الكيـان الاقتصـــادى للدولة التى اتبعته بحيث لا تقضى الازمات الاقتصادية فيها على اليهود وحدهم ولا يكونون هم أولى الضحايا فيها.

اما القول بانه على اليهود ان ينتظـروا لحل مشكلتهم حتى يتم

التطور بالتسامح والمحبة بين البشر ، فهو قول فارغ ، وأمل أثبتت الاحداث على انه سراب ، وغير صحيح .. بل هو مجرد ثرثرة عاطفية ...

***

ويستطرد هرتزل فيقول في مؤلفه : « تلك هي المشكلة اليهودية ، المشكلة التي حارت في حلها الأمم المتحضرة ، لانها من بقايا العصور الوسطى ، والتي برغم ما أبدى لحلها من النيات الطيبة لم تتمكن الدول من التخلص منها ، غير أن حلها بصفة نهائية ، ميسر اذا وضعناها في وضعها الصحيح ، ونظرنا اليها في نطاق السياسة الدولية ، فمشكلة اليهودية ليست بمشكلة اقتصادية ولا بمشكلة دينية بالرغم من أنها تتلون تباعا ـ بهذين اللونين ، وانما هي مشكلة قومية ولكي نحلها ، يتعين أن نجعل منها ـ قبل كل شيء ، مشكلة عالمية ، وأن نقدمها على هذه الصورة للدول العظمى لنفرضها عليها فرضا .

لقد جعل الاضطهاد منا مجتمعا تاريخيا يتميز بتجانسه ، سواء أردنا أو لم نرد ، فقد أصبحنا شعبا ، بل شعبا موحدا واذن فليعط هذا الشعب السيادة على أرض معينة تتفق مع حاجاته المشروعة ، وبهذا وحده يتم حل المشكلة اليهودية ... ولقد بذلت محاولات من هذا القبيل وفشلت ، وما ذلك الا لانها كانت محاولات ضئيلة ، وكانت نقطة البدء فيها غيرثابتة، ولان الرجال الذين يتولون قيادة هذه الحركة لم يخاطبوا العواطف العميقة في المجتمعات اليهودية وتجاهلوا حاجاتها الاساسية ... ليس في العالم من يستطيع أن ينقل شعبا بأسره من مكان لآخر .. ولكن العقيدة ـ وحدها ـ تستطيع ذلك ، ان الايمان بقيام دولة يهودية هو القوة التي تستطيع هذا ، وفيهذا الليل المظلم الطويل الذي أطبق على تاريخاليهود.

لم يكف اليهود يوما عن التغني بحلمهم القومي المنتظر وبيومهم الموعود في اورشليم ... هذه هي عبارتنا الموروثةوعلينا أن نثبت ان هذا الامل يمكن تحويله الى واقع وحقيقة .

انه لمن الممكن أن تقوم دول جديدة ، ولا نستطيع تجاهل هذه الحقيقة .. ان المستعمرات تنفصل عن الدولة التي تسيطر عليها وترعاها

وأن الرعايا يتخلصون من صاحب السلطان عليهم •• ان أراضى جديدة تكتشف أو تفتح وتصبح دولا حرة ذات سيادة •• ان الشعب اليهودى لم يملك بعد أرضا ، ولكن ليست المساحات الواسعة هى التى تنشىء الدول، وانما الذى يقيم الدول هم الرجال الذين يتضامنون ويتحدون فى ظـــل سيادة يعترفون بها ••

ان الشعب هو الاساس الانسانى للدولة وليست الاراضى هىالاساس المادى لها ، وان الاساس الانسانى هو الأهم ، واذا أردنا أن نبحث عن سند قانونى لقيام الدولة اليهودية الجديدة ، وجدنا فى نصوص التشريع الرومانى ما يبرر لنا التمسك بهذا الحق •• فمبـــدأ تطبيق قاعدة ادارة « ملك الغائب » يعطى كل فرد الحق فى التدخل والحق فى أن يتولى بحكم ،ندوافع الانسانية والصداقة ـ شئون من يهددهم الخطر ، يفعل ذلك من تلقاء نفسه ودون وكالة وبموجب الضرورة القصوى الملحة ، وان اليهود المشتتين فى سائر انحاء الارض والعاجزين عن تولى شئونهم الســـياسية بأنفسهم ليعتبرون فى حكم هذا المالك الغائب أو الذى يتعذر عليه مباشرة شئونه ولابد له من راع يتولى عنه ذلك ، وان هذا الراعى لايمكن ان يكون فردا ، وانما هو شخصية معنوية ولنسمها بالمجتمع اليهودى ، لان الامر غالبا ما ينتهى بزعامة اليهود البريطانيين لهذه المصالح اليهودية ولان هذه الجماعة تحتاج فى أول أمرها الى حماية دولة مـــن الدول العظمى تقف بحزم فى جانب الساميين ••• وهذه الهيئة التى تتمتع بالشخصية المعنوية ستستمد سلطانها من القيمة والقدرة المعنوية ومن انضمام سائر يهـود العالم لها ، وسوف ينتهى الامر بسائر الحكومات الى الاعتراف بها كسلطة سياسية ذات سلطان ، وبمعاونة هذه الدول ستشرع هذه الهيئة فى تأمين وجودها وسلطانها على قدر محدود من الاراضى وفقا لاحكام القـــانون الدولى العام •••

الفصل الثالث والعشرون

الصهيونية وفلسطين

« الصهيونية تتجه الى فلسطين لتقوم بحراسة الشرق خدمة للغرب ـ وتعرض »
« على الباب العالى سداد جميع ديونه مقابل منحها فلسطين مع اتجاهها للغرب ليكفل »
« لها البقاء ـ قرارات مؤتمر بازل عام ١٨٨٧ ـ الصهيونية تطالب بمستعمرات لها »
« فى فلسطين ـ هنرى مازيل يحذر العرب فى عام ١٩٠٤ ويقول انه يلمح شعبا سوف »
« يتمكن من الوصول الى ارض الميعاد ويعمل عندئذ على تقتيل وابادة وتسخير اهلها ـ »
« الصهيونية والدول المتحاربة وولاء اليهود للدول التى ينتمون اليها سياسيا ـ دور »
« اليهودى الأمريكى ـ مقدمات وعد بلفور ـ الوسطاء ـ اهمية اقامة دولة يهودية »
« متاخمة لحدود مصر وموالية لبريطانيا ـ «وايزمن» يعرض تكوين جيش يهودى »
« يستولى على فلسطين منفردا وقبوله للحماية البريطانية ـ مارك سايكس يفاوض فى »
« الوقت نفسه فرنسا والعرب واليهود . تحويل مصير الشرق وفلسطين وتعقد »
« بريطانيا اتفاقيات يعارض بعضها بعضا ـ لويد جورج يعترف بدور اليهود فى الحاق »
« الهزائم بالجيش الروسى وتحطيم الجبهة الداخلية فى روسيا وزعزعة حماس الروس »
« ضد الحرب ـ الغرب يسخر الصهيونية لتحويل يهود ألمانيا الى موقف مساند »
« للحلفاء ضد ألمانيا ـ ألمانيا تحاول حمل تركيا على اصدار تصريح يمنح اليهود حقوقا »
« فى فلسطين ـ بريطانيا ماضية فى تأييد الصهيونية مقابل تعهدها باستدراج الولايات »
« المتحدة الى الحرب فى جانب الحلفاء ـ دور القاضى «برانديس» وسير « مارك »
« سايكس » ـ اليهود يعلنون لأول مرة عزمهم على اقامة دولة لهم تمتد من البحر »
« الابيض الى الفرات ـ الحلفاء مازالوا فى حاجة الى تأييد العرب ـ لورانس يخدع »
« العرب ويغرر بهم ـ تعليق «ليدل هارت» ـ موقف الشريف حسين ـ الصهيونية »
« تحتفل بتصريح بلفور ـ خطاب «مارك سايكس» ـ خطاب «وايزمان» ـ الصهيونية »
« تغرر بقادة العرب ـ «فيصل» و «وايزمان» ـ تجاهل زعماء العرب لنيات الغرب »
« والصهيونية لتبرير تأييدهم للغرب » .

يستطرد « هرتزل » فيقول : ـ « ولكن الآلاف من الصلات التاريخية تربطنا بفلسطين ولو أمكن لصاحب العظمة سلطان تركيا أن ينزل عنها لنا ، أمكننا أن نقوم بتسوية شئون تركيا المالية .. واننا عندئذ سنقيم فى فلسطين دولة محايدة ، ذات سلطة دائمة وثيقة بأوروبا التى تكفل وتضمن لنا البقاء ، أما فيما يتعلق بالاراضى المقدسة المسيحية،فاننا لن نعجز عن ايجاد صيغة من صيغ القانون الدولى لتكييف السلطان على هذه الاراضى ويكون من شأنها حماية كافة المصالح ... اننا سنقيم من أنفسنا

حرس الشرف على الأراضي المقدسة ونكفل بقاءنا وقيامنا بواجبنا أو أن قيامنا بحراسة الشرف هذه ستكون الرمز الحي لحل المشكلة اليهودية بعد ثمانية عشر قرنا من العذاب الاليم ومتى تم لنا الحصـــول على الاراضي المطلوبة ، فان الجمعية اليهودية سوف تقوم بتنظيم هجرة اليهود ، ومـــن جهة اخرى ستنظم تملكهم للاراضي ، ولذلك سوف تفوض لمؤسسة جديدة بعض حقوقها (سماها بالشركة اليهودية) وهي شخصية اعتبارية خاضعة لحماية التشريعات البريطانية وتكون مهمتها تصفية شئون المهـــاجرين ومصالحهم المادية ، ونضع في هذا البلد الجديد اسس العلاقات الاقتصادية والعلمية والمعنوية بين اليهود ... »

ثم يمضي هرتزل فيقول .... « ان فلسطين هي وطننا التـاريخي الذي لا يمكن أن ننساه ، ان مجرد ذكر هذا الاسم ، يكفي ـ في ذاته ليكون نداء له قوته المؤثرة في نفس الشعب اليهودي » .

« اننا لو قبل السلطان اعطاءنا فلسطين فسنستطيع أن نسوى كل ما على تركيا من ديون ، وبالنسبة لاوروبا ستكون جزءا من الحاجز الذي نقيمه ضد آسيا ـ اننا سنكون النقط المتقدمة للحضارة الاوروبية ضـــد البربرية الآسيوية وسنظل بوصفنا دولة محايدة ـ مرتبطين بصفة مستمرة بأوروبا التي سوف تضمن وتكفل لنا البقاء . »

ولقد استجاب لدعوة هرتزل اليهود من سائر انحاء العالم ، وانعقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة « بازل » بسويسرا في ٤ من أغسطس سنة ١٨٨٧ ، حيث تم التصديق على قراره التالي .

« ان هدف الصهيونية انشاء دولة في فلسطين للشعب اليهـــودي يضمنها القانون العام ، ووسيلتها لتحقيق ذلك ، هي .

اولا ـ تشجيع استقرار الزراع والعمال المهرة ورجال الصناعات اليهود في فلسطين بصفة فعالة .

ثانيا ـ عن طريق تنظيم واشراك اليهود كافة في معاونة الجمعيات

المحلية والاتحادات العامة فى الحدود التى تسمح بها قوانين البلاد التى تنشأ فيها تلك الجمعيات والاتحادات •

ثالثا ـ تثبيت الشعور بالكرامة الشخصية والوعى الوطنى بين الامة اليهودية •

رابعا ـ تشجيع الاجراءات التمهيدية للحصول على موافقـــة الحكومات وهى الموافقة الضرورية للوصول الى تحقيق اهداف الصهيونية•



لقد وجدت الدعوة الصهيونية بين اليهود انصارا وخصوما ، ولكن انصار الدعوة تفوقوا •••• وهكذا بدأ يتضح الطابع السياسى الذى يرمى، قبل كل شىء الى فرض وجود الامة اليهودية ولم تكن هذه الحرية تطالب بانشاء دولة يهودية ، فورا فى فلسطين ، بل انها بدأت بالمطالبـــة باقامة مستعمرات يهودية فيها •• ولم تجرؤ الحركة فى أول أمرها عـلى اثارة مشكلة مستقبل فلسطين بشكل واضح ، بل انها استهدفت القضاء تدريجيا على العناصر غير اليهودية فى فلسطين • ولقد تكهن الكثير من الكتاب منذ بداية القرن العشرين بتطور الدعوة الصهيونية ومطامعها مستقبلا •••• وفى هذا الصدد كتب الكاتب هنرى مازيل فى سنة ١٩٥٤ يقول : ـ

« اننا نرى وراء هذه الدعوة ظل موسى ، ذلك القائد الذى جمع بين جانب من الخشونة والوحشية جانبا من القدرة على المحاجة ••• اننا نلمح شعبا سوف يتمكن من الوصول الى أرض الميعاد ، وسيعمل عندئذ على تقتيل وابادة وتسخير أهلها • »

وهكذا ومنذ اكثر من نصف قرن لم تخف اهداف الصهيونيـــة واطماعها عن اهل البصيرة من المفكرين والكتاب •••• وكلمـــا تقدم الزمن وضعت الصهيونية اليهود فى انحاء العالم امام تلك المشكلة الدقيقة المرتبطة بولائهم للدولة التى ينتمون اليها ســـياسيا ، كما كان لزاما على الصهيونية أن تأخذ فى اعتبارها رد الفعل الذى يحدثه فى الرأى العـام

العالمى مطالبتها بانشاء دولة لها ، على حين كان العالم كله يعارض وقتئذ ، مبدأ قيام دولة يهودية يدين لها بالولاء سائر اليهود فى انحاء العالم ، لان ذلك كان من شأنه العودة باليهود فى جميع الدول الى وضعهم الاجنبى بالنسبة لسائر المواطنين فى الدول التى يقيمون بها .. ولم تكن هنـــاك دولة ترتضى لنفسها ان يكون من بين رعاياها من يدين بالولاء لسـلطة أجنبية عنها ، أو لدولة أخرى .

***

ولقد ادرك قادة الحركة الصهيونية ـ اذ ذاك ـ الخطر الذى تتعرض له حركتهم فبادروا وأعلنوا أن الحركة الصهيونية لاتشمل الا أولئـك اليهود الذين لايتمتعون بجنسية البلد الذى يقيمون فيه والذين لايعترف بهم كمواطنين ضمن ابنائها ....

ولكن الحرب العـــالمية الأولى ، حينما دارت رحـــاها ، مكنت للصهيونية ، لا من مجرد التوسع ، بل من استغلال الاحداث التى اعانتها على فرض نفسها فرضا على الدول المتحاربة ، فقد بادر زعماء الصهيونية بالاتصال بقادة الدول المتحاربة وقسموا انفسهم فى هذا السبيل : فمن كان من اليهود دعاة الصهيونية يقيم ، ابان الحرب ، فى البلاد الخاضعة لألمانيا وحلفائها اخذ فى الاتصال بالمانيا والسعى للحصول على اعترافها بالحركة الصهيونية اعترافا رسميا والتسليم لها بما تزعمه من حقوق ، ومن كان من هؤلاء الزعماء الصهيونيين يقيم ـ اذ ذاك ـ فى البلاد الغـربية اتجه الى السعى لدى سلطات الحلفاء الغربيين للحصول على مثـــل هذا الاعتراف وعلى تأييد الصهيونية ، وفى مقابل هذا الاعتراف والتأييد وما يستتبعهما من التزامات ، وعدت الصهيونية العالمية الحلفاء بتأييدها لهؤلاء ، وقد كان العنصر الاساسى فى جميع هذه المفاوضات يدور حول اليهودى الامريكى .

***

قد يتبادر للذهن ان وعد بلفور قد جاء نتيجة لانفعال مفـــاجىء ، ولكن الحقيقة أن وعد بلفور صدر بعد مساومات ومفاوضات طويلة انتهت

بدخول الولايات المتحدة الحرب فى جانب الحلفاء •••• فمنــذ قامت الحرب العالمية الاولى استوطن اثنان من زعماء الصهيونية ، هم تشيلنوف (Tschlenw) من موســـكو ، وناحـــوم ســـوكولوف (Nahum Sokolov) من فارسوفيا ، فى لندن حيث انضم اليهما فيمــا بعد الدكتور حاييم وايزمان (Haim Weizman) وهو يهودى بولندى الاصل وتجنس بالجنسية البريطانية ــ وقد كان فى دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء فرصة أتيحت للصهيونية العالميـــة طالما كانت تسعى لتحقيقها ، وبفضل تأييد المستر « سكوت » صاحب جريدة « المانشستر جارديان » ، وصديق اللورد « بلفور » الحميم تمكن زعماء الصهيونية من اعداد برنامج يتفق مع اطماعهم ، وكانت الصورة التى انتهوا اليهـــا اقامة مركز وطنى لليهود فى فلسطين تحت الحماية البريطانية •

وقد انضـــم الى هذه الجمـــاعة السير « هربرت صمويل » الذى يقول فى مذكراته : « انه منذ اللحظة التى دخلت فيها تركيا الحرب أصبح من المتعين تحديد مصير جديد لفلسطين وكان موضع التساؤل يدور حول الدولة التى يمكن أن تخلف تركيا فى السيطرة على هذا البلد الذى يحد ويتاخم قناة السويس ، ولا شك فى أن بريطانيا نظرا لمركزها ولمصالحهـا الاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، كانت معنية بهذا المصير •

ويمضى هربرت صمويل فى مذكراته فيقول : انه بالاضافة الى هذه الاعتبارات كان عليه بوصفه أول وزير يهودى أن يتعرف موقف الحركة الصهيونية من فلسطين ــ ولا سيما بعد أن اقتنع بواجب العطف على هذه الحركة •

ثم يستطرد « صمويل » فيقول : انه رأى أنه اذا انتهى الامر بفصل فلسطين عن تركيا فمن الخطورة والحالة هذه أن تقع فلسطين تحت سلطان أى من الدول الاوروبية الكبرى ، ومن ثم فقد بادر بمقابلة سير « ادوارد جراى » وزير الخارجية البريطانية فى ٩ من نوفمبر سنة ١٩١٤ وتحدث اليه عن مستقبل فلسطين ، وقال فى حديثه مع «جراى» ان ما بين الدول العظمى من منافسات قد تحـــول دون انفراد دولة معينة بفلسطين ، وانه قد تكون هذه فرصـــة مناسبة لتحقيق أمل الشعب اليهودى المنشود لتكوين دولة لهم فى فلسطين ، وان تاييـــد روسيا لقيام مثل هذه الدولة يكسب روسيا ولاء الرعايا اليهــود فى

المانيا والنمسا وبولندا وغاليسيا ، وهــذا بالاضافة الى ولاء يهــود روسيا ذاتها ..

وقال : ان انشاء دولة يهودية فى فلسطين سيجعل منهــا مركزا لحضارة جديدة يمتد اثرها الى ملايين اليهود المشتتين فى انحاء العالم ، كما انه يتعين على النفوذ البريطانى ان يسهم بنصيب وافر فى تكوين هذه الدولة لأن مركز فلسطين الجغرافى ومتاخمتها لمصر يجعل من نياتها تجاه بريطانيا امرا حيويا بالنسبة لهذه الدولة .

كما اشار هربرت صمويل على وزير الخارجية أن يتبنى يهود أمريكا ويهود بريطانيا هذا المشروع لكى يتم انشـــاء هذه الدولة تحت رعاية أكثر الدول تقــدما واشتمالا على رعايا يهــود . وأبدى هربرت صمويل ثقته بنجاح اليهود فى انشاء هذه الدولة ما توقع من المصاعب التى ستعترضها .

***

ويقول هربرت صمويل ان وزير الخارجية البريطانية اظهر تاييده لهذا المشروع وان الوزير قال اذا ما تقدمت فرنسا او اية دولة اخرى من الدول العظمى بمشروع يتصل بمستقبل سورية فانه يكون من الاهمية بمكان الا ترتبط بريطانيــا بتخطيط يتعارض مع انشاء دولة يهودية بفلسطين .

ويقول هربرت صمويل أن وزير الخارجية البريطانية سألنى هــل أعتقد انه يتعين ربط ســـورية بفلسطين ؟ فاجبته أنه من غــير المرغوب فيه ضم بلاد كبيروت أو دمشق لانها تضم أغلبية كبيرة من غير اليهود ممن لا يمكن اخضاعهم للدولة المقترح انشاؤها .

ويمضى هربرت صمويل فيقول : انه اشار الى أن المصلحة تقتضى ضم الجزء المتبقى من سورية الى فرنسا لان من صالح الدولة الجــديدة التى سيتم انشاؤها أن تجاور دولة أوروبية بدلا من تركيا .

ويقول : انه تقدم بعد اجتماعه بوزير خارجيةبريطانيا ببضعة اسابيع بمذكرة الى مجلس الوزراء البريطانى يقترح فيها ضم فلســـــطين الى الامبراطورية البريطانية مع تشجيع هجرة اليهود اليهـــا ... وانه ازاء تهكم رئيس الوزراء اســـــكويت Asquith الذى لم يكن مستريحا الى المشروع فانه تقدم فى مارس سنة ١٩١٥ بتعديل فى مقترحاته تتضمن اكثر من رأى من بينها اقامة دولة يهودية مســـــتقلة او فرض الحماية البريطانية على فلسطين مع العمل على تشجيع استيطان اليهود لها.

ثم يكشف هربرت صمويل الغطاء عن مساعيه المتصلة خلال تلك الفترة لحمل الحكومة البريطانية على تأييد الحركة الصهيونية ويتحدث عن نجاحه فى اشراكه لويد جورج فى تلك المحادثات ، ويشـــير الى ما لهذا من أهمية خاصة ، لان لويد جورج ، قد خلف ، بعد ذلك ، اسكويث فى رياسة الوزارة البريطانية .

ثم يستطرد صمويل فى وصف نشاطه فى تأييد الحركة الصهيونية وانشاء دولة يهودية فى فلسطين تحميها بريطـــانيا وتكون هذه الدولة الجديدة مدينة بالولاء لها كما تكون مركزا لحماية المصالح البريطانية فى الشرق الاوسط ....

وهكذا وضع قادة الحركة الصهيونية عند مطالبتهم بانشـــاء دولة يهودية فى فلسطين وبالرغم من عدم اعتراف الحكومة البريطانية بمطلبهم رسميا ـ وضعوا العقبات فى طريق الاعتراف باستقلال دولة عربيـــة تشمل سورية وفلسطين معا ، أو قيام دولة عربية تشمل فلسطين وحدها حيث كان العرب يمثلون اكثر من ٩٠٪ من مجموع سكانها .... ومنذ سنة ١٩١٤ حققت الصهيونية العالمية الكثير من اطماعها وقد رأت الاكتفاء بما وصلت اليه عندئذ ، ادراكا منها ... بأن بريطانيا ، والحـــرب ـ اذ ذاك ـ فى بدايتها ـ لايمكن أن تتمشى مع اطماعهم كلها والفصل آنئذ فى مصير فلسطين فى الوقت الذى كان مصير الحرب ذاتها مازال مجهولا .



ولكن صبر الحركة الصهيونية كان قد نفد فى عام ١٩١٥ فتقدمت للحكومة البريطانية بمذكرة رفعها الدكتور « حاييم وايزمان » ، وعرض على الحلفاء تكوين جيش يهودى يتولى الاستيلاء على فلســطين منفردا واقامة حكومة يهودية فيها .... وفى مقابل اعتراف الحلفاء وتمكـين اليهود من تنفيذ خطتهم هذه ، عرض « وايزمان » باسم الحركة الصهيونية ، فرض الحماية البريطانية على الدولة اليهودية الجـديدة لمدة تمتد الى خمسة عشر عاما ..

غير انّ الحكومة لم تجرؤ ـ اذ ذاك ـ على تنفيذ هذا الطلب الصهيوني وقد حفل عـــام ١٩١٦ بالمفاوضات التى أجريت بين الدول الغربيـــة ولا ســـيما بين فرنسا وبريطانيـــا ، وقامت الدولتان بالفصـــل فى مصير البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية فى اتفاقات يعارض بعضهـا بعضا ، فان الخبيرين اللذين اشتركا فى اعداد هذه الاتفاقيات ، وهمـــا سير مارك سايكس ، ـ وجورج بيكو ، انتهيا الى اعداد مشروع يحـدد مصير فلسطين ، وبعث به سير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية الى الحكومة الروسية ، وهذا نصه : ـ

« لقد وجه نظر حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا ، الى ما يقوم به اليهود من انشاء مستعمرات فى فلسطين وان كان من المســلم به أن كثيرين من اليهود لا يبدون اهتماما بفكرة الصهيونية ، الا أن جانبا كبيرا من اليهود ذوى الحيثيات فى سائر أنحــاء العالم يقترحون عقد اتفاق يتناول فلسطين ويحقق تماما أماني اليهود فيها ، فاذا كانت وجهة النظر التى نقدمها مطابقة وحقيقية فمن الواضح أنه اذا قمنا باستغلال الفـكرة الصهيونية استطعنا تحقيق نتائج سياســية هامة ومن بين هذه النتائج احتمال تحويل موقف العناصر اليهودية المقيمة فى ألمانيــا وفى الولايات المتحدة وفى شتى البلاد التى تقف منا حاليا موقف العداء الى موقف مؤيد ومساند للحلفاء ٠٠ ان هدف بريطانيا هو تأمين حصولها على تأييد اليهود وان من رأى الحكومة البريطانية أنّ المشروع يجب أن يبشر لليهـــود الاستيطان فى مستعمرات يهودية بفلسطين تستطيع فى الوقت المناسب أن تنافس من حيث التعداد العرب المقيمين بها وعندئذ يتمكن اليهود من الاضطلاع وحدهم بادارة البـــلاد ٠٠ أما فيما يتعلق بالأماكن المقدسة وأورشليم فسنفرض عليها حماية دولية » ٠

***

ويقول المستر لويد جـــورج (Lloyd George) رئيس وزراء بريطانيا فى اثناء الحرب العالمية الاولى معلقـــا على المبررات التى دعت بريطانيا الى تأييد المفاوضات التى جرت بينها وبين الصهيونيين ، أنه كان هنـــاك خطر كبير من وراء نجـــاح ألمانيا وحلفائها فى كسب تأييد اليهود ، لانه بفضل اليهود فى بولندا أمـكن لالمانيـا أن تلحق الهزائم الساحقة بالجيوش الروسية ، وبفضل تأييد اليهود فى بولندا وفى روسـيا أمكن لالمانيا أن تحطم الجبهة الداخلية الروسية وتبعث فيها حالة الفوضى التى أدت الى ثورة ١٩١٧ ، بل أكثر من هذا فان اليهود فى روســيا

كانوا أداة ألمانيا لنشر الدعوة ضـد الحرب لزعزعة الحمـاس الوطنى بين الروس ، وهذه كانت عوامل ذات أثر بالغ فيما حققته ألمانيا من انتصارات حربية وقتـذ ، وقـد خشيت بريطانيا ان تتحـول جهود اليهود للعمل ضدها وضد فرنسا في حربهما ضد ألمانيا وتعمل جهودهم ضدها لا فى شرق أوروبا فحسب بل وفى الولايات المتحدة الامريكية حيث كان لهم النفوذ الاكبر فيها ..

ومما دفع الحكومة البريطانية الى تأييد الحركة الصهيونية أن هيئة اركان حرب الجيش الالمانى الحت على الساســة الالمان فى عام ١٩١٦ لاستصدار تصريح من الحكومة التركية تكفله المانيا ، ويضمن لليهــود اعادة توطينهم فى فلسطين تحت التسمية التى يتفق عليها ، وهكذا كان الامر سباقا على نشدان ود اليهود بين ألمانيا من جانب ، والحلفاء الغربيين من الجانب الآخر ، سباق « بين الطرفين على كسب تأييد الحركةالصهيونية العالمية . »

وكان من الطبيعى أن تمضى بريطانيا فى خطتها الرامية الى الاتفاق مع الحركة الصهيونية العالمية وعهدت الحكومة البريطانية الى سير مارك سايكس (Mark Sykes) الذى تولى المفاوضات الخاصة بمستقبل الشرق العربى بالسعى لكسب اليهودية العالمية الى جانب الحلفاء، فرأى أن فى استطاعتها اذا ما حركت ما لبعض يهود الولايات المتحدة من نفوذ دفع هذه الدولة لا الى مساندة الحلفاء فى كفاحهم ضد المانيا فحسب ، بل ان فى استطاعة يهود الولايات المتحدة اقناع الرئيس ولسن (Wilson بالمشاركة الفعلية فى خوض الحرب الى جانب الحلفاء الغربيين ، وأن ذلك لايمكن أن يقع مالم يتحقق شرط اساسى ، هو تأمين فلسطين لليهود . ومن بين اليهود الذين سعى مارك سـايكس للتأثير عليهم ، القــاضى لويس برانديس (Louis Brandeis) عضو المحكمة العليـا الامريكية ، وقد كان واسع النفوذ لدى الرئيس ولسون وقد عرض الامر على مجلس الوزراء البريطانى الذى رأى انه لاضرر فى عقد اتفاقيـات حتى ولو كانت متضمنة ما يعارض اتفاقيات قائمة ، وصرح للسير مارك

سـايكس ، بمفاوضـة الصهيونيين الامريكيين فى مستقبل فلسطين وفى تأييد أمريكا لفرنسا ولبريطانيا فى حربهما ضد ألمانيا ••

لقد كان سير مارك سايكس وكيلا للوزارة كما كان سـكرتيرا لمجلس الوزراء الحربى البريطانى فى الوقت نفسـه وكان على علم تام بجميع ما عقدته بريطانيا من اتفاقيات سرية أو علنية ، ومنها ما كان قدتم عقده باسم حكومة بريطانيا بين سير هنرى ماكماهون والشريف حسين بالنسبة لمستقبل البلاد العربية ، ولقد شرع سير مارك سـايكس تحت اشراف سير موريس هانكى وزير الحربية البريطانى فى مفاتحة المسيو سوكولوف والدكتور وايزمان فى مستقبل فلسطين ولما وصلوا الى اتفاق مبدئى رؤى ارسال كتـاب سرى للقاضى برانديس (Brandeis) وقد أخطر فى هذا الكتاب بأن الحكومة البريطانية على استعداد لمعاونة اليهود للحصول على فلسطين مقابل معاونة وتأييد اليهودية العالمية وتأييد الولايات المتحدة لقضية الحلفاء •••• وبعبارة أدق طلب من القاضى برانديس أن يحمل الولايات المتحدة على اتخاذ موقف ايجابى لمصلحة الحلفاء الغربيين•

ولقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية تلك الرسالة بالشـفرة رسميا ، الى السفارة البريطانية فى واشنطون ، ومنذ هذه اللحظة شرعت الصهيونية العالمية تعمل بتأييد رسمى باعتبار أنها حليفة تعترف بها الحكومة البريطانية وسائر الحلفاء الغربيين •

ولقد شرعت الحكومة البريطانية بواسطة ممثلها سير مارك سايكس، فى مفاوضة زعماء الحركة الصهيونية وهم وقتئذ ، اللورد روتشـيلد (Lord Rotchild) وسير هربرت صمويل (Herbert Samuel) وبنتويتش (Bentwich) الذى اصبح فى عهد الانتداب على فلسطين نائبا عاما فيها ، والدكتور وايزمان ، والمسيو سوكولوف ، فتوالت اجتماعاتهم مع سير مارك سايكس الى ان انتهت تلك الاجتماعات بتحديد معالم السياسة الصهيونية والسياسة البريطانية تجاه فلسطين ،كما تم الاتفاق بينهم على تجنب تدويل مشكلة فلسطين ، وعلى الاعتراف بوجود الشعب اليهودى الذى يتم تطويره فى ظل الحماية البريطانية •

وفي هذه الاجتماعات ، سجلت لأول مرة وجهة نظر اليهود ، وجهة نظر الصهيونية العالمية لانشاء دولة فلسطين الكبرى التي تمتد حدودها من البحر الأبيض المتوسط الى الفرات بوصفها الهدف الأخير للحركة الصهيونية •

كما تم الاتفاق بين زعماء الصهيونية وبين الحكومة البريطانية على تشكيل لجنة المفوضات بين الجانبين ، وقد مثل الحكومة البريطانية في هذه اللجنة سير « مارك سايكس » ، وانضم اليه فيما بعد زميله المسيو « جورج بيكو » ممثلا للحكومة الفرنسية ، وتولت اللجنة المفوضات التي انتهت في ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ باعلان « وعد بلفور »

وأنه لمما يوضح دهاء وخبث السياسة البريطانية ، أن سير « مارك سايكس » والمسيو « جورج بيكو » كانا بطلي الاتفاقيات التي عقدت من قبل لتقرير مصير الشرق ، وهما اللذان قاما باقناع العرب في شخص الملك حسين بحسن نوايا الحكومتين البريطانية والفرنسية تجاه العرب !

غير القادة الاحرار من العرب قد كشفوا غدر الحلفاء الغربيين لهم وخيانتهم لقضيتهم واذ تكشفت للعرب هذه الحقيقة كان لابد للكولونيل لورانس الذي كان – دائما – اداة الحلفاء للتغرير بالعرب ، من الظهور على المسرح ، ليلعب أبرع دور قام به اذ ذاك في المحيط العربي لمصلحة الحلفاء ••

كان هجوم الحلفاء قد فشل في فلسطين وتحرج الموقف ولم يتمكن سايكس وبيكو من تهدئة خاطر الشريف حسين وتطمين ابنائه عن المستقبل الذي وعدوهم به ولما اشتد تحرج الموقف تدخل الكولونيل لورانس ليحسم الموقف لمصلحة بريطانيا العظمى •• ويقول الكابتن ليدل هارت Liddle Hart في مؤلفه عن حياة الكولونيل لورانس :

« ان لورانس أكد لزعماء العرب باسم بريطانيا العظمى احترامها لجميع ما تعهدت به لهم نصا وروحا وتكفلها بتنفيذ هذه التعهدات ، ويمضي الكابتن ليدل هارت فيقول : ان لورانس أعطى هذه التأكيدات والتعهدات في الوقت الذي يعلم فيه تماما أنه في حالة انتصار بريطانيا العظمى في الحرب ستصبح جميع هذه الوعود والتعهدات كأنها حروف ميتة ، ولكنه اضطر لبذل وعوده وتأكيداته لأن العون العربي كان وقتئذ العامل الأساسي لتحقيق انتصارنا في حربنا ضد الأعداء في الشرق ،

ولقد وثق العرب فيما بذل لهم من وعود وعهود وقاموا بتلك الأعمـــال الجليلة التي خدموا بها قضية الحلفاء •

ثم يعلق الكابتن ليدل هارت على موقف لورانس فيقول : « ولكن بدلا من أن يفخر لورانس بالنجاح الذى حققه العرب كان يشــــعر دائما بمرارة الخجل من نفسه لغدره بقضيتهم » •

وهكذا يعترف « لورانس » وكما يسجل « ليدل هارت » كان الحلفاء يغررون بالعرب ويخادعونهم طالما كانوا فى حاجة الى عونهم ••

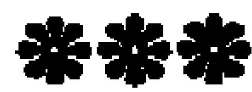
لقد عرف ما تضمنته اتفاقيات سايكس ـ بيكو من شروط • ولم تكن المفاوضات الجارية بين الهيئات الصهيونية وفرنسا وبريطانيا موضع شك فى أنها كانت تتجه الى المزيد من التطور والتوسع وكان بوسع العرب أن يستغلوا الظرف المناسب ليعملوا لمصلحتهم ولكن لسوء حظهم قد اسلموا مصيرهم ليد الشريف حسين الذى أصبح ملكا على الحجاز والذى تولى مفاوضة الحلفاء هو وأولاده باسم العـــرب • ولمـا وقعت الواقعة وكشفت الحقائق ، فماذا كان موقف الملك حسين ؟ ••

يقول الكابتن ليدل هارت : ان الملك (حسين) عندما تبين حقيقة الموقف صرح بما يأتى : « لقد استمعت الى البريطانيين وإنا غير مؤمن وغير واثق بما سمعت • لقد تركتهم يعملون على اغرائى ويستغلوني ، لقـــد ساهمت فى الابقاء على الامبراطورية الاسلامية الخاضعة لبريطانيا •••• بفضلنا ظلت الطريق الى الهند مفتوحة طوال مدة الحرب ، ولقد ظلت مصر تابعـــة لتوجيهاتنا وامتنعت عن التحرك لتحقيق آمالها ، وبفضلنا تخلت دمشق عن مساندة القضية التركية •• ويا للأسف ، كنت أعتقد أننى أعمل فى سبيل المجد والوحـــدة ••• ان الامور قد تطورت على عكس ما كنت أرجو وآمل ، فلنستسلم ولكن لا نفقد ثقتنا بالله ••• فلنوحد جهودنا ، ونبذلها لمصلحة السلم ومصلحة أمن الحجاز ••• »

هذا ما قاله الملك حسين ••• أما عن الكولونيل لورانس فقد كان بوسعه بدلا من أن يخادع العرب ـ الذى كان يزعم الوفاء والاخــــلاص لقضيتهم ـ كان بوسعه أن يكاشف العرب بما تم عقده من اتفاقيات تقضى على مستقبلهم •

ولم يكن قد أذاع سرا لو أنه فعل ذلك ، لان تلك الاتفاقيات نشرت وعـــرفت فى سائر العالم ، ولم يكتم أمرها الا عن العـــرب ، كان بوسع لورانس ، أن يجاهر باستنكاره لما عقد من اتفاقيات تخل بشرف بريطانيا العظمى وبتعهداتها ، وهى الدولة التى كان يعمل لخدمتها ، ولبقاء عظمتها .

ولكن لورانس مضى فى خداعه للعرب ، وبلغت الجرأة به أن يبذل لهم من العهود ما كان يعلم يقينا باستحالة تنفيذها بل كان يعلم أنه لا يملك التحدث فى هذا الصدد باسم بريطانيا .. لقد حطم الكولونيل لورانس آمال العرب وأيد خيانة بريطانيا العظمى لقضيتهم ، بل انه ذاته خان قضية العرب الذين كان يعتد بصداقتهم ويفخر بمعاونتهم ... وكان كل أثر لهذه الخيانة ولهذا الغدر مجرد شعور بالخجل .. !



وبينما كانت هذه الأمور تجرى فى الشرق العربى كان اليهود فى لندن يحتفلون بتصريح بلفور ، كانت الاجتماعات يتوالى عقدها ، وكان ســـير «مارك سايكس» يقف ليعلق على التصريح ويحـاول أن يتجاهل الاهداف الحقيقية بعيدها وقريبها مما تستهدف الصهيونية تحقيقها فى فلسطين ، فيقول السير « مارك سايكس » : انه كان يؤمن بالحركة الصهيونية ، لأنها كانت فى تقديره ــ حركة مثالية .. ويشير مارك سايكس بتعاون الجنسين العربى واليهودى معا ، ويزعم أن هذا التعاون فى مصلحة البشر جميعا .

والغريب ان الرجل الذى يدعو الى هذا التعاون ، هو ذاته الذى تولى المفاوضات بين الحكومة البريطانية والهيئات الصهيونية ، وهو الذى يعلم تماما حقيقة أهداف الصهيونية ، وهو الذى سمع بأذنيه الخطة الصهيونية التى تهدف الى توطين اليهود بفلسطين عن طريق الهجرة الجماعية حتى يصبح العرب أقلية قليلة فى بلادهم وليتمكن اليهـــود حينما تتحقق لهـم الأغلبية العددية من انشاء الدولة اليهودية فى فلسطين بأكملها .. بل أكثر من هذا فان سير « مارك سايكس » الذى أبدى هذه المشورة كان هو ذاته طرفا فيما طلبه من الحلفاء لمد حدود اسرائيل الى نهر الفرات وانشـــاء الدولة اليهودية فى فلسطين الكبرى .. فما كان يقصد سير «مارك سايكس»

بقيام ألفة وتفاهم بين الجنسين العربى واليهودى ••• كان مقصده الحقيقى من وراء هذا التفاهم والألفة نزول العرب عن حقوقهم الطبيعية وتخليهم عن بلادهم وديارهم ••

والا فكيف نفسر مطالبته هذه للعرب ، وهم الأغلبية مع تلك الأقلية التى كانت اذ ذاك فى سبيل تسللها الى وطن العرب لسلبهم اياه وطردهم منـــه •• ؟

أيمكن أن نفسر هذا الاتجاه من الرجل بغير طبيعة الخلق البريطانى كما شرحناه فى باب الاستعمار ، فليس من المعقول أن يكون « سير مارك » من البلاهة بحيث يعتقد ماابداه من رأى فى هذا الصدد ، وليس من المعقول أن نؤمن بالسلام فى دعوة للتآخى دعا اليها رجل لم يؤمن بالتآخى ولشعب لا يعرف تآخيا ولا محبة ، رجل شحذ السكين وقدمها للقصاب لكى يذبح الشاة ، ثم وقف ليدعو الشاة الى التآخى مع القصاب ••! ألم تكن كل مفاوضات « مارك سايكس » واتفاقياته التى عقدها مع الحلفاء من أجل خدمة الصهيونية فى فلسطين ؟ ألم يكن ذلك كله بمثابة السكين أعدها ــ سرا ــ للقضاء على العرب ••• ؟

ولقد كشف ســـير « مارك سايكس » عن حقيقة شعـــوره وعن اتجاهه الأصيل ، عندما قال فى تصريح له : ••• اذا أسىء فهم الحـــركة الصهيونية ، فان ذلك سيكون بداية الكفاح والصراع بل أقوى صراع عرفه العالم حتى اليوم ••• »

ولقد وقف الدكتور وايزمان ، ليجيب ــ باسم الحركة الصهيونية ــ على تصريحات « السير مارك سايكس » فقال : « لقد وجه الينا فى هـــذه الليلة انذار وهو انذار خطير وحكيم وهـــام وأن أهميته العظيمة قـــد جاءت من كونه صادرا من ذلك الرجل الذى ساهم بقسط أكبر من غيره لحمل الحكومة البريطانية على اصدار تصريح بلفور لقد اضطلع بمهمـــة الارشاد ، وحقا انه كان المرشد ومازال ، ونرجو أن يبقى ذلك الرجل مرشدنا العظيم دائما ولكن اسمحوا لى أن أقول لكم اننى استمع الى بعض مقاطع هذا الانذار بشعور من العجب ، لانى أعتقد أن هذه العبارات لم تكن

ضرورية ، على الاقل فيما يتعلق بالصهيونية ، وقال : ان فلسطين التى نأمل تشييدها لن تكون صورة طبق الاصل مما هو قائم الآن فى العالم وانما ستكون صورة أفضل .. لن تكون صورة لسويسرا أو بلجيكا .. فليس هناك ما يدعو الى تكرار هذه الصور ، انها ستكون صورة منبثقة من أرض يهودية ، ومن روح يهودية ومن عبقرية يهودية .. اننا سنسخر فى خدمتها تلك التجارب التى جمعناها خلال الآلاف من السنين . وستكون فلسطين الينبوع الذى ستتدفق منه آمالنا التى نحيا ونعمل من أجلها .. »

ذلك ما قاله الدكتور وايزمان فى خطابه هذا ، ونلاحظ أن وايزمان قد أبرز الصورة التى تريدها الصهيونية لفلسطين مراعيا ومؤكدا أنها صورة أخرى جديدة تناقض كل التناقض صورة الدول التى تحترم فيها مختلف الجنسيات مثل سويسرا وبلجيكا ، فقد تجنب وايزمان أية اشارة يستفاد منها ان الحركة الصهيونية ترمى الى انشاء دولة يتمتع كل جنس فيها باستقلال ذاتى ، أو اقامة دولة يمكن أن ينتهى فيها الامر الى التقسيم .

ثم تلا الدكتور وايزمان ـ المسيو سوكولوف ، وهو أحد الذين فاوضوا الحكومةالبريطانية باسم الحركة الصهيونيةوصرحقائلا : اننالانزمع انتزاع ملك الغير .. اننا نذهب الى فلسطين لكى نحصل على الارض التى تنتظرنا ونستقر فى كل مكان يتسع لنا ، ونعيش على أفضل الاسس مع جيراننا ، نعيش ونترك غيرنا يعيش ... ان فلسطين لا تعتبر بلادا غاصة بالسكان ومتحضرة وتسودها الرفاهية ، وان مهمتنا هى تحقيق ذلك كله . وفى هذا السبيل سنخسر ثرواتنا ونشاطنا وذكاءنا ، وأحب أن أضيف أنه كان شرف مقابلة البابا رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ولقد قلت له : اننامعشر الصهيونيين نبغض كلمة التسامح ، اننا نكره التسامح فى حقنا من جانب أولئكم الذين ليسوا بيهود ، ولا نرضى أن يرتضوا بدورهم ، هذا التسامح منا ، ونحن نعلم أن فلسطين حافلة بالاماكن المقدسة للعالم المسيحى وللعالم الاسلامى ولنا معشر اليهود ، وأنه لمن الغباء أن نتجاهل هذه الحقيقة الواقعة ..

لذلك يتعين أن نجعل من فلسطين ـ تلك الأرض التى تختفى عليها جميع المنازعات الدينية ونلتقى عليها جميعا ... هذا ما صرحت به لرئيس الكنيسة المسيحية .

وهكذا مضت الحركة الصهيونية فى التغرير والمخادعة ، وقد امتد التغرير الى أوساط العرب كي تهدىء الصهيونية من روعهم وتحاول كسبهم الى جانبها ... ففى يوليو سنة ١٩١٨ سافر الدكتور وايزمان على رأس بعثة صهيونية لزيارة الامير فيصل بمعسكره فى العقبة .. ذهب وايزمان للقيام بهذه الزيارة واجراء المباحثات مع الامير فيصل ، بعد اعلان وعد بلفور ... وقد أجمعت المصادر المختلفة وقتئذ على أن المقابلة التى تمت بينهما كانت مقابلة ودية سادها التفاهم التام ..

والحق أن هذا يبدو غريبا ولا سيما اذا عرفنا أن تلك المقابلة التى اتسمت بطابع الود والتى ساد الحديث فيها التفاهم التام قد وقعت بعد صدور تصريح بلفور ، وبعد أن اتضح ـ تماما ـ تصميم الصهيونيين على تحويل فلسطين الى دولة يهودية ..

ولا يمكن أن نعلق على موقف الأمير فيصل فى هذا الشأن وعلى تفاهمه اذ ذاك ـ مع وايزمان وبعثته الصهيونية ، وما اتضاه وقبله من عهودهم ووعودهم . نقول : انه لا يمكن التعليق أو التصدى لهذا الموقف بأكثر مما قاله الملك حسين عندما عرف تصرف الأمير فيصل فى مستقبل العرب على هذه الصورة ، فقد أدلى بتصريح سجله الكابتن ليدل هارت ، قال فيه : « ان فيصل قادر على أن يبيع نفسه نظير صحن من العدس ! »

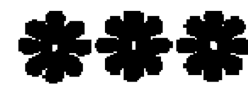
***

لقد كان واجبا على العرب بعد أن تبينوا من واقع اتفاقيات سايكس بيكو التى نشرت والتى أخذت فيها فلسطين وضعا خاصا أن الغرب قد صمم على بتر فلسطين من الجسم العربى ـ كان واجبا على العرب ان يدركوا بعد نشر تصريح بلفور وما تلاه من تصريحات الصهيونيين أن فى عزم الغرب مؤازرة الصهيونية العالمية وتحويل فلسطين الى دولة يهودية ، ولكن العرب بفضل تغرير قادتهم تجاهلوا هذه الحقيقة وقتئذ ومضوا فى تأييدهم لقضية الحلفاء دون أن يثيروا مستقبل فلسطين وحقوق العرب .. !

الفصل الرابع والعشرون

المشكلة الفلسطينية

« المرشال اللنبى يشـــيد بذكرى الحروب الصليبية ـ الاحتــلال البريطانى لفلسطين يثير الصراع السياسى والطائفى ـ عناصر المشكلة الفلسطينية ـ مشــكلة قانونية استنادا الى المواثيق ـ اتفاقية ماكماهون حسين ووعد بلفور ـ وطن قومى ام ماوى قومى ـ لويد جورج وتعريفه لمدلول المأوى القومى وتفسيره : امكان يتجمع فيه اليهود ام دولة لهم يحكمها يهود لمصلحة اليهود ـ اجماع اليهود على طلب الحماية البريطانية لهم فى فلسطين ـ استبعاد سيادة اليهود على الاماكن المقدســـة ـ لورد كيرزون وفلسطين ـ لورد بلفور يوضح مفهوم المأوى القومى ، مركز لحياة اليهود ولثقافتهم ـ تعريف وايزمان امام مجلس الحلفاء الاعلى وكشفه لخطة الصهيونية لتشييــــيد قومية يهودية وصنع فلسطين يهودية ـ استيلاء الصهاينة على فلسطين يجنب الغرب خطر القومية العربية ـ الغرب يحرص على أن تكون فلسطين تحت سيطرته ونفوذه وبعيدة عن يد العرب ـ فلسطين اليهودية جسر يفصل بين العرب فى آسيا والعرب فى افريقية ـ اليهود يحرصون على تقاضى ثمن خدماتهم للغرب ـ مطامعهم فى انشاء دولة اسرائيل الكبرى ـ بريطانيا تعلم اهداف الصهيونية وتؤيد غاياتها ، وتعمل على تحقيقها ، والخلاف بينهما لم يكن على الهدف بل على الوســـائل وعلى حجم دولة اسرائيل وشكلها وعلى الوقت الملائم لقيامها ـ سياسة بريطانيا لخدمة اليهود وسرعة استجابتها لمطالب الصهيونية العالمية مرتبطة بتطور علاقاتهـا بالعرب وعلى وجه التخصيص مصر ـ مؤتمر الصلح يفسح صدره للصهيونية العالميــة ويابى الاستماع لقضايا الحرية فى مصر والهند وايرلندا وقضـــايا التفرقة العنصرية ـ الصهيونية ومشكلة ولاء اليهود للبلاد التى ينتمون الى جنسيتها ـ الاعتراض على الدعوة الصهيونية ـ الصهيونية تعلق بأنها ستفرض وجودها بقوة الســـلاح ويتحقق لها عندئذ الانتقام من العرب . »



عندما احتلت بريطانيا فلسطين أشاد الفيلد مارشال اللنبى Allenby قائد قوات الحلفاء فى الشرق ، بذكرى الحروب الصليبية .. أشاد اللنبى بهذه الذكرى ، وهو يعلم تماما ، أن احتلال جيوش الغرب لفلسطين سينتهى الى تسليمها لليهود ، وأن الصهيونية العالمية قد سخرت الغرب فى هـــذا الصدد لخدمتها .

ولقد أثار احتلال بريطانيا لفلسطين ، الصراع فى صوره كافة ...

اثار الصراع السياسي والطائفي ، وأثار الفتن المسلحة والعدوان في جميع صــوره ومن ذلك الصراع ومن تلك العنـــاصر مجتمعة تكونت المشكلة الفلسطينية ••• ولقد رأى البعض أن المشكلة الفلسطينية مشكلة يستند فيها سكانها الأصليون ، وهم العـــرب ، الى حقهم الذى لا نزاع عليه في بلادهم ، علاوة على ما تم بين الشريف والسير هنرى مكماهون من اتفاقات عقدت في سنة ١٩١٦ •

ولا نريد اقحام القارىء في جدول طويل قد يهوش عليه جانب الحق في هذه المشكلة ، ولكننا سنعرض القضية ـ ذاتها ـ بكل وضوح وبساطة •

لقد تضمنت اتفاقيات سايكس ـ بيكو وضعا خاصا لفلسطين ، كما نص تصريح بلفور أو وعد بلفور على انشاء « دار » و « مأوى » قومى لليهود في فلسطين •• وهنا تبدو نقطة دقيقة الأثر متعلقة بترجمة هذا التصريح الى العربية ••• نقطة لابد من التوقف عندها ، وهى النص العربى المترجم للتصريح عن نصه الفرنسي والذى تولت نشره جامعة الدول العـربية في مجموعة الوثائق الرئيسية لقضية فلسطين .. ذلك أن العبارة National Home الواردة في أصل التصريح بالفرنسية وبالانكليزية وقد عربت في تلك الوثائق بالعبارة « الوطن القومى » •

وهذا التعريب يخرج بالنص الفرنسي والبريطاني عن معناه وينحرف بعبارته عن مدلولها الأصيل في الفرنسية والانكليزية •• اذ أن المعنى العربى المقابل للمعنى الفرنسي والبريطاني انما هو « دار » « مأوى قومى » « لاوطن قومى » وما من شك في أن هذا التجاوز في الترجمة كان له أثره مـن الناحية السياسية في تفسير الاوضاع التي مرت بها القضية الفلسطينية •

***

واذا أخذ مفهوم كلمة « دار » و « مأوى » Foyer National فان هـذا لا يرتب أى حق لمن يراد ايواؤهم أكثر من مجرد الايواء ••• غير أنه لما كانت هذه الكلمة مقترنة باللفظ « قومى » كان من شأن هذا التعبير «الدار» « والمأوى القومى » ان يبعث على التساؤل عن حقيقة ما ترمى اليه هـذه

العبارة ... الامر الذى أراح العرب منه أنفسهم ، اذ ارتضوا عبارةالوطن القومى فى الوقت الذى راح فيه ساسة الغرب يتساءلون ويبحثون المقصود به ، وهل هذا التعبير ينصرف الى تخويل الصهاينة الحق فى تحويل هذا المأوى الى دولة لهم وحدهم ؟

***

وفى هـــذا الشأن كتب لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ يقول : ـ

« انه كان يعنيه فى تعرضه من الوجهة العملية أن يجد تفسيرا » :

أولا ـ لما يقصد من عبـــارة « مأوى قومى » للجنس اليهودى فى فلسطين ، ثم تفسيرا لطبيعة المسئولية التى نتحملها اذا ارتضينا ذلك كمبدأ من مبادىء السياسة البريطانية .

آخرا ـ المدى الذى يمكن تحقيقه لهذه السياسة من التوفيق والنجاح اذا شرعت بريطانيا تطبيقها.

ثم يزيد لويد جورج الامر وضوحا فيقول : « انه بالغا ما بلغت الاهمية السياسية لهذا التصريح،والتزام هذا السلوك ، فانه كان لزاما علينا أن نواجه المشكلة ونتعرف هل نعمل بذلك على تشجيع فكرة عملية ، أو أننا ـ نكون بعملنا ـ نمهد الطريق لخيبة الأمل والافلاس .. »

يقول لويد جورج : انني فى سبيل تعرف الآراء في هذا الشـأن ، والتعرف على مختلف اهداف اليهود ، تبينت أن المأوى القومى للجنس اليهودى أو للشعب اليهودى ، يعنى وفقا للمفهوم العادى لهذا التعبير ، مكانا يستطيع أن يتجمع فيه اليهود كشعب ويتمتعوا فيه بالامتيازات المكفولة للوجود القومى المستقل ... وقد رأى البعض الآخر ، أن يعرف هـــذه العبـارة ، بأنها تعنى انشـــاء دولة مستقلة فى فلسطين ... دولة بالمعنى السياسى المفهوم للكلمة ، تكون مؤلفة من يهود ويحكمها يهود ـ وتجرى فيها الامور ـ أساسا ـ لمصلحة اليهود ، كما يكون لهذه الدولة عاصمة ،

وشكل للحكومة ـ ونظمها الخاصة بها ••• وكان لزاما أن تتوافر لهذه الدولة الاراضى أو الجزء الاكبر من فلسطين •• »

«وهكذا كان علينـا أن نشجع بأن ننشىء فى فلسطين مأوى للشعب اليهودى ، أو موطنا قوميا للجنس اليهودى أو تصبح فلسطين يهودية ، أو اعادة هذا البلد للشعب اليهودى ••

ويمضى « لويد جورج » فيقول : لقد كان من الواضح لنا ، أنه من المتعذر من الوجهة الطبيعية ، ولعدة اعتبارات أخرى أن تصبح فلسطين « وطنا قوميا »للشعب اليهودى ، بالمعنى المفهوم لهذه العبارة لأنه لا يوجد فيها مكان لليهود كشعب ، كما كان من المتعين علينا أن ندرك أنه للأديان الثلاثة أماكن مقدسة فى فلسطين ، وهناك فارق بين أن يتولى حماية هـذه الاماكن يهود لا يعترفون بقدسية الديانة المسيحية ، أو الديانة المحمدية وبين المسلمين الذين كانوا يعترفون بقدسية الديانة المسيحية ويحترمون أماكنها المقدسة ، ولهذا فقد كان من المستبعد على وجه التعيين ، أن يتولى اليهود السيادة على الأماكن المقدسة فى فلسطين ويقول « لويد جورج » : « ان الصهاينة قطعوا على أنفسهم عهدا بانهم ـ ثمنا للتصريح المطلوب ـ سيبذلون جهودهم كافة من أجل حشد شعور اليهود فى جميع أنحـاء العالم لتأييد قضية الحلفاء ••• ويمضى فيقول : ان اليهود قد بروا بهذا العهد حرفا ومعنى ••• »

« فقد بعثوا لليهود فى ألمانيا وفى النمسا وفى روسيا وبولندا بدعوتهم لتأييد قضية الحلفاء ورأت وزارة الخارجية البريطانية ، وقتئذ ان المبادىء التى يمكن أن يستند اليها حل قضية فلسطين تقضى بأن يؤخذ فى الاعتبار أن أحد العناصر التى تتكون منها القضية ، وهم اليهود من حقهم ، لأسباب تاريخية ودينية أن يتمتعوا بنفوذ أكبر اذا اقتصر الاعتبـار فى ذلك على العـدد •

ويمضى فيقول :

« انه اقترح على الحكومة البريطانية أن تخطط نوعا من الحكومة

يحقق في الوقت نفسه حماية مصالح العرب ويضع أماني الجنس اليهودى موضع التنفيذ ، وفيما بعد عندما يتمكن اليهود من أن يصبحوا هم أغلبية البلاد ، يكونون قد نضجوا ليقيموا ذلك النوع من الحكومة الذى يتلاءم هو وما تكون البلاد قد بلغته من التطـــور ويناسب المثل التى تسعى الى تحقيقه ... »



وقد رأى لورد كيرزون Lord Curzon أن يضع تعريفا للنظام المقترح في فلسطين على اساس التصريح المزمع اصداره فاقترح ، من أجل ذلك ، انشاء ادارة أوروبية غير يهودية لفلسطين ... ادارة تـكفل النظام في جميع الأماكن المقدسة ، كما تكفل لليهود حقوقا مساوية من الناحيتين المدنية والدينية لما هـــو مكفول للشعب الفلسطينى ، وتيسير شراء اليهود للاراضى في فلسطين وتوطين من يقدم منهم على العودة الى فلسطين ..

هذه كانت الصورة التى رسمها المسئولون البريطانيون عند اعداد تصريح بلفور ..



وقد أراد «اللورد بلفور » أن يوضح مفهومه لعبارة (المأوى القومى) (National Home) فقال : انه عبارة عن نوع من الحماية تبسطها بريطانيا أو أمريكا ، وفي ظل هذه الحماية يمنح اليهود جميع التسهيلات التى تمكنهم من انقاذ أنفسهم ومن اقامة مركز حقيقى لثقافتهم القومية . ومركز لحياتهم القومية عن طريق التعليم والزراعة والصناعة ، وان هذا لا يعنى ضرورة التبكير باقامة دولة يهودية مستقلة اذ أن هذا أمر يجب أن يترك للتطور الطبيعى وفقا للقوانين العادية للتطور الســـياسى ، بل وفقــا للتكوين الاخلاقى .



أما لورد روتشيلد (Rotchild) الذى كان يتحدث باسم اليهود ، فقد عرف المأوى القومى لليهود : « بأنه ذلك المكان الذى يستطيع فيـــه

اليهود أن يتحدثوا بلغتهم ويمارسوا طقوسهم الدينية وتكون لهم فيه حضارتهم ومعاهدهم العلمية ، وكل ذلك تحت حماية الدول المتحالفة » •

ولقد كان تعريف لورد رونشيلد متجاوبا مع أماني اللورد كرومر (Cromer) الذى كان يساند الدعوة الصهيونية ويؤيد اعادة تجمع اليهود فى فلسطين لتكوين المركز الروحي لهم ويجاهر بهـا دائما طوال مدة وجوده بمصر •

وحينما طلب من الدكتور حاييم وايزمان أمام مجلس الحلفاء الاعلى أن يعرف مدلول كلمة (Home) وهل المقصود هو حكومة قومية يهودية أجاب وايزمان بالنفى ، وقال : ان المنظمة الصهيونية لا تريد حكومة يهودية مستقلة ذاتيا ، بل انها تهدف الى مجرد أن تقيم فى فلسطين تحت سلطة الدولة المنتدبة ادارة وليس من الضرورى أن تكون يهودية •••• ادارة تمكن على قدر الامكان من ارسال ما بين ٧٠ و ٨٠ الف يهودى سنويا الى فلسطين ، كما يؤذن للمنظمة الصهيونية بأن تقيم مدارس يهودية تدرس فيها اللغة العبرية وأن تقيم وتطور المؤسسات من مختلف الأنواع •• وهكذا يتيسر لهذه المنظمة أن تشيد تدريجيا قومية وتصنع فلسطين يهودية، كما أن أمريكا للامريكيين وبريطانيا للبريطانيين •

ولم يكن ما صرح به الدكتور حاييم وايزمان أمام المجلس الاعلى للحلفاء الا ستارا يخفى نشاط الصهاينة الحقيقى الذين دأبوا على العمل ، والاعلان عن عزمهم ان عاجلا أو آجلا على تحويل هذا المأوى اليهودى الى دولة يهودية لهم ••

***

وهكذا كان هدف الصهيونية الاستقرار فى فلسطين بوصفها سيدة البلاد لا بوصفها مأوى لها مستمدة من بريطانيا التأييد والعون لتحقيق هذا الهدف •

***

كانت بريطانيا ترى فى فلسطين جسرا بريا يصل البحر الأبيض

المتوسط بالخليج الفارسي والهند وامتداد هذا الجسر يشمل ـ بحكم الواقع ـ الأردن والعراق ..

وكان الاستيلاء على فلسطين لا يهم بريطانيا ودول الغرب وقتئذ الا من حيث كونه يمكن لهم من تجنب خطر القومية العربية فى آسيا وافريقية ، هذه القومية العربية التى تقع فلسطين بين نقطتى ارتكازها فى دمشق والقاهرة وتفصل بحكم موقعها بين قاعدتيها الرئيسيتين فى آسيا وافريقية .. ومن ثم فلم يكن يعنى الغرب من فلسطين الا أن تكون تحت نفوذهم ، بعيدة كل البعد عن يد العرب ، وكان الأمر فى هذا عند بريطانيا ، تتساوى فيه سيطرتها على فلسطين ، وسيطرة اليهود عليها ، كلا الأمرين كان من وجهة نظر البريطانيين ، ينتهى الى الغاية التى يرمى الغرب الى تحقيقها ، وهى ابعاد الخطر العربى عنها ومناهضة القومية العربية ، وضمان بقاء نفوذ الغرب على فلسطين فى أية صورة من صور النفوذ ، وكانت الصهيونية هى التى تكفل للغرب تحقيق هدفيه .. بقاء النفوذ فى فلسطين والحيلولة دون قيام القومية العربية .. فالصهيونية قد عرضت على الغرب خدماتها . مسرفة فى العرض ، مسرفة فى الولاء والخضوع والطاعة والبذل لدول الغرب .. ولهذا اختار الغرب الصهيونية ، منذ البداية لتكون مهمتها ، اغلاق فلسطين فى وجه القومية العربية ، ولتقوم دولة الصهاينة على هذا الجسر الذى يصل بين العرب فى آسيا وبين العرب فى افريقية .

وقد أثبت التاريخ أن الصهيونية عاونت ـ الغرب فعلا معاونة فعالة لتحقيق سياسته فى مكافحة القومية العربية ، غير أن الصهاينة لم يفتهم أيضا أن يفيدوا من تعاونهم هذا مع الغرب ، فدأبوا على مساومة دوله لتحقيق مطامعهم الخاصة ـ مقابل الدور الذى تؤديه الصهيونية لتنفيذ سياسة الغرب ضد العرب .

***

ان المفاوضات التمهيدية التى سبقت وعد بلفور لتؤكد أن مطامع الصهيونية تجاوز حدود فلسطين ، وتقطع بأن أهدافهم ترمى الى توسع أكثر بعدا وأشدخطرا ، فقد ثبت من المحاضر الرسمية فى تلك المفاوضات أن هدف الصهيونيين كان اقامة دولة تمتد الى الفرات .

وفى سبيل تبادل المنافع نستطيع أن نؤكد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا قد تضامنتا معا الى حد بعيد وما كانت الصهيونية لتضع كل امكانياتها تحت تصرف بريطانيا ومن أجل خدمة أغراضها السياسية الا لتكسب تأييدها ومساندتها كيما تحقق أغراضها .

وقد كانت بريطانيا على اتم الاتفاق مع الصهيونية وتعلم هدفها وتحيط بمشكلتها وتؤيد غاياتها جميعا وتعمل على تحقيقها ، لم يكن

بينهما خلاف على الهدف ، ولكن كان الخـــــلاف على الوسائل التى تتخذ لتحقيق الهدف ـ على مساحة الأراضى التى تقوم عليها الدولة اليهودية ، وعلى شكل هذه الدولة ، وعلى الوقت الملائم لقيامها .

وكان مفهوما لكلتيهما أن السياسة التى يمكن بريطانيا أن تسلكها لخدمة اليهود وسرعتها فى الاستجابة الى مطالب الصهيونية العالمية مرتبطة بموقف العرب من بريطانيا وبالاحرى يحددها تطور العلاقات بين بريطانيا والعرب ولاسيما مصر وسورية اللتان تعتبران أهم وأقوى مؤثر فى تكييف السلوك الذى انتهجته بريطانيا العظمى لتطبيق سياستها فى فلسطين .

***

رحب مؤتمر الصلح بمساعى الصهيونية العالمية واستجاب لها منـذ اللحظة التى انعقد فيها .. وفى الوقت الذى رفض فيه « مجلس العشرة » وأنكر « مجلس الأربعة » وهما المجلسان اللذان ضما الدول التى عهد اليها بدراسة مختلف القضايا التى تقرر عقدها فى المؤتمر ، تقول فى الوقت الذى رفض فيه المجلسان النظر فى قضايا الهند ومصر وايرلندا وقضية التفرقة العنصرية ، فان مطلب الصهيونية العالمية حظى بدراسة عميقة من جانب هذين المجلسين لا سبب لها الا تأييد الحلفاء الغربيين ومساندتهم للصهيونية العالمية، فقد وعد الرئيس ولسن الدكتور وايزمان بمناصرة الدعوة الصهيونية .

وفى هذا الصدد كان الصهيونيون يجاهرون بأن الخدمات التى قدمها اليهود للعالم تمكنهم من المطالبة بفلسطين ، كحق لهم ، لا كمنحة من جانب الحلفاء وكان الجهر بهذا الزعم يلاقى مناهضة من جانب بعض اليهود الذين رأوا فيه خطرا على مستقبل اليهود وعلى وضعهم فى سائر الدول .. لقد تساءلوا وقتئذ هل من حق المواطن الذى أدى واجبه فى هذه الحرب مرتديا أى زى من أزياء الدول المحاربة بوصفه مواطنا له ما لسائر المواطنين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات وبوصفه مدينا بالولاء للدولة التى آوته ـ أن يتقاضى ثمن هذا الولاء ؟ تساءلوا هل يحق لليهودى ـ على هذا الاساس ـ أن يطالب بثمن لما قدمه من خدمات ؟؟

وقياسا على ما تقدم قيل : ان الكثيرين من أبناء الدول المحايدة والدول الخاضعة لسلطان الأعداء قد تطوعوا مختارين للمحاربة فى جانب الحلفاء، فهل كان من حق هؤلاء ، وقد انتهت الحرب ، أن يطالبوا لانفسهم بالثمن؟

ورأى هؤلاء المعترضون ان التجاوب مع « يزعمه الصهيونيون ـ اقرار لهم بمثل هذا الحق ... بثمن خدماتهم للحلفاء ...

على أن هناك اجماعا على رفض مثل هذا الادعاء الصهيونى ، فلماذا اذن ينساق العالم فى تيار الاستجابة والاذعان لمطلب اليهود ؟ هل لليهود من المصالح الخاصة فى البلاد التى ينتمون اليها ما يجعل هذه المصالح تتعارض مع المصالح العامة للدولة بحيث يحق لهم عندئذ المطالبة بتعويض خاص عن تلك الخدمات .

لقد تصدى الاستاذ جاستيوف "Jastiow" اليهودى للرد على الصهيونيين فى صحيفة « المينيرا » التى تصدر فى نيويورك .. فقال : « ان فلســـطين ليست ملكا لليهود انها ملك أولئكم الذين يعيشون فيها ، ونحن لا نستطيع ان نغمض أعيننا عن الفى عام من التاريخ فنزعم أنه ما دام أن أجدادنا اليهود قد استطاعوا ان يسيطروا على أراض فى فلسطين لمدى قرنين اثنين من الزمان ، أصبح من حق اليهود أن يكونوا سادة لهذه البلاد ، واذا سلمنا بمشروعية الغزو اليهودى تعين علينا ، أيضا أن نسلم بغزو تلك الاراضى التى حرمت اليهود الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها .

واذا كان قد أتيح لنا أن نكون يوما سادة لجزء من فلسطين ، فان ذلك لا يبرر لنا المطالبة بهذا البلد بأكمله ... ومن البديهى أنه لا يحق لليهود أن تمتد مطالبتهم لغير الجزء الذى ملكوه فعلا ـ اذ ذاك ـ والمعروف أن هذا الجزء لا يتعدى مساحة تبلغ بين ١١٥ كم طولا و ٤٥ كم عرضا .

على أن ساحل فلسطين لم يكن فى يوم من الايام ملكا لليهود ، فقد كان جزؤه الجنوبى ملكا للفلسطينين والجزء الشمالى ملكا للفينيقيين ، كما أن اليهود لم تتم لهم السيطرة قط على أخصب أراضى فلسطين ولا سيما شرق الاردن ، وهى أراض لم تكن فى يوم من الايام يهودية ، ... واذا أقدمنا على المطالبة بانشاء دولة يهودية جديدة فى فلسطين بأسرها ، فانما نكون بهذا قد ارتكبنا عملا من أعمال العنف الذى سيثير أشد المعارضة والعداء لنا ، كما انه من السخف الزعم بالرغبة فى انشاء دولة يهودية صغيرة ، داخل فلسطين ..

غير أن هذه الآراء المعارضة لاتجاه الصهيونية ، لم تثن عزم الصهاينة عن المضى فى تحقيق هدفهم والمضى فى نشر دعوتهم فبدءوا فعلا ، فى التسلل الى فلسطين ، وشرعوا فى استعمارها لانه كان لزاما عليهم أن يعجلوا بانشاء البيئة التى يعملون على فرض مبادئهم فيها ، ونشرها بين اليهود الأصليين المقيمين بفلسطين وفى بلدان الشرق ، وفرضها على أبناء الغرب ونشرها بين الاوساط التى يحتمل أن تتولى الدفاع عن قضايا العرب •

•• لقد تحدت الصهيونية العـــالمية العرب ، وطالبتهم أن يعترفوا بحقهم فى فلسطين وانذرتهم بأنهم ان لم يرتضوا وجودهم اختيارا ، فان الصهيونية ستفرض وجودها عليهم بقوة السلاح ، وانهـا اذ ذاك سيحق لها الانتقام من العرب •• قال الصهاينة ذلك واعلنوه منذ اللحظة الأولى لانعقاد مؤتمر الصلح ••

الفصل الخامس والعشرون
أخطار البيت الهاشمي ومشكلة فلسطين
الأمير فيصل ومؤتمر الصلح

«فيصل» و «عبد الله» ربطا مصيرهما بمصير الحلفاء ـ القوة المادية كانت وسيلة العرب لمقاومة الاحتلال البريطاني ـ الصهيونية تستقر في فلسطين وتسيطر على العدالة والبوليس وتشرع في السيطرة على اقتصاديات البلاد ـ وايزمان يقنع (فيصل) بالروابط المزعومة بين العرب واليهود ـ العرب يطالبون بضم فلسطين الى سورية والا فاستقلالها التام ـ قرارات المؤتمر الوطني ـ موقف المارشال اللنبي ـ الصهيونية تعمل في لندن وواشنطن وباريس ـ الصهيونية تشترك في وضع الصيغة التي تحدد مصير فلسطين وتعامل الحلفاء معاملة الند للند ـ تخاذل الأمير فيصل أمام ضغط بريطانيا ـ الأمير «فيصل» يوقع معاهدة مع «وايزمان» يعترف فيها بوعد بلفور ومطامع الصهيونية ـ دور «لورانس» .



أما عرب فلسطين أولئكم الذين تناولهم تهديد الصهيونية ، فقد اتجهوا بانظارهم الى الاميرين فيصـــل وعبد الله اللذين ربطا مصيرهما بمصير الحلفاء واللذين باسم الحلفاء ، وعدا العرب بالاستقلال وبالسعادة في بلادهم ... فماذا كان مسلك الاميرين ..؟ وكيف كان مسلك عرب فلسطين الذين كانوا يواجهون قوة الصهيونية الرأسمالية بفقرهم والذين كانوا يواجهون القوة السياسية التنظيمية للصهيونية العالمية بثقتهم العمياء في قادتهم وعلى رأسهم الاميران « فيصل » و « عبد الله » .. ولم يكن سند العرب الوحيد وقتئذ الا ما كان في أيديهم من القوة المادية ، فظلت هذه القوة وسيلتهم الوحيدة وفي حدودها مضوا يقاومون الاحتلال البريطاني منذ عام ١٩١٧ حتى المصير الدامي الذي انتهت اليه قضية فلســطين سنة ١٩٤٨ ..

وفي حماية القوات المسلحة البريطانية اســتقرت الصهيونية في فلسطين منذ عام ١٩٤٨ وقبل وضع هذه البلاد تحت الانتداب تم للصهيونية العالمية وضع يدها على البوليس وعلى العدالة في فلسطين ، وكانت في طريقها

للسيطرة على اقتصاديات البلاد بفضل التعاون الذى قام اذ ذاك من أجل هذه الغاية بين البنوك البريطانية واليهودية ..

وبينما كان الدكتور وايزمان ماضيا فى مفاوضته السرية مع الامير فيصل ، يقنعه فى أثنائها بالقرابة الجنسية والروابط الازلية التى تربط بين الشعبين العربى واليهودى ، ويعمل على كسب تعاونه للقضية الصهيونية أدرك عرب فلسطين مسيحيين ومسلمين مدى الخطر الذى يتعرضون له على ضوء ما كان يذاع تدريجيا عن المشروعات الصهيونية فى بلادهم ومن ثم فقد رأوا أنه لا مناص لهم من تجنيد جميع قواهم والمطالبـــة بضم فلسطين لسورية كحل طبيعى فاذا اعترض الحلفاء على هذا الرأى طالبوا بالاستقلال التام ..

لقد كان العرب جميعا من مسيحيين ومسلمين يمثلون وقتئذ أكثر من ٩٠٪ من مجموع سكان فلسطين ... فرأوا أن يبعثوا بممثليهم الى المؤتمر الوطنى الذى انعقد فى الاول من فبراير سنة ١٩١٩ ، حيث تم بالاجماع الموافقة على مقاومة الصهيونية ، والمطالبة بضم فلسطين الى سورية العربية لتكون جزءا لا يتجزأ منها بوصفها دولة عربية مستقلة ، ولقد شرع عرب فلسطين عندئذ فى تكتيل جهودهم والمضى فى جانب اخوانهم فى مصر الذين كانوا فى ثورة على الحكم البريطانى ، ولكن السلطات البريطانية بادرت بالقضاء على مختلف العناصر الوطنية ، وقد تبين لابناء فلسطين اذ ذاك . أن بريطانيا ماضية فى تأييدها للصهيونيين ...

وقد حول المارشال اللنبى اقناع عرب فلسطين بحسن نوايا بريطانيا فمنع نشر تصريح بلفور فى فلسطين وعمل على اخفائه عن ابناء البلاد .

***

وبينما كان هذا يجرى فى فلسطين ، كان نشاط الصهيونية العالمية يسيطر على لندن وعلى واشنطن وباريس تمهيدا لمواجهة ما سيجرى من مداولات بشأن مستقبل فلسطين فى مؤتمر الصلح .... ففى واشنطون أعلن القاضى برانديس تصميم اليهود على انشاء دولة لهم فى فلسطين ، وفى لندن أعلن المستر أورمسبى جور (Ormsby - Gore) الوزير البريطانى

أنه يتوقع ويلمح من ساعته جواز سفر يهودى ••• يعنى أنه سيكون لليهود دولة •• وفى ذات الوقت يعلن اللورد بلفور Balfour ان المأوى القومى اليهودى سوف يتسع بعد جيل لأربعة أو لخمسة ملايين من اليهود يمكن أن يكونوا عندئذ قادرين على تحويل فلسطين الى دولة يهودية •

وعلى الرغم من أن الصهيونيين كانوا يحظون بالتأييد من كل دول الغرب ـ أصروا على ضرورة اشتراكهم فى وضع الصيغة التى تحدد مصير فلسطين فى مؤتمر الصلح ، وعاملوا بريطانيا العظمى والحلفاء فى مؤتمر الصلح معاملة الند للند •••

أما عن موقف الحلفاء من العرب الذين حاربوا الى جانب الحلفاء واستشهد من أبنائهم من استشهد فى سبيل قضية الحلفاء فلم يقبل هؤلاء ان يمثل العرب فى مؤتمر الصلح ولا أن يسمح للأمير فيصل الذى كان يتحدث وقتئذ باسم العرب ، أن يدلى بأقواله فى المؤتمر الا بعد أن يستجيب الى مطلب وزارة الخارجية البريطانية الذى عرضه على الامير فيصل « الكولونيل لورانس » وكان يتلخص فى عقد اتفاق يعترف فيه العرب بمطالب الصهيونيين فى فلسطين، تلك المطالب التى صورها لورانس بأنها مجرد سماح العرب لليهود بالسكنى فى فلسطين باعتبارها دارا عربية يسكن فيها اليهود ، وعلى أن تتمتع الجالية اليهودية بنوع من الاستقلال الذاتى يتفق فيما بعد على شكله •••

وأمام ضغط وزارة الخارجية البريطانية من وجهة وتلهف الامير فيصل على اثبات صفته كمتحدث باسم العرب فى مؤتمر الصلح ، وهى الصفة التى كان يعتقد أنها لن تتاح له مالم يتم الاتفاق بينه وبين الصهيونية ، أمام هذا كله ، استجاب الامير فيصل الى الحاح الكولونيل لورانس ودخل فى مفاوضات مع الصهيونية العالمية التى كان يمثلها آنئذ الدكتور وايزمان

وقد ناب عن الامير فيصل فى هذه المفاوضات الكولونيل لورانس وتولى ـ فى الوقت نفسه ـ صياغة نصوص الاتفاقية التى وقعت فى الثالث من يناير سنة ١٩١٩ ـ وبقيت سرا غير معروف الى أن أذاعها الدكتور وايزمان فى ١٠ من يونيو سنة ١٩٣٦ •

وقد تضمنت الاتفاقية قبول الامير فيصل لتضامن يقوم بين العرب واليهود من أجل تحقيق أهدافهم الوطنية فى نطاق التعاون الوثيق لتنمية الدولة العربية وفلسطين .. كما قبل فيصل فى هذه المعاهدة ، تبادل المندوبين المفوضين بين العرب واليهود فى الدولتين ..

وتضمنت المادة الثامنة من المعاهدة ، تحفظات بشأن الحدود بين الدولة العربية وفلسطين ..

كذلك سلم الامير فيصل – فى المادة الثالثة نفسها – للادارة التى تتولى الاشراف على شئون فلسطين ، بالحق فى اتخاذ جميع الاجراءات الكفيلة بتنفيذ وعد بلفور .

وفى المادة الرابعة ، من هذه المعاهدة ، قبل الامير فيصل تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين على أوسع نطاق والعمل على استقرار المهاجرين اليهود فيها بأسرع وقت ممكن ..

***

وهكذا نجحت الصهيونية العالمية فى حمل الامير فيصل على تأييد وعد بلفور ، وعلى تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين كما نجحت فى تسجيل اعترافه الصريح بأن الدولة العربية لا تشمل فلسطين .

وكان كل ما حصل عليه الامير فيصل فى هذه المعاهدة مقابل ما نزل عنه من حقوق لليهود – هو ما جاء فى المعاهدة من تعهد اليهود بمد الدولة العربية بالخبرة الفنية والاقتصادية ..

***

ويبدو أن الكولونيل لورانس ، صديق الامير فيصل ، قد أدرك خطورة ما وقع فيه صديقه نتيجة لتفريطه بهذه المعاهدة فى حقوق الامة العربية لمصلحة اليهود ، وساور لورانس الخوف على مستقبل فيصل والأسرة الهاشمية حينما يعرف العالم العربى نصوص هذه المعاهدة ، مما قد يعرض الامير لأن يطاح به ويقضى على الاسرة الهاشمية ، وبهذا

تحرم بريطانيا خدماتها .. فبادر بتدوين حاشية فى ذيل المعاهدة ويخطه ونسبها الى الامير فيصل وقد جاء فيها انه فى حالة عدم وفاء بريطانيا بالتزاماتها نحو اقامة الدولة العربية ، تبطل هذه الاتفاقية فى مجموعها .

ولعل كتمان الصهيونيين لامر هذه الاتفاقية والاحتفاظ بها سرا غير معلن ، لمدى سبعة عشر عاما ، ما يوضح مدى صداقة الصهاينة للأمير فيصل ، وحرصهم على عدم احراجه واحراج الاسرة الهاشمية أمام الرأى العام العربى ، طيلة هذه الفترة من الزمن ..

وما ان تم توقيع هذه الاتفاقية حتى اذن للامير فيصل بالمثول أمام مؤتمر الصلح ليتولى الدفاع عن حقوق العرب ، هذه الامانة التى فرط ـ سلفا ـ فى جانب عزيز منها ..

والآن فقد بقيت كلمة عن الشريف حسين رأس الاسرة الهاشمية ، جديرة بان تقال لتزيد علاقته ببريطانيا ايضاحا . ولتلقى الضوء الاخير على موقفه كهمزة وصل بين العرب وبين سياسة الغرب .

يقول الجنرال كاترو (Catraux) أحد قواد البعثة العسكرية الفرنسية فى الحجاز :

« ان الشريف (حسين) كان أكثر أعضاء اسرته امانة واستقامة واشدهم تمسكا بمطالب العرب .. »

ويقول الجنرال بريموند (Bremond) رئيس هذه البعثة : « ان حسينا كان يدرك ـ تماما ـ تلك الخدمات التى أداها العرب لقضية الحلفاء ... »

ويستشهد « بريموند » فى هذا الصدد ، بتقرير للجنرال الالمانى ليمان فون ساندرز (Liman von Sanders) عن معركة الشرق فى الحرب العالمية الاولى ، جاء فيه :

« يجب عدم الاستهانة بالمساعدات التى قدمها العرب لقضية الحلفاء، ولا يحسن الانسياق وراء الآراء التى تستخف بهذه الخدمات أو تقلل من

خطورتها وأثرها .. وحسب خدمات العرب قيمة ، أنها هيأت للجنـــود البريطانيين أنسب الظروف التي يحارب فيها الجندى وكأنه يحارب على أرض بلاده وفى وطنه من حيث شعوره بالجو الودى والامن الداخلى فى البلد التي يحارب فيها أعداءه ، وكان الامر فى هذا على عكس ما كانت عليه حالة الاتراك الذين كانوا يحاربون في جو معاد وغير موال لهم على الرغم من أن البلاد التى كانت تدور على أرضها المعارك كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية . »

ويعود الجنرال « بريموند » فيتحدث عن موقف بريطانيا من الشريف حسين وتغير وجهة نظر سياستها بالنسبة له فيقول :

« ان الشريف (حسين) بدأ يزعج بريطانيا بمطالبه وأصبح مصدر قلق لها ، طالب لابنه عبد الله بملك العراق ، وطالب لنفسه بالخـــلافة على المسلمين ثم نادى بنفسه خليفة للاسلام فى مايو سنة ١٩١٩ ، وقد استنكرت بريطانيا هذه الخطوة من جانب حسين ولم تبد ارتياحها لهذا التصرف ، على حين استاء « ابن السعود » لما وقع من حسين وبادر بالهجوم عليه ...

وهكذا راح مركز الشريف حسين يزداد سوءا يوما فيوما ، وهرع الى بريطانيا مستنجدا مستغيثا ، وناشد المارشال اللنبى ليمده بالأسلحة والاموال التى تمكنه من مواجهة زحف جيش ابن السعود ، غير أن بريطانيا لم تفزع الى نجدته على الصورة التى كان يتوقعها ، ذلك ، لان الســـياسة البريطانية كانت قد استنفدت أغراضها كلهـــا من تســـخير « الشريف حسين » ولم تعد فى حاجة الى خدماته التى كانت تكلف خزانة بريطانيا سنويا مائة وستين الفا من الجنيهات ، وعلى الرغم من انتفاء حاجة السياسة البريطانية لخدمات حسين ، تمكن من اقناع ابن السعود بوقف زحفه عند الحد الذى بلغه والعدول عن القتال ، دون التراجع الى نجد أو التفريط فيما استولى عليه من أراضى الحجاز .

***

على هذه الصورة كانت حال الشريف حسين عندما قابل الكولونيل فيكرى (Vickery) رئيس المكتب البريطانى فى جدة وطالبه بالمعونة .

وقد سجل الجنرال بريموند فى مذكراته ما دار فى هذه المقابلة فأثبت فى المذكرات أن حسينا والأمراء حضروا ليطالبوا بمزيد من المعونة، وانهم توسلوا ••• وانهم استنجدوا ، ثم هددوا ـ وان الشريف حسينا قال انه لا سبيل امامه ازاء الظروف التى تفرضها عليه بريطانيا ، الا النزول عن العرش • فقابل الكولونيل « فيكرى » هذا التهديد بترحيب عملى وقدم ورقة وقلما للشريف حسين وطلب اليه التوقيع على وثيقة النزول وتحديد المكان الذى يبتغى الاستقرار فيه •••

ويعلق الجنرال بريموند تعليقا لاذع السخرية ، على هذا الموقف بالذات فيقول : ما أبعد الفرق بين هذا اليوم وبين اليوم الذى خولت فيه بريطانيا سير هنرى مكماهون أن يعرض على حسين كل ما يرضيه •• ان يعرض عليه حتى بغداد لو أصر حسين على طلبها •• !

***

والحق ان الفارق كان كبيرا ، والعبرة فى موقف الغرب من الشريف حسين ، كانت اليمة وجديرة بأن يذكرها كل عربى كلما ذكرت أمامه علاقة الغرب بالشرق فماأكثر ما حنى الغرب رأسه أمام الشرق ! وماأكثر ما بذل للعرب من الوعود والعهود كلما كان فى حاجة لمعونة الشرق وتأييد العرب ! وما اكثر ما تنكر الغرب للشرق وبادره بالجحود كلما انتفت حاجته لذلك العون وهذا التأييد !

***

ان بريطانيا ، وقد نفضت يدها من الشريف حسين ولم تعد بعد فى حاجة لاستخدامه اعتمدت فى التخلص منه على تفاعل الاحداث وراحت تغذى هذه الاحداث فى شبه الجزيرة العربية وتترك « حسينا » نهبا لها، وهدفا لمختلف الظروف القاسية ، فلم تمد « حسينا » فى محنته بالعون العسكرى الذى كان ممكنا أن ينقذه ، وانما اكتفت بمده ، بما لم ينفعه وقصرت عونها له ، على النياشين ، التى أطفأت الاحداث بريقها ••

أما المال فقد ذهب الى خزائن أمراء البيت الهاشمى والى جيوب الشيوخ الذين مابرحوا ان انضموا الى ابن السعود ••وهكذا انتهى الشريف

حسين الى مصير ادنى الى التشريد ، وبنهاية حسين انتهت سيرة الهاشميين من الحجاز ..

***

ومما هو جدير بالذكر ان الكابتن فيلبى (Philby) رسول الحكومة البريطانية لدى ابن السعود كان يقوم بمهمته هذه تنفيذا لنصوص المعاهدة التى عقدها ابن السعود مع الحكومة البريطانية عام ١٩١٦ ..

تلك المعاهدة التى التزم فيها ابن السعود ما يأتى : ـ

(١) أن يعين حال حياته خلفه بشرط ألا يكون خصما للحكومة البريطانية .

(٢) ألا يعقد اتفاقا أو معاهدة والا يفاوض دولة من الدول الاجنبية .

(٣) ان يعاهد على اشعار الحكومة البريطانية بكل محاولة تعمداليها دولة أجنبية للتدخل فى شئون بلاده .

(٤) يعاهد ابن السعود على عدم تخليه عن شىء من بلاده أو عن تسليمه اياه لغيره أو عن رهنه أو عن تأجيره لأية دولة كانت أو لأى كان من رعايا أية دولة كانت من الدول الاجنبية بغير رضا الحكومة البريطانية وأن يقبل ما عنده من المشورات بلا قيد ولا شرط وفى مقابل هذه الالتزامات التى قيد بها ابن السعود سيادته وسلطاته أجرت الحكومة البريطانية عليه راتبا شهريا قدره عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ظل يتقاضاه حتى تم له غزو الحجاز وسكتت الحكومة البريطانية عن ادعاءاته حول امارات الخليج الفارسى وهى الادعاءات التى خدمت المصالح البريطانية وقضية الحلفاء لان ابن السعود قام وقتئذ بابعاد النفوذ التركى عنها وحال دون غزو ابن الرشيد لها .

ويقول المؤرخ « أوجين يونغ » (Eugene Yung) فى مؤلفه الاسلام وآسيا أمام المطامع الاوروبية : « انه كان من شأن هذه المعاهدة اطلاق بريطانيا فى معالجة الشئون العربية » .

ونستطيع أن نقول انه كان لاطمئنان بريطانيا لولاء ابن السعود أثره البالغ فى تجاهل الغرب وتنكره لقضايا العرب ...

الفصل السادس والعشرون

فلسطين والانتداب البريطاني

« مؤتمر الصلح يرى تعرف رغبات السكان ـ لجنة «كنج كرين» تدرس المشكلة »
« الفلسطينية وتصدر قرارات تعارض اهداف الصهيونية ـ الغرب يهمل تقرير »
« اللجنة ـ «وايزمان» يستغل أطماع زعماء العرب ليخدم الصهيونية ـ قادة العرب »
« والتسوية التى أجرتها بريطانيا ـ مؤازرة حزب العمال البريطانى للقضية »
« الصهيونية ـ الغرب يعهد الى بريطانيا بالانتداب ـ الامير فيصل يؤيد الانتداب »
« البريطانى ويؤيد تسرب الصهيونيين الى فلسطين ويسخر وكالته عن العرب فى »
« خدمة السياسة البريطانية الصهيونية ـ عصبة الأمم تقر الانتداب البريطانى بعد »
« ان أعدت نصوصه واقرته لجنة شكلتها المنظمة الصهيونية الدولية ـ وثيقة الانتداب »
« تؤكد «وعد بلفور» وتعترف بقيام الوكالة اليهودية كسلطة رسمية وتهيىء فلسطين »
« لانشاء مأوى قومى لليهود ـ ملك بريطانيا يؤيد سياسة حكومته فى خدمة الصهيونية »
« على حساب العرب أصحاب البلاد الذين أصبحوا رسميا «طوائف غير يهودية» »
« تصريح لويد جورج ـ بريطانيا تنظم مع الصهيونية الدولية ادارة فلسطين ـ هربرت »
« صمويل «صهيونى امين» ! ـ المندوب السامى البريطانى يعمل على تمكين اليهود من »
« فلسطين بتشجيع الهجرة وسلب العرب ما يمتلكون ـ الغرب ينقض مواثيقه وعهوده »
« للعرب ولا يحسب لوجودهم حسابا ـ بريطانيا تمضى فى التمهيد لانشاء دولة »
« صهيونية ولم يبق للعرب الا الكفاح . »

***

رأى مؤتمر الصلح ما سينشأ عن المشكلة الفلسطينية من ارتباكات وتعقيدات قد تهدد السلم فى الشرق فأرجأ البت فى مصيرها وفى مصير سورية ولبنان قبل الاستماع الى رغبات سكان هذه البلاد ، وقد تولت اللجنة التى تم تأليفها استجابة لرغبة الرئيس « ولسن » وبقرار من مؤتمر الصلح ، ، والتى أشرنا الى نشاطها فى سورية ولبنان والتى عرفت باسم لجنة كنج كرين (King Crane) تولت هذه اللجنة دراسة المشكلة الفلسطينية ... وقد سجل تقريرها فيما يتعلق بقضية فلسطين الحقائق التالية : ـ

أولا ـ أن تطبيق تصريح « بلفور » وانشاء « موطن قومى » لليهود

وفقا لمفهومية الصهيونيين يتعارض ـ تماما ـ مع التحفظات التى تضمنها التصريح فيما يتعلق بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود •

ثانيا ـ سجلت اللجنة اصرار اليهود القاطع الواضح على نيتهم وعزمهم على تجريد السكان غير اليهود فى فلسطين من أملاكهم •

ثالثا ـ اذا كان للمبادىء التى أعلنها الرئيس « ولسن » قيمتها ، واذا كان من حق الشعوب فعلا تقـرير مصيرها ، فلا يمكن أن يسمح للصهيونية بالتسلل الى فلسطين لأن ٩٠ ٪ من سكان فلسطين أى مجموع غير اليهود من السكان مجمعون ومصرون على طرد الصهيونيين ، وتأسيسا على هذه الاعتبارات المختلفة بالاضـافة الى العوامل الاخرى الناشئة من الوضع السياسى فى البلاد المتاخمة رأت اللجنة أن تسجل فى تقريرها على الرغم من مشاركتها العاطفية لليهود فى قضيتهم ـ أن توصى بالحد من برنامج الحركة الصهيونية ولا سيما الهجرة الى فلسطين والعدول بصفة نهائية عن مطالب الصهيونيين بانشاء دولة يهودية فى فلسطين ••• كما أوصت اللجنة بألا يعترض على مطالبة ابناء فلسطين بضم بلادهم الى سورية فى حدود سياسية ••

وبالرغم من الجهد ، ومن العمل المضنى الذى قامت به هذه اللجنة فان التقرير الذى تقدمت به لقى الاعراض بسبب توصياته المتعارضة مع أهداف الصهيونية •• وتجنيب سلطات الحلفاء ـ اذ ذاك ـ اذاعـة هذا التقرير ونشره •

***

وهكذا كان الحلفاء الغربيون وعلى رأسهم بريطانيا والولايات المتحدة الامـريكية وفرنسا ، على علم تام بقضيـة فلسطين ، وبأطمـاع ونوايا الصهيونية فيها ••

كان لزاما على بريطانيا أن تمهد للتخلص من اتفاقاتها المعقودة بينها وبين العرب فى الوثائق المتبادلة بين السير هنرى مكماهون والشريف حسين •••

ولقد استغل الدكتور وايزمان اطماع زعماء العرب واستغل تلهفهم على تحقيق مآربهم وحرصهم على ذلك كله ليخدم الصهيونية ..

وعلى هذه الصورة ، قضى على الامة العربية أن تخضع لمصير قادة منها تصدروا للدفاع عن قضيتها وحملوا هذه الامانة دون أن يكونوا على تبصر بالأمور أو تقدير للنتائج ودون أن يكون همهم منصرفا لغير مصالحهم الشخصية ، وبمصيرهم كحكام ، كان همهم محصورا فيما يمكن أن يتاح لهم من المنافع الشخصية .. وذلك كان وضع العرب فى أثناء انعقاد مؤتمر الصلح ..

ولقد نجح الدكتور وايزمان فى استمالة زعماء العرب الى قبول التسوية التى أجرتها بريطانيا فى فلسطين وفى سائر أنحاء الشرق العربى، ومن أجل هذا لم يكن بالغريب أن يقف المستر جورج (Lloyd George) فى مجلس العموم البريطانى فى ١٨ من مارس سنة ١٩٢٠ ويعلن أنه من المتعين أن يتولى حكومة العراق عربى ..

وهكذا بدأت وعود الدكتور وايزمان تتحقق .. بدأت بريطانيا فى تنفيذ سياستها فى ارضاء حكام العرب على حساب قضايا الشعوب العربية .. أما الثمن الذى أداه العرب لارضاء حكامهم فان فى مؤتمر سان ريمو ما يشير اليه ..

لقد اجتمع الحلفاء فى مؤتمر سان ريمو .. ليقرروا - أصلا - مصير البلاد التى كانت تابعة للدولة العثمانية ومن بينها فلسطين ، وكانت الصهيونية العالمية ، قد أعدت - سلفا - الحل المفروض على المؤتمر لهذه القضية ، ولكنها كانت فى حاجة الى التمهيد كى يتقبل الرأى العام العالمى هذا الحل ... فأوعز الصهيونيون الى زعماء حزب العمال البريطانى ليثيروا القضية الصهيونية فى مجلس العموم فتقدم الحزب بمشروع قرار يؤيد وعد بلفور ويطالب بريطانيا بأن تحتل فلسطين بموجب انتداب يفرض عليها يكون الغرض منه انشاء موطن قومى للشعب اليهودى تعاونه وتسانده

بريطانيا ، وهكذا حـــدد حزب العمـــال البريطاني موقفه من مؤازرة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٢٠ ثم واصل هذه المؤازرة •

ولقد أصدر مؤتمر « سان ريمو » قراره في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٠ وعهد الى بريطانيا بالانتداب على فلسطين دون أن يحدد المؤتمر شروطا للانتداب ، بل أكثر من هذا لم يكن تم توقيع معاهدة صلح وقتئذ بين الحلفاء وتركيا كي يحدد فيها مصير فلسطين •

عملت بريطانيا على أن يوكل اليهـــا الانتداب على فلسطين وأقامت هذا الاتجاه على الاعتبارات التي أوضحها « لويد جورج » في مذكرته التي تقول « ان الحرب قد أثبتت أن فلسطين هي الحاجز الاستراتيجي الحقيقي لمصر ، وأن وجود دولة أجنبية في فلسطين من شأنه أن يؤثر تأثيرا خطيرا على مركز بريطانيا في قناة السويس وفي البلاد العربية المتاخمة •• ومما شجع بريطانيا على هذا المسعى زعمها بانهـــا تلقى تأييدا من العرب ومن اليهود على السواء •

ويقول لويد جورج تعزيزا لمسعى بريطانيا : « ان الامير فيصل قد أبدى وجهة نظره في هذا الشأن فأكد أنه اذا منحت بريطانيـــــا العظمى الانتداب فانه على استعداد لتأييد تسرب الصهيونيين بالحـد المعقول الى فلسطين •• »

ثم أضاف لويد جورج « ان الأمير فيصـــــل قال : انه اذا أبعدت بريطانيا عن الانتداب على فلسطين وعهـد به الى دول اخرى ، فان فيصل سينقلب على الحلفاء ويؤيد عرب فلسطين في مطالبهم بكل الوسائل التي يملكها •• »

وهذا يوضح تماما أسلوب الامير فيصل في معالجة قضايا العرب ، ذلك الاسلوب الذى يقطع بأن (فيصل) ، لم يكن أولا ، وأخيرا الا خادما لبريطانيا •

وقد زاد موقف الامـير فيصل وضوحا حينما وقف أمام المجلس الأعلى للحلفاء في ٦ من فبراير سنة ١٩١٩ ليعلن انه نظرا للطابـع العام لفلسطين ، فانه يرى أن يتركهـــا جانبا بســـبب الاعتبارات التي تهم الأطراف ذات المصلحة ، ولم يصر في موقفه الا على استقلال البـلاد التي اوضحها في مذكرته ، والتي لم تكن فلسطين من بينها •

***

ونتيجة للمناورات التي قامت بها بريطانيا وشاركها فيها الامير فيصل تمكنت بريطانيا من الانفراد بالانتداب على فلسطين •

وفى ٢٤ من يونيو سنة ١٩٢٤ أقرت عصابة الامم نص الانتداب واعترفت بانفراد بريطانيا بها •• وقد كانت وثيقة الانتداب بالغة الخطورة على مستقبل فلسطين وعلى جميع البلاد العربية فى الشرق ••• واذا كانت قد دبرت لانتدابها هذا ، فان وثيقة الانتداب ذاتها ـ باعتراف الصهاينة أنفسهم قد أعدها فرانك فورتر وجانس (Frank Furter et Gans) وراجعتها لجنة خاصة عرفت اذ ذاك بلجنة الانتدابات الفرعية التى شكلتها المنظمة الصهيونية الدولية • وقد عرض هذا المشروع على الحكومة البريطانية عن طريق رئيسها المستر « لويد جورج » الذى تبنى النص المقترح من الصهيونيين بعد ادخال بعض التعديلات اليسيرة عليه ، وخلافا لكل المبادىء المعترف بها ، تضمنت وثيقة الانتداب فى مقدمتها وفى نصوصها ما يؤيد ويقرر انشاء مأوى قومى لليهود وأدمجت فى صلبها نص وعد بلفور الصادر فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، واعترفت بقيام الوكالة اليهودية وسلمت لها بطابع قانونى لتمثيل اليهود ••

وورد فى المادة الثانية من الوثيقة مايأتى : ـ

« لما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت أيضا على أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذ التصريح الذى أصدرته ـ أصلا ـ حكومة صاحب الجلالة البريطانية •• وجاء فى الوثيقة : « بأنه لما كان قد اعترف بذلك بالصلة التاريخيـــة التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين وبالاسباب التى تبعث على اعادة انشاء مأوى قومى لهم فى تلك البلاد » ••

وورد فى المادة الثانية من الوثقية ما يأتى : ـ

« تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال اقتصادية وسياسية وادارية تضمن انشاء المأوى القومى اليهودى وفقا لما جاء بيانه فى ديباجة هذا الصك •

وجاء فى المادة الرابعة : « يعترف بوكالة يهودية مناسبة كهيئة عامة لابداء المشورة لادارة فلسطين والتعـاون معهـــا فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المسائل التى تتصل بانشاء المأوى القومى لليهود

والتى تتأثر بها مصالح السكان اليهود فى فلسطين ولكى تساعد هذه الوكالة فى ترقية البلاد وعلى أن تكون جهودها خاضعة، دائما لمراقبة الادارة .

كما تضمنت هذه المادة النص التالى :ـ

« يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة مناسبة ما دامت الدولة المتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض .. »

« وللجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يرغبون فى المساعدة لانشاء المأوى القومى اليهودى، كما جاء فى المادة السابعة نص يلزم الدولة المتدبة تيسير السـبل لمن يريدون التجنس بالجنسية الفلسطينية من اليهود الذين يتخذون فلسطين محلا لاقامتهم . »

***

هذه النصوص التى تضمنتها وثيقة الانتـداب والتى حددت مصير فلسطين بحيث تقع على مر الزمن تحت السيطرة الصهيونية، هذه النصوص وما اليها من محاولات انما اعدت وتمت بمساعدة وتأييد بريطانيا العظمى، التى كان ملكها قد بعث برسالة الى شعب فلسطين فى ٧ من يوليو سـنة ١٩٢٠، عندما عهد الى بريطانيا بالانتداب قال فيها : ـ

« لا يخفى عليكم أن الدول المتحالفة والمشتركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس مأوى قومى لليهود تدريجيا ـ فى فلسطين .. وعلى أن هذه التدابير لن تؤثر قطعا على حقـوق الاهالى الدينية والمدنية ومن تعطل حركة الرقى المرجوة لجميع طبقات الشعب الفلسطينى »

أما المستر لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية ـ اذ ذاك ـ فقد أعلن « أنه ليس من أهـداف حكومة بريطانيا، الاسراع بانشـاء دولة يهودية عقب مؤتمر الصلح مباشرة، اذ أنه لابد لذلك ـ من أن تأخذ بريطانيا فى اعتبارها عامل الاغلبية فى جنس سكانها .. غير أن الحكومة تأمل لكى يتحقق انشاء هذه الدولة أن يتمكن اليهـود وأن يعملوا عـلى استغلال تلك الصيغة التى وضعت بالنسبة لانشاء الموطن القومى استغلالا

يكون من شأنه أن يؤلفوا منهم الغالبية العددية فى فلسطين ، وعندئذ ، فلن يقف فى سبيلهم أية عقبة ، لانشاء دولة يهودية تكون جزءا من الكومنولث البريطانى فى فلسطين ... »

كذلك أعلن المستر تشرشل فى ٢٢ من يونيو سنة ١٩٢٢ « ان وجود اليهود فى فلسطين مستمد من حق مشروع لهم ، وأن من حقهم أن يؤذن لهم بتطوير منشآتهم مستعينين فى ذلك ، بخدمات ومجهودات ومعونات سائر اليهود المشتتين فى أنحاء العالم جميعه ، لانه ما دام هذا المأوى القومى اليهودى قد وجد فان من حقه أن يحاط بالضمانات الدولية التى تكفل له البقاء لان حق اليهود فى فلسطين يقوم على روابط تاريخية تربطهم بها

تلك هى تصريحات ساسة بريطانيا عند اقرار انتدابها على فلسطين بريطانيا التى استماتت لتجعل للصهيونية دولة فى قلب الشرق .

***

وقد بادرت بريطانيا العظمى بالتشاور مع المنظمة الصهيونية العالمية التى يرأسها الدكتور وايزمان بالاتفاق على نوع الادارة المراد انشاؤها فى فلسطين ، وقد اوصى الدكتور وايزمان وطلب من الحكومة البريطانية تعيين السير « هربرت صمويل » الذى قام بدور بارز فى المفاوضات التى انتهت باصدار تصريح بلفور ليكون أول مندوب سام لبريطانيا فى فلسطين، وكان لهذا التعيين صدى بعيد « فى نفوس اليهود كافة ... فهللوا له ، ونادوا بانتصار الصهيونية واعلن الدكتور « وايزمان » اذ ذاك – ان السير « هربرت صمويل » هو صديق الصهيونيين ، وانه قبل هذا المركز السامى بناء على طلبهم .. وقال : « اننا وضعنا هربرت صمويل فى هذا المركز » وانه « صمويلنا » ..

وقد اعترفت الحكومة البريطانية آنئذ بميول المنـــــدوب السامى الصهيونى « ولكنها وصفته بانه صهيونى أمين » ..

ولقد اعترف هربرت صمويل الوزير السابق ، بهذه الوقائع وفصلها فى مذكراته ، واضاف هربرت أنه أبدى استعداده صراحة لمستر لويد

جورج رئيس الوزارة فى ٢٤ من ابريل سنة ١٩٢٠ ، لقبول أية وظيفة فى فلسطين ليتمكن من القيام بواجبه ، كما أكد لرئيس الوزراء ايمانه بالقضية الصهيونية واستعداده للتضحية فى هذا السبيل ..

ثم يكشف هربرت صمويل فى مذاكراته ، عن مشكلة حساسة كان علاجها يبعث على التردد فى سياسة الوزارات البريطانية ، وهى المشكلة الخاصة بتعيين حاكم يهودى على فلسطين ، وباحتمال ان سكان فلسطين من غير اليهود يقبلون مثل هذا الوضع .. ونجد فى المذكرات ان رئيس الوزراء قد عهد بمناقشة هذه المشكلة وفحصها وتحديد آثارها الى السير هربرت صمويل ووايزمان وسوكولف ، ثم يقول هربرت صمويل فى سطورها : انه بعد التشاور مع زعماء الحركة الصهيونية بعث برسالة الى رئيس وزراء بريطانيا فى اليوم التالى قال فيها : –

«انه يرى أن من واجبه قبول المنصب وتحمل مسئولية حكم فلسطين وانه على ثقة من قدرته على تذليل كل الصعوبات التى تكون نتيجة لتولى يهودى حكم فلسطين ، وذلك لأنه يقدر قيمة الحذر وضرورته فى تنفيذ البرنامج الصهيونى بحيث لا يثير التأنى والتريث فى تنفيذ هذا البرنامج المخاوف والعداء فى أوساط « المسيحيين » العرب فى فلسطين وفى الوقت نفسه يرى ان تحمله مسئولية الحكم فى فلسطين من شأنه أن يحمل الصهيونية العالمية على الصبر والتأنى فى تنفيذ مطالبها نظرا لثقتها واطمئنانها على مستقبل قضيتها طالما كان الامين عليها حاكما يهوديا يعطف على قضية الصهيونية عطفا كليا وهو لهذا ، يفضل أى حاكم آخر» .

وبالرغم من الحجج التى أبداها هربرت صمويل فى هذه الرسالة ، فان لورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا لم يقنع بما جاء فيها تمام الاقتناع ولا سيما بعد ان وقع صدام دموى بين اليهود والعرب فى عيد الفصح ، لذلك فان وزير الخارجية عاود الحديث فى هذا الشأن مع هربرت صمويل ، وابدى له مخاوفه من مغبة تعيين حاكم يهودى على فلسطين .

ويقول هربرت صمويل ، فى مذكراته : انه بعد التشاور مع ممثلى اليهود أكد لوزير الخارجية أنه واليهود قادرون على مواجهة مختلف الاحتمالات فى الموقف فضلا عن استعداده لتحمل المسئوليات كافة ..

وقد تحركت الصهيونية العالمية ، وبادرت الى العمل فسعت لاقرار

تعيين السير هربرت صمويل ، وتم لها ما أرادت فعين مندوبا ساميـــا على فلسطين ومنح لقب سير •

***

ولقد كان أول عمل ايجابى قام به سير هربرت صمويل فى فلسطين بعد ان تولى شئون الانتداب فيهـا ، هـــو تعيين المستر نورمان بنتويتش (N. Bentwich) اليهودى ، مدعيا عاما فى الحكومة الفلسطينية ومسئولا عن التشريعات كافة فيها ، وبذلك تمكن الاثنان ، المندوب السامى والمدعى العام ، من تنفيذ السياسة البريطانية فى فلسطين التى يتلخص هدفها فى تمكين اليهود من العمل على زيادة عددهم بحيث يربو على عدد العرب ، وذلك عن طريق تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين وسلب العــرب ما يمتلكون من أرض فيها ، وذلك بالتعاون مع الافراد اليهود وتمكينهم - بكل الوسائل - من شراء ما تحت يد العرب من اراض والعمل على افقار العرب وذلك بحرمانهم من كل ما يباح لليهود فى ميادين النشاط التجارى والمالى ، ووقف جميع الاحتكارات فى هذا الصدد على اليهود وحدهم •

***

وبينما كان هربرت‌صمويل يعمل على تنفيذ هذه السياسة ، كان فى الوقت نفسه شديد الحرص على مخادعة العرب والتغرير بهم ، فاستغل رسالة ملك بريطانيا وطبعها بأحرف ماء الذهب ، واتخذ منها أدلة لاقناع العرب ، والمسيحين - وكان هؤلاء ، طائفة بذاتها أجنبية عن العرب - بالاطمئنان على قضيتهم ورعايته لها ، وامعانا منه فى مخادعة ابناء فلسطين أعلن قيام مجلس استشارى يضم عربها و «مسيحييها» واليهود ويختص هذا المجلس باسداء المشورة للمندوب السامى فى كل قـــرار هام يتخذ فى مستقبل فلسطين ، وطالب العرب و « المسيحيين » بأن يتناسوا أخطاء الماضى ، وتدليلا على حسن نيته بالنسبة للعرب ، أصـــدر صمويل عفوا عاما عن المسجونين فى القضايا السياسية كما عمل على توثيق صلاته بالزعمـــاء والشيوخ وأمعن فى دعوة العرب واليهود الى اجتماعات مشتركة متوالية

•• واستنادا الى ذلك كله ، بادر بابلاغ وزارة الخارجية البريطانية ما حققه من نجاح ونتائج تبشر بنجاح السياسة البريطانية فى فلسطين •

ولما كان صمويل يعلم أن للملك رأيا خاصا فى الحل الذى رأته الوزارة البريطانية لمشكلة فلسطين ، فان صمويل حرص على أن يبلغ ملك بريطانيا نص الرسالة التى أبلغ الحكومة البريطانية اياها •• غير ان الملك على الرغم من ذلك بعث فى رده على هذه الرسالة ما يشير الى التزامه رأيه ، فقد تلقى صمويل من القصر الملكى الرد الذى يعرب فيه الملك عن أمله فى ألا يكون السلم الذى يتحدث عنه هربرت صمويل ، هو الهدوء الذى يسبق العاصفة ••

***

وفى سبيل تضليل العرب وقف سير هربرت صمويل يتحدث عن الصهيونية وتصريح بلفور ، فقال : « ان اليهود كشعب مشتتون فى جميع أنحاء العالم ، ولكن قلوبهم تتجه دائما الى فلسطين ، ويتعين علينا أن نهيء للبعض منهم مأوى فى هذه البلاد ، فى الحدود التى تسمح بها حالة البلد مع مراعاة عدد ومصالح السكان الحاليين واحلال هؤلاء اليهود ، للافادة من معاونتهم وجهودهم وخبرتهم ومواردهم من أجل تطوير البلاد لمصلحة أهلها ••

ولكن الحركة الصهيونية العالمية بادرت بايضاح موقفها من فلسطين فى التو ، فأعلنت فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد وقتئذ فى لاهاى ، ان هدف الصهيونية هو اقامة دولة يهـودية فى فلسطين وليس هدفها اقامة مأوى قومى لليهود فيها •

وبالرغم من وضوح نوايا الصهيونية العالمية فى هذه الصورة العلنية المباشرة فان زعماء العرب أصروا على تجاهل أهدافها ونواياها ، اذ ذاك ، ويصف سير رونالد ستورز ، حاكم القدس وقتئذ موقف العرب ، فى مؤلفه « شرقيات » فيقول :

« مثل العرب أمام تيار الحركة الصهيونية المنظمة المنسقة القـائمة على أسس علمية والتى تشرف فى الوقت نفسه على وسـائل الاعـلام والدعاية فى قارتين مثل الدراويش أمام مدافع لورد كتشنر حينما كانت

تحصدهم حصـــدا فى أم درمان .. ولن يكون العرب أكثر حظـــا من الدراويش ! » ..

ثم يمضى سيررونالد ستورز فيقول : « ان قضية العرب كانت فى أيد غير خبـــيرة يناصرها هواة .. وذلك على عكس ما كانت عليه قضية الصهيونية .

***

هكذا كان موقف الغرب ـ ولا سيما بريطانيا ـ من المشكلة الفلسطينية التى خلقتها دول الغرب ، واضطلعت بريطانيا بالعبء الكبير فيها لتخدم الصهاينة على حساب العرب ، لم تقف بريطانيا ، فى هذا السبيل ـ بأى عهد قطعته على نفسها للعرب ولم تخل بأى عهـــد قطعته لليهود ، برت بمواثيقها للصهيونية ، بقدر ما نقضت عهودها ومواثيقها للعرب .. وفى حمـــاية بريطانيا وتحت بصر الانتداب البريطانى ، راحت الصهيونية الغربية عن فلسطين تتسلل الى هذا البلد العربى لتفرض نفسها عليه ، وتؤيدها وتدعمها الحراب البريطانية وتعترف بها عصـــبة الأمم وترعاها وتبارك وجودها كهيئة رسمية وتسمح لها بانشاء مأوى قومى فى بلد لايملكه غير أصحابه من العرب مسلمين ومسيحيين ... وتجاهل الغـــرب وجود عرب فلسطين كأن لم يكونوا شيئا مذكورا ـ بل تجاهلت بريطانيا دولة فلسطين ذاتها واحتجبت وراء الصهيونية التى كانت هى كل شىء فى نظر الغرب وفى عين عصبة الامم التى كانت تعرفهـــا فى تعابيرها « بالطوائف غير اليهودية » كأنما كان العرب لا يمثلون تسعين فى المائة من ســـكان البلاد ، كأنما كانوا أقلية سحقتها الاغلبية فلم تعد جديرة بالذكر أو جديرة بأن يحسب لوجودها حساب ...

لقد استطاعت الصهيونية بوسائلها الملتوية ، وبما اتيح لها من قوة المال ، أن تسخر دول الغرب لخدمتها على تلك الصورة المزرية بهـــذه الدول ، تلك الصورة التى تبدو أشد وضوحا فيما تضمنته وثيقة الانتداب من نصوص وصلت بها العدالة وأهدرت فيها الحقـوق وأغفلت أبســـط المبادىء القانونية .

واندفعت بريطانيا فى سبيل تنفيذ سياستها فى سرعة وفى تلون يتفق مع الوان الظروف التى تمر بها هذه السياسة ، كانت وسائلها فى فلسطين تتغير وتتبدل وفقا لمقتضيات الحال ، ولكن الذى لم يتغير قط ، هو الهدف ، هو اقامة دولة صهيونية بفلسطين •• وعلى حساب آهلها العرب •

ومن ثم فلم يكن أمام العرب من مسلمين ومسيحيين فى فلسطين الا أن يبدءوا قصة الكفاح المرير ••

الفصل السابع والعشرون
قضية سورية ولبنان

« اثر مسلك الأمير فيصل فى قضايا العرب ـ نظرة فرنسا الى الدولة العربية ـ »
« المارشال ليوتى وشركة ابناء الحسين ـ فرنسا تثبت اقدامها فى الشرق العربى منذ »
« عام ١٩١٦ لتواجه بريطانيا والعرب مستقبلا ـ فرنسا تعمل على تامين قاعدة »
« استراتيجية لها فى الشرق لحماية مصالحها ـ فرنسا تنزل العلم العربى من فوق »
« لبنان عام ١٩١٨ ـ المارشال اللنبى يأمر القوات العربية بالانسحاب من لبنان ـ »
« الغرب يعود الى تضليل العرب ، تصريح ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ـ فرنسا تمهد »
« للتصارع الطائفى ـ فرنسا والفيلق الارمنى ـ مهمة فرنسا الاولى فصل لبنان عن »
« سورية وعن العرب ـ جورج بيكو يعود الى الشرق ليتم الاجهاز على الحركة »
« العربية ـ الخطة الفرنسية لتنفيذ هذه السياسة ـ لبنان الكبير وخطر السيطرة »
« الاسلامية ـ تصريح حبيب باشا سعد رئيس المجلس الادارى للبنان ـ فرنسا واتفاقية »
« سنة ١٨٦٤ بشأن الحدود ـ كلمنصو ولبنان ـ فرنسا تكشف عن حقيقة موقفها من »
« اللبنانيين ـ ثورة اللبنانيين ـ فرنسا لا تحفل باحتجاج اللبنانيين ـ انشاء دولة »
« عربية فى سورية يعارض اهداف فرنسا ـ فرنسا تواجه المنافسة البريطانية والتسلل »
« الامريكى فى الشرق ـ اللجنة السورية المركزية ـ مؤتمر الصلح ـ الأمير فيصل »
« يطلب وصاية دولة أجنبية على الدولة العربية ـ الامير فيصل يقترح ان يكون »
« لفلسطين ولبنان وضع خاص ـ رد اللجنة المركزية السورية ـ السيد شكرى »
« غانم وفرنسا ـ مؤتمر الصلح وموقف العرب المتناقض ـ الرئيس ولسن يعمل على »
« تشكيل لجنة دولية لدراسة الأوضاع فى الشرق ـ بريطانيا وفرنسا تمتنعان عن »
« الاشتراك فى أعمال اللجنة ـ مناوراتهما لابعاد النفوذ الأمريكى ـ فرنسا تصانع »
« الأمير فيصل ـ العناصر الوطنية والأمير فيصل ـ الامير فيصل يقبل الانتداب »
« الفرنسى على سورية ولبنان ـ الامير فيصل يعاون فرنسا وبريطانيا لعرقلة أعمال »
« لجنة التحقيق الدولية ـ فرنسا تعمل على مخادعة فيصل وترى خطر بعث القومية »
« العربية ماثلا دائما أمامها . »



لقد كان لمسلك الامير فيصل فى قضية فلسطين والصهيونية أثرا « كبيرا » فى اتجاه السياسة البريطانية والفرنسية بالنسبة لقضايا العرب ، وتناول هذا التأثر تطبيق الدولتين لاتفاقيات سايكس ـ بيكو من الناحية العملية ...

لقد قضت هذه الاتفاقيات بتقسيم الشرق العربى الى منطقتين ، رمزا

لاحداهما بالحرف (أ) وللأخرى بالحرف (ب) وحددنا في هـذه الاتفاقيات وقد حملنا الشرق العربى حقوق ارتفاق لمصلحة فرنسا فى المنطقة (أ) ولبريطانيا فى المنطقة (ب) ، وكانت المنطقة (أ) تمتد شرقا الى الساحل اللبنانى وتمتد عمقا حتى تصل الى حدود البلاد الفارسية مارة بأبى كمول على الفرات لتخرج شمالا حتى جزيرة ابن عمر ثم تنتهى شرقا بالاسكندرونة فكانت تشمل سورية بأكملها والموصل وكركوك ، واذا كانت الضرورة الحربية قد قضت وقتئذ فى أثناء الحرب على فرنسا بأن تسلم بقيام دولة عربية سورية ، فان فرنسا كما قال المارشال ليوتى (Lyautey) ـ وقتئذ لم تكن لتسمح لبريطانيا العظمى بأن تتسلل الى المنطقة الفرنسية تحت ستار انشاء دولة عربية أو على حد تعبير المارشال ليوتى تتسلل الى المنطقة وراء ستار دولة يرأسها حسين شريف مكة أو انشاء اتحاد من دول عربية تتولاه ـ كما يقول ليوتى ـ شركة أبناء الحسين التابعة لبريطانيا العظمى ..

وفى هذا الصدد يستطرد المارشال ليوتى قائلا : « اذا كانت فرنسا ترى أن خلق هذه الدولة العـربية قد أملته على بريطانيا اعتبارات تتعلق بحماية مصالحها الاستعمارية فى هذه المنطقة الممتدة من قناة السويس الى الهند ، فان لفرنسا المصالح نفسها وانه ليحق لهـا التمسك بذات الحقوق »

***

ويلاحظ أن فرنسا فى الوقت الذى تجنبت فيـه الاشـتراك فى المفاوضات التى جرت بين سير هنرى مكماهون عن الحكومة البريطانية وبين حسين شريف مكة ، كما أسلفنا ـ فانها فى الوقت نفسه ـ أوفدت الى مكة بعثـة فى أغسطس سنة ١٩١٦ يرأسها سى قـدور بن قبريط (Ben Kebritt) كانت مهمة هذه البعثة سياسية فعهدت لارسال متطوعين من أبناء شمالى افريقية بأسلحتهم وذخائرهم وتموينهم لتعمل بوصفها قوات محاربة ، متعاونة مع الشريف حسين والعـرب فى الشرق كما أوفدت بعثة عسكرية تحت رياسة الكولونيل بريموند استقرت فى ميناء جـدة ..

وهكذا أرادت فرنسا أن تثبت وجودها المادى فى شبه الجزيرة العربية كى تشارك بريطانيا العظمى فى حقهـا فى الزعم مستقبلا بمعاونتها فى تحقيق أهدافها ، ولتستند فرنسا الى وضعها هذا وعند الاقتضاء فى قهر العرب ذاتهم ..

عندما عقدت فرنسا اتفاقية سايكس ـ بيكو ، كان هدفها تأمين قاعدة استراتيجية لها ترفع من شأن مكانتها العسكرية بوصفها من الدول الكبرى بين دول البحر الابيض المتوسط ، اذ كانت تستهدف بهذه القاعدة تثبيت نفوذها السياسى والاقتصادى والثقافى فى الشرق الاوسط ولا سيما حماية المصالح البترولية التى كانت تزمع اقتسامها بالشرق الاوسط مع بريطانيا العظمى .

وعلى هذه الصورة مضت فرنسا لتحقق أهدافها فى الشرق الاوسط ، دون أن تسقط من اعتبارها تلك العقبات والمشكلات التى كان لابد من أن تتعرض لها سياستها فى هذه المنطقة ، والتى كانت فرنسا تعد عدتها للتغلب عليها وتتأهب لوضع الحلول لها بأساليب أهمها سياسة الامر الواقع ، ثم المساومات السرية .

وفى سبتمبر سنة ١٩١٦ استقرت القوات العربية فى لبنان وسورية ، ولاول مرة منذ الاحتلال التركى رفرف العلم العربى من جديد على هذه الاراضى العربية ، ولكن هذا العلم لم يخفق الا لفترة قصيرة ، اذ أن فرنسا ، استنادا الى اتفاقية سايكس ـ بيكو أصرت على جلاء القـــوات العربية عن المنطقة الزرقاء التى اختصت بها بموجب هذه الاتفاقية ، وبادرت فى ١٧ من اكتوبر سنة ١٩١٨ بانزال قواتها فى مينـــاء بيروت وأنزلت العلم العربى من فوق دار الحـــكومة وفى ١٤ من أكتوبر سنة ١٩١٨ عينت فرنسا حاكما لبيروت من بين قوادها العسكريين ، فأمر المارشـــال اللنبى القائد العام للقوات المتحالفة ، القوات العربية بالانسحاب من المنطقة الزرقاء ..

وامعانا من فرنسا وبريطانيا فى تضليل العرب وعلى الرغم مماأقدمت عليه فرنسا من اخراج القوات العربية من لبنان ، أصدرت الدولتان فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ تصريحا جاء فيه ما يلى : ـ

ان الغرض الذى ترمى اليه فرنسا وبريطانيا العظمى من نهجها فى الشرق ، فى الحرب التى آثارتها أطماع ألمانيا ، هو التحرير التام النهائى للشعوب التى طال اضطهاد الترك لها ، واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر والادارة المستقلة للأهالى الوطنيين .

ولتحقيق هذه الاغراض اتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى على تشجيع اقامة الحكومات والادارات الوطنية ومساعدتها ، فى سوريا والعراق اللتين حررهما الحلفاء ، وفى الاراضى التى تعملان على تحريرها وستعترفان بها بمجرد حصول ذلك .

ولا رغبة لهما فى أن تفرضا على أهالى هذه البلاد أى نظام معين ، وانما تريدان بتأييدهما وبالمساعدة الكافية أن تكفلا حسن سير الحكومتان والادارات التى يختارها الاهالى اختيارا حرا . والسياسة التى تريدها الحكومتان المتحالفتان ، فى البلاد المحررة هى ضمان المساواة والعدل النزيه للجميع ، وتيسير التقدم الاقتصادى للبلاد بتشجيع النشاط المحلى ونشر التعليم والقضاء على الخلافات والمنازعات التى طالما انتفعت بها واستخدمتها السياسة التركية ..

وشرعت فرنسا فى تنظيم احتلالها وانشاء جيش الشرق الذى قسمته الى فيلقين ، الفيلق السورى والفيلق الارمنى ، ولكى تمهد لما اعدته من التصارع والتطاحن بين مختلف الطوائف ، أجازت فرنسا للفيلق الارمنى أن يتبع التوجيهات السياسية من اللجنة التى شكلت وعرفت وقتئذ باتحاد أرمنية الوطنى ، وكانت المهمة الاولى التى فرضتها فرنسا على نفسها هى فصل لبنان عن سورية وعن العرب أجمعين ، لانها ترى أن من أشد الضرورات لها أن تكفل لنفسها قاعدة آمنة لعملياتها تعدها لمواجهة بريطانيا العظمى ومناضلتها اياها عندما يحين الوقت لاقتصام الشرق وتوزيع الغنائم فيه بين الدولتين .

وقد عينت فرنسا المسيو جورج بيكو – الذى مثلها فى مفاوضات سايس – بيكو – سنة ١٩١٦ والتى تحدد فيها مصير الشرق ، والذى مثلها

في المفاوضات التي تمت بين الحلفاء وبين الصهيونية العالمية ، عينت فرنسا بيكو هذا ، مندوبا ساميا لها في بلاد الشرق ، بالرغم من الذكرى البغيضة لأعماله في هذه المنطقة ، وقد كان جورج بيكو قنصلا عاما لفرنسا في بيروت قبل الحرب العالمية الاولى ، وكان ـ اذ ذاك ـ على صلة دائمة بالعناصر الوطنية العربية يشجعها دائما على الوقوف ضد الاتراك ، وكان مما أخذ عليه ، هو ايقاعه وغدره ـ أخيرا ـ بهذه العناصر العربية التي كان يشجع وقوفهم ضد الاتراك ، ذلك أنه عندما غادر بيروت يوم ان دخلت تركيا الحرب ـ ترك القوائم التي كان قد أعدها بأسماء زعماء الحركة العربية ، في متناول يد الاتراك ، وعلى ضوء هذه القوائم التي تركها جورج بيكو للاتراك عمدا واختيارا ، تمكن رجال الجيش التركي ، من اعدام جميع من تمكنوا من القبض عليهم من العرب زعماء الحركة ضدهم على حسب ما وقع في أيديهم بهذه القوائم .. وكان مصرع هؤلاء العرب على يد الاتراك آخر أثر بغيض تركه « بيكو » في تلك البلاد ، يوم غادرها ، في عام ١٩١٦ .... وقد ظل هذا الاثر عالقا في نفوس العرب هناك ، الى أن عاد اليهم بيكو أخيرا ليتم رسالته التي عهدت بها اليه فرنسا للاجهاز على الحركة العربية

وقد أحاط المسيو جورج بيكو نفسه ، حيث عاد لمباشرة وظيفته من جديد بالعناصر السياسية في لبنان ، واستعان بأكفى الشخصيات الفرنسية التي تخصصت في شئون الشرق العربي ومن بينها المستشرق ماسينيون (Massignon) وقد تضافرت جهود هذه الجماعة للقضاء على أية حركة لبعث القومية العربية وللحيلولة دون وقوع التجمع الاسلامي ، في أية صورة من صور التجمع والوقوف في وجه تياره ، ومن أجل ذلك كانت خطتها ترمي الى تجنيد سائر الطوائف واعداد مختلف العناصر ، لتقف كل طائفة ضد الاخرى وليجاهد كل عنصر العنصر الآخر ، ويناصبه العداء ..

ولعل أبرز ما كانت تهدف اليه هذه الخطة ، هو فصم عرى التآلف بين المسلمين والمسيحيين بصفة عامة ، واقامة حاجز قوي وهوة عميقة واسعة بين سورية ولبنان ...

وعلى هدى من هذه السياسة أخذ جورج بيكو ، فور تقلده منصبه فى لبنان ، يشجع الاجتماعات العامة ، ويشجع ابداء التصريحات ، وتشكيل الوفود التي تؤيد فرنسا وتحبذ سياستها في نطاق تحقيق الاستقلال « للبنان الكبير » وأخذ خبراء الدعاية الفرنسية وعلى رأسهم الاستاذ « ماسنيون » **يبثون فى نفس المسيحيين ماينفرهم من السيطرة الاسلامية عليهم ومـا يجعلهم يعتقدون ان فى تلك السيطرة مهانة لهم ، وما ينفر الدرزى كذلك من سيطرة المسلم السورى وما يجعله يرى أن سيطرة مواطنه اللبنـانى المسيحى عليه تجعله فى وضع أفضل من وضعه تحت سيطرة المسـلم السورى .**

وقد أدلى وقتئذ ـ حبيب باشا سعد رئيس المجلس الادارى للبنان بحديث الى جريدة الطان الفرنسية قال فيه : أنه لا يوجد لبنانى واحد يرتضى أن تقوم أية صلة بين لبنان وبين البلاد العربية ... يعنى سورية .. وقال حبيب باشا فى تصريحه .. انه بالرغم من الحـرية التى كانت متروكة في عهد الاتراك لنا ، فان السيطرة التركية علينا لم تكن محتملة وليس من المعقول ، وقد تم لنا التحرر من تلك السيطرة التركية ، أن تسعى لاقامة روابط تخضعنا لسلطة غير لبنانية ، ولاسيما اذا كانت هـذه السلطة غير مسيحية ....

وعلى هذا المنوال من تحريك الضغينة وايجاد الفرقة أخذ « جـورج بيكو » وجماعته ينسجون خيوط دعايتهم ـ وكان همهم الأول أن يذكروا المسيحيين فى لبنان من حين لآخر بما عانوه من اضطهاد حكامهم الاتراك المسلمين ، وكيف كانوا يسومونهم الخسف والعذاب .. متجاهلين فى دعايتهم هذه ، الفارق الواسع بين المسلمين العـرب ، وبين المسلمين الاتراك الغزاة المستعمرين ، متجاهلين أن مظالم الاتراك لم تكن مقصورة على المسيحيين العرب وحدهم وانما كانت هذه المظالم موزعة على العـرب مسلمين ومسيحيين ، ولم تكن تفرق فى ضحاياها بين العربى المسلم ، والعربى المسيحى ، هذا أو ذاك كان حظه من ويلات حـكم آل عثمان متساويا ، ولم تنفرد بآثار حمق الحـكام الاتراك الطوائف المسيحية وحدها .

وقد اتجه مسيو جورج بيكو فيما اتجه اليه من أسـاليب الى اغراء اللبنانيين بالمطالبة بانشاء لبنان الكبير وأخذ يشجعهم فى هذا السبيل بشتى وسائل التشجيع ، ولم يدخر جهدا لاقناعهم بأن حدود لبنان كما كفلتهـا

اتفاقية سنة ١٨٦٤ لا تحتوى غير أفقر مناطق سوريا ... وقد كان لهذه المحاولة المطالبة بانشاء لبنان الكبير وقتئذ ، أهميتها وأثرها لان مصير سورية ــ الدولة العربية ــ لم يكن قد تقرر بعد ، وكان أمر لبنان يهم فرنسا التى رأت فى لبنان خير قاعدة لها فانصرفت رغبتها الى ضم أوسع وأخصب ما يمكن من الاراضى الى حدوده ولهذا فقد أوفد « جورج بيكو » ، وفدا الى الخارج من اللبنانيين للمطالبة بضم مناطق جديدة الى لبنان ، ليصبح « لبنان الكبير » الذى يمكن أن يتمتع باستقلاله الادارى والسياسى فى ظل رعاية فرنسا وقد رأس هذا الوفد البطريرك المارونى حايك الذى وجه اليه المسيو كليمنصو (Clémenceau) رئيس الوزارة الفرنسية فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٩١٩ الرسالة التالية : ــ

« ان المحادثات التى جرت بينكم وبين وزير الخارجية وبينى ، لتؤكد لكم أن الحلول التى نستهدفها فى مؤتمر الصلح ، ستكون محققة لآمال الجماعات التى تمثلونها ، وانه بمعاونة فرنسا وبمساعدتها لكم واستقلالكم عن أية جماعة وطنية أخرى سيشعر اللبنانيون بالطمأنينة على تقاليدهم، وعلى تطوير مؤسساتهم السياسية والادارية .. وأن فرنسا الحريصة على معاونة وتوثيق الروابط الاقتصادية بين سائر البلاد الواقعة تحت انتدابها ستأخذ فى اعتبارها ، أول ما تأخذ أن تضم الى لبنان الاراضى المنبسطة بامتدادها على طول البحر مما يكفل له الرخاء ، وذلك حينما يحين الوقت لوضع حدود لبنان .. »

***

وبينما كان المسيو كليمنصو يبذل للوفد اللبنانى فى باريس هذه الوعود ، وبعد أن اطمأنت فرنسا على هدفها من انفصال لبنان عن مجموع الامة العربية ، بادر المسيو جورج بيكو بابعاد اللبنانيين عن المناصب فى الادارة المحلية وأحل مكانهم فرنسيين لا يتوافر فيهم ما يؤهلهم لتولى شئون لبنان مما حدا بمجلس لبنان الادارى برياسة حبيب سعد باشا الى تقديم احتجاج لفرنسا على هذا التصرف ، غير أن احتجاجهم قوبل بالرفض،

كما عطلت السلطات الفرنسية صحيفة « البرق اللبنانية » لانها نشرت هذا الاحتجاج ...

ولما أدرك مجلس لبنان الادارى أن فرنسا خدعته ، رأى أن يحدد موقفه من الادارة الفرنسية فأعلن فى ١٠ من يوليو قراراته التالية :

أولا ـ المطالبة باستقلال لبنان استقلالا ناجزا شاملا .

ثانيا ـ حياده فى السياسة الخارجية بحيث لا تجره سياسته الى حرب يعلنها ، أو الى حرب تعلن عليه ، وبحيث يجنب لبنان أى تدخل عسكرى من جانب الدول المتحالفة .

ثالثا ـ استعادة لبنان للاراضى التى يطالب بها وذلك بموجب اتفاق يعقد بينه وبين سورية .

رابعا ـ جميع الشئون الاقتصادية تدرس وتقرر بمعرفة لجان يمثل فيها الجانبان اللبنانى والسورى ، ولا يبت فيها قبل أن يقرها مجلسا البرلمان السورى واللبنانى .

خامسا ـ قيام سورية ولبنان معا بالسعى لدى الدول الغربية لاقرار المطالب الاربعة السابقة فى هذه القرارات ، ولكفالة تنفيذها من جانب هذه الدول ..

***

وعلى اثر اصدار هذه القرارات ، قامت السلطات الفرنسية فى لبنان بالقبض على ثمانية من أعضاء المجلس البالغ عددهم جميعا اثنا عشر عضوا كما ألقى القبض على الكثيرين من الشخصيات السياسية البارزة فى لبنان وحوكموا جميعا أمام مجلس عسكرى قضى بنفيهم .

وقد أخذت فرنسا بعد أن تم لها اشاعة الفرقة والفتنة بين شعب لبنان نفسه ثم بين لبنان والعرب ، أخذت تعامل لبنان باعتباره بلدا محتلا ، وتجرع أهله ما يجرعه المغلوب من الغالب .

وهكذا خاب أمل انصار فرنسا بعد أن شاهدوا تنكرها لتلك المثل التى طالما خدعتهم بالتغنى بها فأذاعوا بيانا قالوا فيه : « اننا نحب فرنسا ،

ولكننا نبغض سياستها ••• أننا نكره أولئك الفرنسيين الذين يتولون ادارة شئوننا وهم الجاهلون بأمورنا ، نكره موظفيهم وعملاءهم الذين جعلونا نأسف على العهد التركي ، ونحن نرحب بمعونة فرنسا لنا ، وبأن تكفل لنا حريتنا ، نرحب بقيادتها لنا ، ولا نرحب بأن تكون سيدة علينا •• فلسنا بمستعمرة ولسنا بمحمية •• »



وهكذا مضى البيان يندد بسياسة فرنسا ، ولـكن هـذه ، لم تحفل باحتجاج انصارها عليها ••• وانصرفت بكل جهدها الى تنفيذ سياستها فى لبنان ، وتوسعت فى عملياتها العسكرية فى سورية لان اقامة حكومة عربية فى دمشق ، وانشاء دولة عربية فى سورية كان يعارض أهداف السياسة الفرنسية فى الشرق ••• ولأنه اذا لم تكن فرنسا قد تمكنت حتى ذلك الوقت من وضع يدها على سورية فما كان ذلك الا لعجزها عن تدبير القوات العسكرية الكافية لاحتلالها ، ولان المشكلة السورية كانت اذ ذاك ــ دقيقة ــ نظرا لوجود قـــوات عربية فى سورية الى جانب جيش احتلال بريطانى ، ولان القائد العام البريطانى كان هو المهيمن على شئون سورية وفلسطين والعراق •

وكانت فرنسا تدرك مدى تشابك المصالح والاوضاع الاستراتيجية والاقتصادية بين سورية ولبنان ، وأن كل قرار تتخذه ، وكل حل تفترضه، يؤثر ــ حتما ــ على مصير البلاد السياسى وفى الوقت نفسه يتناول مشكلة الحدود بين البلدين من ناحية ، وبينهما معا وبين سائر البلاد العربية من ناحية أخرى ••

وبالاضافة الى ذلك كله ، فقد كان أمام فرنسا أن تواجه منافســـة بريطانيا العظمى لها ، كما كان أمامها أن تواجه التدخل الامريكى الذى بدأ يتسلل الى شئون الشرق •

وقد كانت هذه المنافسات واضحة فى مؤتمر الصلح حينما عقد فى فرساى حيث تقدمت اللجنة السورية المركزية التى كانت ترعاها فرنســـا وتمدها بالمعونة المادية تقدمت بمذكرة الى المؤتمر تعارض فيها الحـــركة

العربية ، وتعارض القومية العربية وكل محاولة ترمي الى اقامــة دولة عربية أو اقامة اتحاد من الدول العربية أساسه وحدة الجنس واللغة ... وقالت هذه اللجنة في مذكرتها : انها لمحاولة خيالية ، تلك المحـــاولة التي تهدف الى بعث امبراطوريات قضي عليها قضاء مبرما ويجب ألا تعود أبدا ...

وطالبت هذه اللجنة باقامة سورية مستقلة على أساس وطني اقليمي وعلى أن ترعى فرنسا استقلالها وتكفله في حدود الاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٦ .

وقالت اللجنة في ختام مذكرتها : « أن سورية لتقف بجلاء ضد كل محاولة لبعث القومية العربية وتعارض بشدة كل محاولة من اجل تحقيق الاستقلال التام ، دون أن تؤيد الاستقلال وتسانده معونة ورعاية من دولة أجنبية ، اذن أن من شأن مثل هذا الاستقلال الانتهاء بســـورية الى الفوضى .

... وان سورية لتعارض تقسيم البلاد الى مناطق نفوذ تقضي على وحدتها الوطنية ، أن ســـــورية ترفض مبدأ اذابة مختلف الطوائف والجنسيات التي تنطق بالعربية في وحـــدة واحدة وجنسية واحدة ، وترفض - بشدة - تلك المبادىء التي تتخذ من الدين أساسا للوحدة » ..

***

وفي ٦ من فبراير سنة ١٩١٩ ، أوضح الامير فيصل وجهة نظره لممثلي الدول العظمى ، معتبرا نفسه الناطق باسم العرب ، فطالب بتكوين دولة ، أو اتحاد من الدول العربية يعينه العرب اذا ما رأوا ضرورة لذلك، يتولى الفصل في موضوع الحدود ، كما ينظر - عند الاقتضاء - في تكوين دول جديدة ...

كما أعلن الامير فيصل رغبته في الاستعانة بدولة من الدول العظمى المتحالفة مع العرب تتعاون معه وتسانده في حكمه لفلسطين والعراق .

وهكذا ارتضى الامير فيصل سيطرة دولة أجنبية لم يعينها وان كان يقصد بهذه الدولة بريطانيا العظمى وقبل نفـــوذها واشرافها على الدولة الجديدة ، أو الاتحاد الجديد الذي اقترح تكوينه ..

كما اقترح الامير فيصل أن يكون لفلسطين ولبنان وضعهما الخاص ونظامهما الذي ينفردان به .

***

وهكذا بدت معالم التعاون والتفاهم بين الغرب والامير فيصل تتضح •
ومما يذكر انه في نهاية يناير عـام ١٩١٩ زار السـير مارك سايكس (Mark Sykes) دمشق فلقي فيها من العناصر الوطنية أسوأ مقابلة تعبر عن استنكار هذه العناصر لمطامع الغـرب في الشرق وتدخله في شئون البلاد ، وقد كان لمظاهر الاستياء البادية اثر كبير في الدوائر الغربية ، مما حمل المسيو جورج بيكو (Georges Picot) أول مندوب سام لفرنسا في لبنان، على ارسال برقية لحكومته في ٢٥ من يناير سنة ١٩١٩ يقول فيها : ان غياب الامير فيصل عن دمشق يشجع العناصر الوطنية المتطرفة ••

وبعد ذلك بأيام زار المارشال اللنبي (Allenby) دمشق واجتمع بالمسيو جورج بيكو ، وتباحثا في الامر ، وفي سياق المداولة والبحث صرح اللورد اللنبي بأنه يعتمد في وقف حركة بعث القومية العربية ووقف التيار المعادي للغرب على الامير فيصل وامكانياته ونفوذه ••

وفي هذا يقول الجنرال بريموند (Bremond) رئيس البعثة العسكرية الفرنسـية في الشرق ، وزميل الكولونيل لورانس (Lawrence) أنه بهذا التصريح ، وضح وتحدد الدور الذي عهد الى الامـير فيصل القيام به ••

ويضيف الجنرال بريموند أن الامير فيصل كان يتقاضى من الحكومة البريطانية شهريا مائة وأربعين الف جنيه استرليني يحتفظ من هذا المبلغ بأربعين ألف جنيه لنفقاته وحاشيته والباقي لحساب قواته •

***

ولكن اللجنة المركزية السورية عارضت بلسان السيد شكري غانم المتجنس بالجنسية الفرنسية والناطق باسمها ، مطالب الامير فيصل مع التقائها واتفاقها وأغلب طلبات هـذه اللجنة ، ولم تقف اللجنة المركزية السورية عند هذه المعارضة بل انها طالبت باشراف دولة عظمى على سوريا تتولى قيادتها ، وتتعهد تربيتها وتنشئتها سياسيا واداريا وتكون بمثابة الحكم الذي يقف بين مختلف العناصر التي تتألف منها سوريا ، حتى لاتتمزق مستقبلا •

ومن العجب أن نجد انفسنا أمـــام منطق يستنكر اقامة الروابط استنادا الى الجنس والدين واللغة وفى نفس الوقت يطالب باقامة سورية الكبرى برعاية فرنسا وتشمل سوريا ولبنان والموصل • ولكن هـــذا العجب لا يلبث أن يختفي ، عندما نسمع السيد شكرى غانم يصرح أمام اللجنة التى كانت تمثل الدول العظمى فى مؤتمــــر الصلح ، قائلا بانه لا صعوبة ولا خلاف بين الســـــوريين على الدولة التى يتعين أن تتولى شئونهم ، وأن هذه الدولة هى فرنسا التى رضع السوريون ثقافتها ، والتى تجرى لغتها على ألسنتهم ، والتى طوقت عنق ســـــورية صنائعها عبر التاريخ ، والتى تربطها بها صلات الود والصداقة منذ أقدم العصور •

***

ولقد واجه مؤتمر الصلح موقفين متعارضين: أحدهما يطالب بحق العرب فى تكوين دولة أو اتحاد من الدول ترعاه وتتولى شئونه بريطانيا العظمى، والآخر يطالب بتكوين سورية الكبرى تحت رعاية وحماية وادارة فرنسا •• ورأى الرئيس ولسن وقتئذ ، الفرصة مواتية لتدخل وزارة الخارجية الامريكية فى الامر لكى تبدى أمريكا اهتمامها بشئون الشرق ، وقد بدا واضحا لبريطانيا وفرنسا أن الولايات المتحدة الامريكية ستسعى لتفيد من الخلاف القائم بين وجهتى النظر كى تتاح لها الفرصة لتحل فى الشرق محلهما •• وحيال هذا الموقف ثم الاتفاق فى مؤتمر الصلح على تشكيل لجنة دولية تدرس مختلف وجهات النظر ومختلف الرغبات بين الجماعات فى سورية ولبنان وفلسطين •

***

غير أن بريطانيا وفرنسا حسبتا لهذه اللجنة حسابها ورأتا فيها تلويحا واضحا بخطر تدخل الولايات المتحدة فى الشرق ومنافستها لهما ومحاولة لانتزاع مكانتهما فيـــه ، ولذلك أعلنتا امتناعهما عن الاشتراك فى هذه اللجنة ، وفى الوقت نفسه اتجهت سياسة فرنسا الى خداع العرب حتى تباعد بينهم وبين أمريكا فلا يرتموا فى أحضانها فأعلنت اعترافها بسلطان الامير فيصل على سورية كما عرض المسيو كلمنصو على الامـــير فيصل الاعتراف باستقلال سورية مقابل تعهد العرب بالتحالف مع فرنسا ،وأعدت الحكومة الفرنسية نصوص المعاهدة المرجوة ، وأصبحت مهيأة للتوقيع•• غير أنه حدث ، فى اللحظة التى طلب فيها الى فيصل التوقيع على المعاهدة

أن أوعز البريطانيون الى فيصل فأعلن أن الضرورة تقضى بسفره فى التو الى سورية ليهيىء الرأى العام فيها لتقبل هذه المعاهدة ، وعندئذ وضعت الحكومة الفرنسية تحت تصرف فيصل المدرعة ادجار كينية (Edgar Quinet) لنقله الى بيروت ، وأمرت بأن ترافقه فى رحلته بعثة شرف عسكرية .

وقد اعتقد المسيو كليمنصو ، أنه بهذا قد هدأ من روع العناصر الوطنية ، كما فوت على السياسة الامريكية غايتها للتدخل فى شئون الشرق ... وجدير بالذكر أن السلطات الفرنسية فى بيروت ، قد استقبلت الامير (فيصل) استقبالا عسكريا رسميا واحتفلت به الاحتفال نفسه والمراسم التى تستقبل بها الملوك .

***

غير أن العناصر الوطنية العربية كانت بالمرصاد ، ووقفت فى وجه الامير فيصل ورفضت الاعتراف باولئكم الذين يستجدون للعرب لتشملهم رعاية فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا ، وقالت هذه العناصر الوطنية : أن العرب اذا دعتهم الحاجة للاستعانة بخبرة الغرب للقيام بالاصلاح فى بلادهم ، فانهم سيدفعون فى هذا السبيل أجر المستشارين والخبراء الفنيين الغربيين الذين يعاونونهم على هذا الاصلاح ، ولكن بوصف هؤلاء موظفين عندهم لا سادة لبلادهم .

***

وكان فيصل من جانبه يحاول عقد اتفاق مع فرنسا كى يضمن ويؤمن عرشه فى سورية ، لذلك أصر وألح كى يجتمع بالمسيو جورج بيكو ، وقد تم هذا الاجتماع فى دمشق يومى ١٦ ، ١٧ من مايو سنة ١٩١٦ ، وقد عرض الأمير فيصل اعترافه بالانتداب الفرنسى على سورية ولبنان على شريطة أن تعدل فرنسا عن اتفاقية سنة ١٩١٦ ولاتتمسك بها ، وأن تنهى الادارة العسكرية وأن تتولى شئون الحكم الداخلى ادارة وطنية ولكن « جورج بيكو » أجاب عن هذا العرض بما يفيد تعذر الغاء اتفاقيات سنة ١٩١٦ ، لانها تشمل مسائل أخرى غير متصلة بسورية كما تربط بريطانيا العظمى بعهود تمس مصالح فرنسا .. الا أن « بيكو » ،

وعد الامير فيصل بدراسة التعديلات التي يقترحها الأمير فيصل ما دامت لا تتعارض مع المبادىء المقررة في الاتفاقيات ، كما أشار على فيصل أن يبذل مساعيه في هذا الشأن لدى القيادة العليا البريطانية وفي ذلك قال « بيكو » للامير فيصل ، انه هو ، يعني (فيصل) ، خير من يمكنه أن يطالبها بوساطتها الودية في هذا الشأن ..

وقد شرح الامير فيصل لجورج بيكو ، المعونة التى ينتظرها من فرنسا ، وهى تشمل المساعدة المادية ، والمدربين للقوات العسكرية والمهندسين والمستشارين في فروع الادارة كافة ... ثم تم الاتفاق بين الامير فيصل وبين « جورج بيكو » على اصدار تصريح من المندوب السامي الفرنسي يوضح موقف فرنسا فى هذا الصدد كيما يقف الامير في جبهة متحدة مع فرنسا وبريطانيا تواجه لجنة التحقيق الدولية عندما تشرع فى عملها بالشرق ...

***

وقد حاول الامير فيصل أن يستغل الظروف قبل بدء عمل لجنة التحقيق الدولية ، فطالب بأن يضم الى سورية فلسطين وفينيقيا فى جنوبى الاناضول وولاية الموصل وعلى أن تتعهد فرنسا بتأييد مطالب العرب في باقي الاراضي العراقية ، وقد وعده « بيكو » بمعونة فرنسا كيما تقوم سورية الكبرى في أوسع الحدود .... وحقيقة الامر أن «جورج بيكو» أنما كان في وعده ، هذا يخادع الامير (فيصل) ، فقد كان بيكو خير من يعرف أن فرنسا لن تقبل ـ اطلاقا ـ اقامة دولة عربية ، أو اتحاد من دول عربية يتزعمه قائد عربى ، حتى لو قبلت هذه الدولة ، أن تكون خاضعة لنظام الانتداب ... لان ذلك ـ فى رأى فرنسا ـ مما قد يترتب عليه مستقبلا ، بعث القومية العربية ، وما يمكن أن يجره عليها هذا البعث من متاعب ومخاطر فى شمالى افريقية وفي افريقية الغربية .

ان سياسة فرنسا ، اتجهت في تلك الفترة بالذات الى مخادعة العرب ، وفي الوقت نفسه اتجهت الى الحد من نشاط لجنة التحقيق الدولية التى انفردت امريكا بالعمل فيها ، وذلك لاستبعاد كل محاولة لتسرب النفوذ الامريكى الى الشرق .

الفصل الثامن والعشرون
العرب أمام اللجنة الدولية

« نجح الغرب فى التفرقة وايقاظ الفتنة واثارة النعرات المتخاصمة فى شعوب »
« الشرق ـ بعض زعماء الشرق يقدمون للجنة الدولية الدليل على الفرقة والتناحر »
« والتخاذل ـ موقف المجلس الادارى لولاية لبنان ـ موقف الطوائف المسيحية فى »
« لبنان ـ موقف الأسقف كيرلس مغبغب ـ موقف الطائفة اليونانية الارثوذكسية ـ »
« موقف المنشقين عن الطائفة اليونانية الارثوذكسية ـ موقف بعض زعماء لبنان ـ موقف »
« القاصد الرسولى والطائفة الكاثوليكية ـ موقف الطائفة البروتستانتية ـ اللجنة »
« تسجل موقف العناصر الوطنية التى تتمسك بالوحدة وبالاستقلال ـ نداء اللجنة »
« الوطنية ـ التنديد بالمنشقين الذين يعملون على خدمة الغرب ـ موقف السيد »
« شكرى غانم ـ الغرب يمضى فى التلاعب بمختلف الطوائف فى سورية ولبنان ويعمل »
« على انهاء مهمة اللجنة ... »



انتهت سياسة الغرب فى التفرقة وايقاظ الفتن واثارة النعرات المتخاصمة فى شعوب الشرق جميعا ، وبين عناصر الشعب الواحد .... انتهت هذه السياسة الى نجاح كان من شأنه أن وضع الشرق فى يد اللجنة الدولية أسوأ صورة وأقوى دليل على تخاذله ، وفرقته وتناحره .

بدأت اللجنة الدولية فى مباشرة مهمتها ، وقد تحولت بطبيعتها الى مجرد لجنة امريكية بعد أن امتنع البريطانيون والفرنسيون عن المساهمة فى اعمالها .

وقد أوعزت فرنسا الى المجلس الادارى لولاية لبنان أن ينشر فى ٢٥ من مايو سنة ١٩١٩ البلاغ التالى : ـ

« نظرا لان جبل لبنان كان على الدوام ـ مستقلا بحدوده التاريخية والجغرافية ، وأن الاراضى التى فصلت عنه انما نزعت غصبا واختلاسا ، ونظرا لزوال السلطان عن الدولة المغتصبة لتلك الاراضى ، وبما ان لبنان

لايمكن أن يعيش أو يمضى فى التطور المنشود مالم ترد اليه أراضيه المقتطعة منه ،وبما انالدول الحليفة قد أعلنت أنها ستعاون الشعوب المغلوبة على أمرها كيما تسترد حقوقها وحريتهـا ، ولأن الاراضى التى فصلت عن لبنان انما هى جزء لايتجزأ من كيانه كما أن الغالبية العظمى من سكان تلك الاراضى ينتمون الى اصل لبنـانى .... فلذلك كله ولتحقيق رغبات وأماني اللبنانيين التى مافتئوا يرددونها دائما ، قررالمجلس الادارى بوصفه ممثلا للشعب اللبنانى ما يلى : ـ

أولا ـ استقلال لبنان الادارى والسياسى فى حدوده الجغرافيـة والتاريخية ، ويعتبر أن الاراضى التى انتزعت منـه أراض لبنانية يتعين اعادتها اليه كما كانت قبل سلبها اياه .

ثانيا ـ قيام حكومة لبنانية ديمقراطية ، اساسها الحـرية والاخاء والمساواة واحترام حقوق الاقليات وحرية العبادة .

ثالثا ـ اصدار اعلان من الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسية التى تعضدها وتساندها تعلنان فيه انهما ستقرران مستقبل العلاقات الاقتصادية بين لبنان وسائر الدول المجاورة .

رابعا ـ القيام بدراسة واعداد دستور للبنان طبقا للوسائل القانونية المشروعة .

خامسا ـ أن يتقدم لبنان بهذه القرارات الى مؤتمر الصلح .

سادسا ـ نشر هذه القرارات فى الجريدة الرسمية وفى سـائر الصحف الوطنية الاخرى حتى تهدأ النفوس فى لبنان ، وليكون ذلـك بمثابة اعلان حقوق اللبنانيين .

وتقدم اتحاد الطوائف المسيحية فى لبنان ببرنامج مذيل بعشرات الالوف من التوقيعات وتضمن هذا البرنامج عرض قضية اعادة لبنان الى حدوده الطبيعية والتاريخية التى تمتد من بيروت الى سهل البقـاع ، كما تناول البرنامج المعونة والمساعدة والتعاون التى ينتظرها لبنـان من دولة أجنبية معينة ...

وقال البرنامج في هذا الصدد : ان الشعب اللبناني يشعر بحاجته الملحة الى هذه المعاونة الاجنبية ، ونظرا لان لبنان قد ارتبط منذ القدم بروابط تقليدية مع فرنسا ، فان شعب لبنان يطلب أن تكون فرنسا الدولة الحامية له والمنتدبة عليه ، ويرفض رفضا باتا معونة أية دولة أخرى ... وأن لدى الشعب اللبناني ما يبرر هذا الاختيار ، استنادا الى التاريخ والتقاليد ، وتشابه العواطف والعادات والعرف والثقافة . ان لبنان يؤمن بهذه العقيدة ، كما يعتقد ـ تماما ـ أن استقلاله سيتلاشى اذا ما عهد الى دولة أخرى غير فرنسا ، رعاية شئونه .

وأمعن البرنامج في تمسكه لنفسه ولغيره برعاية فرنسا وحمايتها ، فطالب بأن تشمل رعايتها سائر أجزاء سورية ثم عرض على اللجنة طلبا آخر قدمه الاسقف كيرلس مغبغب أسقف دجلة والبقاع الذى فوضته تلك المنطقة للدفاع عن قضية لبنان الكبير ـ استنادا الى رغبة مفوضيه ،والى المبادىء الاربعة عشر التى أعلنها الرئيس ولسن ، وقد قال الاستاذ شكرى أرقش المتحدث باسم مفوض الاسقف كيرلس مايلى معلنا عن مطالبها :

« اننا نؤيد بكل قوانا استقلال لبنان الكبير برعاية ومعونة فرنسا ، ونؤكد لكم ، انه اذا اكرهتنا الدول العظمى على الاندماج في سورية العربية فاننا سنغادر هذه البلاد غير لاوين على ممتلكاتنا ولا آسفين على عزيز لنا ..

كما تقدمت الى اللجنة الوفود المارونية برياسة الأسقف الياس مبارك اسقف بيروت ببرنامج يؤكد المطالب ذاتها ، ويصر على أن تنفرد فرنسا بحماية لبنان .

ثم تقدمت الطائفة اليونانية الارثوذكسية بتصريح جاء فيه مايلى : ـ

« نحن ممثلى الطائفة اليونانية الارثوذكسية ، احدى اتحاد الطوائف المسيحية ، نطالب باستقلال لبنان الكبير في حدوده الطبيعية والتاريخية على أن تنفرد فرنسا دون غيرها من الدول برعاية شئونه وتوجيه سياسته ، وتلك هى رغبة أبناء الطائفة الذين بعثوا بنا لنقرر رغباتهم وآمالهم ، واننا

لتعلن اللجنة بأنه اذا حدث أن تقدم أحد باسم هذه الطائفة الى اللجنة بطلبات تغاير هذه الرغبة التي شرحناها ، فانه انما يكون قد تحدث اليها باسمه الخاص ، لا باسم الطائفة التي لا يمثلها غيرنا ..

وقد كان لموقف ابناء هذه الطائفة بالذات ـ امام اللجنة ظرف خاص دعا الاعضاء الى أن يؤكدوا لاعضاء اللجنة ان الوفد وحده ـ هو صاحب الحق في التحدث والمطالبة باسم الطائفة ، وذلك لان الوفد فوجيء ببعض ابناء طائفته التي يمثلها يقف امام اللجنة ويستنكر موقف الوفد ويعارض وجهة نظره ويطالب باستبدال الفرنسيين واستبدال وضعهم في لبنان بالامريكيين ويصر على أن تكون الرعاية التي تشمل لبنان والعناية التي يستمدها ، من جانب أمريكا لا من جانب فرنسا .. وتقدم الى اللجنة ، السيد بطرس الزاهر الماروني وأمين بك حمادة الدرزي وقيصر بك معلوف الكاثوليكي، وابراهيم بك الاسود الارثوذكسي تقدموا جميعا بعريضة تحمل توقيع ٩٠ ٪ من سكان لبنان في المناطق التي بين نهر العاصي وفلسطين والجبل الابيض ، يطالبون فيها باعادة لبنان الى حدوده الطبيعية ، وبأن تنفرد فرنسا بمعاونته وبتقرير مصيره ..

وعلى العموم ، فان جميع الطوائف الكاثوليكية قد حزمت رأيها واتفقت كلمتها على أن تتولى فرنسا وحدها رعاية وحماية لبنان ، كما أيد هذه الطوائف امام اللجنة قداسة الاسقف جيامجي القاصد الرسولي والممثل للبابا في بيروت ، واعلن اقرار حق فرنسا في وضعها ، حينما يحين اقرار هذا الوضع المستقبل في سورية .

***

... اما الطوائف البروتستانية فقد تقدمت الى اللجنة مطالبة باقامة دولة سورية الموحدة مشتملة على لبنان . واقامة حكومة تضم الدول العربية في اتحاد فدرالي يشمل لبنان وترعاه الولايات المتحدة الامريكية ، اذا قبلت امريكا ذلك ، والا عهد لبريطانيا برعاية هذا الاتحاد الذي يتألف من الدول العربية في الشرق .

ولما قامت اللجنة بمهمتها في فلسطين ، أبدى أعيان البلاد ، وشدد رغبتهم في أن يتحقق لفلسطين استقلالها الكامل وان تعتبر جزءا لايتجزأ

من سورية ، ثم احتاطوا فقالوا : انه اذا ما كان توقيعهم الانتداب أمرا حتميا فاننا نرغب أن تكون الدولة المنتدبة علينا هي الولايات المتحدة الامريكية .



وهكذا مضت لجنة التحقيق الدولية في عملها ، تتلقى رغبات مختلف الجماعات والطوائف المتأثرة بشتى العوامل ، وقد سجلت هذه اللجنة في وثائقها أن أغلبية الامة العربية في سورية وفي لبنان ، وفي فلسطين تطالب بالوحدة الكاملة وبالاستقلال الناجز المطلق ، وباقامة حكومة ديمقراطية دستورية ، على أساس اللامركزية ، مع مراعاة حقوق الاقليات واحترام شعائرها الدينية غير أن هذه الاغلبية كانت تفتقر الى ما كانت تتمتع به مختلف الاقليات من امكانيات ووسائل ولا سيما استئثارها برعاية الدول العظمى لقد كانت مظاهرات هذه الاقليات وما تقدمت به من مطالب الى اللجنة سببا في ثورة وغضب العناصر الوطنية العربية ، وخاصة أولئكم الذين جاهدوا وكافحوا وضحوا بكل عزيز لديهم في سبيل قضية القومية العربية ... ولذلك بادرت هذه العناصر الوطنية باذاعة نداء على مواطنيهم قالوا فيه . .

« اننا نخاف أن تجلبوا ـ باختلافكم ـ على الامة العربية الهلاك ، انكم تضيفون الى عوامل الاضعاف التي تبعثونها في الامة ـ ذلك العامل الذي يجلب العار الابدي وهو اعترافكم للعالم أجمع بافتقاركم الى الفضيلة ، اعترافكم بأنكم لاتسعون الى تحقيق أي غرض نبيل ، اعترافكم بأنكم تقدمون مصالحكم الشخصية وشهواتكم الذاتية على الاعتبارات الوطنية ... وبأنكم تضحون بأهداف وطنكم على مذبح شهواتكم التي تؤثرونها على استقلالكم بحكم أنفسكم ..

وقد نشرت صحيفة « القبلة » في عددها رقم ١٧٦ ، بيانا تحتج فيه على ما قدم للجنة من تصريحات وبيانات ، وعلى الخلاف الواضح بين العرب ، وندد البيان بتطوع بعض الطوائف بالاعتراف بعجز السوريين عن حكم أنفسهم بأنفسهم ، وقال البيان : ان ذلك كله قذف في حق الامة العربية ...

ثم تساءل البيان : من ذا الذى يمكنه أن يقوم بتمثيل السوريين والعرب فى مؤتمر الصلح القادم .... المسيو غانم ... أم تلك اللجان السورية واللبنانية التى تعمل فى نيويورك .. ؟

... وقال البيان .... (اننا نريد أن نعرف اليوم ـ ونحن نواجه هذا الموقف ـ من ذا الذى يمكن أن يمثل العرب عندما يحين الوقت لحل قضاياهم ؟ فان الضرورة لتقضى بأن نعرف هذا الامر ، ثم خاطب البيان المسيو (شكرى غانم) وساءله ..

.... ألا تعتقد ياسيد غانم ، عندما تتحدث عن عجز العرب عن حكم أنفسهم بأنفسهم أنك تقذف فى حق الامة العربية بأسرها ؟ وماذا يمكن أن يكون أخطر من أن تتهم العرب بهذا العجز ؟ ألا تكون قد تجاهلت شرف الامة العربية وشرف الوطن العربى عندما توجه هذا الاتهام ، وتزعم هذا الزعم ؟ كان لزاما عليك ياسيد غانم ، وكان لزاما على من يؤيدونك ، أن تعرف شرف هذه الامة بدلا من أن تسىء اليها وبدلامن عملك على تحريك الفتنة بين مختلف الطوائف الدينية فيها ، اننا نطالبك بأن ترجع الى أنباء ما ارتكبه الالمان فى روسيا ، وفى بلجيكا ، لتعلم ان الدين لم يكن السبب فيما وقع من أعمال القسوة والتشريد ، ولكى تقتنع بأنه يجب عدم اقحام الدين عندما نعالج المسائل القومية .. ان ذلك سيوضح لك الطريق الصحيح حيال تلك الاتهامات الكاذبة التى تكيلها للمسلمين ، واننا كنا عربا ، قبل أن نكون مسلمين ، أو مسيحيين ، أو اسرائيليين فالدين لا يفرق بيننا ، ونحن أمام مشكلة نواجهها جميعا ، وهى مشكلة عربية صميمة ، وليست مشكلة دينية ... ولكم نرجو ، ألا تكون انت الخائن الاول للامة العربية ، وأول من وجه الطعنة الى استقلالها وحريتها ...

وهكذا مضى الغرب فى التلاعب بمختلف الطوائف فى سورية ولبنان لكى تجرى الاحداث فيها وفقا لرغبات فرنسا وبريطانيا العظمى .

وقد أرادت هاتان الدولتان أن تعجلا باثارة المتاعب والصعوبات أمام

اللجنة الدولية كيما تحولا دون التدخل الامريكي في شـــئون الشرق ، فزعمتا أن الاطالة في أعمال اللجنة من شأنه أن يخلق حالة خطـــرة قد يترتب عليها افلات الزمام من ايدي الدول الغربية فلا تعدلها السيطرة على الامر في الشرق .

واستنادا على هذا الزعم طالبت بريطانيا وفرنسا بحسم الموقف واتخاذ قرار يكون من شأنه الحيلولة دون اثارة الفتنة في الشرق ...

الفصل التاسع والعشرون
تنافس الدول الغربية على بترول الموصل

« بريطانيا وفرنسا تعملان على قطع الطريق على الولايات المتحدة الامريكية »
« وتسعيان لوضع حد تنافسهما على بترول العراق ـ «لويد جورج» و «كليمنصو» »
« يعدلان اتفاقية سايكس ـ بيكو حتى تتمكن بريطانيا من الاحتفاظ بالموصل ـ ثورة »
« الرأى العام الفرنسى لتخلى فرنسا عن بترول الموصل ـ الوزير الفرنسى «بريان» »
« يقول : لا قيمة للسيطرة الادارية مالم تملك ملكية اقتصادية ولا قيمة للانتصار مع »
« التبعية الاقتصادية ـ «الموصل» الامتداد الطبيعى «للاسكندرونة» وهى المنفذ الطبيعى »
« لبترول العراق امل المستقبل للغرب ـ فرنسا تقبل التنزول عن الموصل لبريطانيا »
« وتقبل الانتداب البريطانى على فلسطين مقابل تسليم بريطانيا بالانتداب الكامل »
« لفرنسا على سورية ومنحها ربع بترول الموصل ـ نتائج الاتفاق تخلى بريطانيا عن »
« تاييدها لعرش الامير فيصل على سورية ـ المارشال اللنبى ينذر ويؤيد فرنسا »
« ضد الحركة الوطنية فى سورية ويمهد لاجهاز فرنسا على سورية ـ بريطانيا تتقاضى »
« الثمن ـ فرنسا تبرر خضوعها لرغبات بريطانيا ـ فرنسا تقرر التخلص من «فيصل» »
« برغم خضوعه وتوجه اليه انذارا نهائيا بمطالبها ـ فرنسا تحتل سورية ـ الامير »
« «فيصل» يندفع فى الخضوع ولكن العناصر الوطنيــة تقف فى وجه فرنسا ـ الامير »
« «فيصل» يفر من دمشق ـ الجنرال «جورو» يحتل دمشق ويعلن عودة الصليبيين ـ »
« تهكم مستشار المندوب السامى الفرنسى ـ فرنسا تسيطر على سورية وتزعم انها »
« أصبحت دولة اسلامية ـ مصير الحركة الوطنية . »

وهكذا كشفت بريطانيا وفرنسا القناع عن حقيقة موقفهما من اللجنة الدولية ورغبتهما الملحة فى انهاء أعمال اللجنة على أن واقع الامر، أن المراد بهذا المطلب من جانب الدولتين هو قطع الطريق على الولايات المتحدة حتى لاينبسط لها نفوذ فى الشرق ، والوصول الى اتفاق بين فرنسا وبريطانيا يضع حدا لتنافسهما فى هذا الجزء من العالم ، وكان التنافس بين هاتين الدولتين يدور دائما حول المصالح البترولية فى العراق ، لان اتفاقية سايكس ـ بيكو المعقودة سنة ١٩١٦ وضعت هذه المصالح تحت الرقابة الفرنسية ، ومن ثم فقد كانت بريطانيا تصر دائما على حرمان فرنسا هذا الامتياز ، فالتنافس والتناحر بين الدولتين ، انما كانا فى حقيقة الامر من اجل بترول العراق لامن أجل ماقد يبدو فى ظاهره كموضع لمنافستهما

من سائر القضايا والمزايا فى الشرق ، أنه « البترول » . « بترول العراق وحده ، كان وقتئذ فى نظر فرنسا وبريطانيا كل شيء .

وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩١٩ أعلنت صحيفة الديلى تلغراف البريطانية أن ولاية الموصل التى أخذتها فرنسا فى سنة ١٩١٦ ، ستئول الى بريطانيا العظمى بمقتضى اتفاق سرى عقد فى ديسمبر سنة ١٩١٨ وفى ٧ سبتمبر سنة ١٩١٩ نشرت جريدة الطان الفرنسية ملخصا لاهم ما تضمنه الاتفاق السرى ، قالت فيه من : « ان المسيو كليمنصو (Clemenceau) والمستر « لويد جورج » قد انتهيا الى اتفاق يتناول تعديل شروط وصورة الاحتلال العسكرى لبلاد الشرق بمعرفة الجيشين الفرنسى والبريطانى ، وانه بموجب هذا الاتفاق تجلو الجيوش البريطانية فى أول من نوفمبر المقبل عن جميع الاراضى الواقعة شمالى الحدود الفاصلة بين سورية وفلسطين ، علما بأن هذه الحدود ذات طابع مؤقت وأن تخطيطها يمكن أن يعدل وقتما يتصدى مؤتمر الصلح للفصل فى المصير السياسى النهائى لبلاد المشرق ، ولا يبدو أن ولاية الموصل تدخل فى المناطق التى تقرر أن تتخلى بريطانيا العظمى عن حفظ النظام بها ... كما انه من المتفق عليه أن تخلى القوات البريطانية عن هذه المناطق لن يترتب عليه احتلالها بقوات فرنسية ... ومن هذه المناطق دمشق وحماه وحلب وحمص ، وكلها بلاد فى المنطقة «أ» التى أشارت الاتفاقيات البريطانية المعقودة فى سنة ١٩١٦ الى انشاء دولة عربية وانشاء اتحاد يضم الدول العربية فيها ، ولكن برغم هذا ، فان السلطة العربية التى ستقوم فى تلك المناطق لابد لها من أن تطلب المشورة والتعاون من الحكومة الفرنسية ، لامن الحكومة البريطانية ، وأن اعادة التوزيع الحالى للمسئوليات ولقوات الاحتلال لايؤثر بصورة ما على وجهات النظر ــ مستقبلا ــ بين الحكومتين فيما يتعلق بالأوضاع السياسية التى ستنشأ فى سورية ، ثم انها حلول لن تصبح نهائية الا اذا أقرها مؤتمر الصلح ... »

***

وقد أثار كشف هذه الحقيقة ثائرة الرأى العام الفرنسى لان نشر

اتفاقيات « سايكس ـ بيكو » وسان جان دي مورين » كان قد طمأن الفرنسيين جميعا ـ الى أن الموصل أصبحت من نصيب فرنسا ، مما جعلهم مستبشرين ومرتاحين لهذه الغنيمة التي لم يكن اذ ذاك من غنى عنها لحركة التطور الصناعي وازدهارها في فرنسا ، الى حد أن كتبت جريدة « الطان » في ذلك تقول : « ان حقول البترول في العراق لتعادل في اتساعها حقول البترول في المكسيك ، كما انها تمثل مليارات من العملة الاجنبية ، وكذلك تمثل الاستقلال البحرى والصناعي للدول التي ستتولى السيطرة على البحر الابيض المتوسط • »

ولقد وقف المسيو ارستد بريان (Aristide Briand) الوزير الفرنسي في ٢٧ من مارس سنة ١٩٢٠ خطيبا في مجلس النواب ، فقال :

« نعم الموصل ••• والموصل ، لاسباب اقتصادية لا أراكم في حاجة لابرازها ••• ولكنني في حاجه لان أسألكم أيها السادة •• هل سنمضي كساسة لنقرر سياسة فرنسا على اسس عاطفية ؟ أليس من الواجب أن نركز نظرتنا في المصالح الاقتصاديه الكبرى التي يربط بها مستقبل حياة الشعوب ؟ ••• ان العظمة لا يمكن أن تتوافر للدولة ، لمجرد أن تتحقق لها السيطرة السياسية فحسب ، على بلد ما ، وانما يتعين لكي يتسنى للدولة المسيطرة العظمة المنشودة ان تسيطر سيطرة حقيقية ملكيه اقتصادية ، والا كان كل حظها من سيطرتها الادارية وحدها ،أعباء فوق كاهلها لا اكثر •••• ألا تدركون أنه في الغد ، اذا ماتم لفرنسا الانتصار وعجزت عن حماية مصالحها في سائر أنحاء العالم ، فان مآلها بعد هذا الانتصار السقوط بسبب قصر نظرها وبسبب وقوعها ، في النطاق الاقتصادي ، وتحت التبعية لدولة أخرى ؟ ومن ثم رغم انتصارها ـ كما قلت ـ فانها ستكون في النهاية الدولة المهزومة ••• ان من حقي ومن واجبي أن أثير الوضع في المستقبل ، واذا كنا رأينا أن نمد نفوذنا الى الموصل فما ذلك الا لان الموصل يعتبر بالنسبة لنا ، الامتداد الطبيعي لمنطقة الاسكندرونة والاسكندرونة هي المنفذ الطبيعي لبترول هذه المنطقة ••• ان البترول تتمثل فيه آمال المستقبل لهذا البلد ، ولا يجوز أن نحرمها هذا الامل •••• »

ومن أجل هذا ، لم تتنزل فرنسا ولم يتنزل المسيو كليمنصو ـ دون مقابل ••• فقد دونت المحاضر الرسمية ، الاتفاق الذى تم بين فرنسا وبريطانيا العظمى فيهذا الشأن، الحديث التاليبين كل من المسيوكليمنصو واللورد لويد جورج :

يقول المسيو كليمنصو مخاطبا اللورد جـورج ••• عندما حضرت الى لندن فى الخريف الماضى طلبت اليكم أن تشرحوا لى رغبات بريطانيا العظمى فى آسيا ، وما اغراضها حتى يمكن أن نزيل اسباب سوء التفاهم بيننا ؟ فقلتم لنا انكم تريدون الموصل ، على حين أن اتفاقيات سايكس ـ بيكو جعلت هذه الولاية ضمن المناطق الفرنسية ، وقد وعدتكم عندئذ بالعمل على تسوية الامر ، وفعلا قمت بهذه التسوية برغم معارضة وزارة الخارجية الفرنسية • • »

•••• وأجاب لويد جورج فقال :

« فى لندن كان المتفق عليه أن تكون سورية لفرنسا وان تكون العراق لبريطانيا العظمى ، ثم انى طلبت اليكم ـ فعلا ـ أن تتنازلوا عن الموصـــل لبريطانيا ولقد وافقتم على ذلك •• »

وفى ٢٢ من مايو سنة ١٩١٩ قال المسيو كليمنصو : « عندما ذهبت الى لندن فى الخريف الماضى كانت هناك أوجه للخلاف بين الفرنســين والبريطانين ولا أريد أن أتحدث عنها من جديد ، وقد طالبت المســتر « لويد جورج » بايضاح موقفه النهائى فقـــال : انه يريد أن تكون ولاية الموصل ضمن المنطقة البريطانية وقد صرحت له بأننى سأفرض هذا الطلب على وزارة الخارجية الفرنسية ••

ولقد قام المسيو اندريه تارديه (André Tardieu) الوزير الفرنسى بنشر بيان فى الصحف تناول ملخص المفاوضات التىدارت حول الموصل جاء فيه مايلى :

لقد دارت المفاوضات بشأن ولاية الموصل على الوجه الآتى :

أولا ـ فى ديسمبر سنة ١٩١٨ طلب المستر لويد جورج من المسيو كليمنصو أن تئول الموصل من المنطقة العربية التى اختصت بها فرنسا الى المنطقة البريطانية وان تقبـــل فرنسا انتـــدابا على فلســـطين بدلا من الانتداب الدولى الذى اقترح فى معاهـــدة سايكس ـ بيكو وكان جواب

المسيو كليمنصو هو الموافقة من حيث المبدأ ، على هذه الطلبات بشرط أن يئول جانب من بترول الموصل الى فرنسا ، وقد كانت اتفاقية سنة ١٩١٦ التى أقرت ايلولة الموصل الى فرنسا تحرمها أى حق فى البترول كما أقرت لفرنسا الانتداب الكامل على سورية •

وفى ٨ من فبراير سنة ١٩١٦ تقدمت بريطانيا العظمى بخريطة تعدل فيها حدود الانتداب الفرنسى على سورية من الشرق ومن الجنوب ، ولما تبين المسيو كلمينصو ذلك رفض المضى فى مفاوضته مع بريطانيا العظمى ، وقد دام الحال على ذلك حتى ١٧ من يناير سنة ١٩٢٠ •

ويقول المسيو تارديو (Tardieu) فى بيانه « ان المسيو كليمنصو بعث بمذكرة فى ١٧ من مارس سنة ١٩١٦ الى المسيو لويد جورج جاء فيها •• » ان الحكومة الفرنسية لاترضى أى انتقاض يمس حقوقها فى سورية ، ولا يمكن أن تقبل اقتراحا يمثل وجهة نظر رجال وزارة المستعمرات البريطانية ••• واذا أصرت الحكومة البريطانية على مطلبها ، فان فرنسا ستصر على تنفيذ اتفاقيات سنة ١٩١٦ بحذافيرها •••• أى أن تصر على أن تئول ولاية الموصل لفرنسا بصرف النظر عن مشاركتها فى البترول ، أو عدم هذه المشاركة »

وفى الفترة ما بين ١١ و ٢٢ من مايو من السنة نفسها جرت مفاوضات طويلة بين المسيو كليمنصو والمستر لويد جورج أنهاها المسيو كليمنصو بالعبارة التالية : —

لو أوضحتم لى فى سنة ١٩١٨ عندما طلبتم منى ولاية الموصل انكم تسمعون الى اقتطاع جزء كبير من شرقى سورية ومن جنوبيها لأجبتكم بالرفض البات ، وما قبلت النزول لكم عن الموصل •••

ويخلص مسيو ترديه من هذا ، الى أنه مازال من حق فرنسا أن تحتفظ لنفسها بالموصل •

وفى ١٧ من ديسمبر سنة ١٩١٩ أرسلت فرنسا مذكرة الى بريطانيا جاء فيها : «ان فرنسا ترفض رفضا باتا مد حدود فلسطين الى الشمال ، كما

ترفض كذلك أن يمتد نفوذ بريطانيا فيتجاوز الموصل شمالا داخل الاراضي السورية ، كذلك لابد لفرنسا مقابل نزولها عن الموصل ، أن تحصل على حق متساو بالنسبة لاستغلال حقول البترول في الموصل وفي الكردستان ، فاذا لم تجب الى طلبها ، كان رفض فرنسا للاتفاق يعتبر أمرا واقعا ....»

***

وقد كان من شأن هذا الاتفاق أن يحدث آثارا مباشرة على المشكلة السورية بجملتها ، فقد كانت العناصر الوطنية في سورية ترقب نتيجة هذه المساومات وتضاعف من نشاطها في الوقت نفسه غير أن القائد العام لقوات الحلفاء رأى أن يضع حدا لهذا النشاط الوطني في سورية ، فأرسل الى الامير فيصل رسولا يحمل تعليمات مشددة كما طالب القائد العام من المسيو « لافورساد » (Laforçade) الذي كان يتولى شئون المندوب السامي الفرنسي في بيروت في غياب المسيو جورج بيكو ، بأن ينضم الى هذا المسعى البريطاني .

ونتيجة لذلك تم اجتماع بدمشق يوم ٩ من سبتمبر تلاقى أثناءه الكولونيل « مينهارزجن » (Meinhenzagen) على الامير فيصل انذارا متضمنا شروطا يلتزمها فيصل مستقبلا ، وقد جاء في هذه الوثيقة ما يأتي : –

«تعلن بريطانيا العظمى انها ترفض قبول الانتداب على سورية وتعلن انها قبلت مبدأ انشاء دولة لليهود في فلسطين ... وتعلن بريطانيا العظمى بانه ليس في نيتها أن تفرض على ابناء سورية حكومة معينة ضد رغبة الاهالي .... ويعلن المارشال اللنبي (Allenby) بوصفه القائد العام لجيوش الاحتلال في الشرق وبوصفه المسئول ، امام مؤتمر الصلح ، عن الامن في هذه البلاد ، انه لن يتردد في القضاء على جميع العناصر التي يمكن أن تخل بالنظام أو تحدث اضطرابا في البلاد .»

وبعد تسليم هذا الانذار الى الامير فيصل شرعت الصحافة البريطانية وشرع المسئولون البريطانيون في تمهيد الرأي العام البريطاني لتقبل الاحداث الكبرى التي كان الغرب يعد لها في الشرق ويمهد لحدوثها فتوالى صدور التصريحات التالية :

(تعلن الحكومة البريطانية أنها لاتقف فى وجه المطالب الفرنسية بمؤتمر الصلح وأن بريطانيا تؤيد تلك المطالب بروح من الصداقة ، ودون أن يكون لها أى غرض شخصى ... وأن فى احتفاظ الحكومة البريطانية بهذه النيات الطيبة مايدعو الى حسم جميع المسائل المعلقة ، كما أن بريطانيا تعتبر نفسها مرتبطة بميثاق شريف يرمي الى تمهيد الطريق امام فرنسا لتنهض بأعباء الانتداب في سورية ، ويتعين علينا أن نيسر مهمة الحاميات الفرنسية والاداريين الفرنسيين عندما يتولون السلطة فى هـذه البلاد ، وأن نعمل بجميع الطرق المباشرة وغير المباشرة لكى يسود التفاهم العلاقات بين فرنسا والامير فيصل ، الذى رضى اغلب الرأى العام السورى أن يكون أميرا على سورية .

***

وهكذا جارت بريطانيا السياسة الفرنسية ومهدت لفرنسا السبيل للاجهاز على سورية غير أن بريطانيا فى الوقت نفسه مصرة على أن تؤدى لها فرنسا الثمن باهظا فادحا ...

وقد أكرهت فرنسا ، فى نهاية الامر ... على الرضوخ لمطالب بريطانيا ... وكانت المفاجأة غير سارة ، عندما وقف فى البرلمان الفرنسى المسيو مليران (Millerand) رئيس الحكومة وقال : لقد واجهنى فى سان ريمو المستر لويد جورج بالتعهدات التى قطعها على نفسه المسيو « كليمنصو الذى سبق له أن نزل عن الموصل لبريطانيا ، وفى مقابل هذا النزول قبلت بريطانيا العظمى أن تنزل لنا عن ٢٥ ٪ من استغلال ومن انتاج بترول الموصل طبقا لما سيجرى عليه الاتفاق بيننا وبينها .

وقال المسيو تارديو (Tardieu) الوزير الفرنسى : ان فرنسا حصلت على سورية مقابل هذا النزول كما حصلت على امتيازات أخرى فى جنوبى الاناضول ، تعوضها عن نزولها عن الموصل تعويضا كافيا .

ولكن المسيو آرستيد بريان (A. Briand) الوزير الفرنسى السابق ، احتج على قبول فرنسا هذا النزول لمصلحة بريطانيا .

وبينما كانت هذه المســـــاومات تجرى بين فرنســـا وبريطانيا أدرك الامير فيصل أنه أصبح لزاما عليه أن يلتزم سياسة موالية لفرنســا ، ولكن فرنسا كانت قد قررت التخلص من الامير فور أن يتم الاتفـــاق بينها وبين بريطانيا ، وعندما تم هذا الاتفاق ـ فعلا ـ باتت أيام فيصل فى سورية محدودة ..

وحينما كانت المحادثات تجرى بين فرنسا وبريطانيا ، رأت فرنسا أن تعين الجنرال جورو (Gouraud) مندوبا ساميا بالمشرق ، وقد أعد هذا عدته ليحتل سورية بأكملها ، وانتهز فرصة زيارة الجنرال نورى السعيد له فى ١٤ من يوليو سنة ١٩٢٠ ليحدثه عن رغبـــة الامير فيصل فى القيام برحلة الى اوروبا ، وسلم نورى السعيد انذارا نهائيـــا موجها منه الى الامير فيصل ، وفى هذا الانذار حدد أجلا ينتهى فى منتصف ليل ٢٥ من يوليو ١٩٢٠ وقد تضمن هذا الانذار الطلبات الاتية :

أولا ـ أن يقبل الامير فيصل الانتداب الفرنسى على سورية .

ثانيا ـ تجريد الجيش العربى قبل ظهر ٩من يوليو سنة ١٩٢٠ من سلاحه .

ثالثا ـ قبول احتلال مدن الرقة وحلب وحمص وحماة بقـــوات الجيش الفرنسى .

رابعا ـ احلال العملة الفرنسية محل العملات الاجنبية المتداولة فى سورية ، وجعلها العملة الرسمية المتداولة .

خامسا ـ توقيع العقوبات الصارمة على أولئكم الذين وصفهم الانذار ـ بمرتكبى اعمال السلب فى مختلف المناطق .

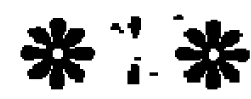
***

وقبل انقضاء الاجل المحدد فى الانذار شرعت القوات الفرنسية فى احتلال سورية ، ولم يبد الامير فيصل أية مقاومة ، بل انه قبل مطـــالب الانذار الفرنسى وأعلن قبوله هذا فى يومى ١٨ و ١٩ من يوليو سنة ١٩٢٠ ثم بعث بالكولونيل تولا (Toola) ضابط الاتصال الفرنسى الذى كان

ملحقا للامير فيصل ليبلغ الجنرال « جورو » رسميا خضوعه فى ١٩ من يوليو ، ثم امرت الحكومة السورية التى كان يشرف عليهـا ـ اذ ذاك ـ الامير فيصل بتجريد الجيش من اسلحته كما اصدرت أمرها الى الجنرال محمد بك جميل قائد الفرقة الثالثة أن يتخلى عن حلـب ويترك للجيش الفرنسى بقيادة الجنرال دى لاموت (De la Motte) أن يحتلها .

وبينما كان الامير فيصل مندفعا في سبيل الاستجابة والخضوع لمطالب الفرنسيين قررت العناصر الوطنية العربية فى سورية أن تقف فى وجـه فرنسا وان ترفض شروطها التى جاءت فى انذارها لفيصـل ، وقررت هذه العناصر مقاومة الجيش الفرنسى ، وحمل الشعب الأسلحة ، وتصدى ـ فعلا ـ للقوات الفرنسية الغازية ، ولكنها تغلبت عليه ، ودخلت دمشق يوم ٢٥ من يوليو سنة ١٩٢٠ .

.... وقد بادر الامير فيصل ـ فى حماية ورعاية بريطانيا ، وقواتها ـ بالفرار من دمشق .. وحينما دخل الجنرال « جورو » دمشق ، وقف أمام ضريح صلاح الدين الايوبى ... وقال .. ها قد عدنا ... وكان يرمى بعباراته هذه ، الى أن الصليبين قد عادوا الى احتلال بلاد العرب .. اذ أنه كان يعرف أنه كان امـام رفات ذلك البطل الذى دوخ الجيوش الصليبية وقهرها ...



واذ تم لفرنسا الامر فى سورية ، أقامت المحاكم لمحاكمة الوطنيـين العرب ، وقضت باعدام بعضهم ، وبنفى البعض وبمصادرة أموالهم ، كما فرضت غرامة حربية قدرها عشرة ملايين من الفرنكات على الشـعب السورى ...

وبهذا قضت فرنسا قضاء مبرما على استقلال سورية ...

ولقد راح المسيو ديكيه (De Caix) مستشار دار المنـدوب السامى الفرنسى يعلن بأنه « أصبح لزاما على السوريين أن يعرفوا ـ قبل كل شيء أنهم فى حاجة الى وصى ، الى حاكم أجنبى ... وكان يشرح ذلك فى تهكم وفى سخرية مريرة ـ ويقول : ما أشبه سورية بحديقـة

حيوانات ، نظرا لما اجتمع فيها من مختلف الديانات ••• ان ابناء سورية يعبدون الله فى أكثر من اثنتى عشر شكلا ، ومن بين السوريين من يعبد الشيطان ••• »

•••• ومنذ تلك اللحظة ، وقفت فرنسا من القومية العربية ومن الوطنيين العرب في سورية ولبنان موقف العدو القاسى الذى لايرحم ••• وراحت تعتبر بلاد المشرق قاعدة عسكرية تؤيد بها نفوذها وسلطانها فى حوض البحر الابيض الشرقى ، كما تهدد منها فى الوقت نفسه قناة السويس فى مصر ، وطريق الهند •••

واذ تمت لفرنسا السيطرة التامة على سورية اعتبرت نفسها دولة اسلامية ! ذلك أنه كان فى يدها مركزان من اكبر مراكز الاشعاع الاسلامى هما فاس فى مراكش والقيروان فى تونس ، فلما انتهى الى نفوذها وسلطانها أمر دمشق ، كان لها أن تزعم لنفسها هذا الزعم لان دمشق كانت كمركز لهذا الاشعاع الاسلامى بمثابة اللؤلؤة المضيئة ••• ومن ناحية أخرى كانت هذه المراكز الثلاثة غنية برجالات الدين الاسلامى وبقادته الروحيين وزعمائه المفكرين ، مما يتعين معه على فرنسا أن تأخذ الحيطة لما قد يصدر عن هؤلاء من اتجاهات أو آراء من شأنها ـ حتما ـ أن تدفع سائر المسلمين فى تيارها ما يصدر عنهم وتوجيههم الى مقاومة الاستعمار ••••

* * *

وهكذا كان الوضع عندما تم للفرنسيين احتلال سورية • وقد أبت العناصر الوطنية العربية ، كما ابى الاتراك التصديق على معاهدة سيفر (Sèvres) ••• فهل كان الاتراك والعرب على استعداد للتضامن معا لمقاومة العدو والغازى فى جبهة قوية متماسكة •• ؟ ذلك ما كان موضع تساؤل الغرب ، والاتراك والعرب ••• ولعله مما يقرب الجواب على هذا التساؤل ، أن نستعرض موقف الباب العالى فى الماضى من القومية العربية ، وأن نستعرض ذلك التطور الذى طرأ بعد ، على تركيا بزوال حكم آل عثمان وموقف هذه الدولة الجديدة من العرب •••

الفصل الثلاثون
تركيا والعرب فى نهاية الحرب العالمية الأولى

« آل عثمان والخلافة ـ آل عثمان يدركون أن كل بعث عربى يشكل خطرا يهدد »
« مطامع الامبراطورية العثمانية السياسية ـ الدولة العثمانية تجهل الاسباب العميقة »
« لعظمة الاسلام ولنظمه ـ مستقبل الخلافة والمسلمين بايدى الجنود المحترفين ـ »
« انهيار الامبراطورية العثمانية بدأ منذ ان سخرها الغرب للسيطرة على الشعوب »
« الاسلامية ـ آل عثمان لم يروا فى الشعوب العربية الا مصدرا يمدهم بالمال والرجال »
« ـ لم يحرك العرب الا داعى النجدة لدولة اسلامية ـ الغرب ينجح فى القضاء على »
« الدولة العثمانية وهزيمة المانيا وابعاد روسيا عن شئون الشرق وينفرد وحده بتركة »
« آل عثمان ليكون السجان الجديد للقومية العربية ـ فضل العرب على الدولة »
« العثمانية ـ الاسلام يعلم الأتراك اصول الحكم ، والأتراك يحرمون المسلمين أى تطور »
« تقدمى خلاق ـ فشل الدولة العثمانية فى استغلال الدعوة الاسلامية لتثبيت السيطرة »
« العثمانية ـ تخبط الدولة العثمانية مكن الغرب من التسلط على الشرق العربى »
« بريطانيا تستغل حاجة تركيا لمعاونتها لتتغلغل فى الشرق ـ اطمئنان الغرب الى »
« افتقار الشرق الى الزعيم القومى ـ هزيمة الدولة العثمانية ـ تركيا الحديثة »
« تتجه الى العالم الاسلامى والى روسيا السوفيتية ـ اقبال المسلمين يحرك المطامع »
« التركية من جديد ويفزع بريطانيا التى تخشى قيام دولة اسلامية جديدة تتلقى »
« ميراث الدولة العثمانية ـ بريطانيا تركز جهودها للقضاء على حركة البعث التركى »
« قضاء حاسما سريعا ـ الحرب اليونانية التركية ـ بريطانيا تدابعلى العمل من اجل »
« القضاء على كل حركة او زعيم قادر على بعث حركة كبرى فى الشرق وتكافح تسلطها »
« ووصايتها على العرب والمسلمين ـ تركيا تمضى فى كفاحها مستعينة بالتاييد الاسلامى »
« والعون الروسى ـ اسباب مساندة روسيا لتركيا ـ الثورة التركية تتنكر للعرب »
« وتتجاهل حقوقهم المشروعة وتعاودها نعرات الدولة العثمانية ازاء العرب ـ السيادة »
« الطورانية ـ يأس الأتراك من السيطرة على العرب يكيف السياسة الجديدة ـ تركيا »
« تفيد من تأييد العرب لها ثم تتنكر لهم فى نهاية الأمر . »



•••• كانت الامبراطورية العثمانية لاتستمد عظمتها وقوتها من الاناضول منبت تركيا ، وأصل وجودها والتى كانت أفقر ولاياتها ، ولكنها كانت تستمد هذه القوة وتلك المكانة من تأييد الشعوب والامم الاسلامية •••• فان الصدارة والمكانة التى كان يتمتع بها آل عثمان ، لم تؤل اليهم بوصفهم سلاطين تركيا ، بل بوصفهم خلفاء الاسلام ••

وعندما استحوذ الاتراك على هذه الخلافة بعد أن زعم السلطان سليم الفاتح ان آخر الخلفاء العباسيين قد بايعه ونزل له عنها ، ونادى بنفسه خليفة على المسلمين ، سيطرت تركيا على العالم الاسلامى جميعه ، ومن ثم راحت تسخره لخدمة مصالحها ولحماية استقلالها ، وجعل آل عثمان من الدعوة للتجمع والتضامن الاسلامى وسيلة للسيطرة على سائر مسلمى العالم ، كما استقر فى روعهم ان أشد خطر يهدد الامبراطورية العثمانية ومطامعها السياسية هو خطر البعث العربى أو احتمال استرداد العرب لسيطرتهم على أمور المسلمين وتوجيههم •

لقد آلت تركة العرب الى الدولة العثمانية ونظمت هذه نفسها بوصفها دولة اسلامية ولكنها فى الوقت نفسه ، كانت تجهل الاسباب العتيقة لعظمة الاسلام ولنظمه •



وتبعا لسياستها المرسومة ، فان الدولة العثمانية لم تأل جهدا فى ابعاد العرب عن تولى شئون المسلمين ، وألقت بمستقبل الخلافة وبمستقبل المسلمين أجمعين فى أيدى جند من المرتزقة كان كل همهم فى بداية تاريخهم التفاخر بمغامراتهم الحربية ، ثم تحول أمرهم الى الدفاع عن المكاسب التى حصلوا عليها ، وقد ظلوا على هذه الصورة الى أن انهارت الامبراطورية العثمانية ، ويمكن القول بأن انهيار الدولة العثمانية بدأ منذ أن شرعت فى تسخير الخلافة الاسلامية للسيطرة على الشعوب المسلمة •

لقد تجاهلت الامبراطورية العثمانية ذلك الميراث الروحى والفكرى للاسلام ، فلم ير السلاطين العثمانيون فى الشعوب العربية التى حكموها الا مجرد كونها مصادر لثروة الحاكمين مصادر للمال والعتاد والرجال ••• وكانت سياسة هذه الدولة قائمة على الاحتفاظ بالحاكم الذى يستطيع أن يجلب الى خزائن السلطان أكبر قدر من المال • بغض النظر عما يتبعه الحاكم فى أساليب الجباية والقسوة والتعذيب ، كان ذلك هو كل ما يؤهل الحاكم للحكم ••

وقد حاربت تركيا القومية العربية بشتى الوسائل ، فأقصت العرب عن كافة الوظائف العامة واحتفظت لابنائها الاتراك بجميع الاعمـــال والوظائف •

وبهذا ابتدع آل عثمان تلك البدعة التى انتهت بتحكم الاقلية فى الاغلبية من اهل البلاد ، وهو النهج الذى كانت تنتهجه ـ فى هذا الصدد ـ سياسة الغرب •

وكانت سياسة الاتراك تهدف الى خنق القومية العربية ، والى اشاعة الفوضى والفرقة بين صفوف ابنائها ، والى الافادة من حكم الاقلية حتى يظل الحاكمون صنيعة لمن ولوهم الحكم ، ولكى يكونوا بمثابة جواسيس للدولة على البلاد ، غير أن تطبيق هذه السياسة لم يفد الدولة العثمانيه بقدر ما أضرها ، اذ صرف عنها قلوب العرب ، ونفرهم من حكمها وفرقهم من حولها فلم يعودوا يحسون نحو تركيا عطفا ، الا حينما تتعرض لعدوان من أجنبى يحرك فى نفس العربى عطفه عليها كدولة اســلامية ينبعث لنجدتها ، التى يراها فرضا عليه لخليفة المسلمين فيها •

فانعطاف العرب على تركيا ـ كلما كانت تحيق بها شدة ، لم يكن باعثه الا انحصار خلافة المسلمين فيها •

***

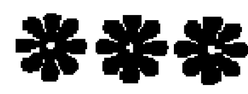
وقد ظل الغرب يعمل طوال القرون الخمسة التى عاشتها الدولة العثمانية لتحقيق هدفين ، الأول : طرد الاتراك من أوروبا الى آسيا وتحرير الشعوب المسيحية الخاضعة لحكمهم ، والثانى: وكان أشد صعوبة فى نظر الغرب ، وهو تصفية الامبراطورية العثمانية فى آسيا وافريقيا ، ذلك أن الغرب كان يعتقد أن حيال هذه التصفية ، لا مفر له من مواجهة أدق المشكلات نظرا لخطر بعث القومية العربية ، كرد فعـل قوى لحبس هذه القومية وكبتها وكفاحها بيد الدولة العثمانية طوال خمســة قرون ، وكذلك بسبب ما ينشأ عن هذه التصفية من المشكلات التى يثيرها تقرير مصير البلاد العربية التى تقع تحت الحكم التركى •

وكان يهم الغرب أولا ، وقبل كل شيء ألا تقـــوم للقومية العربية قائمة ، وأن ينتهي أي تطور في الامم العربية ، بسيادة جديدة للغرب على العرب ، تحل محل سيادة الاتراك عليهم ..

واذا تتبعنا مراحل سياسة الغرب طوال قيام الامبراطورية العثمانية وراقبنا تياراتها عبر هذا التاريخ الطويل من أجل أن يتخلص الغرب من هذه الامبراطورية ، بدت لنا قوة التماسك الخارقة في هذه السياسة ، وعمق التصميم على الهدف وتبين لنا كيف كان الهدف يسمو في رأى الغرب على كل الاعتبارات ، وكيف كان عداء الدول الغربية للاتراك يجب كل عداء بين دولة وتختفي الى جانبه كل بغضاء ، وتحتجب كل كراهية بين دول أوروبا .

وفي هذا السبيل مضت سياسة الغرب دون أن تحيد عن غرضها الاساسي، غير عابئة بالعوائق التي كانت تقف احيانا في سبيلها من المنافسات والخلافات بين الدول الاوروبية الى أن انتهى الغرب من تصفية الامبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها .

ولقد مكنت الحرب العالمية الاولى للغرب من تحقيق أهدافه فاستطاع القضـــاء على الامبراطورية العثمانية ، وهزيمة المانيا وابعاد روسيا عن شئون الشرقثم ا لانفراد وحده بتركة الامبراطورية العثمانية في الشرق ، والسيطرة على البلاد العربية ، كل ذلك استطاعه الغرب واتيح له في وقت واحـــد .



غير أن الغرب باجهازه على الامبراطورية العثمانية قد حرر – على الرغم منه – القومية العربية ، وفك أسارها من حيث كان يحرص على أن يكون هو السجان الجديد لهذه القومية ..

واذا رجعنا الى تاريخ الغزاة العثمانيين تبين لنا انه كان للاســـلام الفضل في دفعهم من حالة البربرية التي نشئوا فيها الى ذلك المستوى الرفيع من الشعور بالمسئولية الجماعية والكرامة المعنوية والمسئولية المدنية

وهى صفات المجتمع المتحضر •••• لقد علم الاسلام الاتراك أصول الحكم ، ولكن طبيعة آل عثمان التى ترجع الى غريزتهم القبلية التى لم يكونوا قد تخلصوا بعد من آثارها ، لم تعنهم على فهم المعانى الرفيعة فى التشريعات الاسلامية ، فلم يدركوا مدى امكانيات العرب ومدى قدرتهم على مساندة الاسلام وتعزيز دعوته ، لذلك قضى على الدولة العثمانية بالفناء ـ تدريجا ـ منذ أن قامت كدولة تستهدف القضاء على القومية العربية وكبت عواطف العرب وشعورهم •••

ولم تعان القومية العربية من العناصر التى اضطهدتها فحسب بل ان هذه القومية قد عانت من المتاعب التى تحملها العرب طوال عهود السيطرة التركية ، فقد حرمت سيطرة الاتراك الاسلام طبيعته التطورية التى كانت السر فى تغلغله بأعماق حياة الشعوب ، وقضت سيطرة هذه الدولة على الدعوة الاسلامية بالجمود ، بل انها تعدت ذلك الى اضطهاد وخنق كل تطور خلاق بين المسلمين •

••• ان اتجاه سياسة الدولة العثمانية الى محاربة القومية العربية والقضاء عليها كان اتجاها لا واعيا من هذه الدولة الى محاربة نفسها بنفسها ، وكان ايذانا بالقضاء على نفسها بنفسها ـ ذلك لأنها بهذه السياسة عملت على اضعاف الروابط التى تجمع بين المسلمين فأفسدت الأساس الذى يستند اليه المجمع السياسى العربى الاسلامى ونتيجة لهذا فان كل محاولة قامت لبعث الدولة العثمانيه وتجديد قواها قضى عليها بالفشل لانها كانت محاولات تستند بطبيعتها الى الدعوة الاسلامية، فى الوقت الذى كانت فيه هذه الدولة تعمل للقضاء على قوة الاسلام السياسية والقضاء على طاقته الدافعة •

وكان السلطان عبد العزيز أول من اختط هذه السياسة الفاشلة ورسمها ، ثم استكمل وسائلها السلطان عبد الحميد •••• تلك السياسة التى أملتها الرغبة فى التسلط والسيطرة ••• والتى كان هدفها استغلال الدعوة الاسلامية لتثبيت السيطرة العثمانية ، ولاقرار الوجود العثمانى على حساب العالم العربى ، وعلى حساب الدولة الاسلامية فى اطارها الصحيح •

***

كانت الدولة العثمانية تعتمد ـ أساسا ـ على خنق القومية العربية والاستهانة بالعرب والحط من أقدارهم ، وكانت تصفهم بالاقلية بين اربعمائة مليون مسلم موزعين فى أنحاء متفرقة من العالم ـ ولقد زجت

هذه السياسة التركية بالدولة العثمانية فى بداية الطريق الى الهاوية ، مما اضطر هذه الدولة الى التخبط طلبا للنجاة فراحت تستعين بنفوذ الغرب فى الشرق لاسيما نفوذ بريطانيا ، كى تكفل بقاء سيطرتها على البلاد العربية ، ولهذا فقد كان طبيعيا ـ أن يستغل الغرب وان تستغل بريطانيا بالذات ، هذه الحاجة التى دفعت الى الاستعانة بالغرب ـ هذه الدولة التى أصبح أملها فى الاحتفاظ بنفوذها على البلاد العربية معلقا على نفوذ بريطانيا فى تلك البلاد ، ويمكن الجزم بأن ذلك الوضع الاستجدائى الذى وضع الباب العالى نفسه فيه قد مكن لبريطانيا من التغلغل فى الشرق ، وخدم سياستها فى هذا الصدد ، وعلى مرأى ومسمع من الدولة العثمانية كان نفوذ الغرب يزداد فى البلاد العربية اليوم تلو اليوم ، دون أن تحرك تركيا ساكنا لتقاوم هذا النفوذ الجديد ، لانها تأمل فى استخدامه والاستعانة به ـ كما قلنا ـ من أجل الاحتفاظ بالنفوذ التركى على البلاد العربية ، وكذلك دون أن تحرك ساكنا بالنسبة لنفوذ الغرب القديم ، حتى لا تثير المشكلات بينها وبين الغرب باعتراضها على مثل هذا النفوذ الاستعمارى فى تونس مثلا أو فى مراكش ، أو فى مصر .... وعلى الجملة فان محاولة تركيا القضاء على القومية العربية واضعاف العرب ، كانت سببا فى ترديها الى الحد الذى جعلها ترتمى فى احضان الغرب ليحفظ عليها ما بقى لها من نفوذ على البلاد العربية ، كما كانت سببا فى تساهلها وتغاضيها عن تغلغل نفوذ دول الغرب لاسيما بريطانيا فى هذه البلاد ، وأخيرا فقد كانت هذه المحاولة ، أقوى سبب للقضاء على تركيا بيد الغرب الذى استخدم نفوذه وامكانياته واستخدم مخاوف تركيا من القومية العربية وعدائها لها ، استخدم هذا فيما استخدم من مختلف أساليبه للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها شر ممزق ، وكانت دول الغرب وفى طليعتها بريطانيا العظمى ، تعرف تماما ، انها اذ تستخدم القومية العربية فى القضاء على الدولة العثمانية ، فان الغرب يستطيع ، بعد أن يستنفد أغراضه من اللعب بالقومية العربية وبعد أن يتم له ما يريد فى مصير تركيا ، يستطيع بعد ذلك أن يخنق القومية العربية اذا ما تصدت لسياسته أو وقفت فى سبيل أهدافه فى الشرق وكانت عدة الغرب فى القضاء على القومية العربية عند الاقتضاء ،

كما قلنا دائما — هى ما يعمله الغرب ، بل يثق فى وجوده بين بعض زعماء العرب وقادتهم من الصراع الدائم حول المطامع الشخصية وتناحرهم على المناصب مما يكفى — دائما — لتفريق كلمتهم وانعدام وحدتهم ، فالقومية العربية كانت بوضعها الراهن — اذ ذاك — لا تشكل خطرا على سياسة الغرب ، ولم يكن ليخيف الغرب منها الا احتمال قيام زعيم من العـرب أو من المسلمين يستطيع احياء مشاعر الامة العربية وتذكيرها بأمجادها ، زعيم قادر على أن يجمع الشعوب حوله فى وحدة قوية متماسكة وينظمها تحت لوائه ليقاوم بهذه القوة الجبارة سياسة الغرب .

ذلك هو كل ماكان يخشاه الغرب ، وماكان ساسته يحسبون له حسابا ، ولم يكن الشريف حسين ولم يكن أولاده ، فى نظر الغرب من هذا الطراز القوى المخيف من القادة والزعماء ، بل على العكس كان الغرب على ثقة تامة من أن حسينا وأولاده لا يمكن أن ينهضوا بهذه الرسـالة بسبب افتقارهم الكبير للصفات الجوهرية التى لابد من توافرها فى مثل هذا الزعيم القوى الصالح .. ومن أجل هذا فقد اعتمد الغـرب عليهم اعتمادا كاملا ثقة منه فى أنهم أطوع أداة لتنفيذ السياسة الغربية باعتبارهم حكاما مسخرين لتحقيق أغراض هذه السياسة فى الشرق .

***

وحينما قامت الثورة التركية عام ١٩٠٨ رأت العناصر التركية أن تتخذ من قيامها وسيلة ودعاية لادماج القومية العربية فى تركيا وجذب العرب اليها ، فنادى القائمون بالثورة بأنه لن يكون هناك عرب واتراك ، بل ان الكل عثمانيون ، غير أن هذه الثورة فى حقيقتها وبالرغم من شعاراتها هذه لم يكن هدفها الا الابقاء على السيادة العثمانية دون سواها ... وقد أدرك العرب هذا الهدف التركى فانصرفوا عن تأييد الثورة ، أو الاستجابة الى دعوتها ، لاسيما بعد أن تبين لهم ان صالحهم يحتم عليهم الدفاع عن القومية العربية باعتبارها الوسيلة الوحيدة للابقاء على وجودهم ، ولحمايتهم من السيطرة التركية ..

ولما أعلن السلطان محمد الخامس الحرب المقدسة فى سنة ١٩١٤

لم يتجاوب معه مسلموالعالم ، لانهم أدركوا أن الباعث عليها هو المصالح السياسية لتركيا وليس هـو الايمان العميق الذى يشترك فيه العـرب والمسلمون كافة ..

ولما بعث السلطان محمد السادس بكبير وزرائه الى باريس ليفاوض فى شروط الصلح أراد أن يستبقى سيادةالسلطان التركى وخلافة المسلمين على العالم العربى ... وكل ما تفضل به وقتئذ على البلاد العربية هو أنه وافق على منحها نوعا من الحكم الذاتى ... فكان موقف تركيا ... فى هذا الصدد ـ موقفا مشينا ، اذ راحت تساوم وتبدى استعدادها لتسخير ما يملكه السلطان والخليفة من تلك القوى الروحية والمعنوية لخـدمة الغرب ....

ولقد رفض الغرب عرض السلطان رفضا مشفوعا بالاحتقار بل أنه لم يخل مما يجرح كرامة العالم العربى والاسلامى .. فان الحلفاء أعلنوا وقتئذ «ان الاتراك غير جديرين بأن يتولوا مصير شعوب أخرى أويحكموا غيرهم ـ وأن الخلافة العثمانية لا تعبر عن كرامة المسلمين ، ولا تنعكس عليها صورة لامجادهم ومفاخرهم » ..

وهكذا قضى على مطامع الدولة العثمـانية فى استغلال الرابطـة الاسلامية التى تربط الاتراك بسائر المسلمين ....

***

ولما هزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى ورفض الحلفاء الاستجابة الى عروض السلطان اتجهت تركيا الحديثة الى العالم الاسلامى التماسا لتأييده المادى والمعنوى ، وفى الوقت نفسه اتجهت الى الحكومة الجديدة التى قامت فى روسيا السوفيتية ، وكان هذا الهدف التركى من هذا الاتجاه هو اقامة تعاون اسلامى روسى يمكن العناصر الوطنية من المقاومة المستندة الى معونة الشعوب الاسلامية المناهضة لتسلط الغرب على الشرق .. ولقد تم للاتراك اقامة هذا التعاون فعلا ، وكان ذلك سببا فى انبعاث مطامع الاتراك التقليدية فشرعوا على أساسه فى الدعوة لاقامة اتحاد من الدول

الاسلامية يشمل الاتراك والعرب ومسلمي الهند غير أن هذه الدعوة كانت بمثابة ناقوس الخطر يدق في اسماع بريطانيا ، التي فطنت الى أن نجاح الاتراك في اقامة هذا الاتحاد ، معناه انشاء دولة اسلامية تضم تركيا ، بعد هزيمتها وبالتالي فقد كان ذلك في رأى بريطانيا ، لا يعدو أن يكون اقامة دولة تتلقى ميراث الدولة العثمانية التي جاهد الغرب من اجل القضاء عليها وليتلقى هو ميراثها ، وهذا مما يستحيل على الغرب أن يسمح به لانه كان على النقيض من اهدافه السياسية والعسكرية في الشرق ، ومن أجل هذا بادرت بريطانيا بالعمل على مقاولة تلك الدعوة ، والقضاء على ما كان معروفا اذ ذاك بحركة البعث التركي ، ولم تدخر بريطانيا وسيلة دون أن تعمد اليها ، من رشوة ومن فتنة ، ومن اثارة الطوائف الدينية ، استخدمت بريطانيا كل تلك الوسائل لتحطيم هذه الحركة والقضاء على تلك الدعوة .



ولم تنتظر بريطانيا ، ولم يقف كفاحها لهذه الدعوة عند هذه الاساليب السياسية ، بل اتخذت اجراءات ايجابية في سبيل القضاء على حركة البعث التركي .

ففي الساعة الحادية عشرة من ١٤ من مارس سنة ١٩١٩ انذر الاميرال كالسوب (Calssup) قائد حامية أزمير ، حاكم هذه المدينة بأنه بموجب اتفاقية الهدنة أصبح متعينا عليه تسليم قلاع المدينة الى القوات الحربية المتحالفة ...

وبعد ساعتين من تسلم هذا الانذار ، عاد الاميرال البريطاني فأعلن أن القوات اليونانية ستشرع في احتلال أزمير ...

وعلى هذه الصورة توالت الاحداث سراعا ، ومكنت بريطانيا اليونان من احتلال مدن أزمير ، وعصمت وقونية والاستانة .... لتصبح لليونان السيادة على تركيا .. وكانت بريطانيا تعلم تماما ، بانها هي السيد وبأنها هي صاحبة السيادة العليا على هذه الدولة الجديدة التي تنشئها اليونان

أو تنشئها هى لليونان ... وبهذا قضت بريطانيا على المحاولة التى قام بها الوطنيون الاتراك لاحياء بعث دولة اسلامية جديدة .... اذ كان أخشى ما كانت تخشاه بريطانيا فى الشرق هو انشاء دولة اسلامية كبرى مستقلة تقوم على عناصر وطنية خالصة سواء أكانت عناصر تركية أم عربية ، ولعل هذه العقيدة التى تدين بها السياسة البريطانية تبدو أشد وضوحا وجلاء فى تلك الاعترافات الصريحة التى أدلى بها هندى مسلم يدعى مصطفى الصغير ، أثناء محاكمته فى أنقرة أثر محاولته اغتيال مصطفى كمال وقرر فيها أنه من عملاء رجال المخابرات البريطانية .. فقد قال مصطفى الصغير، فى تلك المحاكمة ما يلى : ـ

« ان بريطانيا على استعداد لتسوية كل ما بين الاتراك وبين الحلفاء من خلافات ومشكلات ، وذلك متى وثقت بريطانيا من استعداد العناصر التركية للعدول عن بعث الحركة الاسلامية والرجوع عن اثارة الكفاح الاسلامى فى مصر ، وفى سوريا والعراق ، وأفغانستان ، والهند ، أى فى الأراضى الاسلامية كافة ... وقال انه مادام الأتراك يرفضون اعتزال المجتمع الاسلامى خارج تركيا ، فان الصراع سيبقى ، على أشده ، وبلا رحمة ، بين تركيا وبين الحلفاء ، ذلك لأن بريطانيا تريد أن تكفل وتؤمن لنفسها السيطرة التامة على السياسة الاسلامية فى الشرق ... وأنها وطنت سياستها على مواصلة الكفاح المتواصل الدائب العنيف ضد أى رجل .. وضد أية جماعة أو أية سلطة تحاول حرمان بريطانيا من تسلطها ووصايتها على العرب والمسلمين »

وقال ان المسألة فى هذا الصدد بالنسبة لبريطانيا تعتبر مسألة حياة أو موت ، وأن هذا الذى أقوله ، هو ـ وحده التفسير الصحيح للسر الذى من أجله تلاحق بريطانيا كل حركة ثورية وطنية تبعث فى أى بلد فى الشرق لتحاربها ، متى كانت هذه الحركة قادرة على اثارة الوعى والتضامن الاسلامى وهذا هو التفسير السليم لذلك الحقد القاتل الذى تضمره بريطانيا دائما ، لكل من يتزعم مثل هذه الحركات فى الشرق ..

وانى لأقرر أن بريطانيا لا يهدأ لها بال الا بعد أن يتم لها القضاء على الزعماء وعلى الحركات ...

وعلى الرغم من أن الاتراك قد وعوا هذا الدرس الا أنهم كانوا لا يزالون فى حاجة الى التأييد الاسلامى والعربى ، فى حاجة الى المساندة المعنوية من شعوب آسيا وافريقية فى كفاح تركيا ضد العدوان اليونانى ، ولذلك فقد ظلوا - الى حين - يعتمدون على الدعوة الاسلامية كيما ترفع الروح المعنوية فى هذا الجزء من العالم ... كما كانوا يشعرون فى الوقت ذاته بمسيس حاجتهم الى العون السوفيتى لمواصلة النضال فى سبيل استقلالهم وحريتهم . فان من هذا العون الروسى ومن العون الروحى الاسلامى فى اسيا وافريقية كانت تستمد تركيا القوة لثورتها لتقف فى وجه محاولات الغرب من أجل السيطرة على البلاد وتنفيذ خططه فيها ، على أنه لابد من ايضاح للسر البعيد فى معاونة روسيا لتركيا فى ثورتها ، ومعاونة العرب لها فى هذه الثورة ، لقد كانت روسيا تدرك وقتئذ أنه لو تم للغرب القضاء على الحركة الوطنية التركية وسحق ثورتها ، ثم بالتالى اقامة دولة ارمنيا الكبرى التى وعد الغرب بانشائها والتى كان لابد أن تجمع الأرمن المشتتين بين الأراضى الروسية وبين الأراضى التركية وكان خطر قيام هذه الدولة خطرا يهدد روسيا تهديدا يزعجها ... لذلك فقد كان لابد لروسيا من مساندة الثورة التركية ضد سياسة الغرب ..

أما الشعوب العربية فقد ساندت الثورة التركية ضد الغرب ، أملا فى أن يتسنى لهم الحصول على استقلالهم وحريتهم ... ولكن الثورة التركية لم تفهم أمانى العرب ، ولم تقم علاقاتها بهم على أساس المساواة واحترام حقهم فى الاستقلال ، فما أن لاح للاتراك الأمل فى انتصار ثورتهم حتى طالبوا بالموصل وبكردستان ... وبهذا عاد الاتراك من جديد ليطبقوا على العرب سياسة الدولة العثمانية بكل ما فيها من أنانية وغطرسة وجشع ..



وهكذا صدم العرب فى أمانيهم وبدا لهم - تماما - أن الاتراك أعداء

ألداء لحركة التحرر العربية ، ولاستقلال الشعوب العربية ، وأيقنوا بأن سياسة الاتراك تهدف الى ضم العـــرب فى دولة اسلامية تسيطر عليها العناصر الطورانية ••• وبالتالى تبين للعرب استحالة التعاون مع الاتراك واتضـــح لتركيا أن العرب لايرغبون فى الوقوع فى ربقة الجمهورية التركية الجديدة بعد أن تحرروا من ربقة الامبراطورية العثمانية واذ وضح هذا لتركيا فانها أحست بخيبة أملها فيما كانت قد وطنت سياستها عليه من تسخير العرب والمسلمين للدولة الجديدة •

ولهذا ـ فقد كان من الطبيعى أن تنهـــار تلك الاسس التى كانت تزمع تلك الجمهورية الاحتفاظ بها لتكون دولة اسلامية ، ومن ثم أخذ الاتراك فى ايهام العرب والمسلمين بأنهم كانوا العامل الاساسى فى انهيار الدولة العثمانية ، فمنذ تلك اللحظة أخذوا فى سياسة الجفاء ، ثم شرعوا منذ ذلك الوقت فى قطع كل صلة بين تركيا الجمهورية ، وبين الماضى ، ولم يكن الحافز على هذا النهج الحديث ، غير رد الفعل العنيف ليأس الاتراك من السيطرة على العرب والاسلام ••

وعلى الرغم مما تبين للوطنيين العرب من اتجاه تركيا فانهم لم يضنوا على الثورة التركية بالمعونة المادية فى شمال سورية اذ مكنوا الأتراك من طرد الفرنسيين من جنوب الاناضول •••

وقد انتهى الأمر بانسحاب الغرب وعدوله عن اقتطاب البلاد التركية، مرسين ، وعدن وعنتب واورفة ودير بكير وماردين وهى بلاد تعتبر جزءاً لايتجزأ من الاناضول •

وبفضل معونة العرب لتركيا ، وقع الحلفاء اتفاقية انقرة التى احتفظت لتركيا بكيانها كذلك سلم الغرب بأن يكون للأتراك فى لواء الاسكندرونة حقوق خاصة •

وهكذا أتيح لتركيا أن تحتفظ بوجودها وباستقلالها الذى اعترفت به معاهدة لوزان ••• بينما وقعت سورية ولبنان والأردن وفلسطين تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا العظمى ••

الفصل الحادي والثلاثون

نظـــام الانتداب

« العرب لم يفيدوا من دروس الثورة التركية — الشعب التركي يدرك ان السر »
« في ضعفه هو تفرق كلمته فيلقي عن كاهله اعباء الفرقة ورواسب الماضي ، وحــدة »
« الشعب التركي تحول موقف الامتهان القديم للدولة العثمانية الى احترام وتقدير »
« لتركيا الجمهورية — العرب لم يلمسوا من أسباب نجاح الثورة التركية الوسيلة »
« لنجاح كفاحهم ضد الغرب — حق الشعوب في تقرير المصير يحد منه ما ادعته الدول »
« الغربية من حقوق — معاهدة « سان ريمو » ونظام الانتداب — المــادة ٢٢ من »
« ميثاق عصبة الامم — ما هو الانتداب فئة « أ » — الوضع الدولي للبلادالخاضعة »
« لهذا النوع من الانتداب — الجنرال « جورو » يوضح طبيعة الانتداب علىسوريا »
« ولبنان ويقول بأن مهمة الغــرب هي حماية الشرق من بعث القومية العــربية »
« والتجمع الاسلامي ويصرح بأن هاتين الحركتين على استعداد في اى وقت للانضمام »
« لروسيا الشيوعية للانقضاض على الغرب ، الجنرال « جورو » يصرح بأن الغرب »
« يخل برسالته اذا لم يسيطر على الشرق ويحول دون وحدة مصر والبلاد العربية »
« وانضمام تركيا اليها في كفاح وجهاد يهدد امبراطورية الغرب الاسلامية في آسيا »
« وافريقيا — بعد تسعة قرون ينجح الغرب في تنفيذ وصية الملك لويس التاسع » .



كان ممكنا للعرب أن يفيدوا كثيرا — في نضالهم لسياسة الغرب ، من ذلك الدرس القوى الذى لقنته الثورة التركية ، ساسة الغرب وقادته ... كان حريا بالعرب اذ ذاك — وعلى الرغم مما كان بينهم وبين الاتراك من قطيعة وجفوة أن يعوا المثل الذى ضربه لهموللعالم أجمع الوطنيون الثائرون في تركيا ... حينما اندلعت ثورتهم الوطنية المتماسكة المتآزرة المصممة فأرغمت بريطانيا وفرنسا معا ، على الخضوع وجثت سياســة الغرب واستسلمت أمام قــوة التماسك وأمام الصلابة في هــذه الثورة العارمة « الهادفة » .

فان العناصر الوطنية التركية التى هبت من تحت انقاض امبراطوريتهم العثمانية المنهارة استطاعت أن ترفع رأسها وأن تصرخ في وجه الغرب مطالبة باستقلالها وبحريتها ، دون أن يعوقها ما خلفته لها الدولة العثمانية

من الوهن والضعف والمشكلات ودون أن تثقلها أعباء هذا الانهيار الذى كان نتيجة لفساد ظل ينخر فى كيان تلك الدولة مئات من السنين ••••

كانت العبرة من هذه الثورة الناجحة ، تؤكد بما لا يقبل الجدل ، أن الشعب التركى ، أدرك ، أخيرا ، وقبل أن يتحرك فى ثورته ، أن السر فى وقوعه تحت سيطرة الغرب هو ضعفه وأن السر فى ضعفه هو تفرق كلمته • وانه لولا هذه الفرقة فى صفوفه لما وجد نفوذ الغرب ثغرة ينفذ منها للتسلط والسيطرة عليه ومن ثم فقد ألقى هذا الشـــعب كل ما كان يحمله فى نفسه من رواسب الماضى ـ القى عن كاهله اعباء الفرقة وثقل النعرات الطائفية ، وحمل بدلا منها السلاح ، واندفع ـ قلبا واحدا ورجلا واحدا ، وصفا واحدا ، وهب ثائرا فى وجه الغرب •

هب الشعب كله متماسكا مصمما وفى عناد وتصميم لم يجد الغرب لنفسه أمامها ، بدا من التحول عن سياسته التى التزمها نحو تركيا مئات السنين بل ان ذلك الامتهان القـــديم الذى كانت تلقاه الدولة العثمانية دائما من دول الغرب قد حولته الثورة الى احترام وتقدير من جانب الغرب لتركيا الجمهورية •••

كانت هذه هى الثورة التركية ، وكانت هذه هى أسباب نجاحها ، وكان ذلك كله واضحا أمام العالم جميعه بما فيه العرب ، كما لم يكن فى ذلك الدرس ما يدق على الافهام أو ما يستعصى ادراكه على العرب ••• ولكن ، هل استخلص العرب من ذلك كله شيئا ، هل التمسوا من أسباب نجاح الثورة التركية الوسيلة لنجاح كفاحهم ضد الغرب •• ؟؟ هل انضموا فى وحدة متماسكة متآزرة ، متراصة ضد الغرب لاستخلاص حقوقهم واستقلالهم ••• ؟؟



ان الغرب بينما كانت سياسته تجرى فى الاناضول على هذه الصورة التى انتهت بالخضوع والتسليم لتركيا بما أرادت••كانت بريطانيا وفرنسا فى سورية ولبنان تتجهان الى كشف القناع عن سياستهما الاستعمارية فى الشرق فتصرحان بأن المبادىء التى أعلنها الحلفاء باعتبارها هدفهم الذى

حاربوا من أجل تحقيقه ، والتى تقضى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، لم تجد فى أذهان الشرقيين ادراكا كافيا لتمييزها وتفهمهـا على الوجه الصحيح وان الشرق فى فهمه وفى نظريته الى المبادىء التى أعلنها الحلفاء وفى تقديره الى حق الشعوب وتقرير مصيرها ، لم يأخذ فى اعتبـاره ، الحقوق التى تنشأ للدول المتحالفة بعد انتهاء الحرب وتقولان ان هـذه الحقوق تضمنتها ، فيما بعد المعاهدات التى عقدها الغرب لتكفل نصوصها السيطرة له على الشرق والتى جاءت على الصورة التى اتفقت عليها دوله فى المؤتمر الذى انعقد بمونت سان ريمو (San Remo) فى ايطاليا الذى ابتدع فيه نظام الانتداب .



لقد كررت فرنسا وبريطانيا وعودهما للعرب ، الى حد أن المارشال اللنبى أعلن باسمها بيانا فى الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، أكد فيه للعرب أن الدولتين تعملان على تحرير الامة العربية من ظلم وطغيان الدولة العثمانية ، وعلى اقامة حكومات وادارات وطنيـة يتم اختيارها وتكوينها على أساس من الحرية ...

غير أن بريطانيا وفرنسا ، وجدتا من ظروف العرب ـ اذ ذاك ـ ومن اطماع قادتهم وتفرق كلمتهم وجدت الدولتان من تلك الظروف والاحوال ما أعانهما على وضع نظام الانتداب الذى يستطيعان به التسلط الفعلى على البلاد العربية والسيطرة على شئونها وفى الوقت نفسه يمكنهما من الزعم بأنهما انما يحققان به للعرب ما وعدتاهم به ...

فان نظام الانتداب ، يقوم فى شكله ، وفقا لنص المادة (٢٣) من ميثاق عصبة الامم ، على الاعتراف للمجتمعات التى انفصلت عن الدولة العثمانية ، والتى يتوافر لها قسط مناسب من التطور والتقدم . بالحق فى التمتع ـ مؤقتا ـ بمميزات الدول المستقلة بشرط أن تستعين هذه المجتمعات بارشاد ومعونة دولة غربية تنتدب لهذا القصد ويكون انتدابها مشروطا برغبة الجماعة التى تنتدب عليها .

وهكذا انتهى الغرب الى هذه النتيجة المؤلمة التى خيبت آمال العرب وقضت على ذلك الأمل الذى عقدوه على تلك الوعود التى بذلها الغرب لهم . ولكن ، وبالرغم من هذه النهاية الاليمة ، هل التزم الغرب أحكام ميثاق عصبة الامم واحترام حتى هذه الحقوق الهزيلة التى سلم بها للعرب ؟ وبالتالى هل تسنى لاعضاء عصبة الأمم أن يلزموا الغرب بهذا ؟ ان الغرب لم يخضع لاحكام هذه العصبة التى كان هو المسيطر عليها ..

فكما أسلفنا ، كان اختيار الدولة المنتدبة مشروطا له ــ وفقا لنص ميثاق العصبة ــ رغبة الشعب الذى يفرض عليه الانتداب وكان رهنا بموافقة الشعب على دولة بالذات ..

كان الميثاق ينص على أن تعين مهمة الدولة المنتدبة وتحدد ، وينص على مراقبتها فىأدائها لمهمتها وعلى حق عصبة الامم فى انهاء الانتداب متى رأت العصبة موجبا لانهائه ، ومتى يتبين لها زوال اسبابه . ان اللجنة التى أعدت مشروع النص الخامس بالانتداب فى ميثاق العصبة أوصت بأن يحظر على الدولة المنتدبة ، الافادة من وضعها ومن سلطتها التى خولها اياها انتدابها لتزيد من قوتها العسكرية فى البلاد العربية ، ولتحصل لنفسها أو لحلفائها على مزايا اقتصادية وأن تغنم فرصة وضعها السياسى لتستغل موارد البلاد المنتدبة عليها ..

غير ان بريطانيا وفرنسا حرصتا على عدم تمكين عصبة الامم من التعرض لقضايا الانتداب وكان موقفهما فى هذا الشأن مدعاة لاثارة مستر دوجرتى (Dauhgerty) مندوب كندا فى عصبة الامم الذى احتج على عدم تمكين الأعضاء من بحث هذا الموضوع .

فرضت بريطانيا وفرنسا انتدابهما على البلاد العربية دون الرجوع الى رغبة الشعوب فى هذه البلاد ، بل لمجرد زعم الدولتين لان انتدابهما يقوم على اختيار الشعوب لها . فهل اختارتهما هذه الشعوب .. ؟؟ ان اختيارهما للانتداب على البلاد العربية لم يكن له ظل من الواقع .... اللهم الا اذا اعتبرنا ان البلاد العربية كانت تتمثل ــ اذ ذاك ــ فى زعماء

الصهيونية العالمية والامير فيصل والبعض من رؤساء الطوائف الدينية ، فهؤلاء الثلاثة هم وحدهم كانوا اسناد بريطانيا وفرنسا في هذا الاختيار وكان كل محصول الدولتين من أصوات الشعوب التي عرضتا عليهــا انتدابهما ، هو هذه الاصوات الثلاثة ..

وقد أعلن المسيو بوانكاريه (Poincaré) فور اقرار الانتداب ، أن الدول التي وضعت تحت الانتداب فئة (ا) (Mandats «A») وهي دول الشرق تعتبر مستقلة وتتمتع بسيادتها على أن تمدها الدول التي عهد اليها بهذا النوع من الانتداب بالمعونة والمشورة .

وعلى هذه الصورة لم يكن انتداب فرنسا وبريطانيا على الدول العربية بمثابة وصاية وسيطرة على شئونها من الوجهة النظرية والقانونية كذلك لم يكن هذا الانتداب وكالة لكل من بريطانيا وفرنسا لكي تتولى كافة شئون البلاد العربية فقد كان متعينا أن يكون للدول العربية استقلالها وسيادتها بحيث لا تلتزم بالولاء أو التبعية لدولة أخرى كما كان لها أن تمارس مالها من حقوق الاستقلال والسيادة في الداخل والخارج وكل ما كان مفروضا عليها بحكم ميثاق العصبة هو مشورة الدولة المنتدبة وهي مشورة لا ترتب قيودا والتزامات تحد من السلطان والسيادة .

ولكن ، على الرغم من أن فرنسا وبريطانيا قد فرضتا انتدابهما فرضا على العرب ، فهل تقيدتا بما ورد في نص المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الامم من التزامات أو انهما تنكرتا لهذه الحقوق الهزيلة التي اعترفت بها عصبة الامم ...

وعملتا على فرض سيطرتهما على الشرق العــــربي ، عن طريق الانتداب عليه ..

***

ولعل هذه الحقيقة المؤلمة ، وهذا الاتجاه الظالم يبدوان واضحين ، في التصريح الذي أدلى به اذ ذاك الجنرال جورو (Gouraud) في الجلسة الاولى للمجلس الاداري اللبناني.الذي كانت فرنسا قد شكلته ـاذ ذاكـ

لادارة شئون لبنان الكبير ... فقد وقف « جورو » في المجلس يوضح طبيعة هذا الحق الذى يزعمه الغرب لنفسه ، ويصف مهمة الدول الغربية ودورها في الشرق كوصية ومرشدة لشعوبه فيقول : ـ

« ماهو الوصى المرشد ، وما هى مهمته ؟ .. »

« انه ذلك الرجل الذى حنكته التجارب ، واكتسب خبرة واسعة ، انه ذلك الدليل الذى يرشد المسـافر الذى يستسلم ولخبرته في طريق لا عهد للمسافر به ولا يعرف مجاهله ... »

« وان المرشد بالنسبة للشرق يتولى فيه مهمة التربية السياسية ،ولابد أن تكون عناصر القوة كلها متوافرة لمن يعهد اليه بهذا الدور حتى لايفقد الشرق ثقته في ذلك المربى الذى قام على شئونه اذا ما ظهر له يوما ضعفه أو عجزه . . »

.... ثم استطرد الجنرال « جورو » يقول : ـ

« وان على هذا المرشـد أن يحمى الشرق من خطر الدعوات التى تهدف الى بعث القومية العربية ، والتجمع الاسلامي هاتين الحركتين اللتين هما على تمام الاستعداد في أى وقت للانضمام الى روسيا السوفيتية ، التى ما برحت ترقب عن كثب ، الثورة العربية كيما تنقض على الغرب ....

وان الغرب ليكون قد أخل برسالته في حماية مصالحه بآسيا وافريقية اذ لم يفرض لنفسه السيطرة على الشرق ويحول دون تضامن مصروسورية وفلسطين ولبنان والعراق والجزيرة العربية وتركيا ... فان هذا التضامن لو حدث ، لأثار بطبيعته الدعوة بين المسلمين الى جهـاد وكفاح يهددان امبراطورية الغرب الاسلامية في افريقية وفي آسيا .... »

***

ذلك كان الوضع الذى فرضه الغرب على البلاد العربية حينما اقتسم هذه البلاد فيما بين بريطانيا وفرنسا ....

.... وهكذا ، وبعد صراع بين الغرب ، وبين العرب دام تسـعة

قرون ، تمكن الغرب من تنفيذ وصية الملك الصليبي لويس التاسع وتحقيقها تحقيقا كاملا ... فاستقر الغرب فى الشرق ، وأصبحت فى يده تلك المنطقة الممتدة شرقي البحر الابيض المتوسط وهى تشمل فلســطين والاراضى المقدسة والاردن ولبنان وسورية ، وبهذا أتيح للغرب أن يجعل من شرق الاردن وفلسطين دولا بمثابة فاصل يحول دون تحقيق الوحدة العربيــة بين سورية ومصر ، كما نجح الغرب فى تأمين قواعد سياسية واقتصادية وعسكرية ودينية لنفسه فى قلب الشرق العربى والاسلامى ، قواعد منها يهاجم ، ومنها يهدد .

لقد نجح الغرب في فرض سيطرته على الشرق ولكن ايمكن ألا يكون لنجاحه هذا نهاية ؟؟ ان الامة العربية وحدها هى التى تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال ... ان العرب هم ـ وحدهم ـ الذين بيدهم أن يضعوا حدا لنجاح سياسة الغرب في الشرق ، متى تحققت لهم أسباب البعث والصعود ... هذا البعث لايمكن أن ينبثق الا عن الدعوة الوطنية بحيث تكون دعوة تفضى الى حركة وطنية قادرة على مواجهة الاستعمار في تطوره وفى تلونه وتحركه وفقا لمختلف الظروف والاحوال ، حركة وطنية واعية تدرك خطر الاستعمار وتربصه الدائم للانقضــاض على الحركات التحررية والاجهاز عليها ...

الفصل الثاني والثلاثون
الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان

« فرنسا تقيم دولة لبنان منفصلة عن سورية ـ وتحول سورية الى دويلات »
« الدروز ـ العلويين ، دمشق ـ حلب ـ فرنسا تعترف بأن الغرض من تفتيت »
« سورية هو الحد من حركة التعصب ضد الغرب ـ موقف فرنسا من القومية »
« العربية ـ فرنسا والاقليات في سورية ولبنان ـ فرنسا تغذى الروح الانفصالية »
« ـ موقف فرنسا من وحدة البلاد السورية ـ فرنسا تعزل لبنان عن سورية »
« وسائر البلاد العربية ـ فرنسا تجعل من لبنان الوسيط الاقتصادى لسوريا »
« وما وراء سورية وبين العالم الخارجي وراء البحار ـ ربط وضع ومصير لبنان »
« بوضع ومصير الغرب بأوثق الروابط ـ انحراف لبنان عن هذا الوضع يعرضها »
« لهزات اقتصادية عنيفة ـ المستفيدون من هذا الوضع داخل لبنان يحظون »
« بمساندة ومؤازرة الغرب لهم ـ الغرب يعزز عوامل عزل لبنان عن سائر بلاد »
« العرب ـ متى يتخلى لبنان عن وضعه ـ سياسة فرنسا في بلاد العلويين والاسكندرونة »
« ـ فرنسا والعناصر الوطنية في سوريا . »



مضت فرنسا في احتلالها لسورية وتم الاتفاق بينها وبين بريطانيا العظمى على مصير لبنان وسورية وفلسطين والاردن والعراق ، وما أن تم لفرنسا احتلال سورية ولبنان حتى بادرت الى اقامة دولة في لبنان الذى كان من قبل في وحدة وطنية تربطه بسورية . بالرغم من تمتعه بنظامه الخاص في الحكم منذ سنة ١٨٦٤ ، ففصمت فرنسا هذه الوحدة في سنة ١٩٢٠ وفصلت لبنان عن سورية وعدلت حدوده باجزاء من سورية ضمتها اليه ، وأتمت فصله سياسيا ـ عن سائر الوطن السورى ، وسمى منذ ذلك الوقت بدولة لبنان الكبير ، كما انشأت فرنسا في سورية أو حولت فرنسا سورية الى عدة دويلات ، دولة حلب ودولة دمشق ، ودولة العلويين ، ودولة جبل الدروز ... وهكذا جزأت فرنسا سورية ، زاعمة أنها لم تكن في يوم من الايام بلدا موحدا ، انما كانت عبر التاريخ بلدا يضم متباين التقاليد ومختلف العقائد المتنافرة .

•••• تلك كانت لغة السياسة الفرنسية فى هذا الصدد ، أو ذلك هو دفاعها عن وجهة نظرها فى تفتيت سورية •••• أما لغـة الوثائق الفرنسية الرسمية ، فتعترف ـ تماما ـ بأن ما تم من تقسيم فى بلادالمشرق كان الغرض منه الحد من حركة التعصب ضد الغرب بين سكانه الذين كانوا يرفضون الخضوع لنظام سياسى موحد مما اضطر فرنسـا الى تقسيم البلاد تقسيما يكفل تجميع العناصر ذات الطباع والعقائد المتجانسـة والمستويات الاجتماعية المتقاربة فى وحـدة اقليمية تعزلهم عن الاحتكاك

والمستويات الاجتماعية المتقاربة فى وحدة اقليمية تعزلهم فن الاحـتكاك

بالعناصر التى لا تتفق ولا تتشابه معهم فى ذلك كله ، وبذلك يتسنى تطبيق العلاج الاجتماعى المناسب لكل دولة من هـذه الدويلات ، والذى من شأنه أن يختلف فى كل منها عنه فى الأخرى •••

ولم تكف فرنسا منذ هذا التقسيم عن تهويل وتجسيم المخاوف من القومية العربية فى نظر تلك الطوائف التى كانت تتمتع بحماية فرنسـا ورعايتها !! أخذ الدعاة الفرنسيون يقرون فى أذهان هـذه الطوائف ان الحركات الوطنية والدعوة الى القومية العربية فى الشرق انما تنبـثق ـ دائمـا من الشعور الاسـلامى ، ولهذا فهى تنتهى دائمـا الى تجريد العناصر الوطنية المسيحيه من كافة المزايا والاوضاع الكريمة التى ظلوا يتمتعون بها طوال القرون الماضية •••• وهكذا صورت فرنسا دعوة القومية العربية فى تلك الصورة الرهيبة بالنسبة للمسيحيين ، صورتها فى شكل الانعكاس التعصبى لشعور المسلمين الذى لا يمكن أن يتفق أو يساير تلك الحماية وهذه المساندة التى ماجاءت فرنسا الا لتبذلها لهـذه الطوائف ولكى تشملها بها •

وهكذا شرعت فرنسا فى تطبيق سياستها هذه من أجل أن يقف ابناء الوطن الواحد موقف الخصومة والعداء بعضهم من بعض تلك السياسـة التى طالما استخدمها الغرب ليوجه مسيحيى الشرق فى علاقاتهـم بابناء وطنهم المسلمين ••• بل ان فرنسا امعنت فى تطبيق هذه السياسة الى حد ان جعلت اتباع المذهب المسيحى يخاصمون ويعادون أبناء المذهب المسيحى المغاير لمذهبهم ، وبهذا تسنى لها ان تسيطر على سورية ولبنان سيطرة لم تكن قائمة الا على هذا التنافر والتخاصم والعداء بين ابناء البلاد العربية، وعلى حاجتهم الى ذلك المرشد الذى اشار اليه الجنرال « جورو » واكد ضرورة وجوده فى الشرق فى حديثه الذى أدلى به فى المجلس الادارى اللبنانى ، عند احتلاله للبلاد ، ومن أجل دعم هذا الاتجاه السياسى المفتت لوحـدة البلاد ـ المثير للخصومات بين ابنائها ، عملت فرنسا الى تكوين مجلس تمثيلى لكل دويلة من هذه الدويلات فى سورية ولبنان يكون عدد اعضائه على اساس التمثيل النسبى للطوائف الدينية ، ولم يكن لهذه المجالس سلطة

تنفيذية أو تشريعية بل كانت مجرد هيئات استشارية ، وعن طريق تلك المجالس تمكنت السياسة الفرنسية من اذكاء نار الفتنة بين السكـــان العرب ، كما اتخذتها وسيلة للرشوة وللمجاملة التي بها تستخدم من تشاء من أعضاء المجلس التمثيل ، وبالصورة التي تريدها وحسبما يقتضي الموقف وتعنيه الظروف ....

***

واذا كانت فرنسا ،فيما بعد وتحت ضغط العناصر الوطنية التي راحت تنادي بوحدة البلاد ـ قد اكرهت على تغيير مسلكها هذا في تفتيت الوحدة وفي تطبيق النظام الذي يفرق الصفوف فإن هذا التغيير في مسلكها ، كان بطيئا في تحركه وتحوله اذا أصرت على أن يكون تحولها هذا على مراحل،

وقد بدأت مرحلته الاولى باقامة نظام فيدرالي في البلاد قصر في أول الامر على دولتي حلب ودمشق فظلتا دولتين يجمعهما اتحادفيدرالي، لم يندمجا وتصبحا دولة واحدة الا في يناير ١٩٢٥ حيث عرفت اذ ذاك بالدولة السورية ....

ولكن السياسة الفرنســـية ، وقد اكرهت على التخلي عن نظرية التفتيت في دمشق وحلب فانها أخذت تعوض لنفسها في ذلك بتطبيق هذه النظرية على أبعد مدى في لبنان وفي بلاد العلويين ، وفي جبل الدروز ، حيث أخذت تغذي وتنمي الروح الانفصالية المفتتة في هذه المنـــاطق ، وتعمل على اشاعتها ....

لقد اتجهت سياسة فرنسا الى عزل لبنان بنوع خاص عزلا تاما عن مجموعة البلاد السورية وسائر البلاد العربية الاخرى ، فخلقت للبنـــان ظروفا خاصة هيأتها لهذا البلد تعوضه عن الانهيار الاقتصادي كان طبيعيا أن يتعرض له لبنان بسبب عزله عن سورية وسائر البلاد العربية ، ومن أجل هذا ، فان فرنسا هيأت للبنان ظروفا خاصة تجعل منه الوسيط الطبيعي بين سورية وما يحيط بها من البلاد العربية وبين العالم الخـــارجي وراء البحار ، ... وبهذه الوسيلة ربطت فرنسا لبنان وربطت اقتصاده ومستقبله ارتباطا حتميا وأبديا بذلك الوضع الاقتصادي الاستثنائي الممتاز الذي خلقته خلقا حتى يصبح مصير ووضع لبنان مرتبطا الى أبعد حد بمصير وبوضع الغرب بحيث لو انحرفت سياسة لبنان عن هذا الوضع يوما ما أو بدلتـــه

بوضع آخر تعرض الى هزة اقتصادية عنيفة تثير ضده الطوائف المتفعة بهذا الوضع وهى طوائف تملك الوسائل والامكانيات التى تتيح لها القدرة على الوقوف فى وجه أى تبديل أو تغيير ، وتحظى كذلك بمساندة الغرب ومؤازرته لها .

وهكذا استطاعت فرنسا ، أن تضيف الى الحافز الدينى حافزا اقتصاديا ماديا قويا ليعمل الحافزان معا ـ على عزل لبنان بعيدا عن سائر البلاد العربية ، وليتفاعلا معا فى هذا الصدد كل عامل منهما بحسب قوة أثره من أجل هذه الغاية ، ولكى يظل لبنان متمسكا دائما بذلك الوضع الاستثنائى الخاص به ...

ولقد قيل ـ وقتئذ ـ ان لبنان لن يجد السبيل للتخلى عن هذا الوضع .. مالم يتبين له أن فى تمسكه به قضاء على مصالحه ، وهدما لكيانه ولوجوده ....



وهكذا طبقت فرنسا سياستها فى ظل انتدابها على لبنان ، تطبيقا ناجحا ... أما فى بلاد العلويين وفى جبل الدروز فقد اتجهت فرنسا الى تشجيع مختلف العناصر المتحركة فى هذه البلاد على الانفصال التام عن الدولة السورية ... وحينما امتدهذا الانفصال الى سنجق الاسكندرونة وراحت سورية تعارض انفصاله وتعمل على استعادة وحدته معها ، عارضت فرنسا هذا الاتجاه ، وفرضت على البلاد السورية الاعتراف بالوضع الخاص لسنجق الاسكندرونة الذى منح وقتئذ نظاما ماليا واداريا خاصا . ونقرر ان تكون له ثلاث لغات رسمية هى العربية والتركية والفرنسية ...



وعلى هذه الصورة خلقت السياسة الفرنسية لسورية وخلقت للبنان ذلك الوضع الذى كان من شأنه أن يؤدى فيما بعد الى اشعال نار الفتنة فى البلدين .

لقد قضت فرنسا على الحركة الوطنية السورية فى سنة ١٩٢٠ ،

وبدأت المعارضة الوطنية تزداد يوما بعد يوم واتخذت من حلب ودمشق مركزين لها . ومنهما تنبعث فى سائر انحاء البلاد ... وفى ١٧ من ابريل سنة ١٩٢٣ وجه السيد احسان الجابرى الى مجلس عصبة الامم نداء جاء فيه ما يلى . -

« لقد صبر شعبنا وأن البلاد لتطالب الحلفاء اليوم ، باصرار ، ليقوموا بتنفيذ التعهدات التي قطعوها لنا عندما وثقنا بهم وطلبنا اليهم منح شعبنا حريته واستقلاله اللذين اعتدت عليهما فرنسا ... ان الوعود التى بذلت أصبحت مجرد سراب ، وقد خاب فى الحلفاء أملنا . ولم تجد نداءاتنا ولم تأبه عصبة الامم بمطالب سورية الوطنية أو تلتفت اليها ....



.... وهكذا قضى على أبناء سورية أن يواجهوا المستعمر اخيرا وجها لوجه وأن يركنوا الى الكفاح فى سبيل حريتهم واستقلالهم ، على الصورة التى سنفصلها فى المرحلة الثالثة من هذا المؤلف ... »

الفصل الثالث والثلاثون

غـــزو العـــراق

« بريطانيا والخليج الفارسى ـ حماية طريق الهند ـ عامل البترول فى سياسته »
« ـ للخليج الفارسى اهمية قناة السويس ان لم يزد عنها ـ ضعف سلطة البـاب »
« العالى والتنافس بين الشـيوخ يمـكنان بريطانيا من التسلل بيسر ـ بريطـانيا »
« لاتواجه فى مناطق الخليج الا افرادا يتصرفون فى مصير الناس والاراضى ـ بريطانيا »
« وخطر التسرب الالمانى ـ آل سعود وآل مبارك ـ بريطانيا تشجع حركات التمرد »
« على سلطان الباب العالى ـ بريطانيا تتهيأ لغزو العراق حماية لمصالحها وتتخذ »
« من جزر البحرين قاعدة لها ـ بريطانيا تشرع فى غزو البصرة ـ بيان السير برسى »
« كوكس ـ هزيمة بريطانيا فى حملتها لاحتلال بغداد تدفعهـا الى مصـانعة العـرب ـ »
« بريطانيا تكشف فى مفاوضات « ماكماهون ـ حسين » عن مطامعها فى العراق ـ »
« لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا « البقشيش » الذى يطلبـه الشريف حســين »
« مقابل استجابته لسياسة بريطانيا فى العراق ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو وعزل »
« بغداد والبصرة عن سائر البلاد العربية ـ مصير الموصل ـ الشريف حسين لم »
« يكاشف العرب بالقدر الذى عرفه عن نوايا بريطانيا فى العراق ـ ولو انه فعل »
« هذا لكان للعرب موقف آخر ـ بريطانيا تحتل العراق وتحكمه حكما عســكريا »
« وتصادر الحريات وتقاوم الحركة الوطنية ـ بريطانيا تحاول اغراء شعب العراق »
« بطلب حمايتها ـ فشل المحاولة واشتعال الثورة ضد البريطانيين ـ بريطانيا تلجأ »
« من جديد للوعود للتخلص من ضغط الثورة حتى يتم لها تصفية مشكلة الموصل »
« مع فرنسا والحصول على وثيقة الانتداب على العراق باكمله ـ بيان السير برسى »
« كوكس ـ اقامة حكومة عراقية خاضعة لسلطان المندوب السامى البريطانى ـ بريطانيا »
« تمهد لعقد معاهدة تؤمن بها مصالحها وتحل محل الانتداب ـ بريطانيا والامير »
« فيصل وعرش العراق ـ الملك فيصل يوقع المعاهدة ـ التهديدات البريطانية ـ »
« بريطانيا والاقليات فى العراق ـ الاكراد والاشوريون . »

***

تحدثنا فى الجزء الاول من هذا المؤلف عن اهتمام السياسة البريطانية بوضع بريطانيا فى الخليج الفارسى بعد أن لاح لها الخطر الذى هدد طريق الهند حينما بلغت جيوش مصر فى عهد « محمد على » العراق ، فمنذ ذلك التاريخ أخذ ساسة بريطانيا فى العمل على دعم نفوذ بريطانيا فى الخليج الفارسى والامارات العربية فى تلك المنطقة فبسطوا هذا النفوذ على البحرين وعلى الكويت ، ثم كان اكتشاف آبار البترول فى ايران من أهم العوامل

التى زادت من خطورة هذه المنطقة فى رأى السياسة البريطانية ومن ثم فان بريطانيا عمدت الى فرض سيطرتها وبسط سلطانها وحمايتها على جزر البحرين والكويت ، بعد أن أصبح للخليج الفارسى أثر كبير ، ليس من اجل حماية طريق الهند فحسب ، بل ولحماية مناطق البترول فى ايران بعد ان آل امتياز استغلالها الى شركة بريطانية تملك اسهمها البحرية البريطانية ، مما جعل للخليج الفارسى فى رأى الساسة البريطانيين من الاهمية ما لقناة السويس ان لم تزد عن هذا ....

وجدير بنا ان نشير الى العوامل التى سهلت لبريطانيا بسط نفوذها وفرض حمايتها على مناطق الخليج بحيث وجد نفوذها الطريق معبدا وممهدا للتسلل اليها ، ذلك أن هذه المناطق ، على الرغم من أنها كانت اذ ذاك تابعة لولاية البصرة العثمانية فانه لم يكن للباب العالى فيها سلطة ، ولم يكن له عليها اشراف محكم ، وكانت تسكنها قبائل متناثرة فيها لاتربطهم رابطة ، يتزعمها شيوخ متنافسون ، شيوخ لم يبذل أحدهم للباب العالى من الولاء الا بالقدر الذى يمكن أن يستغله الشيخ فى ترجيح كفتة على شيخ آخر ... ولهذا فكان طبيعيا ـ ألا تخشى بريطانيا فى هذه المناطق مقاومة من الباب العالى ، ولم تكن تخفيها الا مقاومة من شعب متماسك متحد الكلمة بلغ من الوعى الوطنى الحد الذى يؤهله لكشف تسلل النفوذ الاجنبى الى بلاده ووقوع وطنه تحت الحماية الاجنبية ، وانما وجدت بريطانيا امامها فى مناطق الخليج افراد يتصرفون فى مصير قبائله ، ومصير أراضيه .

ثم جد أمام السياسة البريطانية ، فى هذه المنطقة ، عاملان خطران ، الاول ظهور البترول فى العراق . والثانى ـ مابدا من مطامع السياسة الالمانية فى الشرق ولا سيما اتجاه هذه السياسة الى الخليج الفارسى والهند ، وحصول ألمانيا على امتياز مد خط سكة حديد بغداد ...

فكان نتيجة لظهور هذين العاملين ، أن انتقل الصراع الى العراق بين بريطانيا والباب العالى من جهة وبينها وبين المانيا من جهة أخرى

واصبح لزاما على السياسة البريطانية ان تواجه موقفا أخذ هذه الصورة الجديدة .



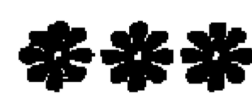
وقد استغلت بريطانيا لمواجهة هذا الموقف ، الكثير من العوامل التى كان ممكنا أن تناوىء بها تركيا وحليفتها المانيا ، استغلت التحالف الذى كان قائما منذ عام ١٩٠١ بين آل مبارك حكام الكويت ، وبين آل سعود ، والذى بفضله تمكن الشيخ عبد العزيز آل سعود وكان اذ ذاك - لاجئا الى الكويت ، تمكن من احتلال الرياض عام ١٩٠٢ والتخلص من الرشيدى الذى كان يحتل نجدا وتثبيت سيطرة آل سعود فيها على اساس التسليم بسيادة العثمانيين على نجد ، وقبول الشيخ عبد العزيز آل سعود القائمقامية عليها نيابة عن الباب العالى ... فالعلاقة كانت وثيقة منذ ذلك العهد بين نجد والكويت ، كما كان بين الاثنين ارتباط فى المصالح ، وكانت تربط علاقتهما علاقة بريطانيا بالكويت التى يرجع اليها الفضل فى فشل المحاولة التى قام بها الباب العالى عام ١٩٠٢ ليغير الاوضاع فى الكويت مستخدما فى ذلك قواته العسكرية فكان أن تدخل الاسطول البريطانى وقصفت مدافعه القوات العثمانية والقوات الموالية لها وأبقت السياسة البريطانية على الوضع القائم فى الكويت حتى لايتغير فتخسر بتغيره نفوذها فى هذا البلد ، كما استغلت بريطانيا ايضا ، لمواجهة الموقف ، ذلك النفوذ الذى كان يسود نجدا والكويت من سلطان الباب العالى فراحت تشجع فى هذين البلدين الحركات التى تعمل على التخلص من حكم الباب العالى وكذلك أخذت تشجع العناصر الوطنية فى ولاية البصرة على التخلص من الحكم العثمانى .

لما دخلت بريطانيا الحرب ضد المانيا اتجهت - على الفور - للعمل من أجل حماية مصالحها البترولية والاستراتيجية ، وبدأت تعمل لحماية بترولية عبدان وبترول العراق واخذت تتهيأ لغزو العراق مبتدئة بولاية البصرة فشرعت قواتها ، منذ اكتوبر عام ١٩١٤ اى قبل دخول تركيا الحرب ، فى التجمع بجزر البحرين تمهيدا لان تقفز منها على ميناء البصرة

حينما تتلقى اشارة البدء بهذا الاجراء الذى كانت اشارة البدء به متوقفة على دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا ....

وقد عهدت بريطانيا بمسئولية الادارة السياسية فى العراق الى السير بيرسى كوكس (Percy Cox) الذى ما أن دخلت تركيا الحرب ـ حتى اذاع على العرب بيانا أكد فيه أن بريطانيا لاتضمر لهم عداء وأنها تنتظر منهم ان يبادلوها شعور الصداقة ، وأنها لم تدخل الحرب ضد تركيا الا بعد ان اكرهتها عليها تركيا ... كما اكد البيان ، أن بريطانيا ستعمل الى جانب الدفاع عن مصالحها ـ « على حماية مصالح أصدقائها العرب . »

وقد تم للقوات البريطانية احتلال ميناء البصرة فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٤ وأمنت بريطانيا آبار الزيت في ايران ضد اى خطر محتمل من جانب القوات الالمانية والتركية ، ثم رأت الا تتوغل قواتها فى العراق خارج ولاية البصرة التى شرعت فى اعدادها لتكون قاعدة حربية لحملتها التى أزمعت شنها على القوات التركية فى ولايتى بغداد والموصل .



وما أن فرغت بريطانيا من الاعداد لهذه الحملة حتى شرعت قواتها فى غزو بغداد ـ دون أن تقيم وزنا لامانى العرب ورغباتهم وشعورهم ،مما حمل العرب على التخلى عن مساندة القوات البريطانية فى بلادهم ، فمنيت هذه القوات بهزيمة ساحقة أمام الجيش التركى عند مشارف بغداد واضطرت الى التراجع والانسحاب .

وقد كانت هذه الهزيمة ذات أثر عميق فى اقناع بريطانيا ، بأنه لامفر لها ـ لكى تنتصر على الاتراك ـ من الاعتماد على العرب وبأنه لابد لها من السعى في سبيل تأمين عون العرب لقواتها .

وجدير بالذكر ، أن المفاوضات ، كانت اذ ذاك ، مازالت دائرة بين السير آرثر هنرى مكماهون وبين الشريف حسين وكان ماكماهون قد كشفت فى وثائقها المتبادلة بينه وبين الشريف حسين عن نوايا بريطانيا

بالنسبة لبغداد والبصرة ، واصرارها على أن يكون لها فى هاتين الولايتين مركز موطد يعترف العرب به ، مما يستلزم تدابير ادارية خاصة من جانب بريطانيا لحماية هاتين الولايتين من الاعتداء الأجنبى ، ولحماية مصالح بريطانيا الاقتصادية فيهما ••• لقد بدت نية بريطانيا فى هذا الشأن واضحة فى وثيقة من وثائق تلك المفاوضات تبودلت بين مكماهون والشريف حسين بتاريخ ٢٦ من أكتوبر عام ١٩١٥ أى قبل هزيمة قواتها فى العراق •••• وعلى الرغم من وقوع هذه الهزيمة والدرس الذى لقنته لبريطانيا وبدا لها منه شدة حاجتها لمعاونة عرب العراق لها ــ وعلى الرغم مما سجله الشريف حسين من قوله بأن البصرة وبغداد هما من البلاد العربية الصميمة ••• فان حسينا قبل ــ تسهيلا للوفاق بينه وبين بريطانيا ــ ترك هاتين الولايتين تحت يد بريطانيا لقاء أن تؤدى بريطانيا للمملكة العربية المزمع تكوينها ، عن مدة احتلالها للولايتين قدرا مناسبا من المال •

وقد علق المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا على هذا الموقف من حسين ووصف قبوله هذا المبلغ من المال ، بقوله ان ذلك كان انموذجا للخلق العربى ، ونظرته الى (البقشيش) •

***

وتنفيذا لخطة السياسة البريطانية ، حرصت بريطانيا فى اتفاقية سايكس ــ بيكو ، على عزل ولايتى ــ بغداد والبصرة عزلا تاما عن سائر البلاد العربية وعلى وضعهما تحت الحكم البريطانى المباشر ، كما انها ادخلت فى هذه الاتفاقية « كركوك » فى منطقة النفوذ البريطانى بالدولة العربية المزمع انشاؤها وادخلت « الموصل » أيضا فى منطقة النفوذ الفرنسى بهذه الدولة •

وهكذا كانت حقيقة نوايا وسياسة الحلفاء تجاه العراق ، واضحة جلية منذ عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ وفى هذا الشأن يمكن القول بأن ــ الشريف حسين ــ كان يعلم من هذه النوايات على الأقل ــ الجانب الذى كاشفه به مكماهون فى مفاوضاتهما ــ غير أن الشريف حسين ، لم يكاشف العرب

بما عرفه في هذا الصدد ، وكتم عنهم حقائق ، اتاح كتمانها الفرصة للجنرال مود (Maude) قائد الجيش البريطاني في العراق في خريف عام ١٩١٦ لكي يذيع بيانا على الشعب العراقي ، يمنيه فيه بالحرية والوحدة والاستقلال ، فمكن بريطانيا من استمالة العراقيين وتجنيدهم في وحدات العمال لخدمة جنود الجيش البريطاني في نظام كان شبيها بذلك الذي كان معروفا اذ ذاك في مصر « بالسلطة » ، ولو أن الشريف حسينا صارح العرب وكشف لهم ما علمه من نوايا بريطانيا لما فوت الفرصة التي كانت مواتية للعرب ، كي يمتنعوا عن مساعدة جيوشها لا في العراق فحسب ، بل في كل مكان وفي كل بلد ..

ولعل هذا هو الذي دعا السير مارك سايكس لان يقول معلقا على تصريح للجنرال مود « بأنه كان لموقف الشريف حسين اثر فعال في انتصار بريطانيا على القوات التركية في العراق .. »

***

.... احتلت بريطانيا العراق واخذت قواتها تطارد الاتراك شمالا الى أن تم توقيع الهدنة بينهما في ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩١٨ . فاحتل الجيش البريطاني الموصل في اليوم التالي ..

أما بالنسبة للعراق ، فانه ما أن تم توقيع الهدنة حتى شرعت بريطانيا في حكمه حكما عسكريا مباشرا قام به سير بيرسي كوكس (Percy Cox) وقد طبق هذا الحكم بحيث كان قيدا لكافة الحريات العامة ، فألغيت في العراق الصحافة وصودرت فيه حرية الاجتماع ، وصودرت أموال الزعماء الوطنيين ، وفرضت على الأهلين الضرائب الباهظة .

وفي نوفمبر سنة ١٩١٩ حاولت السلطات العسكرية البريطانية اغراء شعب العراق بطلب حماية بريطانيا العظمى وفرضها رسميا على العراق ، غير أن هذه المحاولة من جانب بريطانيا باءت بالفشل وكانت ايذانا باشتعال الثورة في العراق ضد الحكم البريطاني .

***

وقد ظلت الثورة العراقية مشتعلة حوالى عام سقط خلاله من الثوار العراقيين عشرة آلاف بين جريح وقتيل ، وسقط من البريطانيين ألفا قتيل وجريح وقد كبدت هـــذه الثورة بريطـــانيا عشرات المـــلايين من الجنيهات أنفقتها في سبيل قمعها ، دون جدوى ، ولما لم تكن بريطانيا قد توصلت بعد الى تصفية بينها وبين فرنسا للوضـــع القـــائم اذ ذاك فى الموصل ، كما أنه لم يكن قد تم لها الانتداب على العراق فقد عمدت الى اسلوب الوعود والمخادعة ، حتى تتخلص من ضغط الثورة الى أن يحين الوقت المناسب لمجابهة العراق بوجه جديد من السياسة ثم لما تم لها تصفية الوضع فى الموصل وكذلك تمت لها موافقة المجلس الأعلى للحلفاء فى اجتماعه بايطاليا في مدينة سان‌ريمو على انتدابها على العراق • لما تم لبريطانيا هذا وذاك انبرت للعراق لتعمل سياستها فيه اعتمادا على ما أتيح لها من الامكانيات السياســية فعينت فى العراق أول مندوب سام لهـــا وكان هو الســـير بيرسى كوكس (P. Cox) وقـد بادر المندوب الســـامى البريطانى فأذاع فى ١٧ من يونيو سنة ١٩٢٠ بيانا ، أشار فيه الى مسئولية بريطانيا عن الامن الداخلى والخارجى للعراق ، والى اضطلاعها بوضع نظام دستورى للبلاد يكفل حقوق ومصالح مختلف الطوائف فيه ، كما يكفل تطوير العراق نحو الحكم الذاتى •

كذلك بادر بيرسى كوكس بتشكيل مجلس الدولة وباقامة حكومة عراقية مؤقتة تتألف من رئيس الوزراء ومن وزراء على أن يخضعو جميعا لاشرافه ولرقابته الشخصية ، وعلى ألا يكون لهم اختصاص فى الشئون العسكرية أو الشئون الخارجية ، كما عين لكل وزير مستشارا بريطانيا يتولى توجيه السياسة الداخلية •



وهكذا ، وضح لابناء العراق أن اهداف بريطانيا فى بلادهم تنحصر فى تأمين المصالح البريطانية فى هذا الجزء من العالم العربى وحماية طريقها الى الهند ، وتأمين سيطرتها على البترول فى العراق وفى ايران •••

... ولما كانت بريطانيا تخشى أن تتصدى عصبة الامم الى موضوع انتدابها على العراق بالذات فقد أخذت تمهد لعقد معاهدة مع العراق مباشرة تؤمن بها المصالح البريطانية وتسجل فيها اعتراف العراق لبريطانيا بالوضع الذى يريده وتسعى اليه فيه وحتى هذه المعاهدة محل وثيقة الانتداب .

وفى الوقت نفسه أعلن مندوب بريطانيا فى عصبة الامم أن حكومته تعد مشروع معاهدة تعقد بينها وبين العراق ، تتقيد بموجبها بريطانيا ، فى علاقتها بالعراق ، بالمبادىء التى أقرتها العصبة فى احكام ذلك النوع من الانتداب المعروف بالانتداب (أ) الذى تقرر تطبيقه على البلاد العربية التى سلخت من الدولة العثمانية ...

.... وأعلنت حكومة بريطانيا أنها تبحث مشروع اقامة دولة عراقية موحدة تشمل ولاية الموصل ، على أن توضع هذه الدولة تحت الوصاية البريطانية وأن يكون على رأسها امير عربى يطرح لاختياره استفتاء على شعب العراق ليدلى بأصواته فيما اذا كان يقبل ان يكون ذلك الملك اميرا عربيا ، ولكى يحدد الشعب ويعين شخص هذا الأمير ...

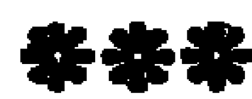
ولقد كان طبيعيا أن تعد بريطانيا وأن تقدم لهذا العرش الجديد ملكا يخدم اغراضها وينفذ سياستها فى العراق ، فوقع اختيارها على الامير فيصل ابن الشريف حسين ، بعد أن كانت فرنسا قد طردته من سوريا وتجدر الاشارة الى أن هذا الاختيار قد تم عقب مؤتمر عقده فى القاهرة المستر تشرشل (Charchill) وزير المستعمرات البريطانية وقتئذ واجتمع فيه بالقواد العسكريين البريطانيين فى الشرق وبالكولونيل لورانس (Lowrence) واستقر الرأى فى المؤتمر على تنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق .

... وتأسيسا على توجيه هذا المؤتمر ، رشح رئيس الوزارةالعراقية من اختاره السير بيرسى كوكس رشح الامير فيصل ليكون ملكا على العراق ، ثم أجرى استفتاء أشرف عليه واداره الجهاز البريطانى فى العراق ، وانتهى - بطبيعة الحال - الى تحقيق الخطة المرسومة فأيد

ترشيح فيصل ٩٧٪ من مجموع الاصوات التى دعيت للاستفتاء ... وتم فى ٢٣ من اغسطس عام ١٩٢١ تصيب فيصل ملكا على العراق ....

وعقب ارتقاء فيصل العرش ، وقعت حكومة العراق المعاهدة التى كانت بريطانيا قد أعدتها .... بل وصنعت من أجلها العرش والملك .

وعلى الرغم من أننا ، سنتناول فى المرحلة الثالثة من مؤلفنا ، الوضع فى العراق منذ توقيع هذه المعاهدة ، الا أنه لابد من الاشارة الى أن بريطانيا لم تكن لتنجح فى حمل ساسة العراق على قبول معاهدتها ، لو لم تهدد بفصل ولاية الموصل عن العراق وتسليمها للاتراك وكذلك بضم ولاية البصرة للهند ، ولو لم يوجه المندوب السامى بيرسى كوكس انذارا نهائيا للعراق حدد فيه اجلا معينا للتصديق على المعاهدة .



.... وعلى هذه الصورة كشفت بريطانيا القناع عن حقيقة سياستها فى العراق ، فوضح موقفها ازاء الشعب العراقى وانكشف الستر عما كانت تخبئه سياستها لهذا البلد ، وعما كانت منطوية عليه نيتهـا نحوه طوال سنى الحرب العالمية الاولى ، وبات واضحا أن بريطانيا انما كانت تخادع وتغرر به خلال تلك الحرب ، حتى تمكنت بهذا التعزيز وذلك الخداع ، من استغلال كل مافى العراق من امكانيات ، وسخرت كل مافيه من طاقات لخدمة أغراضها واهدافها من معاركها الحربية ، حتى اذا تم لها الانتصار ، تنكرت للعراق على الوجه الذى فصلناه .



ولكى نستكمل الصورة الحقيقية لسياسة بريطانيا فى العراق ، لابد من أن نعود الى تتبع اثر هذه السياسة منذ ان بدأت فى أوائل القرن العشرين ، حينما أخذت تلعب دورها فى أوساط الاقلية الاشورية والاقلية الكردية اللتين يتألف منهما أغلب السكان فى مناطق البترول بالعراق ، فقد راحت البعثات التبشيرية تتوالى منذ ذلك التاريخ ، على هذه المناطق ،

وتعمل متآزرة ورجال الاعمال البريطانيين فيها من أجل بسط النفوذ البريطاني على زعماء هاتين الطائفتين ، كما اضطلع عملاء بريطانيا أيضا بمثل هذا العبء في خدمة المصالح البريطانية في هذه المناطق • ومازال رؤساء العشائر في هاتين الطائفتين يحظون برعاية بريطانيا على هذهالصورة حتى أصبحت تلك الاقليات تشعر بمكانة ممتازة ومركز خاص ولهذا فقد كان من السهل على بريطانيا ، بعد أن تم لها احتلال العراق أن تفيد من هذه العلاقة التي ربطت بها زعماء الطائفتين فتيسر لها بغير عناء أن تجعل من الآشوريين والأكراد موالين لها تستعين بهم كلما عن لها ذلك ، وتحركهم عند الاقتضاء وتسخرهم لتحقيق أهداف السياسة البريطانية في العراق ـ مستعينة في ذلك بسياسة التفرقة بين ابناء الامة العربية ـ مستغلة فوارق الدين ومختلف النعرات ، شأن بريطانيا في كل بلد استهدفه استعمارها، لاسيما العراق ، بوجه خاص •

وهكذا ، لم ينصرم عام ١٩٢٠ ـ حتى أصبح لبريطانيا في العراق ملك وأقليات وعملاء وعلى هذه العناصر الثلاثة اعتمدت السياسة البريطانية دائما في كفاحها لحركات الوطنيين الاحرار من ابناء العراق كلما هبوا لمناهضة الاستعمار •

***

وقبل أن نختتم حديثنا هذا عن العراق ، نرانا مسوقين الى الحديث عن العشائر الأكراد ، ليس في العراق وحده بل حيثما وجدت ، في سوريا ، في ايران ، وفي الاناضول من حيث انصراف السياسة البريطانية لهم واتخاذ اوضاعهم المتفرقة في مختلف البلاد وسيلة للتغرير بهم بحيث تستخدمهم ـ عند الاقتضاء ـ لخدمة المصلحة البريطانية في البلد الذي تعيش فيه عشائر كردية •• فقد خلقت السياسة البريطانية أثناء الحرب العالمية الاولى املا للاكراد في اقامة دولة كردية تضم اكراد ايران والاناضول والعراق ـ وسوريا ـ وراحت تبدي في تصريحها الكثير عن هذه الدولة مما مكن لها من اجتذاب الاكراد والتفاهم حولها ثم توقفت رحى تلك الحرب دون أن تحقق بريطانيا للاكراد هذا الامل ، ودون أن تفي لهم

بعهدها فى اقامة دولتهم ••• ولم يكن ذلك عن عجز من بريطانيـا التى لو شاءت لما وقف فى وجهها بمؤتمر الصلح عائق •

ولكن نكوص بريطانيا عن عهدها للاكراد ، يرجع الى حرصها على ابقائهم فى الوضع الذى يمكنها دائما ، وفى كل وقت من استخدامهم ضد الدول التى يقيمون فيها كأقليات تعيش على أرضها •••• ولكى يبقى بيد السياسة البريطانية حلم « الدولة الكردية » تلهب به عند الحاجة مشاعر الاكراد وتثيرهم وتوجههم الوجهة التى تقتضيها مصالح بريطانيا ، وبغض النظر عما يمنى به الاكراد فى هذا الصـدد من الخسائر فى الارواح وما ينزل بهم من المآسى •

على أن هذه السياسة التى التزمتها بريطانيا فى العشائر الكردية قد لاتبقى – على مر الزمن – وقفا على بريطانيا – لتفيد هى وحدها منها ••• فان هناك دولا قد تنافس بريطانيا فى تسخير تلك العشـائر بالاسـلوب نفسه ••• ولكن من اجل تحقيق اغراض خاصة لمثل تلك الدول •

الفصل الرابع والثلاثون
شرق الأردن

« لويد جورج يقول ان فلسطين لن ترد بحال من الاحوال الى ذلك السلطان »
« الذى حال بينها وبين قوى المسيحية ــ الغرب يحدد مصير البلاد العربية التى »
« تخلصت من الحكم العثمانى عدا مصير الاراضى الواقعة فيما وراء الاردن ــ »
« الصليبيون يوضحون اهمية بلاد ماوراء الاردن الاستراتيجية كمركز لتهديد »
« سورية وشبه الجزيرة العربية والعراق والبحر الاحمر وسيناء ــ بريطانيا تحرص »
« فى اتفاقية « سايكس ــ بيكو » على ان تظل هذه المنطقة خاضعة لسلطانها فلا »
« تسمح بضمها لسورية ولا للعراق ولا للحجاز ولا لفلسطين ذاتها ــ الاسباب ــ »
« الاميران عبد الله وفيصل ــ بريطانيا والامير عبد الله ــ بريطانيا تجعل من هذه »
« المنطقة امارة تكون بحكم وضعها الجغرافى والاقتصادى وبحكم ظروفها السياسية »
« وبحكم عجز مواردها عن اعالتها فى حاجة الى العون الاجنبى ــ بريطانيا برغم »
« مصانعتها للصهيونية تحتاط لمواجهة مطامعها مستقبلا حالة ماتمتد الى طريق الهند »
« وآسيا ــ بريطانيا تحمى مصالحها ــ بريطانيا تناوىء الكافة فى سبيل الدفاع عن »
« شرق الاردن وتقاوم كل محاولة للمساس به ــ عروض الامير عبد الله ــ سياسة »
« بريطانيا تحدد للامير عبد الله مسلكه وسياسته ازاء اهداف العرب عامة وتجعل »
« منه أداة لتامين مصالحها وللسيطرة على العناصر الوطنية فى فلسطين ــ تمرد عرب »
« فلسطين على زعامة الامير عبد الله ــ بريطانيا تفرض وجود شرق الاردن كدولة . »

***

عندما تم للقوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبى قائد قوات الحلفاء فى الشرق الاستيلاء على فلسطين اتصلت القوات البريطانية فيها بالقوات التى كانت بالعراق وتم طرد تركيا من فلسطين والعراق ومن جنوب سورية بسهولة لم تكن لتتيسر اطلاقا للحلفاء لو لا معاونة القوات العربية لهم أملا فى أن تحثهم هذه المعاونة على البر لهم بما وعدوهم به من الحرية والاستقلال .

ولقد وقف المستر لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية وقتئذ فى مجلس العموم فى ٧ من ديسمبر سنة ١٩١٨ ليعلن أن استيلاء الغرب على المناطق التى استولى عليها فى الشرق ، لاسيما فلسطين ، قد أحدث أثرا

عميقا في العالم المتحضر وأن هذه البلاد المقدسة التي استولت عليهاالقوات البريطانية أصبحت اليوم في قبضة الجيش وفي مأمن دائم ، لانها لن ترد بحال من الاحوال الى ذلك السلطان الذي حال بينها وبين قوى المسيحية.

لقد كان الهدف العام لسياسة الغرب هو اعادة نفـــوذه على تلك الاراضي ، وقدسبق قبل احتلال بريطانيا لها ـ أن قرر الغرب مصـــير فلسطين السياسي في اتفاقيات « سان جان دي مورين » وسايكس ـ بيكو (Sykes-Picot) السريتين وبالرغم ممـــا تضمنته اتفاقية « ماكماهون ـ حسين » من عهود ، كان مصير فلسطين قد تحدد ... كان مصير سوريا قد تحدد ... ، كان مصير الجزء الشمالي من سورية تحدد ... ،وكذلك كان مصير العراق قد تحدد ... فيما عدا الجزء الشمالي منه الذي يشمل منطقة الموصل اذ كان محل خلاف بين بريطانيـــا وفرنسا ... ولكن تلك الأراضي الممتدة من وراء الأردن الى حدود العراق شرقا من جنوب الجزء الذي بقي في يد فرنســـا من العراق في الشمال من حـــدود الحجاز والبحر الاحمر جنوبا .... هذه المنطقة التي عرفت بمنطقـــة ماوراء الاردن والتي كانت جزءا لا يتجزأ من سورية طوال الأزمنـــة باستثناء الفترة القصيرة التي احتلها خلالها الصليبيون وأقاموا مافيها امارة ما وراء الأردن تلك الامارة التي برزت خطورتها الاستراتيجية منذ ذلك العهد فمنها هاجم « رينودي شـــاتيون » (Renaud de Chatillon) « ارناط » العرب في سورية وفي فلسطين وفي الحجاز وفي البحر الاحمر في عهد صلاح الدين .

ان الغرب أدرك خطورة وأهمية هذه البقعة من الوجهة الاستراتيجية بالنسبة للدول العربية فكانت وهي مقتطعة من سورية ـ مركز تهـــديد لسورية وتهديد للعراق وتهديد للحجـــاز وللبحر الاحمر عن طريق خليج العقبة وتهديد لسيناء ... لقد آلت هذه المنطقة الجدباء الفقيرة واتى لم يكن بها مصادر للثروة المعدنية ولم يكن يقطنها الا قبائل العرب الرحل، آلت هذه المنطقة الى بريطانيا التي حرصت كل الحرص في اتفاقية «سايكس ـ بيكو » على أن تظل تلك المنطقة خاضعة لسلطانها نظرا لاتصالها بالعراق

حيث توجد آبار البترول ، وحيث الطريق الى الهند ، كما حرصت على ان تكفل لها المعاهدة ـ ما أسلفناه ـ من الانتداب على فلسطين بتأييد وبمعاونة الامير فيصل .

غير انه كان لبريطانيا مصلحة كبيرة في تحديد موقفها النهائي من الوضع السياسي لهذه المنطقة ولم تكن سياستها تسمح بايه حال من الاحوال بضم هذه المنطقة الى سوريا لان ذلك من شانه اتصال سوريا بخليج العقبة وقطع الاتصال بين فلسطين والعراق ، كما لم تكن سياسة بريطانيا لتسمح بضم هذه البلاد الى الحجاز لان ذلك من شانه اتصال حدود الحجاز بسوريا، ومن ثم تطويق فلسطين وتهديد العراق ، ولا بضمها الى العراق لان معنى هذا أن تنمو قوة العراق وتصل الى حدود فلسطين التى آلت بريطانيا على نفسها ان تمكن الصهيونية العالمية من السيطرة عليها والاستقرار فيها .... لم يكن هناك ـ اذن الا احتمال واحد تراه السياسة البريطانية وهو ضم الاردن الى فلسطين ، وكان من شأن هذا الاجراء ان احرزت بريطانيا تأييد الصهيونية العالمية التى راحت تهلل له واعتبرته استجابة لمطامعها واهدافها الدامية لاقامة دولة اسرائيل فى فلسطين ولكى تمتد حدود هذه الدولة الى الفرات وهكذا كان الموقف فى نهاية سنة ١٩١٨

***

وفى سنة ١٩٢٠ وقع الخلاف المعروف بين فرنسا والامير فيصل الذى كان قد نصب نفسه ملكا على سوريا ، والذى يعتقد أن فى امكانه اقامة دولة عربية تضم هذه المنطقة التى تحرص بريطانيا على ابعادها عن كل نفوذ أو سلطان عربى ، وقع هذا الخلاف وانتهى بهزيمة الحركة الوطنية السورية فى موقعة ميسلون فى يوليو سنة ١٩٢٠ وفر الامير فيصل من سوريا وتبعه الكثيرون من المجاهدين السوريين الذين لجئوا الى الاراضى الممتدة وراء الاردن وظلوا بها متربصين لما عساه أن يقع من الاحداث فى سوريا ، وكان التجاؤهم الى هذه المنطقة قائما على اعتبار انهـا جزء من سوريا ،

وهكذا كان اميران من ابناء الملك حسين ينتظران من بريطانيا الوفاء بما بذلته لابيهما من الوعود الشخصية لتأمين مستقبلهما السياسى ، وبات الامر يستلزم تدبير عرشين لهذين الاميرين ... الاول الامير فيصل وقد دبرت له بريطانيا عرشا على العراق ، والثانى الامير عبد الله وقد

تصبته بريطانيا اميرا على هذا الجزء الذى انقطع من جنوب سوريا ...

ولم تكن بريطانيا قد اعلنت نيتها نهائيا فيما يتعلق بهذه الاراضى التى كانت قواتها تحتلها بقيادة الكولونيل بيك (Beck) فسمحت للامير عبد الله أن يبقى فى هذه المنطقة على رأس قوات عربية حيث شرع بمعاونة بيك فى اقامة نوع من الادارة المحلية فيها .

وقد خضعت الاردن فى أول الامر للادارة البريطانية المباشرة التى كان مركزها وقتئذ فى فلسطين ، ولم يكن للامير عبد الله أية صفة رسمية فى ادارة تلك البلاد .

وظل الامر على هذه الصورة الى أن عقد فى القاهرة مؤتمر عام ١٩٢٢ برياسة المستر ونستون تشرشل (W. Churchill) وزير المستعمرات البريطانية – اذ ذاك – وتقرر فيه كحل جزئى للقضية العربية انشاء امارة شرق الاردن وتنصيب الامير عبد الله حاكما لها .

وقد انتهت بريطانيا الى هذا القرار ، لانها كانت تستهدف من ورائه أكثر من غرض ذلك أنها كانت فى حاجة لان تقيم دولة فى هذا الجزء الذى اقتطعته من سوريا لتجعله قاعدة لها ، قاعدة كانت تعلم أنها بحكم وضعها الاقتصادى وبحكم ظروفها السياسية لايمكن ان تجد من الامكانيات الخاصة والموارد الطبيعية ما يعينها على البقاء او يكفل لها الوجود، قاعدة فى بلد لا مفر له من الحاجة الدائمة الى العون الاجنبى لكى يبقى ولكى يظل له كيانه والى جانب هذا الاعتبار الهام ، كانت بريطانيا وهى العليمة بخطورة الصهيونية العالمية واهدافها – تدرك أنه قد يأتى اليوم الذى تضطر فيه للجلاء عن فلسطين بسبب او آخر – وتدرك فى نفس الوقت المطامع الصهيونية العالمية – التى كانت بريطانيا على الرغم من حرصها على مجاملتها ومصانعتها تحرص فى الوقت نفسه على ألا تمكن للصهيونية من ان يمتد نفوذها وسلطانها الى قلب الطريق المؤدى الى الهند وآسيا ، كانت تدرك مطامع الصهيونية فيما وراء الاردن ومن اجل هذا رات انها باقامة هذه الدولة المصنوعة يقام حاجز فى وجه هذه المطامع ، لا ليردها عن اغتيال حقوق العرب او ليحميهم منها – بل ليحمى المصالح البريطانية فى هذا الجزء من العالم ولما كان حرص بريطانيا ايضا على مناواة السياسة الفرنسية تعين عليها ان تجعل لنفسها نقطة ارتكاز فى قلب الاراضى العربية تعينها على هذه المناواة وتهدد منها فرنسا فى سوريا – وكانت السياسة البريطانية حريصة على الاحتفاظ بهذا الموقع الاستراتيجى المطل على خليج العقبة كى يمكنها التسلل منه الى البحر الاحمر عند الاقتضاء .

هذه بصفة عامة كانت الاعتبارات التى دفعت بريطانيا الى خلق امارة شرق الاردن واصطناعها لنفسها وكان على بريطانيـــا فى أول الامر أن تقاوم الدعوة التى قام بها العرب فيما وراء الاردن والذين كانوا يعتبرون ارضهم جزءا لايتجزأ من سورية ، وكان على بريطانيا ايضا ان تحملهـم على قبول سلطان الامير عبد الله عليهم •

ومن اجل هذا ، كانت تلك المفاوضات والمباحثـات التى دارت بين ونستون تشرشل وزير المستعمرات ـ اذ ذاك ـ وبين الامير عبد الله بن حسين واشترك فيها الكولونيل البريطانى لورانس (Laurence) حول مصير فلسطين والاراضى الواقعة شرقى الاردن وكان هدف الامير عبد الله فى هذه المفاوضات هو اقناع تشرشل بأحد عرضين تقدم الامير عبد الله بهما املا فى أن يحقق له وزير المستعمرات ايا منهما ، اولهـــا ان يبذل الوزير مساعيه الودية لدى فرنسا كيما توافق على تنصيب الامير عبد الله ملكا عربيا على سوريا يتعاون مع فرنسا ويؤازرها بعد طرد فيصل من سورية وثانيهما اقامة دولة فلسطينية ـ فى حالة ما اذا رفضت فرنســا عرضه الاول وأن يكون هو على رأس هذه الدولة ، وأن تشمل الاراضى السورية الواقعة شرقى الاردن وغربيه وكذلك سنجق القدس •

غير أن « تشرشل » ، رأى ان ينصرف الامير عبد الله عن هـــذه المطالب ، ويظل فى الاراضى الواقعة شرقى الاردن يعمل عـلى استتباب الامن فيها •

ولذلك فقد ايدت بريطانيا الامير عبد الله وساندته بالمال وبالرجال لكى يثبت حكمه على هذه المنطقة ولكى تكفل له الاستقرار ، كما رسمت للامير سياسة يتبعها من اجل تزعم العناصر الوطنية فى فلسطين وفرض سيطرته عليهم ، واخضاعهم لتوجيهه السياسى فتأمن بريطانيا بهـذا على مصالحها مما قد تتعرض له من الأخطار نتيجة لتألب عرب فلسطين عليها •

وقد نجحت بريطانيا فى تحقيق هذه الأهداف ، وذلك بفضل اخلاص الأمير عبد الله لها وأصبحت الأردن قاعدة لبريطانيا او نقطة ترتكز عليهـــا

سياستها في الشرق ، غير أن النجاح لم يحالف بريطانيا في كل ما بذلته من المجهود لخلق زعامة سياسية للأمير عبد الله على الحركة الوطنية في فلسطين .

***

هكذا كان الوضع في الاردن في نهاية الحرب العالمية الاولى وكان متعينا على بريطانيا أن تفرض لشرق الاردن وجودا كدولة معترف بها سياسيا في المجال الدولي ، لا سيما أن كل ماصدر عن الحلفاء من تصريحات أثناء الحرب أو فيما أبرم بينهم انفسهم من مواثيق طوال مدة الحرب ، لم يشر بحالة ما أية اشارة ، يشتم منها انعقاد النية على اقامة دولة في هذا الجزء من العالم العربي ولم يكن لها اسم ولا ظل ....

ان بريطانيا رأت أن تجعل شرق الاردن دولة ذات كيان يعترف به دوليا ، وقد تم لها ذلك عن طريق وضع شرق الاردن بين البلادالخاضعة للانتداب البريطاني ، بل ان بريطانيا ذهبت الى ابعد من هذا ، فأعلنت في ٢٥ من مايو سنة ١٩٢٣ بلسان السير « هربرت صموئيل » الذي كان وقتئذ مندوبا ساميا على فلسطين ، استقلال دولة شرق الاردن والاعتراف بالامير عبد الله حاكما عليها ...

وفي نفس الوقت اعترفت لهذه الدولة بحقها في أن تدخل في اتحاد مع باقي الدول العربية وعند هذا الحد في هذا الجزء من مؤلفنا ، نقف ، لنعود فنشرح وضع شرق الاردن وما طرأ عليه من تطورات سياسية عندما تناول المرحلة الثانية من المؤلف .

* * *

وقد أردنا أن يجيء موقف الغرب وبريطانيا من مصر منذ احتلالها في نهاية عرضنا لسياسة الغرب في البلاد العربية ومواقفه منها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ليكون ذلك تمهيدا للمرحلة الثالثة من هذا المؤلف .

الفصل الخامس والثلاثون

بعد الاحتلال

« بريطانيا وبسط يد « السيد » على مصر ـ هل خدم « كرومر » مصر او »
« خدم مصالح بريطانيا ودعم الاستغلال البريطاني لمختلف المرافق المصرية ـ الخطوط »
الرئيسية لسياسة « كرومر » ـ يرى هوة سحيقة تفصل المصري عن الاوروبي ـ »
« « كرومر » يقسم المصريين الى طوائف لاتدين في مجموعها بالولاء لوطن واحد ـ »
« « كرومر » والاتراك المتمصرين ـ « كرومر » يصف شعور عامة المسلمين وعطفهم »
« على الحركة العرابية ـ « كرومر » والفلاح المصري ـ « كرومر » لم يجاهد »
« بآرائه الا بعد أن ترك مصر ـ « كرومر » وابناء مصر من الاقباط ـ « كرومر »لايرى »
« فارقا بين مسلم وقبطي ـ « كرومر » يرى وجوب التسلل الى الطائفة القبطية ـ »
كرومر » والمشارقة ـ « كرومر » والاوربي المقيم بمصر ـ « كرومر » وحقد »
« الاجانب على بريطانيا ـ « كرومر » والمصري المتفرنج ـ « كرومر » والحضارة »
« المسيحية ـ « كرومر » واحياء الاسلام وتطوير تعاليمه ـ نصيحة « كرومر » »
« للساسة البريطانيين والمبشرين ـ « كرومر » والادارة المصرية ـ موقف « كرومر » »
« من الجيش المصري ـ موقف « كرومر » من التعليم ـ راى « كولفن » في سياسة »
« التعليم ـ اهداف بريطانيا والاقتصاد المصري ـ أملاك الدائرة السنية ، شركة »
« البوستة الخديوية ـ السلع والمنتجات البريطانية في السوق المصرية ـ الفرق بين »
« استغلال « المشارقة والاوروبيين » لمصر واستغلال « بريطانيا » لها .. كرومر »
« والصفات الاساسية التي يجب ان تتوافر في الاداري البريطاني الذي يتولى »
« مسئولية الحكم في مصر .. »



يقول « اوكلوند كولفن » (Auckland Colvin) في مؤلفه (صنع مصر الحديثة) (The making of modern Egypt) ان صنع مصر الحديثة هو من عمل « لورد كرومر » ... وأنه كان متعذرا أن تصنع مصر ، بدون « لورد كرومر » الذي سيظل اسمه مقرونا باسمها .

ويستطرد « كولفن » في مؤلفة ، بأن الرسالة التى أبلغها لورد كرومر في ٤ من يناير سنة ١٨٨٤ وكانت صادرة من لورد جرانفيل الى سير ايفلين بيرينج (لورد كرومر) .

كانت متضمنة ابلاغ المصريين بأنه عندما يتحدث المعتمد البريطاني

فأنه ينطق باسم حكومة صاحبة الجلالة ، وأنه ليس أمام الوزراء في مصر الا الخضوع أو الانسحاب ، ويقول ان هذه الرسالة كانت ايذانا ببسط يد السيد على مصر ، (The masterfull hand) ولقد ظل لورد كرومر يسيطر على شئون مصر ويتولى توجيه شئونها لاكثر من عشرين عاما ،ونحن اذا استعرضنا العناصر الأساسية لسياسة اللوردكرومر في مصر منذ بدء الاحتلال حتى يوم رحيل كرومر عن تلك البلاد وهي مدة تجاوز عشرين عاما ، تبين لنا ما اذا كان هذا الحاكم البريطاني تولى شئون مصر ليجعل منها دولة حديثة ، أم أنه تولاها طيلة ايامه كموظف أمين على مصلحة الامبراطورية البريطانية والاستعمار البريطاني .. ؟ وهل كانت اساليبه ووسائله تهدف الى تحقيق مصلحة المصريين أم كان الهدف فيها هو تنمية مصالح بريطانيا ودعم الاستغلال البريطاني لمختلف المرافق المصرية .



ونحن اذ نستعرض الاحداث المختلفة من التاريخ ، فلن نستشهد الا مما سجله لورد كرومر نفسه في مؤلفه هذا .... كما أننا لن نخوض في تفاصيل ادارته للبلاد ولن نتعرض لما وقع في مصر من احداث سياسية بالشرح والتفصيل حتى لايخرجنا ذلك عن سبيلنا في مؤلفنا هذا ، وكل مافي الامر أننا سنبرز الخطوط الرئيسية لسياسة بريطانيا ـ وهي خطوط التزمها اللورد كرومر (Lord Cromer) في مصر وتصرف دائما في نطاقها كما التزمها قادة الاستعمار وممثلوه في كل بلد رزح تحت كابوس الاستعمار ، فأسلوب الاستعمار من حيث خطوطه الرئيسية اسلوب مشترك طبق في الجزائر كما طبق في تونس ، وفي مراكش وفي سائر البلاد التي سيطر عليها الاستعمار الغربي .

لقد تعرض لورد كرومر ، في مؤلفه ، للاوضاع التي كانت قائمة في مصر ، وما التزمته السياسة البريطانية حيال تلك الاوضاع ، فقال .

« اذا كنا في سنة ١٨٨٢ وما بعدها ، قد أجزنا للخديو وأعوانه من

الأتراك المتمصرين أن يحكموا البلاد وفقا لاساليبهم وعلى طريقتهم ، فان أساليب حكمهم هذه قد أصبحت عسيرة التنفيذ كما أن تطبيقهـا قد ازداد صعوبة يوما فيوما ذلك ، لانه بينما كانت البلاد ماضية في تطورها كانت قدرة الطبقة الحاكمة على تصريف شئون البلاد ، جامدة غير متطورة خاملة لاتتحرك ولا تتقدم خطوة نحو الامام ... واذ كان الاتراك المتمصرون قد استطاعوا ان يحكموا مصر بوسائلهم الجامدة وبطريقتهم الجافة في عام ١٨٨٣ ، فانهم قد عجزوا عن ذلك بعد أن بدأت موجة الحضـارة تمتد الى مصر ، ... وهكذا ، رأينا أنفسنا ننساق الى وضع يحتم وجود حامية بريطانية لم يكن الغرض من ايجادها فرض مشاريع الاصلاح وتنفيذها قسرا ، وانما كان الغرض من هذه الحامية تجنيب العودة بالبلاد ثانية الى حالة الاضطراب والارتباك والفوضى التى كانت تسودها قبل احتلالنـا لها .... »

وبهذه العين نظر اللورد كرومر الى وضع القضية المصرية ورسمها على هذه الصورة ، وقد تحدث كرومر في مؤلفه ، عن المصريين بصفة عامة فقال ، « لقد حرصت على أن أوضح ما كان للمعتقدات الدينية ، وما كان للتاريخ وللصفات الاخلاقية والثقافية والعادات الاجتماعية من الاثر فى خلق هذه الهوة السحيقة التى تفصل المصرى عن رواده الاوربيين . »

وبعد أن أشرك كرومر المصريين عامة فى هذه الخصـائص عاد فتحدث عن التناقض بين المصريين ، فقال انه لايرى فى مصر شعبا أو أمة ذات تقاليد وعادات ، ومثل وأهداف مشتركة .... وقسم المصريين الى طوائف وشـيع لا تدين فى مجموعها بالولاء لوطن واحد ، بل ان فيهم المسلمين ومن بين هؤلاء المسلمين اتراك خلصاء واتراك متمصرون ، ثم البدو ، ثم ابناء الجزائر وابناء تونس من المسلمين الذين يقيمـون فى مصر ..

ويقول انه عندما يتحدث عن المسلمين فانه يعنى العناصر السـابق الاشارة اليها .

وقد امتدح لورد كرومر فى مؤلفه الاتراك المتمصرين واعترف لهم من الناحية الادارية بصفات ممتازة واعتبرهم جنسا متفوقا على المصريين - وقال انهم يحتقرون ابناء مصر وينظرون اليهم على أنهم طبقة دنيا ـ كما يحقدون على البريطانيين بوصفهم حماة المصريين الذين يحولون دون سيطرة طبقة الاتراك المتمصرين عليهم .

ويعود كرومر فيقول ان البريطانيين ينتمون الى جنس استعمارى ، كما أن الاتراك المتمصرين ينتمون الى جنس كان حتى الامس القريب يتمتع بالسيادة ...

ويمضى فى وصفه للمسلمين فيقول بان عامة المسلمين لاسيما عمد ومشايخ الريف ، كانوا ممن يعطفون على عرابى ويعاونونه ، لان عرابى كان من جنسهم ، ومن بيئتهم ، وكان أملهم يتعلق به للتخلص من المرابين ومن الباشاوات .

وانه اذا كانت طبقة المشايخ والعمد وابناء الريف قد عانت من الفوضى الشاملة التى وقعت اثناء هذه التجربة القصيرة الى الحد الذى جعل الاذكياء يتساءلون عما اذا كان من الحكمة والعقل أن يضعوا مقاليد أمورهم ومصير قضيتهم فى يد جيش متمرد ، فعندما عاد النظام ، أجمعوا على استعادة ذكرى الحركة العرابية لانها كانت الى حد ما تمثل بعث سلطة العمد والمشايخ وتثبيتها على الرغم من سلطان الخديو ، ولم ينسوا ابدا انه لولم تلق بريطانيا بثقل سيفها فى المعركة لقذف عرابى بالباشا وبالاتراك المتمصرين واتباعهم فى البحر .

ثم يمضى لورد كرومر فيقول ، ان هذه الطبقة من المسلمين ماكانت ترضى ببقاء البريطانيين لانه لو كتب لها الانفراد بالامر لاستأثرت بنهب الفلاحين ، بدلا من وضعها الحالى الذى تكتفى فيه بفتات موائد باشوات مصر .... وأن الطبقة الوحيدة الجديرة بالرعاية والحماية من بين سائر المصريين هى طبقة الفلاحين ، «طبقة الجلاليب الزرقاء» . وأنه عندما يتعامل السياسى البريطانى مع الفلاحين فان عليه أن لا ينسى أمرين ،

الأول : أن غالبية سكان مصر هم من الفلاحين ، ومن أجل هذا كانت هذه الفئة جديرة بالاعتبار بحكم عدد افرادها .. .. والأمر الثاني : وهو يشير الى دهاء السياسه البريطانيه ، هو مازعمه « كرومر » من ان الفلاح المصرى لم يكن قبل الاحتلال يتمتع بأى امتياز بل انه كان دائما معرضا لان يسرق ، وينهب ولهذا ، فانه لن تكون هناك صعوبة فى التعامل معه ، لان المحتل (وقد سماه كرومر فى مؤلفه بالمصلح) يرث عند تعامله مع الفلاح الأوضاع ذاتها ويتلقى الحقوق ذاتها التى كانت قائمة ... وعلى هذا الاساس وبوصفه فى أدنى درجات السلم الاجتماعى فانه لا يوجد بعد الفلاح طبقة أدنى منه يمكنه السيطرة عليها والتحكم فيها ـ ويقول اللورد كرومر ان المشكلة الاساسية التى صادفت السياسى البريطانى ، والتى كان متعينا عليه أن يحلها تتلخص فى البحث عن الكيفية التى بها يمكن منح الفلاح امتيازا يجعله بمنأى عن اضطهاد الطبقـــة الحاكمة ويحميه من نهبها اياه دون أن يهتز بناء الفلاح ذلك البناء الذى على الرغم مما أصابه من مظالم ومتاعب وظل هو وحده الكيان الذى يحتفظ للمجتمع المصرى بقوة التماسك منذ قرون عديدة ..

ويستطرد كرومر فيقول ان الفلاح هو وحده الذى كان الاحتلال كسبا له ، لانه لم يكن فى يده قبل الاحتلال شىء يخسره بسبب الاحتلال ثم أنه لم يكن يتحمل أية تضحية نتيجة للحكم البريطانى فلم يكن لديه ما يأسف على فقدانه ..

ويعود اللورد كرومر فيتساءل : « ولكن هل الفلاح المصرى يقدر ـ حقيقة ـ تلك المزايا التى منحناه اياها ؟؟ »

« هل يضمر الفلاح المصرى الاعتراف بالجميل لاولياء نعمته (يعنى البريطانيين) .. ان الاعتراف بالجميل ليس من شيمة الفلاحين .. » ويمعن كرومر فى افترائه على أبناء مصر ، فيقول : بل ان نكران الجميل من الصفات البارزة فى الخلق المصرى .



والى هذه النتيجة الجاحدة انتهى تحليل اللورد كرومر لنفسية وطبائع وعادات المصريين المسلمين ، وجدير بالذكر أن كرومر ظل يخفي حقيقة رأيه هذا حتى لا يجاهر المصريين بما يكنه لهم من الانتقاص ، ثم انتقل كرومر في مؤلفه ـ الى مثل هذا التحليل لطبقة المسيحيين المصريين فقال : (ان المصرى القبطى من حيث الصفات الخلقية يتعادل والمسلم المصرى ، وان الفارق بين الاثنين ، هو أن القبطى المصرى ، يتعبد فى كنيسة مسيحية بينما المسلم المصرى يتعبد فى مسجد اسلامى .

❋ ❋ ❋

.. ولكن على الرغم من هذه البداية التى يسوى فيها كرومر بين المسلم المصرى والقبطى المصرى ، فانه يعود فيتحدث عن الاخير ملتمسا له العذر فى بقائه على ذات المستوى الذى عليه المسلم وبالتالى يعـــود ليمهد أمام سياسته السبيل كي يتسلل الى الطائفة القبطية ويجتذبها الى البريطانيين ... ولم يكن ذلك من « كرومر » الا استجابة لطبيعة الخبث والدهاء فى السياسة الاستعمارية ..

وفى هذا الصدد يستطرد كرومر ، فيقول « وأحسب أنه لابد أن نعترف بأن القبطى الذى يواجه العالم كمسيحى ، انما هو فى الواقع مسيحى ، حالت الظروف القهرية بينه وبين فرص الانتفاع الى حد كبير . من التعاليم المسيحية ... ولكن ، وعلى أية حال فان البريطانيين لايتسنى لهم العثور على حلفاء الا من بين ابناء تلك الطائفة التى تربطهـــم رابطة الدين المشترك ـ تلك الطائفة التى لابد من تبصيرها بتسلط المسلمين سيما الحاكم المسلم ، تلك الطائفة التى تمتاز بصفـــات متعددة متواضعة ومن مصلحة البريطانيين أن يستخدموها لتحقيق مصالحهم » ..

وفى وسع القبطى أن يبرز صفاته هذه من أجل صالحه ، طالما كان البريطانيون فى البلاد : ـ

وهكذا يرسم لورد كرومر سياستـه تجاه أبنــاء مصر المسلمين والاقباط ، فبالرغم من اعترافه بأن كلاهما مصرى فانه ينفث سموم سياسة

التفرقة بينهما ويعمل على استغلال رابطة الدين في أوساط الاقباط ليستخدمها ويسخرها لتحقيق أغراضه في مصر ..

... وعلى هذه الصورة راحت السياسة البريطانية في مصر تمعن في اصطناع مختلف اسباب التفرقة بين أقباط مصر ومسلميها ، وتغرس بذور الشقاق والعداء بينهما .

***

ثم ينتقل اللورد كرومر في مؤلفه الى وصف المشارقة وموقفهم من أبناء مصر فيقول : ـ

(هؤلاء هم المشارقة الذين كانوا يرون في المصريين فرائس لهم ، لا فرق في ذلك بين الامير المصرى ، وبين الفلاح المصرى ...)

ففي العهد الذى ـ لحسن الحظ ـ قد مضى وانصرم ـ استخدم هؤلاء المشارقة كل حذقهم ومهارتهم لأعمال السلب في مصر ... على أنهم ، كانوا ، بمجرد وصولهم الى مصر .. يبدون في المظهر الرفيع الذى لم يكن لهم في بلدهم ، حيث كانت لهم هناك الضعة وفي مصر كانوا يتعاملون مع الجهلاء والبسطاء والمغفلين ، ولهذا كان يسهل نهب هؤلاء الذين كانوا بحكم هبوط مستواهم العقلى ، يبدون في غفلة وضلال ، لا يمكنهم من الحكم على معاملة لا أثر فيها للخلق ، والذين كانوا ضعفاء ولا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم ، وكانوا غنيمة باردة في يد المغامر السافل الذى تمكن من التسلح بمختلف القوى التى استمدها من عون السياسة له ومن تعاونه الوثيق بمختلف الهيئات الديبلوماسية والمالية » ..

« هذه هي الطبقة التي أحالت الحضارة الاوربية الى نتن يزكم أنف المصريين الى حد ما والمشارقة ، أفادوا بقدر ضئيل ، وذلك بتقديم رءوس أموال أوربية في نطاق محدود على أنهم أضروا كثيرا ، اذ جعلوا اسم الأوربى في ذهن المصريين مقترنا بالدناءة في سبيل الكسب .

...ان الطبقة العالية من المشارقة كانت تعتبر الطبقة العالية من المصريين

فرائس لها أما الطبقـــة المنحطة من المشـــارقة فكانت تحتال دائما على الفلاحين .. »

ثم يعود اللورد كرومر فيتحدث عن الاوربى ، فيقول بانه لا يجوز اعتبار الاوروبيين المقيمين فى الشرق فى حكم الاوروبيين المقيمين فى بلادهم الأصلية ، فان الاوربى حينما يستوطن الشرق يتخلى ، فى سرعة ، عن صفات وخصائص كان يتميز بها فى بلاده ـ وهو يعتبر من ناحية الجنس منتميا الى « أوروبا غير انه من ناحية الواقع لا يعتبر ، على هذه الصورة ، فالايطالى مثلا يعتبر نصف ايطالى ، اذا أخذنا فى الاعتبـــار الخصـــائص الوطنية التى يتميز بها ، وكذلك اذا نظرنا الى الفرنسى مثلا وجدناه يجمع بين طبيعة التعصب الفرنسى المتطرفة ، وبين أقصى ما فى المشارقة من الصفات المرذولة ..

ويستطرد اللورد كرومر ، فيقول ان الاوروبيين المقيمين فى مصر ، يعتبرون فى رأيه ، وبصفة عامة أوربيين لابستهم طبائع المشارقة .

ولكن كرومر يستثنى من هؤلاء الاوروبيين البريطانيين ثم الالمان فيقول (انه ليس من السهل على أبناء هذين الجنسين أن يتطبعوا بخلق وصفات المشارقة ..)

ثم يقول كرومر ، انه يوجد الى جانب الاوروبيين فى مصر طائفة كبيرة من اليهود تتمتع بالجنسية الاجنبية بينما هم لا يزيدون من حيث المستوى عن المشارقة ، ويقول انه نظرا لان البريطانيين يحرصون على التزام الحد اللائق من مبادىء الاخلاق والنزاهة وقواعد السلوك فى تصرفاتهم ، فقد كان من الطبيعى أن يكون هناك دائما جفاء بينهم وبين غيرهم من الاوروبيين فى مصر الذين يمارسون التعامل بالربا وتجـــارة الخمور ، وما الى هـــذه الاعمـــال التى يأنف من مزاولتها البريطانى بطبيعته ..



... على أنه فى المناسبة التى استنكر فيها اللورد كرومر فى مؤلفه،

تلك الاعمال التى يزاولها غير البريطـــانيين من الاوربيين ، يعترف ، دون وعي ، بأن بريطانيا كانت تحمى هذه الاعمال وتحمى أصحابها • وفي هذا يقول (انه في الوقت الذى كانت تقوم فيه القوات البريطانية في مصر بحماية ارواح واملاك هؤلاء الاجانب ، وعلى الرغم من علمهم بأن هـــذه القوات كانت هي الحماية الوحيدة لهم من التعصب الاسلامي (يعنى غضب الضحايا المصريين) الذين كان هؤلاء الاجانب هدفه الاول وأول ضحاياه فانهم ، كانوا يحقدون ، برغم ذلك كله على بريطانيا بسبب حيلولتها دون اجهازهم على فريستهم ، من المصريين ، اذ أن الاجانب في مصر يدركون أنه لولا وجود القوات البريطانية والحكم البريطاني في مصر لاستطاعوا أن يحصلوا على أربعة امثال المغانم التى يحصلون عليها حاليا ، كما أنهم كانوا يتحسرون لفقدانهم تلك الفرص التى كانت متاحة لهم في عهـد اسماعيل لينهبوا مصر ويسلبوها أموالها ، وكان يشاركهم في هذا التحسر والاسف الطبقة الحاكمة في مصر ممن كانوا يشتركون معهم في سلب الشعب المصرى ونهب أمواله ••

***

••• ثم يستطرد اللورد كرومر موقف المصرى المتفرنج وموقف المبشرين الذين يبذلون في البلاد نشاطهم الثقافي والاجتماعي والديني فيقول : ـ

« ان المصرى المتفرنج المتطلع الى محاكاة الغرب عندما يتخـــلى عن معتقدات اجداده فانما يمضى في اتجاهه هذا غير لاو على شيء وراءه •• انه والحال هذه ـ لايترك تلك التقاليد ، فحســـب ـ بل انه يزدريهـــا ويحتقرها ، انه يندفع اندفاعا أعمى الى أحضان الحضارة الغربية ، دون أن يتعقل الحقيقة التى تؤكد أن ما تراه عيناه من هذه المدنية انما هـو مجرد الغلاف الظاهر منها ، بينما أن الاصول العميقة للاخلاق المسيحيـة تختبىء في القاع ومن العسير على مقلدى الاوربيين أن يحصلوا عليها عن طريق تقليد النظم الاوربية •• »

ثم يمضى لـــورد كرومر فيقول « ان المصرى المتفرنج يستشهد بالسماء على أنه تحلل من كافة القيود المستمدة من دينه وأصبح يحتقر تعاليم أجداده في هذا الصدد •• ويقول للاوربيين لدى طرقى الحديدية ولدى مدارسي وصحفي • ومحاكمي ولدى كافة الاشـــياء الاخرى التى مكنتكم من تكوين حضارتكم التى تفتخرون بها كما يبدو لى بوضوح ، ففيم اذن أكون دون مستواكم ؟؟ »

ثم يمضى كرومر فيقول « ان المسلم المتجرد من اسلامه ، بالرغم من جهله لما به من عيوب ، ذن به من ناحية محــــدودة نقصا منشؤه انه لا يستطيع التخلص من « دونيته » بجرة قلم ، وذلك لان الاوروبى المتحضر ـ كما نفهمه ـ وان لم يكن مسيحيا متدينا ، فانه على الرغم منه ، والى حد كبير ، نتاج الحضارة المسيحية ، وكان من المتعذر عليه أن يصل الى مستواه الحالى لو لم يكن وراءه رصيد من التعاليم المسيحية يرجع الى ١٩٠٠ عام • ثم يمضى كرومر فيقول : « وبالغا ما بلغ العداء للعقيدة المسيحية فلا يمكن انكار الحقيقة التى تعتبر أن الحضارة العالمية مدينة للمسيحية بالافكار الناضجة الهادفة الى الرقى والتقدم والتى انبعثت عنها تلك المحاولات الجادة لتحقيق هذا التقدم والرقى •• »

ومن العبث فى الوقت الحاضر أن نقامر بالنتيجة النهائية لتصارع مختلف القوى التى تلعب أدوارها الآن على مسرح العالم الاسلامى •

وغير محتمل أن يحصل العالم المسيحى على المزيد من القوة اما عن احتمال احياء الاسلام ونعنى الاسلام المستمد من تعاليم القرآن والتقاليد والعرف الاسلاميين ، فان ذلك ليس فى الواقع الا من الاحلام ذات الطبيعة الشاعرية التى تنقل خيال أولئكم الذين يتعلقون بهذه العقيدة الى أجواء بعيدة ••• ولكن كما شوهد ـ غالبا ـ فلم يسجل التاريخ أن أمة قامت بلا دين ، فلانسان حيثما كان يميل الى الدين ميلا لا يمكن مقـــاومته • ومن المتصور بمضى الوقت أن المسلمين سيطورون ديانة من المحتمل أن تستند الى التوحيد المجرد ، ثم تكون وسطا بين العقيدة الاسلامية كما كانت

في الماضي وبينها حسبما هي في الحاضر ، عقيدة تلقى جانبا ـ بالكثير من تعاليم محمد ، ولكنها تقيم قانونا اخلاقيا يحوى من المبادىء ما يكفي لربط المجتمع بروابط تختلف عن تلك الروابط التي تستند الى المصالح الشخصية الزائفة ... » وينتهي كرومر الى القول :

« بأن المصرى المتفرنج ـ كما نشاهده اليوم ـ أول كلمة للمجتمع الاسلامي المتطور ، ولن يكون آخر نتاج هذا التطور . ومن الممكن ـ على مر الزمن ـ أن تتطور مثل ثقافة وأخلاقية « أعلى » والى أن يتحقق هـذا فعلى الساسة الاوربيين أن يسجلوا في أذهانهم ، أنه عند تطبيق الاصلاحات التي يقدم عليها الاوربي بنية طيبة ، عليه أن يمتنع حرصا على اعتبارات تتصل بالمصلحة ـ عن الاقدام في أي اجراء يقصد منه اضعاف عقيدة المسلم عن تجاوز القدر الضروري الذي يستلزمه واقع الحال وللمبشر ولرجل الخير وللمصلح الاجتماعي وللآخرين الذين ينهجون نهجهم الحق في أن يمكنوا من العمل ، لان أهدافهم عظيمة ، وأن حكمهم في بعض الاحيان قد يعتريه بعض العيوب وسيكون في امكانهم مع بعض الرقابة أن يحققوا خيرا عظيما ولو في نطاق ضيق .. »

***

وعلى ضـــوء الآراء والملاحظات التي أبداها « كرومر » فيما يتعلق بالمصرى المتفرنج وبوضع الاقباط في مصر ينتقل اللورد كرومر الى شرح الدور أو المهمة التي يمكن أن تنهض بهما الارساليات أو الجماعات التي تقوم بأعمال البر ، وبالدعوة الى الاصلاح تحت رعاية المحتل فيقول :

« ان مثل هذه الجماعات والافراد سيجدون أمامهم حقلا خصبـا للعمل . لأن مقاصدهم وأغراضهم مقاصد وأغراض رفيعة سامية ، عـلى الرغم مما قد تتعرض له في بعض الاحيان من التشويه وعدم تمييزها ..

ان هؤلاء جميعا وبشيء من القيادة يمكن أن يفعلوا الكثير في نطاق ضيق ، وذلك بما تصطبغ به أعمالهم من الروحانية والعاطفة ، اذ يكون لها من الأثر الاصلاحي ما تزيد أهميته عن أثر اعمال القائمين على الادارة

ورجال السـياسة ، بل ان هؤلاء سيسيرون ويحذر وراء الأولين ، وفى الطريق الذى يشقونه،وربما يجنى رجال السياسة ثمار أعمال هذه البعثات الانسانية .

.... ومن كل هذا فان على هؤلاء الذين يستولون قيادة عجلـة السياسة ، على هؤلاء الرواد أن يحذروا قدر الامكان،وبحذق، حتى لايهزوا الكيان الروحى فى المجتمع الشرقى . انه لمن أخطر الامور ــ سياسـيا واجتماعيا وعاطفيا ، أن تستهين بالعقائد الدينية لشعب ما بأسره

***

ويتحـدث اللورد كرومر فى مؤلفه عن الادارة المصرية منـددا بفسادها ، لاسيما فى عهد اسماعيل ، فيقول « قد لا يوجد فى العالم دولة تفشت فيها الرشوة والفساد بقدر ما تفشت هاتان فى مصر فى عهد الخديو اسماعيل ... وان هذا المرض الذى يعتبر ــ بحق ــ السرطان الذى يفتك بالدول الشرقية كان سائدا فى تلك البلاد ولقد حذا رعايا الخديو اسماعيل حذو سيدهم ، فتعاملوا بالرشاوى أخذا وعطاء ، وكان لزاما على الادارة البريطانية أن تضع حدا لهذا الفساد وأن تقضى على الوسائل التعسفية التى كانت تعمد اليها السلطات الحاكمة فى تعذيب الاهالى كما كان عليها أن تصفى بصفة نهائية نظام السخرة فى جميع أنحاء مصر ..

***

ويمضى اللورد كرومر مستعرضا سياسته التى طبقها فى مصرفيقول عن الجيش المصرى .. « انه ازاء ما كان يجرى فى السودان من تطورات كان من الواضح أنه يتعين العمل على حماية حدود مصر الجنوبية ، اما بقوات بريطانية واما باعادة تكوين الجيش المصرى وزيادة عدد قواته زيادة تمكنه من الاستغناء عن العون البريطانى ، غير انه رئى أن الاعتماد بصفة كلية على قوات مؤلفة من الفلاحين يعتبر تصرفا بالغ الخطورة ومن أجل هذا ، وتمشيا مع توصيات اللورد دوفرين (Dufferin) كان متعينا تكوين قوات مشتركة من الفلاحين والسود كما كان لزاما علينا ألا ننسى أبدا ان جيشا مكونا من مسلمين يتولى قيادته الى حد كبير ضباط من المسيحيين

لن يكون ، فى الواقع الا أداة حساسة تحتـــاج الى أكبر عناية فى كل تصرف ....

وهكذا انتهى الامر بالجيش المصرى الى أن يكون قوة محرومة من قيادة مصرية تعمل من أجـل مصر بل تحول الى قـــوة بوليسية يقودها البريطانيون لحساب السلطات البريطانية ولدعم بقاء البريطانيين فى مصر واحتلالهم لها ... »

***

ويوضح كرومر موقف بريطانيا من التعليم فى مصر فيقول : « انه من وجهة النظر السياسية كان أهم سؤال فيما يتعلق بالتعليم ، هو هل من تعلم من المصريين وعددهم فى تزايد مستمر ، يملكون تلك الخصائص والمزايا والصفات التى تؤهلهم لأن يحكموا مصر حكما ذاتيا ؟

ثم يعود كرومر ويقول « ولنضع هذا السؤال بصيغة أخرى « اذا أدخلنا التكوين ضمن عناصر المسألة تكوين المتعلمين لا عقليا فحســـب ، بل خلقيا أيضا ، وبعبـــارة أدق ، اذا شمل التعليم كافة العناصر العقلية والاخلاقية والمؤثرات التى من شأنها أن تهيىء الفتاة أو الفتى لحياة عملية مفيدة ، فهل تحقق أى نجاح فى هذا المضار ؟ ويزيد كرومر رأيه وخطته بصدد التعليم فى مصر وضوحا ، فيقول « ان المسألة لأهون من هذا ، أى أن علينا أن نقنع الجيل الجديد من المصريين أو اجباره على أن يتشبع بتعاليم وبعقلية الحضارة الغربية ، وبالرغم من أن أوربا قد تحـــولت الى المسيحية أولا ــ ثم تحضرت ثانية ــ فمن الجائز أن يحتج استنادا الى بعض الادلة المعقولة قياسا على ما جرى فى اليابان أمامنا ، بأنه ليس من الضرورى القول بأن المسيحية من المستلزمات الحتمية لتطبيق أساليب الحضـــــارة الاوربية ، كما يمكن القول أيضا بأنه من المستحيل التشبع بروح الحضارة الاوربية الحقيقية مالم يؤمن ويعتنق الشعب الديانة المسيحية ، وذلك لأن الحضارة المسيحية تهيىء امكانيات أكبر للتشبع بالمبادىء وبأشكال الحكومات المتطورة وهو أمر لا يمكن أن يحاربنا فيه جمود الاسلام .. »

وهذا الذى قاله كرومر فى هذا الصدد يتفق فى معناه ، ومذكره السـير أوكلاند كولفن (Auckland Colvin) المراقب المالى السابق فى مؤلفه (صنع مصر الحديثة) اذ يقول « بانه لاضرر فى أن يتم الاصلاح على مر الاجيال طالما أن السعى من أجل ذلك مستمر أمام أعين أولى الشأن ••• وأنه اذا نظرنا الى المسألة من جانب آخر نرى أن ما يمكن تحقيقه من التقدم فى تطور النظم الادارية ليس بأى حال من الاحوال عاملا ذا أهمية يبدو لأول وهلة ، فان المسألة لا تقاس قيمتها بالقدر الذى ينفق من الأموال ، وانما تقاس بالروح القوية ، وبمدى النضوج العقلى الذى يمكن أن يتوافر عن طريق التعليم لمن يتولون الاشراف على سائر فروع الادارة الحكومية وقدرتهم على غرس هذا الشعور فى مرءوسيهم من المواطنين .. وأن هذه مسألة هامة فى مصر ، كما هى كذلك فى الهند ، لأن الغرض منها هو تحقيق هدفين أحدهما تربوى والثانى ادارى ، ثم ان قلة مايخصص لذلك من الاعتمادات لا ضرر منها ، لأن الوصول الى تحقيق هذا الهدف لا يرتبط بالاعتبارات المالية لانه معنوى بحت ••• وأهم ما يتعين علينا تحقيقه هو أن نقر هذا المعنى فى أذهان الطبقات العاملة فى سائر وظائف الدولة فى كافة المراكز وعلى كافة المستويات ونعمل على أن تتشبع بهـذه الروح ، فان النزاهة ، والشعور الدقيق بالمسئولية والحماس والمواظبة فى تأدية الواجب مهما بلغت المتاعب ومهما انتفت منهـا المصلحة الخاصة ، والشعور بأن الخدمة العامة هى انعكاس للثقة يحرزها الانسان ، والسعى الامين لزيادة المعرفة والافادة من التجارب وهذه كلها أمور لها أهميتهـا الكبـيرة ••

والى أن يتم كسب هذه الصفات ، والى أن يمكن التحقق من وجودها بصفة دائمة بحيث تصبح التقليد السائد وتصبح القاعدة للعمل ، فان كل زيادة فى الاعتمادات المخصصة للتعليم من شأنها أن تضر أكثر مما تفيد••• وأن نمو هذه الصفات على الصورة التى أوضحناها لا يمكن أن يقاس بعدد الجنيهات الاسترلينية ولا الجنيهات المصرية ، وليس من اليسير فى كل الاحوال الحصول على هذه الصفات •••)

***

وواضح من الاسلوب الذى جرى عليه «كرومر» وفسره «كولفن»

أن هدف بريطانيا كان توجيه السياسة التعليمية توجيها استعماريا بحتـا ، أى خلق طبقة من المصريين تؤمن وتتشبع بروح الغرب ، أو بمعنى أدق بتعاليم الغرب السياسية وتوجيهاته كما تؤمن بسيادة وبتفـوق العنصر الغربي .... وما من شك فى أن « أوكلاند كولفن » زاد الأمر ايضاحا، اذ حلل عدم توسع البريطانيين فى الانفاق على التعليم والعمل على نشره بمصر بأن ربط بين مستوى الأسبقية والأفضلية للنوع ـ لا للعد ، وأكثر من ذلك ، صرح بأنه لا ضرر فى أن تصبر مصر وتنتظر أجيالا حتى يتم لها تكوين الطبقات الصالحة ، وحتى يصبح التعليم منتجا للآثار التى تتوخاها وجهة النظر البريطانية ..

وفى هذا الاتجاه فى الرأى ما يكشف النيـة الحقيقية للسياسـة البريطانية بالنسبة لنشر الوعى بين الشعب المصرى ويهتك سر هذه السياسة التى كانت تعمـل على اعاقة الحـركة التعليمية مستخدمة فى ذلك كافة الوسائل التى كانت تملكها ، طوال سنوات الاحتلال ، وتنفيذا لهذه الخطة ، كان من الطبيعى أن تقيد بريطانيا الالتحاق بالتعليم العـالى بشتى القيود ومختلف الشروط المعوقة ، وأن تلغى المجانية فى أغلب المراحل التعليمية، كما ألغت المدارس الحربية التى كانت من قبل ـ معدة لتخريج الضباط لمختلف أسلحة الجيش كما أبطلوا تدريس علوم الآثار والمساحة والألسن والزراعة والطب البيطرى ، وكذلك حالوا دون سفر الطلبة المصريين لتلقى العلم خارج بلادهم ، كما أوقفوا ايفاد البعثات العلمية الدراسية على حساب الحكومة لمدة طويلة ... وقد تناولت هذه القيود المعوقة مختلف مراحل التعليم ، ومن بينها التعليم الفنى ..

وقد سخرت بريطانيا قسا مبشرا ليقوم على تنفيذ خطتها بصدد اعاقة الحركة التعليمية فى مصر ، فسيطر هذا المبشر ، الذى لم تكن له أيـة خبرة تربوية على شئون التعليم فى مصر ، بحكم وظيفته الرسمية التى وضع فيها لمدة ثمانية وعشرين عاما من سنة ١٨٩١ الى عام ١٩١٩ وكان هـو القس دوجلاس دنلوب ..

هـــذه كانت سياسة بريطانيا بالنسبة للتعليم فى مصر وذلك كان أسلوبها فى اعاقة الحركة التعليمية بالبلاد • أما سياستها بالنسبة لاقتصاد مصر فكانت سياسة احتكارية محضة ، تستهدف الاستئثار لأبنائها ولمؤسساتها وشركاتها باستغلال كافة المشروعات الرئيسية فى المجال الاقتصادى لكل مشروع ضخم ، وقفا على هؤلاء وحكرا لهم ، دون سواهم ، فظفـــرت شركات بريطانيا بأملاك الدائرة السنية فمكنت من شراء تفتيش بســنديلة الزراعى فى الوجه البحرى بثمن بخس ، على الرغم من شتى العروض ذات الاثمان العالية التى تقدم بها أصحابها لشراء هذا التفتيش ••

وحصلت شركة بريطانية على امتيــــاز استغلال السكك الحديدية الزراعية (الضيقة) وأرسى على الشركات البريطانية العطاءات الخاصة ببناء مختلف الكبارى والخزانات والقناطر الضخمة •• بل ان احدى هـــذه الشركات البريطانية مكنت من شراء بواخر البوستة الخديوية ، وكانت مؤلفة من احدى عشرة باخرة ، بيعت الى هذه الشركة بمائة وخمسين ألف جنيه ••• ثم أكرهت بريطانيا الحكومة المصرية على أن تشترى من ذات الشركة حوضا جافا نظير ثمن قدره تسـعون ألف جنيه ، كما الزمت الحكومة بأن تمنح هذه الشركة اعانة سنوية قدرها ستة آلاف جنيه ••• ثم عادت بريطانيا فعينت على الحكومة المصرية أن تقرض الشركة قرضا ماليا كبيرا وأن تقف على بواخرها ، دون سواها امتياز نقل الحجاج الى ومن الاراضى المقدسة ••• وعلى هذه الاسس الاستغلالية قامت شركة بواخر البوستة الخديوية البريطانية بنشاطها فى مصر ، وعلى حســاب مصر ••

وكان طبيعيــا ـ بحكم احتــلال بريطانيا لمصر وسيطرتها على كافة شئونها ، أن تنفرد المصنوعات والسلع والمنتجات البريطانية بأسواق مصر ـ وتحتكرها وألا تستورد المصالح الحكومية ماتحتاجه الا من بريطانيا •



وان هذه الحقائق ، لتنفى نفيا تاما ما زعمه كرومر من ترفع البريطانيين عن الهبوط الى مستوى عامة الاوروبيين والمشارقة فى ميادين الاستغـلال

الاقتصادي بمصر ، بل لعل ما أثبته الواقع في هذا الصدد يؤكد ، ان الفرق بين الاستغلال البريطاني واستغلال علمة الاوروبيين والمشارقة في مصر ، هو ان الاول كان على مستوى اكبر وعلى صورة اخطر واوسع ... لقد كان علمة الاوروبيين والمشارقة يستغلون الافراد في مصر ، أما بريطانيا ، فقد استغلت مصر ذاتها ـ استغلت الدولة برمتها ...

* * *

وينتقل اللورد كرومر الى ايضاح الصفات الاساسية التي يجب أن تتوافر في الاداري البريطاني الذي يتولى مسئولية الحكم في مصر فيقول «ان مثل هذا الحاكم لابد أن تتوافر فيه مرونة في التفكير والتصرف تمكنه من القدرة على التصرف في الظروف الطارئة او الغريبة عنه تصرفا يستهدي فيه بمعرفته وبتجاربه العملية الطويلة ، ولا بد أن يكون متميزا بسلامة الحكم على الاشياء بحيث لايخلط بين سوء التصرف والتلاعب الذي يتعين تقويمهما في الحال وبين التصرفات التي وان تكن خاطئة فانه قد يكون من الحكمة السكوت والتغاضي عنها الى الوقت الذي تحدده حكمته وتجاربه ...

وان مثل هذا الحاكم ، يجب أن يكون قديرا على التفريق بين المسائل والتعرف على مختلف انواعها، قديرا على أن يجعل قراراته وتصرفاته ملائمة، وعلى وجه السرعة ، للضرورة التي تقتضيها الاوضاع المحلية .... وذلك كله من أجل أن يبلغ هدفه الاصلاحي الذي يتوخاه ...

.... لا بد أن تتوافر في الحاكم البريطاني الكياسة والقدرة على التوفيق بين المشكلات على شرط ألا تتحول هذه الكياسة فيه الى ضعف ، لابد أن يكون صارما ، ولكن في غير قسوة متسلطة آمرة .. وليحذر ، دائما فرض نفسه وشخصه ... ليحذر كل الحذر من أن يقتصر شعور الناس بوجوده كشخص يحكم ، بل يجب أن يحرص على أن يشعر الناس بوجوده كسلطة ، أى أن يشعروا بسلطانه لا بشخصه .

هذه كانت الصور التي يرجو كرومر أن يكون عليها الحاكم البريطاني الذي يعهد اليه بتنفيذ خطة الاستعمار ، وهذه كانت الصفات التي يرى انه لابد من توافرها في مثل هذا الحاكم ، أما الصورة وأما الصفات التي كان يرجو كرومر أن يكون عليها من يتولى مسئولية الحكم في مصر من المتمصرين أو من المصريين أنفسهم ، تركيا كان الحاكم أو عربيا ، مسلما كـــان أو مسيحيا ، فان كرومر كان يرجو أن تكون صورة وصفات اخرى ، وعلى نقيض مما حدده واشترطه في الحاكم البريطاني ، فقد حبذ كرومر في مصر هؤلاء الحكام غير البريطانيين واقام تقديره لهم وتقريظه لحكمهم ، على أساس ما اتصفوا به من حبهم واحترامهم للمدنية الغربية وايمانهم بها دون سواها، وعلى آرائهم التي تتمسك ببقاء الاحتلال البريطاني في مصر وشعورهم العميق بأن هذا الاحتلال هو سندهم الوحيد ليبقى لهم النفوذ والسيطرة والحكم ، ويقينهم بأن ما أوتوه من مراكز الحكم رهنا ببقاء الاحتلال ويزول بزواله .

•••• ان اللورد كرومر لم يفته أن يطبق كل الاساليب الاستعمارية في مصر بحيث تناولت أساليبه كل طاقات مصر فسخرتها لصالح الاستعمار ••• وكما أنه عمل على اضعاف طاقة البلاد التعليمية وحال بينهـــا وبين النهوض في هذا الصدد ، فانه كذلك ناهض طاقتها الاقتصادية ، بل انه سخر هذه الطاقة لخدمة الاقتصاد البريطاني ، فحول مصر الى مزرعة لبريطانيا ، سخر قطنها لتزويد مصانع النسيج في لانكشير ، سخر مناجمها لتزويد المصانع البريطانية بمختلف الخامات •

على أن سياسة بريطانيا في مصر كانت تصطدم بثلاث عقبات أساسية تحول دون تمتعها بحرية العمل في مصر كما تشتهي •••• وكانت تلك العقبات هي : ـ

أولا ـ الصراع بين بريطانيا وفرنسا •

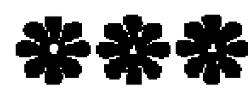
ثانيا ـ الامتيازات الاجنبية •

ثالثا ـ الحركة الوطنية في مصر •

الفصل السادس والثلاثون
الصراع بين بريطانيا وفرنسا

الاتفاق الودى

« اتفاقية القسطنطينية لم تضع حدا للمنافسة بين الدولتين فى مصر — »
« السبب — بريطانيا تحاول الوصول الى حل — صور من الصراع والتنافس بين »
« الدولتين فى مصر — الاعتبارات السياسية والاقتصادية تملى على فرنسا موقفها — »
« « كرومر » والصراع بين الدولتين ورايه فى موقف فرنسا — « كرومر » يقرر بان »
« من المتعذر على بريطانيا تنفيذ تعهدها بالجلاء — « كولفن » يقول أن احتلال »
« بريطانيا لمصر أصبح بحكم الظروف احتلالا ثابتا — « كرومر » يدعو لوضع حد »
« للصراع والتنافس بين فرنسا وبريطانيا وليتسنى للثانية التصرف فى شئون »
« مصر دون حدود على ان تحقق لفرنسا اغراضها — الاتفاق الودى فى أبريل ١٩٠٤ »
« — المسيو ديلكاسيه رئيس وزراء فرنسا يوضح حقيقة مادار فى المفاوضات التى »
« — انتهت بعقد الاتفاق — ضرورة تسوية المنازعات — تقسيم غرب افريقيا وتوزيعها »
« بين فرنسا وبريطانيا — تحديد مستقبل مراكش — ديلكاسيه يقول لم يبق لفرنسا »
« فى مصر الا المصالح المالية والثقافية والفرنسيين العاملين فى الحكومة المصرية »
ونشاط الفرنسيين الاقتصادى فى مصر — نجاح فرنسا فى حماية المصالح المالية — »
« عدم التعجيل بالوفاء بالدين المتاز — اكراه مصر على عدم استعمال حقها فى »
« التعجيل بالوفاء بالدين المضمون والدين الموحد — الاجراء يكفل لحملةالسندات »
« فوائد لمدة ثمانى سنوات اضافية — بريطانيا تقبل تسليم فرنسا مصانع السكر »
« القائمة فى مصر وما يتبعها من خطوط حديدية لتحتكر فرنسا صناعة السكر — »
« بريطانيا تعامل رعايا فرنسا معاملة مساوية للرعايا البريطانيين — كفالة »
« الضمانات للموظفين الفرنسيين — مزايا متصلة باللغة الفرنسية ودور التعليم — »
احتكار فرنسا للادارة العامة للآثار — تنازل بريطانيا عن تحفظاتها فى اتفاقية »
« القسطنطينية الخاصة بتنظيم المرور عبر قناة السويس — « ديلكاسيه » يعدد »
« المزايا التى حصلت عليها فرنسا فى مصر . »



لم تنجح اتفاقية القسطنطينية التى عقدت لتنظيم المرور فى قناة السويس فى وضع حد للمنافسة القائمة بين بريطانيا وفرنسا فى مصر — وذلك لانها كانت انعكاسا لمنافسة كبرى واسعة بين الدولتين فى شتى أنحاء العالم ..

لذلك حاولت بريطانيا بشتى الوسائل الوصول الى حل ، غير أن

ذلك لم يكن ادراكه يسيرا أو قريبـــــا ، وقد عانى كرومر (Cromer) الأمرين من جراء هذه المنافسة فطالما اصطدم بفرنسا أثناء محاولاته تنفيذ أغراضه السياسية فى مصر ـ بل ان فرنسا اتخذت من كل فائدة استهدفتها بريطانيا فى مصر سلعة للمساومة تحقق لنفسها كسبا مقابلا لها .. ومن الأمثلة على ذلك ، أنه حينما أريد الغاء قانون السخرة فى مصر ، وعندما أريد النظر فى تخفيض الضريبة على الملح ، تلك الضريبة التى كان يمقتها الشعب المصرى ، أصرت فرنسا ، مقابل ذلك ، على الغاء ضريبة الارباح على مختلف المهن ، والتى اتفق فى مؤتمر لندن فى سنة ١٨٨٤ على تطبيقها على الاجانب ، بعد أن كانت حتى ذلك التاريخ وقفا على أرباب المهن المصريين ، وحيال اصرار الحكومة الفرنسية على الغاء قانون ضريبة المهن كلية ، أو ـ على الاقل ـ الغاءه بالنسبة للاجانب مقابل موافقتها على الغـاء ضريبة الملح ، فان كرومر قبل الغاء قانون ضريبة الارباح على المهن سواء على الأجانب أو على المصريين ، نظير الغاء قانون الضريبة على الملح ... وقد كان موقف فرنسا ذا طابعين فبالنسبة لمعارضتها سياسة كرومر ، كان طابعا سياسيا وبالنسبة لالغاء ضريبة المهن على أرباح الأجـــانب كان طابعـــا اقتصاديا ، ذلك أن الأجانب ، بحكم نشاطهم الواسع ومكاسبهم الكبيرة ، كان يتألف من ضريبة أرباحهم أكبر قدر من حصيلة ضريبة المهن ، وقد كان الغاؤها تحريرا للأجانب من عبء مالى كبير أزيح عن كاهلهم ، ولكن على حساب مصر .

***

وقد استعرض اللورد كرومر الوضع القائم بين بريطانيا وفرنسا فى مصر فقال : « انه منذ عشرين عاما ، ورجال السياسة محترفين كانوا أو غير محترفين ، بريطانيين أو فرنسيين يندفعون فى طريق يسيرون فيه دون أن يبلغوا له نهاية ، اذ لم يهتدوا الى حل لهذا الوضع التنـــافسى بين الدولتين ، وذلك لأن الوصول الى الحل كان متعذرا بسبب الاسس التى وضعها الجانبان للاتفاق ... فان البريطانيين من جـــانبهم حرصوا على الثبات فى موقف معين بينما كان على الفرنسيين أن يدركوا أن الفائدة التى تعود على المصالح المادية مع وجود احتلال بريطانيا لمصر أكثر من المضار

التى لحقت بهذه المصالح بسبب تنازعهما الطويل حول المسألة المصرية ، كما كان على الفرنسيين أن يدركوا أيضا ، بانه ما لم يجعلوا موضوع جلاء بريطانيا عن مصر سببا للحرب مع بريطانيا ، فمن المتعين على فرنسا أن تخضع لوجهة النظر البريطانية وكان من المسلم به أنه اذا قام نزاع أو تنافس فى يوم ما بين دول العالم حول مصر فمن المحتم أن ينحصر هذا النزاع بين بريطانيا وفرنسا دون غيرهما ، وكان لزاما على رجال السياسة المحنكين أن يتربصوا لاول فرصة تتاح لهم لحسم هذه المشكلة ولتجنب ما قد ينتج عنها من كوارث وأن العناصر الاساسية المرتبطة بالمشكلة المصرية كانت فى تقدير « كرومر » غاية فى البساطة ، لقد أعلنت بريطانيا فى بدء الاحتلال أنها ستجلو عن مصر متى سمحت لها الظروف بذلك وكان واضحا لأولى البصيرة والذين يلمون بالظروف الماما تاما ، انه يتعذر على بريطانيا تنفيذ هذا التعهد ..

ولقد وضحت هذه الحقيقة وسلم بها تدريجا ، وكان مفروضا أنه ، بمجرد وصولنا هذه المرحلة أن يبادر الساسة بالعمل ، وانتهاز الفرصة للمفاوضة من أجل الوصول الى حل ناجح لهذه المشكلة ..

***

على أن بريطانيا كان هدفها من وراء كل حل للصراع القائم بينها وبين فرنسا ، هو بقاؤها فى مصر .

... ويؤيد هذه الحقيقة ما قاله سير « كولفن » فى مؤلفه « صنع مصر الحديثة » اذ يقول انه من وجهة النظر البريطانية ، ليس فى التاريخ الحديث من المسائل ما يمكن أن يكون أهم من تلك التى تتعلق ببسط النفوذ البريطانى وبتطوره تدريجا فى مصر ... ، على أن احتلالنا لهذا البلد اعتبر فى البداية احتلالا مؤقتا ، ثم أصبح بحكم الظروف احتلالا ثابتا ... »

تلك هى العقبة الاولى التى كانت تواجهها بريطانيا دائما فى مصر ، وقد شعر كرومر بأنه لابد من حلها وكان من أشد الداعين الى ازالتها

حتى يتسنى لبريطانيا وبالتالى له أن يطلق يده فى شئون مصر دون حدود، كما كانت فرنسا من ناحيتها حريصة على وضع حد لهذا الصراع القائم بينها وبين بريطانيا فى مختلف انحاء العالم بحيث ينتهى هذا النزاع الى ما يحقق لكلتيهما الاغراض التى من أجلها طال أمد هذا النزاع ، ولهذا بدأت المفاوضة بين الدولتين وانتهت بعقد الاتفاق الودى فى ٨ من أبريل سنة ١٩٠٤ •

وفى الرسالة الدورية التى وجهها المسيو ديلكاسيه رئيس وزراء فرنسا الى سفراء فرنسا فى مختلف الدول الاوروبية فى ١٢ من ابريل سنة ١٩٠٤ ، وضح حقيقة ما دار فى هذه المفاوضات •

لقد قال المسيو ديلكاسيه فى رسالته هذه « ان المصالح الكبرى ذات الطابع المادى والمعنوى اللازمة لقيام التفاهم بين فرنسا وبريطانيا كانت تحتم تسوية المنازعات القائمة بين الدولتين تسوية ودية نظرا لما كان وراء هذه المنازعات من خطر على علاقة البلدين »

ثم مضى المسيو ديلكاسيه فى رسالته فقال : ـ

ـ « لقد استعرضت مع لورد لانس داون (Landsdowne) فى ٧ من يوليو سنة ١٩٠٣ مختلف المسائل التى تعترض سبيل التفاهم بين الدولتين ، وانتهى الرأى الى أنه ليس من المتعذر الوصول الى حلول صالحة للطرفين ، ولقد ذكرنا الجهود المشتركة لتحقيق هذه الغاية •• وهى جهود اتسمت بروح التفاهم ، والتصالح وكللت بالنجاح وانتهت الى عقد الاتفاقية المشار اليها ••• »

وقد وضح المسيو « ديلكاسيه » للسفراء الفرنسيين فى هذه الرسالة ، الظروف والملابسات التى أحاطت بمختلف العناصر التى تناولتها الاتفاقية •••

لقد تناولت الاتفاقية فيما تناولت ـ الوضع فى غرب افريقية ـ وانتهى الامر بتسوية على اساس تقسيم هذه المنطقة وتوزيع بلادها بين فرنسا وبريطانيا ، كما تناولت مراكش ومستقبلها •

مما سنفصله عند الكلام عن مراكش فيما بعد ••

أما فيما يتعلق بمصر ، فقد حرص المسيو ديلكاسيه على ابراز الاخطار التى كانت تهدد مصالح فرنسا فى هذه البلاد والضرورة التى كانت تحتم على فرنسا اتخاذ اجراء لتفادى هذه الأخطار ووقفها عند حد .

ولقد تمكنت بريطانيا من اقصاء فرنسا ، سياسيا وعسكريا عن مصر ، ولم يتبق لفرنسا الا تلك المصالح المالية التى كانت قائمة بحكم ما عقده اسماعيل وتوفيق من قروض ، والمصالح الثقافية ثم وضع الفرنسيين العاملين فى خدمة الحكومة المصرية ، ثم نشاط الفرنسيين الاقتصادى فى مصر من مالى وتجارى ... كانت هذه هى كل المصالح الفرنسية التى كانت ترى فرنسا انه يتعين عليها حمايتها .

ويقول ديلكاسيه فى رسالته : ان الاتفاقية التى تم عقدها يتعديل للوضع السياسى فى مصر ، ولقد ركزنا جهودنا فى تلك المفاوضات على الجانب المالى فيها . فمن المعلوم أن لفرنسا أكبر جانب من الدين المصرى ، وكان لزاما علينا أن نؤمن لحملة السندات الفرنسيين اكبر ما يمكن من الضمانات ، مع ملاءمة هذا الضمان للظروف الجديدة التى نشأت فى مصر نتيجة لثبات ماليتها . ويقول « ديلكاسيه » ان العالم بأسره يعلم مصدر النظام المالى القائم فى مصر ، ويعلم كيف انتهت سياسة التبذير التى اتبعها اسماعيل الى عقد قروض جسيمة ، وبفوائد عقدت أصلا بسبعة ، وتسعة فى المائة ، غير أن لهفة اسماعيل على هذه القروض وتعجله للحصول عليها كان فرصة لدائنيه مكنتهم من تحميله أعباء بلغت قيمتها ثلاثين فى المائة من قيمة هذه القروض . وهكذا ادت هذه السياسة أن تتحمل مصر ــ خلال بضع سنوات ــ دينا تجاوز مليارين من الفرنكات ، وخربت المالية المصرية ، وانهارت الثقة المالية فى مصر . »

ويستطرد ديلكاسيه فيقول : ــ

« لقد أقمنا نظام صندوق الدين لحماية مصالح الدائنين ومن أجل هذا الغرض ــ وحده ــ ولتأمين هذه الغاية أصررنا على تخصيص ايرادات أربع مديريات وكذلك ايرادات السكك الحديدية والجمارك ،

«والضرائب المستحقة على التبغ لخدمة صندوق الدين ... كما خول هذا الصندوق الحق في مقاضاة الحكومة امام المحاكم المختلطة لاجبارها على تنفيذ التزاماتها المالية ، وبالرغم من هذه الضمانات فان مصر عجزت عن الوفاء بالفوائد المستحقة على هذه القروض . »

ويمضى ديلكاسيه فيقول « انه نتيجة لهذا الوضع فقد وضعت مصر تحت الوصاية وحرم على الحكومة المصرية تخفيض الضرائب المخصصة لخدمة الدين كما حرم عليها عقد قروض جديدة دون موافقة صندوق الدين ، كذلك لم يكن مسموحا للحكومة أن تنفق مايزيد عن الحد الذى خصصته الدول الأوروبية العظمى لذلك ، من حصيلة الدولة . »

« وفى سنة ١٨٨٥ رأت الدول الاوروبية أن تشدد القيود التى تحد من حرية تصرف الحكومة المصرية فى المسائل المالية ، وكذلك أن تشدد الرقابة عليها ، الا أنه منذ ذلك التاريخ واجهنا وضعا جديدا اذ تحسنت أحوال مصر المالية ودفعت الى صندوق الدين المبالغ المستحقة ، بل توفر لديها فائض ... وأدركنا أن الوقت الذى يمكن أن تستطيع فيه مصر الوفاء بما عليها من الديون قد حان ... وفعلا حولت مصر الدين الممتاز فى سنة ١٨٩٠ وخفضت فائدته الى ثلاثة ونصف فى المائة ، كما خفضت أيضا دين الدائرة السنية ، ودين الأملاك ، وكذلك أقرت الدول بحق مصر فى التعجيل بسداد الدين الممتاز ودين الدائرة السنية اعتبارا من سنة ١٩٠٥ ، وكان من مقتضى التسليم لمصر بهذا الحق ، أن تتوقع زوال الادارة المشتركة الاجنبية القائمة على السكك الحديدية وعلى الدائرة السنية والأملاك ... »

« ومن ناحية أخرى ، طالبت مصر فى سنة ١٨٩٤ بتحويل الدين الموحد ولكن ــ نظرا لان الدول قدرت النتائج المحتملة لهذا الاجراء فانها أرجأت بحث هذا الطلب .... »

واسترسل ديلكاسيه يقول « هكذا كانت الحالة وقت أن شرعنا فى مفاوضة بريطانيا .... فان مصر كانت قد مضت فى استهلاك دين الدائرة

السنية ودين الاملاك كما كان الدين الممتاز على وشك الزوال ، وكان من المتوقع أن تقدم مصر على المطالبة بتحويل الدين الموحد استنادا لحق المدين فى الوفاء بما عليه من التزامات •• »

وبعد هذا العرض ، أوضح المسيو ديلكاسيه النتائج التى أسفرت عنها المفاوضات والاتفاقية التى تم عقدها ••

فقال : « لقد اتفقنا على عدم السماح لمصر بالتعجيل بالوفاء بالدين الممتاز فى السنة التالية أى عام ١٩٠٥ ومنعناها من ممارسة حقها فى هذا التعجيل الى سنة ١٩١٠ حتى يتمكن حملة هذه السندات من الحصول على الفائدة القائمة لمدة خمس سنوات اضافية اما بالنسبة للدين المضمون والدين الموحد اللذين لم يكن هناك أجل معين للوفاء بهما فقد تم الاتفاق مع بريطانيا على اجبار مصر على ألا تقوم بسداد أى من الدينين قبل سنة ١٩١٠ أيضا •••

وبالنسبة للدين الموحد فقد تم الاتفاق على اكراه مصر على ألا تسدده قبل عام ١٩١٢ ••• وهكذا كفلنا لحملة سندات هذا الدين الفائدة لمدة ثمانى سنوات اضافية ••• اما عن دين مصلحة الاملاك فقد منعت مصر من سداده قبل سنة ١٩١٥ ••• وفيما يتعلق بالدائرة السنية التى كانت تصفيتها قد أوشكت أن تتم فلم يكن هناك محل للاتفاق على الابقاء عليها لمدة اضافية خاصة بها ، غير أننا اتفقنا على أن تئول الى شركة فرنسية كبرى ••• مصانع السكر القائمة فى مصر وما يتبعها من خطوط حديدية ـ وبذلك تركزت صناعة السكر فى مصر فى أيد فرنسية •

ولقد أصرت الحكومة الفرنسية على أن تصادق بريطانيا على تلك الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها هذه الشركة ••• ومقابل الامتيازات التى حصلنا عليها استجبنا الى ماطلبته الحكومة المصرية من تعديل قانون التصفية فيما يتعلق بالايرادات المخصصة لخدمة صندوق الدين تعديلا يعين التجاوز عن ايرادات المصالح التى لاتعتبر ضرورية بعد ، لخدمة الدين العمومى غير أن استجابتنا لهذا الطلب ، كانت مشروطة بأن يبقى صندوق الدين مسئولا عن خدمة الفوائد واستهلاك هذه الديون ، وبأن تبقى الضرائب العقارية فى سائر مديريات القطر المصرى عدامديرية قنا مخصصة لخدمة الدين المضمون ، والدين الممتاز والدين الموحد ، ومن المعلوم أن حصيلة هذه الضرائب الآن تجاوز مائة مليون وتسعة ملايين من الفرنكات بينما أن خدمة هذه الديون الثلاثة بما فى ذلك نفقات صندوق

الدين لا تجاوز أربعة وتسعين مليونا من الفرنكات .... كذلك أصرت فرنسا على تكوين احتياطى لصندوق الدين يبلغ قدره ٤٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك بالاضافة الى ثلاثة عشر مليونا من الفرنكات للنفقات الجارية ، وذلك لتأمين حصول حملة هذه السندات على الفوائد لستة أشهر مقدما ... دون انتظار حصيلة الضرائب ، وكذلك يظل لقوميسيرى صندوق الدين الحق فى مقاضاة الحكومة المصرية أمام المحاكم المختلطة لاجبارها على تنفيذ تعهداتها ، وممارسة هذا الحق مجتمعين أو منفردين ....

ومضى ديلكاسيه فقال « لقد احتفظنا فى هذه الاتفاقية بكافة الضمانات الضرورية لحماية مصالحنا المالية فى مصر ، بل اننا كسبنا حقوقا اضافية وذلك بالتعهد الذى تم بعدم جواز تحويل هذه الديون أو تعجيل سدادها قبل مضى عدد معين من السنين ، كما تمكنا ، عن هذا الطريق من الاحتفاظ لصندوق الدين ، وهو أداة للرقابة على مصر ، واذا كنا قد حسمنا فى الجانب المالى ، فان الحكومة الفرنسية قد حرصت على حماية تجارتنا وحماية مصالح رعايانا المقيمين فى مصر والعاملين منهم فى خدمة الحكومة المصرية ...

وقد تضمنت الاتفاقية الاعتراف بما لفرنسا من حقوق فى مصر ، كما تم التعهد بأن تعامل رعايانا فى مصر معاملة مساوية لما تعامل به الرعايا البريطانيين وذلك لمدة ثلاثين عاما ، وكفلنا للموظفين الفرنسيين العاملين فى خدمة الحكومة المصرية الضمانات التى تؤمنهم ، مهما حدث من تعديل او تبديل وفى كافة الظروف والاحوال ، بحيث يعاملون فى ذات المستوى وبذات المزايا التى يتمتع بها البريطانيون العاملون فى خدمة الحكومة والى جانب هذه المزايا المادية فهناك مزايا معنوية تتصل باللغة الفرنسية والعلم، تحرص الحكومة الفرنسية على حمايتها وسيرحب الرأى العام الفرنسى حينما يعرف بأن الادارة العامة للآثار المصرية أصبحت حقا مكتسبا للفرنسيين كما أن مدارسنا فى مصر ستتمتع بكامل الحرية من اجل نشر تعاليمنا ولغتنا فى البلاد وأصبحت فى مأمن من كل عقبة توضع فى سبيلها أو اية مضايقة ...

ثم يعرج ديلكاسيه فى رسالته على المسألة الاخيرة التى رأت فرنسا أنها موضع خلاف بينها وبين بريطانيا ، وهى قناة السويس ، فيقول : « ان الحكومة الفرنسية قد نجحت فى حمل الحكومة البريطانية على احترام الملاحة وحرية المرور عبر قناة السويس » ..

كما سجل « ديلكاسيه » على بريطانيا فى هذه الاتفاقية انضمامها الى

معاهدة القسطنطينية المعقودة فى ٢٩ من اكتوبر سنة ١٨٨٨ ، انضماما غير مقيد بشروط ٠٠٠٠

وعلى العموم فان المسيو ديلكاسيه قد لخص المزايا التى حصلت عليها فرنسا فى اتفاقية سنة ١٩٠٤ فيما يأتى : ــ

أولا ــ حرمان مصر من حقها فى تحويل مختلف ما عليها من الديون أو التعجيل بالوفاء بالنسبة لبعض هذه الديون أو بالنسبة لها جميعها ، وقد أوضح الفائدة التى عادت على الفرنسيين ، فقال انه كان من آثار هذا الاتفاق رفع القيمة السوقية لهذه السندات الى ما يقرب من مائة وثمانية جنيهات بدلا من قيمتها الاسمية التى كانت مائة جنيه •

ثانيا ــ انفراد فرنسا عن طريق الشركة التى حصلت على المصانع الخاصة بصناعة السكر وتكريره ، والسكك الحديدية الملحقة بهذه المصانع والتى كانت تنقل محصول القصب من حقوله الى مصانعه فقال المسيو « ديلكاسيه » ان فرنسا قد احتكرت صناعة السكر فى مصر •

ثالثا ــ انفراد فرنسا وسيطرتها على الآثار المصرية •

رابعا ــ مشاركة الفرنسيين للبريطانيين فى كافة المزايا المالية والادارية والثقافية والاقتصادية فى مصر هذا بالاضافة الى ما تم من تعديلات اقليمية تناولت غرب السودان وأعالى النيل •

***

وهكذا يتضح لنا الى أى مدى كان الاستعمار الغربى يحترم حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها ٠٠٠ وهكذا يبدو لنا ، كيف كان الاستعمار الغربى يجعل هذه الحقوق موضع المساومة ويتجر ويساوم بها ليحصل على مزايا فى بلد لقاء مزايا فى آخر وكلا البلدين سلعة بين يد مستعمرين » •

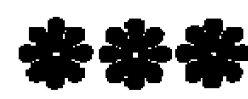
وتنفيذا لما تم عقده من اتفاق اذاعت الدولتان التصريح الآتى :

« تصرح حكومة جلالة الملك البريطانية انها لاتنوى تغيير حالة مصر السياسية ، وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية انها لا تعرقل عمل بريطانيا العظمى فى تلك البلاد اما بطلبها منها تعيين اجل للاحتلال البريطانى او بغير ذلك »

الفصل السابع والثلاثون

بريطانيا والامتيازات الأجنبية في مصر

« مذكرة المستر « برونيات » المستشار القضائي – الباعث على تخلص الاجانب »
« من الحكم الوطني زوال البواعث – أثر القيود التي تفرض على الادارة – ما طرا »
« على مصر من تطور – الامتيازات عقبة يتعين ازالتها لحماية المصالح الاجنبية »
« لاقرار تنفيذ ماترى الحكومة المصرية ادخاله من تعديلات على التشريعات .. أى »
« تركيز مسئولية ممارسة الامتيازات الاجنبية في مصر في يد بريطانيا كوكيلة عن »
« الدول – فالامتيازات لاتلغى .. – الدول الاجنبية ترى في المشروع البريطاني »
« تقييدا للنفوذ الاجنبي لحساب نفوذ وسيطرة بريطانيا لا لحساب مصر – خيبة »
« امل لورد « كرومر » – موقف فرنسا – موقف الجالية البريطانية وسائرالجاليات »
« الاجنبية في مصر – موقف المصريين – سعى بريطانيا لم يكن الا تحقيقا لمصلحتها »
« خطورة المشروع البريطاني على المصريين . »



ولما كانت الامتيازات الاجنبية فى مصر هى العقبة الثانية التى تقف فى وجه اهداف السياسة البريطانية فى البلاد ، فقد عهد اللورد كرومر الى المستر برونيات (Broniate) المستشار القضائى البريطانى اعداد مذكرة خاصة بتطبيق الامتيازات فى مصر لترفع الى الدول لاسيما فرنسا وقد أعد برونيات هذه المذكرة التى جاء فيها ما يلى : –

« لقد كان الباعث على التمسك بالامتيازات واعمال نظامها على أوسع صورة يرجع الى عهد كان الحكم فيه من اكثر جوانبه ، حكما استبداديا مطلقا ، وكان كل من يقع فى متناول يد الحاكم يخضع أمام نزوات هذا الحاكم – لتهديد مستمر ، ولما يقوم به من أعمال الغصب ، ولذلك فقد كان من المشروع ومن الطبيعى أن يحاول أولو الشأن التخلص من هذا الوضع وتجنب مخاطره ، ولكن متى تم التحقق من قيام حكومة نظامية بعيدة عن الاستبداد والتعصب ، وعندما يصبح المالك والتاجر ويصبح كل مواطن حريصا على احترام القوانين ، متى تحقق هذا كله واصبح واقعا ايجابيا

وزالت السلبية من تلك الطوائف ، فان التطور الحر للاموال والاعمال لايمكن أن يتم الا في ظل ادارة محترمة قادرة على الوفاء بالالتزامات التى تنهض بها كل حكومة متحضرة .. وان القيود التى تفرض على حكومة ما ، أو للمباعدة بينها وبين الاجنبى حتى يمكن حمايته من اعمالها الضارة، هذه القيود ذاتها ـ تصبح ـ بدورها ـ ضارة اذ ما حالت دون تمكين هذا الاجنبى من التمتع هو ومصالحه بالعون والحماية التى يكفلها القانون .. وتستطرد المذكرة فتقول .. « ان ما جد على مصر من التطور في مختلف نواحي نشاطها الاقتصادى والمالى والصناعي من شأنه أن يجتذب رأس المال الاجنبى ويجتذب الفنيين الاجانب ، ويجتذب الى جانب هذا كله ، عناصر غير مرغوب فيها من الاجانب ، وهذه العناصر تشكل خطرا على الاداة الحكومية والنظام العام وعلى مصلحة الافراد ... خطرا يتعين حماية المصالح الأجنبية ذاتها من شره ، وهى حماية يتعذر تنفيذها نظرا لقيام الامتيازات ، وما يستلزمه قيامها من الرجوع الى كل دولة من الدول على انفراد للحصول ـ سلفا ـ على موافقتها اذا ما أريد ادخال أى تعديل فى القانون أو وضع أى تشريع جديد »

وقالت المذكرة « ان الاجانب يحتلون المكانة الاولى فى صناعة مصر، وفى تجارتها ، ولكى تتطور هذه الصناعة والتجارة تطورا كاملا ، يتعين أن تمكن الحكومة المصرية من السلطات الضرورية لحماية النظام ، هذه السلطات التى لابد أن تتوافر لكل حكومة متحضرة .



ثم يعرض « برونيات » ، فى المذكرة ، وجهة النظر البريطانية فى حل مشكلة الامتيازات وينتهى فى عرضه هذا الى القول « بأن الامتيازات تثير صعوبات دولية بين مصر وبريطانيا من جانب ، ثم بين مصر وسائر الدول الاوربية من جانب آخر ، وأنه طالما كان الهدف الوحيد من الامتيازات هو حماية مصالح تلك الدول التى تنتفع بهذا النظام ، وطالما كان من المقرر قانونا ودوليا ، أن بوسع كافة الدول ان تستفيد من المزايا التى تمنح لدولة معينة تطبيقا للنص الخاص بتمتع الدول بما تتمتع به

الدولة الأكثر رعاية ، فانه لذلك يتعين الاعتراف بأن الامتيازات الأجنبية منحت في وقت كانت هي فيه الاداة الفعالة لحماية الحقوق الأولية للأشخاص والأموال ، ولكنها لم تعد صالحة ، من وجهة النظر البريطانية لكفالة رخاء الجاليات الاجنبية في مصر ، لان هذا الرخاء يتوقف على رخاء البلاد ذاتها ، وبما أنه وفقا للاوضاع القائمة والمقررة ، يقع العبء من اجل تحقيق الرخاء في مصر ، على كاهل بريطانيا العظمى ، كما أنه ليس من المتصور أن تكون بريطانيا العظمى على استعداد لأن تتخلى عما يتمتع به رعاياها من امتيازات في مصر ، فانه ليبدو من المعقول واستنادا الى كفالة بريطانيا العظمى لما يتمتع به الاجانب حاليا في مصر من امتيازات ، أن تنيب الدول المتمتعة بالامتيازات في مصر ، بريطانيا عنها في اقرار وتنفيذ ما ترى الحكومة المصرية ادخاله من تعديلات على التشريعات المنظمة للاوضاع القائمة حاليا في مصر ... »

وقد كان الحل الذي اقترحه كرومر في مذكرته التي قدمها عقب توقيع الاتفاق الودي والتي كانت بريطانيا تطمع في ان تقرها الدول بتأييد من فرنسا ـ كان يستهدف تركيز مسئولية ممارسة الامتيازات الاجنبية في مصر في يد بريطانيا العظمى ، ولم يكن من شأن مقترحات المذكرة البريطانية أن تعدل من طبيعة الامتيازات ، أو تدعو الى الغائها ، فقد أبقت المذكرة للجاليات الاجنبية حقوقها كما هي ، ولكنها رأت أن تكون بريطانيا وكيلة عن الدول المتمتعة بالامتيازات ، في اقرار التشريعات وادخال التعديلات في النظم التي ترى مصر أن تأخذ بها ، وذلك بدلا من أن تلجأ الحكومة المصرية الى هذه الدول فرادى للحصول على هذا الاقرار .



تلك كانت وجهة النظر التي أبدتها بريطانيا والتي ، ضمنها كرومر تقريره المرفوع للحكومة البريطانية سنة ١٩٠٤ .... فهل استجابت الدول الغربية الى هذا السعي من جانب بريطانيا والذي كان يستهدف

أولا وقبل كل شيء ، تقييد النفوذ الاجنبي في مصر لحساب نفوذوسيطرة بريطانيا لالحساب مصر ، لان الوضع الطبيعي كان يستلزم وقتئذ أنتطالب بريطانيا بالغاء نظام الامتيازات باعتبار أن فيه مساسا وضررا بحقوق مصر ؟ ....

ثم ماذا كان وقتئذ موقف الدول الاجنبية من هذه المساعي .. ؟

يقول لورد لويد (Lord Lloyd) الذي كان مندوبا ساميا في مصر في كتابه « مصر منذ عهد كرومر » أن لورد كرومر الذي فعل الكثير في سبيل اتمام الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا والذي كان يعتقد أن هذا الاتفاق قد مهد لبريطانيا السبيل لتطلق يدها في مصر ولتعمل من أجل التخلص من القيود التي كانت تغل يدها بسبب قيام الامتيازات الاجنبية ـ يقول لورد لويد أن كرومر سرعان ما فجع في آماله وسرعان ما تبين أن فرنسا لاتشاطره اعتقاده ، وأنه فاته أن يدرك من مواقف فرنسا حيال مشكلات كانت أقل اهمية من الامتيازات أنه يتعرض لخيبة أمل شديدة ، اذا ظن أن في وسعه المساس بالامتيازات الاجنبية في مصر ...

ثم يقول « لورد لويد » ، ان موقف فرنسا من المفاوضات التي دارت في سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ للحد من الامتيازات كان موقفا معوقا معرقلا ، فبالرغم من محاولات « كرومر » ، وبالرغم من قيامه بدفع الحكومة المصرية لمحاولة ارضاء مطالب فرنسا ، فان هذه أصرت على موقفها واعتبرت أن ما تقدم به كرومر والحكومة المصرية يعتبر تعديلا أساسيا ماسا بالاوضاع القائمة، وقد أصرت فرنسا على موقفها ازاء مطلب كرومر رغما مما كانت تعانيه هي ذاتها من متاعب في تونس من جراء قيام الامتيازات الاجنبية فيها ، ومما خيب أمل لورد كرومر ، أن الجاليات الاجنبية في مصر بما في ذلك غرفة التجارة الدولية ساندت فرنسا في موقفها واعتبرت أن ما قدمه « كرومر » من اقتراحات بشأن الامتيازات ينطوي على الكثير من المفاجآت والمخاطر ، وقد عارضت الجالية البريطانية ذاتها ، مشروع « كرومر » ووقفت في وجهه .

ويستطرد لورد لويد فى تعليقه على موقف المصريين ذاتهم من مطلب كرومر فيما يتعلق بالامتيازات فيقول : « ان كرومر أدرك أن قيام نظام الامتيازات فى مصر يقف عقبة دون التئام المقيمين فى مصر جميعا داخل كيان واحد ، بصرف النظر عن اختلاف أجناسهم ودياناتهم لأن من شأن هذا النظام أن يجعل من البلاد معسكرين أحدهما يضم المصريين والآخر يضم الاجانب ، كما أدرك أنه من المتعذر ان ترتبط المصالح بين الجانبين ارتباطا وثيقا فى ظل هذه الامتيازات ... ويمضى « كرومر » ، فيقول انه يجب أن تكرس جهود المصريين كافة فى سبيل المطالبة بتعديل نظام الامتيازات ... »

ويقول لورد لويد ان موقف المصريين من مقترحات لورد كرومر قد خيب أمله ، وأن المصريين بعد عقد الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ازدادوا حدة فى المطالبة بانهاء الاحتلال البريطانى ، بدلا من أن يتجهوا الى المطالبة بالغاء الامتيازات الاجنبية .

وقد فات لورد لويد ، كما فات لورد كرومر من قبله ، أن وجهة النظر البريطانية فى الامتيازات الاجنبية قامت على الانانية فى السياسة البريطانية ... الانانية التى لم يكن هدفها الا صالح بريطانيا وحدها من اجل أن تسيطر على مصر وتنفرد بالتصرف فى شئونها ، بينما ان الامتيازات من وجهة النظر المصرية ، كانت كمشكلة ، تجبها وتحجبها مشكلتهم الكبرى وهى الاحتلال البريطانى بجميع مظاهره ، والتخلص منه ومن النفوذ الاجنبى فى شتى ألوانه ، بينماكان مسعى لورد كرومر وحكومته يستهدف تجريد الاجانب من حق لهم ثم وضع هذا الحق فى يد بريطانيا لتمارسه وتتولاه هى بالوكالة أو بالنيابة عنهم ، وعلى هذه الصورة ، فلم يكن لمصر من مصلحة أو نفع فيما اذا آلت امتيازات الاجانب جميعهم الى بريطانيا ولم يكن من الحكمة أن يستجيب المصريون الى مسعى بريطانيا من أجل الحصول على تأييد مصر لمشروع كرومر ما دام أنه لايزحزح عن كاهل البلاد كابوس الامتيازات الاجنبية ، وكل أمره انه

يمكن بريطانيا من أن تمارس الحقوق ذاتها التي كانت تمارسها سائر الدول في مصر .



.... بل ان مشروع كرومر كان أشد خطرا في هذا الصدد على المصريين ، لانه كان من شأنه ـ لو أخذ به ـ أن تفرض بريطانيا ارادتها على المصريين والاجانب على السواء ، بينما كان الوضع القائم ،يكفل للمصريين حصانة ضمنية بسبب تعذر فرض قيود من جانب السلطات البريطانية على المصريين وحدهم دون أن يتقيد بها الاجانب معهم ـ وبهذا فإن الامتيازات الاجنبية على الرغم من كونها بغيضة للمصريين ، كانت تقف في وجه التسلط البريطاني على شئون مصر . على أن التصرف الذي كان ممكنا لبريطانيا والدول الاجنبية أن تجد فيه مجالا لمساءلة المصريين، هو قبول هؤلاء بقاء الامتيازات الاجنبية في بلادهم،في الوقت الذي كانوا أثناءه يطالبون بجلاء القوات البريطانية عنها ، ويكافحون من أجل استقلالهم وحريتهم ، ولكن هذا التصرف لم يكن موضوع تفكير كرومر وبريطانيا والدول الاجنبية ، لان المشكلة كانت في نظر هؤلاء جميعا ، مجرد سعي بريطانيا وكرومر للانفراد بالسيطرة على شئون مصر ، وشئون الاجانب فيها ، دون أن يدخلوا في اعتبارهم وهم ينظرون الى المشكلة ـ حقوق مصر ، لاسيما حقها في الاستقلال وفي التخلص من الاحتلال البريطاني .... ولهذا فقد بقيت الامتيازات الاجنبية عقبة تلقائية أمام اهداف السياسة البريطانية في مصر .... »

الفصل الثامن والثلاثون

بريطانيا والحركة الوطنية فى مصر

« الحركة الوطنية العقبة الاساسية التى تعترض السياسة البريطانية وخططها »
« فى مصر — « كولفن » الذى استنكر الثورة العرابية يعود فيقول بعد الاحتلال »
« البريطانى ان الجيش كان يشارك البلاد فى شعورها وان سقوط عرابى واخوانه »
« كان من أجل الحرية وانهم كافحوا الحكم الفاسد — « كولفن » يعترف بمشروعية »
« ثورة عرابى ويقول ان نجاح الثورات يتوقف على توفر شرطين فى ترجيح النجاح »
« وان يكون هدف القادة الخدمة الخالصة للوطن — « كولفن » يناقض نفسه »
« ويندد بالمصريين ويعيب عليهم تقيدهم بالتعاليم الاسلامية — « كولفن » يزعم افتقار »
« مصر الى العناصر الوطنية الصالحة — « كرومر » والحركة الوطنية — دور الشيخ »
« محمد عبده فى حملة التنديد بالاستعمار ومناهضته له — الامام وما أصاب المسلمين »
« — دفاع الامام فى اتهام المسلمين بالتعصب — الشيخ محمد عبده يكشف دور »
« الاجانب فى هدم كيان الامة — الشيخ محمد عبده وحاجة العرب والمسلمين لقيادة »
« صالحة — الصراع بين الخديو « عباس الثانى » و « كرومر » يتغاضى عن جشع »
« الخديو عباس ومسلكه الانتهازى ليتخذ من ذلك سلاحا يشهره فى وجهه فى الوقت »
« المناسب — الخديو عباس يساند الحركة الوطنية التى يقودها الشباب المثقف »
« لتحقيق مطامعه — « كرومر » يسالم العناصر الوطنية القديمة — تاييد تركيا »
« والخديو عباس وفرنسا للحركة الوطنية الفتية — مصطفى كامل يسخر القوى »
« الثلاث فرنسا وتركيا والخديو لخدمة قضية مصر — « كرومر » يدرك خطورة »
« حركة مصطفى كامل وأمثاله من قادة الحركة الوطنيـة ويقول انهم اشد تعصبا »
« وأقل تسامحا ممن لم يتلقوا علومهم على أيدى الاوروبيين — «كرومر» يقول »
« ان المصرى الوطنى المثقف يدرك خلل وعيب الادارة الاوروبية فينفصل عن المدنية »
« الاوروبية ويحتقرها ويزدريها ويشكل اكبر خطر على مستقبل بريطانيا فى مصر — »
« تحول سياسة « كرومر » بعد توقيع الاتفاق الودى — كرومر يعتبر مصر مزرعة »
« للبريطانيين والمصرى اجنبى فى بلده — كرومر يصبغ الادارة المصرية بالصبغة »
« البريطانية . »



لقد كانت الحركة الوطنية فى مصر العقبة الاساسية والثالثة التى تعترض كرومر وتقف حجر عثرة فى وجه السياسة البريطانية وخططها ولكى تتبين العقلية البريطانية على حقيقتها ، أو لكى تبدو لنا السيكولوجية البريطانية بطبيعتها فلابد من ايضاح رأى ساسة بريطانيا فى الاحداث التى مرت بها مصر وانتهت بالثورة العرابية حسبما جاءت هذه الآراء على

لسان أولئكم الذين استنكروا قيام هذه الثورة ومهدوا للاحتلال البريطاني وفي مقدمتهم « كولفن » المراقب المالي الذي أدى موقفه الى اثارة الأزمات المالية والذي وقف ضد « عرابي » في كافة محاولات الأصلاح التي بذلها عرابي •

يصف المستر « كولفن » الحالة في مصر قبل الثورة العرابية ،فيقول بعد أن تم لبريطانيا احتلال البلاد ما يلي : ـ

« لقد بلغت أحوال مصر أقصى حدود البؤس والشـــقاء ، وكانت مأساة مديونية الفلاح ووقوعه في قبضة المرابين مأساة عامة شاملة •• لم تكن هناك عدالة ••• أو نظام ، لم تكن هناك قواعد لجباية الضرائب على الاراضي ، أو لتحصيل الرسوم • كانت الدولة في حالة فساد مالي ـ وكان الدائنون الاوربيون يسيطرون على كل شيء ، ويمتلكون كل شيء في البلاد كانت الطبقة الحاكمة ، عدا قلة نادرة جدا فاسدة الخلق مجـــردة من كل نزاهة ولا نصيب لافرادها من الذكاء وكان الجيش وهو يتألف ـ اساسا من المصريين ـ أخوة وأبناء أولئكم التعساء من دافعي الضرائب ، يشارك على كافة مستوياته ـ حتما ـ أبناء البلاد في شعورهم ••• كان ضباط الجيش من المصريين ، يخدش كبرياءهم ـ دائما ـ عجرفة وسلوك الاتراك والجراكسة ومعاملتهم المنطوية على الازدراء للمصريين » كانت البلاد في حالة هلع وفزع يثيرها دائما منظر الاوروبيين الذين يسيطرون على ماليتها ويتصرفون فيها كيفما شاءوا ويتقاضون أكبر المرتبات والاجور دون أن يلمس الشعب اية فائدة محسوسة من وراء نشاطهم الذي يقومون به ••

ويرى سير كولفن « انه كان قد بدا واضحا أن الوقت قد أزف ، اذ تجمعت كافة عناصر الاستياء والسخط على الاتراك ، في الوقت الذي سقط من أيدي هؤلاء الاتراك كل سلاح يمكن أن يقاوموا به ••• » ويمضي كولفن في تحليله لموقف الوطنيين في مصر فيقول : ـ

« انه يمكن أن يقال ، ان عرابي وزملاءه وان كانوا قد سقطوا وفشلوا في محاولة القضاء على الحكم الفاسد فان سقوطهم كان من أجل الحرية وأن تحقيق مثل هذا الهدف العظيم يحتم على الرجال أن يبذلوا ، وأن يأملوا من أبناء وطنهم أن يشاركوهم في كافة التضحيات من اجله » ويستطرد كولفن فيقول « على أن ذلك يستلزم توافر شرطين ، الاول أن يكون هناك ترجيح معقول لاثر هذه التضحيات والبذل يشير الى انها لن تذهب سدى والثاني أن يكون هدف القادة هو الخدمة الخالصة لوجه الوطن ••• »

***

ثم يخلص كولفن من هذا الرأي الى رأي آخر ، فيزعم ان المصريين في رأيه ، وكما زعم اللورد ملنر في مؤلفه عن مصر ، عبارة عن شعب من

لعبيد الخائفين ، شعب يفتقر الى روح الحرية ولا يومض فى نفسه من هذه الروح أدنى بريق ... »

واستنادا الى هذا الزعم يقول كولفن أن المصريين كانوا عديمى التبصر فى الناحية السياسية عندما اندفعوا وراء زعمائهم فى خنادق التل الكبير حيث صرعوا جميعا فى أماكنهم .

ويمضى فيقول .... انه من الجائز أن تنفض مصر عن نفسها غبار هذا الماضى البعيد وتثبت جدارتها وأحقيتها بالتقدير ، وبالاعتبار والاستقلال ... »

الا أن كولفن يعود فيمعن فى تحقيره لوطنية المصريين فيقول ، انه ما من انسان يستطيع القول بأن زعماء الحركة الوطنية من المصريين يعتبرون أندادا لواشنطون (Washington) ولهامبولت (Humbolt) أو يستطيع الزعم بأن ساعة خلاص المصريين وتحررهم قد دقت ... »

ويسترسل كولفن فيعيب على المصريين تقيدهم بالتعاليم الاسلامية لان الاسلام من وجهة نظره يعتبر من عوائق التقدم والرقى والتطور ... ويزعم أن الاسلام مجرد من الحيوية ، وأنه نظرا لخلوه من هذه الحيوية فلا يمكن أن ينمو ولا يمكن أن يتطور او يتقدم كما أن التطور والنمو ليسا فى مفهوم الاسلام ، فالمبدأ الذى يلتزمه المسلمون هو فى رأى كولفن، الجمود حيث هم جامدون ــ ولهذا فقد كان الجمود ــ عنده ــ من لوازم الاسلام وفى هذا الصدد يستشهد كولفن بما قاله س . لين بول (S. Lane Pool) من ان الاسلام كنظام اجتماعى يعتبر نظاما فاشلا . »

ثم يضيف كولفن الى ذلك ، أن الاسلام كنظام سياسى يعتبر نظاما غير مثمر ، وأنه ليس هناك من الشواهد ما يدل على استعداد المسلمين للتطور والتقدم ، ولهذا ينتهى كولفن الى رأى يقول بأنه على الرغم مما يزعمه المصرى ... وبالرغم مما أصاب المصريين وبغض النظر عما يدعونه

لانفسهم من القدرة على تولى شئونهم وبصرف النظر عن آرائه الخاصة بالاسلام ، فانه لا توجد فى مصر قوة وطنية قادرة على المحافظة لمدة اثنى عشر شهرا على الاوضاع التى أقامتها بريطانيا فى مصر وعلى ما قامت به من اصلاح ، بل ان النظام كله لابد أن ينهار اذا تخلت عن المصريين تلك اليد التى تتولى الاشراف والرقابة عليهم .. » .



وهكذا تبدو لنا نفسية الاستعمار البريطانى الذى يشرح ما كان يعانيه المصريون من ويلات ومظالم ويقرر أن الثورة التى قام بها ابناء مصر ، كان لها ما يبررها من الاسباب ثم يعود فى الوقت ذاته فينكر على المصريين أهليتهم للنهوض بهذه الثورة والمطالبة بحقوقهم المشروعة والحرية والاستقلال لان مكانتهم من الغرب ليست - فى رأيه - مكانة الند من الند ، ولهذا فقد كان « كولفن » يرى أنه ، حتى وان كانت هناك أسباب لثورة المصريين وحتى وان كانت هناك دواع للاصلاح ودواع لحماية حقوق الشعب المصرى ، فان أبناء هذا الشعب ليس فيهم من هو أهل لأن يحمل هذه الرسالة وأن هذا الشعب ، بحكم تشبعه بالتعاليم الاسلامية كان عند كولفن - غير قادر على مجاراة الحضارة والتطور وأنه لهذا فقد آلت رسالة الاصلاح فى مصر الى البريطانيين وحدهم .

ثم يمعن كولفن فى اتجاهه ، فيرى - قياسا على الحال فى الهند - أن امام المصريين أجيالا عديدة كى يمكن أن تهيأ لهم السبيل لحكم بلادهم حكما صالحا ، ثم يخلص كولفن من ذلك كله الى نتيجة فيقول : -

« انه من وجهة النظر البريطانية ، ليس فى التاريخ الحديث من المسائل ما يمكن أن يكون أهم من تلك التى تتعلق ببسط النفوذ البريطانى وتطوره تدريجيا فى مصر » ثم يقول : -

ان احتلالنا لهذا البلد اعتبر فى البداية احتلالا مؤقتا ، ثم أصبح بحكم الظروف احتلالا ثابتا ... وأنه باشراف وقيادة هؤلاء الفضلاء ممن ممثلوا حكومة جلالة الملك فى هذا البلد ، خلال العشرين سنة الاخيرة تمكنت

مصر من أن تتقدم بخطوات سريعة فى طريق الانتعاش المالى والرفاهية المادية ... ، كما أن تحطيم قوة المهدى وبالتبعية السودان ، قد زاد من نفوذنا هذا كما كان من شأنه أن يدعم احتلالنا لمصر .... »



عرضنا فيما تقدم ، الى أقوال كولفن عن المصريين وعن الحركة الوطنية فى مصر ، ورأيه فى ذلك كله ، غير أن كولفن لم يكن مسئولا عن تطبيق السياسة البريطانية فى مصر ... وانما كان كرومر هو الذى يسيطر على شئون مصر ويتولى قمع الحركة الوطنية فيها .. ، فكان لزاما عليه أن يواجه هذه الحركة التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده والذى راح يندد بالاستعمار ويبصر الوطنيين ويحثهم على مقاومته ويكون الجماعات لمناهضة الاستعمار وتكتيلهم وتوجيههم فى كفاحهم الوطنى ...

ولقد وصف الشيخ محمد عبده الاستعمار وتحدث عنه فى مقال جاء فيه ما يلى : ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، أن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقفها من الممالك الاسلامية ، ولانها باب الحرمين الشريفين ، فان كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع والا اضطربت افكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية . ان الخطر الذى ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال الامة تستفزهم ما دام الجرح نغارا ، وما هذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم الدينية أقوى من روابط الجنسية واللغة ، وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على افهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

ان الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن فى الحسبان ، وسرى الالم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم ، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون

الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيرا عاما ، بل يكـون صرخة تمزق مسامع من أصمه الطمع •

أن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من النـاس لاكتائب له في فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سـوى المحاباة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده الا المراضاة ، يظهر بصـور مختلفة الالوان متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملـوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواقي مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا ألا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشـهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة اذ اتحدت لاتعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سـياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وان مسه الضر •

الا أن غشية التهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووفرت اسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهنـد الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلهـا تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم •

ان الرزايا الاخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ماهم فيه فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا الى معـالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحـوادث سبيلا حسـنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وأن الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخـالونها تفوتهم ، ولئن فاتتهم فكم فى الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الأمور •• » •

ويمضي الشيخ محمد عبده في كتابته ضد الاستعمار ، فيشرح علة ما أصاب المسلمين من انحطاط فيقول في كلمة نشرتها له جريدة العروة الوثقى في ١٠ من ابريل ١٨٨٤ ، (المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل في ولايتهم من البلدان، وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحـــدين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثم ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الامـــوال والارواح وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطر ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم ، وبالغــت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره ، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء واعوان الشهوات في كل زمان ..

ويتصدى الشيخ محمد عبده للحملة التي كان يشنهــــا الغرب وبريطانيا على المسلمين واتهامهم للحركات الوطنية بالتعصب ، للنيل منهم ولتفتيت صفوفهم ، وفي هذا كتب يبصر ابناء العرب والمسلمين بخطورة ما تتهمهم به سياسة الغرب ويرد على ساسة الغرب وعملائهم واعوانهم من المشارقة ... كتب رحمه الله يقول : ـ

(التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعهــــا رابطة النسب والاجتماع بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا . والمتنطعون من مقلدي الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ويرمونه بالتعس ، ولا تخال مذهبهم هذا مذهب العقل ، فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات،وكسب الكمالات،لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجـــود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجـــد عند العقل أدنى

فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب ، فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في اصول العقائد بعضهم لبعض ، اذا وقف عند الاعتدال ، ولم يدفع الى جور في المعاملة ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم او نقض لذمته ، فهو فضيلة من اجل الفضائل الانسـانية ، وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها،اذا استحكمت صعدت بذوى المكانة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد » .

« تشنع جماعة من متزندقة هذه الاوقات في بيان مفاســد التعصب الديني . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هــو الذى يصدهم عن السير الى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ، ومن رأى اولئك المتقفين ان لاســبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحــو أثرها وتخليص العقول من سلطة العقائد ، وكثيرا ما يرجفــون بأهل الدين الاسلامى ، يخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم . »

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والافراط مثل مايعرض على التعصب الجنسى فيقضى الى ظلم وجور ، بل ربما يؤدى الى قيام أهل الدين لابادة مخالفيهم ومحو وجودهم ، كما قامت الامم الغربية اندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة لاللفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيون بمسلمى الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى ، أن صاحب السلطان من المسيحين جمع اليهــود في القدس وأحرقهم ، الا أن هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة، ثم يرجع أرباب الدين الى اصوله القائمة على قواعد السلم والرحمــة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامى فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الأجيال

الماضية الا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعدما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على مانقول ، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن وضعف • نعم كان للمسلمين ولع بتوسع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، الا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله : ـ

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) •• اللهم الا ملا تخلو منه الطباع البشرية •

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحدا من مخالفيهم عن التقدم الى ما استحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ما كان وفي الظن أن الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم (فسحقا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) •

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدينهم والاجبار على قبوله من شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة، وانما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي • هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ما كانوا يطئون أرضا الا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين أولئك المسلطين وهو

الدين المسيحى كما فعلوا فى مصر وسورية ، بل وفى البلاد الافرنجية نفسها •• »

ويستطرد الشيخ محمد عبده فيقول : -

« نعم ان الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هى الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تكون الا بالعصبية الاعتقادية • ولاولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا ، فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء جميعهم أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا فى دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيىء لنفسه مسكناً سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وما تصول به على حياته •

من هذا ما سلك البريطانيون فى الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم ، وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة الى استرداد ما سلب منهم ، وأرشدهم البحث فى طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة الملية سائدة فيهم ، فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون فى البلاد الهندية بالنيجرية ، أى الدهريين ، فاتخذهم البريطانيون أعوانا لهم على افساد عقائد المسلمين : وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة فى (عليكرة) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف فى العقائد

وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح البريطانيون فى التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وغير أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة ـ تعس من يبيع ملته بلقمة ـ وذمته برذال العيش •

هذا أسلوب من السياسة الاوروبية أجادت الدول اختياره ، وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرهما من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيدا من الأمراء والمنتسبين الى العلم والمدنية واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجيبا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكنا نعجب من آن بعضا من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى ايمانهم يسبكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ويجاهرون برمى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين • يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها الى أيدى الاجانب يستعبدونها ما دامت الارض أرضا والسماء سماء ، والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لاحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة ، الافرنج أشد الناس فى هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه • ومن القواعد الاساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، واذا عدت عادية مما لا يخلو منه الاجتماع البشرى على واحد ممن على دينهم ومذهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحا وعويلا ، وهيعات ونبآت تتلاقى أمواجها فى بلاد المدنية الغربية وينادى جميعهم • ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة فأجمعوا الأمر وأخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط

من وقوع مثلها ، حتى لا تخدش الجامعة الدينية ، وتراهم على اختلافهم في الاجناس ، وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات ، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وأن كان في أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية ، أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، ل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ هذه الغاية من حده،ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليسوا من نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون أنهم حماته وأنصاره ، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ، ولا يألون جهدا في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيرا ما تجاوزوه ، أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب ، يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلادستون واضرابه ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح « بطرس الراهب » بل لا ترى روحه الا نسخة من روحه » .

ولم ينس الشيخ محمد عبده ، أن يكشف الدور الذى كان يقوم به الأجانب ـ اذ ذاك ـ لهدم كيان الأمة وفي هذا الشأن كتب يقول : ـ

« وأما الاجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الاجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو ادركته الزلازل ، هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر ، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الامة الذى هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه

منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها ، وارتد الى منبته الذى ينتسب اليه، بل هو فى حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته فى جميع شئونه ماعدا الأجر الذى يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد فى طبيعته ولا فى خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلى شأنه ، بل لا يجد باعثا على الفكر فيما يقوم مصلحته من أى وجه هذه حالهم هى لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر ، فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقه ، وضربوا فى أرض غيرهم طلبا للعيش من أى طريق وسواء عليهم فى تحصيله أصدقوا أم كذبوا وسواء وفوا أم قصروا وسواء راعوا الذمة أم خانوا ،أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لامتهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التى يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الاجانب فى الممالك الاسلامية لا يجدون فى أنفسهم حاملا على الصدق والامانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التى تمثل لنا أحوال الامم الماضية وتحكى لنا عن سنة الله فى خليقته وتصريفه لشئون عباده ، رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ماكانت مصونة الا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شىء من اعمالها بيد أجنبى عنها وأن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت فى هوة الانحطاط الا عند دخول العنصر الاجنبى فيها ، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية فى أعمالها فان ذلك كان فى كل دولة آية الخراب والدمار ، خصوصا اذا كان بين الغرباء وبين الدولة التى يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة.

***

كان الشيخ محمد عبده يدرك حاجة العرب والمسلمين وقتئذ لرجل يقودهم ، رجل تتوافر له صفات عددها فى مقال نشرته له جريدة المؤيد فى ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠١ قال فيه : ـ

(ان الكبار من الرجال هداة فى أممهم ، وانما يظهر أثرهم فى ارشادها ، والسير بها فى الطريق المؤدية الى الغاية التى تطلبها ، وليسوا

بخالقين ولا ناشرين من موت ، وانما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره الى المطلب ، وعرف أنه أبعد عما هو فيه ، فتهيأ للسفر ، وتحفز للرحلة ، وأخذ للامر أهبته ، وأعد له عدته ، واستقام على أول الطريق ، فاذا السبل متفرقة ، والاعلام كثيرة ، والصوى متعددة ، فيقف المسافر ، وقفة الحائر ، فيأتيه البصير بالمسالك ، فيدله على خيرها ويختـار له أقربها وأبعدها عن المهالك ، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ، ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها ، والطريق التي يختارها لها ، وبقية الطرق على جوانبها ، فرأى الدليل قويما ، والصراط مستقيما ، فيسير والرجل الرشيد أمامه ، الى أن يمس الغاية بيده ـ ويلمس الطلب بأصبعه ـ نعم الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس يحيي الموتى ، ولا بمسمع من في القبور .. »

ويقول الشيخ الامام :

« الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الالم الى أن يتكلم ، بل يحمل شدة الالم على أن يجاهد في قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدوه عدوا لهم ، وكلما دعاهم الى الحركة دعوه الى السكون وكلما أخذ بهم الى الفزع جذبوه الى الركون ، وهم أكثر منه عددا وأوفر عددا ، فلا يمضى طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، وينقطع نفسه من الدعوة الى الاصلاح ، وتضعف عزيمته وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدوهم ، وقد خدعهم بوهم ، وأحسوا بشدة الصدمة ، صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس الصعداء ، وحسرة تصعد الى السماء ، مع القعود في المساكن ، والخلود الى أخس المنازل ، فينتهى بهم الامر الى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال . »

ان كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه .. وانما هو خدر شلت به الاعصاب وذبلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير ؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ويستعمل ما لديه من قوة في معالجة الداء ، هيهات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك

المستهزىء ، وأخرى يبكي بكاء اليائس ، وثالثة يضرب بما حضر لديه أو بيديه ورجليه ، حتى يقضى عليه .. » .

هذا اذا ذهب الطبيب نحو الامة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ـ فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه الى صاحب السلطة عليها ، والحكم النافذ فيهـــا ، لعلمه انه يتمكن من ازعاجها عن موطنها ، وسوقها الى ما ينجيها من هلكتها ـ وذلك قد يكون ـ فان الملوك والرؤساء لهم فى الامم ما للجهل فيها ، فكما أن للجهل فيها حكما لامعارض له فللسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن الحـــاكم أن يداويها بدائها • والاستبداد الذى يستعمله ليسوقها الى الشر ، يمكنه أن يستعمله فيهـــا ليقودها الى الخير ، والرتب والمناصب التى يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى،يسهل عليه أن ينوط بها مايريد من وسائل المنفعة الثابتة ، والمصلحة القائمة ـ اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد؟ يجد مالاسبيل الى شرحه الآن ... » .

***

وهكذا مضى الامام الشيخ محمد عبده ، فى كفاحه ضد الاحتلال ، وضد الاستعمار ، وفى هذه الفترة التى كان كفاح الامام على أشده توفى الخديو توفيق ، وتولى الحكم بعده الخديو عباس الثانى .. وكان تولى عباس الحكم بمثابة ظهور عنصر جديد فى الموقف السياسى بمصر ، نظرا لان الخديو كان قد تلقى علومه فى النمسا وتشبع بالميول الالمانية فأصبح بحكم ثقافتـــه وبحكم تنشئته وتوليته أشد ميلا الى المانيا ، وأكثر بغضـــا للانجلو سكسونيين .. لم يكن عباس اذن فى حاجة لمن يحرضه ضـــد سلطان « كرومر » فى مصر ، وبالتالى ضد الاحتلال البريطانى ، متمثلا فى تصرفات كرومر .. وقد وجد فى السلطة التى كان يتمتع بها كرومر فى حكم البلاد ما يحول دون تمتعه هو بالسلطان والنفوذ اللذين كان يحلم بهما قبل أن يرتقى العرش ، ووجد نفسه حيال هذا الوضع مجبرا على أن يختار أحد أمرين ، فاما أن يستسلم لكرومر ، ليضمن لنفسه راحـــة البال من عناء المقاومة والصراع ، ويكفل لنفسه وفرة المال ، والتصرف

المطلق في الشئون التي لا تمس الجانب السياسي الذي يهم بريطانيا ، وأمله أن يفزع الى مناضلة سلطان كرومر ، حتى اذا ما قدر له الفوز في نضاله هذا تمكن من الحد من سلطان لورد كرومر ، وبالتالي تمكن من زيادة سلطانه هو بحيث يتسنى له أن يحقق غرضه في اجلاء بريطانيا عن مصر . وقد كان غرض عباس يتفق وغرض تركيا من حيث اجلاء البريطانيين عن مصر ، بينما كان هدف كل من الطرفين من وراء هذا الجلاء يختلف عن الآخر ، فكان عباس يبغي من ورائه أن ينفرد هو بشئون مصر ، بينما كانت تركيا ترجوه لتعيد بسط سلطانها على مصر من جديد .



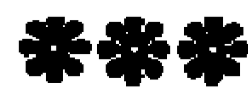
كانت هذه صورة الواقع عندما ارتقى عباس عرش مصر ، ولقد أدرك كرومر ، بفطنته تلك العوامل التي كانت تتفاعل في نفس الخديو عباس ، ومن أجل ذلك وقف من الخديو موقف الشدة والعنف من أول الامـر .

وفي كل المسائل ، عدا المسائل التي كان يمكن أن تقـود الخديو عباس الى مسلك انتهازي بقصد الاثراء وجمع المال .. ففي مثل هـذه المسائل بالذات كان « كرومر » يتغاضى ويتعامى ، وتختفي شدته وعنفه .. فتغاضى كرومر عن تصرفات الخديو عباس المالية ، وعن سيطرته على شئون الاوقاف .. ليتخذ من هذا المسلك ، سلاحا يشهره في وجه عباس في الوقت المناسب .



وهكذا بدأ الصراع السياسي بين الخديو عباس وكرومر ، ونحن وان كنا لا نخوض في تفاصيل هذا الصراع ، الا أننا سنعرض منه الجانب الذي يتصل بالحركة الوطنية ، وهو شعور الخديو عباس بضرورة تضامنه مع تركيا في مساندة الحركة الوطنية التي قـام بها في مصر طائفة من المثقفين ، والتي كانت اذ ذاك في مرحلة التكوين ـ لا سيما أن المجاهدين القدامى الذين عاصروا الثورة العرابية وما بعدها كانوا قد رحلوا عن الحياة

الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم الا قلة كانت فى سبيلها الى النهاية ... وكان لابد من دم جديد ، وقيادة جديدة ، تدفعهم الى الامام ، فى الوقت الذي كان يحرص فيه كرومر على مسالمة العناصر الوطنية القـــديمة ويمالئها ويمكنها من الاضطلاع برســـالة الاصلاح ، ولكن فى الحدود التى ترسمها بريطانيا ، والتى قصرتها وقتئذ على السماح للشيخ محمد عبده بالتصدى الى اصلاح الشئون الدينيـــة ، وشئون الازهر وشئون الاوقوف .. ولكن كرومر لم يعدم فى نفس الوقت سـبيلا لاثارة الفتنة بين الشيخ محمد عبده والخديو عباس ، وتدبير أسبابها .. وقـد أعان كرومر فى خلق هذه الفتنة علما بأمانة واستقامة الشيخ محمـــد عبده وجنوح الخديو عباس الى جمع المال بكافة الوسائل ، مما كان من شأنه أن يصطدم بسببه الاثنان – حتما – وبهذا فقد حول كرومر جانبا مـن القوى التحررية الى الكفاح ضد الحاكم ..



قلنا ان الخديو عباس وتركيا ، كان لابد لهما من البحث عن القوى الوطنية الجديدة ، الفتية التى يكون من شأن مساندتها اقلاق بريطانيا فى مصر .... ولم يكن أمام عباس وتركيا وقتئذ الا هذه الحركة الوطنية القوية التى كان يتزعمها مصطفى كامل .. وقد اتجه الخديو وتركيا من ورائه الى هذه الحركة ، ومدوها بالعون المادى والعون الادبى ..وكانت فرنسا من جانبها ترقب تطور هـــذه الحـركة ، وتعمل من ناحيتها على مساندتها ..

وقد أدرك مصطفى كامل ، ما يمكن أن تفيده الحركة من هذه النواحى الثلاث ، تركيا ، وعباس ، وفرنسا – فسخر تلك القوى المتباينة لخدمة قضية مصر ، ولخدمة دعوته الى تحرير بلاده ، وجلاء القوات البريطانية عنهـــا ..

وقد التف حول مصطفى كامل كافة العناصر الوطنية ، ممن تتلمذوا على جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده ، واتباعهما ، والتفت حوله العناصر الوطنية التى تلقت علومها فى الخارج لا سيما فى فرنسا وتكونت

فى مصر قوة من الشباب أسماها لورد كرومر « مصر الفتية » وقد أدرك خطرها على مستقبل بريطانيا فى مصر،وأخذ يشير الى هذا الخطر ، وينبه فرنسا ، بصفة خاصة الى نتائجه ، فكتب فى هذا الصدد عن هذه الجماعة التى تحررت من سلطان القس دنلوب وأساليبه التعليمية فى مصر يقول :

« ان المصرى الذى يتلقى علومه فى الخارج – ويقصد فرنسا بالذات – يفقد مظهر اسلاميته ولكن مع هذا لا يتقدم بأية حال نحو المسيحية ، فلا توجد من الناحية العملية – حالة تحول فيها مسلم من الطبقة المتعلمة الى مسيحى ، بل أبعد من هذا ، فان المسلم الذى حصل على ثقافته من الخارج، قد يبدو مسلما غير متزمت أو غير متمسك بتعاليم الاسلام ، الا أن المشاهد أن مثل هذا المصري يكون دائما بعيدا عن التسامح مع الاجانب وأنه غالبا ما يكون أشد تعصبا ، وأقل تسامحا بالنسبة للعناصر المسيحية من أشد المسلمين تدينا وممن لم يتلقوا علومهم على أيدى الاوربيين فهو يكره المسيحيين ويحقد عليهم حقدا بالغا ، وهو يشعر بهذا الشعور نوعا ، لأن من بين من تلقى معهم العلم من المسيحيين من يستحقون هذه الكراهية والحقد ، كما أنه يكره البعض الآخر من المسيحيين لأنهم بوصفهم أوربيين يعتبرون أقوى منافس له فى احتلال المراكز التى هى من حقه ، والتى يرى أنه أولى من الاجنبى ليشغلها فى بلاده .. »

ويعلق اللورد كرومر – فى مرارة – على هذه النتيجة فيقول : –

« اننى لا أشك كثيرا فيما اذا كان أولئك الذين يثقفون المصريين ويدخلون التعاليم الغربية بينهم ، يدركون الثمن الذى لا مناص لهم من أن يدفعوه فيما بعد ، ان المزايا المادية التى سوف تتحقق من ادخال الحضارة الغربية فى مصر لا شك فيها ، غير أنه اذا نظرنا الى الهدف الاخير والأثر النهائى على السلوك الشخصى والعام فى المستقبل ، أدركنا انهما أثر وهدف غير أكيدين .. »

***

ويمضى اللورد كرومر فيصف الاخطار التى تنتظر الغرب على أيدى أولئكم المصريين الذين تلقوا علومهم فى الغرب فيقول : –

« لا يمكن أن نتصور بأنه يوجد من بين المثقفين المصريين من يتعذر عليه ادراك الخلل والعيب فى تصرفات الاوربيين أكانوا فرنسيين أم بريطانيين ممن يشرفون على الامور فى مصر ، فان مثل ذلك المصرى يرى هذا الخطأ فى وضوح ويدركه تماما ، والنتيجة دائما ، هى أنه برغم تثقفه بالثقافة الاوروبية ، فانه يؤثر الانفصال عن المدنية الغربية ويحتقرها ويزدريها .. وعلى أى اعتبار ، فانه لابد أن يتساءل فيما بينه وبين نفسه ... هل نحن معشر المصريين أقل مستوى من معلمينا ؟؟

قد نكون مخدعين أو غير جديرين بالثقة أو غير أكفاء ، ولكننا على أى حال ، لسنا بأسوأ من هؤلاء الذين قيل لنا أنهم يعتبرون من خير غراس الحضارة الأوروبية !! وان النتيجة أيضا هى أن المصريين الوطنيين الذين يتلقون العلم فى الخارج سيعودون الى بلادهم ليصبحوا بحكم المثل ، وبحكم المشاهدة من حملة الدعوة ضد المبادىء وضد الافكار الاوربية .

***

ويقول لورد كرومر « ان مثل هذا المصرى الذى تلقى علومه فى الخارج سيعتبر فى نظر المسلمين المتعصبين قدوة سيئة لاولئكم الذين يحرصون على التعاليم الدينية ، لانهم لن يدركوا أن هذا المصرى رغما عما بلغه من ثقافة أوروبية فانه من أشد الناس كرها للغرب وللاوروبيين وبالقدر الذى يجاوز ما تحمله من هذه الكراهية قلوب من هم دونه ثقافة وتعليما من أبناء وطنه .. »

ويقول كرومر « ان هذه الطبقة تقف من بريطانيا ومن الاحتلال موقف العداء وتشكل خطرا كبيرا على مستقبل بريطانيا فى مصر .. »

***

وحينما كان كرومر يسجل هذه الآراء والملاحظات كان يعنى الحركة الوطنية التى نهض بها مصطفى كامل لمطالبة بريطانيا بالجلاء عن مصر ، وكان كرومر يعلم ـ يقينا ـ أنه لو أمكن تسوية الخلافات القائمة بين بريطانيا وفرنسا ، تسوية من شأنها أن تتخلى فرنسا عن مساندة

الحركة الوطنية فى مصر ، وعن مؤازرة مصطفى كامل،لتمكنت بريطانيا من أن تطلق يدها الى أقصى حد فى شئون مصر ، وبالتالى لتمكنت بريطانيا من أن تحد من نشاط العناصر الوطنية ومن القضاء على دعوة الوطنيين التى تتجه الى تحقيق الاستقلال وجلاء بريطانيا عن مصر •

***

كان كرومر يعلم كما يعلم ساسة بريطانيا أن فرنسا لم تكن تبغى من وراء مساندتها للحركة الوطنية فى مصر - خير مصر ، وانما كان هدفها فى ذلك أن يكون بيدها الوسيلة التى تكره بها بريطانيا وترغمه على أن تقابلها فى منتصف الطريق لتسوية ما كان قائما بين الدولتين من منازعات فى سائر أنحاء العالم ، ومن بينها النزاع حول مستقبل مصر وما لفرنسا من مصالح لابد أن تتأثر بالصورة التى يكون عليها حال مصر مستقبلا ••

***

ولما تم توقيع الاتفاق الودى بين مصر وبريطانيا اعتقد كرومر بأن يده قد أطلقت فى شئون مصر ، فتحولت سياسته تحولا خطيرا ••• فأصبح ينظر الى مصر كمزرعة للبريطانيين ، ولم يكن كرومر الذى كان يزعم انه يعمل من أجل أن يهيىء المصريين للنهوض بحكم بلادهم ، لم يكن يتساءل عن قدرة المصريين على تولى المناصب ذات المسئولية فى بلادهم ، أو المناصب الثانوية ، بل كانت سياسته قد تحولت - كما قال جون مارلو فى مؤلفه « علاقة بريطانيا بمصر » من أن كرومر بصدد اشغال الوظائف كان له سؤال يلازمه سؤال يقـــول : هل من الممكن لمصرى أن يؤدى العمل على صورة مرضية ، فتغير هذا السؤال بتغير سياسة كرومر وأصبح أليس من الممكن أن نجد بريطانيا يقوم بالعمل بطريقة أفضل ••

وبهذا عملت بريطانيا على صبغ الادارة المصرية بالصبغة البريطانية الكاملة ••• ويقول مارلو ان وضع البريطانيين فى الادارة المصرية قد تحول منـــذ ذلك الوقت من رسالة يؤدونها لخدمة بريطانيا الى وضع يحرصون فيه على الدفاع عن كيانهم ومصالحهم الخاصة •

الفصل التاسع والثلاثون

دنشواى

« كرومر يتجاهل حقوق وعواطف المصريين ويمعن فى البطش بالحركة الوطنية »
« دنشواى ـ مصطفى كامل يتحدى كرومر وبريطانيا ـ مصطفى كامل ينقل المعركة »
« ضد بريطانيا الى المحيط العالمى والى بريطانيا ذاتها ـ نجاح الحملة وتنحية »
« كرومر ـ «اللدون جورست» يحل محل كرومر ـ بريطانيا لاتبدل من سياستها »
« ولكنها تعدل من أسلوبها ـ « جورست » يعمل على اضعاف الحزب الوطنى »
« بالتظاهر بمسايرة المطالب الوطنية وبابعاد أولئك الذين يبغضهم الشعب لتورطهم »
« فى خدمة بريطانيا ـ « جورست » يعد بالعودة الى سياسة تمصير الوظائف »
« ويتوسع فى سلطان الجمعية التشريعيةومجالس المديريات ولكن عضويتها قاصرةعلى »
« كبار الملاك ممن تربطهم مصالح بالمستعمر وبالطبقة الحاكمة ـ محاولة مد امتياز »
« قناة السويس ـ اغتيال رئيس الوزراء ـ « جورست » يكشف عن حقيقة وجه »
« السياسة البريطانية ـ قانون الصحافة ـ « كتشنر » يحول دون مساندة ليبيا »
« فى وجه العدوان الايطالى ـ « كتشنر » يعود الى اساليب كرومر . »

***

وقد مضى كرومر فى تجاهله لعواطف المصريين ، وتجاهل شعورهم بمالهم من حقوق ، حتى تلك الحقوق التى كانوا يمارسونها قبل الاحتلال قد انكرها عليهم كرومر ..

وكانت بريطانيا عقب الاحتلال قد الغت مجلس النواب المصرى الذى تم انتخابه فى سنة ١٨٨١ واستعاضت عنه بمجلس الشورى ، ثم بالجمعية العمومية ، غير أن هذا المجلس لم تكن له أية سلطة ، كما أن الجمعية العمومية لم تجتمع خلال تلك الفترة الا مرات معدودة ..

وبينما كانت جهود كرومر تزداد من اجل البطش بالحركةالوطنية، كانت هذه الحركةتزداد قوة وشدة فأراد كرومر أن يلقن المصريين درسا يحملهم على الاعتقاد بأن سلطان بريطانيا على مصر ، لا يمكن أن تنال منه الحركة الوطنية ولو احتشد لتأييدها اجماع مصر كلها ... ولكى يشعر مصر بقوة بريطانيا ، فانتهز الحادث الذى وقع فى ١٣ من يونية عام ١٩٠٦

فى قرية دنشواى حينما خرج جماعة من الضباط البريطانيين ليصطادوا الحمام في حقول الاهالى،على الرغم من انذارهم،وشمورهم باستياء الاهالى من اعتدائهم على ممتلكاتهم •• وقد أصابت أعيرة نارية من بنادقهم امرأة، واجتمع الفلاحون وحدث تجمهر واعتدى الضباط البريطانيون على عدد من الفلاحين ثم فر احدهم ويدعى « بول » ، وظل يجرى فى سرعة زائدة ولمسافة طويلة متعرضا لحرارة الشمس حيث كانت تبلغ وقتئذ ٤٢ درجة فسقط ومات متأثرا بضربة الشمس •••• وبادر البريطانيون بقتل أحد الفلاحين فى قرية سرسنا بجوار دنشواى ••• وكانت هذه بداية الواقعة ••• انتهز كرومر هذا الحادث ليلقى على المصريين الدرس كما توهمه•

ويقول مصطفى كامل رحمه الله •• ان البريطانيين قد فقدوا الرشد ، وثاروا بسبب أن المصريين قاموا بالدفاع عن ارواحهم ، وعن أملاكهم •• وبدلا من أن ينظروا الى الحادث برباطة الجأش التى ينظرون بها الى كل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فى الحادث وجسموه وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال ، قبل المحاكمة ، أن العقوبات والعبرة التى ستلقى على الناس ستكون عقوبات وعبرة هائلتين ،فلم يكن العدل هو الهدف المنشود فى المسألة ، بل كان الهدف هو الانتقام الفظيع ، وفعلا كان موقف بريطانيا وموقف كرومر هو الانتقام ، لقد اصدر المستر ميتشيل المستشار البريطانى حكمه ، قبل المحاكمة فقد شكلت محكمة خاصة ، وانعقدت فى اليوم الثالث لوقوع الحادث فى ٢٧ من يونيه اصدرت حكمها بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبمثلها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس لمدة عام مع الجلد على ثلاثة ،وبالجلد على خمسة ، وقد تم جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة ، بسوط ذى خمسة أفرع ، كما قررت المحكمة ، فى حكمها أن ينفذ الحكم فى اليوم التالى لصدوره ، وفى قرية المحكوم عليهم نفسها ، لأن « كرومر » قد صمم على تنفيذ الحكم فى مكان الحادث وفى مثل الساعة التى وقع فيها ••

ويقول مصطفى كامل : ـ

وأقيمت أعواد المشانق ، وأعدت ادوات الجلد والتعذيب في قرية دنشواى » .



كان كرومر يعتقد أن حادث دنشواى هو وسيلته ليشعر المصريين بشدة قبضة بريطانيا عـلى مصر ولكن مصطفى كامل ، والحزب الوطنى والوطنيين من أبناء مصر ، التقطوا القفاز فى حادث دنشواى ذاته متحدين بريطانيا ، اذ كان هذا الحادث هو أمضى سلاح هاجموا به الاستعمـــار البريطانى .

وفى هذا الشأن كتب مصطفى كامل فى صحيفته الفيجارو الفرنسية فى ١١ من يوليو سنة ١٩٠٦ مقالا بالفرنسية عنوانه « الى الامة البريطانية والى العالم المتمدين » عربة المرحوم الاستاذ على فهمى كامل ، جـاء فيه مايلى : ـ

« جئت أسأل الامة البريطانية اذا كان يليق بها ان تترك الممثلين لها فى مصر يلجئون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل همجية ـ بل وأكثر من همجيةليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانسان ؟

« انى معجب بكل اخلاص وشكر واعتراف بالجميل ـ بالنـــواب والكتاب البريطانيين الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر ـ ولكن لما رأى السير ادوارد جراى أن الرأى العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر ، وقف فى مجلس العموم وتكلم فى التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر ، وسأل النواب بكل رجاء والحاح ألا يشتغلوا بمســـائل مصر ـ حتى لايضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر القادر فى مصر على كل شىء انه خطر أصرح أنا علنا بأنه موهوم !!

« ان هذا الخطر الموهوم فى ايدى اصحاب الامر من البريطانيين ما هو الا وسيلة لتبرير هذه الفظيعة المستنكرة ، وفظائع أخــرى تقع فى المستقبل !!

« انه لاوجود لهذا الخطر ، وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه »

« وانى أؤكد بحق أقدس شيء فى الدنيا انه لاوجود للتعصــب الدينى فى مصر ، نعم ان الاسلام سائد فيها لأنه دين الاغلبية العظمى ، ولكن الاسلام شيء والتعصب شيء آخر .

« لقد انخدع السير ادوارد جراى فى هذه المسألة ! وانى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : ـ

« هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أفكانت تستطيع بريطـانيا أن تحاكم ٥٢ مسلما امام محكمة استثنافية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

« هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة المهيجة لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« الم تكن كل هذه التحريضات كافية لاخراج الشــعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

***

وهكذا نقل مصطفى كامل المعركة ضد بريطانيا الى المحيط العالمى نقلها الى ميدان الصحافة الفرنسية ، ثم الى الصحافة البريطانية ذاتها .

لقد وقف مصطفى كامل ، فى لندن يوم ٢٦ من يوليو والقى خطابا رد فيه على اللورد كرومر الذى كان يتهم مصطفى كامل والحركة الوطنية بالتعصب ، فقال : ـ

(وأنه بينما تسأل مصر كلها وهى فى شدة الانفعال والتأثر من حكم دنشواى وتنفيذه الشنيع فى أى زمان وتحت أية سلطة تعيش . وبينمـــا

هى فى انتظار العدل الذى يشرف وحده المتمدينين، اذ رميت باشنع التهم الا وهى تهمة التعصب الدينى •

« فكأنه لم يكف القابضين على أزمة أمورها أن تهان بـــلاد بأسرها وأمة كاملة فى دنشواى بحكم مدهش للغاية ، وتنفيذ جاوز حدود الغلظة المتناهية ، بل احتاجوا الى شيء فوق ذلك • وهو تجريح ســـمعة الامة المصرية واستسماح الشعب البريطانى فى معاملتها بالظلم والتعسف !

« كلا وألف مرة كلا ! ان مصر ليست متعصبة ، ولابد أن يكون الانسان سيىء القصد ليقارنها بجهات « تشارد وزندر » وبتلك البـــلاد المنغمسة فى الظلمات والجهالة !

« اننا لو كنا متعصبين ، وكان شعبنا المؤلف من اثنى عشر مليون نفس يكره المسيحيين العائشين معه،لما استطاعت قوة فى العالم أن تخمد نار هذا التعصب أو تقف لهيبه ، بل لأثبت وجوده وحيـــاته بمظاهرات حقيقية ولكن ظهر عند انتشار اخبار تنفيذ حكم دنشواى ، وبمناســـبة تلك التحريضات المستمرة التى يقوم بها الطاعنون على ديننا ، والذين يدعوننا لاعتناق المسيحية ! ••• ثم يستطرد مصطفى كامل فيقول : ـ

« كلا ايها السادة • ان مسلمى مصر ليسوا متعصبين ابدا ، بل هم وانى أؤكد ذلك ـ أكثر أمم الارض اعتدالا ، وانكم اذا كنتم تدعـــون «تعصبا» الشعور الاسلامى الذى لايكون المسلم مسلما بغيره فلم لاتسمون كذلك الشعور الذى دفع أغلب البريطانيين وفى مقدمتهم غلادســـتون الكبير ـ الى اظهار انعطافهم نحو مسيحى الشرق ، ومساندتهم وتعضيدهم مرارا ؟

« ان هناك اسبابا تحول بيننا وبين التعصب

« أولها مبادىء الاسلام التى هى صريحة واضحة قطعية ، حيث تأمرنا بمعاملة المسيحيين بعدل وانصاف ورفق ، أو لم يتزوج نبينا الكريم نفسه بمسيحية وأثبت بذلك للعالم كله حرية فكره وسموه ؟

« ان الامثال على الاعتدال الاسلامي ومتانة مبادئه ورحمته كثيرة في التاريخ واذا هي لم تتبع في بعض الاحيان فليس السبب الاسلام نفسه بل السبب راجع الى الانقلابات والاضطرابات التي عرفتها أمم كثيرة في ساعات تعسة من حياتها !

« ولقد أدرك الشعب المصرى حقيقة الاسلام كما هي ، وعرف مبادئه العالية الحرة وساعدته صفاته الطبيعية على تنفيذها كما يجب أن تنفذ .

« وثانيها أن المدنية ونور العلم وهبا المصريين ملكة التمييز ، والحكم والذوق السليم ، فهم يعرفون أن الاوربيين وكافة المسيحيين الذين يعيشون في مصر ليسوا مسئولين عن السياسة الاوربية وأخطائها وانه لا يمكن بغضهم لذلك .

ولقد آزرت الجمعية التشريعية ، وقتئذ الحركة الوطنية ، فعقدت في فبراير سنة ١٩٠٧ اجتماعا اتخذت فيه قرارات طالبت فيها بالغاء المحكمة الاستثنائية والافراج عن المحكوم عليهم في حادث دنشواى ، كما طالبت هذه القرارات بالدستور وباقامة حكم نيابى يمثل فيه الشعب وقصر الوظائف الرئيسية في الدولة على المصريين وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية وتخفيض المصروفات الدراسية لتيسير التعليم لابناء الامة واصلاح القضاء ، ووقف منح الامتيازات المالية والتجارية للشركات الاجنبية ، كما قررت الجمعية التشريعية في اجتماعها هذا اعلان احتجاجها على التعامل بالعملات الاجنبية داخل البلاد ..

.... وازاء هذا الموقف من جانب الجمعية التشريعية ، رأى كرومر أن يتخذ موقفا مضادا ، فأوعز الى فئات معينة من أجل ان تقابل قرارات المؤتمر بالاحتجاج عليها ، غير أن هذا الاحتجاج الموعز به كان سببا في الهاب الشعور الوطنى وزيادة التحمس لقرارات المؤتمر .

وقد نجحت حملة مصطفى كامل من اجل اقناع الحكومة البريطانية

ـ وكانت اذ ذاك ـ حكومة الاحرار ـ بوجوب تنحية لودر كرومر عن شئون مصر ، وكذلك تعديل سياسة بريطانيا بالنسبة للمصريين •

وقد علق ادوارد دايسي (Edward Dicey) في مؤلفه « مستقبل مصر » على سياسة لورد كرومر فقال • ـ

ان حكم كرومر المطلق في مصر لمدة ربع قرن قد زاد من رفاهية مصر المادية ، ولكنه في الوقت نفسه ، باعد بينها وبين ممارسة اى نوع من انواع الحكم الذاتي ـ وكان من الممكن ان تمارسه في اول عهد الاحتلال •••• وأن حرمان المصريين من حكم بلادهم وقصر حكمها على موظفين من البريطانيين كان من الاخطاء الجوهرية في سياسة كرومر ـ على أن الواقع والاحداث قد أثبتت فشل هذه السياسة •

***

ونحي لورد « كرومر » سنة ١٩٠٧ وعينت بريطانيا بدلا منه السير الدن جورست (Eldon Gorst) الذى بادر شأن كل حاكم جديد ـ الى احداث تعديل في الذين كانوا قد تورطوا في مجاراة « كرومر » تورطا جعلهم شخصيات بغيضة الى الشعب ، كما أخذ « جورست » يعمل على ادخال الطمأنينة الى نفوس الطبقة المثقفة في مصر فوعدهم بالعمل على الحاق المصريين بالوظائف بدلا من البريطانيين وبالعودة الى سياسة تمصير الوظائف في الحكومة المصرية واتجه الى توسيع سلطان الجمعية التشريعية والجمعية العمومية كما توسع في نظام مجالس المديريات ، غير أنه ، في الوقت ذاته ، وعلى الرغم من أن هذه الهيئات كانت ذات سلطة محدودة ، فان جورست حرص على ألا يصل الى عضويتها الا المعروفون والبارزون من كبار الملاك ممن تربطهم مصالحهم الى حد كبير بمصالح المستعمر ومصالح الطبقة الحاكمة ••• وفي الوقت الذى كان جورست يتظاهر فيه بمسايرة المطالب الوطنية ويعتقد ان في استطاعته اضعاف تأثير الحزب الوطني نتيجة للسياسة التي يتبعها ووجه بصلابة هذا الحزب وبصلابة العناصر الوطنية ، وتمسكها بحقوق مصر كاملة •

وقد استمرت الحركة الوطنية تساندها وتؤيدها الصحافة الوطنية تقاوم الاحتلال البريطاني وتناهض سياسة الوفاق التي كان يتبعها السير جورست حتى عام ١٩٠٩ •

واستعان جورست وانصاره من العملاء وذوى المنافع بفريق اتجه الى تأسيس حزب برياسة ادريس راغب يدعو الى الكف عن مناهضة البريطانيين ويقول بأن مصر ليست فى حاجة الى ثورة لان الحكم فيهاليس فى يد طغاة وانما هو فى رعاية وصى عليها وحام لها ولكنها فى حاجة الى التطوير ••••

وقد ذهب الحزب الجديد الى القول بأن لورد كرومر ولورد ملز وسير أوكلاند كولفن وسلطات أخرى مارست الحكم فى مصر كان من رأيهم جميعا انه من الخير التريث الى أن ينشأ جيل آخر يصلح لممارسة الحياة الدستورية ويكون أهلا لها •

ويقول ادريس راغب فى بيانه الذى أعلن فيه قيام هذا الحزب انه وأعضاء الحزب يحبذون هذا الرأى ••••

وقد دعا ادريس راغب والعملاء من انصاره الى التعاون مع السلطات البريطانيه لتحقيق التفاهم والسلام ! •

قابلت الاحزاب الوطنية هذه الدعوة بالاستنكار الشديد ، ومضت فى مناهضة كل سياسة تهدف الى الوفاق بين مصر وبريطانيا على اساس اقرار الوضع القائم وبقاء بريطانيا فى مصر •

وفى اطار سياسة المسالمة والوفاق التى كان يسعى سير الدون جورست الى تطبيقها فى مصر أملا فى استدراج المصريين الى قبول الاوضاع القائمة ، حاولت بريطانيا تعزيزا لموقفها أن تقطع خط الرجعة على المصريين وتحول دون عودة القناة الى مصر فى عام ١٩٦٨ ••••

ويقول « ج الكسندر » ((J. Alexander)) فى مؤلفه « الحقيقة حول مصر » بأن بريطانيا كانت حريصة على ان تكفل لنفسها

قاعدتين دائمتين تحاصران منهما مصر هما السودان في الجنوب ، وقناة السويس في الشمال ... وكن لزاما على بريطانيا ان تسعى الى مد الامتياز حتى تكفل رقابتها على القناة لاطول فترة ممكنة . فلما طلبت شركة القناة مد امتيازها ٤٠ سنة أخرى تنتهي بنهاية عام ٢٠٠٨ ، كان على هذه الشركة أو كان على فرنسا وبريطانيا أن تعملا على ارضاء مصر من حيث الظاهر ، كما كان من المفهوم ان الموقف الرسمي للحكومة البريطانية لايتسم بالاصرار على قبول مد الامتياز .

***

ويقول الكسندر في مؤلفه : « انه بالرغم من هذه المظاهر فأن شكوك المصريين ومخاوفهم من فقدانهم لهذه المصلحة الجوهرية بقيت تساور نفوس العناصر الوطنية ، ولم تقو على تبديدها وازالتها من قلوبهم تلك المحاولات التى كانت بريطانيا وفرنسا تبذلها من أجل تبديدها وازالتها ففي نهاية شهر أكتوبر عقدت الاجتماعات بين أعضاء الجمعية التشريعية ، والمجالس البلدية والمحلية وانتهت هذه الاجتماعات بأن بعث المجتمعون ببرقيات الى الخديوى وسيرالدون جورست والوزراء يطالبونهم بعدم اقرار مد الامتياز حتى تعقد الجمعية التشريعية اجتماعا خاصا للنظر في الموضوع . وقد ناشدت الصحافة الوطنية رئيس الوزارة المصرية وقتئذ أن يعالج الأمر كواحد من أبناء الشعب ، حتى لا يحكم عليه التاريخ بما لا يشرف سيرته .. ولكن الاتفاقية كان قد تم اقرارها من جانب الحكومة المصرية ، ومن شركة قناة السويس ، ولم يكن باقيا لتنفيذها غير تصديق الجمعية العمومية لحملة الأسهم ثم تصديق الخديو ، وكانت شروط الاتفاقية تقضي بمد الامتياز الى ٣١ من ديسمبر سنة ٢٠٠٨ وتنص على أن تحصل الحكومة في فترة المد (أى من سنة ١٩٦٨ الى عام ٢٠٠٨) على نصف صافي دخل الشركة ، وأن تدفع الشركة مقابل مد الامتياز أربعة ملايين من الجنيهات على أربعة أقساط سنويا اعتبارا من سنة ١٩١٠ ، وأن تحصل الحكومة كذلك على حصة من أرباح الشركة الصافية خلال السنوات من ١٩٢١ وحتى ١٩٦٨ بواقع ٤٪ وعلى أن تتدرج هذه النسبة زيادة حتى تصل الى ١٢٪ من صافي الربح ، كما تنص على أن تتنازل الشركة وتقبل تمثيل الحكومة المصرية في مجلس ادارة الشركة اعتبارا من عام ١٩٦٩ بما لا يجاوز ثلاثة أعضاء » ..

وقد تناولت الصحافة الوطنية وتناولت الاحزاب الوطنية هذه الاتفاقية بالتعليق ـ فقالت الصحافة في تعليقاتها ، أن الخسائر التى ستلحق مصر نتيجة لابرام هذا الاتفاق تتراوح بين ١٢ مليونا و٩٣ مليونا من الجنيهات ...

وشرعت الاحزاب الوطنية فى تنبيه الرأى العام المصرى الى اخطار الاتفاقية وطالبت الحكومة بنشر نصها ••• وواصلت هذه الاحزاب حملتها حتى أكرهت الحكومة على ان تصرح بانها لن تبرم الاتفاقية حتى يتم نظرها امام الجمعية التشريعية ، وقد كان لموقف العناصر الوطنية أثر فعال فبادرت الشركة والحكومة بفتح باب المفاوضة من جديد ، وعرض شروط تحقق مزايا شكلية لمصر وفى الوقت ذاته لا تغير من جوهر الاتفاقية وقد دعا الخديو الجمعية التشريعية الى الاجتماع فى ٩ من فبراير سنة ١٩١٠ لمناقشة المشروع الذى صدم بمعارضة الجمعية له باجماع الاراء ، عدا عضو واحد ••••

وبعد ايام قلائل من دعوة الجمعية الى الاجتماع اغتيل رئيس الوزارة المصرية الذى كان متبنيا لمشروع الامتياز •

فرأى السير جورست أن يحمل الوطنين تبعة اغتياله ، وبدأ يغير من معاملته وموقفه من الحركة الوطنية ، وكان اول مظهر فى تحول جورست ، هو صدور قانون الصحافة فى عام ١٩١٠ ••• وهو قانون لم يكن له مثيل فى غير البلاد المستعمرة •••

وفى سنة ١٩١١ توفى لورد جورست ، وحل محله فى مصر لورد كتشنر (Lord Kitchener) ، وكانت اول مشكلة واجهها كتشنر ـ اذ ذاك ـ هى موقف مصر من الباب العالى وايطاليا ، حينما قامت ايطاليا بغزو ليبيا ، واندفع أبناء مصر ليقفوا فى وجه العدوان الايطالى •

وقد حرص « كتشنر » على الوقوف فى وجه العناصر الوطنية ليحول دون مساندتهم لاخوانهم فى ليبيا بزعم ان مصر تلتزم الحياد ، ومتجاهلا فى الوقت نفسه ما تعترف به بريطانيا من بقاء السيادة العثمانية على مصر ، الامر الذى من شأنه ألا يجعل لهذا الحياد موجبا •

وهكذا مكن كتشنر ايطاليا من الاقدام على غزو ليبيا دون ان تتعرض

الى حركة شاملة جامعة فى مصر لمؤازرة ليبيا فى مقاومتها .... وان كان موقف كتشنر لم يحل دون نهوض فريق من ابناء مصر الاحرار بهذا العبء ، ومشاركة ابناء ليبيا فى كفاحهم ضد الغزو الايطالى .

وقد اعتبرت بريطانيا والغرب موقف كتشنر انتصارا وحكمة سياسية بالغة ، ومظهرا من مظاهر القدرة الفائقة للسيطرة على شئون مصر .... وكان على كتشنر ان يعود الى سياسة كرومر فيقف من الحركة الوطنية فى مصر موقفا عدائيا وكذلك من الخديو عباس الثانى الذى لم يخلص لخدمة مصر بقدر ما أخلص لخدمة مصالحه الشخصية والولاء للباب العالى ....

الفصل الأربعون
بريطانيا تعلن الحماية على مصر

« الحرب العالمية الاولى تتيح لبريطانيا فرض سيطرتها نهـائيا على مصر ـ »
مصر تقطـع علاقاتها المالية والتجـارية مع اعداء بريطانيا ـ بريطانيا تعلن الاحكام »
« العرفية وتزعم تجنب الشعب المصرى المشاركة فى أعمال الحرب ـ دخول تركيـا »
« الحرب الى جانب المانيا يمكن بريطانيا من اعلان الحماية وتصفى بذلك وضـعها »
« القانونى المائع فى مصر وتعزل الخديو عباس الثانى ـ الاعباء التى تحملتها مصر »
« الغرب يسخر كافة الطاقات لخدمة قضيته . »



لقد اتاحت الحرب العالمية الاولى التى قامت فى اغسطس سنة ١٩١٤ ـ بين المانيا وحلفائها من جانب ، وبريطانيا وحلفائها من الجانب الآخر ، الفرصة التى طالما تحينتها بريطانيا لفرض سيطرتها النهـائية على مصر ، ولتقطع الصلات الواهية التى كانت لاتزال تربط مصر بتركيا ولتحمـل مصر على الوقوف فى جانب الحلفاء الغربيين ...

ففى ٥ من اغسطس عام ١٩١٤ أى فى اليوم التالى لدخول بريطانيا الحرب أصدرت الحكومة المصرية بضغط من المندوب السامى البريطانى اعلانا قطعت فيه العلاقات الماليـــة والتجارية مع أعــداء بريطانيا وحث المصريين على تأييد بريطانيا فى كفاحها ..

أصدرت حكومة مصر هذا التصريح خدمة لبريطانيا ، متناســية ما كانت تعانيه مصر وقتئذ من احتلال البريطانيين لها .

وفى يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ اعلن الجنرال « ســـيرجون ماكسويل » القائد العام البريطانى الاحكام العرفية فى مصر ، وتضـمن هذا الاعلان اضطلاع بريطانيا بعبء الدفاع عن مصر ، كمـــا حرصت عباراته على التصريح بأن بريطانيا ستجنب شعب مصر المشاركة فى اعمال

الحرب ... وكان القصد الظاهر من هذا الأعلان هو ادخال الطمأنينة في قلوب المصريين وايهامهم بأن بريطانيا لا تنـــوى ان تحملهم أى عبء فى كفاحها وحربها لالمانيا .

وقد أعلنت هذه التصريحات في الوقت الذى كانت فيه « مصر » خاضعة ، من الناحية القانونية ـ للسيادة العثمانية ـ وكان لزاما عـــلى بريطانيا فى هذه الاثناء أن تحدد موقفها القانونى فى مصر ، فما أن دخلت تركيا الحرب في ٦ من نوفمبر سنة ١٩١٤ واصبحت فى عداد خصومها، حتى رأت بريطانيا أن تغتنم هذه الفرصة لتنهى منوعة وضعها القانونى فى مصر فأعلنت فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ الحماية على مصر ..

وقد جاء في اعلان الحماية ما يلى : ـ

(ان وزير خارجية جلالة ملك بريطانيا يعلن أنه نظرا لحالة الحرب الناشئة عن عمل تركيا فقد وضعت مصر تحت حماية صاحب الجلالة ، وسوف تصبح من الآن فصاعدا تحت الحماية البريطـانية وبذلك انتهت سيادة تركيا على مصر ، وســـــوف تتخذ حكومة جـــلالة الملك بجميع الاجراءات الضرورية للدفاع عن مصر وحماية سكانها ومصالحها .

كما بادرت بريطانيا الى عزل الخديو عباس حلمى الذى كان وقتئذ في الآستانة ، وولت بدله الامير حسين كامل ومنحته لقب سلطان مصر في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ ..

وقد تلقى حسين كامل بعد أن ارتقى عرش مصر برقية من ملك بريطانيا هذا نصها . ـ

« فى اليوم الذى ترتقى فيه عظمتكم السلطانية منصبها السامى أرغب أن أقدم الى عظمكتم السلطانية عواطف الوداد المنبعثة عن أكمل اخلاص مع تأكيدى لكم بأننى لاأنفك عن تأييدكم فى المحافظة على مصر وضمان رفاهيتها في المستقبل وسعادتها ، ولقد دعيتم عظمتكم السلطانية الى تحمل مسئولية منصبكم السامى ابان أزمة خطيرة فى الحياة الاهليـــة بمصر ، وأنى على يقين أنه بمعاونة وزرائكم وبحماية بريطانيا العظمى يتســـنى

لكم التغلب على كل المؤثرات التى يراد منها العبث باستقلال مصر وبرفاهية أهلها وسعادتهم • »

***

وهكذا فرضت بريطانيا حمايتها على مصر ، وبات على الشعب المصرى أن يضطلع بعبء مقاومة هذه الحماية •

وفى الوقت الذى أعلنت فيه بريطانيا الحماية على مصر ، حرصت على ابلاغ مختلف الدول الاجنبية ، أن هذه الحماية لايمكن أن تمس بأى حال من الاحوال مالهم من حقوق فى مصر ، وأن الاوضاع فيما يتعلق بالاجانب ستظل كما هى ، كما أشارت الى أن المندوب السامى فى مصر سيتولى الشئون الخارجية للبلاد •

لقد دأبت بريطانيا ، اذ ذاك — على الزعم فى مختلف تصريحاتها وبياناتها بأنها ستحارب وحدها ، وانها لن تطالب مصر بأى عون ، ولكن الواقع ، كان خلافا لهذه المزاعم ، فقد فرضت بريطانيا على مصر أن تقدم العمال لخدمة مؤخرة الجيوش البريطانية فى الشرق ، حتى لقد بلغ عدد المصريين « بالسلطة » مليونا ومائتى ألف عامل مصرى وذلك عدا ماكانت تستولى عليه « السلطة » والحلفاء من محاصيل البلاد وأقواتها لتموين الجنود فى ميادين القتال « على أن ذلك كله ، لايقاس ، بما انتفع به البريطانيون وحلفاؤهم فى الحرب من المزايا الاستراتيجية التى أتيحت لهم فى مصر واستخدامها قاعدة لعملياتهم الحربية ضد الدولة العثمانية ، كذلك أفادت بريطانيا من الوجهة المالية ، بأن فصلت الجنيه المصرى عن قاعدة الذهب وربطته بالجنيه الاسترلينى ، لتحصل بذلك على كل ما تشاء من العملة المصرية دون أن تودع ما يقابلها من الذهب ••• وبهذا ايضا مهدت « لمشكلة الارصدة الاسترلينية » •

***

وجدير بالذكر ، فى هذه المناسبة ، أن نشير الى ما كانت تفعله فرنسا وايطاليا فى البلاد الخاضعة لسيطرتها ، ومن أجل أن تسخر كل

طاقات هذه البلاد للخدمة فى ميـــادين القتال ، فان هاتين الدولتين لم تكتفيا بالقدر الذى اكتفت به بريطانيا فى مصر ، ومن الاســتيلاء على المحصولات والغلات والماشية من خيول وجمال ، ومن حشد العمـال لخدمة المحاربين ، بل ان فرنسا وايطاليا ، زادتا على كل هذا ، ولم تكتفيا به فى البلاد الافريقية ، اذ كانت السلطات الفرنسية والايطالية تجند أيضا ابناء هذه البلاد وتحشدهم جنودا يخوضون باسلحتهم المعـارك ، وفى مقدمة الصفوف المقاتلة ، للذود عن حرية فرنسا وايطـاليا ، فى الوقت الذى تنكر فيه فرنسا وايطاليا على بلادهم حقها فى ذلك .

الفصل الحادي والأربعون
الحركة الوطنية في مصر في نهاية الحرب العالمية الأولى

« زعم بريطانيا انها تعمل على صيانة استقلال مصر ـ هل برت بريطانيا بوعدها »
« ووفت بعهدها ـ المطالبة بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال البلاد ـ احتجـاج »
« الوفد المصرى المؤلف للمطالبة باستقلال مصر ضد بريطانيا لرفضها السماح له »
« بالسفر لعرض قضية البلاد ـ سعد زغلول رئيس الوفد يسجل مخالفة بريطانيا »
« وتنكرها لشعارات الحرية وللعدالة التى طالما نادت بها أثناء الحرب ـ بيـان »
« سعد زغلول الى معتمدى الدول ـ مصر والرئيس ولسون ـ بريطانيا تصر على »
« ابقاء الحماية على مصر ـ مصر تؤكد حقها فى الاستقلال ـ مصر والاجانب ـ ماهية »
« الاستقلال الذى طالب به الوفد ـ بريطانيا ترفض المطالب المصرية ـ احتجاج الوفد »
« الى « كليمنصو » رئيس مؤتمر الصلح ـ احتجاج الوفد الى « لويد جورج » »
« رئيس وزراء بريطانيا ـ الوفد ومؤتمر الصلح ـ مصر تتمسك بزوال الحماية »
« ٢البريطانيا ـ العرب يواجهون الاستعمار . »



لقد زعمت بريطانيا في برقيتها التي حملتها تهنئتها للسلطان حسين كامل بتوليه عرش مصر .. زعمت أنها ستعمل على صيانة استقلال مصر ورفاهية اهلها وسعادتهم ، ولكن الحماية التي فرضتها بريطانيا على مصر كانت تنتقض هذا التصريح ... لقد حصلت بريطانيا من مصر ـ بطريق الاجبار والقسر ـ على مختلف الخدمات ... استخدمت الطاقات البشرية، والطاقات الحيوانية والطاقات المادية في البلاد .. ولكن هل استطاعت هذه الخدمات والمزايا التي أفادتها بريطانيا من مصر ، وهل استطاعت التصريحات المتوالية التي أدلى بها المسئولون البريطانيون ، هل استطاعت هذه ، أو تلك أن تغير من موقف بريطانيا من مصر عند انتهاء الحرب العالمية الاولى وتوقيع الهدنة ؟ هذا هو السؤال الذى كان يتردد على ألسنة المصريين أملا في الجواب عليه دون أن يجدوا له الجواب ..

وفي ١٩ من أكتوبر سنة ١٩١٨ ، توفي السلطان حسين وخلفه أحمد فؤاد وفي ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وقعت الهدنة ، وفي ١٣ من

نوفمبر سنة ١٩١٨ ، تقدم قادة الحركة الوطنية وقتئذ بزعامة سعد زغلول باشا الى المندوب السامي البريطاني سيرريجنالدوينجت (R. Wingate) مطالبين بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ... كما قام حسين رشدي باشا ، رئيس الوزراء وقتئذبمطالبة بريطانيا ـ رسميا ـ بالاعتراف باستقلال البلاد .

وفي ٣ من ديسمبر سنة ١٩١٨ طلب سعد زغلول أن يصرح له ولزملائه من أعضاء الوفد الذي شكل للمطالبة باستقلال مصر بالسفر الى لندن لعرض قضية مصر في بريطانيا ، ولكن المندوب السامي البريطاني لم يستجب الى مطلب سعد زغلول .

وفي ٤ من ديسمبر سنة ١٩١٨ ، بعث سعد زغلول الى رئيس وزراء بريطانيا العظمى برقية احتج فيها على ما اتخذه المندوب السامي من اجراءات ضده وقال في البرقية ان السياسة البريطانية في مصر ، مخالفة لشعارات الحرية والعدالة ... وأن مصر ـ وهي تعرف حقوقها وتدرك واجباتها ـ قد رأت أن تتولى بنفسها اظهار الرأى العام البريطاني على حقيقة الموقف في البلاد ، وتبدى له مطالبها القومية أملا في أن يعينها على تحقيقها .



كما وجه سعد زغلول في ٦ من ديسمبر سنة ١٩١٨ الى معتمدي الدول الاجنبية في مصر بيانا استهله بالاشارة الى تلك التصريحات التي دأب ساسة الحلفاء على اذاعتها واعلانها طوال سنوات الحرب والى تأكيداتهم التي يدلون بها من حين لآخر بعد أن توقفت رحى الحرب ليعلنوا وقوفهم الى جانب الحرية والعدالة وحماية الحقوق ، وقال البيان انه اعتمادا على تلك التصريحات ، واعتمادا على الروح الجديدة التي تشير الى اتجاه الديمقراطيات في العالم صوب مثل عليا من اجل احلال العدل والسلام ، ولأن خوض جمهورية الولايات المتحدة هذا المعترك العالمي ،

يؤكد أن العالم بدأ عهدا جديدا تبور فيه الى الابد صفقة المطامع الشخصية، ولا يمكن أن تفرض فيه القوة والجبروت سلطة لانسان على انسان ، فان مصر، لهذا كله ، وهي تعرف واجباتها ويهمها مصلحتها ــ قد رأت بمجرد عقد الهدنة الاخيرة ، أن تجهر بحقها في الحياة الحرة الخالصة من الاغلال والقيود ولا سيما بعد أن التزمت مصر جانب الهدوء والسكينة طيلة سنى الحرب •

وألمع البيان الى الوكالة التي حصل عليها موقعوه من الامة على مختلف طبقاتها من أجل أن يطالبوا بحقها في الحرية والاستقلال وينوبوا عنها في ذلك ، لا سيما وانه من بين أعضاء الوفد الموكل عن مصر من كانوا بمثابة وكلاء عن الشعب بحكم مناصبهم كاعضاء في الهيئات النيابية والمجالس التشريعية والبلدية ••

ثم استنكر البيان معاملة السلطات البريطانية في مصر للوفد الذي كان يزمع السفر الى أوربا لعرض مطالب مصر، وتصدى المندوب السامي لهم ومنعهم من مغادرة البلاد الى الخارج واعتباره هذا التوكيل عملا من أعمال الشغب وأضاف البيان أن السلطات البريطانية منعت تداول وارسال هذه التوكيلات للوفد ، وصادرت ما كان منها تحت يد اعضائه ••• وقال ان المصريين قد شعروا من هذه الاجراءات بأنهم قد اندفعوا الى جانب المبالغة حينما تفاءلوا بتصريحات الغرب ووعوده للشعوب المغلوبة على أمرها مما لا يتفق اطلاقا والاجراءات التي اتخذت أخيرا ضد الأمة المصرية والتي لم يسلم من أذاها الوزراء المصريون أنفسهم •

واختتم البيان بالاحتجاج لدى الدول الصديقة التي يهمها أمر مصر ، على المعاملة التي لقيها أعضاء الوفد المصري ، كما سجل احتجاجهم ــ سلفا ــ على أي قرار يتخذ بشأن مستقبل مصر دون الحصول على رأي الأمة المصرية جميعا فيه •

***

وتوالى المجهود السياسي للمصريين ، وكانت أمريكا معقد أملهم

نظرا لما كان مفهوما عنها ـ آنئذ ـ من الميل لاقرار السلم على قواعد من العدالة ، التى أعلنتها وثيقة ولسن ومن أجل هذا ، فقد عاد الوفــــد المصرى فوجه فى الرابع عشر من ديسمبر رسالة الى الرئيس « ولسن » رئيس الولايات المتحدة الذى كان وقتئذ فى فرنسا ، شرح فيها مبلغ التفاؤل الذى تشعر به مصر بسبب وجوده فى مؤتمر الصلح ، وأشــار الى ثقة مصر فى عدالة الولايات المتحــــدة وميلها للاخذ بيـــد الشعوب الصغيرة وانصافها بحقها فى تقرير مصيرها ..

ثم عرضت الرسالة الى اقدام السلطات البريطانية فى مصر على منع اعضاء الوفد الموكل عن الامة ، من السفر الى أوروبا لعرض قضية مصر على الرأى العام كما شرحت الرسالة ما تتعرض له هذه القضــــية من الاحكام التى تصدر على غير أساس من الحجج والادلة الصحيحة الكافية وأشارت الى أن تصرفات السلطات البريطانية على هذا النحو فيها حيلولة دون رغبة الولايات المتحدة التى أقرها عليها الحلفــــاء فى ترك مصير الشعوب للشعوب ذاتها تقرره كيفما شاءت .

ثم قالت الرسالة ، ان السلطات البريطانية قد طلبت الى الوفــــد المصرى أن يبدى اقتراحات مكتوبة بصدد ادارة مصر مشترطة على الوفد أن تكون الاقتراحات داخــــل نطاق الحماية التى فرضـــتها بريطانيا ووصفت الرسالة ، هـــذا الطلب البريطـــانى بأنه تكليف بالمستحيل ووصفت هذه الحماية بأنها عمل من أعمال الحرب ، بل يناقض أيضــا حقوقهم التى حصلوا عليها من تركيا من زمن بعيد .

ثم اختتم أعضاء الوفد رسالتهم ، معلنين باسم مصر ، احتجــــاجهم الشديد ضد كل اعتداء يقع على حقوق مصر واستقلالها ، راجين ، أن يهيىء « ولسن » الفرصـــــة لمصر كى تسمع صوتها ، وتبــــدى آمالها الشرعية ..

***

وقد أعلنت مصر وقتئذ ، وجهة نظـــــرها فى مستقبلها السياسى

ومطلبها في هذا الصدد ، فأكدت حقها فى الاستقلال التام باعتبار ذلك الحق الطبيعى للامم ، ولأن مصر سفكت من أجله دم أبنائها ، ولأنها تخلصت من السيادة التركية الاسمية عليها بعد أن انتهت الحرب الى عجز تركيا عن التمسك بهذه السيادة ، ولأن الوقت قد حان لتعلن استقلالها التام ...

ولم ينس الوفدالمصرى أن يطمئن الاجانب على مصالحهم فى البلاد ويؤكد لهم عدم المساس بهذه المصالح نتيجة لاستقلال مصر ، فأعلن أن الامتيازات الاجنبية ستحترم وقال ، انه وان كان قد ظهر عمليا - أن بعض هذه الامتيازات يحسن تعديلها حسبما تقتضيه الحال ، الا أن مصر لن تجرى هذا التعديل قبل عرضه وبشرط أن يكون ضروريا لتطور البلاد كافلا فى ذات الوقت مصلحة الاجانب ، وانها لن تنسى فى ذلك أن تحتفظ بسعة صدرها ، وبروح المجاملة للاجانب . واستطرد البيان فى صدد تأمين الاجانب على مصالحهم فقال : ان مصر تتعهدأن تبحث مشروع نظام للمراقبة المالية لا يقل من حيث أهميته للدول الاجنبية عما كان متبعا فى هذا الشأن ، قبل اتفاقية عام ١٩٠٤ ، وسيكون أهم عنصر فى هذا النظام هو صندوق الدين العمومى .

وأخيرا أكد البيان استعداد مصر لقبول كل ما تراه الدول كفيلا بالمحافظة على حياد قناة السويس وأبدى رغبتها فى أن تضع استقلالها تحت ضمان عصبة الامم ، وأن تشترك فى هذه المنظمة لتعمل بكل ما لديها من الوسائل من أجل مبادىء الحرية والعدالة .

***

وهكذا نرى كيف أن الوفد المصرى ، قد هبط بمطلبه الى الحد الذى لا يرقى به الى مستوى الاستقلال التام ومع هذا كله فلم ترض بريطانيا ، ولم تأذن لأعضاء الوفد بالسفر الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ... مما حمله على أن يعود فى ١١ من يناير سنة ١٩١٩ فيرسل الى المسيو « كليمنصو » رئيس مؤتمر الصلح ، برقية استنجد فيها بالمؤتمر من أجل أن يفسح السبيل أمام الوفد المصرى

ليسمعه كلمة مصر ورغبتها فى تقرير مصيرها ، واستنجد « بكليمنصو » باعتباره ممثل فرنسا التى أخذت نفسها بالدفاع عن الحرية والعدالة بين الشعوب ، وشكا مما اتخذته السلطات البريطانية بصدد منع أعضاء الوفد من السفر الى أوروبا لعرض قضية البلاد ، وقالت البرقية ان تقرير مصير شعب دون ان تسمع اقواله ، ودون أن يبدى رغبته ، يعتبر أمرا مناقضا لما اتفق عليه الحلفاء ذاتهم فى هذا الشأن .

ثم خاطب الوفد المصرى « كليمنصو » فى ختام هذه البرقية فقال باسم العدل المجرد عن الهوى وباسم الانسانية نناديك من وراء البحار كى لاتتخذ من سكوتنا الذى أكرهنا عليه والذى ماهو الا نتيجة لسجننا داخل حدود بلادنا ، دليلا على رضانا بسيادة الغير علينا ، ونناشدك الا تسمح بتحديد مصيرنا دون ان تسمع اقوالنا .

***

.... وفى الثانى عشر من يناير سنة ١٩١٩ عاد رئيس الوفد المصرى فأرسل كتابا الى المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا استهله بتذكير رئيس الوزراء ببرقية سابقة أرسلت اليه قبل شهر ، وتضمنت الشكووى من تعسف رجاله فى مصر ومصادرتهم للحرية الشخصية فى البلاد ..

ثم كرر رئيس الوفد فى كتابه هذا ـ الشكوى نفسها وقال : ان الامة المصرية لم تزل حتى اليوم ، من أكبر وزير الى اصغر فلاح ، محبوسة داخل حدود مصر دون أن يسمح لواحد منها بالخروج من هذا الحصار الشديد ..

واشار الكتاب الى تنكر بريطانيا لمصر فور عقد الهدنة وبعد ان انتفعت برجالها وبأموالها اثناء الحرب ، مما كان له اكبر الاثر فى انتصار الحلفاء فى الشرق .. واستشهد على ذلك بالتصريحات التى كان قد أدلى بها « لويد جورج » ، فى شتى المناسبات ....

واستطرد سعد زغلول ، فقال فى كتابه ـ انه اذا كان لا يجد فدالة

فى مجرد حرية السفر والتنقل ، فأولى ألا يكون هناك أى أمل لعدل فيما هو أخطر وأعظم من الحرية الشخصية ، فى الحرية السياسية للبلاد

« وأكد الكتاب ان الحماية التى فرضت على مصر، كان مفهوما انها مجرد اجراء وقتى استلزمته ضرورة الحرب وينتهى بانتهائها ، كما انها فرضت على البلاد فرضا ، وبدون اتفاق بين الامة المصرية وبريطانيا ، وتساءل رئيس الوفد عما اذا كان الشعب البريطانى يعلم شيئا عن سجن ثلاثة عشر مليونا من المصريين داخل حدود بلادهم ، وعما اذا كانت تقاليد الشعب البريطانى تسمح بهذا التصرف ، أو تغتفره لمن صدر عنه من رجالها ..

واختتم سعد زغلول كتابه ، مؤكدا لرئيس الوزراء أن بريطانيا بهذا العسف ـ لن تكسب قلوب المصريين ... مكررا ثقة المصريين فى ان الشعب البريطانى لايعلم شيئا عن هذا السجن المفروض على الامة المصرية كلها ، وانه لو علم لغضب لهذا التصرف ..

***

ومن أجل أن يحمل بريطانيا على السماح للوفد المصرى بالسفر الى باريس لعرض قضية البلاد ، عاد الوفد المصرى فأرسل احتجاجا للرئيس ولسن فى أول فبراير سنة ١٩١٩ .

وهكذا ظل الوفد يرسل الاحتجاجات تلو الاحتجاجات الى أن سمح لاعضائه بالسفر الى باريس ، ولكن لم يسمح لهم بعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح .. لم يسمح لمصر أن ترفع صوتها فى المؤتمر، على الرغم من الضرورة الملحة التى كانت تحتم على أعضاء المؤتمر أن يستمعوا الى كلمة مصر .. كانت هذه الضرورة تقوم على أسباب قانونية .. تستند الى بطلان هذه الحماية التى فرضتها بريطانيا على مصر فى سنة ١٩١٤ ، وكان فرضها من جانب واحد .. وتستند الى سقوط السيادة العثمانية عن مصر بالغاء كافة ما وقع بين تركيا والحلفاء من معاهدات ، نتيجة تنازل تركيا عن مصر وكانت ضرورة قانونية مستمدة من نصوص معاهدة الصلح التى

اعترفت بالغاء بعض الاتفاقيات التى كان قد تم عقدها فى الفترة السابقة على فرض الحماية على مصر ، ومن بينها اتفاقية تنظيم صندوق الدين ، والاتفاقية الخاصة بوضع رعايا الاعداء وقبول المانيا وحلفائها أن تحل الحكومة البريطانية محل سلطان تركيا فى الحقوق المستمدة من تطبيق اتفاقية القسطنطينية الموقعة فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٨ لتنظيم الملاحة فى قناة السويس وما قضت به معاهدة فرساى من نقل حقوق واموال الرعايا الاعداء الى الحكومة المصرية ، ثم ما قضت به المادة السابعة عشر من معاهدة لوزان من تنازل تركيا عن كافة ما لها من حقوق فى مصر والسودان اعتبارا من ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٤

أما حق مصر - من الناحية السياسية - فى عرض قضيتها على المؤتمر فان مصر كانت تستند فيه الى كافة تعهدات بريطانيا منذ احتلالها الى ان تم توقيع معاهدة الصلح ... تلك التصريحات التى اعترفت فيها بريطانيا بحق مصر فى الحرية والاستقلال،واعترفت بأن وجود قواتها فيها وجود مؤقت ...

... ومن اجل هذا الحق الواضح ، فان مصر كانت على استعداد للجهاد والتضحية بالنفس والمال من أجل استقلالها وحريتها كانت مصر تغلى كالمرجل حينما وقعت معاهدة الصلح فى سنة ١٩١٩ التىتعتبر هذا الطلب البريطانى بأنه تكليف بالمستحيل ، ووصفت هذه الحماية بانها نهاية المرحلة الثانية من مراحل علاقة الغرب بالشرق .. تلك المرحلة التى وقف فيها الاستعمار أمام الحركات الوطنية فى البلاد التى تم احتلالها ... وقف الاستعمار يناضل الحركات الوطنية ، لا استنادا منه الى حق الغزو والعدوان ، بل استنادا الى أوضاع جديدة قررتها معاهدة الصلح أهدرت بها حقوق هذه الشعوب المكافحة المجاهدة،بعد أن غررت بها عهود ووعود الحلفاء طوال سنوات الحرب العالمية الاولى ... وبات لزاما على هذه البلاد العربيةوالاسلامية أن تواجه الاستعمار الغربى وجها لوجه ، تواجه مختلف أساليبه العديدة ووسائله المتنوعة .

وسنفصل فى المرحلة الثالثة من مؤلفنا تلك الوسائل والاساليب

ونتحدث عن شتى وجوه هذه السياسة الأستعمارية كما نتحدث عن الاساليب التى كان يتعين على العرب أجمعين أن يواجهوا بها الاستعمار فى سائر انحاء بلادهم ، ونبرز الاسس والعناصر والاساليب التى لجأ اليها الاستعمار للقضاء على الحركات الوطنية ، وكيف كان الاستعمار يتطورفى ذلك ، وفقا للظروف والاحوال ، ومدى تقدم الوعى الوطنى بين سائر الشعوب وكيف أن خطط الاستعمار وأساليبه وحججه ومزاعمه كل هذه، لم تختلف من حيث الغاية والهدف ، وانما كانت تتطور وتتشكل وفقا للظروف التى واجهها الاستعمار .

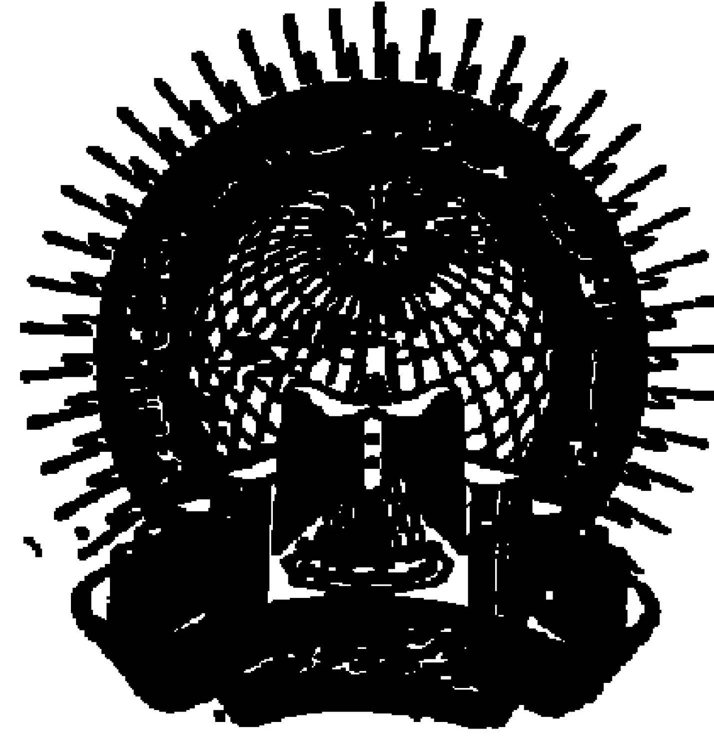
تم بعون الله

الجزء الثانى فى عدوان الغرب

جميع المراجع ستذكر تفصيلا فى الجزء الاخير من هذا المؤلف

فهرس

صفحة



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٣٩ الثمن ٥٠ قرش